الموسوعة التاريخية الحديثة الموسوعة التاريخية الحديثة

تاريخ القرن التاسع عشر في أوربة

تأليف وتعريب

نور الدين حاطوم

دار الفكر

بسم الله الرحمن الرحيم

تاريخ
القرن التاسع عشر
في أوربة

تاريخ القرن التاسع عشر في أوربة

تأليف وتعريب
نور الدين حاطوم

دار الفكر

الكتاب ٧٢٣
الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ = ١٩٨٦ م

سورية - دمشق - شارع سعد الله الجابري - ص.ب (٩٦٢) - س.ت ٢٧٥٤
هاتف ٢١١٠٤١ ، ٢١١١٦٦ - برقياً : فكر - تلكس Tx FKR 411745 Sy

الإهداء

إلى من أحب

المقدمة

أوربة والعالم في فاتحة القرن السابع عشر

أوربة

التجزئة السياسية

في العام ١٦٠٠ م ، كان في أوربة ، عدا الدول القليلة الأهمية ، دولتان كبريان : البيت الفرنسي ، والبيت النمساوي . وقد انقسم هذا البيت إلى فرعين في العام ١٥٥٦ م . وفي شرقي أوربة ، كانت الأمبراطورية العثمانية تمتد على قسم من أوربة ، وتثقل على الدول المسيحية فيها بتهديد دائم .

الدولتان الكبريان

فرنسا

ما كادت فرنسا تخرج من أزمة الحروب الدينية الطويلة الأمد ، إلا ونهضت من عثارها بفضل سياسة الملك هنري الرابع الحكيمة والنشيطة . فقد كانت أكثر بلاد أوربة سكاناً وثراءً . وحاول هنري الرابع ، بصورة موازية للإعمار المادي الذي أنجزه ، أن يعيد السلام الديني بتخويل البروتستانت نظام التسامح بموجب براءة نانت الشهيرة ، في عام ١٥٩٨ م ، ويثبت السلطة الملكية حيال الإكليروس ، وكبار الدولة والبرلمانيين . ففي شباط ١٥٩٩ م ، دعا أعضاء برلمان باريس إلى قصر اللوفر ، ليفرض عليهم تسجيل براءة نانت ، وخطب فيهم قائلاً :

« تجب عليكم طاعتي - عندما لا يكون أي اعتبار غير صفتي الملكية ، والواجب الذي لي على رعاياي وبخاصةٍ عليكم باعتباركم أعضاء برلماني . لقد أرجعت بعضهم إلى دورهم التي طردوا منها ، ورددت آخرين إلى الإيمان الذي لا يملكونه . وإذا كانت الطاعة واجبة لأسلافي ، فهي واجبة لي أيضاً وبأكثر بذلاً وتفانياً ، لأنني وطدت الدولة . وقد اختارني الله لأكون على المملكة التي هي مملكتي بالوراثة والكسب . وأنا الآن ملك ، وأخاطبكم ملكاً . أريد أن أكون مطاعاً . وفي الحقيقة ، إن رجال العدالة ذراعي اليمنى ، وإذا أصيبت الذراع اليمنى بالفساد ، وجب على اليسرى أن تقطعها . أعطوا رجائي مالم تشاؤوا إعطاءه لتهديدي . ليس لكم ما تطلبون مني ، واعملوا ما آمركم به وبأسرع مما أطلبه منكم » .

وفي الخارج ، أجبر الملك الاسبان على السلام ، في معاهدة فرفن ١٥٩٨ م ، وعزز حدود الشرق بتخلي دوق سافوا عن أقاليم : البريسّ ، وبوجيه ، وبلاد جكس ، بمعاهدة ليون ، ١٦٠١ م . وساعدته دبلوماسيته اليقظة ، ونواة الجيش الدائم ، الذي أقامه ، أن يلعب دوراً من الصعيد الأول في أوربة .

ومع ذلك ، فإن بعض هذه النتائج كانت مرتبطة بهيبة هنري الرابع الشخصية . ولكن ، بالرغم من الجهود التي بذلها ، ما زالت التهديدات قائمة في داخل المملكة كما هي على حدودها . إن وراثة الوظائف التي كرسها مرسوم ١٦٠٤ م بنظام (البوليت)[1] ، زادت في استقلال الموظفين ، ويأتي في الصف الأول منهم البرلمانيون الذين يحتكرون وظائفهم القضائية ، وحق تسجيل الأوامر والبراءات الملكية . ولم يخضع أعضاء الطبقة النبيلة العليا ، من نبلاء الدم والكبار إلا ظاهراً وتحت الإكراه والقسر . فقد كانوا متمسكين ببعض التقاليد الإقطاعية ،

(١) البوليت LA Paulette رسم سنوي يدفعه موظفو العدالة والمالية لملك فرنسا لتأمين نقل وظائفهم إلى أبنائهم .

ومعتمدين على مجموعة واسعة من الأنصار ، من نبلاء وغير نبلاء ، مستعدين كل الاستعداد للإفادة من أقل ضعف للسلطة الملكية . وبقي البروتستانت على الدفاع يستخلصون جميع الفوائد السياسية والعسكرية التي تخولهم إياها براءة (نانت) ، لينظموا أنفسهم بشكل قوي ومستقل . وأخيراً ، إن ثقل الضرائب والخسائر التي منيت بها بعض الحصانات (الاستثناءات) الإقليمية أو البلدية أثارت الاستياء ، وتسببت هنا وهناك بثورات شعبية . وأوشكت وفاة هنري الرابع قبل أوانها أن تطلق العنان لكل هذه القوى الخارجة على السلطة المركزية .

وإلى هذه التهديدات الداخلية ، تضاف قضية عدم أمن الحدود . ففي الشمال والشمال ـ الشرقي ، كانت المملكة مهددة بخاصة تجاه البلاد ـ المنخفضة والفرانش ـ كونته الاسبانية . وما من عائق طبيعي يحمي البلاد من غزو محتمل الوقوع ؛ لأن بيكارديا ، والشامبانيا ، والبورغونيا أقاليم حدود ، ونهر السّوم والمدن التي تحاذيه تدافع بشكل سيء عن باريس القريبة تماماً بنهر الواز ؛ وديجون تحت رحمة غزو اسباني بوادي الاوش . وبالرغم من احتلال الأبرشيات الثلاث : متز ، تول ، فردن ، كان الأمن من جهة اللورين ، أرض الأمبراطورية الجرمانية ، متعلقاً بخاصة بمزاج دوق لورين العَجِل للتحالف مع أعداء فرنسا ، في الداخل والخارج . وفي الجنوب ـ الشرقي ، كانت ليون ، منذ ١٦٠١ م ، محمية بشكل أفضل مما في السابق ؛ ومع ذلك ، فإن السياسة المتقلبة لدوق سافوا ، الذي يقبض على الشعاب الألبية ، من بحيرة جونيف إلى نيس ، تؤلف قلقاً دائماً . وأخيراً ، في الجنوب ، كان سهل روسيّون ، على السفح الفرنسي لجبال البيرنيه ، أرضاً اسبانية . ولذا كانت الحدود من هذه الجهة عرضة للهجوم بصورة خاصة . وعدم الأمن هذا كان كذلك أكثر خطورة بوجود التهديد الدائم الذي يثقل به البيت النمساوي على المملكة ، بالرغم من انقسامه إلى فرعين متميزين : فرع آل

هـابسبورغ في مـدريـد ، وهو الفرع البكر ؛ وفرع آل هـابسبـورغ فينّـا ، الفرع الثاني .

آل هابسبورغ في مدريد

وفي الحقيقة ، إن قدرة آل هابسبورغ مدريـد الأرضيـة ، عنـد وفـاة فيليب الثاني ، الذي خلفه ابنه فيليب الثالث ، عام ١٥٩٨ م ، ظلت عظيمـة . فقـد كان ملك اسبانيا سيد شبه جزيرة إيبريا كلها منـذ ضم البرتغـال في ١٥٨٠ م ، وسيطر في الـوقت نفسـه على الحـوض الغربي للبحر المتـوسـط بفضـل ممتلكاتـه في **جـزر :** (الباليئار ، سردينيا ، صقلية) **وفي إيطـاليـا :** مملكـة نـابولي ، مواني توسكانـا ، دوقية ميلانو ، دون حساب بعض المواقع على ساحل أفريقية : طنجـة ، سبتـة ، مليلـة ، وهران . ومن وراثتـه البورغونيـة حـافـظ على الفرانش ـ كونتـه والجزء الجنـوبي من البـلاد ـ المنخفضـة : الفـلانـدر ، برابـان ، هينـوت ، آرتـوا ، كامبريزي ، لوكسمبورغ . وأخيراً ، يملك ، خارج أوربة ، أمبراطورية استعمارية واسعـة من أصل **اسبـاني :** (أمريكا الوسطى والجنوبيـة ، الفيليبين) ومن أصـل **برتغـالي :** (البرازيـل ، ووكالات ومؤسسـات تجـاريـة على سـواحـل أفريقيـة وآسيا) .

وللـدفـاع عن هـذه الممتلكات الـواسعـة ، كان تحت تصرف اسبـانيـا قـدرة عسكريـة هـامـة : فقـد كان الجيش ، بمشـاة الترسيوس[1] الشهيرة ، والأسطول ، الذي أعيد تعميره بعد كارثة **الارمـادا** ، يعتبران دومـاً الأولين في أوربـة ، بـالرغم من الإخفاقات التي منيا بها أمام الأقـاليم ـ المتحـدة بخـاصـة . وعـدا ذلـك ، جهز فيليب الثاني المملكة ببنية إدارية صلبة ؛ وأصبحت مدريد العاصمـة السيـاسيـة ، ومن ثم المقام العـادي للبلاط . وقـد عرفت الحضـارة الاسبـانيـة بفضل رسـاميهـا

---

(١) الترسيوس TERCIOS

ومهندسيها المعماريين ، وكتابها ، ومسرحييها ، ولاهوتييها وصوفييها « عصرها الذهبي » وأفادت نموذجاً لقسم من أوربة . وقد وضعت هذه القدرة وهذا الإشعاع في خدمة الإيمان المسيحي حيث كان مهدداً في كل مكان .

ومع ذلك ، فقد كانت الملكية الاسبانية ، وراء هذه الواجهة البراقة ، تشكو ضعفاً خطيراً من فقدان الوحدة والتماسك يظهر بعواطف انفصالية لا في الممتلكات الخارجية : إيطاليا والبلاد ـ المنخفضة فحسب ، وإنما في داخل شبه الجزيرة : في البرتغال وفي كاتالونيا ؛ وضعفاً ديموغرافياً يزداد تفاقماً بالهجرة نحو المستعمرات ؛ وصعوبات نقدية ومالية ، بالرغم من فضة العالم الجديد ؛ وأفولاً في النشاط الاقتصادي . هذا فضلاً عن أن ثورة البلاد ـ المنخفضة والاعتراف الضمني لاستقلال الأقاليم ـ المتحدة في ١٦٠٩ م ، بهدنة الأثني عشر عاماً ، يدلان على الصعوبات التي عرفها ملك اسبانيا .

آل هابسبورغ في فينّا

لقد حقق آل هابسبورغ فينّا قدرتهم من أملاكهم الشخصية ، ومن المملكتين الانتخابيتين بوهيميا وهونغاريا ، ومن العظمة الأمبراطورية . وتضم الأملاك الشخصية ، أو الدول الوراثية ، ارشيدوقية النمسا ، ودوقيات شتيريا وكارانتيا ، وكارنيول ، وكونتية التيرول ، وأراضي بريسغو وسندغو (أو الزاس ـ العليا) . ومنذ ١٥٢٦ م ، تملك آل هابسبورغ ، بصفة انتخابية ، (بلاد تاج بوهيميا) : (بوهيميا ، مورافيا ، سيليزيا ، لوزاس) ، ومملكة هونغاريا ، ومن هذه الأخيرة ، الواقعة خارج الأمبراطورية ، لم يمسكوا في الواقع إلا جزءاً صغيراً ، يسمى هونغاريا الملكية ، وظل باقي البلاد ، مع العاصمة بودا ، في أيدي الأتراك . وهذا الوضع يجعل من آل هابسبورغ حارساً لأوربة المسيحية أمام الخطر الإسلامي . وأخيراً . ومنذ ١٤٣٧ م ، أصبح عميد البيت النمساوي ينتخب تقليدياً أمبراطوراً كلما شغر تاج الأمبراطورية الرومانية الجرمانية المقدسة .

وهذه الأمبراطورية ، التي تذكر حدودها بالعظمة الماضية ، تشمل : ألمانيا ، النمسا ، بوهيميا وتوابعها ، وأعظم جزء من لوتارنجيا القديمة : البلاد ـ المنخفضة ، اللورين ، فرانش ـ كونته ، الألزاس ، السافوا وحتى نظرياً الكانتونات السويسرية ، وجزءاً عظيماً من إيطاليا الشمالية . ولكن هذا المجموع كله مجزء إلى مئات من الدول يعتبر أمراؤها أنفسهم سادةً عملياً ، ويؤلفون ثلاث هيئات أو جماعات :

الأولى تضم سبعة ناخبين ينتخبون في فرنكفورت (ملك الرومانيين) أي الأمبراطور في المستقبل : وهم الأمراء ـ المطارنة الثلاثة في : تريف ، ومايتس وكولونيا ، وملك بوهيميا ، ويؤمن هذا صوتاً أكيداً لآل هابسبورغ ، وكونت بالاتينا الراين أي : بالاتينا العليا والدنيا ، ودوق ساكس ومارغراف براندبورغ .

الثانية : تضم ٣٠٠ امارة كنسية وعلمانية ؛ واسقفيات لييج وفورتزبورغ ، ومطرانية سالزبورغ . وكانت دوقيتا بافاريا وفورتامبرغ أهم من غيرهما .

والهيئة **الثالثة** والأخيرة تضم نحو خمسين مدينة حرة ، وبخاصة هامبورغ ، بريمن ، ستراسبورغ ، نورامبرغ ، اوغسبورغ . ويؤلف ممثلو هذه الهيئات الثلاث الدياط الجرماني ، ويدعوه الأمبراطور إلى الانعقاد . ولهذا المجلس وحده الحق في اتخاذ القرارات المتعلقة بكامل الأمبراطورية : كالضرائب ، والمعاهدات ، وإعلان الحرب ، وإقامة الجيوش ، إلخ ... وفي الحقيقة ، إن المنازعات التي كانت تقوم بين أعضاء هذا المجلس جعلته يمنى بالعجز غالباً .

وهكذا ، كانت حالة آل هابسبورغ فينا خاصة جداً في أوربة . ولاشك في أن دولها الوراثية ومملكتيها تؤلف مجموعة من قطعة واحدة تقريباً أو شبه واسعة ومأهولة بالسكان كمملكة فرنسا ، ولكن دون أن يكون لها غناها وتماسكها

وتلاحمها : فقد كانت فيها الشعوب واللغات والأديان والنظم والمؤسسات متعددة ومختلفة الألوان بصورة عميقة . لقد كان العاهل ألمانياً ، ورعاياه سلافاً وهونغاريين . ويتمتع ، كأمبراطور ، بجاه عظيم ، ولكن انحطاط النظم الأمبراطورية ، وصعود بعض الدول الألمانية : براندبورغ ، ساكس ، بافاريا ، وصعوبات الوضع الديني ردت إلى قليل سلطته الواقعية في الأمبراطورية . كما أن منازعات الخلافة ، التي طبعت آخر حكم الأمبراطور رودولف الثاني (١٥٧٦ ـ ١٦١٢ م) وجعلت هذا الأمبراطور يقاوم إخوته ، وبخاصة ماتياس ، وابن عمه فرديناند ، دوق شتيريا ، عقدت القضية أيضاً .

وبالرغم من المشاكل النمساوية والامارات الأولى لانحطاط السلطة الاسبانية ، ظل الاتحاد وثيقاً ، بين فينّا ومدريد ، برغم بعض اللين في بداية حكم فيليب الثالث ، وجعل البيت النمساوي رهيباً مهاباً : فقد ربطت عقود الزواج العديدة فرعي الأسرة . وساعدت الاتصالات على سياسة أوربية مشتركة ، وبخاصة للدفاع عن الكاثوليكية . يضاف إلى ذلك أن الأملاك الاسبانية والنمساوية كانت في بعض النقاط متاخمة كما في فرانش ـ كونته والألزاس ، أو متجاورة ، كما في ميلانيا ، منطقة ميلانو ، والتيرول ، وكانت الطرق العسكرية الاسبانية نحو البلاد ـ المنخفضة الثائرة تمر من الأرض النمساوية أو الألمانية ، فيما وراء ميلانيا وجبال الألب .

الدول الثانوية

وبعد هاتين الدولتين الكبريين ، تنقسم الدول الأخرى في أوربة المسيحية إلى ثلاث كتل : سويسرا والدول الإيطالية ؛ الدول البحرية والبروتستانتية في الشمال ، والدول الشرقية .

سويسرا وإيطاليا ـ لم تكن سويسرا وإيطاليا ، في ذلك الحين ، غير تعبيرين جغرافيين يدلان على بلاد مجزأة سياسياً بصورة عميقة . كانت سويسرا

تضم بصورة أساسية اتحاداً كونفدرالياً من ثلاثة عشر كانتوناً ، بعضها كاثوليكية مثل لوسرن وفريبورغ ؛ والأخرى بروتستانتية مثل زوريخ ، وبال (بازيل) وبرن . وبالرغم من أن هذه الكانتونات ظلت تؤلف نظرياً جزءاً من الأمبراطورية المقدسة ، حتى ١٦٤٨ م ، إلا أنها كانت في الواقع دولاً مستقلة : لقد كان لكل منها قوانينها ، وقضاتها ، ونقدها (عملتها) . واقتصر تنظيمها الاتحادي على دياط دون انعقاد دائم أو دوري . فقد كانت أسقفية بال ، وجمهوريات جونيف ، وملهوز ، والفاليه ، والرابطة الغريزية أو الغريزونية ، التي ترتبط بها الفالتيلين أو الوادي الأعلى لنهر الآدّا ، تقيم علاقات وثيقة مع الكانتونات السويسرية وحليفة لها . وكان الموقع الجغرافي لسويسرا . الذي يسيطر على الشعاب الألبية الهامة بين منطقة ميلانيا الاسبانية والأمبراطورية ، بالنسبة للكانتونات ، مصدراً للمكاسب والمصاعب معاً . فقد كانت تحاول أن تنجو من هذه المصاعب بالتذكير بحياد الواقع : ففي ١٦٠٢ م جددت مع فرنسا « السلام الدائم » لعام ١٥١٥ م ، وفي ١٦١١ م أبرمت « الاتحاد الدائم » مع البيت النساوي . بيد أنها ظلت تجهز أوربة كلها بالجنود المرتزقة الشهيرة التي اعتادت الحرب والقتال .

وبالرغم من أن الأمبراطور كانت له بعض الحقوق ، النظرية تماماً ، في شمال شبه الجزيرة ، فقد كان نفوذ ملك اسبانيا مسيطراً في إيطاليا ، إذ لم يكن سيد صقلية ومملكة نابولي ودوقية ميلانو فحسب ، وإنما كان يفرض أيضاً ، وبصورة علنية كثيراً أو قليلاً ، وصايته على معظم الدول الإيطالية الأخرى : ففي روما ، عاصمة دول الكنيسة ، كان الكرادلة الاسبان أو التابعون لاسبانيا يلعبون دوراً من الصعيد الأول في داخل هيئة الكرادلة المقدسة . وكان على دوقية توسكانا الكبرى ، التي كانت بأيدي آل الميدتشي ، أن تتسامح بوجود حاميات اسبانية على سواحلها في بيومبينو واوربيتللو وجزيرة ألبا ، ولا تتمتع ، في الواقع ، إلا باستقلال ضعيف .

وكانت جمهورية جنوة ، التي تتبعها كورسيكا ، على طريق اسبانيا نحو ميلانيا ، وعليها أن تقبل برسو السفن الاسبانية من حربية وتجارية في موانيها . أما الدوقيات الصغيرة في إيطاليا الشمالية ، مثل مانتو ، التي ترتبط بها مونفرّا ، وبارما ، ومودينا ، فقد كانت تحاول أن تجد في التحالف مع فرنسا ثقلاً يعادل النفوذ الاسباني . إلا أن هنالك دولتين استطاعتا وحدهما الحفاظ تقريباً على استقلالها وهما : البندقية والسافوا .

كانت جمهورية البندقية ، التي ظلت ممتلكاتها الأرضية عظيمة : في جزء من إيطاليا الشمالية والشاطئ الدالماسي والجزر الأيونية ، وكريت ، تتجه بخاصة شطر البحر الأدرياتيك والبحر المتوسط الشرقي .

وكان دوق السافوا بأراضيه القائمة على سفحي جبال الألب ، في السافوا والبيمونت ونيس ، يتجه تارة شطر باريس ، وتارة نحو مدريد ، وكان على استعداد لكسب المال ببيع تحالفه بصورة مربحة لمن يريد .

وفي الحقيقة كانت إيطاليا مجزأة سياسياً ، ورهاناً ممكناً في نزاع محتمل الوقوع بين الدول الكبرى ، وقد سلبتها الدول الأطلسية تفوقها الاقتصادي القديم . ومع ذلك ظلت « أم الآداب والفنون » وحافظت في أوربة كلها على سحرها وفتنتها ونفوذها الواسع الذي زاده نمواً أيضاًفي البلاد الكاثوليكية ، أن روما كانت للبابوية مقراً ومقاماً .

انكلترا والأقاليم ـ المتحدة والدانيارك والسويد

في شمال القارة تؤلف انكلترا والأقاليم ـ المتحدة والدانيارك والسويد كتلة منفردة بين الدول الثانوية . ولم تكن كل واحدة منها لتضم غير بضعة ملايين من السكان . وكان هؤلاء بروتستانت من مذاهب مختلفة ، ونشاطهم متجهاً نحو البحر بخاصة .

في **انكلترا** ، أنهت وفاة الملكة اليزابت الأولى عام ١٦٠٣ م سلالـة آل تيودور . وقد حكمت الملكة اليزابت ، كأبيها هنري الثامن ، البلاد سيدة مطلقة محترمة ، في الظاهر ، الحريات الإنكليزية وحقوق البرلمان . وأكثر من ذلك أنها ثبتت تأسيس الأنغلكانية وشجعت توسع انكلترا الاقتصادي والبحري حتى أصبحت ، بـالرغم من قلة سكانها ، في عز نهوضها وازدهارها في مطلع القرن السابع عشر . وأخيراً ، لقـد أثرى الأدب الإنكليزي في عهدهـا بـأثر شكسبير ، المتوفى في ١٦١٦ م ، أعظم ممثل للمسرح الأليزابيتي . ومع ذلك ، فإن ثورة ايرلندة الطموحة لاستقلالها والمخلصة لكاثوليكيتها ، ظلت تهـدد المستقبل . ولم يكن للمملكـة وارث مبـاشر . ولـذلـك فإن جيمس السادس من آل ستوارت ، ملك إيكوسيا ، ابن ماريا ستوارت وسليل هنري السـابـع من آل تيـودور ، أصبـح ملكاً على إنكلترا ، في ١٦٠٣ م ، تحت اسم جمس الأول . ورغم ذلك ، لم تتحد المملكتان : وحافظت كل منها على حكومتهـا وبرلمانها ، تحت سلطة عاهل واحد .

جمهـوريـة الأقـاليم ـ المتحـدة ـ تضم هـذه الجمهـوريـة سبعـة أقـاليم في شمال البلاد ـ المنخفضة التي شكلت ، في ١٥٧٩ م **اتحاد اوترخت** للنضـال ضـد السيطرة الاسبانية . وفي ١٦٠٩ م أجبرت اسبانيا على توقيع هدنة اثني عشر عاماً كرست في الواقع استقلالها .

ومع ذلك فإن التنظيم السياسي لهذه الدولة الجديدة بقي ضعيفاً . فأمام هذه الأقاليم السبعة ، التي حافـظ كل واحـد منهـا على سيـادتـه ، ونظمـه ومؤسسـاتـه الخاصة ، كانت السلطة المركزية ضعيفة : وتتمثل بالمجلس العام[1] ومجلس الـدولـة حيث يعقد مندوبو الأقاليم جلساتهم ويتخذون القرارات الهامة بالإجمـاع . وشجع النهوض الاقتصادي والتجارة البحرية الكبرى بخاصة إقليمين : **زيلاندة** ، ولا سيا

---

(١) المجلس العام Les Etats - GÉNERAUX

هولندا ، حيث احتكرت السلطة اوليغاركيه (أقلية) بورجوازية ، فيما كانت الطبقة النبيلة المعوزة ، في الأقاليم الأخرى ، التي تسيطر فيها الحياة الريفية ، تعتمد على زبائنها من الفلاحين وتتحمل بعناء تفوق البورجوازية الهولاندية . وبالرغم من هذه القضايا الداخلية الخطيرة ، فقد استغلت الأقاليم - المتحدة إلى الحد الأقصى إغلاق ميناء انفرس وانتصارها على اسبانيا ، وأصبحت نحو ١٦٠٩ م أول دولة تجارية ومالية في أوربة .

الدانيارك - كانت البلاد الاسكاندينافية مقسمة بين المملكتين اللوثريتين : الدانيارك والسويد .

كانت **الدانيارك** تحتوي شبه الجزيرة الدانياركية : جوتلاند وشلزفيغ ، والجزر الدانياركية ، وتضم أيضاً إيسلاندة ، والنورفيج ، وسكانيا ، أي الطرف الجنوبي من السويد ، وجزر بورنهولم ، وغوتلاند ، وفي الأمبراطورية ، دوقية هولشتاين . وهكذا يسيطر ملك الدانيارك كريستيان الرابع (١٥٨٨ - ١٦٤٨ م) سيطرةً تامة على المضايق بين بحر الشمال والبالطيك ، ويؤمن لنفسه ، بفضل الرسوم التي تجبى على السوند ، في السينور ، وفي مدخل نهر الإلب ، الأساسي من موارده . ولكن هذه الحالة الممتازة ، التي تجعل من كوبنهاغن واحداً من أعظم مواني أوربة الشمالية ، كانت تثير أطماعاً ، ولاسيا من جانب الهولانديين ومدن الهانس . ومن جهة أخرى ، إن ملك الدانيارك ، باعتباره دوق هولشتاين ، كان أميراً من أمراء الأمبراطورية ويهتم عن كثب بكل ما يجري في ألمانيا الشمالية .

وكانت **السويد** تضم أيضاً فنلاندا وأستونيا ، وقد تحررت من السيطرة الدانياركية في ١٥٢٣ م على يد غوستاف فازا . وهي بلاد فقيرة ، ولكنها تملك مناجم هامة من الحديد والنحاس مستغلة بصورة جيدة جداً . ولذلك تتطلع ، فيما وراء البالطيك ، نحو القارة . ولكن كان عليها أن تحسب حساباً للدانيارك ،

التي لم تتخل عن كل أمل بالثأر ؛ ولبولونيا ، التي كان ملكها سيجيسموند الثالث من آل فازا ، وانتزع منه الحزب اللوثري تاج السويد لصالح عمه ؛ ولروسيا أخيراً . وقد وجد الملك شارل التاسع (١٦٠٤ ـ ١٦١١ م) نفسه خلال فترة في حرب مع جيرانه الثلاثة معاً . وعند وفاته ، ترك التاج إلى ابنه الشاب غوستاف ـ آدولف ، وكانت سنه سبعة عشر عاماً .

بولونيا ـ عرفت بولونيا في القرن السادس عشر ، وفي بداية القرن السابع عشر أيضاً ، أمجد دور في تاريخها . وكانت دولة واسعة مترامية الأطراف وبحدود غير واضحة المعالم من جهة الجنوب والشرق . وعدا عن بولونيا الكبرى والصغرى ، تضم الدولة البولونية دوقية ليتوانيا ـ الكبرى ، منذ اتحاد لوبْلَنْ في ١٥٦٩ م ، وليفونيا ، وكورلاند ، والقسم الأكبر من أوكرانيا مع كييف . وكانت بولونيا منفتحة بصورة عريضة على أوربة الغربية ، وتتغلغل فيها اتجاهات الأدب الإنساني الكبرى أي العودة إلى القديم الإغريقي والروماني ، والنهضة والإصلاح الديني ، وتصدر ، بواسطة نهر الفيستول وبميناء دانتزيغ ، أخشابها وحبوبها . وبذلك عرفت بولونيا ازدهاراً غير منازع . ولكن ضعفها يأتي من نظمها السياسية التي تمسك معاً بالملكية والجمهورية (« الملك وجمهورية بولونيا » ، كما يقال رسمياً في فرنسا) . وفي الواقع ، إذا كان لبولونيا ملك ، كما هي الحال في ١٦٠٠ م ، عندما كان سيجيسموند الثالث فازا (١٥٨٧ ـ ١٦٣٢ م) ، فقد انتخبت هذا الملك الطبقة النبيلة التي كانت تسيطر فيها أقلية من كبار الأمراء المالكين للأطيان ، من حكام أقاليم وماغنات ، على طبقة نبيلة ريفية صغيرة عديدة مشاغبة وهي : **الشلاختا** . وكان على الملك الجديد ، قبل أن يتوج ، أن يعترف ، وأحياناً أن يزيد بامتيازات هذه الطبقة النبيلة ، مسهماً بذلك في تخفيض سلطته الخاصة أيضاً . لقد كانت السلطة الحقيقية خاصة بالدياط والمجالس في كل إقليم ، أي الدياطينات . وكان الدياط والدياطينات

مشكلة من ممثلي الطبقة النبيلة الذين يحـاولون أن يقيموا ، قـاعـدة الإجمـاع مقـام قاعَـدة الأكثريـة ، بـالرغم من أن مثل هـذا التعـامل يخـاطر بـالحكم على المجالس بالفوضى والعجز . وهكذا لم تجعل الطبقة النبيلـة البولونيـة سلطـة الملـك وهميـة فحسب ، وإنما بدت عاجزة عن تنظيم حكومة أرستقراطية بصلابة .

الروسيـا ـ الروسيـا أو موسكـوفيـا تمتـد على السهـل الروسي كلـه من البحر الأبيض إلى بحر الخزر ، ومن حـدود بولونيـا إلى حـدود سيبريـا . أمـا نهرا الاوب والايرتيش فقـد تم الوصـول إليهما في آخر القرن السـادس عشر . لقـد كانت دولـة قارية أسـاسـاً ، دون منفـذ على البحر البـالطيـك أو على البحر الأسود ، وتتصل بصعوبـة مع بـاقي أوربـة ، بمينـاء أرخـانجلُسُـكُ . وبموت إيفـان الرابع الفظيع في ١٥٨٤ م ، أول أمير لموسكوفيا أخذ لقب القيصر ، بدأ « عصر الاضطرابـات » ، في روسيـا . وهو دور طويـل من المصـائب والفـوضى (١٥٨٤ ـ ١٦١٣ م) ، انتقلت فيـه السلطـة العليـا من يـد إلى يـد . وفي ١٥٩٨ م ، نودي ببوريس غودونوف ، الوصي على ابن ايفان الرابع ، قيصراً من قبل الشعب . وأقـام في موسكو بطريركاً مستقـلاً عن بطريرك القسطنطينيـة واستـدعى الفنـانين والفنيين من الغرب . ولكن مجاعة رهيبة مصحوبة بـالأوبئـة نزلت على روسيـا ، في ١٦٠١ م ، وسببت ثورات عديدة . وأفاد السويديون والبولونيون من هذه الحـالـة المحزنـة لاجتيـاح البـلاد غـداة مـوت بـوريس في ١٦٠٥ م . حتى ان حـاميـة بـولـونيـة أقـامت في الكرملن ، في ١٦١٠ م ، ولم تطرد منهـا إلا في ١٦١٢ م على يـد مليشـا قـوميـة جندت في مدن الشمال والشرق . وبعد بضعة أسـابيع ، في كانون الثـاني ١٦١٣ م . نادى مجلس كبير لممثلي روسيا كلها بشاب نبيل عمره خمسـة عشر عـامـاً ، يـدعى ميشيل رومانوف ، قيصراً على روسيا .

الأمبراطورية العثمانية والتهديد التركي

في الجنوب ـ الشرقي من القارة أوغلت الأمبراطورية العثمانية وشكلت ركنـاً

في أوربة المسيحية وظلت تهددها مباشرة ، بعد أن أقام باشا في بودا ، على مسيرة بضعة أيام من فينّا . وفي الحقيقة ، إن الأتراك عدا ممتلكاتهم **الآسيوية** : آسيا الصغرى ، أرمينية ، العراق ، سورية ، **والافريقية** : مصر ، ودول أفريقية الشمالية ، احتلوا ، في أوربة ، شبه جزيرة البلقان كلها ، والقسم الأعظم من هونغاريا ، والأقاليم التابعة في ترانسلفانيا والبغدان (مولدافيا) والأفلاق (فالاشيا) ، وشبه جزيرة القرم ، وشاطئ البحر الأسود حتى كوبان . بيد أنهم ظهروا أنصاراً للحرية ، ليبراليين جداً ، إزاء الشعوب المسيحية الأرثوذوكسية في غالبيتها ، وتركوا لها لغتها ، ودينها ، وحتى أحياناً القسم الأكبر من تنظيمها الداخلي ؛ واكتفوا عسكرياً باحتلال النقاط الهامة وبخاصة بجباية الجزية والضرائب الأخرى .

ولكن وراء هذه القوة البرية العظمية ، ظهرت علائم الانحطاط واضحة . إن الجيش الذي أسس ، في القرنين السابقين ، العظمة العثمانية ، فقد قليلاً قليلاً من قيمته ، ونهض الأسطول بعناء من الخسائر التي تكبدها في ليبانت عام ١٥٧١ م . وتخرب التنظيم الداخلي للأمبراطورية : فقد كان السلاطين العثمانيون في الغالب شباناً يعيشون في قصورهم في القسطنطينية ، تاركين السلطة الفعلية لكبار الوزراء . وكان على هؤلاء أن يحسبوا حساباً لدسائس السراي وطيش السلاطين . وكان حكام الأقاليم ، من بكوات وباشاوات ، يبحثون عن الغنى والثراء أو الاستقلال في أقاليمهم . وأصبح نهب أموال الدولة والفوضى قاعدة على درجات السلم الإداري جميعاً .

ولكن الشوكة العثمانية ، وإن ضعفت ، ظلت تخشى . فعلى القارة كان الأمبراطور مهدداً مباشرة ، وظهر بسبب هذا الواقع ، زعياً طبيعياً للنضال ضد (الكافر) ويعنون بذلك السلطان العثماني ، مع أن الأتراك في حقيقة الأمر ، حولوا في الغالب جهودهم الحربية المستمرة في أوربة الوسطى ، صوب جيرانهم

الفرس . وفي البحر المتوسط ، كان سكان افريقية الشمالية يقومون بغاراتهم المستمرة بالرغم من سهر فرسان مالطة .

وهكذا ظل الخطر الإسلامي ، بأشكاله المختلفة ، حقيقة واقعة بالنسبة لأوربة في مطلع القرن السابع عشر .

القضايا الدينية

كان الإصلاح البروتستانتي حادثاً من أعظم حوادث القرن السادس عشر . وما من شك في أن وجود كنائس أورثوذوكسية منفصلة عن روما ، مثل بطريركية القسطنطينية ، تحت السيطرة التركية ، وبطريركية موسكو ، كان يؤلف منذ العصر الوسيط أول شرخ في (ثوب المسيح غير المخيط) ولكن الحيدة البروتستانتية كانت أخطر بنتائجها على الكاثوليكية الرومانية . وإذا كانت القضايا الدينية الناجمة عن الإصلاح مسيطرة على الدول الأوربية في القرن السادس عشر ، فإن هذه القضايا كانت أبعد من أن تحل في العام ١٦٠٠ م ، أي في فاتحة القرن السابع عشر .

تقدم الإصلاح المعاكس (الإصلاح الكاثوليكي) ـ لقد أحرز الإصلاح الكاثوليكي المعاكس ، أي سياسة استئصال البروتستانتية من جذورها بالقوة عند الحاجة ، نجاحات لا جدل فيها نحو ١٦٠٠ م . وكانت هذه الحال في البلاد ـ المنخفضة الجنوبية . فقد ساعدت سياسة الحاكم الكسندر فارنيز ، من ١٥٧٨ إلى ١٥٩٢ م ، ثم الأدواق : البرت النمسا وزوجته إيزابلا بنت الملك فيليب الثاني ، الحاكمين في ١٥٩٨ م ، على فصل أقاليم الجنوب ، التي ظلت كاثوليكية جداً ، عن الأقاليم الكالفنية في الشمال ، وعلى توطيد الكاثوليكية بصلابة في البلاد التي استعادت الجيوش الاسبانية احتلالها . وهذا الاسترداد الروحي ، الذي كان اليسوعيون عماله النشيطين ، كان ملحوظاً بجذف البروتستانتيين بالتدريج على

أثر التخلي عن البروتستانتية بإخلاص كثير أو قليل ، أو بالنفي ، وبإعادة تنظيم خارطة الأبرشيات ، وبإحداث المؤسسات الدينية التي يعلم فيها الشبان الذين يؤهلون في معظمهم للحياة الكنسية ، وبالإكثار من المدارس الربانية ومدارس الأحد لتعليم مبادئ وأسرار الإيمان المسيحي ، وبإدخال نظم دينية رهبانية من كبوشية وكرملية وأورسولينية . وهكذا ظهرت البلاد ـ المنخفضة الاسبانية ، في ١٦٠٩ م ، في فترة هدنة الاثني عشر عاماً ، من أقوى حصون الكاثوليكية ، أمام الأقاليم ـ المتحدة الكالفنية .

وفي **الأمبراطورية** ، بدأ الإصلاح المعاكس ، بعد ١٥٧٦ م ، بدحر البروتستانت الذين أضعفتهم انقساماتهم ، وظل يسجل تقاطباً حول سنوات ١٦٠٠ م . فقد أنهى دوق بافاريا البرت الخامس حذف البروتستانتية من دولته وأنشأ في ١٥٩١ م ، في مونيخ ، أكاديمية اللاهوت والفلسفة ، وعهد بها إلى اليسوعيين . وفي ألمانيا الغربية ، أعيد توطيد الكاثوليكية في اوسنابروك في ١٥٨٥ م وأخفق البروتستانت في محاولتهم للاستيلاء على أسقفيات اكس ـ لا ـ شابيل (١٥٩٣ ـ ١٥٩٨ م) وكولونيا (١٦٠٠ م) عند شغور كرسي الأسقفيتين . وفي الدول الوراثية لآل هابسبورغ ، منع الأمبراطور رودولف الثاني ، الذي تربى في بلاط اسبانيا ، ممارسة العبادة اللوثرية في فينا والتيرول . أما ابن عمه الأرشيدوق فرديناند ، وهو تلميذ سابق لليسوعيين في أنغولشتات ، وفي المستقبل الأمبراطور فرديناند الثاني ، فقد أصبح ، في العام ١٥٩٠ م ، دوق شتيريا . واستطاع ، في بضع سنوات ، أن يرد بكل الوسائل ، إلى الكاثوليكية،دوقيته الألبية الصغيرة حيث كان البروتستانت أغلبية . وفي كل مكان لعب **اليسوعيون** دوراً أساسياً وأنموا العمل الذي قام به بطرس كانيزيوس ، المتوفى عام ١٥٩٧ م . وكان هؤلاء اليسوعيون معرفين ومجاهدين بالإيمان المسيحي لدى الأمراء وواعظين ، وكانوا أيضاً وبخاصة أساتذة في الجامعات العديدة والأكاديميات أو الكليات التي أكثروا منها في ألمانيا .

وفي **بولونيا** ، كان سيجيسموند الثالث كاثوليكياً متعصباً ويلقب بـ « ملـك اليسوعيين » . وفي الحقيقة كان مكرهاً على احترام اتحاد وارسو (فارصوفيا) ، أي السـلام الـدائم الـذي وقـع ، في ١٥٧٢ م ، بين مختلف المـذاهب : من كاثـوليكي ، وأورثوذوكسي ، وبروتستـانتي . ولهـذا ، كان عليـه أن يتسـامح مع اللوثريين في الحفاظ على معابدهم ومدراسهم ، ومع السوسينيين تلاميذ سوسن ، أعداء الثـالوث الأقدس ، للإقامة في راكوف ، بالقرب من ساندومير . ولكنـه استطـاع أن يبعـد البروتستـانت عن الشؤون العـامـة ، وبخـاصـةٍ ، أن ينشئ في البلاد كلهـا كليـات يسوعيـة كان لهـا الأثر القطعي على النخبـة في المجتمع البولوني : لأن معظم النبلاء البروتستـانت عـادوا إلى الكاثوليكيـة ، وأصبحت بولونيـا ، على هـذا النحـو ، في أوربة الشرقية ، نوعاً من طليعة للكنيسة الرومانية .

محاولات التساهل

وعلى نقيض أهـداف الإصلاح المعـاكس ، يرى أن بعض السـادة الكاثوليـك اتجهوا نحو التسامح الديني . وفي الواقع ، إن هذه المحاولات التي نجمت عن ظروف سياسية خاصة ، ولا تتفق مطلقاً مع حركة قوية في الرأي ، إن عنـد الكاثوليـك أو عند البروتستانت ، كانت ناقصة وستكون موقتة وعابرة .

إن **براءة نانت** لعام ١٥٩٨ م ، التي تنازل بهـا هنري الرابع للبروتستـانت في فرنسا ، تستجيب بصورة أساسية لرغبة العودة إلى السلام في المملكة .

وإن النص الـذي يتنـاول بعض مواد البراءات السـابقـة يخول البروتستـانت حرية الوجدان وحرية الممارسة العامة للدين المصلَح أي البروتستانتي . ومع ذلـك فإن حرية العبادة هذه كانت منوعة بقيود هامة ، لأنه لم يسمح بها إلا في مدينتين بالمحكمة القضـائيـة . وفي منـازل الأمراء ، القضـاة السـامون ، ممن كان لهم الحق في إقـامـة العـدل على أراضيهم . وفيا عـدا ذلـك ، كان الوصول إلى جميع الـوظـائف

مضموناً للبروتستانت ، وأسست محاكم نصفها بروتستانتية ـ ونصفها كاثوليكية في ستة مجالس قضائية (برلمانات) . وهكذا وجدت حالة أصيلة بصورة عميقة في أوربة ذلك الحين ، لأن فرنسا أصبحت دولة يعيش فيها ، نظرياً وقانونياً وعلى قدم مساواة واحدة ، رعاياها الكاثوليك ورعاياها البروتستانت ، بالرغم من أن الكاثوليكية الرومانية ظلت ديناً رسمياً وحيداً . ومع ذلك فإن منح البروتستانت ١٥١ مكاناً حصيناً لمساعدتهم في فرض حقوقهم على وجه الاحتمال ، فإن معارضة البرلمانات العنيفة لتسجيل البراءة ، والمقاومة الشديدة في الأوساط الكاثوليكية المختلفة واستياء العديد من الهوغنوت تدل على أن براءة نانت كان عمل سياسة واقعية من جانب هنري الرابع فرضت تحكيمه ، ولم تكن تعبيراً عن مناخ حقيقي للتسامح .

رسالة الجلالة ـ كانت رسالة الجلالة من عمل الظروف أيضاً . فقد كانت الحالة الدينية في بلاد التاج في بوهيميا ، نحو ١٦٠٠ م ، مضطربة جداً . وكان أمام أقلية كاثوليكية مالا يقل عن أربعة مذاهب غير رومانية : **الأوتراكيون** ، تلاميذ جان هوس وأنصار المناولة بعرضيها : الخبز والخمر ؛ **والإخوة المورافيون** ، وهم هوسيون منشقون ؛ وأخيراً ، **اللوثريون والكالفنيون** . وفي ١٦٠٩ م ، كان الأمبراطور رودولف الثاني ، ملك بوهيميا ، مشتبكاً في ثورة أخيه ماتياس ، فقرر أن يخول التشيكيين وضعاً دينياً بموجب « رسالة الجلالة » ليؤمن ولاءهم . ولم يفعل ذلك بروح التسامح ، وإنما بحساب سياسي بسيط . فقد أقرت الرسالة في بوهيميا ، ومن بعد في مورافيا وفي سيليزيا ، حرية الوجدان وحرية العبادة بشكل واسع كافٍ ، بتخويلهم حق بناء المعابد والمدارس في المدن الملكية وفي أملاك التاج ، شريطة أن تتفاهم مختلف المذاهب غير الرومانية وإلا تشكل أكثر من كنيسة بروتستانتية تشيكية . وأضاف رودولف إلى هذا النظام ضماناً سياسياً يسمح للبروتستانت بانتخاب مجلس من عشرة أشخاص يكلفون ، تحت

اسم « حماة الإيمان » بالتفاوض ، عند الحاجة ، مع الكاثوليك . وفي الواقع ، إن نجاح رسالة الجلالة كان محدوداً : أولاً ، لأن الاتفاق بين البروتستانت بقي ناقصاً ، ولأن مرسوم التسامح أثار معارضة الكاثوليك أيضاً .

البروتستانت والكاثوليك وجهاً لوجه ـ هذا ولما كانت الردة الكاثوليكية غير تامة ، ومحاولات التسامح محدودة ومخيبة ، فإن قضية المجابهة بين البروتستانت والكاثوليك بقيت مطروحة على بساط البحث،لا على صعيد أوربة فحسب ، وإنما في داخل بعض الدول الأوربية . لقد وجدت وحدة الإيمان تحت شكل الكاثوليكية الرومانية في ممتلكات الملكية الإسبانية وفي الدول الإيطالية ؛ وتحت شكل اللوثرية في مملكتي السويد والدانيارك ؛ وتحت شكل الكالفنية في الأقاليم ـ المتحدة .

في انكلترا ـ كانت الحالة في انكلترا أكثر تعقيداً . فقد كانت الأنغليكانية ، منذ اليزابت ، الديانة الرسمية ؛ ومع ذلك بقي الكاثوليك كثراً أيضاً عند وفاة الملكة ، بالرغم من الاضطهادات التي كانت تمارس ضدهم . ومن جهة أخرى ، رفض عدد عظيم من البروتستانت الإنكليز الديانة المقررة ، ورأوا فيها تسويةً لا يمكن قبولها بين (البابوية) والبروتستانتية . وهؤلاء المنشقون هم **الطهرانيون** . وكان بينهم من يريدون أن يدخلوا في انكلترا التنظيم المشيخي الموجود في إيكوسيا ، وآخرون ، وهم **المستقلون** ، ذهبوا إلى أبعد من ذلك أيضاً . فقد فضلوا استقلال الكنيسة إزاء الدولة ، واستقلال كل مؤمن إزاء الرعاة (القسس) ، ورأوا أن كل إنسان يمكنه أن يبحث مباشرة ، في الكتاب المقدس عن طريقه نحو ملكوت الله .

في الأمبراطورية ـ وضعت القضية الدينية بشكل حاد أكثر مما في غيرها . ولا شك أن صلح اوغسبورغ ، في عام ١٥٥٥ م ، أنهى الحروب بين الأمراء الكاثوليك والأمراء اللوثريين بتخويله هؤلاء وأولئك حرية اختيار دينهم

وفرضه على رعاياهم . ولكن تطور الحالة منذ ذلك التاريخ أظهر عدم كفاية وغموض هذه التسوية الشاقة . فقد كان بند « التحفظ الكنسي » أول مصدر للمشاكل . وبموجب هذا البند ، كان على الأمراء الكنسيين ، من مطارنة وأساقفة ، أو آباء ، الذين يعتنقون اللوثرية ، أن يتخلوا عن أسقفيتهم أو بيعتهم ، ولا يمكنهم أن يتملكوا لأنفسهم الأملاك بعصرنتها ؛ وبالمقابل إن التعصيرات السابقة لـ ١٥٥٢ م قد ثبتت وأيدت . إلا أن اللوثريين لم يعترفوا أبداً بهذا البند الذي دخل في صلح اوغسبورغ ، دون موافقتهم . ولهذا عصرت أسقفيات كثيرة وعشرات البيع ، بين ١٥٥٥ و ١٦٠٠ م ، من قبل القائمين عليها الذين اعتنقوا اللوثرية . ومن جهة اللوثريين ، فقد كانوا قلقين جداً من تقدم الإصلاح المعاكس ، وبخاصة في جنوب الأمبراطورية . وأخيراً ، وضع توسع الكالفنية السريع ، في الربع الأخير من القرن السادس عشر ، في ألمانيا ، قضية خطيرة . فمنذ ١٥٦٢ م جعل ناخب بالاتينا الكالفنية ديناً رسمياً في دوله ، وقلده من بعد ، أمراء آخرون أو مدن حرة . أما صلح اوغسبورغ فلم يهتم إلا باللوثريين وحدهم ، ولم يستطع الأمراء الكالفنيون أو المصلَحون أن يحصلوا لأنفسهم على الفوائد التي يخولها هذا الصلح ، ولم يتمتعوا إلا بتسامح الأمر الواقع . ولذا كانوا يطالبون بإعادة نظر في النظام الديني للأمبراطورية . ولكنهم ، بهذا العمل ، اصطدموا بمقاومة الكاثوليك واللوثريين على حد سواء .

وهكذا أصبح الصلح ، الذي أعدّ في ١٥٥٥ م ، مهدداً . ففي السنوات الأولى من القرن السابع عشر تضاعفت الأحداث ، ودل تشكل الرابطات من جانب وآخر ، على ما يبدو ، على العود إلى الحرب والعداء . ففي ١٦٠٦ م ، وبإيحاء من الأمبراطور ، وطد دوق بافاريا ، ماكسمليان الأول ، الكاثوليكية بالقوة في المدينة الحرة البروتستانتية دوناوفيرت ، على أثر المعاكسات والمشاكسات التي وقع ضحيتها عدد من الكاثوليك . وكانت نتيجة هذا النجاح الذي أحرزه

الإصلاح ـ المعاكس ، أن قرب اللوثريين والكالفنيين ، أمام الخطر المشترك . وفي أيار ١٦٠٨ م ، أسس عدد من الأمراء البروتستانت ، لعشر سنوات ، اتحاداً إنجيلياً برئاسة كالفني ، وهو الناخب البالاتيني ، فريديريك الرابع ، وضم أمراء لوثريين : دوق فورتامبرغ ، ومارغراف باد ؛ وأمراء كالفنيين . وكذلك مدناً حرة كثيرة وبخاصة ستراسبورغ ، فرانكفورت ، نورامبرغ . ولكن أقوى الأمراء البروتستانت ، ناخب ساكس ، رفض المشاركة ، وكان لوثرياً متشدداً متزمتاً ولم يقبل بمشاركة (المصلَحين) . ومن جهة أخرى ، ألف الكاثوليك في ١٦٠٩ م ، رابطة مقدسة رئيسها دوق بافاريا ؛ وضمت لتسعة أعوام الناخبين الكنسيين الثلاثة وعدة دول كاثوليكية صغيرة في ألمانيا الجنوبية . وتعهد الاتحاد الإنجيلي ، والرابطة المقدسة ، كل من جانبه ، بنجدة أعضائه ، وأقام لهذه الغاية جيشاً وبحث عن مساعدات من خارج ألمانيا : فقد وجد الاتحاد في فرنسا سنداً لدى هنري الرابع ، ومن بعد بقليل في الأقاليم ـ المتحدة ، وفي انكلترا حيث زوج جمس الأول ابنته من وارث الناخب البالاتيني ؛ وتفاوضت الرابطة المقدسة مع دوق اللورين ومع ملك اسبانيا .

وفي ١٦٠٩ م ، فتحت وفاة دوق كليف وجوليه ، دون وارث مباشر ، أزمة وراثية خطيرة كادت أن تثير الحرب . وطالب عدة أمراء بروتستانت ، ومنهم ناخب براندبورغ ، بصفات مختلفة هذا الإرث الغني . إلا أن الأمبراطور قرر وضع الدوقيتين الرينانيتين تحت الحراسة القضائية ، وعهد بالدفاع عنهما إلى الأرشيدوق ليؤبولد . وكان الاتحاد الإنجيلي قوياً بمساندة هنري الرابع النشيطة ، واستعد للحرب ، ولكن اغتيال ملك فرنسا أنهى هذه الاستعدادات . وسوى التقسيم القضية بسلام في ١٦١٤ م . بيد أن وجود هاتين الرابطتين المسلحتين جعل السلام في ألمانيا ، تحت رحمة أقل حادث .

القضايا الديموغرافية والاقتصادية والاجتماعية

السكان ـ كانت أوربة ، في عالم ١٦٠٠ م ، تمتاز بتفوق ديموغرافي لا جدل فيه . فقد كانت تضم دون شك ثلث سكان العالم . وخارجاً عن الشرق ـ الأقصى ، لا يوجد أي نواة أخرى للاستيطان يمكن أن تقارن بها . ومع ذلك ، فإن هذا التفوق الشامل يتضمن فروقاً إقليمية . لقد كانت أوربة الكثيفة السكان ، جملةً ، تتعارض مع أوربة الضعيفة الاستيطان . وكانت أوربة الكثيفة بـ ٣٠ إلى ٤٠ نسمة في الـ ك م^{2} ، تضم إيطاليا ، فرنسا ، البلاد ـ المنخفضة الاسبانية ، الأقاليم ـ المتحدة ، ألمانيا الرينانية والدانوبية ، وبأقل درجة ، انكلترا . وعلى شواطئ البحر المتوسط ، إذا وضعت إيطاليا جانباً ، وفيما وراء نهر الإيلب ، كانت الكثافات ضعيفة كثيراً : ربما كانت ١٤ في شبه الجزيرة الإيبرية ، وأكثر من ذلك بقليل في ألمانيا الشرقية ، وأقل بكثير في اسكانديناڤيا ، وفي بولونيا ، وفي روسيا . وكذلك توجد اختلافات في احتلال المكان واستغلال التربة ، وتسلسل أيضاً في قدرة الدول ، ما دام صحيحاً أن « الثروة لا تكون إلا بالإنسان » : فقد كانت فرنسا بـ ١٨ مليون نسمة أكثر بلاد أوربة سكاناً ، وهذا التفوق الديموغرافي يوضح عن سعة الدور من الصعيد الأول الذي تلعبه في القارة .

ومهما تكن هذه الفروق في الكثافة ، فإن الشعوب الأوربية المختلفة ، على ما يبدو ، عرفت ، في النصف الثاني من القرن السادس عشر ، ميلاً واضحاً إلى التوسع . ويتضح ذلك ، في نطاق البنيات الديموغرافية التقليدية ، ببعض الظروف المناسبة في هذه الحالة الحاضرة . والجدول الآتي يبين على وجه التقريب سكان الدول الأوربية بالملايين في مطلع القرن السابع عشر ، وفي آخره .

الدولة	نحو ١٦٠٠	نحو ١٧٠٠
فرنسا	١٨	١٩
اسبانيا	٨	٦
النمسا ـ بوهيميا ـ هونغاريا		٧,٥
انكلترا	٤,٥	٥,٥
الأقاليم ـ المتحدة	١,٣	١,٦
السويد	١	١,٤
الدول الألمانية	١٨	١٠
الدول الايطالية	١٢	١١,٥
روسيا	١١	١٢

ومن الضروري أن نوضح ، في الحد الذي يتبع فيه القرن السابع عشر ، العصر السابق للإحصاء ، أن هذه الأرقام لا يمكن أن تكون إلا تقريبية ، ويحسن ألا تخول قيمة صحيحة وملزمة ؛ ولكنها ، كما هي ، تمثل ترتيب عظمة الدول في ذلك القرن .

أما الديموغرافيا من « النموذج القديم » أي السابقة لمنتصف القرن الثامن عشر ، فتتصف **بولادات ووفيات** مرتفعة وبأهمية الأزمات الديموغرافية .. والولادة تتبع الزواج في بلد من البلدان . وكانت سن الزواج في ذلك الحين مرتفعة نسبياً . والحالات التي يستشهد بها غالباً ، ولكنها خاصة جداً ، هي حالات الزواجات الملكية أو الأميرية ، ويجب ألا تخدعنا : لأن الزواج لا يكون عموماً إلا في سن الـ ٢٥ أو الـ ٣٠ عاماً ، ولاسيا في الطبقات الشعبية . وإن تأخير سن الزواج يشكل خارجاً عن حياة العزب ، الاستثنائية ، الوقاية الوحيدة من الولادات ، وهذه الوقاية إن لم تكن معروفة ، فعلى الأقل مسموحة . وعدا ذلك ، فإن هذه الزيجات تنقطع بوفاة أحد الزوجين ، ولا سيا الزوجة . وأكثر من ذلك ، إن دور خصوبة المرأة يبدو نسبياً أنه كان أقصر مما هو عليه اليوم .

وأخيراً ، يتدخل الرضاع لتصغير نسبة الخصوبة أيضاً . وهكـذا في عشرين عـامـاً من الحياة الزوجية لا تستطيع المرأة من ٢٥ إلى ٤٥ عامـاً أن تضع ، أي أن تلـد ، أكثر من سبع أو ثماني مرات . ويبدو من الممكن أن نعتبر أنه يولد وسطيـاً أربعـة أو خمسة أولاد في كل عـائلـة ، وهـذا كثير لأنـه يطـابق نسبـة ولادة من نسق ٤٠ بالألف . وأمام هـذه الولادة القويـة ، كانت الوفيـة ، من جهـة أخرى ، مرتفعـة جداً : فنسبة الوفـاة في الأطفـال ٢٥٪ ونسبـة الوفـاة في الشبـاب من نفس النسق تعتبران أرقاماً متوسطة أقرب إلى الصحة جداً ، وهـذا يرجع بنـا إلى القول ، على ١٠٠ طفل يولدون في سنة واحدة ، ان ٢٥ منهم لا يبلغون عمر عـام واحـد ، وان ٢٥ يموتون بين عام واحد و ١٩ عاماً ، وان ٥٠ فقط يبلغون عمر ٢٠ عاماً . وكانت الصحة العامة والخاصة ابتدائية ، والتغذية في الغـالب غير كافيـة كماً وكيفـاً ، لأن الأغذية النـادرة لا تعوض سوء التغـذيـة الـدائم تقريبـاً في الطبقـات الفقيرة وفي المناطق المحرومة ، وعجز الطب وممثليه المختلفين أمام الأمراض الطفيفة كما هم أمـام أقبح الأوبئـة ، كانت عوامل أسـاسيـة في الوفيـات . وإذا كانت نسبـة الـولادات ونسبة الوفيات على نسق واحـد فـإن نسبـة التعويض قريبـة من الوحـدة : فعلى خمسة أطفال يولدون وسطياً في عـائلـة ، يبلغ اثنـان أو ثلاثـة منهم سن الزواج . وهذا يؤمن بالضبط تماماً البديل عن الأهل والعزاب النادرين .

ولكن هذا التوازن الضعيف طرحتـه على بسـاط البحث أزمـات ديموغرافيـة مخيفة . وهذه (الوفيات) تعود إما لأوبئة : فقد فتك الطاعون بخاصة في الحـالـة المستوطنة في أوربة كلها بانفجارات وبـائيـة فظـة ؛ وإمـا إلى أزمـات دوريـة في القوت أدت إلى الجدب والمجاعة ؛ أو في الغالب ، إلى انضمام هذين العـاملين . وإن الزيـادة المبـاشرة في عـدد الوفيـات ، التي تبلغ الضعف أو الثلاثـة أضعـاف تكون مصحوبة بتدني الزواج والحمل ، مما يسهم في تفاقم نتائج هذه الأزمات .

وهذه الصورة المرسومة على هذا الشكل للبنيات الديموغرافية القديمة بحـاجـة

إلى تنوع في الفروق اللونية ، على الصعيد الاجتماعي وعلى الصعيد الجغرافي معاً : لأن الولادات والوفيات لا تبدي على وجه الصحة الصفات المميزة نفسها في الطبقات الموسرة وفي جماهير الشعب . فالأغنياء يكون لهم على وجه العموم أولاد أكثر من غيرهم ، ولكنهم عزل من السلاح تجاه الموت أقل من الفقراء ؛ وان انكلترا ، والأقاليم ـ المتحدة ، وبعض المناطق الفرنسية تعتبر مناطق ممتازة بالنسبة إلى أوربة الوسطى أو المتوسطية . ولكن النموذج يبقى بالإجمال مقبولاً على الأقل .

وبهذه البنيات يبدو أن سكان أوربة محكوم عليهم بالركود ، مع تقلبات خفيفة إيجابية أو سلبية حسب تواتر الأزمات وخطورتها . ويبدو أن القرن السادس عشر يتميز ببعض النمو الديموغرافي الملحوظ كثيراً أو قليلاً وفي تواريخ مختلفة حسب البلاد . وهذا النمو الديموغرافي يتضح بظروف مواتية أكثر من القرون السالفة : لأن الأوبئة متوضعة في مكانها وأقل انتشاراً ، وأزمات القوت والغذاء أقل تواتراً وأقصر مدةً .

الصفات الدائمة للاقتصاد القديم

أً ـ الزراعة : يمتاز الاقتصاد القديم أولاً بسيطرة الاقتصاد الزراعي سيطرة ساحقة . وحسب البلاد ، يعيش السكان من ٨٠ إلى ٩٠٪ في الريف ، وان أربعة أخماس هؤلاء الريفيين فلاحون فعلاً ، وعليهم العبء الثقيل في تغذية مجموع السكان . وفيما عدا التنوع الذي يدخله في الزراعات الثانوية اختلاف التضاريس والتربة والمناخ : كالكرمة هنا ، والكتان أو القنب هناك ، والعِظلم[1] أو الفُوّة[2] في مكان آخر ، ظلت الزراعة الأوربية زراعة حبوب بصورة أساسية . وإذا كان

(١) العِظلم : نبات يزرع قديماً لأوراقه التي تعطي الصباغ الأزرق (PASTEL) .

(٢) الفوة : نبات يزرع قديماً لجذوره التي تعطي الصباغ الأحمر (GARANCE) .

القسم الأكبر من الأراضي ، المزروعة المحاطة بالغابات والعواسج ، مكرساً لإنتاج الحبوب من حنطة ، وشوفان ، وشعير ، وحنطة سوداء ، وذرة ، ورز ، فذلك لضرورة مطلقة ، مع الأخذ بعين الاعتبار ضعف المحاصيل . وهذا الضعف ناجم بخاصة عن عدم كفاية الأسمدة التي تتألف بخاصة من الزبل ، وبهذا الواقع كان للزبل قيمة عظيمة .

ولكن الزبل كان بكمية محدودة جداً ، مما يضطر الفلاحين إلى ترك الأرض بوراً لتستريح . إلا أن بعض المناطق تخلصت من هذه الضرورة بفضل مهارة سكانها أو بفضل ثروة تربتها . وهذه هي حال الفلاندر ، وهولندا ، والسهل الإنكليزي وبعض السهول الغرينية (اللحقية) . ثم إن رداءة البذار والأدوات البدائية ، وعدم كفاية الحيوانات المستخدمة عدداً وكيفاً ، كانت تسهم في ضعف المردود أيضاً . وبالرغم من أنه من الصعب تقديم أرقام واضحة ودقيقة في هذا المضار ، فمن الممكن الأخذ بمادة القمح ، كنسبة متوسطة لمحصول البذار ، الرقم من ٥ إلى ١ مع كثير من الفروق : ففي روسيا أقل من ٣ ؛ وفي اسبانيا ٣ ؛ وفي انكلترا ٦ ؛ وفي الفلاندر والأقاليم ـ المتحدة ، ربما ١٠ . ويبدو أن عدم كفاية تربية الحيوانات ، من عدة اعتبارات ، مشكلة مركزية مرتبطة بجميع المشاكل الأخرى : فكيف يمكن أن تكون الحيوانات ، مصدر السماد والعمل ، عديدة ومن نوعية جيدة ، بينما يكتفى في الغالب الأعم بالعلف الضئيل من الأراضي البور ، والتبن ، والنباتات التي تنبت تحت أشجار الغابة ، والعواسج ؟ أما المروج والحشائش والأعشاب فهي نادرة جداً ، ولا يمكن تكاثرها دون خطر . وهكذا تؤدي الحال إلى ما أمكن تسميته على وجه الصحة بـ « الحلقة المفرغة » لزراعة النظام القديم .

إن أهمية الغابة ، التي تجهز الأخشاب والمراعي ، ووجود تعاملات منتشرة بصورة واسعة ومتعارفة يطبقها الجميع ، كالإجبار على الدورة الزراعية في السهول

الكبرى في أوربة الشمالية ، وحق رعي الحيوانات على المروج الطبيعية وغير المبورة بعد حصاد الهشيم على أملاك القرى المشاع ، إن كل هذا يتم اللوحة بملامحها الكبرى لاقتصاد زراعي لم يتطور عملياً منذ القرن الثاني عشر .

٢ ـ **العمل الصناعي** : نشاط مدني بصورة أساسية . وفي الحقيقة،إن الصناعة الريفية منتشرة جداً في كل مكان . ولكنها تابعة بصورة وثيقة للمدينة . وهناك صفتان يمكن أن تساعدا على تعريف « صناعة » النظام القديم : الصفة اليدوية ، تظهر أولاً في ضآلة الأدوات المستخدمة والتقنيات . والأساسي فيها يبقى يد العامل وذراعه . وهذه الصناعة بالمعنى الدقيق ، هي عمل يدوي مهما تكن أهمية القوى الحيوانية والمائية والرياحية كطاقات مساعدة . وتمتاز هذه الصناعة أيضاً بتوزيعها إلى مشاغل (ورشات) صغيرة : مثل دكاكين الصناع الحرفيين في المدن ، و (أنوال) النسيج في أرياف غربي فرنسا أو السهل الإنكليزي ، ودكاكين الحدادين الصغيرة التي تعمل بفحم الحطب والمنتشرة في كل مكان تقريباً ، بالقرب من نهر أو غابة . أما المشاريع الكبرى المركزة ، مثل مناجم (آلون دوتولفا) في دول البابا ، وتضم نحو ٨٠٠ عامل في آخر القرن السادس عشر ، فقد كانت استثنائية تماماً . ولكن هذه البنية للصناعة اليدوية لا تنفي تقدم الرأسمالية في مستوى الإنتاج . وهكذا نرى ، في الصناعة النسيجية ، أن دور التاجر ـ الصانع كانت متفوقة ومسيطرة . فقد كان « رئيس فرقة » حقيقياً ، يشغل عدة صناع منتشرين هنا وهناك ويقدم لهم المادة الأولية ويكافؤهم على العمل الجاهز ، ثم يقوم بتسويق الإنتاج المصنوع .

كانت **صناعة النسيج** في الصف الأول بين الصناعات الاستهلاكية : أقمشة الكتان ، والقنب ، والأقمشة الصوفية ، والقطنية . وحلت انكلترا والأقاليم ـ المتحدة وفرنسا محل إيطاليا واسبانيا والبلاد المنخفضة وأصبحت أكبر البلاد إنتاجاً . وإلى جانب صناعة النسيج ، كان القطاع الآخر الهام ، هو البناء ،

ويحسن أن نقرب منه صناعات البذخ التي تدور حوله : كصناعة المفروشات والزجاج ، والخزف ، والمالقي (البورسولين) ، والحرائر والسجاد . أما الصناعة المنجمية والمعدنية فتأتي بعيداً وراء صناعة النسيج أو البناء ، بقيمة المنتجات المستحدثة . ومع ذلك ، فإن التركيز النسبي والإنشاء التدريجي ، في القرن السادس عشر ، لتقنيات جديدة ، كالأفران العالية الأولى ، أعطت لهذا القطاع لونه الخاص . وظل فحم الحطب محروقاً لا يستغنى عنه ، ولكن الليبيجيين (سكان ليبيج) والإنكليز بدؤوا باستخدام الفحم الحجري ، أو فحم الأرض ، في بعض العمليات ، ولم يبدأ بعد باستخلاص الفلذات المعدنية . وكانت ألمانيا الوسطى ، وأسقفية ليبيج ، وانكلترا ، والسويد ، وفرنسا ، بدرجة أقل ، أهم البلاد المنتجة .

يضاف إلى ذلك أن الصعوبات وبطء **العلاقات التجارية** كانت صفة نوعية أخرى لاقتصاد النظام القديم . وتأتي أولاً صعوبات النقل البري : لأن العجلات وحيوانات الجر والتحميل كانت تسير بمشقة على طرق غير معبدة ، بسبب المستنقعات في الشتاء والمسالك الغبراء في الصيف . وكان يجب ثلاثة أسابيع إلى شهرين للذهاب من باريس إلى قادس . وكلما كانت المناطق المجتازة مأهولة قليلاً ، كان السفر طويلاً وخطراً كثيراً ، بسبب قطاع الطرق والحوادث : وكان السير أسرع وأقل خطراً في أوربة الغربية منه في أوربة الوسطى والشرقية . وتفضل الطريق النهرية ، كلما كان ذلك ممكناً : فقد كانت الأنهار الصالحة للملاحة كثيراً أو قليلاً مستخدمة في كل مكان ، بالرغم من مضايقة الطواحين ورسوم المرور ، وفي بعض الأحوال ، عدم انتظام نظام الماء . وكانت الطريق البحرية بالملاحة على طول السواحل أو بالملاحة البعيدة المدى نموذجاً ممتازاً للانتقال من مكان لآخر . وهنا أيضاً لا تسلم الملاحة من البطء والتردد ، لأن أخطار الغرق ، والمرض ، واستيلاء القرصان على السفن ورجالها تجعل كل رحلة بحرية مغامرة .

وتصطدم العلاقات التجارية بعقبات أخرى . فمن عدة اعتبارات ، ظلت طرق (مناهج) غالبية التجار رتيبة : فقد كانوا ينقلون لمشترياتهم كمية نقدية كبيرة مربكة ، ويمارسون المقايضة أيضاً ، وأصول مسك الدفاتر وضبط الحسابات مشوشاً مضطرباً . ومع ذلك ، فإن معظم التجار الإيطاليين ، وبخاصة الهولانديين ، وفي البلاد الأخرى ، أقلية صغيرة متطورة ، كانوا يستخدمون عن سعة الاعتماد والسفاتج ، اسناد الصرف والحوالة ، ويتجمعون عرضاً في شركات تجارية كبرى قوية ، مثل شركة الهند الشرقية الإنكليزية التي أنشئت في ١٦٠٠ م ، ومثيلتها الهولاندية ، في ١٦٠٢ م .

وأخيراً ، يتأتى ضعف اقتصاد النظام القديم عن تفوق الزراعة . ويكفي لذلك حصاد سيء ناجم عن شتاء شديد ، أو ـ في الغالب ـ عن صيف « فاسد » ، لتحدث أزمة في الغذاء . وهذه الأزمة ، التي رأينا انعكاساتها الديموغرافية ، لها حتماً تأثيرها على الاقتصاد كله . إن سقوط إنتاج الحبوب يؤدي إلى الجدب وارتفاع سعر الحبوب ارتفاعاً مفاجئاً ، ويكون الفلاحون أول الضحايا : لأن أكثرهم فقراء يردون إلى التسول ، وأكثرهم عدداً يرون أنفسهم محرومين مما يخصص عادةً للاستهلاك العائلي ومضطرين لشراء حنطتهم وخبزهم بسعر غالٍ ، والعدد الصغير ، ممن عندهم على العموم فائض من المحصول التجاري ، يحرم منه ، والجميع يرجئون النفقات غير الغذائية إلى أيام أفضل . إلا أن بعض المحتكرين وحدهم يستغلون البؤس المشترك . وفي هذه الظروف تكون الاصداء في المدينة مباشرة ومحزنة : ارتفاع سعر الخبز ، البيع بخسارة ، سوء إنتاج ، بطالة ، بؤس ، وفيات ، وغالباً ثورة شعبية . وهكذا نرى أن الأزمة الدورية ، وهي حادث نوئي بسيط في الأصل ، تؤثر على الاقتصاد كله لبلد صغير ، وحتى ، في الحالات الخطيرة ، تؤثر على اقتصاد إقليم أو حتى دولة بكاملها . وبتوالي هذه الأزمة ، كل عشرة أعوام عموماً ، وبأهمية نتائجها ، ترتبط ببنية اقتصاد النظام القديم .

الظروف الاقتصادية والمنافسات الاجتماعية

وفيما عدا هذه الصفات الدائمة للبنية ، توضع الظروف الاقتصادية لسنوات ١٦٠٠ م في (قرن سادس عشر طويل) يوصف بقرن التوسع من ١٤٥٠ - ١٥٠٠ - ١٦٣٠ - ١٦٥٠ م . وفي الحقيقة إن الاكتشافات الجغرافية الكبرى كانت أبعد من أن تقتل تجارة البحر المتوسط أو البالطيك لصالح تجارة المحيط الأطلسي وحدها . وأدت إلى نمو عام في المبادلات وخلق سوق عالمي حقيقي . وفي الوقت نفسه ، كان الارتفاع البطيء والمستمر للأسعار مرتبطاً جزئياً بتدفق المعادن الثمينة من أمريكا بعد ١٥٥٠ م ، وكانت نتيجته ارتفاع الربح والحض على الإنتاج أكثر من قبل بجاذب الفائدة المتزايدة . وعدا ذلك ، فإن النمو الديموغرافي النسبي ، والحاجات العسكرية للدول الكبرى ، ولا سيما بالمدفعية ، وتذوق البذخ المنتشر شيئاً فشيئاً في الطبقات العليا للمجتمع ، والنمو البطيء للاعتماد أسهمت معاً في ازدياد الطلب ، وارتفاع الأسعار ، والازدهار .

ولكن الكتل الاجتماعية لم تفد من هذا الازدهار . لقد كان المجتمع الأوربي منقسماً إلى فئات وطبقات . وتسلسل الفئات : الأكليروس ، والنبلاء ، والفئة الثالثة (الفئات الشعبية) القائم على قيم شرف ووجاهة ، دون رابطة ضرورية على الإطلاق مع الوقائع الاقتصادية ، ما زال يحافظ على أهميته كلها ، نظراً لدوام البيئات التقليدية . ولكن الانقسام إلى طبقات ، المرتبط بنمو أشكال اقتصادية جديدة وبنهوض عجيب للتجارة البحرية الكبرى ، أخذ أكثر فأكثر أهمية إلى جانب التقسيم إلى فئات ، بانتظار أن يحل محله .

وفي هذا المجتمع المعقد ، كان أوائل المستفيدين من ازدهار القرن السادس عشر من كانوا يجنون أرباحهم من الأرض ، أي أصحاب الدخل من التربة : الكنسيون الذين يفرضون الأعشار ، والملاك النبلاء أو البورجوازيون الذين يجبون عيناً

أجار الأراضي والرسوم الأميرية . لقد كانوا يبيعون لحسابهم هذه المحاصيل التي جبوها . ويجنون أعظم ربح من ارتفاع الأسعار الزراعية . وإذا كان من الصحيح أن بعض الاتاوات الثابتة كانت تجبى مالاً ، وتفقد قليلاً من قيمتها ، فمن الصحيح أيضاً أن معظم النبلاء كانوا مندفعين في نفقات عظيمة بسبب البذخ والحرب ، وأن كثيراً من البورجوازيين ، الذين كانوا أقل إنفاقاً منهم عن ذوقهم أو عن وضعهم ، عرفوا كيف يفيدون من الصعوبات المالية التي وقعت فيها الطبقة النبيلة . فقد ظهر أن الكسب من الأراضي الطيبة الواقعة على مقربة من المدينة ، في آخر حياة تاجر ، أفضل توظيف مفيد للمال . وهذا الربح ضعيف حقاً ، ولكنه أكيد . أما الأرباح العظيمة المتأتية عن التجارة والبنوك فلا تخلو في الحقيقة من مخاطر كبرى ، كالدمار الشامل والإفلاس وغير ذلك . ولكن الذين قبلوا المخاطرة أو الذين نجوا فيها ، كانوا أعظم المستفيدين من الازدهار : وهم المعلمون ، والصناع ، والتجار ـ الصناع ، وأصحاب السفن ، وأصحاب البنوك .

وبالمقابل ، كان الفلاحون ، في الغالب ، ضحايا ارتفاع الأسعار ، عدا بعضهم ، ولكنهم نادرون . فقد أمكن هؤلاء ، ما عدا الاستهلاك العائلي ودفع مختلف الضرائب والأعباء ، أن يفيدوا من بيع بعض الغلات كالحبوب ، والخمور ، والقنب . وكانت الطبقات الشعبية المدنية في عداد الضحايا أيضاً : كالرفاق أي الصناع المرتبطين بالمعلمين . فقد تحملوا مباشرة وزر ارتفاع سعر الحنطة ، وبالتالي الخبز ، والأقمشة ، والضرائب ، دون أن تزيد أجورهم عموماً بالنسب نفسها . وكان الوضع بالنسبة لهم ، عدا استثناءات نادرة ، تدنياً حقيقياً لأجورهم . وقد شعرت الطبقات الشعبية الريفية والمدنية ، عن وعي واضح أو عن وعي غامض ، بظلم مصيرها . وكانت (الهيجانات) أو الثورات ، التي تنفجر من حين لآخر ، في كل مكان في أوربة تقريباً ، وتثار بأزمة غذاء ، أو بتفاقم العبء الضريبي ، انفجارات شديدة تدل على الغضب الشعبي من سوء الحال .

أوربة والعالم

لقد اتسع الاقتصاد الأوربي منذ آخر القرن الخامس عشر ، فبلغ أبعاد العالم . إلا أن هذا الصعود ما زال حوالي ١٦٠٠ م متفاوتاً وناقصاً جداً .

الأوربيون والعالم القديم

افريقية السوداء ـ لقد كانت افريقية السوداء ، في جزء عظيم منها ، مغلقة أبوابها في وجه التغلغل الأوربي ، وظلت تحيا حياتها جانباً . وكان اختلاف الشعوب مرتبطاً بخاصة باختلاف الظروف الجغرافية : فعلى جانبي خط الاستواء ، كانت الغابات ، والسياسب (المناطق العشبية) والسهوب ، والصحارى تعين أنواع الحياة . وإذا لم يعرف زنوج الغابة ، على ما يبدو ، غير حياتهم الضعيفة الضئيلة ، وتنظيمهم القبلي ، فقد تألفت ، بالمقابل ، دول كبرى في المناطق التي توجد فيها الموارد التي تجمع بين الزراعة وتربية الحيوانات وامكانيات الاتصال مع الخارج . إن امبراطورية (**غاوو**)، التي تأسست على استغلال الملح وذهب السودان ، انهارت في ١٥٩١ م تحت ضربات المراكشيين . ولكن امبراطورية **بورنو** ـ (نيجيريا ـ كمرون) بلغت أوجها نحو ١٦٠٠ م . وعرفت الممالك النيجيرية ، وبخاصة مملكة بينين ، ازدهاراً نسبياً . وفي جنوب خط الاستواء ، كانت الدول ، مثل مملكة **مونو موتاپا** ، في منعرج نهر زامبيز ، قليلة الأهمية . وكان معظم الزنوج يحافظون على ديانة تقليدية **موحدة وسحرية** ، أي تعتقد بإله واحد . ولكن الله تعالى عظيم جداً وبعيد جداً ، وقلما يتوجه إليه ، ولذا فإن القوى الإلهية تحيي الطبيعة كلها ، ويحسن استرضاؤها بالصلوات والطقوس وتقديم الأضاحي .

لقد أقام البرتغاليون على بضع نقاط في شواطئ أفريقية ، وبخاصة جزر الرأس الأخضر (الجزر الخالدات) . وفي خليج غينة (المينا ، وجزيرة ساؤ توميه) ، وفي أنغولا (في لواندا) وفي أفريقية الشرقية (في سوفالا ، موزامبيق ، مومباسا) . ولكن الإنكليز ، والهولانديين ، والفرنسيين بدأوا يتوافدون للتجارة على شاطئ غينة . وأخفقت معظم محاولات البرتغاليين ، في النفوذ إلى الداخل ، ولم يحصل التنصير ، التبشير بالمسيحية ، إلا على نجاحات محدودة جداً . أما في مملكة الكونغو الصغيرة على جانبي مصب النهر الكبير ، فقد نجح التبشير بشكل عريض . ويتضح هذا الإخفاق بعرقية (عنصرية) البيض وعدم تسامحهم ، وبخاصة بممارسة الرق . وقد كان الرق سابقاً لمجيء الأوربيين ولكن هؤلاء توسعوا فيه لصالحهم ، وهذا ما أسهم ، حتى في قلب القارة ، في إبقاء حالة حرب مستوطنة بين الأمبراطوريات الكبرى ، والممالك الصغيرة ، وحتى القبائل البسيطة .

وكانت افريقية الشمالية وآسيا الغربية صعيد الإسلام . كانت مراكش مملكة مستقلة ، وعرفت أدواراً مجيدة من تاريخها في عهد أحمد المنصور (١٥٧٨ ـ ١٦٠٣ م) قاهر البرتغاليين في القصر الكبير ، في ١٥٧٨ م ، وفاتح امبراطورية غاوو في ١٥٩١ م . وكانت الجزائر وتونس وطرابلس الغرب تابعة للأمبراطورية العثمانية ، وفي نزاع مع الغزاة الأوربيين ، وكانت الجزائر المدينة ، نحو ١٦٠٠ م ، مدينة مزدهرة ، ويبلغ سكانها نحو مئة ألف نسمة ؛ ومصر وسورية والعراق وآسيا الصغرى أقاليم عثمانية . وكان البنادقة ، والفرنسيون ، ومنذ آخر القرن السادس عشر ، الإنكليز والهولانديون يأتون للتجارة في موانئ شرقي المتوسط ، ولاسيما ازمير ، وطرابلس سورية ، ومعهم الأقمشة الصوفية والقطنية ، والأدوات المعدنية ، والسكر ، ويعودون وسفنهم محملة بالحرير ، والقطن ، والجلود . وفي عهد سلالة الشاهات الصفويين ، كانت إيران بلداً غنياً وحضارته صافية ناعمة .

وكانت عاصمتها ، أصفهان . وموانيها مفتوحة بصورة عريضة للتجار والفنانين الأوربيين . ولكن الإيرانيين كانوا في عـــداء مستشر مع جيرانهم : الأتراك العثمانيين ، وتركمان تركستان ، والأفغان .

وإذا كانت افريقية وآسيا الغربية قليلتي السكان نسبياً ، فإن **للهند واليابان** ، ولا سيا **الصين** ، كثافات سكان شبيهة بكثافات البلاد الأوربية . لقد انتهى في شبه الجزيرة الهندية العهد المجيد للسلطان أكبر (١٥٤٢ ـ ١٦٠٥ م) . وكان ، بعد جده بابر ، المؤسس الحقيقي لأمبراطورية المغولي الكبير الإسلامية ، كما يطلق عليها في أوربة . فقد استطاع أن يمتد بنفوذه على كل شبه الجزيرة في شمال (غودافيري) ونظم الإدارة من جديد ، وأصلح النظام الضريبي ، وحاول تحسين ظروف الجماهير الفلاحية الجبرية والبائسة ، وحاول أن يتجاوز الإسلام بتوحيد رعاياه المسلمين ورعاياه الهندوسيين والبوذيين في إيمان موحد واحد . وفي جنوب الدكن ، توجد عدة دول مستقلة يوجهها إما سلاطين مسلمون ، أو راجهات هندوسيون . وعرفت الأمبراطورية الصينية ، في عهد أواخر الأباطرة من آل منغ ، انحطاطاً عضالاً بسبب الأقوام التترية التي تقوم بهجومات مستمرة على الحدود ، وأعمال النهب والسلب وثورات الفلاحين ، وتفسخ الدولة . وفي اليابان ، لم تكن السلطة بيد الأمبراطور ، الميكادو ، وإنما كانت بيد **الشوغون** ، زعيم الأرستقراطية الإقطاعية التي تسيطر تماماً على طبقة الفلاحين البائسة ، وبيدها السلطة العسكرية أيضاً .

وحول ١٦٠٠ م ، **ظل البرتغاليون** كبار سادة التجارة في المحيط الهندي وحتى الشرق ـ الأقصى . ولم يكن الحضور الأسباني في الفيليبين منافساً مخيفاً جداً ، بالرغم من العلاقات المستمرة بين مانيلا والصين ، لأن التجارة ، بين الأرخبيل الفيليبيني والأمبراطورية الاسبانية ، اقتصرت على سفينتين عسكريتين تربطان ، كل سنة ، عبر المحيط الهادئ ، مانيلا بـ أكابولكو على الساحل المكسيكي .

وقد رأينا أن التـاجين البرتغـالي والأسبـاني قـد اتحـدا منـذ ١٥٨٠ م . ولكن المنافسات ظهرت بشكل آخر خطرة وعازمـة على إنهـاء الحصر البرتغـالي : ولأول مرة ، في ١٥٩٥ م ، انطلقت أربـع عمـائر هـولانـديـة إلى الهنـد الشرقيـة ، وفي ١٦٠١ م ، أرسـل أسطـول إنكليزي إلى المحيـط الهنـدي . ومـع ذلـك . نرى حـول ١٦٠٠ م ، أن غـووا كانت دومـاً عـاصمـة غير منـازعـة لـ (دولـة الهنـد) . وفي الحقيقة ، ان الجماهير الآسيويـة قـد تـأثرت قليلاً بحضور البرتغـاليين . لأن هؤلاء اكتفوا بإقامة مراكز ووكالات وقواعد بحرية على السواحل ، وخـاصـة في هرمز ، وديو ، ومالاقا ، مـاكاؤ ، وفي جزر أنـدونيسيـا ، بغيـة الحصول من الـداخل على المنتجات التي ترسل من بعد إلى أوربة ، أو تبـاع في المنـاطق الأخرى من المحيـط الهنـدي : كالتوابـل ، والنيلـة ، والأنسجـة القطنيـة ، والحرائر ، والبـورسـولين ، واللآلئ والقهوة وغيرهـا . ولم يعملوا شيئـاً آخر لحسـابهم ، وعلى مقيـاس واسـع ، تجارة التجار العرب . أمـا مـا يتعلق بجهود التبشير ، فلم ينجحوا حقـاً في التـأثير على الجمـاهير ، لأن آسيـا لم تتقبل المسيحيـة ، حتى ان المبشرين الأوربيين ، تحت (الزعامـة) البرتغـاليـة والاسبـانيـة ، لم يقوموا بـأي جهـد مستمر ، قبل (مـاتيو ريتشي) و (روبرت نوبيلي) ، لانتزاع الرسالة التبشيريـة من الغرب وتكييفهـا مع العقلية الآسيوية .

الأوربيون والعالم الجديد

لقد ورث الحصر الاسباني ـ البرتغـالي في العـالم الجـديـد عصر الاكتشـافـات الجغرافيـة الكبرى . وكان البرتغـاليون سـادة البرازيل ؛ والأسبـانيون سـادة بـاقي القارة . ولم تكن جهود المنافسين الأوربيين لكسر هذا الحصر إلا في بداياتها : فقد أقـام (ولتر رالي) الإنكليزي مؤسسـاتـه الإنكليزيـة الأولى ، الضعيفـة جـداً ، في ١٥٨٧ م ، في فرجينيـا ، وفي ١٥٩٥ م في غـويّـانـة ؛ ولم يـؤسس شـاملبن كيبـك والإنكليز جمستاون إلا في ١٦٠٨ م . أما المحاولـة الفرنسيـة الأخيرة ، لأخـذ موطئ

قدم في البرازيل ، فقد أخفقت في ١٦١٥ م . وهكذا كانت أمريكا ١٦٠٠ م أمريكا إيبرية على وجه الحصر .

وأدى (الفتح) الذي تلا الاكتشاف إلى دمار شبه كامل للحضارة الأميركية قبل كولومب ، وإلى إنشاء حضارة أصيلة استعمارية تتعاطى الرق . أما احتلال الأرض فما زال متفرقاً للغاية : في الجزر وفي الأهداب الساحلية لأمريكا المدارية ، وفي المناطق الداخلية المتقطعة والمنفصلة عن بعضها بمسافات شاسعة . ويوضح استغلال المناجم والمزارع هذا التوزيع . ونحو ١٦٠٠ م كانت مناجم فضة المكسيك ، في (زاكاتيكاس) ، وفضة بيرو ، في بوتوزي ، في عز نشاطها . وفي هذا التاريخ ، كانت نفوس مدينة بوتوزي المنجمية نحو مئة ألف نسمة ، أكثر من سكان اشبلية والبندقية . وتقوم الثروة الثانية على المزارع ، في جزر الأنتيل ، وشمال ـ شرقي البرازيل ، التي تنتج النباتات الصباغية والطبية ، والتبغ ، ولاسيا قصب السكر ، ولكنها كانت ، كالمناجم ، سبباً في عدم استقرار الاستيطان . لأن التربة ، كتحت التربة ، استغلت حتى النفاد ، ثم هجرت لصالح أراضي جديدة عذراء ، أو مناجم جديدة . وعلى اثر تراجع سكان البلاد الأصليين بشكل شديد ، عمد الاسبان والبرتغاليون إلى اليد العاملة السوداء التي أتي بها من افريقية والتي يطلق عليها تجار الرقيق اسم (خشب الأبنوس) لقوتها . وهكذا تأسس مجتمع متسلسل تحيط به أقلية البيض من (الأوربيين) وأولادهم ، الذين ولدوا في المستعمرات ، بأبناء البلاد الأصليين والأرقاء الزنوج ، وبالخلاسيين والمهاجرين الذين يشغلون مكاناً متوسطاً بين الفريقين . وكان هذا المجتمع كاثوليكياً من وجهة النظر الرسمية ، ولكن كثيراً ما تعود الذاكرة بأبناء البلاد الأصليين فيحنون إلى ديانات ما قبل كولومب ، وبالزنوج إلى العبادات الافريقية .

وكانت **اشبيلية** ، بالنسبة لاسبانيا ، **ولشبونة** ، بالنسبة للبرتغال ،

ميناءين كبيرين يرتبطان بالعالم الجديد . وقد شهد الـدور ١٥٨٠ ـ ١٦٢٠ م أوج التجارة الاسبانية ـ الأميركية وميناء الوادي الكبير . لقد كان أكثر من مئة سفينة اسبانية تجتاز كل سنـة المحيـط الأطلسي ، وتصل ، في شهرين ، فيراكروز ، نومبر دو ديوس أو بـورتـو بيللـو ؛ وبعضهـا تعرج على الشـواطئ الافريقيـة ، وتحمـل سفينة شاحنة من (خشب الأبنوس) باتجاه أمريكا . وتكون رحلـة العودة أطول بكثير ، أي ما يقارب أربعة أشهر ، وأكثر أخطاراً . ويحسب ١٠ إلى ٢٠٪ خسـائر وسطيـاً ، وفي بعض السنين تكـون هـذه الخســائر أكثر . ويتضـح هـذا بتعب الملاحين ، وخراب السفن ، ولا سيما هجومـات القرصـان الـذين يعرفـون هيـاكل السفن الثقيلة (كنوز أمريكا) . وعندمـا تنزل الفضـة المكسيكيـة والبيروفيـة في اشبيلية توزع في القارة كلها ، وتروي الاقتصاد الأوربي وهو في عز توسعه .

القسم الأول

السياسة الأوربية في النصف الأول

من القرن السابع عشر

الفصل الأول

حرب الثلاثين عاماً
١٦١٨ ـ ١٦٤٨ م

تمهيد :

حرب الثلاثين عاماً حرب معقدة ، عواملها دينية وسياسية واقتصادية معاً . بدأت في بوهيميا ، وامتدت إلى الأمبراطورية ـ المقدسة ، ثم إلى قسم من أوربة . وكان رهان النزاع ، الذي جرى فيها على الصعيد الدبلوماسي والعسكري ، سيطرة البيت النمساوي في أوربة .

إن النزاع ، الذي كانت تنبع عنه مشاكل الوضع الديني في الأمبراطورية ووجود عصبتين مسلحتين : إحداهما كاثوليكية ، والأخرى بروتستانتية ، تفجر في ١٦١٨ م إثر حوادث بوهيميا .

في ١٦١٢ م ، خلف ماتياس هابسبورغ أخاه رودولف الثاني ، أولاً ملكاً على بوهيميا ، ثم امبراطوراً . ولكن هذا العاهل الجديد لم يكن له وارث مباشر ، وظلت القضية الأساسية قضية وراثة وخلافة . وسوي الاتفاق في داخل البيت النمساوي ، بين الأرشيدوقات الأخوة الذين ولدوا بعد ماتياس ، وبين ملك اسبانيا ، على شخص فرديناند شتيريا ابن عم رودولف وماتياس . وفي حزيران ١٦١٧ م ، استطاع الأمبراطور الحصول من مجالس تاج بوهيميا على الاعتراف بفرديناند خلفاً محتملاً . وفعل الدياط الهونغاري الشيء نفسه في السنة التالية . إلا أن فرديناند كان كاثوليكياً متشدداً وتقياً ورعاً وزاهداً ، وبرهن في دوقية

شتيريا على غيرة حارة على الدين الروماني ، أي الكاثوليكية . ولذا كان القلق عظيماً عند البروتستانت التشيكيين الذين يخشون من أن تطرح على بساط البحث من جديد الفوائد التي حصلوا عليها برسالة الجلالة . وفوق ذلك ، كان فرديناند متمسكاً بحقوقه وبواجباته كعاهل ودعم جهود المستشار الجديد في بوهيميا الذي سماه ماتياس وهو (لوبكوفيتش) الذي حاول أن يركز جميع السلطات بين يدي الملك ووزرائه على حساب المجالس . وكانت هذه المجالس تتألف في الغالب من ممثلي الأرستقراطية التشيكية التي كانت في أكثريتها بروتستانتية . وكان هؤلاء النبلاء ملاكاً أغنياء ، ويقيمون على أراضيهم التي كانت في الغالب أموالاً كنسية معصرة ، ويحسنون استغلالها . وكانوا على العموم مثقفين ، وفكرهم منفتحاً ، وقد شعروا بأنهم مهددون سواءً على الصعيد السياسي أم على الصعيد الديني ، بسياسة ماتياس وفرديناند .

وهناك حادث يرتبط بتفسير بند في رسالة الجلالة ، وسيشعل النار في البارود . فقد أمر وزراء ماتياس بتدمير المعابد التي بنيت بصورة غير شرعية ، في نظرهم ، في مدينتين في بوهيميا ، وتفاقمت القضية وأدت إلى سجن عدة نبلاء أرسلتهم إلى براغ إحدى هاتين المدينتين . وفي آذار ١٦١٨ م ، رد عليهم المدافعون عن الإيمان بدعوة مجلس الممثلين البروتستانت . وفي ٥ أيار ، وجه هذا المجلس ملتمساً إلى ماتياس يطلبون فيه عفواً وفضلاً . وبإيحاء من لوبكوفيتش أجاب ماتياس من فينا مؤكداً بأن المدافعين عن الإيمان قد تجاوزوا حقوقهم ، وأن المجلس غير قانوني . وعندئذ قرر بعض أعضاء هذا المجلس بتوجيه من الكونت (تورن) استغلال الحادث وإثارة قطيعة مع آل هابسبورغ بغية إنقاذ حرياتهم السياسية والدينية المهددة . واقتنعوا بأن الجواب الملكي كان من عمل النواب الذين يحكمون في براغ باسم الملك ، وصعدوا إلى قصر (هرادشين) في ٢٣ أيار ، وبينما تدوي الثورة في شوارع المدينة ، ألقوا بنائبين بغيضين من نوافذ القصر وهما :

(سلافاتا) و (مارتينيك) ، وأمين سرهما ، ونجا الثلاثة رجال دون أذى ، ولكن هذا الفعل كان له أهمية رمزية أرادها فاعلوه . ومع ذلك فقد تجنب الثائرون بادئ بدء الإجراءات المتطرفة : فقد زعموا بأنهم لا يلقون المسؤولية على ماتياس نفسه ، وإنما على نائبيه في براغ . وأعلنوا سقوطهما واستعاضوا عنهما بدركتوار (مجلس إدارة) من ثلاثين عضواً ، عشرة لكل فئة من الفئات الثلاث في المملكة : النبلاء ، الفرسان ، المدن ، فيما طرد اليسوعيون من البلاد . وبسرعة ، اصطدم الدركتوار بمشاكل كبرى : فقد بدا الفرسان والمدن مترددين ، ونقص المال ، ولهذا نقصت الجنود : واستطاع (تورن) أن يجند على الأكثر بضعة ألوف من الرجال . وفي فينا ، بدا الملك ـ الأمبراطور أيضاً متردداً وعاجزاً ، وتجنب كل إجراء من شأنه أن يجعل التسوية مستحيلة . ولكن فرديناند أنكر هذه السياسة المماطلة ، وقرر أن يحل محل ماتياس في الواقع . وجند بعض الجنود ودخل بوهيميا . وفي الحقيقة ، إن القوى الحاضرة كانت ضعيفة ليتمكن الحل العسكري من التدخل . وبدا الإتفاق ممكناً أيضاً : فقد حاول أمير غني بروتستانتي من مورافيا (زيروتين) أن يتوسط بين فينا وبراغ . ولكن وفاة ماتياس ، في ٢٠ آذار ١٦١٩ م ، جعلت هذه المحاولات وهمية وأدت إلى القطيعة .

وفي الواقع ، إن بلاد تاج بوهيميا : بوهيميا ، مورافيا ، سيليزيا ، لوزاس ، قررت ، في ٢١ تموز ، أن تؤلف كونفدراسيون دولة مستقلة ، وعلى رأسها ملك منتخب . وبعد بضعة أسابيع ، في ١٩ آب ، رفضت مجالس بوهيميا الاعتراف بانتخاب ١٦١٧ م ، وحكمت بسقوط فرديناند وأعلنت العرش شاغراً . وفي ٢٦ منه ، انتخبت ملكاً ، الناخب البالاتيني الجديد ، فريديريك الخامس ، الأمير الكالفني وزعيم الاتحاد الإنجيلي . وغداة الغد ، انتخب فرديناند شتيريا امبراطوراً من قبل دياط فرانكفورت ، تحت اسم فرديناند الثاني . وهكذا ، كانت الثورة

التشيكية حادثاً موضعياً بسيطاً ، فأصبحت قضية تهم الأمبراطورية كلها ، ومن بعدها الدول المجاورة . وبدأت حرب الثلاثين عاماً .

الصفات العامة

تحدد التواريخ الزمنية حرب الثلاثين عاماً في أوربة بين ١٦١٨ و ١٦٤٨ م ، من حادث الإطاحة ببعض الشخصيات والإلقاء بها من النوافذ في براغ ، في ١٦١٨ م ، إلى سلام وستفاليا في ١٦٤٨ م .

لقد كان الإلقاء من النوافذ حادثاً عارضاً محلياً يجب بيان صفته في التاريخ ، وأيضاً في علم النفس الجماعي للوسط الذي حدث فيه هذا الحادث ، وفيا وراء الواقع نفسه ، تمييز مركباته وتعقيداته العديدة .

وسلام وستفاليا مجموعة معاهدات ، موادها متشابكة ، آخذ بعضها برقاب بعض ، ومتكاملة تشكل ميثاقاً دبلوماسياً وسياسياً لأوربة العصر ومقبولاً حتى الثورة الفرنسية .

وبين الحادثين ثلاثون عاماً حرباً ، امتد فيها النزاع من بوهيميا وبلغ النمسا ، وألمانيا الوسطى ، وإيطاليا ، والفلاندر . واشتركت فيه الأقاليم المتحدة ، وممالك البالطيك ، وفرنسا ، واسبانيا .

ومن غير الممكن أيضاً فهم هذا النزاع إذا أهملت طبيعة الأمبراطورية الاسبانية والموارد التي تجهزها بها أمريكا ، أي البحار : المحيط الأطلسي ، البالطيك ، البحر المتوسط . ومن البديهي أنه يجب الأخذ بعين الاعتبار ظروف أوربة الشرقية : تركيا التي احتوى نضالها القديم مع الدول المسيحية على حدود اعتباطية وموقتة ؛ وروسيا التي نجت من السيطرة البولونية ، قبل بضع سنوات أي قبل ١٦١٨ م ، وتم تشكيلها دولةً ببطء ، ولكن بصورة نافذة ، خلال فترة النزاع كلها ، مع تقدم نحو البحر الأسود وبحر الخزر .

وفي ١٦٤٨ م ، وقع السلام ، بينما بلغت الثورة الإنكليزية أقصى شدتها . وقد اكتشف مؤرخون معاصرون ، وبخاصة الروس صلة وثيقة بين حوادث انكلترا ورغبة أوربة القارية والملكية في إبرام السلام .

وإذا وضعت حرب الثلاثين عاماً في تاريخ الحوادث ووصفها ، وفي أوربة الوسطى والغربية أيضاً ، بدت في حقيقتها محنة أوربية ، وشبه عالمية .

بدأت الحرب ، كما رأينا ، بالإلقاء من النوافذ في براغ ، أي بثورة ، في بوهيميا ، أدت إلى حرب أهلية في هذا البلد ، وانتهت في ١٦٢٠ م ، في الظاهر على الأقل ، بمعركة الجبل ـ الأبيض . ولكن الحرب ، في الواقع ، ظلت تهم بوهيميا حتى ١٦٤٨ م . وفي الوقت الذي وقع فيه السلام ، في تشرين الأول ١٦٤٨ م ، كان السويديون يحاصرون براغ ، حتى انهم كانوا يحتلون جزءاً منها . ونشبت آخر المعارك على (جسر شارل) الذي يضم حيين من أحياء براغ على نهر (فلتافا) أو (مولداو) .

ولا عجب إذا أتى المؤرخون البوهيميون باللغة الألمانية أو باللغة التشيكية بإسهام وافر جداً لتاريخ هذه الحرب ، لأن بوهيميا ، أي مملكة بوهيميا ، أرضاً ، ورجالاً ، ونظماً وديناً ، لعبت فيها دوراً عظيماً .

وكان للسويد دورها أيضاً في هذه الحرب . فمن ذلك أن ملك السويد غوستاف ـ آدولف ووزيره اوكسا شتيرنا لعبا دوراً عظيماً جداً . فقد سيطرت السويد في ذلك الحين على ألمانيا ، ويوجد كتب هامة عن هذه الحرب ، حرب الثلاثين عاماً ، حررت باللغة السويدية .

وهناك كتب قليلة ، ولكنها هامة ، كتبت باللغة الإنكليزية ، ونخص بالذكر مجموعة كمبردج في التاريخ الحديث . وفي اللغة الألمانية ، مصادر حرب الثلاثين عاماً عظيمة ، ومن المؤسف عدم إمكان التوصل إليها .

وظهرت مـؤلفـات ومقـالات بـاللغـة الروسيـة هـامـة ، ونخص كتـاب (فينشتاين) وهو بعنوان : « روسيا وحرب الثلاثين عاماً » ، ومقالات عـديـدة جداً لمؤرخ يتحدث عنه كثيراً وهو (بورشنيف) .

أما ما يتعلق بالمؤلفات التي حررت باللغة الفرنسية ، فإن طـالبـة نمساويـة وهي (الآنسة أنغريد افنبيـك) قـدمت إلى جـامعـة فينـا ، للحصول على درجـة دكتور ، مذكرة هامة جـداً ، عن (الهستوريو غرافيـا الفرنسيـة في القرن التـاسع عشر لحرب الثلاثين عاماً) . فقد اشتغلت تحت إدارة أستاذ للتـاريخ الحـديث في جامعة فينا ، وهو الأستاذ (هوغو هانتش) . والعمل طيب جيد ، ولكن المؤلفـة لم تجد عدداً كبيراً جداً من المؤلفـات الفرنسيـة في نفس الموضوع حتى ولو صعـدت بعيـداً ونعني بـذلـك القرن التـاسع عشر بمعنى واسع . وكـذلـك السيـد (جـورج بـاج)[1] لاحـظ ، من جهتـه ، نـدرة الإنتـاج التـاريخي الفرنسي المتعلـق بحرب الثلاثين عاماً . وليس المؤرخون الفرنسيون كثراً للاهتمام بها .

وبالمقابل ، لقد برهنت الآنسة اوفنبيك على أن جميع المؤرخين الـذين درسوا النصف الأول من القرن السابع عشر ، ولا سيا السياسة الخارجية ، أو الذين ألفوا مؤلفات في تاريخ فرنسـا ، لم يقصروا في التلميح إلى حرب الثلاثين عـامـاً واتخـاذ موقف في هذا الموضوع ، وبخاصة في معاهدات وستفاليا .

إذن نرى شيئاً قليلاً عن حرب الثلاثين عـامـاً نفسهـا ، قليلاً في كل مكان ، وهو تلميحات لحوادثها ، لصفتهـا ولنتـائجهـا . ولسوء الحـظ يمكن أن يلاحـظ أن المـؤرخين يكرر بعضهم بعضـاً ، ويسهمـون في الغـالب بنشر آراء سطحيـة أو خاطئة .

وبصورة عامة ، إن تاريخ حرب الثلاثين عاماً أسبغ على هـذه الحرب صفـة

---

(١) راجع : G. PAGES. la guerre de Trente - ANS, payot, PARIS, 1938

نزاع ديني وسياسي . والصفة الدينية أساسية عند الانطلاق . لأن هذه الحرب بين الكاثوليك والبروتستانت كانت حرباً دينية ممتزجة ببعض الاعتبارات السياسية . ولكن كلما طال أجل الحرب ، تفوقت الصفة السياسية أكثر فأكثر ، حتى ان الحرب ، في مرحلتها الأخيرة ، أخذت صفة تنافس على السلطة والنفوذ بين النظام الاسباني ، الذي كان يمارس تفوقاً في أوربة ، منذ شارل ـ كنت ، ونظام الملكية الفرنسية . ثم تركت المنازعات الدينية الصعيد الأول ، لأن فرنسا الكاثوليكية ، فرنسا لويس الثالث عشر وريشليو ، تحالفت ، ضد دولة كاثوليكية أخرى أي البيت النمساوي ، في الأمبراطورية الجرمانية وفي اسبانيا ، مع الدول البروتستانتية : الأقاليم ـ المتحدة والسويد . ودراستنا للحرب تساعد على تحليل هذه المواقف ، والتفريق بين صفات النزاع ، دون أن نعطي تعريفاً بعد .

وفي هذه المصادر التاريخية ، لم يتصور العامل الاقتصادي إلا تبعاً للحوادث السياسية والعسكرية . وأكثر من ذلك يمكن التساؤل : بأي موارد تصرفت الحكومات ؟ كيف ، وبأي وسائل ، دعمت جهدها ؟ ولم يهتم لا بالظروف العامة ولا بحالة السكان الاقتصادية .

ويقترح التاريخ الماركسي ، لحرب الثلاثين عاماً ، بصورة عامة ، وحوادث بوهيميا التي تشكل مدخلاً للحرب ، ودون جدل ، سبباً مباشراً لها ، تفسيراً آخر ، ويضع قضايا أخرى من قضايا القرن التاسع عشر ، لأن الأسباب الدينية والسياسية توجد فيها ملحقة بالظروف الاقتصادية . والشدة الأساسية مركزة على التطور الاقتصادي والاجتماعي الذي نقل الاقتصاد الأوربي من الشكل الإقطاعي إلى الشكل الرأسمالي .

إن الرأسمالية التجارية ، التي تأسست ببطء في القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، كانت قوة تقدمية ، وأمنت ، انطلاقاً من التراكم البدائي لرأس

المال ، الذي كان نتيجة الاحتياطيات المدخرة من قبل المنتج ، زيادة في إنتاج السلع والبضائع ونقلها . وحلت التجارة ، اقتصاد المبادلة ، بصورة عريضة أكثر فأكثر ، وحسب وتيرة متسارعة ، محل اقتصاد الغذاء والإعاشة . وشوهد توسع السوق واستخدام قوى العمل المأجورة محل قوى عمل العبودية القديمة . ومن هنا يرى تشكل طبقة اجتماعية جديدة ، بورجوازية تاجرة وبائعة ومصرفية تستخدم وسائل مبادلة متطورة على أرض واسعة كثيراً .

وأنعشت هذه الطبقة الاجتماعية الجديدة الاقتصاد وجددت أرباحه . وجهزت السفن للملاحات البعيدة ، واستثمرت رأس المال بتشكيل شركات تجارية وملاحية . وأصبح تقدمها الاقتصادي محسوساً في بعض البلاد . وفي آخر القرن السادس عشر ، وفي بداية القرن السابع عشر ، لم يكن البلد الأكثر تقدماً في هذا الاعتبار دولة برية هامة جداً ، وإنما كان قوة اقتصادية دولية حقيقية وهي الأقاليم ـ المتحدة .

وهذا النهوض الاقتصادي المرتبط بالصفة العامة لمرحلة آ في القرن السادس عشر ، كان على صلة باكتشاف أمريكا ، وتداول كتلة هامة من المعادن الثمينة ، أي العملة (النقد) . فقد أفاد أولاً اسبانيا ، وعلى الأصح الملكية الاسبانية التي أمنت لنفسها حصر التجارة مع البلاد المكتشفة وأسست فيها مستعمراتها .

وكان التقدم ملحوظاً أيضاً في انكلترا ، التي انطلق تجارها في البحث عن منافذ جديدة ، وأراضٍ جديدة ، وإلى فرنسا أيضاً .

وعلى هذا الحصر الاسباني قامت ثورة البلاد الفلاماندية التي انفصلت بعض أراضيها وانتظمت في « جمهورية الأقاليم ـ المتحدة » (١٥٩٨ م) . وفيما تتأكد هذه النتائج أو تنتشر هذه التصورات ، ظلت الحالة في أوربة الوسطى معقدة جداً . إن الطبقة النبيلة القديمة صاحبة الأطيان التي كانت تعيش من الدخل

الإقطاعي ، أي من ضريبة مالية محددة ، منذ زمن طريل جداً ، باتاوات طبيعية ، لم تستطع العيش في اقتصاد متطور ، وقامت بجهد للتكيف معه . ولصيانة سلطتها التي أصيبت في بنيتها الاقتصادية ، حاولت كسب مصادر موارد جديدة . ولبلوغ ذلك حاولت أن تزيد في السطح الذي تمتلكه . وعلى هذه الأراضي الزراعية الواسعة شكلت مستغلات زراعية ، عهدت بها إلى مزارعين ، أو استغلتها بنفسها . وكان لإنتاج هذه المستغلات الزراعية ، من الحبوب ، والحيوانات ، واللحوم والجلود منافذ واسعة . وفي القرن السادس عشر ترى حنطة البلاد البالطية ، أي حنطة بولونيا ، التي تحمل على مياه نهر الفيستول وتنقل بحراً نحو أوربة الجنوبية وتعوض عدم كفاية البحر المتوسط بالحبوب .

وحتى الآن كان الإنتاج يستهلك محلياً لتغذية السكان مباشرة ، فأصبح غرض تجارة ، وصدر نحو مناطق مجاورة أو بعيدة .

وكانت هذه الأراضي الزراعية تؤجر أو يستغلها مالكها مباشرة ، وهو السيد . وإذا مااستغلها السيد مباشرة شجعت نمو متطلبات عمل جديدة تحت اسم سخرات ، أي عوضاً عن دفع المال إلى السيد ، أو إعطائه كمية صغيرة من السلع ، كان الفلاحون يدفعون الأتاوة عملاً ، وهذه هي السخرة .

وفي الأعمال الكبرى ، كان السادة أيضاً يلجؤون إلى اليد العاملة المأجورة ، أي يستأجرون القوة العاملة لأناس ليسوا ملزمين بأدائها تحت شكل سخرة ، حسب الالتزامات الاقطاعية . ولكن مثل هذا العمل لم يكن غير عمل عرضي وموقت . لأن الحادث الذي يسيطر على الحوادث الأخرى ، هو إخضاع اليد العاملة الريفية على أراضي السيد بغية إنجاز العمل بالسخرة . إذن يوجد تحويل ، وعلى العموم ، تعزيز للتبعية الإقطاعية . وعرفت الطبقة الريفية في ذلك الحين تقنينات وتقتيرات أكثر مما في الماضي ، لإمكانيات انتقالها ، ولتصرفها الحر بوقتها وشغلها . ولهذا استخدم مؤرخو أوربة الوسطى التعبير (الإقطاعية -

الحديثة) أو (الإقطاعية الجديدة) . وقبل معظم المؤرخين الماركسيين ، الروس حقاً وأيضاً التشيكيين وحتى بعض الألمان ، هذا التفسير وتكلموا عن (إقطاعية جديدة) .

لقد لاحظوا أن الفلاحين يثورون على هذا التعزيز للسلطة الإقطاعية ، وينتهون إلى مضاعفة النزاعات الطبقية .

ومع ذلك ، ففي أوربة الوسطى ، لم تكن كل الطبقة النبيلة ، كل الإقطاعيين المالكين للأرض ، قادرين على الدخول في هذا النظام . إلا أن من هم أكثر غنى ، بل وأكثر مهارة بينهم ، أمنوا لأنفسهم الإفادة منه . وهذا النمو في المساحات التي يحتكرها السادة الأمراء وتستغل لصالحهم ، كان يعمل على حساب الملكية الريفية الصغيرة الحرة أو التابعة ، ولكن أيضاً لصالح الطبقة النبيلة الصغيرة .

وكانت الطبقة النبيلة الصغيرة من نفس البنية الحقوقية والاجتماعية التي كانت للطبقة النبيلة الكبيرة ، ولكنها تتميز عنها بقدرتها المالية . فقد كانت أراضيها مملوكة بنفس الشكل ، ولكنها كانت أكثر عدداً من أراضي تلك . ونظمت هي أيضاً ، على الأراضي التي تتصرف بها ، مستغلات زراعية تؤجرها أو تشغلها لصالحها بواسطة السخرة الريفية . ومع ذلك ، فإن اقتصادها لا يملك موارد ومرونة اقتصاد كبار الملاكين ، وكانت في الغالب ضحية هذه التحويلات ومضطرة لبيع أراضيها لأمراء أكثر غنىً ووفرة .

ودخلت الطبقة النبيلة أيضاً في نزاع مع المدن ، أي المدن الملكية التي تصعد امتيازاتها للعصر الوسيط ، ولكنها دخلت هي أيضاً في النظام الإقطاعي ، لأنها تملك أراضي وفلاحين تابعين لأماراتهم . وفي الواقع حاول الأمراء في الأملاك الكبرى التي شكلوها أن يقيموا لأنفسهم حصراً خاصاً بهم ، وأن يحتفظوا ببيع

الحاصلات إلى السكان . وعلى هذا النحو نافسوا البضائع التي تقدمها المدن ، وأكثر من ذلك أيضاً ، أن الأمراء أسسوا على الأراضي التابعة لهم مدناً جديدة ، وهذه تجمعات صغيرة نسبياً ، وخولوها امتيازات حقوقية واقتصادية .

إذن يوجد نزاع طبقات بين الطبقة النبيلة والمدن . ولأسباب مختلفة أيضاً قامت خلافات دينية وسياسية بين الطبقة النبيلة والسلطة المركزية .

وعندما نشبت الحرب في بوهيميا ، في ١٦١٨ م ، وجد النظام الإقطاعي ، كما يقال لنا ، في الحالة التي أتينا على وصفها : حيث نجد طبقة نبيلة فظة مالكة للأراضي في حالة توسع ، وطبقة نبيلة صغيرة من الفرسان والمدن في حالة أفول ، وكتلة ريفية فلاحية ولها كل دواعيها للاعتقاد بأنها ضحية النظام الجديد : لقد كانت مضطرة للعمل على أملاك الأمراء ، ولا تجني ، على مقياس العمل الذي يطلب منها ، فوائد هذا التقدم الاقتصادي غير المنازع .

وفي الوقت نفسه ، يمكن أن يلاحظ أنه لا يوجد بعد في بوهيميا بورجوازية رأسمالية قوية بكفاية لتحكم في هذه المنازعات . حتى ان الحرب ، عندما نشبت ، دارت بين فريقين من الطبقة النبيلة يتنازعان لأسباب سياسية ودينية ، ولكن لاأحد كان يفكر حقاً بتغيير النظام الاقتصادي الإقطاعي أو كان قادراً على فعل ذلك .

لقد ظهر النزاع كنزاع بين فريقين لهما نفس البنية الاقتصادية والاجتماعية ، وسواء تغلب حزب الأمبراطور ، الحزب الكاثوليكي ، أم حزب دول بوهيميا ، وبالجملة الحزب البروتستانتي ، فلم يفكر لا هذا ولا ذاك بتغيير في البنية الاقتصادية الإقطاعية ، ولم يكن لا هذا ولا ذاك حزباً تقدمياً .

ومع ذلك ، ففي الحد الذي يزعزع فيه حزب المتمردين قوى المحافظة ، أي النظام الكاثوليكي والملكي للدولة الذي تدعمه اسبانيا ، يمكن القول ان هذا الحزب

يكافح قوى محافظة أو قوى الماضي . ولكن لا يمكن أن نخفي أن الشعب العامل لم يكن ليهتم بعمق بهذه الخلافات الداخلية للطبقة الموجهة التي تستغله .

هذه هي الأطروحة في خطوطها الكبرى :

إذا نظر إليها بصورة موضوعية يرى بأنها تصر على العوامل الاقتصادية ، وهي هامة جداً وقلما ثمنت حتى الآن . فهي تحيد عن تخويل الحوادث المباشرة أو المحلية صفة عوامل قطعية ، وتضع ثورة بوهيميا في الظروف العامة لأوربة في بداية القرن السابع عشر . وقد أثار هذا الاهتمام دراسات موجهة ، نحو الحالة الاقتصادية للبلد ، الذي نشبت فيه الثورة ، تساعد على إعطاء صورة عنها أكمل وأكثر فرقاً في اللون مما كان يفكر بها من قبل . وفي ذلك كسب للعلم لا جدل فيه .

وفي الوقت الذي تأتي فيه هذه الدراسات بعناصر جديدة ، تقيس بشكل أفضل القطاعات العديدة جداً ، التي تظل معارفنا عنها ، في الحالة الحاضرة ، غير كافية ، وتثير ، في المدرسة الماركسية نفسها ، مناقشات في تفسير الحوادث .

إن بداية حرب الثلاثين عاماً المدينة بصورتها الخاصة لظروف العمل والإنتاج والملكية في بوهيميا ، توجد مرتبطة بثورة البلاد المنخفضة التي سبقتها وتمثل لحد ما ثورة اقتصاد بورجوازي ناشئ ضد حصر اسبانيا المطلق والإقطاعي ، كما أنها مرتبطة بثورة انكلترا التي تلتها ، وهي ثورة بورجوازية أخرى تزعزع الحكم الملكي المطلق والإقطاعي . أما في أوربة الوسطى فان غياب البورجوازية المتطورة بكفاية حال دون نجاح الثورة وهيأ عودة الإقطاعية ، الإقطاعية - الحديثة . ولم تبق التغيرات الاقتصادية والاجتماعية على مقياس الحوادث .

أما وقد عرضنا هذه الأطروحة فها هي ذي الملاحظات عليها :

أولاً : يجب أن نأخذ بعين الاعتبار أن التشديد على أهمية الحوادث

الاقتصادية ليس وقفاً خاصاً على التاريخ الماركسي . إن التاريخ الاقتصادي ، الماركسي أو غير الماركسي ، تقدم منذ سنوات تقدماً عظيماً ، وأفاد التاريخ العام . ومن المستحيل الدخول بجد في دراسة موضحة لحرب الثلاثين عاماً ، إذا لم تؤخذ بعين الاعتبار الصورة العامة للاقتصاد العالمي في الدور الذي سبقها مباشرة .

لقد كان القرن السادس عشر ، مرحلة التوسع الاقتصادي ، على صلة باكتشاف أمريكا ، ولم يكن اكتشاف أمريكا الحادث القطعي الوحيد ، فقد كان سبباً ونتيجة ، ولكنه كان حادثاً عظيماً . وقد أفاد اكتشاف أمريكا وموارد أمريكا بالمعادن الثمينة اسبانيا ، وأسهم في القوة السياسية للملكية الاسبانية ، وبنسبة نمو هذه القوة نزعت اسبانيا في هذا الدور إلى ممارسة الهيمنة على أوربة . ولم تكن الهيمنة الاسبانية ، والتفوق الاسباني من تصورات المؤرخين .

وكذلك يجب ألا نعتقد بأن كل شيء كان سهلاً ، وأن البيت الأسباني لم يعرف أي ضائقة مالية ؛ لأنه كان يتصرف بمناجم أمريكا . فقد نشر المؤرخ الاسباني (كارّاند) كتاباً عظيماً عن شارل ـ كنت وأصحاب مصارفه (بنوكه) ، ودلل فيه على الضائقة المالية الدائمة التي تخبط فيها هذا العاهل .

وخارجاً عن حكومة اسبانيا ، أفاد اكتشاف أمريكا في نهوض الاقتصاد الأوربي العام . وفي نظام اقتصادي يعتمد بصورة أساسية على المبادلات النقدية ، كان امتلاك النقد والمعادن الثمينة أمراً لا مندوحة عنه ، وأمن لمن يحتكرونها فوائد جسيمة جداً ، وكان القرن السادس عشر بكامله مطبوعاً بارتفاع الأسعار (دور آ) ، ولم يكن ثابتاً حقاً . لقد وجد تقهقراً اقتصادياً نحو منتصف القرن ، اتبع بنهوض جديد ، وبسير أقل سرعة .

وقد أعطى التحليل العميق والدقيق لمراحل هذه الدورة الاقتصادية

الكتاب العظيم الذي ألفه (بيير شونوت) وهو بعنوان : (إشبيلية والأطلسي) ، ولا يمكن التوصية بقراءته كاملاً ، ولكن لاغنى عن معرفته والرجوع إليه .

إن انتقال التيارات الاقتصادية الكبرى للعالم نحو الأطلسي وأمريكا كان معاصراً لأفول النشاط الاقتصادي في البحر المتوسط . ولكنه أفول نسبي ؛ لأن البحر المتوسط دافع عن نفسه مهما كلف الأمر . ويرى نوع من تباين في القوى : العالم العثماني ، وقد ضايقه نزاعه مع فارس ، لم يوال فتوحاته في أوربة الشرقية والوسطى ؛ واقتصاد اسبانيا الذي ولى الأدبار للمتوسط واتجه شطر الأطلسي . ومع ذلك يرى ، انطلاقاً من الشرق ، تشكيل جديد لطرق برية تنتهي عند شاطئ حوض شرقي المتوسط ، وأفادت البندقية منه على طول موانى البحر الأدرياتيك الشرقي .

وعندما أفل نجم الدور (آ) كان التغيير آنذاك محسوساً في اسبانيا قبل أن يبلغ الغرب كله . ولم ينقلب هذا الاتجاه تماماً إلا بعد سنوات ١٦٢٠ ـ ١٦٤٠ م . أي في وقت قامت فيه حرب الثلاثين عاماً .

وهناك حادث آخر جدير بالملاحظة : وهوان الطبقة المستفيدة من الغنى عن طريق التجارة ، أي الطبقة البورجوازية ، لم تثمر ثرواتها لافي استثمارات صناعية مستمرة لتغذية تجارتها ، حتى ولا في تنمية كثيفة لتجارتها .

وإذا قرأنا ، في كتاب المؤرخ فرنان بروديل « البحر المتوسط والعالم المتوسطي في عصر فيليب الثاني »[١] الفصل الخاص بـ « الإفلاس » وحتى بـ « خيانة البورجوازية » وجدنا أن محتكري الثروات الضخمة المكتسبة ، عن

---

(١) BRAUDEL, Fernand, LA MEDITERRANÉE et Le monde méditerranéen à L'époque de Philippe II, Paris. A. colin, 1949, 1160 P, 2e ED. revue et augmentée, 1966, 2 vol, 592 et 632 P.

طريق التجارة والبنك ، كانوا مهتمين بشراء الأراضي ، وتشكيل ملكيات أميرية (أميرية وليس فقط إقطاعية ، لأن الظرفين مختلفين) .

وهذا الحادث الذي أشرنا إليه ، في أوربة الوسطى ، لم يكن خاصاً بها ، ففي أوربة كلها وجد ، في القرن السادس عشر ، أن الأمراء كانوا يزيدون حصة الأرض الزراعية التي يملكونها ويحولون طرق استغلال هذه الأراضي ، بتشكيل مزارع يمارس فيها عمل السخرة أو عمل المستأجرين بدفع الأجار مالاً ، لأن كلاً من المزارعين أو شركاء المستغلين ، والمقاسمين يستعملون أحياناً يداً عاملة مأجورة .

وفي فرنسا ، انطلاقاً من حرب المئة عام ، افتقرت الطبقة النبيلة القديمة أو زالت . وعلى كل حال ، فإن دخولها القديمة من الضريبة أصبحت غير كافية ، شأنها في ذلك شأن الطبقة النبيلة في أوربة الوسطى ، ولهذا يرى انفجار الأرض الزراعية القديمة وتشكيل مزارع لصالح أمراء أو بورجوازيين مثرين دخلوا في النظام الأميري وأصبحوا في الغالب نبلاء بعد جيلين أو ثلاثة أجيال .

وفي الوقت نفسه يرى نمو دول إقليمية .

لا شك في أن المدن التي كانت منعشة للاقتصاد ، في آخر العصر الوسيط ، وفي عصر النهضة ، لم تكن في كل مكان في حالة خسارة لقوتها الاقتصادية ، بل إن بعضاً منها أثرت وزاد سكانها ، ولكن مدناً أخرى انحطت ومالت إلى الزوال ، وبصورة عامة فقدت المدن استقلالها السياسي ، وحتى في إيطاليا تشكلت دول إقليمية أكثر أهمية .

وعلى رأس هذه الدول الإقليمية فرضت العائلات الملكية ، السلالات ، سياستها ، التي تقتضي بخاصة توسيع الأرض الإقليمية ، وزيادتها بالحرب ، والدفاع عنها ضد الجيران بقوة جيشها . وكان هذا الجيش يتطلب تمويلاً بفرض

ضريبة على رعايا الدولة ، لأن موارد الملك الشخصي للسلالة لاتكفي .

ولقد كان هذا التحويل عظيماً جداً في أوربة ، ويلاحظ فيه تداعي العصر الوسيط وميلاد العالم الحديث .

ولكن التاريخ الماركسي يميل إلى توحيد مفهومي الملكية (من ملك) والإقطاعية . وهذا التفسير يدعو ، في الواقع ، إلى التحفظ . لاشك أن الملكيات تعتمد على الطبقة النبيلة ، لأن هذه الطبقة كانت دوماً الطبقة العسكرية وتجهز الجيش بملاكه (كادر) أي بضباطه ، ولكن الملكيات نزعت إلى المركزية ، الإدارية والسياسية ، بتنمية شوكتها المطلقة ، بمساعدة الحقوقيين والاعتماد في الغالب على البورجوازية ضد الطبقة النبيلة الإقطاعية ، ووجد معاً ـ وهذا الشيء ملحوظ جداً في كل تاريخ أوربة الوسطى خلال زمن طويل جداً ـ تحالف الملكية والطبقة النبيلة ونضال الملكية ضد الطبقة النبيلة .

وأخيراً ، إن العامل الديني ، الذي يهمله التاريخ الماركسي كثيراً ، أو يعتبره محصلة ، وتعبيراً روحياً لبعض ظروف اقتصادية واجتماعية ، يستجيب إلى قوى عميقة للحضارة الوسيطية والرومانية ـ المسيحية . وكانت الاهتمامات الدينية تهيمن على القرن السادس عشر ، في وجدان العصر ، كالتحويلات الاقتصادية وفوائد التجارة أو حماية موارد الأرض .

وكان هذا العصر عصر الإصلاح والإصلاح ـ المعاكس اللذين يهمان جميع الطبقات في المجتمع . ويجب أن نضيف أن النمو الاقتصادي الذي أتينا على تحليله لم يعرفه أو لم يدركه الكثير من سكان أوربة القرن السادس عشر ، وأن الكثيرين لم يشعروا بنتائجه في حياتهم اليومية ، ولم يوجد في حياة عدد كبير منهم تحويلات كبرى كالتحويلات التي تحدث في عصرنا ، بينما تأثر العالم كله ، في القرن السادس عشر ، بحدة القضية الدينية .

ويجب أن نحترس من الاعتقاد بأن الإصلاح البروتستانتي قد توقف في منتصف القرن أي في ١٥٥٠ ـ ١٥٦٠ م ، بل بالعكس ، لقد استمر في تقدمه وأكد هذا التقدم .

ومع ذلك ، وجد حادث عظيم بين ١٥٤٥ و ١٥٦٣ م وهو مجمع (ترانت) ، فقد ساعد هذا المجمع الكنيسة على التماسك وتثبيت مذهبها ، وعرض عناصر تنظيمها الجديد . ولكن يجب الاحتراس من الظن بأن الكاثوليك كسبوا القضية من واقع وحيد وهو أن مجمع (ترانت) اتخذ قرارات عظمى . لقد بدأ كل شيء مع مجمع (ترانت) . وأن ماسمي بالإصلاح ـ المعاكس لم يعطه المجمع نفسه ، وإنما الحركة التي ستنمو خلال قرن ونصف على الأقل ، انطلاقاً من مجمع (ترانت) .

والنتيجة إذن هي التعايش في عصر إصلاح يتم تقدمه ، وكنيسة رومانية تتابع تقدمها ، ومن هنا كانت الخلافات الدينية في أوربة كلها ، في النصف الثاني من القرن السادس عشر .

وكانت فرنسا ولا شك في ذلك الحين الرهان الأساسي لهذا النزاع . والقضية المعروضة أمامها هي معرفة ماإذا كانت ستقوم بعملية إصلاح لكنيستها في اتجاه بروتستانتي ، أو ، على العكس ، ستشارك في الإصلاح ـ المعاكس ، في اتجاه وفي روح مجمع (ترانت) .

وتجابه البروتستانت والكاثوليك ، في فرنسا ، في حرب أهلية ، وفي هذه الحرب الأهلية ، اضطر الكاثوليك الفرنسيون إلى البحث عن مساندة الحكومة الاسبانية ، وحدث توحيد في الرأي العام ، بين الكاثوليكية واسبانيا : هيمنة اسبانية ، تفوق اسباني ، استرداد كاثوليكي .

وكانت البابوية قوية ، وقوية دون جدل ؛ لأنها كانت تتصرف بموارد مالية عظيمة بصورة غير مباشرة ومباشرة : بصورة غير مباشرة بواسطة القروض التي

تجربها ، ومباشرة بالموارد التي تأتيها من البلاد المسيحية . وكانت تبحث عن مساندة حكومات الدول الإقليمية حيث أمكنها ذلك . وقام القاصدون الرسوليون بنشاط كبير جداً . وفي فرنسا تكيفت البابوية مع المؤسسة الملكية . وهكذا هدأت الاضطرابات في فرنسا ، وذهبت بعيداً ، وبعيداً جداً لصالح اسبانيا ، لأن سلالة آل فالوا الكاثوليكية انطفأت ولم يكن لآخر ملك منها ، وهو هنري الثالث ، ولد ، ووجد أن الوارث للعرش زعيم بروتستانتي ، وهو هنري نافار . واضطر هذا أن يرتد ليكون ملكاً . وانطلاقاً من ارتداده حصل على مساندة الكنيسة ، واستطاع أن يجمع حول شخصه القوى الموجهة للرأي ، وعلى تهدئة الاضطرابات الدينية . وهذا ماجعل له أعداء ، ولكن الكثرة الكثيرة من الناس أعجبت بنجاحه الذي لا جدل فيه .

وفي اسبانيا ، تحالفت البابوية مع الحكومة الكاثوليكية للملك الكاثوليكي من بيت آل هابسبورغ وهو فيليب الثاني .

وفي أوربة الوسطى ، بحثت عن مساندة الأمراء . ولكن لا يوجد فيها كثير منهم ليعودوا إليها ؛ لأن أوربة الوسطى ، في غالبيتها ، ظلت بروتستانتية . وفي مجمع (ترانت) دعم الأساقفة والأمراء الألمان ، وبخاصة رئيس أساقفة براغ ، الرأي القائل بأنه إذا خول إلى المؤمنين استعمال الكأس المقدسة ، أي المناولة بعرضيها الخبز والخمر ، فإن كثيراً من البروتستانت يعودون لطاعة روما . ويعتمد رأيهم على تجربة حسية لظروف الحياة الدينية : وهي أن اللاهوتيين ، والعقول المثقفة ، التي يغذيها الكتاب المقدس والتقليد ، يمكنهم أن يناقشوا في العقائد . ولكن هذه القضايا عسيرة وصعبة الفهم . والحياة الدينية ليست كلها قضية عقائد ، بل هي أكثر بكثير حياة ورع فردي ، عند الوجدانات السامية ، وتعلق ببعض الطقوس أو الرموز بالنسبة لأكبر عدد منهم . إذن ، يقول الأكليروس الألماني : إذا ووفق على استعمال الكأس المقدسة والمناولة بعرضيها الخبز والخمر ،

فإن كثيراً من الأهواء تهدأ . ولكن مقاومة العناصر الاسبانية ، والإيطالية ، وحتى الفرنسية ، في مجمع (ترانت) ، في بعض الأحيان ، أطرحت هذا الحل . وظل الأساقفة الذين اقترحوه في حضن الكنيسة ، وما كان منهم إلا أن طبقوا تعليمات المجمع المتعلقة بموضوع العبادة والطقوس ، والإبقاء على الاحتفال بالمناولة بعرض واحد . وظلت أوربة الوسطى منقسمة بالحيدة ، وكانت بروتستانتية بنسبة كبيرة جداً ، ورفضت المذهب الكاثوليكي ، وظل الإصلاح يتقدم في النصف الثاني من القرن السادس عشر .

☆ ☆ ☆

الفصل الثاني

عالم أوربة الوسطى قبل حرب الثلاثين عاماً

السكان

لقد أخذت الجمعية اليسوعية على عاتقها القيام بالإصلاح ـ المعاكس في أوربة الوسطى . وبسبب التقدم المستمر الذي حققته البروتستانتية ، في ألمانيا ، في النصف الثاني من القرن السادس عشر ، تبنى الإصلاح ـ المعاكس الكاثوليكي بصورة حتمية صفة منافسة ونضال ، ونشر رسالة . ونظراً لعدم الاتفاق بين المصلحين والكاثوليك في مجمع (ترانت) ، اتخذ نشر الرسالة طرقاً ناجعة : طرق الإقناع وضرب المثل . وكان المهم أولاً بلوغ حكومات البلاد ، وبصورة ممتازة الوصول إلى عاهلها . فإذا صبأ العاهل ، أو بقي مخلصاً لروما ، شجع عمل الإصلاح ـ المعاكس ، وكسبت القضية في القسم الأعظم منها ، ونقول في القسم الأعظم فقط ، لأنه كان عليهم القيام بعملية الإقناع حيال رعاياه وحيال السكان ، أي تبشيرهم ، وإيقاظ اهتمامهم بالعبادات الدينية الكاثوليكية وإرجاعهم إلى حضن الكنيسة .

وهنا يجب أيضاً إدخال عناصر أخرى للإيضاح التاريخي . وعلى وجه الصحة ، إن المهتم بالأشكال الجديدة في البحث والدراسة ، التي تتقدم في معرفة الحساسيات والعقليات الجماعية ، يرى أن إنسان القرن السادس عشر والقرن السابع عشر ، لم يكن إنسان القرن التاسع عشر والعشرين ، وأن المجتمعات لم تكن متطابقة . وربما كان من خطأ الهستوريوغرافيا (الكتابة التاريخية أو التأليف في

التاريخ) في القرن الأخير ، أنها أرادت أن تحكم على حوادث المئتي عام السابقة حسب أشكالها الخاصة في الحساسية .

ونتساءل من هو رجل القرن السادس عشر والسابع عشر ؟ في الحقيقة ، لا يوجد رجل واحد لهذين القرنين ، وإنما يوجد رجال ، يختلف بعضهم عن بعض . ونذكر على سبيل المثال ، أن النهضة الإنسانية شكلت الوجدانات المستنيرة في النخبة ، الفريق الاجتماعي الذي نفهمه أفضل من غيره ، ونقصد بذلك الحكماء الذين كانت ثقافتهم روحية ومطبوعة بطابع قوي من الأدب اللاتيني ؛ والخطباء ؛ والفلاسفة السياسيون . فمن ذلك أن شيشيرون لم يفرض لغته فحسب ، وإنما الكثير من أفكاره . وهذه الثقافة وجدت في الغالب منضمة إلى ثقافة دينية مؤسسة على اللاهوت ، وعند البروتستانت أكثر بكثير مما عند الكاثوليك ؛ وعلى الكتاب المقدس ، وإيلاف الأسفار الإلهية ، وفي كل الأحوال مع الفارق خرج عن النهضة الإنسانية ، كما خرج عن إيلاف الأسفار المقدسة ، أو تقليد وتعاليم آباء الكنيسة ، مثل أعلى للعدل والإحسان . والناس الذين يشاطرون هذه الأفكار ويبشرون بها ، يؤلفون ، بالرغم من كل شيء ، مع زبائنهم ، فريقاً له نفوذه . ولكنه ضيق محدود .

وهناك فرق أخرى لها عقلية مختلفة ، وتشكلت بطرق التجارة وممارسة الحق العرفي أو الروماني ، وظروف العمل في اقتصاد مبادلات في كامل تقدمه . ونقصد بهم بورجوازيي المدن ، ولكن هؤلاء أيضاً يؤلفون فئة قليلة ، وهي نخبة النجاح والثروة .

وتوجد صور أخرى للتفكير خاصة بالعصر وتراثه التاريخي : مثال ذلك ، أن قيمة السلطة كانت تعتبر قيمة أساسية ، على حين أن قيمة المساواة في عصرنا الحالي أكثر وزناً . لقد كانت السلطة مقبولة في مجتمع مبني على التسلسل بقوة .

ولم تؤخذ المساواة على اعتبار انها مساوئ ، فالامتيازات التي تسهم دون شك في إقامة التمييز في هذا المجتمع ، ووضع الناس على مستويات مختلفة بعضها بالنسبة لبعضها الآخر ، كانت تضمن لفريق اجتماعي ما حقوقه ، تبعاً لفائدته على العموم ، في المجتمع ، كأن يقال نفعه للخير العام ، ولكن الخير العام لم يكن فكرة منتشرة جداً في ذلك العصر . وعليه فالامتيازات ، والأعراف تحدد الحقوق والواجبات لعدد من الأفراد ، ولم تكن أفضالاً منحت إلى أفراد بنية ضرر فريق آخر ، وإنما مجموعة ضمانات لفريق خاص .

أما الحساسية الدينية التي كثيراً ما ارتكبت الأخطاء بحقها ، ففي ذلك الزمن لم تكن هذه الحساسية لتريد أن تكون الشدة الأساسية على طيب العيش أي العيش أخلاقياً طبقاً مع مبادئها . لأن الأهم هو قضية الخلاص الأبدي : فقد كان المجتمع مؤمناً ، مشغولاً بالآخرة ، يألف الموت ، وربما في بعض المظاهر ، يألف الموت أكثر من العصر الحالي أو القرن التاسع عشر ، بالرغم من الحروب الكبرى وكثرة النوائب والكوارث .

وأخيراً ، الحساسية دونما زيادة . لأن الحياة قاسية في كل مكان . وفي كل مكان كان الإنسان دون حماية ودفاع كبير ضد أخطار المناخ وانتشار الأمراض . ولذا كان رجال هذا العصر ، بصورة فردية ، قساة جفاة على أنفسهم وعلى غيرهم . لقد تركت حرب الثلاثين عاماً شهرة دور المخاوف والفظائع ، ولم تنزع منه هذه الشهرة على وجه التأكيد ، وما كان منها إلا اشتداد الأشكال السابقة لحساسية العصر : الفظاعة ، الخبث ، تذوق الدم ، التعذيب . لقد كان الإنسان قاسياً ، في القرن السابع عشر ، حيال كل من كان ضعيفاً . ويشعر بالاحترام الكبير أمام القوة . ومن كانت بيدهم القوة أساءوا استعمالها : قساوة حيال الشيوخ ، قساوة حيال النساء ، قساوة حيال الأطفال ، قساوة حيال الحيوانات . وهذه الصفات كانت صفات مجتمع ريفي يعيش على صلة بالطبيعة ولا يلين ولا

يحن ، كما في آخر القرن الثامن عشر ، على رقة الطبيعة ورفقها . لقد كان يناضل بعناء ضد القوى الطبيعية الغاشمة .

الأمبراطورية الرومانية الجرمانية المقدسة

النظم المركزية

من حيث النطاق والحدود . يمكن أن تنطبق الأمبراطورية ـ المقدسة على البلاد المسيحية .

لقد شهد العصر الوسيط هذا الاتحاد وهذه الخلافات بين الروحي والزمني ، وكان الأمبراطور والبابا يتقاسمان السلطة العليا في البلاد المسيحية ، ولا يخلو الأمر من منازعات . وعلى اعتبار أن الأمبراطور يأخذ اللقب الأمبراطوري بعد أن يضع البابا على رأسه التاج الأمبراطوري ويباركه ، فقد بدا ذلك وكأن روما تلحق سلطته بالمباركة الكنسية . ومع ذلك فقد كان الأمبراطور يبدو أهم عاهل في العالم المسيحي . وكان زمناً طويلاً الوحيد الذي يحمل لقب « صاحب الجلالة » وعندما وضع ملوك فرنسا في رأسهم المطالبة لأنفسهم بلقب « صاحب الجلالة » وكتابة ذلك في صكوكهم الرسمية (دبلوماتيك) ، كان قرارهم هذا جريئاً ، ومخالفاً للمعتاد .

ولكن الدول الكاثوليكية : فرنسا ، انكلترا ، حتى اسبانيا ، قبل الفتح واسترداد اسبانيا من أيدي العرب ، كانت قد تحررت كثيراً أو قليلاً من الأمبراطور ولم يشأ الأمير القوي الاعتراف بتفوق الأمبراطور .

ومنذ منتصف القرن الخامس عشر . لا يوجد أمبراطور في بيزنطة ، لأن سقوط القسطنطينية ، وتوطد الأتراك في عاصمة الامبراطورية الشرقية قد صفّيا ، في شرقي أوربة ، آخر آثار « رومانيا » .

ولنر الآن ، منـذ المرسوم الـذهبي الامبراطوري في القرن الرابع عشر ، كيف تقلصت الامبراطوريـة الرومـانيـة وتركزت بشكل مـا على أرض الامبراطوريـة ـ المقدسة الجرمانية ، أي على ألمانيا .

حتى « الثورة الصناعية » في القرن التاسع عشر ، كانت ألمانيـا بلـداً زراعيـاً، بارداً وفقيراً ، ومأهولاً تقريبـاً ، ولم يكن محرومـاً بشكل واحـد ، ولكنـه لم يكن بلداً غنياً بالرغم من وجود فلذات الحديد والمعادن الثمينة المستغلـة بقوة منـذ القرن الخامس عشر وبخاصة في القرن الســادس عشر . وتوجـد فيـه جبـال عـاليـة ، في منطقة الألب ، في الجنوب ، ولكن كلما تقدمنـا ، نحو بحر الشمال والبـالطيـك ، وجدنا السهول القليلة الخصب والمناخ الشديد .

ومع ذلك تجتاز هذا البلد أنهار كبرى تساعد المواصلات ، وتربط بين أجزائه الفقيرة الاقتصـاد . وليكافـح الإنســان ، ولـو قليـلاً ، بـالعمـل والإنتـاج ، هــذه الأوضاع الطبيعية غير المواتية ، ويتغلب عليها ، توفرت لـديـه الإمكانـات لنشر منتجات صناعته وتجارته إلى بعيد بواسطة الأنهـار : الراين ، الـدانوب ، الإلب ، الأودر ؛ أو الروافد مثال الماين الذي يخترق ألمانيا الوسطى .

وبعـد أن أتينـا على ذكر فقر ألمــانيــا ، يحسن أن نصر على اختـلاف ترابهـا ومواقعها . ويفاجأ المرء ، بعد أن يجتاز هذه المناطق الشديدة المغطاة بـالغـابـات والمستنقعات ، عندما ينفذ إلى وديان ضاحكة تزرع على جنباتها الكرمة .

وهكـذا تتضح ، في القرن الخـامس عشر وفي القرن الســادس عشر ، عنـاصر الرخاء الاقتصـادي العـديـدة ، لهـذا البلـد الجـاحـد القليل الخصب ، عن طريق استخراج الفلذات المعدنية ، وتـأسيس الصنـاعـة وتقـدمهـا ، ولا سيا الصنـاعـات النسيجية . وتتأمن الصناعة فيه بواسطة الأصناف المهنية .

وفي القرن الســادس عشر ، كانت الظروف الـديمـوغرافيـة مـواتيـة ، وتقـدم

الشعب تقدماً سريعاً جداً ، وتقدم على ما يبدو ، من ١٢ إلى ٢٠ مليون نسمة .

ورافق هذا الازدهار تقدم في الزراعة . ففي هذا العصر بدئ بالأعمال الزراعية في الأراضي البور ، فأنبتت نباتاً حسناً وأعطت محاصيل طيبة ، بفضل العناية الدائبة ، والعاقلة والمستنيرة والمستمرة قدماً دون تراجع .

هذه هي الصفة الجغرافية لألمانيا .

وعلى الصعيد العرقي ، لم تكن ألمانيا مأهولة بالألمان وحدهم ، ولم يشعر الشعب بعد بعاطفة تشكيل شعب واحد : لقد كان يتألف من جماعات توضعت إلى جانب بعضها ، منهم من يتكلمون الألمانية ، والكثيرون يتكلمون لهجات ألمانية مختلفة جداً لدرجة عدم التفاهم بين بلد وآخر . ومنهم السلاف الذين ينتسبون إلى العالم الهندي ـ الأوربي . المتميز عن الألمان واللاتين .

والعنصر السلافي ، ونعني الذين يتكلمون اللغة السلافية ، والذين هم سليلو السلاف القدامى . ولنقل ان هذا النسب في القرن التاسع عشر غير مؤكد تماماً ، لأن التكلم باللغة لا يبرهن على ارتقاء مباشر يصعد إلى السكان الأوائل الذين يؤلفون جماعة لغوية واحدة . أما في القرن السابع عشر ، فالنسب صحيح تقريباً . والعنصر السلافي يكثر شيئاً فشيئاً ويصبح أكثر عدداً كلما ذهبنا نحو الشرق . ولنذكر على سبيل المثال أن لفظ (ليبزيغ) ليس اسماً جرمانياً وإنما كلمة سلافية تعني ليپّا أي : زيزفون ، وبروسيا كانت في ذلك الحين بلداً سلافياً . وفي ساكس يوجد عدد عظيم من السلافيين ، وفي لوزاس في شرقي نهر الإيلب ، نرى العنصر السلافي بنسبة قوية وربما يؤلف الغالبية أيضاً ، وإن تراجع منذ قرنين أو ثلاثة قرون .

والنظام السياسي للأمبراطورية ـ المقدسة الجرمانية هو النظام الذي حدده الأمر الذهبي للأمبراطور شارل الرابع في القرن الرابع عشر ، وقد أصدره في ٢٥

كانون الأول ١٣٥٦ م ونظم به شروط الانتخاب الأمبراطوري الذي عهد به إلى سبعة ناخبين وهم : ثلاثة كنسيون ، وأربعة علمانيون . والناخبون العلمانيون الأربعة هم حسب نظام التشريفات المتناقص : **ملك** ، ملك بوهيميا ، **دوق** ، دوق ساكس ، **ماركيز** ، ماركيز براندبورغ ، **كونت** ، كونت بالاتينا الراين . واللقب الذي يعطيهم الحق في هذه الصفة ، صفة ناخب ، ينمحي وراء هذا المنصب الانتخابي . وفي اللغة الجارية ، يقال ناخب بوهيميا ، ناخب ساكس ، ناخب براندبورغ والناخب البلاتيني . والناخبون الكنسيون الثلاثة هم : ثلاثة رؤساء أساقفة مدن : ماينس ، كولونيا ، تريڤ .

والأمبراطور المنتخب غير مورث . والمنصب الأمبراطوري لا تصل إليه امرأة . ولم يوجد امرأة امبراطورة ؛ حتى ولا ماريا ـ تيريزا التي لم تكن أبداً امبراطورة بسلطتها الخاصة ، ولكنها كانت كذلك ، لأن زوجها ، حتى ولو كان بالنسبة للتاريخ ممحياً أكثر منها ، ومعروفاً (أقل منها) كان امبراطوراً منتخباً .

ومع ذلك ، فمنذ ١٤٤٠ م ، احتكرت التاج الأمبراطوري عائلة واحدة وهي بيت آل هابسبورغ .

ويوجد ، في الواقع ، واسطة للدوران على الصعوبة . فكما أن أوائل الكابسيين ، في فرنسا ، انتخبوا ملوكاً في الأصل ، وطلبوا الاعتراف بابنهم البكر ، ومباركته ، في حياتهم ، ليصبح خلفاً لهم ، كذلك طالب الأمبراطور الناخبين أن يعينوا في حياته ابنه ، أو أخاه ، وأقرب قريب مذكر ، (ملك الرومانيين) ، وباختصار ، أشركه بالمنصب الأمبراطوري . ولكن بالمنصب فقط لا بممارسة الوظائف الأمبراطورية . وعندما يموت الملك ، يصبح ملك الرومانيين ، المنتخب والمتوج سلفاً ، امبراطوراً بصورة آلية ويحل محل الأمبراطور الراحل .

ولكن الأمبراطور لم يكن إلا ناطقاً باسم الأمبراطورية . ولم يكن بأي

صورة سيداً مطلقاً . وكان نشاطه محدداً بدقة ، بالعرف وبقوانين الأمبراطورية .

وإلى جانب الأمبراطور ، يوجد ، الدياط ، أو الرايخشتاغ ، وكلمة (دياط) وكلمة (تاغ) شيء واحد ، وتعني (اليوم) ، والرايخشتاغ تعني حرفياً : (يوم الأمبراطورية) أي : مجلس الأمبراطورية .

وكل أمير ألماني تابع « مباشرة » للأمبراطور له صوت في الرايخشتاغ ويجب أن نفهم جيداً أهمية كلمة (مباشر) : أن يكون (مباشرة) تابعاً للأمبراطور أي ألا يكون له سيد آخر غير الأمبراطور . ويوجد في ألمانيا « أمراء أمبراطورية مباشرون » وهم أقل قوة وأقل غنى من آخرين ليس لهم نفس اللقب ، أي أنهم يتبعون أمير أمبراطورية قبل أن يتبعوا الأمبراطور . وهذا المدلول هام لفهم نظام الأمبراطورية ـ المقدسة الرومانية الجرمانية .

والدياط أو الريخشتاغ هو اجتماع جميع الأمراء والدول الألمانية ، وينقسم إلى ثلاث (هيئات) : هيئة الناخبين ، وليسوا كثراً لأن عددهم سبعة ؛ وهيئة الأمراء ؛ وهيئة مدن الأمبراطورية .

إن هيئة الأمراء أكثر الهيئات تعقيداً . وتبلغ إجمالاً رقم ثلاثمائة عضو . وهذا هو الرقم الذي يعطى دوماً . وليس صحيحاً أبداً ، لأن عدد أمراء الأمبراطورية يختلف ، بموت بعضهم ، وأحياناً بتجمع بلاد أو بتجزئة بلاد ، ولكنه يعطي مع ذلك نظام نسبة عادلة .

وهؤلاء الثلاثمائة عضو يضمون هم أيضاً ، ثلاث هيئات منفصلة : هيئة رؤساء الأساقفة ، الآباء ، والأمهات أي رؤساء ورئيسات الأديرة ، لأن النساء ـ الأمهات البندكتيات ، من أتباع القديس بندكت ، أو أمهات مختلف الأديرة الألمانية ، كنّ أعضاء في الرايخشتاغ ـ ثم تأتي هيئة الأدواق واللاندغرافات ، وأخيراً هيئة الكونتات والبارونات والبورغرافات .

ولكن يحدث أن أميراً واحداً ، دوقاً واحداً ، أولاندغرافاً يتصرف بعدة أصوات لأنه يملك عدة دول تابعة مباشرة للأمبراطورية . وبالمقابل لا يتصرف الكونتات والبارونات والبورغرافات بصوت فردي ، ويجلسون على مقعد خصص له صوت واحد . وعليه فهم كثرة ، ولكنهم لا يعطون إلا صوتاً واحداً ، وعليهم أن يتفقوا فيما بينهم .

والقرار يأخذ شكل اتفاق بين الأمبراطور والدياط . وله قوة القانون . وبالتالي ، إن أكثرية الهيئات هي التي تقرر . ولكن مبدأ الأكثرية يكافح غالباً . وهذه أيضاً صفة من صفات العصر الوسيط الموروثة عن العهد الروماني ، وبموجبها يخفق المبدأ الحديث للأكثرية بمبدأ تصويت الفئة الممتازة . وعلى أي حال فقد قبل مبدأ الأكثرية ، ولكنه لا يخلو من صعوبات في حال التطبيق .

وكل دولة ، باعتبارها تابعة للأمبراطورية ، ملزمة بتنفيذ قانون الأمبراطورية ، ولكن صلاحية التشريع في الأمبراطورية في موضوع الاقتصاد والقضاء تبقى محدودة جداً ، لأن احترام القرارات المتخذة أو عدم احترامها تابع لكل دولة . ومن البديهي أن الدول القوية أقل انصياعاً . وهكذا يرى تجابه دول ، قوية من قبل ، مع دول حديثة في داخل الأمبراطورية التي ما زالت تحافظ على أشكال التنظيم الإقطاعي .

ويوجد إلى جانب الأمبراطور والدياط ، مع العلم بأن للدياط السلطة التشريعية إجمالاً ، هيئات مركزية للعمل والإدارة .

ويأتي أولاً (مستشارية الأمبراطورية) التي تعتبر وزارة عامة ومركزية للأمبراطورية . والرئيس المستشار هو رئيس أساقفة ماينس . وفي القرن السادس عشر كان إلى جانبه نائب المستشار الذي يمثل الأمبراطور .

وفي المقام الثاني يأتي مجلس الأمبراطورية (رايخشوفرات) . وهذا المجلس

يتبع الملك فقط ، ويسمي المستشارين حسب اختياره ، شريطة ألا يأخذهم إلا من رعايا الأمبراطورية . وهو يؤلف محكمة ، وصلاحية هذه المحكمة تمتد دون تمييز على الدول الوراثية الشخصية للأمبراطور وعلى الأمبراطورية . إنها محكمة اقطاعات وامتيازات ومظالم جنائية ضد الأعضاء المباشرين في الأمبراطورية أو من أجل المنازعات التي تطرأ حول الحقوق الاقطاعية .

وإلى جانب هذه المحكمة توجد محكمة أخرى ، ولكنها في الغالب تناقضها وتنافسها ، وهي (محكمة مجلس الأمبراطورية) وتنظر في القضايا القضائية المتعلقة بمختلف دول الأمبراطورية ، وتصدر أحكامها باسم الأمبراطور ، ويسمي الأمبراطور رئيسها ، ولكنها في الواقع تتبع الدول بخاصة . وهي ، من حيث المبدأ ، محكمة بدائية فيما يتعلق بالدعاوى المباشرة في الأمبراطورية . ولكن البلاد الكبرى تحاول أن تكون لها محاكمها القضائية الخاصة . وهكذا أصبحت محكمة مجلس الأمبراطورية محكمة استئناف .

والتنافس بين مجلس الأمبراطورية ومحكمة مجلس الأمبراطورية يعبر عن التنافس الموجود في ألمانيا ، وبين الاهتمام باستقلال الدول وحاجتها ، رغم ذلك ، إلى الأمبراطور . وهذه أيضاً حالة خاصة بالأمبراطورية المقدسة ، وقد أساء الغرب فهمها في ذلك الحين . فقد كان الأمراء متعلقين بنظم الأمبراطورية ، إما لأنها تؤمن لهم حماية عندما يكونون ضعفاء ، وإما لأنها لا تعارض تقدمهم عندما يتحررون ويصبحون أقوياء . وعلى أي حال كانوا بحاجة إلى الأمبراطور ولكن يجب ألا يكون هذا الأمبراطور قوياً كثيراً لا في سلطته الشخصية ولا بالشكل الذي يستطيعه ، بالهيئات التابعة له ، ليغلب قراره في القضايا الأساسية للأمبراطورية . وهكذا يرى أن الدياط ، ومحكمة مجلس الأمبراطورية ، ومستشارية الأمبراطورية تقيم التوازن مع الأمبراطور ، وتمنعه من أن يكون سيد البلاد . ولكن الأمبراطور يبقى ، رغم ذلك ، ضرورياً كممثل للأمبراطورية .

وهيبته المعنوية تؤمن له في الخارج احترام الجميع ، وفي ذلك ما يفيد مختلف الدول لحسابها الخاص .

الدول الإقليمية

إن تنظيم الأمبراطورية ، في خطوطه الكبرى ، يجب ألا يخفي عنا أن الأمور كانت أكثر تعقيداً في الواقع .

إن نزاعاً على النفوذ بين بعض البلاد يساعد بعضها الآخر على أن يؤمن لنفسه ملكاً أرضياً كبيراً ، وإلى أمرائها أن يلحقوا بهم المجتمع المحلي ، وأن يزيدوا في عدد وتماسك وأهمية هيئات الحكم والإدارة .

وفي داخل الأمبراطورية المقدسة ، يرى ، في القرن السابع عشر ، دول إقليمية متشكلة منذ زمن طويل ، وآخذة بأسباب القوة والتماسك أكثر من ذي قبل . فالأمير يمارس بسلطة الدولة على البلد سلطة قضائية ، وبالتالي يدخل في المرافعات البدائية وأحياناً أكثر ، محاكمه بين المتداعين ومحاكم الأمبراطورية . ويجمع موارد مختلفة : من أملاكه ؛ ومن الجمارك ، ومن رسوم المرور على الطرق والجسور ، ومن التكاليف التي يطلبها من رعاياه لينسق بين مصالحه ، وبخاصة ، لإقامة قوة عسكرية .

وهكذا نشاهد توسع أراضي بعض الدول ، ومن الممكن القول أيضاً بعض الإمارات ، إذا فهمنا بصورة عريضة كلمة (إمارة) .

وهذا التجميع الأرضي ينجم عن تسويات عائلية : فأحياناً لا يوجد وارث عندما تنطفئ العائلة ، وعندئذ تقطف الفروع غير المباشرة الإرث ، أو بزواجات تعقد على نية زيادة قوة الأمير الإقليمية .

وكان الحق في العصر الوسيط معقداً جداً ومتناقضاً جداً ، وتنجم عنه محاكات

لا عدّ لها ، ولا ترى أجيال عديدة نهايتها ، وتستيقظ حسب الظروف والمناسبات .

وفي داخل هذه الدول يحافظ على النظام الحقوقي للسكان موزعين على فئات : الكنيسة ، النبلاء ، بورجوازيو المدن . وأحياناً ، في بعض المناطق ، كما في التيرول ، ينظم الفلاحون بفئة .

ويجتمع ممثلو هذه الفئات في دياط أو (لاندتاغ) . ولكن يبدو أن شكلاً من التنافس يرتسم ، في داخل كل من هذه البلاد ، بين الأمير واللاندتاغ ، لأسباب يسهل فهمها : وهي أن (اللاندسفورست) ، أي أمير الإقليم ، يحاول أن تكون له سياسة مستقلة إزاء جيرانه ، وفي داخل الأمبراطورية . وبهذا هو بحاجة إلى زيادة سطوته . ولما كانت موارد أملاكه لا تكفيه ، كان يطالب رعاياه بتكاليف . وهذه القضية الضريبية ، التي تهيمن على كثير من الأمور ، أثارت مقاومات متكررة من جانب اللاندتاغ . وعليه وجد نوع من ازدواجية في الحياة السياسية لهذه الدول : فمن جهة الأمير ، ومن جهة أخرى ، الدياط الذي يتبعه الأمير حتماً بسبب هذه الضرورة الضريبية .

وهذه الحياة السياسية ، في بعض الدول الكبرى ، الكبرى نسبياً ، تذكر ، في الواقع ، بحياة الأمبراطورية القريبة من حياتها ، في التنازع على الاختصاصات ، بين الأمبراطور ودياط الأمبراطورية ، الرايخشتاغ .

ويجب أن نذكر أيضاً بأن حياة السكان اليومية لم تسيطر عليها بخاصة هذه المسائل القومية وهذه التقسيمات إلى دول . ولكن هنالك شيئاً أقوى أيضاً وهو وجود **الاقليم الجغرافي** (غَوْ) ، لدرجة ، حتى في ألمانيا اليوم ، يرى أن عاطفة الطائفة ، وتوافق المصالح في داخل الاقليم الجغرافي مازالت قوية جداً .

وأخيراً ، في القرن السابع عشر ، يرى أن الولاء الأقطاعي ، للتابع حيال

أميره ، يلعب دوراً عظيماً جداً في الأمبراطورية ـ المقدسة . فهو في أساس كل دفاع إقليمي . ولكن الدول الأقوى من غيرها لا يمكنها أن تكتفي بالمساعدة العسكرية التي يؤمنها لها هذا الولاء الأقطاعي . فهي لا تجمع في جيشها الأمراء فحسب ، أو زبائن الأمراء التابعين لهم ، وإنما كانت بحاجة إلى قوة عسكرية أهم ، بأعطياتها ، وهذا يفترض تنظيماً مالياً صالحاً . وكان كثيرٌ من الأمراء من الدرجة الثانية ، وصغار الأمراء دون موارد شخصية هامة يدخلون على هذا النحو في الخدمة العسكرية لمن هم أقوى منهم ، دون خيار قطعي ، ونعني بذلك ، دون أن يدوم التزامهم بالضرورة تجاه هذا الأمير طوال حياتهم ، وهنا يوجد أصل هؤلاء الزعماء الحربيين الذين يقودون جيشاً ، لخدمة هذا الأمير أو ذاك ، أثناء حرب الثلاثين عاماً . ولكن دون ارتباط بقضية هذا الأمير ، وبالعكس كانوا مستعدين تماماً إلى الانتقال بجيشهم إلى المعسكر الآخر ، إذا كان هذا المعسكر يقدم لهم فوائد أكثر . وهذا أمر عجيب غريب ، ولكنه يتضح بوجود وتوسع سوسيولوجي لحادث شائع جداً : وهو أن زعيم الجيش يضع نفسه تحت تصرف أمير أجنبي عن بلده الأصلي .

وبين هذه الدول الإقليمية ، توجد دول كنسية . وهي دول مباشرة ، أي لا يوجد فوقها إلا الأمبراطور . ويحكمها أسقفها وهو أميرها مدى الحياة . وبالتالي ، يدير هذه الإمارة الكنسية كما يدير الأمير العلماني إمارته .

وحول المدينة ، مقر الأسقفية ، تمتد أرض واسعة كثيراً أو قليلاً ، ويمكن أن يكون فيها أراض خاصة محصورة داخلها .

ومن جهة أخرى ، إن الأسقف زعيم أبرشية . ولكن هذه الأبرشية ، وهي تقسيم إدارة دينية وروحية ، قد لا تنطبق بالضرورة على حدود الإمارة الكنسية . وعليه يوجد أراضٍ أجنبية تابعة للأسقف ، من وجهة النظر الأبرشية ، ولكنها غير تابعة لأمارته الكنسية .

وينتخب الأسقف من قبل مجلس الكهنة القانونيين . والكهنة القانونيون الذين يملكون بصفتهم هذه عدداً من الدخول والموارد والفوائد ، كانوا شخصيات قوية .

وعدا عن الدول الكنسية ، توجد مدن الأمبراطورية ، وهي جمهوريات صغيرة . يديرها مجلس شيوخ مؤلف من وجهاء المدينة . واقتصادها قوي ، نظراً لوجود الأصناف الحرفية الأساسية والعدد الأعظم من الرحاب (الورشات) . وكانت بعض المدن مقرات لمعارض تقوم فيها ، مرة أو عدة مرات في العام ، أعمال هامة جداً تتجاوز كثيراً إنتاج وتجارة المدينة . وفي هذه المعارض ، ولكثير منها صفة دولية ، تجرى العمليات المالية : دفع السفاتج وسندات الحوالة وغيرها ...

وخارجاً عن الأسوار ، التي كان معظمها محصناً ، تدير المدن أرضاً كبيرة كثيراً أو قليلاً تابعة لها ، عبر بنيات أقطاعية . وبالتالي كان للمدن فلاحون تحت سلطتها .

وهذه المدن ، بالنسبة لمفهومنا الحالي للمدينة ، ليست مجمعات عمرانية كبرى . إن مدينة كولونيا التي تبدو أهم من غيرها ربما يبلغ عدد سكانها ٣٠٠٠٠ نسمة . ثم مدن لوبيك ، هامبورغ ، أوغسبورغ ، نورامبرغ ، لا تتجاوز الواحدة منها ٢٠٠٠٠ نسمة . وفرانكفورت ، بالرغم من معرضها الشهير ، ليس فيها إلا ١٠٠٠٠ نسمة . وتوضع مائة وخمسون مركزاً مدنياً بين ١٠٠٠ و ٢٠٠٠ نسمة .

وهذا كاف ليفهم أن هذا التفتيت ، في الأمبراطورية إلى عدد عظيم من الأراضي غير المتجانسة جميعاً ، يجعل المجموع ضعيفاً جداً . ولذا وجب ، عبر سنوات ، تلافي هذه المحاذير وإيجاد طرق لتصحيحها . وابتداءً من ١٥٠٠ م ، دون تغيير حدود الإمارات والمدن ، تجمعت أرض الأمبراطورية في عشر دوائر امبراطورية ، لتأمين دفاع متجانس لكل شطر من الأرض . ولم يكن على رأس

هـذه الـدوائر عـاهل ، وإنمـا مجلس (الكرايشتـاغ) تمثل فيـه الإمـارات الكبرى والصغرى بـ أدواق ، كونتات ، أمراء ، ومدن الأمبراطورية .

والتنظيم دفـاعي وعسكري بصـورة بحتـة ، أي نـوع من التحـالف بين أمراء منطقة جغرافية .

وتتخـذ القرارات في الكرايشتـاغ بـأغلبيـة الأصـوات . ومن حيث المبـدأ ، تتصرف كل إمارة ممثلة في الكرايشتاغ بصوت واحد . وهذه الدوائر العشر هي :

دائرة النمسا ؛ دائرة بورغونيا ، التي تضم معـاً البلاد ـ المنخفضـة والفرانش ـ كـونتـه ؛ ودائرة نـاخبيـات الراين ؛ ودائرة فرانكـونيـا (منطقـة نـورامبرغ وفرتـزبـورغ) ؛ ودائرة بـافـاريـا ؛ ودائرة سؤاب (الفـورتـامبرغ) ؛ ودائرة الراين ـ الأعلى (اللورين ، الألزاس ، هسّ ثم السـاڤـوا مـع شـامبيري) ؛ ودائرة وستفاليا التي تضم منطقـة بريمن ، ومونستر ، وأوسنـا بروك) ؛ ودائرة سـاكس ـ العليا (التي تضم منطقة درسدن ومنطقة برلين) ؛ ودائرة ساكس ـ الدنيا .

ولكن توجد أراضٍ تابعة للأمبراطورية ، ولا تدخل في هذه الـدوائر : مثل سويسرا ، لأن الاستقلال التـام عن الأمبراطـوريـة لم يعترف بـه لسـويسرا إلا في مؤتمر وستفـاليـا ؛ والفريق الـذي سنتكلم عنـه بعـد قليل ، بوهيميـا ، سيليزيـا ، مورافيا . وكذلك إمارات شمال إيطاليا لا تؤلف جزءاً من دوائر الأمبراطوريـة ، ولكنها مشهورة بأنها (اقطاعـات أمبراطوريـة) أي أن الأمبراطور يقلـد التـابع امارتها . والبندقية ليس لهـا علاقـة بـالأمبراطوريـة : وهـذا يعني أن « صـاحبـة السيادة » البندقية كانت مستقلة تماماً .

وهذه البنية الداخلية للأمبراطورية . وهذه التجزئة للـدول . وهـذا الصعود لبعض الأمراء نحـو السلطـة الإقليميـة ، لأنهم عرفـوا كيف يجمعـون تحت سلطتهم

عـدداً عظيماً من الأراضي ، توضح وتبرر ثروة العـائلـة التي أعطت منـذ ١٤٤٠ م أباطرة للأمبراطورية المقدسة ، وهي عائلة آل هابسبورغ .

سلالة آل هابسبورغ

تحدرت هذه السلالة من ذرية أقطاعية قـديمـة سويسريـة الأصل في جبـال آرغوفيا ، في هابشتبورغ ، حصن الصقور .

ولا مجـال هنـا لطرح قضيـة رسم تـاريـخ عـائلـة آل هـابسبـورغ ، ويحسن الرجوع إلى الخارطة ورؤية كيف نمت سلطـة هـذه العـائلـة في اتجـاهين ، ولكن دوماً في الجزء الجنوبي من الأمبراطورية . وابتداءً من بحيرة كونستـانس ، وسعت مكاسبها الأرضية وسلطتها :

١ ـ نحو الغرب . في سؤاب ، في بريسغـو ، في منطقـة الغـابـة السـوداء ، ثم اجتازت الراين ، باتجاه جبال الفوج ، في جنوب الألزاس .

٢ ـ بـاتجـاه الشرق ، في فـورارلبرغ ، والتيرول ، والنمسـا ، فـوق وتحت نهر (الإينز) ـ النهر الذي يفصل حالياً النمسا العليا والنمسا الدنيـا ـ وفي الألب ، وفي كارنثيا ، وفي الكارنيول ، وحتى تريستا .

وكانت المرحلـة الأولى ـ إن أمكن القـول ـ الاستقرار ، بعـد انطفـاء عـائلـة إقطاعية قديمة ، عـائلـة آل بـابنبرغ ، في الأراضي التي تسمى النمسـا ، التي بترت ، منذ القرن التاسع عشر ، من ملحقات سؤاب وتؤلف اليوم جمهورية النمسا .

ولكن ارتبـاطـات زواجيـة ـ « أنت النمسـا السعيـدة ، تـزوجي » يسّرت للعائلة أراضي هامة جداً .

بزواج ماكسمليان ، بن الأمبراطور فريد يريـك الثـالث ، من ابنـة شـارل المتهور ، ماريا بورغونيا ، دخلت البلاد ـ المنخفضة (ويراد بالبلاد ـ المنخفضة :

بلجيكا ، هولاندا ، واللوكسمبورغ) وبورغونيا (أي بورغونيا الحالية والفرانش ـ كونته) في ملك العائلة .

كان ماكسمليان ، من أذكى أمراء عصره ، وأكثرهم طموحاً . وعندما توفيت زوجته ماريا بورغونيا ، تزوج آنّا بروتانيا واتخذ لنفسه على هذا النحو موطئ قدم في الجهة الأخرى من فرنسا . ولكن هذا الزواج لم يدم وتزوجت آنّا بروتانيا تباعاً ملكين فرنسيين .

وأتى ماكسمليان ، من زواجه من ماريا بورغونيا ، ابن وهو فيليب الجميل ، وارث أمه . وهذا الأخير عقد زواجاً ذا أهمية سياسية كبيرة : فقد تزوج جانّ (دونا خوانا) وارثة الملكين الكاثوليكيين : فردينـاند ملك آراغون ، وإيزابل ملكة قشتالة ، وكان لدونا خوانا أخ توفي ، ونتيجة لذلك أخذت إرث الملكين الكاثوليكيين : من أبيها السلطة والمطالب في إيطاليا ؛ ومن أمها قشتالة .

وهكذا حصل شارل ، الابن الأكبر لفيليب الجميل وخوانة المجنونة ، حفيد ماكسمليان ، على إرث عظيم ، وانتخب أمبراطوراً عند وفاة جده .

وعندئذ جرى تقسيم : وبموجبه احتفظ الأمبراطور شارل ـ كنْتُ تحت إدارته بحصة بورغونيا ، وحصة الملكين الكاثوليكيين . وكان الأمبراطور شارل ـ كنت بلجيكياً واسبانياً قبل أن يكون ألمانياً ، ولكنه سلك سياسة أوربية . بيد أن أخاه ، فرديناند ، الذي يليه بالسن ، ويبدو أن اسمه الصغير واشبينية جده ، أبي أمه ، فردينـاند الكاثوليكي ، يؤهلانه لاسبانيا ، أخذ ، بالعكس ، الحصة النساوية وتزوج آخر بنت لآل جاجيلّون ، آنّا جاجيلون ، أخت لويس ملك بوهيميا وهونغاريا .

وإذا وجد تقسيم بين الأخوين ، فقد وجد تحالف وثيق ووحدة سياسة بين الفرعين . ولم يخصص شارل ـ كنت ابنه فيليب الثاني للتاج الأمبراطوري ، ولذا

رجع هذا التاج ، بطريق الانتخاب ، إلى أخيه فرديناند . والتاج الأمبراطوري الانتخابي ، بواسطة انتخاب ملك الرومانيين ، ظل كابراً عن كابر ، من أب لابن ، ومن أخ لأخ ، في أسرة آل هابسبورغ النمسا .

وإذا فكر ببعض مظاهر مصير فيليب الثاني ، الذي تزوج لحين قبل حصوله على الإرث الأبوي ، الملكة ماريا انكلترا ، وريثة هنري الثامن ، يرى دون منازع بأنه وجد زمن كادت فيه عائلة آل هابسبورغ أن تبلغ السيطرة العامة وأن تصبح سيدة العالم المسيحي . ومن هنا هذا الشعار الذي حافظت عليه ، حتى عندما انفصل معناه عنه : وهو « على النمسا أن تحكم العالم كله » .

ولم تكن دول ألمانيا لتبخس فائدة انتخاب أمبراطورها من أسرة قوية . وفي الحقيقة ، كان يخيم على ألمانيا تهديد دام خلال قرنين ، وأذعن له الغرب تماماً ، وما زال التاريخ الغربي يحمل انعكاس هذه اللامبالاة من الأجداد ، ألا وهو الخطر التركي . وإذا وجدت آنا جاجيللون وارثة لبوهيميا وهونغاريا ، فذلك لأن أخاها ، لويس الأول ، الذي كان ملكاً عليهما ، مات في ساحة معركة (**موهاتش**) في ١٥٢٦ م ، وهو يقاتل الأتراك . ولكن فرديناند انتخب ملكاً على بوهيميا مذكراً بحقوق زوجته . وهذه الحقوق موضع جدل ، لأن التاج كان انتخابياً ، ولم يكن وراثياً . وهذه الحقوق كانت حقوقاً معنوية ، أخلاقية ، لأن الرأي تمسك بفائدة استمرار السلالة . وبعد بضع سنوات ، كان الجيش التركي على أبواب فينّا . وعندما تراجع قليلاً ، استقر على خط اعتباطي يجتاز سهل هونغاريا ويترك أرض قسم من هونغاريا تحت سيطرة السلطان .

اذن ، لم يكن الألمان ، ويجب أن يفهم من هذا جميع سكان الأمبراطورية ، ليبخسوا أبداً الأهمية في أن يكون زعيم الأمبراطورية ، المنتخب ، أميراً كفوءاً للدفاع عنهم ، أو لتنظيم دفاعهم ، ويتصرف ، في باقي أوربة ، بأحلاف صلبة .

ولكن أموراً أخرى نعرفها مرت ، في هذا القرن السادس عشر . فقد كان للثورة الدينية انعكاسات عظيمة على حياة الأمبراطورية : حروب أهلية ، ومن بعض النواحي ، حروب اجتماعية ، تزعزع فيها النظام الإقطاعي ، على ما يبدو ، في حرب الفلاحين ، الذين وقف لوثر ضدهم جهاراً .

وحاول الأمراء البروتستانت أن يفرضوا الإصلاح البروتستانتي على تأييد الأمبراطور . وشكلوا عصبات تهاجم الأمبراطور . ومن المعلوم أن شارل ـ كُنتْ اهتم ، قبل انعقاد مجمع ترانت ، وحتى عند انعقاد هذا المجمع ، بالحصول على انعقاد مجمع ألماني ، مجمع قومي ، يسوي القضية الدينية . لأن القضية الدينية كانت أساسية ، لا في نظر رجال العصر فحسب ، وإنّما لأنها كانت فرصة لتجمع قوى الاستياء كلها . وكانت بحق أكثر من أزمة ، ثورة أقلقت الأمبراطورية ـ المقدسة .

وحقق الأمبراطور في ١٥٤٧ م نصراً هاماً على البروتستانت ، في مولبرغ ، ونحو منتصف القرن ، ١٥٥٢ و ١٥٥٥ م ، بدا أن السلام توطد في اتفاق باسّوْ الذي اتبع بسلام أوغسبورغ ، سلام الأمبراطورية ، الذي حافظ على نفاذه حتى معاهدات وستفاليا في ١٦٤٨ م . ومنذ الآن نكون في أصول حرب الثلاثين عاماً . ويجب الانطلاق من هنا .

نقول : سلام ديني ، ولكن ماطبيعته ؟

لقد أقام بعض التسامح . فمن ذلك أنه اعترف للأمراء اللوثريين بأنهم أحرار في اعتناق الإصلاح ، وإقامة الدين المصلح في بلدهم ، دون أن يقلقهم الأمبراطور ، ولا جيرانهم الكاثوليك . وأصبحت سنة ١٥٥٢ م سنة موجهة ـ ونعني باللغة الحديثة ، سنة نموذجية : لأن هذه الحالة ، كما وجدت في ١٥٥٢ م ، صرح بأنها قانونية : وهي تقسيم الأمبراطورية بين البروتستانت والكاثوليك :

فحيث يوجد كاثوليك ، ليبقوا كاثوليك ، وحيث يوجد بروتستانت ، ليبقوا بروتستانت .

ثم اعترف بأن الأمير يمكن أن يفرض دينه على رعاياه : وأن من يملك بلداً يدخل فيه دينه .

ولكن الواقع كان مخالفاً تماماً . فلا يكفي قرار من الأمبراطورية لإيقاف الأفكار والأهواء والمصالح . واستمر الإصلاح ، وكسب أرضية ، وبأشكال مختلفة . لأن كثيراً من الأمراء لم يقفوا عند مذهب لوثير ، وتبنوا أشكالاً أخرى للدين الإنجيلي ، أي مذاهب زونغلي أو مذاهب كالفن . ويسمون بالضبط (الإنجيليين) لتفريقهم عن (اللوثريين) . وباختصار ، إن الأمير الذي لا يتبع اعتراف أوغسبورغ ، ليس لوثرياً ، ووضعه يصبح ضعيفاً جداً ، لأنه غير شرعي حقاً . وإذا فرض مذهباً بروتستانتياً غير المذهب الذي نص عليه سلام أوغسبورغ ، فإن الدياط الأمبراطوري يمكن أن يضعه (خارج) الأمبراطورية ، أي أن يحل رعاياه من طاعته ، وينزع ملكه ، ويخلعه . ولكن الدياط كان الأمراء الذين لا يريدون استئناف الحرب أبداً .

وكذلك لم يراع الحكم الذي يجبر الرعايا على تبني دين أميرها أو على مغادرة البلد . ولم يكن للأمراء دوماً مصلحة في طرد أناس لا يمارسون دينهم . ولذا بقي كاثوليك في بلاد البروتستانت ، وبروتستانت في بلاد الكاثوليك . وهذا التسامح كان تسامح واقع ولم يكن تسامح حق .

ولكن حركة أخرى حدثت : وهي حركة الإصلاح ـ المعاكس الذي كانت الجمعية اليسوعية أداته الأساسية في ألمانيا . وفي مصاف إحداها سيرتسم اسم حواري خولته الكنيسة فيما بعد شرف القديسين ، ألا وهو بيير كانيزيوس .

ماذا فعل اليسوعيون ، الأدوات الهامة في استرجاع الكاثوليكية ؟ لقد

حاولوا أن يستردوا المواقع القيـاديـة في البلاد الهـامـة . ففي داخل الأسقفيـات ، عندما يشغر كرسي كاهن قانوني ، حاولوا الحصول على أن يكون الكاهن القـانوني الجديد من بين الكاثوليك . وعلى هذا فإن مجمع الكهنة عوضاً عن أن يكون نصفـه بروتستـانتيـاً ، ونصفـه الآخر كاثوليكيـاً ، عـاد وأصبح قليلاً قليلاً كاثـوليكيـاً . وأخيراً ، أن يكون الأسقف كاثـوليكيـاً . وهـذا يعني استرداد الأسقفيـة . وهكـذا عادت في وقت مبكر أسقفيـة فرتزبورغ إلى الطـاعـة الرومـانيـة . وكان من المهم أيضاً ، أن بعض الأمراء كانوا أوفياء لروما ، أو صـاروا كـذلـك ، بغيـة دعم عمل الإصلاح ـ المعـاكس . وهـذه حـال دوق بـافـاريـا ، في مـونيـخ ، الـذي فتـح اليسوعيون على أرضه كلية من أنشط كلياتهم وأهمها ، وهي كلية أنغولشتات .

وفي المقـام الأول ، من المهم أن يظل الأمبراطور كاثـوليكيـاً وفيـاً مـؤمنـاً ، ولكن ابن فرديناند ، وهو ماكسمليان الثاني ، مال إلى اللوثرية أو أبدى قليلاً من الحماسة ، على كل حال ، للإصلاح ـ المعاكس . بيـد أن اتفـاق الأسرة ، بـدعم من السلطـات الكنسيـة ، قرر أن يربي الكثير من أبنـائهـا في اسبـانيـا ، ليرجعوا إلى ألمانيا مجهزين بتربية كاثوليكية قوية .

وعدا ذلك ، خول الناخبون المنصب الأمبراطوري لملك بوهيميا .

الفصل الثالث

مملكة بوهيميا ورسالة الجلالة

١ ـ التقاليد التاريخية

لقد كان من المهم جداً ، لتوسع الإصلاح ـ المعاكس ، جذب بوهيميا . ولذا يحسن أن نتعرف على هذا البلد .

في بداية القرن السابع عشر ، ثبت الأمبراطور رودولف الثاني مقامه في براغ قبل وفاته في ١٦١٢ م ، وجعل من هذه المدينة عملياً عاصمة الأمبراطورية .

وتضم مملكة بوهيميا : بوهيميا الأصلية ، وهي الدولة الوحيدة في الأمبراطورية ـ المقدسة التي حافظت على وصف ومنزلة مملكة ، و(الأقاليم المنضمة) إليها : مورافيا ، دوقيات سيليزيا ، لوزاس العليا ولوزاس الدنيا ، وكونتية غلاتز ، بين سيليزيا وبوهيميا ، وبلاد شيب أو إيغر . وكان هذا المجموع يؤلف آنئذ دولة قديمة في الأمبراطورية ، ولكنه لم يكن دولة موحدة : فقد كانت مملكة بوهيميا ، الأكثر سكاناً ، والأكثر تقدماً ، من وجهة النظر الاقتصادية ، تقود المجموع . ولكن هذا المجموع ظل بلاداً صغيرة مستقلة وضع بعضها جانب بعض . ولها دياطها ونظمها الخاصة .

ومن وجهة النظر الجغرافية ، ترى بوهيميا محاطة من جميع الجهات بجبال عالية تؤلف حاجزاً ، وفي دور لاحق ، سيتكلم عن (الشكل الرباعي) الشهير لبوهيميا . وفي القرن التاسع عشر وفي بداية هذا القرن العشرين يستشهد بقول

بسمارك (من يمسك ببوهيميا يمسك بأوربا) . وبوهيميا حصن أمامي في شمال المنظومة الألبية . والجبال التي تحيط بها وتجعلها في معصم عن الغارات الكثيفة ، تجتازها شعاب متصلة . والمواصلات فيها ميسورة . وتتغلغل الناس والتأثيرات من كل وصف ثابتة فيها وسهلة . ومن هنا تنجم العلاقات مع باقي الأمبراطورية ـ المقدسة وإمكانية الارتباط مع الجنوب ، عبر النمسا ، مع إيطاليا ومنطقة الأدرياتيك .

والمنظومة النهرية في بوهيميا لا تربطها بنهر الدانوب وإنما بنهر الايلب ، وهذا ما يجرها نحو بحر الشمال ، ولكنها تحافظ على ارتباطات مباشرة مع المنطقة الدانوبية .

وهذه الصفات تكفي للدلالة على أهمية هذا البلد في أوربة . أما ماضيها فيمارس ، في بداية القرن السابع ، نفوذاً قوياً في وجدان السكان .

لقد اعتنقت بوهيميا المسيحية في وقت مبكر : في القرن العاشر . وكان أحد أمرائها المسيحيين الأوائل ، (القديس فنسيسلاس) ، وبالتشيكية (فاكليه) ، قد عذب أو اعتبر شهيداً . وقتل بأمر أحد إخوته الذي ظل وثنياً .

ونتساءل من أين أتت المسيحية إلى بوهيميا ؟ هل أتت من الجنوب على يد حواريي سالونيك ، وهما سيريل وميتود ؟ أو عندما وصل سيريل وميتود ، ألم يكن فيها من قبل آثار من المسيحية تؤكدها اليوم الحفريات التي تكشف عن تحتيات من الكنائس مبنية بالحجر على النمط الجرماني ؟ على أي حال . إن عبادة القديس سيريل والقديس ميتود المشاركة لعبادة القديس فنسيسلاس ، احتلت دوماً مكاناً كبيراً في تقاليد بوهيميا ومورافيا .

لقد تمتع القديس فنسيسلاس ، عبر التاريخ ، بشعبية فائقة للعادة . واليوم أيضاً يرتفع تمثاله على الساحة الأساسية في براغ ، وهو محاط بالإجلال حتى ممن

لا يرتبطون بالكنائس المسيحية . إن ذكرى القديس فنسيسلاس هي الوجدان القومي نفسه .

ومن جهة أخرى . يوجد حادث هام ، وهو أن العلاقات مع الأمبراطورية لم تؤد أبداً إلى استيعاب كامل لبوهيميا في الأمبراطورية . ويوجد لهذا الموضوع تفسيران : أحدهما يبالغ في الاستقلال الحقوقي إزاء الأمبراطورية ، والآخر بنفيه ، ويربط بصورة وثيقة ماضي بوهيميا في العصر الوسيط بجميع مظاهر الحياة في الأمبراطورية .

إن السلالة ، التي تحدرت من القديس فنسيسلاس ، سلالة (آل بريميسليد) ، حصلت في القرن الثالث عشر ، في ١٢١٢ م ، على المنصب الملكي ، من البابا ومن الأمبراطور .

وفي هذا القرن ، كان ملك بوهيميا قوياً جداً ، وهو بريميسيد أوتّوكار الثاني ، فقد بسط سلطته على النمسا وعلى شتيريا . ومن الممكن أن نتساءل ماإذا حصل على التاج الأمبراطوري ؟ . ولكنه لم يتوصل لذلك . فقد غلبه منافسه السعيد ، رودولف من آل هابسبورغ ، في ١٢٧٨ م ، ومات في ساحة القتال في مورافيا .

وتلقى خلفه فنسيسلاس الثاني التوكيد على المنصب الانتخابي ، مع وظائف « ساقي الأمبراطورية » . ولكن الرابطة الاقطاعية التي تضم بوهيميا إلى الأمبراطورية ، كانت في الواقع ، موضع جدل كثيراً أو قليلاً حسبا يكون العاهل قوياً كثيراً أو قليلاً . وفي ١٣٥٦ م ، قرر المرسوم الذهبي أن يقسم ملك بوهيميا يمين الولاء للأمبراطور ، ويجهزه بنجدة عسكرية ، ولكن إذا وقعت المملكة في حالة عدم وجود وارث ، فإن الإقطاع لا يعود إلى تصرف الأمبراطور ، بل إن الأمة التشيكية ، والتعبير غامض ويدل على الفئات ، تنتخب ملكاً جديداً

وعندئـذ يلزم الأمبراطور بتخويل التقليـد ، أي استلام المنصب ، إلى هـذا الملـك الذي انتخبته الأمة التشيكية .

وخلافاً لأبيه ، وسّع فنسيسلاس الثاني المملكة نحو الجنوب ، وتقدم ببلده في اتجاه الشمال والشرق . وبسط سلطانه على بولونيـا ، وهونغـاريـا اللتين تخلى عنهما ابنه فنسيسلاس الثالث . ومات فنسيسلاس الثالث شابـاً وغيلـة . وبـه انطفـأ آل بريميسليد ، في الذكور على الأقل ، وكان لفنسيسلاس الثـالث أخت ، اليزابيت ، تزوجت حنـا لوكسمبورغ ، الملـك الأعمى . الـذي قتل في معركـة (كريسي) . وقد سماه الشاعر الفرنسي شاتوبريان بعبارة جميلة : « مات هذا الملـك لأجلنـا في زمن مصائبنا القديمة » ولم يلعب دوراً كبيراً في التاريخ : لقد كان نموذج الفـارس دون الكثير من الأفكار السياسيـة ، ولا الكثير من الثقـافـة ، ولكنـه حمل الشرف إلى بعيد . وبحثاً عن الشهرة والفعال السامية كان كفؤاً ليجابه بكرم كفاحاً يعفيه عجزه منه .

وكان ابنه شارل ، يختلف عنه كثيراً . فقد كان من أكثر الاباطرة اعتبـاراً ، وأحد كبـار العواهل في آخر العصر الوسيـط : بـدأ ملكاً لبوهيميـا تحت اسم شـارل الأول . ثم أصبح أمبراطور الأمبراطورية ـ المقدسة الرومانية الجرمـانيـة تحت اسم شارل الرابع .

لقـد عمل أشيـاء كثيرة في الأمبراطـوريـة : نشر البراءة الـذهبيـة التي تحـدد النظام الانتخابي للأمبراطوريـة . وأقـام في براغ . وخول هـذه المـدينـة دوراً من الصعيـد الأول في شـؤون العصر الـدوليـة . وفي ١٣٤٨ م ، أسس فيهـا جـامعــة ، وجعل بهذا من براغ مركزاً من مراكز الحياة الفكرية والدينية في أوربـة . ثم رفع الكرسي الأسقفي في براغ إلى منصب أبرشيـة . وزين المـدينـة ، وشـاد جسراً من الحجر بعـد أن كان الجسر من الخشب في السـابـق . وأدخـل إلى البـلاد زراعـات جديدة بغرس كرمة بورغونيا التي نجحت في هذا البلد الشمالي . وشاد قصراً عظيماً

وجعله حصناً وسكناً أميرياً معاً ، في (كارلوف ـ تين) أو : (كارلستين) المدينة التي تحمل اسمه بالقرب من براغ . وقام أخيراً بتشييد الكاتدرائية .

وهناك حادثان مؤثران لدور شارل الرابع : الأول ، هو الانفتاح على التأثيرات الفرنسية . فقد جاء المعلمون الفرنسيون لبناء كاتدرائية براغ على نمط كنيسة آفنيون ، وكانت العلاقات بين جامعة باريس وجامعة براغ وثيقة بالرغم من بعد المسافة بينهما . والثاني هو هيبته الدولية .

وظل ، في التقاليد ، وحتى في أيامنا أيضاً ، وجهاً عظيماً للماضي إلى جانب وجه القديس فنسيسلاس ، وشرّف القديس فنسيلاس بحب خاص .

وفي القرن التالي ، الخامس عشر ، ظهرت اضطرابات كبرى دينية وسياسية واجتماعية .

وفي الواقع ، دخل كثير من الألمان بوهيميا . وقد أثار هذا الإقبال من الأجانب تحويلاً سوسيولوجياً للبلاد : وذلك لأن العنصر الألماني ، أي سكان المدن والباعة ، والحرفيين ، كان يتعارض مع العنصر التشيكي ، أي عالم الريف ، عالم الزراعة ، والطبقة النبيلة ، والاكليروس والفلاحين ، وهم أكثر عدداً ، ولكنهم أقل تقدماً من وجهة النظر الاقتصادية .

ولكن عناصر ألمانية دخلت في الاكليروس . وفي جامعة براغ ، كان الطلاب موزعين إلى أربعة (أقوام) ، والقوم الألماني كان أحد هذه الأربعة

واللغة التشيكية ـ اللغة السلافية ـ تشكلت لغة مكتوبة بأحرف لاتينية . وكلغة حضارة ، كان يستعملها المؤرخون والشعراء واللاهوتيون .

ووصل الخلاف إلى الجامعة والاكليروس . حتى ان كاهناً من براغ ، وواعظاً مسموعاً جداً ، وأيضاً أستاذاً في الجامعة ، ولحين ، مديراً للجامعة واسمه (جان

هوس) دعم أطروحات شجبها قسم من الجامعة وأثارت مناقشات كبرى في أوربة كلها .

وفي الحقيقة ، إن بعض مطالب جان هوس لاتبدو لنا ، كما هي ، جريئة وفوق العادة . ولكن القضية كانت قضية انتهاز . ومن الخطير أيضاً أن تطلب أمور فوق العادة عوضاً عن أن تطلب أمور عادية في تاريخ قبل أوانه . فمن ذلك ، مثلاً ، أن جان هوس كان يطالب بأن تكون الصلوات باللغة العامية . خلافاً للطقس باللغة اللاتينية . ويطلب من الاكليروس أن يتخلى عن مرتباته وعن ثرواته ، وأن يهجر اهتماماته وشواغله الزمنية التي كانت مرتبطة بصورة لاغنى عنها بالنظام الأقطاعي الذي دخلت فيه الكنيسة ، ليكرس نفسه للأعمال الروحية فقط . وطالب جان هوس أخيراً ، بأن تكون المناولة بعرضيها الخبز والخمر مع التبشير في موضوع الإبقاء على تأثيرها بآراء حكمت الجامعة بأنها مشبوهة .

وكان الألمان ، على العموم ، معادين لجان هوس الذي كان التشيكيون وراءه .

ودعي جان هوس ، في عز أزمة الكنيسة ، ليبرر نفسه أمام مجمع كونستانس ولكنه رفض أن يتراجع . ولذا شجبه المجمع ، وسلمه إلى السلطات الزمنية ليحرق ، في ٦ تموز ١٤١٥ م .

وعقب موت جان هوس نشبت حروب أهلية في بوهيميا . ونظمت حملات كفاح ، في الأمبراطورية ، ضد الهوسيين ، ولا سيما عندما تشكل حزب عنيف وقوي يمزج المطالب السياسية والاجتماعية بالمطالب الدينية ، وراء زعيم حرب وزعيم رجال ستراتيجي ، وهو (جان زيزكا) .

أسس زيزكا مدينة في الجنوب ، معسكراً ، مدينة دفاعية . وتسمى هذه

المدينة **طابور** ، وهو اسم من الكتاب المقدس . ولكن التعبير ظل في اللغة التشيكية (المعسكر) . وصرح جان زيزكا بأنه زعيم (محاربي الله) وجنوده (جنود الله) .

ولكن (الطابوريين) غلبوا في ١٤٣٤ م في معركة (ليباني) من قبل حزب تشيكي براغ المعتدل . وساعد زوال الطابوريين على المصالحة مع الكنيسة في مجمع بال (بازيل) ، في ١٤٣٦ م . ووقع اتفاق (الكومباكتات) ، وباللاتينية : (كومباكتاتا) .

وكومباكتاتات بازيل تخول التشيكيين استعمال الكأس المقدسة أي : المناولة بعرضيها .

ولكن البلاط الروماني لم يكن مستعداً لإنجاز هذه المصالحة ، بتسمية أوتراكي (من أتباع جان هوس) لأبرشية براغ . وهدأت المنازعات الدينية فقط . وظهرت فرق جديدة تزايد على المذاهب الهوسية ، ولا سيا فرقة (وحدة الإخوة) التي ظلت إلى اليوم في الكنائس البروتستانتية للإخوة المورافيين ، في أمريكا .

وشغلت هذه المنازعات حكم الملك المنتخب بعد اللوكسمبورغيين وهو (جورج بوديبراد) . وبوديبرادي مدينة في الشمال الشرقي من براغ .

وقد وضع جورج بوديبراد مرة خارج الكنيسة وحرم اي حلت به لعنة الكنيسة . وناضل ضد ملك هونغاريا (ماتياس كورفين) ، وضد الألمان ، ولم يستطع نقل التاج إلى أولاده ، وفتش عن حلفاء في الخارج ، وانتخب خلفاً له ابن ملك بولونيا ، فلاديسلاس جاجيللون . ووجد آل جاجيللون أنفسهم مرة واحدة ملوك بوهيميا وملوك بولونيا وملوك هونغاريا . ولكن آخر جاجيللون توفي في ١٥٢٦ م في ساحة القتال في موهاتش في كفاحه ضد الأتراك . وتزوجت

أخته آنّا جاجيللون أخ شارل ـ كنت ، فرديناند . وهكذا وصل آل هابسبورغ إلى بوهيميا ، إلى بلد وجدت فيه من قبل تقاليد مديدة : دستور صلب جداً ، وهو دستور الملك فلاديسلاس في ١٥٠٠ م ، وقوانين ، وأعراف ، وذكريات عظيمة . وحاول آل هابسبورغ أنفسهم الدخول في التقليد . وتباهوا أحياناً بأنهم خلفاء بل وورثة آل بريميسليد .

وسكن آل هابسبورغ تارة في فينّا وتارة في براغ : وفي فينّا كانوا خلفاء سلالة محلية . وهي سلالة آل بابنبرغ ؛ وفي براغ اعتبروا أنفسهم خلفاء آل بريميسليد وآل لوكسمبورغ . ومع ذلك ، فإن فروعاً جانبية من العائلة ، على أثر بعض التقسيمات ، ومع بقائها على ارتباط مع زعيم العائلة ، حكمت في غراتز ، في شتيريا أو في انسبروك ، في التيرول .

وشهد القرن السادس عشر ، في عهد فرديناند هابسبورغ ، عودة المنازعات الدينية . ولم تعد فقط إلى جامعة براغ وتحت تأثير كاهن من أبناء البلاد ، ولكن تحت تأثير ألمان يسكنون المدن ، وتضعهم علاقاتهم التجارية على اتصال مع الأمبراطورية وبخاصة مع الساكس . ولا عجب إذا لم يهتم جزء من سكان بوهيميا ، ألمانُ المدن ، بالتقاليد الهوسية ، وتبنى الديانة اللوثرية التي كانت مزدهرة في الساكس .

وكان لدى لوثر مع ذلك عاطفة تقليد بين ما كان يطالب به وآراء جان هوس . وقال : « نحن كلنا هوسيون » . وهذا القول يضع قضية لا نريد تناولها ، ولكنها كانت مثيرة وهي : معرفة ما إذا كان الإصلاح الهوسّي وسيطياً أي من العصر الوسيط أو أنه يبشر بالروح الحديثة ؟

وعلى كل حال ، عندما تشكلت ، ضد شارل ـ كنت ، عصبة شمالكالد ، عرف فرديناند مصاعب كبرى في مملكته في بوهيميا : فقد رفضت الطبقة النبيلة

التشيكية والبورجوازية الألمانية طاعته . والمدن ، التي لم تكن مأهولة بالألمان فقط ، وبخاصة براغ ، حيث توجد نسبة قوية جداً من التشيكيين ، ألفت حكومة موقتة ، وأقامت جيشاً ، ولكنها رفضت أن تضعه في خدمة الأمبراطور لمحاربة عصبة شمالكالد . ومن الصحيح ، إثر بعض التردد ، أن هذا الجيش لم يذهب أيضاً لنجدة عصبة شمالكالد . وعندما عاد النصر لشارل ـ كنت في معركة مولبرغ في ١٥٤٧ م . اتخذ الملك فرديناند تدابير شديدة جداً ضد المدن الثائرة .

وفي منتصف هذا القرن الرابع عشر ، يرى أن المدن (الملكية) أي المدن التي كانت تتمتع بأجمل الامتيازات ، وتسلك في المملكة مسلكاً شبيهاً بجمهوريات مستقلة صغيرة ، قد عوقبت بقساوة . فقد اضطرت أن تدفع منذ الآن ضريبة على الجعة . وكانت الجعة في ذلك الحين ، في الريف ، وفي المدن ، في بوهيميا وفي ألمانيا كلها ، مادة من الضرورة الأولى . ولم يكن الماء ليشرب كثيراً ، لأن المياه التي كانت على مقربة من السكان كانت ملوثة . ولذا كان من الضروري وجود شراب آخر . والبيرة (الجعة) التي تصنع من الشعير وحشيشة الدينار كانت شراباً مغذياً . وبالتالي ، إذا خضعت المدن لضريبة ملكية على الجعة ، فذلك يعني تبعية للسلطة الملكية ، ويتوجب على المدن ألا يكون لها وسائل للدفاع عن نفسها ، لأنها لم تقبل بهذه الضريبة بملء إرادتها ، حتى ولا في زمن الازدهار .

وفي الوقت نفسه أقيم (قضاة) ملكيون في المدن ، للإشراف على القضاء ، ولمنع الاستئناف في محاكم غير المحكمة الملكية . وحتى ذلك الحين ، إذا لم يرض عن الحكم ، كان من الممكن التوجه إلى محكمة مدنية أخرى في غياب محاكم الاستئناف المنظمة . أما الآن فقد فرضت العدلية الملكية نفسها .

وبعد ذلك ، أقر الملك فرديناند الاعتراف بابنه ملكاً على بوهيميا في المستقبل ، وأشرك اللقب الملكي بكلمتين سنرى نتائجها وهما : الملك (وارث) و (مقبول) .

(وارث) ، ولكن بتسوية بين **الوراثة** البحتة والبسيطة ، كما توجد في ذلك الحين في البلاد الأخرى ، مثل فرنسا ، وتأييد **الدياط** . وعلى كل حال كان العاملان مرتبطين بصورة وثيقة وظلا كذلك حتى الأزمة التي سبقت الإلقاء من النوافذ في براغ . إذن وارث في نفس العائلة . ولكن معترف به : ودون تأييد الدياط يكون نقل السلطة باطلاً وغير مقبول .

وهكذا تعززت السلطة الملكية في أسرة آل هابسبورغ . وأصبح المليك أقوى مما كان في زمن شارل الرابع .

كما أن ضريح الأمبراطور فرديناند ، في كاتدرائية براغ ، وهو أثر من آثار النهضة ، يرمز معاً إلى استقرار السلالة الألمانية وارتباطها بتقليد البلاد . ولكن ألا يظهر نوع من تباين في تقاليد البلد نفسه ؟ بين من ينتسبون إلى الكاثوليكية والقديس فنسيسلاس ، وبين من ينتسبون إلى تقليد آخر ، قوي ، واجتاز الإصلاح البروتستانتي ، وهو تقليد جان هوس .

وعدا ذلك ، بين المصلحين ، وجد المصلحون الألمان ـ لوثير والمصلحون التشيكيون الذين يقبلون ذكرى جان هوس ، في كنيسة (الوحدة) .

وإذا أقام ماكسمليان الثاني ، بن فرديناند الأول ، في فينا غالباً ، فإن ابنه وخلفه ، رودولف الثاني ، عاد إلى براغ . ولم يكن فيها مع ذلك مليكاً شعبياً .

ومنذ كتاب (جنديلي) القديم : (رودولف الثاني وعصره) ، لا يوجد مؤلف هام مخصص إلى رودولف الثاني . وهذه الشخصية ملفتة للنظر جداً . لقد كان ذكياً حقاً ، ولكنه من عدة وجوه غير متزن بسبب مزاجه . فقد كان يتابع ، باضطراب ، فضول فنان وغاوية ، واهتمامات علمية وغير علمية . لقد كان يهتم بالبحث عن حجر الفلاسفة الذي يقلب المعادن إلى ذهب ، كما يعتقد ، وبعلم الفلك ، وبالسحر أيضاً . لقد كان الرجل الذي لولا حمايته لما استطاع تيخو ـ

براهيه وكبلر أن يعملا ، فهو الذي أقام لهما مراصد في براغ . والمجموعات التي اقتناها : من لوحات ، وأحجار كريمة ، ومفروشات ، كانت عظيمة القيمة . ولا شيء يوقفه . فقد كسب من البندقية (العذراء الوردية) ، وهي أثر عظيم للفنان (ألبرت دورر) ، ولئلا يصاب هذا الأثر النفيس بأذى في النقل ، نقل ، كما يقال ، وليس هذا بالأكيد إطلاقاً ، على ظهر رجل من البندقية إلى براغ ، وظل فيها كنزاً لمجموعات التحف الفنية في المدينة .

وعلى الصعيد السياسي ، لم يعرف رودولف كيف يذلل المصاعب التي واجهها ، ويبدو أنه تخلى عن توجيه الحوادث بصورة ملفتة للنظر ، ولكن بعد تفكير .

وتوفي الأمبراطور رودولف الثاني في ١٦١٢ م .

٢ ـ السكان والمجتمع

تمتاز الديموغرافية اليوم بأهمية عظيمة ، بعد أن حققت الدراسات الديموغرافية تقدماً كبيراً جداً . ومن بين مصادر البحث نعطي اهتماماً خاصاً للكتاب (تاريخ السكان العالمي) لمؤلفيه رينهارد وأرمينغو ، وبخاصة إلى الفصل الثاني عشر ، المتعلق بحرب الثلاثين عاماً . وفيه نجد رجوعاً إلى كتاب باللغة التشيكية وهو كتاب (أوتو بلاخت) بعنوان : (السكان والبيئة الاجتماعية للدولة التشيكية من القرن السادس عشر إلى القرن الثامن عشر) . وهذا الكتاب هام للغاية ـ كما يقول رينهارد ـ باعتباره طبق ، في الدراسات الديموغرافية ، طرقاً جديدة جداً .

وفي الفصل الخاص بالمؤلف رينهارد ، كانت القضية المطروحة بخاصة ، الحالة بعد حرب الثلاثين عاماً .

كيف يمكن معرفة حالة السكان في العصر الحديث ، وبالتالي في القرنين

السادس عشر والسابع عشر ؟ الأمر صعب جداً ، لفقدان الإحصائيات كالإحصائيات في أيامنا . ولذا يحسن عمل إحصائيات من جديد بمساعدة بعض العناصر المختارة جيداً والمنتقدة جيداً . ولكن النتائج لا يمكن أن تكون إلا تقريبية .

بين العناصر الهامة أكثر من غيرها ، يمكن الرجوع إلى سجلات الضريبة ، وحسابات الضرائب التي وضعت على صلة برغبة العواهل في إخضاع الشعب إلى الضريبة ، بغية نفقات المصلحة العامة ، للعدلية ، وأكثر من ذلك للدفاع عن البلاد . ويجب ألا ينسى أبداً ـ من حيث المبدأ ـ في العصر الوسيط ، في كل أوربة ، أن فكرة الضريبة كانت تبدو مخالفة للعادة ، على حين أننا نراها طبيعية تماماً ، شاقة ، ولكنها طبيعية جداً . وفي العصر الوسيط ، نرى أن الموارد التي كان العاهل يتصرف بها لحكم دولته كانت تجهز له من ملكه الخاص . ولكن منذ زمن طويل وهذا الملك لا يمكن أن يكون كافياً ، وإن ظل له دور دوماً . ولذا لزم فرض الضريبة . فكيف تفرض الضريبة ؟ لقد قبلت بها الدياطات . ولكنها أعفت الأراضي والشخصيات ذات الامتياز . ووضعت الضريبة على أساس أرضي ، وضربت البيوت والمنازل التي سميت بـ (النيران) ، ويراد بذلك معرفة عدد البيوت التي تقع عليها الضريبة . ولكن علينا ، للقيام بمسح ديموغرافي ، أن نبحث عن عدد السكان في كل بيت . ووضع على العموم المثل من ثلاثة إلى أربعة أشخاص في الدار (النار) ، ولكن لا يمكن أن نخفي عن أنفسنا بأن هذا المسح اعتباطي تماماً . ولمزيد من الاطمئنان ، يجب انتظار معلومات تعطي بصورة دقيقة عدد السكان في فئات سكن معينة ومحددة ، وهذا يساعد على وضع وسطي لكل من هذه الفئات . ونرى أنفسنا مسوقين إلى عدم ضرب عدد البيوت بنفس المثل في الريف وفي المدن .

إن سجلات الضرائب التي حددت عدد (النيران) لاتعطي الرقم الكلي

للسكان ؛ لأن كثيراً منهم يفرون من الضريبة ، وبخاصة الطبقات الشعبية ، وهي التي لا تملك داراً أو (ناراً) ، والوحدة المستعملة كانت وحدة مساحة مقبولة في الريف ومعادلة إلى دار في المدينة .

واستعمل بلاخت قوائم للسكان مبنية على أملاك كبرى نبيلة . ولم يكن لهذه القوائم نية ضريبية فحسب ، وإنما كان عليها أن تجهز الأمير ونظاره بالعدد الصحيح للأشخاص الذين يعيشون في الملك ، أي كل الذين كانوا أهلاً للعمل أو كانوا أشخاصاً مسنين وأطفالاً يعيشون على نفقة العاملين . واستعمل أيضاً دور الضرائب بعد أن أسست في ١٦٥٤ م ، أي بعد حرب الثلاثين عاماً ، أول مصلحة للتحديد والتحرير (الكاداستر) ذات نفوذ دلت على عدد البيوت وظهر من بياناتها أن عدداً عظيماً من البيوت كانت شاغرة أو مهجورة . وهكذا أمكن معرفة الفرق بين السكان قبل حرب الثلاثين عاماً والسكان بعدها وحساب الخسائر .

وحصل أوتو بلاخت على أرقام ربما لم تكن صحيحة مطلقاً ، لأنها أرقام تقريبية ، بيد أنها تقدر وتصحح لحسن الحظ كل ماقيل حتى الآن . فقد قيل ان عدد سكان بوهيميا عشية حرب الثلاثين عاماً ارتفع إلى ١,٧٠٠٠٠٠ نسمة مقابل ٨٠٠٠٠٠ في مورافيا ، و ١,٤٣٨١٢٠ في سيليزيا . وعندما تقترح النتيجة أرقاماً دقيقة واضحة يجب قبول هامش إمكانية خطأ . وبالإجمال كان المجموع ٣٩٣٨١٢٠ نسمة . ولكن لم تحسب اللوزاس ، ولم تتجاوز المملكة والأقاليم الداخلية فيها ٤ ملايين نسمة ، وهذا الرقم كثير بكثافة ٣٥ نسمة في الكيلو متر المربع ، ولكنه يعني أن البلد كان مأهولاً بالسكان جداً .

لقد كانت مملكة بوهيميا مأهولة بالسكان جداً . ولا عجب في ذلك ، إذا وجد ، في تاريخ ١٦١٤ م ، في مراسلات السفراء البنادقة التي نشرها ، في ١٨٧٠ م ، المؤرخ النمساوي (فيدلر) . والنص المأخوذ عنها يصرح : « بأن البلاد خصبة جداً والنبلاء أغنياء عظام ، والبلاد كلها تنعم بوفرة كبرى » . ولكن هذا

القول يعطي انطباعاً عاماً ، وليس له سلطة شاهد محقق . ومن المؤكد أننا نعلم اليوم عن السكان والحالة الاقتصادية في بوهيميا عشية حرب الثلاثين عاماً أكثر مما يعلمه السفراء البنادقة في ١٦١٤ م .

اقتصاد الأملاك والأمراء

لقد شهد القرن السادس عشر في بوهيميا تحويلات هامة جداً في الاقتصاد . وترجع هذه التحويلات ، في الجزء الأكبر منها ، إلى حوادث عامة : ففي أوربة ازداد الطلب على الإنتاجات الاستهلاكية : الحنطة والسمك والجعة ، وكانت حنطة بوهيميا تصدر بطريق نهر الإيلب ، وبحر الشمال ، وتصل إلى أوربة الجنوبية ، حتى البندقية .

ولم تكن التجارة منظمة بعد ، ولا الكميات المصدرة من البضائع عظيمة ، ولكن الحركة ، بالرغم من ذلك ، كانت محسوسة ولها انعكاساتها على اقتصاد البلاد نفسه .

ومن جهة أخرى ، كان استهلاك السمك المجفف الذي يأتي من مصائد بحر الشمال والبالطيك ، شائعاً في بوهيميا وفيما وراءها .

ولكن ، منذ مطلع القرن السادس عشر ، بل وحتى منذ غداة الحروب الهوسية ، حول كبار أمراء بوهيميا ، الذين يملكون أهم الملكيات الأرضية ، طرق استغلالهم ، لأن الدخل الإقطاعي بالمال أصبح غير كاف ، ولذلك بحثوا في وقت مبكر عن مصادر جديدة لمواردهم . وكان المصدر الأكثر دخلاً تنظيم البرك والسبخات بالوسائل التي كانت تحت تصرفهم ، وذلك ببناء سد على بعض الأنهار ، لإغراق منطقة من المناطق وتشكيل برك فيها تنطلق مساحة الواحدة من عدد صغير من الهكتارات إلى عدد متوسط ، ٤٠ هكتاراً ، لتبلغ مساحة الكبرى منها حتى ٤١٥ هكتاراً .

وفي هـذه البرك يربى السمـك . وهـذا السمـك أصبح موضع بيع في السـوق المحلي ، بل وأيضاً موضع تصدير . حتى ان سمك بوهيميا ، وبخاصة سمك الشبوط ، في زمن كان فيـه استهـلاك السمـك هـامـاً جـداً ـ لأن كثيراً من السكان يراعـون الامتنـاع عن أكل اللحم يوم الجمعـة وفي الصـوم الكبير أو الأربعيني ، وحتى حيث لا يراعون ، كان اللحم نادراً ، ويعتبر طعام بذخ ـ كان سمـك الرنـك ، سمك بحر الشمال ، ينافس الأسماك المملحة .

وفي القرن السادس عشر ، كان سعر السمـك في ارتفـاع طوال الوقت ، وكان المشروع مربحاً . وتدل حسابات الدومينات الكبرى أن وارد البرك يتجـاوز كثيراً مبلغ الضرائب والدخول الإقطاعية .

وفـوق ذلـك ، كان الأمراء على دومينـاتهم ، وليس فقـط على الأرض التي يستغلونهـا مبـاشرة ، وإنمـا في الإمـارة كلهـا ، يتمتعون بحق الحصر . وكان الملك يرخص لهم بيع منتجاتهم في أرض الإمارة ، وإغلاق هذه الإمارة في وجه منتجات الدومينات الأخرى أو المنتجات الأجنبية . وكان هـذا الحصر يتعلق ببيع السمـك والجعة ، لأن معامل الجعة الأميرية تدر أرباحاً طائلة .

وعـدا ذلـك ، كان الأمراء يخـولـون بعض القرى ، أو بعض المـدن الصغيرة امتيازات السوق . وكانت البضائع الخارجة عن بضائع الحصر الأميري تأتي إلى هذا السوق فتنعش التجارة . ولـذا أصبح الاقتصـاد الـدوميني في القرن السـادس عشر مـزدهراً . ويشـاهـد تكاثر الأسـواق الصغيرة ، وفي الـوقت نفسـه زيـادة الإنتـاج والاستهلاك .

وقد أثرت العائلات النبيلة التي كانت تمـارس هـذا الاقتصـاد ، وكان ثراؤهـا تدريجيـاً . وتمكنت بـأربـاحهـا من شراء أراضٍ جـديـدة وتوسيع مستغلاتهـا دون انقطاع .

وعبر عن هذا النجاح بارتفاع نوع الحياة ، وعندئذ قامت مقام حصون العصر الوسيط قصور عصر النهضة مجاورة أو أضيفت لها ، وكانت مزدانة بالدهاليز أو الصالات الكبرى الواسعة على النمط الإيطالي . وعلى هذه القصور تدفق الأثاث والسجاد والمصوغات الفضية والذهبية والأواني المسطحة ، أو من القصدير ، واللوحات الفنية . وأصبح النبلاء جماعين للتحف الفنية . وكان بعض هذه التحف يصنع في مشاغل (ورشات) بوهيميا ، ولكن القسم الأعظم منها كان يأتي من الخارج .

وأفادت هذه الحركة ، مبدئياً ، طبقة الأمراء التي تسمى طبقة (الباني) أو : (السادة) باللغة الألمانية ، ولكن طبقة الفرسان كانت تهتم أيضاً بهذه الحركة .وجرت تجارب مماثلة على دومينات متوسطة وأحرزت نجاحاً ، وعندما يغنى الفرسان ، لا يتوانون عن الوصول إلى طبقة النبلاء الكبار .

وكان لدى هؤلاء الأمراء الكبار إمكانيات واسعة ويقرضون المال إلى الملك . فمن ذلك أن أميراً من مورافيا ، وهو (شارل ليشتنشتاين) أقرض من ١٥٩٥ م إلى ١٦٠٥ م مبلغ ٥٩٤٤٢ فلورن إلى الملك . ويجب أن نقول أن شارل ليشتنشتاين كان ثرياً كبيراً وأقرض المال إلى هنري الرابع الذي كان بروتستانتياً مثله . ولكن كلاً منهما صبأ واعتنق الكاثوليكية فيما بعد .

ويحسن أن نذكر هنا أن الحساب في الامبراطورية وفي بوهيميا كان يجري حسب الحساب الريناني الذي كانت وحدته النقدية الدوقا أو الفلورين ، الذي يعادل ٦٠ (كرويتز) ، والكرويتز = ٦ بفينيغ ، أو تالر الامبراطورية ، رايخشتالر . وكلمة (تالر) أتت من وادي يواشيمشتال في بوهيميا ، وكلمة تالر أعطت كلمة دولار . وقيمة التالر ٩٠ كرويتز . وتوجد أيضاً وحدات نقدية أتت من الساكس . وهي قطعة نقد موسومة بكأس (كوب) . ومن هنا أتت التسمية (كوب مايسن) ، وقيمته ٧٠ كرويتز ، وقيمة الكرويتز الواحد ٦ بفينيغ .

وضربت في عهد رودولف الثاني قطع (صغيرة ضخمة) وقيمة الواحدة ٧ بفينيغ ، وكوب مايسن (٧٠ كرويتز بقيمة الكرويتز ٦ بفينيغ) قيمته ٦٠ كرويتز بـ ٧ بفينيغ . ولذا يسمونه في الغالب (الستينية) .

ولتكون لدينا فكرة مضبوطة تماماً ، وهي ليست لدينا ، عن هذه الثروات وتوزيعها في الطبقة الأميرية ، يحسن أن نعترف أننا لا نعرف بعد نسبة من نجحوا ، ومن ظلوا في ظروف العمل القديمة ، لأنه يجب أن نقنع أنفسنا بأن الاقتصاد التقليدي المعتمد على استغلال دومين ضيق ، وعلى جباية دخول إقطاعية من الضرائب والأجور ، مازال يمارس على وجه التأكيد في كثير من العائلات .

ويغرينا أن نقول : إن الطبقة النبيلة في بوهيميا الشمالية كانت ألمانية ، وتشيكية في بوهيميا الجنوبية ؛ وأن الدومينات الكبرى توجد إما في الشمال ، وإما في الجنوب ، فيما كانت دومينات الفرسان المتوسطة في الوسط غالباً . ومن المحتمل ألا يكون هذا بعيداً عن الحقيقة . ولكن هذا التوزيع الجغرافي يجب ألا يقبل بصورة مطلقة . إنه أبعد من ذلك .

بيد أن الشيء الذي يضرب الحس هو وجود دومينات كبرى في بوهيميا الجنوبية ، في أيدي عدد صغير من العائلات مثل : (آل روزمبرك) أو (آل سلافاتا) .

وعلى أي حال ، كان الأمراء على صلة بالفلاحين .

الفلاحون

كان الفلاحون يشكلون القسم الأعظم من السكان ، وكان بينهم فلاحون (أحرار) لا يعرفون أميراً آخر غير الملك . ويمكن أن تشبه أرضهم بالملكية الوراثية المعفاة من كل (أتاوة) في أوربة الغربية ، وكان أكثرهم فلاحين مقيمين

على دومينـات النبلاء ، وقيل عنهم أنهم كالأقنـان ، غير أن هـذا الرأي عـدل عنـه اليـوم . ففي أوربـة الـوسطى ، وفي روسيـا في نفس العصر ، كما برهن على ذلـك المؤرخ الروسي الكبير (غريكوف) في كتابه (كرست آنيه نـاروس = الفلاحون في روسيا) ، زالت القنانة الشخصية منـذ زمن طويل ، ولكن بقي منهـا ، على الأقـل ، تبعيـة الفـلاحين لـلأمير ، ولكن هـذه التبعيـة ، التي مـافتئت آنـذاك تتناقص في أوربة الغربية ، تعززت بالعكس ، في القرن السـادس عشر وفي القرن السابع عشر ، في أوربة الوسطى وفي روسيا .

كان فلاحو دومينات النبلاء يملكون شخصيـاً مستغلات صغيرة أو قطعـاً من الأراضي ، ولكنهم كانـوا يخضعـون لأتـاوات مـال وعمـل . الأتـاوات : ضرائب وسخرات . ونظم مصيرهم بمـواثيـق متشـابهـة في خطـوطهـا الكبرى وتختلف من دومين لآخر . ومن حيث المبـدأ كان الميثـاق قـانـونـاً ، ولا يجب الخروج عنـه . ولكن تطبيق النظـام ، في تـاريخ مـا ، كان دومـاً بعيـداً كثيراً أو قليلاً عن نص الميثاق ، إمـا لأن الأمير أعـاد تنفيـذ حقوق قـديمـة ، وإمـا لأن الفلاحين خففت عنهم بعض الالتزامـات خـلال سنوات وشهـدوا فجـأة عـودتها ، فـاحتجـوا على ازدواجية أعبائهم ، ورأوا فيهـا ظلمـاً . وعنـدئـذ تـدخلت براءات ملكيـة لتحسم الأمر ، إما بحكم خاص ، وإما بتسوية عامة .

وفي معظم الوقت يرى أن القواعـد المقبولـة في الامبراطـوريـة ، فيما يتعلـق بالحق الإقطاعي ، كانت تعتبر مقبولة في بوهيميا .

بيد أن بعض الفلاحين الأحرار الذين يسكنون مناطق الحدود ، كانوا معفين من السخرات والضرائب ، لأنهم كانـوا يقـومـون بـدور عسكري ، كـدور الحرس المدني ، ويسهرون على العبور .

وكان بين هؤلاء الفلاحين المقيمين على الدومينات من يخضعون إلى **الوقف** أي

أن الأمير كان وارثاً لهم ؛ وآخرون ، وربما كانوا أكثر عدداً ، حرروا من الوقف ، ولهم الحق في نقل إرثهم إلى أعضاء عائلتهم ، وحتى البعيدين منهم ، ويمكنهم أن يؤجروا أو يبيعوا أموالهم بعد أن يسمح الأمير لهم بذلك .

وبعد الحروب الهوسّية ، ولتنظيم الدومينات ، وعلى العموم أيضاً ، لضرورة الاحتفاظ بيد عاملة ، وبأشخاص يدفعون الضرائب ، نزع الأمراء إلى تحديد الحرية الشخصية لفلاحي الدومينات ، وأصبح عدم الزواج من خارج الدومين شائعاً أو مراعىً في الغالب ، وكان على الفلاحين ألا يتزوجوا من فلاحات دومين آخر غير الذي يعيشون عليه ، وبالمقابل أيضاً . وهكذا أجبر التعامل عائلات الدومين أن تتزاوج فيما بينها .

وحرم على الفلاحين أيضاً أن يؤجروا خدماتهم في المدن أو على إمارات أخرى ، إلا في زمن الأعمال الكبرى . وعليهم ألا يغادروا الدومين ويعملوا على آخر ، إلا بعد أن يقدموا (رسالة الترخيص) التي يعطيهم إياها ديوان أميرهم ، ويسمح لهم بالانتقال والتعاقد لعمل جديد .

غير أننا لا نعلم بصورة جيدة أين كانت توجد أذرع جاهزة وأين يوجد ومن أين يأتي هؤلاء الفلاحون الذين يحاولون أن يكونوا على دومينات أخرى ، ويذهبوا للعمل في المدن . والمدن نفسها كان فيها فلاحون ، حتى ان الامبراطور ـ الملك ـ رودولف أعطى في زمن ما الأمر إلى المدن الملكية أن تعير فلاحيها إلى دومينات الأمير (دوهرادك) التي كانت تنقصها اليد العاملة في ذلك الحين .

ومن المؤكد أن القرن السادس عشر ، ولا سيا النصف الثاني منه ، شهد تعزيزاً لسلطة الأمراء على الفلاحين ، وكانت الحكومة الملكية ، في مجموع قراراتها القضائية ، تشجع تقدم السلطة الأميرية ؛ لأن قضاة المحاكم الملكية كانوا أنفسهم أمراء . إن مصلحة الطبقة أثرت لتجعلهم يشتبهون بمطالب الفلاحين ، وبالأحرى تجعلهم يعطون الحق للأمراء .

وكانت بين حين وآخر ثورات ، وهذه الثورات تعاقب بكثير أو قليل من الشدة . ومن الممكن أن نأخذ بعين الاعتبار حالة (آدم دوهرادك) ، الذي صرح في ١٥٨١ م ، أن بعض الفلاحين الثائرين عوقبوا كمدبرين لهذه الثورات ، وأعدموا شنقاً ، ولكنه كان يخشى سفك الدم ، ولذلك منح العفو للآخرين ، بإلزامهم القيام بعدد عظيم من السخرات . وتناقش المؤرخون التشيكيون لمعرفة ما إذا كانت العلامة الهامة لتعزيز السلطة الأميرية ـ وهذا ماسمي بـ (الإقطاعية الثانية) أو : (الإقطاعية الحديثة) ـ توسعاً في السخرة أو توسعاً في الحصر والاحتكار .

إن الميل إلى تعزيز السلطة الأميرية وتوسع السخرة غير قابل للنقاش في القرن السادس عشر ، في بوهيميا ، ولكن الأمثلة التي تعطى لنا عنها مبعثرة كثيراً ولم تحلل عن قرب . وقد نشر السيد (بتران) في (المجلة التاريخية التشيكوسلوفاكية) مقالاً عن (حركية السكان الفلاحين) ، وما قاله بتفسير ماركسي هام جداً ، ولكنه لا يأتي بجديد بالنسبة إلى المؤلف الجيد الذي نشره ، في ١٩١٩ م ، المؤرخ (كميل كروفتا) وهو بعنوان : (تاريخ الشعب الفلاح في بوهيميا ومورافيا) . وهذان المثالان فيهما فائدة ، ولكن العمل في كلا الحالين لم يكن عميقاً بشكل كاف ، ويلزم الكثير لتقدير حالة الفلاحين الحقيقية .

لقد كان الفلاحون موزعين إلى فئات مختلفة ، فبعضهم كانوا كزملائهم (الفلاحين) في فرنسا ، ويملكون مستغلات أقل من ٢٠ هكتاراً ، وعندهم حيوانات الجر ، وعجلات ، وعربات ، وجهاز كامل . وهم أغنى الفلاحين ، وعليهم أثقل السخرات ، ويأتي تحتهم من يسمون (جماعة الأكواخ) . وهذا لا يعني أنهم يسكنون في منازل قذرة ومنفرة ، ولكن مستغلاتهم لا تتجاوز ٤ إلى ٥ هكتار . وتحت هؤلاء يوجد (البستانيون) وكانوا تقريباً دون أراضٍ ولم يكن عندهم سوى قطعة أرض صغيرة جداً مجاورة لدارهم . والفئات الأكثر من غيرها في

الدومين هي فئات : باعة الجعة ، الخدم ، العمال اليوميين ، الأيتام ، والأيتام الذين يؤلفون فئة من طبقة الفلاحين ، ويمكن أن يبقى الواحد منهم في فئة الأيتام طوال حياته ، هم أناس فقدوا أبويهم منذ طفولتهم ويؤمن الأمير الوصاية عليهم بإخضاعهم بالمقابل لبعض الخدمات .

البورجوازيون

كان البورجوازيون عنصراً هاماً في السكان ، ولكن من الصعب تعداده . وفي القرن السادس عشر ، شهدت المدن الملكية أفولاً منذ ثورة ١٥٤٧ م ، وبعض هذه المدن ، مثل (كونتنا هورا) أو (كوتانبرغ) التي كانت مدينة منجمية ، تجشمت منافسة الفلذات الأميركية الثمينة وأسهم ذلك في انحطاطها .

وإذا حذفت رسمياً الأصناف المهنية في المدن الملكية في الماضي ، فقد أعيد إنشاؤها .

وكما برهن (ياناشيك) في كتابه (تاريخ التجارة في مدينة براغ قبل الجبل ـ الأبيض) ، كانت الأصناف المهنية ، في براغ ، وفي المدن الأخرى أيضاً ، تعيق الإنتاج ، فقد كان عقلها تقليدياً وتدافع عن مواقعها وعن وصفها أرستقراطية عمل صغيرة .

ومع ذلك ، فإن براغ ، أهم مدينة في المملكة ، كانت مركزاً تجارياً هاماً بسبب الطلب على السلع الاستهلاكية ، وبلغ سكانها ٦٠٠٠٠ نسمة تقريباً . وكانت مركزاً تجارياً هاماً ، ولكن دون تجارة دولية كبرى : كان يضايقها جوار معرضين دوليين هامين (ليبزيغ) و (لينتس) . وهكذا لا تتعامل الأعمال الكبرى بين جدرانها ، ولكن إنتاج بوهيميا كان في الغالب إنتاج مواد استهلاك غذائي . ولا شك في أنه يوجد في الشمال مشاغل للنسيج وتباع فيها الأقمشة إلى البلاد الألمانية . وفي براغ تصنع القبعات الجارية الاستعمال التي يشتريها بعض الأجانب

لجودتها ومتانتها ، ولكنها كانت خالية من الأناقة ، وتعتبر البضاعة الوحيدة المصدرة تقريباً . وبالمقابل ، يباع في براغ كثير من مواد البذخ : الأقمشة ، قطع فضية ، كتب ، منقوشات . وهذه المواد تأتي إما من إيطاليا ، أو من ألمانيا ، وأحياناً من بعيد ، مثل الأجواخ الناعمة المستوردة من انكلترا .

وأثرت براغ في ذلك الحين بوجود البلاط . وبالرغم من أن رودولف الثاني كان أميراً حزين المزاج لا يبحث عن التمسك ببلاط براق ، فقد أقيمت مع ذلك ، احتفالات ، وأعياد بلاط ، أقل إشراقاً ولمعاناً من الأعياد الإيطالية في نفس العصر ، ولكنها كانت تلزم النبلاء بشكل من التمثيل . وقد كشفت مقالات المجلة التشيكية « اوميني » (الفن) عن فرسكات ، لقصر في بوهيميا الجنوبية لآل روزمبرك ، تصف موائد واحتفالات البلاط في عصر رودولف الثاني ، مثل احتفال تسمية فرسان جدد في نظام فرسان الجزة الذهبية ، أو تسمية أمراء بعد الحروب مع الأتراك العثمانيين .

وكذلك كانت الطبقة النبيلة تقيم في براغ في منازل قديمة أصلحت ورممت حسب ذوق اليوم ، وكانت زبوناً هاماً لتجارة البذخ .

ويطلق ياناشيك التسمية (عصر رودولف الثاني) على الظروف الاقتصادية التي دامت حتى ١٦٢٠ م . وإذا لم تكن براغ مدينة إنتاج ولا مدينة مصالح دولية ، فقد كانت مع ذلك مركزاً لتجارة نشيطة جداً .

ولكن الإنتاجية الضعيفة نسبياً عند أصحاب المصانع والتجار من أبناء البلاد الأصليين توضح وجود أجانب وتجار إسرائيليين .

وكان هؤلاء التجار يمارسون ما نسميه اليوم تجارة الاستيراد والتصدير ، ويؤمنون توزيع الإنتاجات ، الخام أو المصنوعة التي تجهزها البلاد المجاورة وتصدير الإنتاجات التشيكية ، وبخاصة إنتاجات الاستهلاك الغذائي : مثل

الإيطالي بستالوزي ، أو الألماني شتارك دوشتار كنفلد الذي مات في ١٦١٨ م ، تاركاً ثروة ضخمة بالنسبة لزمانها ، تتألف من ١٥٢٧٧١ كوب مايسن .

وأخيراً العنصر الإسرائيلي . ففي ١٥٨٥ م ، صدرت أول براءة خولت اليهود حق التجارة في بوهيميا ، وذكرت بامتيازات قديمة لم يعثر لها على أي أثر . فهل هذه الامتيازات كانت موجودة أو أنها فقدت ؟ أو هل النص يكشف عن الروح الحقوقية للعصر الذي كان يباهي دوماً بقرار قديم ليغطي قراراً ضعيفاً لا قيمة له ؟

ويبدو أن اليهود في بوهيميا جهزوا الطبقة البورجوازية بعناصرها الغنية . مثل (آل باسّور) القادمين من فيرونة ، وكانوا يتعاطون تجارة الاستيراد والتصدير ، ويفيدون كوسطاء لبضائع البذخ التي كانت تشتريها الطبقة النبيلة ، والحبوب التي كانت تبيعها الدومينات الكبرى .

وفي بلاط رودولف الثاني ، كان اليهود يحتلون مكاناً هاماً . فقد كانوا يجهزون الأمبراطور بالتحف الجميلة لمجموعاته الفنية . وكان بعضهم ، مثل (رابي لوف) يشارك في أبحاث الفلك ، وأيضاً في علم التنجيم اللذين كانت روح العاهل الطلعة والفضولية تهتم بها .

وخدموا أيضاً أصحاب بنوك : فكانوا يقرضون الأمبراطور ، وكبار الأمراء ، وكان هؤلاء يتنازلون لهم ، ضماناً لاعتمادهم ، أو حتى بصفة دفع ، عن جزء من واردات دوميناتهم : فمن ذلك أن زوجة المستشار (لوبكوفيتش) تنازلت لتاجر إسرائيلي عن (رسوم طبيعية) على أحد دوميناتها . وهنا يرى أن اليهود ، بنشاطهم التجاري والمصرفي ، كانوا مرتبطين بصورة وثيقة باقتصاد المجتمع النبيل .

والنتيجة هي أننا أمام مجتمع على أساس زراعي ، تسيطر عليه الطبقة النبيلة ، وأقطاعي ورأسمالي معاً .

ونوجه انتباهنا نحو الطبقة النبيلة . لأننا رأينا ، من وجهة النظر السياسية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ، أن هذه الطبقة الاجتماعية تمارس في البلاد تأثيراً قاطعاً .

فهل من الممكن أن نتعرف منها على نفسية جماعية ، أي على الأفكار وبواعث العمل التي كانت أكثر من غيرها انتشاراً في الجماعة ؟

إن تدوين التاريخ في القرن التاسع عشر وأيضاً في بداية القرن العشرين يخولان أهمية عظمى للقضية القومية والوعي القومي . ويقابل دوماً في بوهيميا بين التشيكيين والألمان . ولكن من الواضح ، في القرن السابع عشر ، أن هذا الاهتمام لم يكن قاطعاً ، ولا أقوى . وما من شك في أنه كان يوجد في الطبقة النبيلة جماعة تشيكية وجماعة ألمانية . وكان يضمر كل منهما للآخر بعض العداء . ومع ذلك يجب ألا يبالغ بهذه العاطفة . ولكن أهميتها كانت قصوى في المجتمع البورجوازي في القرن التاسع عشر . وكانت الاهتمامات القومية أساسية في القرن الرابع عشر ، أثناء الحروب الهوسية . بيد أنها لم تذهب هذا المذهب في السنوات الأولى من القرن السابع عشر .

قبل كل شيء ، كان النبلاء التشيكيون والنبلاء الألمان - والدراسة الواعية للنصوص تبرهن على ذلك - يشعرون بأنهم بوهيميون ، ويعبرون عن رغبتهم ، وعن إرادتهم السياسية في دياط بوهيميا ، ويحاولون الدفاع عن مصالحهم ، وتطبيق القوانين التي تعني كل المملكة دون تمييز أمة أو أصل عرقي .

غير أن فكرة مملكة بوهيميا تبدي في ذلك التاريخ صفات نعرة إقليمية ضيقة . وفي معرض الكلام عن (كل المملكة) يراد مملكة بوهيميا . ولكن التعبير لا ينطبق على الأقاليم الداخلة فيها : مورافيا ، سيليزيا ، لوزاس . وذلك ، لأنه يوجد ، في كل من هذه الأقاليم أيضاً ، وعي لاستقلال ذاتي ، وقوانين تطبق إما

على مـارغرافيـة مورافيـا أو على دوقيـة سيليزيـا . ولكنهـا ليست نفس القـوانين المطبقة في مملكة بوهيميا .

وهناك صفة أخرى أيضاً : وهي أنه لاتوجد روابط وثيقـة بـاسم لغـة وأصل تتجاوز الاعتبارات الإقليمية لتجمع بين البوهيميين الألمان والمورافيين الألمان .

وكان لقضية التسجيل في الإقليم أهميتها أيضاً . فقد وجد أمراء يملكون أملاكاً في أجزاء مختلفة من مملكة بوهيميا والأقاليم الداخلة فيها ، ويمكنهم أن يأخذوا حق التسجيل في أقـاليم كثيرة ، أو يغيروا هـذا التسجيل : أي أن يسجلوا على لـوائـح مارغرافية مورافيا ، وأن يسجلوا أيضاً في سجلات بوهيميا .

ويمكن أن يلاحظ ، في بدايـة القرن الســابع عشر زوال أو انطفـاء عـدد من الأسر القــديمــة التشيكيــة في مملكــة بــوهيميــا : مثــل (آل سميريكي) ، و (آل روزمبرك) ، و (آل برنشتين) . وهـذا حـادث ديموغرافي ثـابت عبر التـاريـخ ، وهو زوال بعض العائلات بعـد عـدة أجيـال . بيـد أن هـذا التطـابق الهـام ليس قاطعاً هنا ، لأن غالبية الأسر القديمة التشيكيـة مـازالت موجودة وبـاقيـة . وفي زمن مابولغ بأهمية حادث : كانطفاء عائلات قديمة تشيكية ، وإدخال عدد عظيم من العائلات الألمانية في المملكة بواسطة حق التسجيل المدني في الإقليم .

ومن الممكن أن تلاحظ أيضاً ارتبـاطـات كوسموبوليتيـة ، وربمـا بـدا هـذا التعبير في غير زمـانـه ، ولكنـه صحيح : فمن ذلـك أن عـائلات ، من بـوهيميـا ، تشيكية أو ألمانية ، تعقد عقود زواج إما مع عـائلات من الأمبراطوريـة المقـدسـة الرومانية الجرمانية ، أي الألمـانيـة ؛ أو مع عـائلات أجنبيـة . ومن ذلـك أن آخر برنشتين تزوج أسبانية (ماريا مانريكويز دولارا) .

يضاف إلى ذلك أسباب اقتصادية ودينية ، بالنسبة للعائلات الغنيـة ، وهي البحث عن زواجات غنية أيضاً تزيد ثروة العائلة ؛ وارتبـاطـات حسب المـذهب

الـديني : ففي عـائـلات (وحـدة الإخـوة) تحـالفـات مع عـائـلات كالفنيـة في الأمبراطوريـة المقـدسـة ؛ وفي العـائلات الكاثوليكيـة ، تحـالفـات مع العـائـلات الأجنبية الكبرى في البلاد الكاثوليكية .

وربما يمكن القول ، على صعيد التبعية القومية ، بالمعنى الـذي نفهمـه اليوم ، ـ أي اللغـة والـوعي بـالانتسـاب إلى جمـاعـة عرقيــة ـ بـأن العــائـلات الكبرى الأرستقراطيـة في مملكـة بـوهيميـا والأقـاليم الـداخلـة فيهـا قـد تمـاست واحتكت ببعضها . أما طبقة الفرسان النبيلة الصغيرة من مالكي الأطيـان ، فقـد حـافظت أكثر من غيرها على طابعها الأصيل ألمانياً كان أو تشيكياً .

إن تدوين التـاريخ الحـالي ينزع إلى إعطـاء الأولويـة إلى تشـابكات الوعي الاقتصـاديـة . فنبـلاء بـوهيميـا ، كما رأينـا ، مـالكـون لـلأطيـان ، إقطــاعيـون ورأسماليـون معـاً . وهم كـذلـك ، دون تمييز دين ، ـ وعلى هـذا يشـدد اليـوم بحـق ـ ينتظرون من القـوانين التي يصـوت عليهـا الـديـاط أن تفضـل مصـالحهم الأميريــــة وتحميهم من مطـــالب الفـلاحين . والكل ينتظرون ، لمصلحتهم الاقتصـاديـة ، تـأمين استغلال الـدومينـات بواسطـة السخرة ، وتعـزيـز النظـام الأميري .

وفي هـذه النقطـة ، لا يوجـد اختـلاف بين الألمـان والتشيكيين . وكـذلـك لا يوجـد اختلاف بين الكاثـوليـك والبروتستـانت . وربمـا نجـده أكثر بين كبـار الأمراء ، كبار الملاكين ، المأخوذين بالتيار الاقتصادي وبشكل جـديـد لاستغلال الأرض لصالحهم . أما الفرسان من أصحاب الدومينـات الأقل اتسـاعـاً فقـد ظلوا متعلقين بأشكال الاستغلال التقليدية . والقضية إذن هي قضيـة فرق طفيف ليس إلا . لأنـه ليس من العـدل ، أن يقـابـل ، من الـوجهـة الاقتصـاديـة بين الأمراء والفرسان .

إن القضية الأساسية التي تظهر الانقسامات العميقة في رأي الطبقة النبيلة في ذلك الحين ، شئنا ذلك أم لم نشأ ، هي قضية دينية .

والأرقام تفصح عن ذلك . فمن الممكن أن تقبل أن الطبقة النبيلة كانت بروتستانتية في الغالبية العظمى ، أي $\frac{١٩}{٢٠}$ من الأرستقراطية في بوهيميا ، و $\frac{١٢}{٢٠}$ في مورافيا (بضم الأمراء والفرسان في جماعة واحدة) . وكذا الحال ، أكثرية بروتستانتية في الطبقة النبيلة في النمسا ، في سيليزيا ، وفي لوزاس .

إن المؤرخ النمساوي المعاصر (هانس شتورمبرغر) ، في كتابة الصغير الحديث الذي صدر في ١٩٥٠ م ، تحت عنوان (الثورة في بوهيميا) يصر برأي صائب جداً على الارتباط بين البروتستانتية ومطالب الفئات ، أي الطبقة النبيلة . فقد كانت السلالة كاثوليكية ، والطبقة النبيلة في معظمها بروتستانتية . وهكذا يرتسم خلاف على أساس ديني يأخذ تعبيرات سياسية . فلا يمكن للملك أن يسلك سياسة مستقلة دون العون المالي الذي تصوت عليه الدول . ولقد وجدت ظروف مساعدة على ذلك وهي الحروب ضد الأتراك العثمانيين . ومن أجل هذه الحروب ، كان ملك بوهيميا ، وأرشيدوق النمسا ، ومارغراف مورافيا شخصية واحدة ـ ولكننا نتصور هنا المظاهر المختلفة لسلطته ـ بحاجة إلى العون المالي من الأقاليم . ولا يمكنه الحصول عليه من الدول إلا بتخويلها تنازلات وامتيازات ، في النقطة التي تهم مطالبها الأساسية ، أي القضية الدينية .

لقد كان يؤيد ويثبت الامتيازات الدينية التي تعزز في الوقت نفسه سلطة الدول واستقلالها .

ولكن الأرقام لا تقول كل شيء ، ولا القرارات التشريعية . إن الحياة الدينية العميقة ، عند فريق الأرستقراطية في بوهيميا وفي الأقاليم الداخلة فيها ، هامة جداً وتجدر معرفتها ، ولكنها غير معروفة جيداً . يرى في هذه الطبقة النبيلة عدد من الوجدانات الدينية العالية جداً ، التي ترى بأن الدين ليس غطاءً

للمصالح فحسب ، وإنما هو أيضاً رأي عميق جداً ، لأنها تشعر بأن خلاصها الأزلي مرتبط به . كما نرى موقفاً مشابهاً يظهر عند الكاثوليك وعند البروتستانت .

لقد نشر المؤرخ المورافي (هروبي) ، في فترة ما بين الحربين ، مقتطفات من سجلات مورافيا ، بطبعة أنيقة باذخة بمساعدة وزارة التربية الوطنية للجمهورية التشيكوسلوفاكية . وعرف بهذا الشكل بوصايا عائلات نبيلة ، ويرى فيها أن الاهتمام المتفوق على غيره،عند الكاثوليك وعند البروتستانت ، هو أن يؤمنوا لأولادهم التربية التي تثبتهم على دين آبائهم . وهؤلاء الأمراء الذين يتوقعون وفاتهم قبل أن ينهي أطفالهم ـ الذكور بخاصة ـ دراستهم وتربيتهم ، يوصون الوصي بإرسالهم إلى مدارس دينهم ، دين آبائهم وأجدادهم . فإذا كانوا بروتستانت ألاّ يدعوهم لتلتقطهم البدعة (الهرطقة) الرومانية ، عن طريق اليسوعيين المخادعين الذين كانوا في عز حظوتهم . وإذا كانوا كاثوليك ، أن يسهروا على عدم إرسال الأبناء إلى المدارس البروتستانتية في الأمبراطورية ـ المقدسة لئلا يتعرضوا لتغيير دينهم . حتى إن كثيراً من الفتيان النبلاء كانوا يذهبون إلى المدارس الأجنبية من أجل تربيتهم العسكرية والعصرية والسياسية . وفي هذه الوصيات ، لا يبعد أن يشده المرء من أن الموصي ، من هؤلاء الأمراء الكبار الأثرياء جداً ، يؤكد بأن القضية الدينية ، في نظره ، هامة جداً ، وبأنه يجب ألا يلحق المثل الأعلى الديني ، الذي ينير التربية ، بمصالح المهنة .

وهكذا ينكشف بين البروتستانت ، كما هي الحال بين الكاثوليك ، قلق واحد ، وحذر واحد ، وعداء واحد صريح ، من فريق للفريق الآخر . لأن كل فريق يعتبر أن إيمانه مهدد ويهتم به ،ولأن سلامة الأرواح تبدو له مستحيلة في المذهب الآخر .

ولم يكن الكاثوليك إلا أقلية ، ولذلك يشعرون بأن موقفهم ضعيف بسبب صغر فريقهم ، حتى ولو كان فاتحاً .

ويرى البروتستانت ، بالرغم من عددهم ، بأنهم لا يملكون مواقع النفوذ الهامة ، لأن السلالة الحاكمة كاثوليكية ، وكبار موظفي المملكة كاثوليك ، أو على الأقل ، موظفو الوظائف العليا ؛ ولأن الكاثوليك يفيدون من المساعدات الأجنبية ويساندهم البلاط الاسباني والقاصد الرسولي واليسوعيون .

ولم يكن اليسوعيون نظاماً رهبانياً وحيداً في البلاد . فقد كان بجانبهم الفرنسيسكان والكبوشيون والدومينيكان ، وعلى ما يبدو أن المستقبل لليسوعيين .

ومع ذلك فقد قام بعض التوازن في فاتحة القرن السابع عشر ، لأن روح العاهل لم تكن روح مبشر يدعو إلى الدين . ولم يستعمل رودولف الثاني ذكاءه للقيام بدور سياسي عظيم . وبهذه الصفة كان عاهلاً ضعيفاً لا لعدم مبالاته فقط بسياسة نشيطة ، وإنما لأنه يهتم بأن يؤمن لنفسه قوة عسكرية مخلصة له تماماً وقادرة على تسيير الحوادث لصالح مشاريعه .

ولذا كان النزاع على السلطة ، في آخر القرن السادس عشر ،.وفي بداية القرن السابع عشر ، يعبر عنه بنوع من حركة ذهاب وإياب تارة ملائمة للبروتستانت وللدول ، وتارة ملائمة للعاهل وموظفيه .

ولنقل مباشرةً ، وابتداءً من ١٥٩٩ م ، بأن هذا الظرف سيكون له أهمية قصوى ، وذلك لأن من سيصبح مستشاراً لبوهيميا ، أي الوزير الأساسي ، لن يكون أول موظف كبير في المملكة ، وإنما الأنشط ، الذي يتصرف بالعدالة والإشراف على القضايا الاقتصادية ، شاب نبيل ، كاثوليكي جداً عن تصميم ، ذكي ونشيط وغني جداً ، وهو زدينيك (سيدوان) دولوبكوفيتش . فقد كان عازماً على الحصول على تدخل كثير للمستشارية الملكية ، أي الوزارة المركزية في بوهيميا ، في كل شؤون العدالة والإدارة ، والأفضال العديدة على الكاثوليك .

والحال نفسها في مورافيا ، في منعطف القرن ، حيث أقيمت دعوى على أمير بروتستانتي ، أحد زعماء البروتستانتية المورافية ، ويدعى (كاريل دو زيروتين) ، بغية خفض اعتباره وتجريده من الوظائف الكبرى التي يمسك بها .

ولبيان أهمية زيروتين ، يكفي أن نذكر بأنه كان قبل عشرة أعوام متطوعاً في جيش هنري الرابع . وجاء ليشارك في الجيش الملكي في حصار مدينة (روانّ) ، وبجيش قليل الجنود ، أتى بهم من مورافيا . وكان هذا منه إسهاماً هاماً مع المال الذي أقرضه للملك . وهو يتمتع بوضع دولي ، وإن فضحه وتوريطه في دعوى ، يعني في الوقت ذاته ضرب البروتستانتية المورافية على رأسها .

ومع ذلك فقد ساعدت الظروف ، في السنوات الأولى من القرن السابع عشر على إعطاء الدول بعض الفوائد . وهذه الظروف تعود معاً إلى الحرب ضد الأتراك العثمانيين ، وإلى منازعات في البيت الأمبراطوري .

٣ ـ الحرب ضد الأتراك ـ ثورات النبلاء ورسائل الجلالة

لقد قام هجوم عثماني ، ولكن عمليات الجيش الامبراطوري في هونغاريا ردته على أعقابه . واستاء النبلاء الهونغاريون البروتستانت من وجود الجيوش الامبراطورية على أرضهم ، فثاروا وراء زعيم بروتستانتي ، هونغاري ومجري وهو بوكسكاي . وكان البروتستانت في هونغاريا كالفنيين في الغالب . **بينما كان هونغارياً** ، أي أنه ينتسب إلى الطبقة النبيلة في مملكة هونغاريا ، وكان **مجرياً** ، أي أنه يتكلم اللغة المجرية .

لقد كان بوكسكاي إذن على رأس الأمراء الهونغاريين الثائرين . واعترف به السلطان ، في البدء ، أميراً على ترانسلفانيا . وكانت ترانسلفانيا جزءاً من مملكة هونغاريا التي تتبع السلطان العثماني موقتاً . وكانت الجيوش العثمانية تحتلها .

ولكن السلطان ، في ترانسلفانيا . كما في أقاليم مولدافيا (البغدان) وفالاشيا (الأفلاق) يعين مسيحياً (حاكماً) أو (أميراً) شريطة أن يدفع له هذا المسيحي ضريبة . وعلى هذا الأساس اعترف السلطان ببوكسكاي أميراً على ترانسلفانيا . وفي الوقت نفسه ، جرّ على الامبراطور ، ملك هونغاريا ، ثورة مستائين . وهذه التسمية (مستائين) كانت جارية في اللغة الإيطالية وفي اللغة الفرنسية على ثوار هونغاريا طوال القرن السابع عشر .

إن جمود الامبراطور وعدم كفاية موارده العسكرية أقلقت الأسرة الامبراطورية . وقد أساء رودولف الثاني التفاهم مع إخوته ، وبخاصة مع أقربهم إليه ، وهو الأرشيدوق **ماتياس** ، ونحاه في النمسا .

وفي ١٦٠٥ م ، تجمع اخوة الامبراطور في (لنتز) ، وأبرموا بينهم ميثاقاً . ورأوا أن صحة الأمبراطور لا تسمح له باتخاذ السياسة القوية التي تتطلبها الظروف ، وكلفوا ماتياس بالعمل باسمهم للدفاع عن ممتلكات السلالة .

وبهذا التدبير اضطر الامبراطور إلى بعض التنازلات ، وسلم بأن يعهد إلى ماتياس بحكم هونغاريا . وبالحال أبرم ماتياس سلامين : **الأول** ، مع بوكسكاي ، واعترف له بترانسلفانيا وأكد بذلك قرار السلطان ، وطوال حياته ، بأربعة كوميتات في هونغاريا . والكوميتات هي أقاليم صغيرة . وبهذا الاتفاق مع بوكسكاي ، أنقذ باقي هونغاريا . وهدأت الثورة . وعادت المملكة إلى طاعة الامبراطور ، ولكن عبر حكومة ماتياس . **والسلام الثاني** ، أبرم مع السلطان ، بعقد هدنة لعشرين عاماً ، وبموجبها يدفع الامبراطور غرامة حربية على المواقع المكتسبة . ولكن هذه الغرامة الحربية تنوب منذ الآن مناب الضريبة التي كان عليه أن يدفعها للسلطان منذ عدة سنوات .

وترى عندئذ عدة حوادث تفاجىء الرأي الأوربي : وتتضح بالظروف الخاصة لهذه البلاد .

لم يخول الأمبراطور بالحال التصديق الضروري على السلامين الذين أبرمها إخوته . لا لأنه رفض التصديق ، ولكنه أجله ومالم تخول المصادقة فالسلامان غير مقبولين ، وبدا الموقف أكثر فأكثر خطراً .

والجديد في الأمر ، أن الأرشيدوق ماتياس دخل في علاقات مع مختلف الدياطات : دياط النمسا ـ العليا (في لينتز) ، ودياط النمسا ـ الدنيا (في فينا) ، ودياط هونغاريا (في برسبورغ ـ براتيسلافا) ودياط مورافيا . ووعدها ، إذا دعمته ، بالحصول من الامبراطور على تصديق المعاهدات .

و « إذا دعمته » أو « إذا كان مدعوماً » ، فهذا يعني أنه إذا أعطي مالاً وجيوشاً . وقد تعهدت الدياطات بذلك . ولكنها ، بالمقابل ، طالبت بتنازلات من وجهة النظر الدينية وهي : الاعتراف بالممارسة الحرة للأديان البروتستانتية : من لوثرية وكالفنية .

وعندئذ ، دخل الأرشيدوق ماتياس بوهيميا ، على رأس ١٥٠٠٠ رجل ، ولكن الطبقة النبيلة في بوهيميا لم تشارك في الحركة .

ولم يستطع رودولف أن يقاوم أخاه بعدد صغير جداً من الجنود المشاة والجنود الفرسان ، فأبرم صلح (ليبن) ـ وهذه تجمع عمراني في ضاحية براغ اليوم ـ في ١٦٠٨ م . وتخلى نهائياً لماتياس عن هونغاريا ، حيث انتخب الأرشيدوق ملكاً ، وعن مورافيا والنساتين ، واحتفظ لشخصه ببوهيميا .

وتعهدت وفود دياطات النمسا ، ومورافيا ، وهونغاريا ، في مدينة صغيرة أخرى ، على مسافة من براغ ، وهي (شتربوهول) ، أن تبقى متحدة للدفاع عن مصالحها الدينية ، وللحفاظ على الامتيازات التي حصلت عليها من الأرشيدوق ماتياس الذي أصبح يسمى منذ الآن ملك هونغاريا .

وهكذا لم يتم انشقاق الأرشيدوقات ، في مصلحة السلالة ، لصيانتها من

سلطـة آل هـابسبـورغ على بـلادهم ، ولم يـجـح إلا بمسـانـدة الـدول ، وتنـازلات دينية . وعلى هذا نجدنا ، بعد الهجوم الكاثوليكي في السنوات السابقة ، أمـام عودة مصلحة العوامل المشاركة الثلاثة : الطبقـة النبيلـة ـ الفئـات (الـديـاطـات) ، البروتستانت .

ونتساءل : لماذا لم تنضم الطبقـة النبيلـة إلى الحركـة ؟ لمـاذا لم يشـارك نبلاء بـوهيميـا أمراءهم في الأقـاليم الأخرى ؟ هـل كان ذلـك منهم بعـاطفـة ولاء إزاء رودولف ؟ لا . يجب البحث عن الجواب في النعرة الإقليمية الضيقة التي أتينا على ذكرها . إن التشيكيين لا يحبون المورافيين ولا النمساويين الذين يقـابلونهم بنفس العاطفة ، أي : حسد بلد جـار لبلـد جـار . وفي غضون هـذه المصـاعب ، انعقـد ديـاط بوهيميـا ، وتفـاوض بروتستـانت الـدول الثلاث أي الأمراء ، والفرسـان ، والمدن ، وشكلوا جانبـاً « هيئـة الـدول البروتستـانتيـة » وطلبوا مسـانـدة الأمراء البروتستانت في الأمبراطورية المقـدسـة ، لأن الأمبراطوريـة اضطربت في ذلـك الحين ، وتغلبت الحلـول السلميـة في بعض النقـاط . وفي الـوقت نفســه ، قـامت تجمعات للدفاع عن المصالح الدينية بعد أن ساد الاعتقاد بأنها مهددة .

وتـأكـدت الحركـة نحـو السـلام في المفـاوضـات التي أدت ، في ١٦٠٩ م ، إلى هدنة الـ ١٢ عاماً ، بين الأقاليم ـ المتحدة واسبانيا ، التي أبرمت بوساطـة فرنسـا . وكانت الامبراطورية تشعر بـأنهـا مهـددة مـا دامت الأقـاليم ـ المتحـدة واسبـانيـا تتحاربـان . والآن حل السلام والانفراج . بيـد أن هـذا العود إلى السلام أقلق في الوقت نفسه البروتستانت والكاثوليك . أفلا يمكن ، من هذا الجـانب أو ذاك ، أن تصبح الظروف مواتية لمشاريع الخصم المصممة ؟ لقـد شكل الأمراء البروتستـانت في ألمانيا ، فيما بينهم ، عصبة دفاعية ، في (أنهاوزن) ، في ١٦٠٨ م . وكان الأمراء البروتستـانت ، في المنطقـة الرينـانيـة بخـاصـة ، تحت إدارة النـاخب البـالاتيني ومارغراف أنهالت ، يتصرفون بأموال عندهم ويستطيعون تجنيـد جيش في حـالـة

اضطرابات . وحصل الشيء نفسه ، في السنة التالية ، ١٦٠٩ م : فقد تشكلت عصبة كاثوليكية وراء ماكسمليان بافاريا ، بتشجيع القاصد الرسولي وملك اسبانيا ، و « بقليل من الاستياء » إذا اقتبسنا هذا التعبير عن وثيقة من وثائق العصر من لدن الملك هنري الرابع .

كم كانت الحالة حرجة ومتناقضة ! وهذا التناقض بالنسبة للمؤرخ عنصر هام وموحٍ . فهل سيكون السلام صلباً ؟ أو بالعكس ستكون الحرب ؟ الحقيقة ، ان عاطفة عدم الأمن كانت مسيطرة ، لأن إبرام السلام بين الدولتين الكبريين : اسبانيا والأقاليم ـ المتحدة أقلق أعضاء الأمبراطورية المقدسة عوضاً عن أن يطمنهم . ولذا يجب ، بالارتباط مع هذه الحركات في ألمانيا ، متابعة نمو الحوادث في بوهيميا .

ومن الناحية العملية . عزت الدول البروتستانتية في بوهيميا حكماً للأمبراطور رودولف وهو : لم نشارك في تمرد الأقاليم ولم ننضم للحركة وراء الأرشيدوق ماتياس . ولكن هذا الوفاء يساوي شيئاً ، أي له ثمنه ، وبالتالي تسوية القضية الدينية في بوهيميا بشكل يلائم البروتستانت .

وأثناء غزو بوهيميا ، وهو غزو قليل جداً بـ ١٥٠٠٠ رجل ، وهذا كل ما كان تحت تصرف ماتياس ، قابل الزعيم المورافي ، زيروتين ، وزير هنري الرابع ، في براغ ، وهو (نيقولا دوبوجي) . وطلب منه ما رأي ملك فرنسا بالظروف . فارتبك بوجي . وكان يعلم أن هنري الرابع لا يفكر بذلك مطلقاً وأنه يسيء فهم معنى هذا الشقاق في البيت النمساوي ، فأجاب بصيغ دبلوماسية لا تلزم بشيء : بأن الملك يرغب في السلام ويوافق عليه .

وفي الحقيقة ، إن ملك فرنسا لم يكن في حالة تمكنه من الحكم جيداً على القرارات وعلى الحالة ، وبالمقابل ، في الأمبراطورية ، كان يفهم جيداً ما كان يحدث : نجاح الدول ، نجاح البروتستانتية ، نجاح امتيازات النبلاء ، ضد نزعات

تسلط الحكومة الملكية . وبقدر ما كان للطبقة النبيلة من فوائـد ، كانت الفوائـد مماثلة للإصلاح البروتستانتي وإخفاقاً لاسبانيا .

عندئذ تفاهم بروتستانتيو بوهيميا فيما بينهم على مـذهب ديني سمي منـذ الآن (المـذهب التشيكي) أو (الأوتراكي) ١٦٠٩ م ، وليكـون مقبـولاً لـدى الجميـع ، جعلوه يوفق بين المواد الأسـاسيـة لمـذهب سـابـق ، مـذهب ١٥٧٥ م ، والمـذاهب اللوثرية والكالفنية ، ووحدة الإخوة الناشئـة عن الهوسيـة . وهـذا المـذهب يقول بـالمنـاولـة بعرضيهـا وبرمز ومبـدأ انضمام هـذه المـذاهب لبعضهـا . وسيطبـق اسم (الأوتراكيين) منذ الآن على كل من وقعوا هذا المذهب في عام ١٦٠٩ م وعلى كل من صرحوا بقبوله .

وجـواباً لهـذا القرار ، قرر رودولف الثـاني ، في تمـوز ١٦٠٩ م ، أن يقبـل ويؤيـد سلاماً دينيـاً عرف تحت اسم (رسـالـة الجـلالـة) ويسميهـا التشيكيـون (ماجستات) . ويحسن بنا أن نحلل هذه الوثيقة العظيمة .

هذه الوثيقة موجودة دوماً بحقيقتهـا المـاديـة في محفوظـات براغ ، وهي رق كبير كتبت عليـه أحكام رسـالـة الجلالـة بخـط جميـل . ويلفت النظر ، في هـذه الوثيقـة ، أنهـا ممزقـة ومقطوعـة بشكل (٧) بطعنتي خنجر . وفي الـواقـع ، لقـد ألغيت هذه الوثيقة علناً بعد معركـة (الجبل الأبيض) . والملاحظـة الأخرى التي نبديها على هذه الوثيقة ، هي أنها كتبت بكاملها باللغة التشيكية .

ماهو مضمون هذه الوثيقة ؟

« إن الملـك يعرب عن إرادتـه في الحفـاظ على السـلام بين الكاثـوليـك والبروتستـانت ، وكما يقـول ، ليستطيـع كل حـزب أن يمـارس ، بحريـة كاملـة ، الدين الذي يعتقد بأن يجد فيه خلاصه ، دون أن يلقى عقبـة من جـانب الحزب الآخر » .

وعليه فقد أعلن مبدأ الحرية الدينية .

ثم إن الملك يعترف ، بأن الكاثوليك يتمتعون بالحرية في مملكته . وهذا صحيح من وجهة النظر الحقوقية ، لأنه اعترف بالكاثوليكية ، ولم يكن للبروتستانتية نظام . ولذا فمن العدل أن يتمتع البروتستانت بنفس الحرية وأن تكون شروط ممارسة عبادتهم محددة ومعرفة .

وبالتالي ، وطد الملك ، كهيئة موجهة للكنيسة الجديدة للمذهب التشيكي الأدنى (المجمع الإداري الأدنى للرعاة البروتستانت) في مدينة براغ القديمة ، ليعين الرعاة الأوتراكيين التشيكيين أو الألمان ، دون تفريق في القومية ، وليجهز الوظائف الروحية في الكنائس وفي جامعة براغ . وكان لليسوعيين أكاديميا . وأفل نجم جامعة براغ بسبب منافسة اليسوعيين . وكانت تضم الكاثوليك والبروتستانت . ومنذ الآن سلمت للبروتستانت أي الأوتراكيين ليشكل فيها الأساتذة والرعاة الذين يكرسهم (المجمع الأدنى) ، ويكونون مؤهلين للاحتفال بالعبادة في الكنائس الأوتراكية .

وهكذا حصل تقسيم : في الأعلى ، أي إلى جانب القصر الملكي ، القائم على نشز يسيطر على وادي مولداو (فلتافا) ، يقوم رئيس أساقفة براغ بتثقيف وتشكيل الكهان الكاثوليك ويخولهم التكريس . ومن ثم يأتي ، في الأدنى ، المجمع ، لدى كنيسة (القديسة ماريا دوتين) ويكون تحت سلطته الكهان الأوتراكيون .

وعدا ذلك ، إن الفئات البروتستانتية أي النواب البروتستانتيين ، في فئات الدياط الثلاث ، تشكل منذ الآن هيئة قائمة بذاتها ، وتعين (المدافعين) بعدد متساو في كل فئة (أمراء ، فرسان ، ممثلو المدن) ويكلفون بالإشراف على الجامعة والمجمع والسهر على تطبيق رسالة الجلالة . ومن المعلوم أن الفئات البروتستانتية لا تجتمع على انفراد إلا من أجل القضايا الدينية . أما ما يتعلق بالقضايا

الأخرى كلها ، مثل جمع الأسلحة والعون المالي ، وجباية الضرائب ، فليس لها صفة . والدياط يضم الكاثوليك والبروتستانت .

وعلى هذا تعززت سلطة الفئات . لأن هؤلاء المدافعين أو الحماة يصادق الملك عليهم ، ولا يمكن أن يعطيهم أي وظيفة أو يجهزهم بأي تعليم . وإنما يجب أن يخول التأييد الملكي في الخمسة عشر يوماً التي تلي التعيين . وإذا لم يعط هذا التأييد ، فإن المدافعين يمارسون وظائفهم تلقائياً .

لقد كانت رسالة الجلالة أكثر من ميثاق ديني ملائم للبروتستانت . فهي تحتوي ضمناً على تنازل عن الحق العام ، لأن الملك يتخلى عن ممارسة ممكنة لبعض أشكال سلطته .

وتخول رسالة الجلالة الحفاظ على الكنائس التي يتصرف بها البروتستانت ولكنها تضيف حرية بناء كنائس ، ومدارس حسب حاجاتهم . وتؤيد أخيراً بأن ما من شخص ، أو فئات عليا أي أمراء وفرسان ، أو مدن ، حتى ولا شعب فلاح من جانب سادته ، يمكن أن يحول عن دينه بالقوة ، ولا أن يجبر بأي شكل من الأشكال على اعتناق مذهب آخر .

إن رسالة الجلالة تقدم مادة لا توجد مطلقاً في سلام ديني آخر . فبموجبها تستطيع رعية الأمير أن تحافظ على دينها ، على حين أن صلح أوغسبورغ يقول بأن سيد الأرض يطبق دينه على أرضه . وهذا المبدأ يطبق على الأمراء وعلى السادة الاقطاعيين .

وفي الوقت نفسه الذي منح فيه الملك رسالة الجلالة ، أبرم الكاثوليك والبروتستانت ، في دياط بوهيميا ، فيا بينهم اتفاقاً . وهذا الاتفاق يتضمن تطبيق رسالة الجلالة ، ويعطي إيضاحات لاستعمال مشترك للكنائس من قبل المؤمنين بالمذهبين . وفي بعض المدن طبق (التواجد) كما يرى بعد في بعض كنائس

ألمانيا . وهذا يعني أن قسماً من الكنيسة خاص بالكاثوليك ، والآخر بالبروتستانت ، أو أنهم يتمتعون على التوالي بنفس العمارة الدينية حسب ساعات وحاجات عبادة كل من الفريقين . فحيث يرى (التواجد) تظل الكنيسة والأجراس تحت تصرف مؤمني المذهب الآخر لدفن المتوفين ، على أن يقدم طلب بذلك إلى الأمير مانح المنصب الديني . وهذا يعني أن البروتستانت الذين يكونون بحاجة إلى كنيسة كاثوليكية للاحتفال بدفن موتاهم ، عليهم أن يطلبوا ترخيصاً من السيد الذي يسمي الموظفين في الكنيسة . ولكن ، إذا كانوا يدفعون ضريبة الأعشار للكنيسة ، حسب التزاماتهم الإقطاعية ، فالكنيسة تكون تحت تصرفهم دون أن يطلبوا سماحاً أو إذناً بذلك .

وفي الإتفاق مادة تلمح للكهان الأوتراكيين الذي يباركهم رئيس أساقفة براغ حسب الكومباكتات القديمة . فقد قبل بأن هؤلاء الكهان يستطيعون ممارسة وظائفهم في الكنيسة التي يدعوهم السكان إليها . ولهذه النقطة التفصيلية ما يقابلها لدى الكاثوليك . لأن الكهان الأوتراكيين وجدوا في حالة مماثلة للحالة التي عليها اليوم الكهان الموحدون ، حسب طقوس الكنيسة الأرثوذوكسية ، ولكنهم مرتبطون بالطاعة الرومانية ، أي بالبابا . وكذا الحال بشأن الكهان الأوتراكيين ، ولم يكونوا كثراً ، الذين ظلوا ، حسب كومباكتات ١٤٣٦ م ، يباركون من قبل رئيس أساقفة براغ ، ويمكنهم أن يمارسوا في الكنائس الأوتراكية وظائفهم إذا طلب المؤمنون منهم ذلك دون أن يجبروا بسبب الطقس ، الذي يتبعونه ، على الخضوع للمجمع الأدنى .

وأنهى دياط ١٦١٠ م هذه الأحكام ، وخول المدافعين ، في حالة مشكلة ، حق دعوة مجلس ضيق يتألف من كبار الموظفين البروتستانت وعدد من مندوبي الفئات الثلاث في الدائرة (والدائرة تقسيم إداري في مملكة بوهيميا) . وفي الحالة التي لا تعطي فيها الحكومة حلاً للمشاكل المطروحة ، على المدافعين (الحماة) أن

يلجؤوا إلى تحكيم لجنة مؤلفة من اثني عشر كاثوليكياً واثني عشر أوتراكياً . وحكم هذه اللجنة غير قابل للاستئناف .

ولكن ليس للمدافعين حق تجنيد الجيوش ، لأن هذا الحق خاص بالدياط .

هذه هي أحكام رسالة الجلالة والاتفاقات التي توضح تطبيقها . وسيؤدي هذا التشريع إلى ثورة ، ثم إلى حرب أوربية .

الفصل الرابع

الخلافة الملكية في بوهيميا
عام ١٦١٧ م

الظروف الأوربية

لقد كانت رسالة الجلالة نصاً يهتم بالعدل . ولكن هذا النص ، في التاريخ الذي نشر به ، وجد في تناقض مع الظروف . وكان نجاحه يفترض مجتمعاً يرغب بالسلام ، وبعاهل مجهز بسلطة معنوية كافية لفرض احترامه . وهكذا كانت شروط براءة نانت التي يقام غالباً في موضوعها تقارب مع رسالة الجلالة . غير أن ما أمن نفاذ براءة نانت هو أنها أتت بعد حروب طويلة ، في مجتمع مصمم على استعادة توازنه ، واحتويت فيه الأحزاب المتطرفة ، وساد فيه الرأي المتوسط ، رأي السياسيين . واسترجع الملك هنري الرابع هيبته ، لأن الرأي الفرنسي ، في غالبيته ، قبل السلطة الملكية كمؤشر وضمان للنظام العام .

ولكن هذه الظروف نفسها لم تكن حول رسالة الجلالة . ولذا حدثت المخالفات مباشرة . ومن الصحيح أن هنالك قضية لم تسوَّ جيداً وهي : هل الدومينات الكنسية التي وضع اليد عليها : أب ، رئيس أساقفة ، أسقف ، أو كاهن ، وكان يستفيد منها ، يجب أن تعتبر دومينات ملكية ، وبالتالي يستطيع البروتستانت أن يبنوا على هذه الدومينات الكنسية معابد ويفتحوا مدارس ، باعتبارها دومينات ملكية ؟

وفي وقت مبكر خرجت مشكلة بمناسبة معبد شاده البروتستانت على

دومينات الدير البندكتي الذي يرأسه (بروموف) أو : (براوناو) بالألمانية . وأمر الأب برونوف بتدمير هذا المعبد . وظلت الأمور على حالها ، وقدم الطرفان شكاواهما للملك .

ويمكن أن تذكر عدة حوادث صغيرة أخرى لا ترجع أهميتها ، بعد كل شيء ، إلا إلى الظروف العامة الألمانية والأوربية .

في ألمانيا ، في الامبراطورية ـ المقدسة ، أريد حل عاجل للقضية الدينيه ، أي أن يمنح الامبراطور ، بعد اتفاق مع الدياط ، نظاماً جديداً يستجيب للحالة الحاضرة ، التي تختلف كثيراً عما كانت عليه قبل ستين عاماً ، أثناء سلام أوغسبورغ .

لقد كان الأمراء الكالفنيون منتشرين في كل مكان تقريباً ، وكان أكثرهم تمثيلاً الناخب البالاتيني ، ومارغراف انسباخ ، وهو من عائلة هوهنتسولرن ، وأمير أنهالت ، يرجون هذه التسوية الجديدة . ولكنهم لاقوا ، في هذا الموضوع ، مقاومة الكاثوليك ، لأن الإصلاح ـ المعاكس كان في عز نشاطه ونهوضه ، واللامبالاة الشبه تامة من قبل اللوثريين .

وهكذا ظهر عامل أصبح حاسماً في بعض أوقات حرب الثلاثين عاماً وهو تفضيل اللوثريين . في ظرف ناخب ساكس ، لحل محافظ ، وعلى الأقل جزئياً ، ملائم للامبراطور .

وعلى هذا يمكن الاعتراف ، في الامبراطورية ، بثلاثة أحزاب يتصور كل منها شكلاً للقضية الدينية . وهذا الشكل يفرض موقفاً سياسياً :

١ ـ الحزب الكالفني ، ويحبذ سلطة الأمراء ، ومنح شرعية للمتين للديانة الإنجيلية .

٢ ـ الحزب الكاثوليكي ، وكان في عز فتوحاته . ويدعمه الأمبراطور والقاصد الرسولي ، ويتجه دوماً شطر اسبانيا ، لأنها كانت أقوى دولة كاثوليكية في أوربة ، في ذلك الحين .

٣ ـ الحزب الثالث ، الذي كان يخشى من أن يرى الشؤون الدينية تعكر الأمبراطورية من جديد . وهو حزب اللوثريين ، الذي يوجهه ناخب ساكس . وكان هذا الحزب يميل دوماً إلى توطيد سلطة الامبراطور ، عندما انفصل موقتاً عن ولائه . وكان يهتم كثيراً بمصالح الأمبراطورية ، باعتبارها تمثل الوطنية الامبراطورية ، ويمكن القول الوطنية الألمانية تقريباً .

وبحث الكالفنيون عن مساندات في خارج الامبراطورية ، في البلاد الغربية ، لأسباب مختلفة . وتوجهوا إلى انكلترا ، والأقاليم ـ المتحدة ، وفرنسا ، لأن فرنسا كان منافسة لاسبانيا .

ولكن هذه البلاد لا تضع الشؤون الألمانية على الصعيد الأول لهمومها وسياستها العامة .

وفي الواقع لقد زوج جيمس الأول ، ملك انكلترا ، ابنته اليزابت للناخب البالاتيني . ولا داعي له لاتباع السياسة التي يرجوها هذا الأمير . لقد كان ملك انكلترا مناصراً لسلطة ملكية قوية ، ودلّ في بلده ، بكتاباته وبسياسته ، على اهتمام كبير بتعزيز السلطة الملكية . أما في الأقاليم ـ المتحدة التي أبرمت الصلح مع اسبانيا ، في هدنة الـ ١٢ عاماً ، من ١٦٠٩ م إلى ١٦٢١ م ، فقد كانت اهتمامات الحكومة ، قبل كل شيء ، اهتمامات اقتصادية ، أي تنمية تجارتها البحرية .

أما فرنسا ، فقد اجتازت ، منذ وفاة هنري الرابع ، في ١٤ أيار ١٦١٠ م ، دور قصور صعب ارتسم فيه تقارب مع اسبانيا مطبوع بالزواجات الاسبانية : زواج الملك الشاب لويس الثالث عشر مع آنا النمساوية بنت فيليب الثالث ،

وزواج الأميرة اليزابت البنت الأولى لملك فرنسا من الملك فيليب الرابع في المستقبل .

وكان أكبر اهتمام للحكومات بخاصة ، إطفاء جميع المراكز الممكنة لحرب عمومية . ولا جدل في أنه كانت توجد في البلاد الأوربية الكبرى ، في ذلك التاريخ ، رغبة كبرى في السلام ، لاسيا وأن الحالة بدت أكثر تعقيداً ، واعترف بخطر حرب عمومية لا يرغب بها أحد ، ولكن يمكن أن تنتج عن حروب محلية أو عن حوادث عارضة لا تمكن السيطرة عليها .

مثال ذلك ، قضية كليف وجوليه ، في ١٦٠٩ م . فعند وفاة آخر دوق لهما ، في ١٦٠٩ م ، احتلت الجيوش الامبراطورية حصن جوليه انتظاراً لتسوية منافسة بين خلفين ممكنين ، أميرين ألمانيين ، (دوق نوبورغ وناخب براندبورغ) . واستاء ، من حركة الجيوش الامبراطورية هذه ، هنري الرابع ، مما جعله يقرر أن يأخذ بنفسه قيادة حملة عسكرية تحل محل الامبراطوريين ، في جوليه . ولم تكن هذه العملية حرباً صريحة معلنة ، ولكن الرأي الأوربي كان يخشى من أن هذا المسعى العسكري قد يثير خلافاً بين فرنسا واسبانيا . وحرك هذا الخوف خيال رافياك . فارتكب قتل الملك ، لأنه سمع بأن سياسة هنري الرابع تقود إلى حرب ضد الدول الكاثوليكية وتعرض الإصلاح الكاثوليكي للخطر .

وبعد موت هنري الرابع . سويت قضية جولية سلمياً . وفي معاهدة (كسانتن)[1] ، في ١٦١٤ م ، تقاسم المتنافسان الإرث . وكان أحدهما لوثرياً اعتنق الكالفنية ، والآخر كالفنياً اعتنق الكاثوليكية ، وانتقلت دوقية كليف إلى بيت براندبورغ ، وجوليه إلى بيت نوبورغ .

ودارت حروب أخرى في إيطاليا . ولكنها صفيت في السنوات نفسها ، بواسطة فرنسا واسبانيا .

---

(١) كسانتن XANTEN مدينة ألمانية على الضفة اليسرى لنهر الراين شمال غربي دوسولدورف .

بيد أنه يمكن الاعتراف بأن هذه الرغبة في السلام لم تملَ فقط بالمثل الأعلى ، في السلام الكاثوليكي ، الذي يذكر أحياناً ودون أن يقتنع به أحد . لقد تقرر هذا السلام بالمشاكل المالية التي كانت عليها الدول ، وحتى اسبانيا . لأن حالة الدول المالية كانت أسوأ من الحالة الاقتصادية .

وفوق ذلك ، إذا لم يكن الجهاز السياسي في جميع البلاد على درجة من الضعف كما قيل ، فما كان ليوجد ، مع ذلك ، منذ وفاة هنري الرابع ، شخصية مسيطرة في أوربة تستطيع أن توكد سياسة أو أن تفرض تحكيماً ، هذا مع العلم أنه كان يوجد في فرنسا وزراء هنري الرابع القدامى ، وهم رجال تجربة وحنكة ، ولكنهم كانوا مسنين .

والنتيجة ، هي أن السياسة استمرت عبر تلمسات . ولا يعلم سوى إبرام اتفاقات صغيرة ، وتسويات وتغطيات لحوادث تتكرر وتظهر دوماً . وبالمقابل ، ظهرت قضية الخلافة الامبراطورية بكل أهميتها : ففي ١٦١٢ م ، توفي الأمبراطور رودولف الثاني . وفي السنة الفائتة ، كان قد تخلى عن حكم بوهيميا ، وانتخب أخوه ماتياس وتوج ملكاً عليها ، مؤكداً رسالة الجلالة .

ترشيح وتعيين فرديناند شتيريا

وبعد ذلك انتخب ماتياس امبراطوراً دون كبير صعوبة . ولكنه توصل إلى التاج الأمبراطوري في سن متأخرة . فقد كان عمره خمساً وخمسين عاماً . وتزوج منذ وقت قليل من إحدى بنات عمه ، وكانت أصغر منه بكثير ، وهي الأرشيدوقة آنا ، ابنة هابسبورغي من التيرول وأميرة من مانتو . وكان ماتياس يأمل ولا شك بأن تنجب له هذه الزوجة الشابة أولاداً ، ولكنها لم تنجب . ومنذ انتخابه شغلت قضية خلافته أوربة السياسية كلها .

وكان خصوم آل هابسبورغ يؤكدون بأن هؤلاء يريدون أن يجعلوا التاج

الأمبراطوري وراثياً ، وفي حال عدم وجود وارث كابراً عن كابر ، أن ينقلوه من أخ لأخ ، وأن قبول التاج الأمبراطوري وراثياً يعني قبول أحد الخلفاء الممكنين ، ملك اسبانيا ابن عم الامبراطور لحاً (اللزم) .

يرى الكالفنيون أن الإبقاء على التاج الأمبراطوري له خطر كبير جداً . وأن الإبقاء على أمبراطور وراثي في بيت آل هابسبورغ يعني إرجاءً للنظام الديني الجديد إلى أجل غير مسمى ، وأمناً مطلقاً للإصلاح - المعاكس .

وكان آل هابسبورغ فينا ، كما هو معلوم ، مرتبطين بصورة وثيقة بسياستهم بإسبانيا . فهل كان ملك اسبانيا يفكر بحق بأن يؤمن لنفسه التاج الامبراطوري ؟ لقد كان يوجد في اسبانيا ، بالرغم من طابعها القديم في الحكم ، جهاز موجه ، سياسي وعسكري عظيم القيمة . وكان نواب - الملك ، والسفراء الاسبان في الغالب شخصيات عظيمة الحنكة والتجربة وعلى مهارة سياسية واقعية ، ويعرفون أوربة جيداً .

وفي حال عدم وجود ترشيح شخصي للتاج الامبراطوري ، كان بإمكان ملك اسبانيا ، بمناسبة الانتخاب ، وبتسويات عائلية ، الحصول على فوائد حقيقية جداً .

وبعد الأمبراطور ماتياس ، وجد ولدان آخران لماكسمليان الثاني ، وهما الأرشيدوق ماكسمليان والأرشيدوق ألبرت . وكان هذا الأخير عاهلاً - مساعداً في البلاد - المنخفضة الاسبانية ، منذ ١٥٩٨ م . وعندما عقد السلام مع فرنسا ، خول الملك فيليب الثاني إلى ابنته كلير - إيزابل - أوجيني ولصهره الأرشيدوق ألبرت ، حكم البلاد - المنخفضة مدى الحياة . وهذا ما يسمى في بلجيكا « حكم الأرشيدوقين » . وكان هذا الحكم مسالماً وملائماً لمصالح البلاد . وكان من المحتمل قليلاً ، أن يدعي إخوة ماتياس المسنون أو المشغولون في أماكن أخرى ، بالتاج الامبراطوري .

لذا كان المطالبان الممكنان للعرش ابني عمه : من جهة ملك أسبانيا فيليب الثالث : ومن جهة أخرى ، زعيم الفرع الجانبي القريب في (غراتز) في شتيريا ، الأرشيدوق فرديناند الفتي .

كان الأرشيدوق فرديناند كاثوليكياً ورعاً جداً . كان تلميذ اليسوعيين في أنغولشتات ، ومرتبطاً ببيت بافاريا ، لأن أمه بافارية . وقام في دوقيته في شتيريا بفتح ديني حقيقي لصالح الكاثوليكية . وكان أميراً متسلطاً بالرغم من أنه لم يكن قاسياً شخصياً ، ولا مستعلياً . ولكنه كان مقتنعاً برسالة العاهل تجاه رعاياه ، وقلقاً على سلامتها ، وهذا ماجعله ، طوعاً أو كرهاً ، يردها إلى الدين الذي يعتبره الدين الحقيقي .

في ١٦١٧ م ، أبرم ، في غراتز ، معاهدة مع سفير اسبانيا ، الكونت أونات . وتتضمن هذه المعاهدة البنود التالية :

إن ملك اسبانيا لا يعارض ترشيح ابن عمه فرديناند . وبالمقابل ، عندما ينتخب فرديناند ملكاً على بوهيميا ، وهونغاريا ، ثم امبراطوراً ، عليه أن يخول ملك اسبانيا ، تعويضاً له ، ممتلكات آل هابسبورغ في الألزاس ، وأمارتين صغيرتين في إيطاليا الشمالية وهما : (**فينالة**) و (**بيومبينو**) .

وهكذا تخلى ملك اسبانيا عن الترشيح للعرش الامبراطوري ، ولم يكن له فيه حظ نجاح . ولم يكن الألمان يحبون الاسبان . وكان بينهم عداء صريح جداً . حتى ان ناخب ساكس أو ناخب براندبورغ ما كانا ليقبلا على وجه التأكيد بانتخاب ملك اسبانيا . ولكن الملك ، مقابل هذا التخلي ، أمن لنفسه مكاسب ستراتيجية هامة جداً ، لأن الألزاس ، المجاورة للفرانش ـ كونته ، زادت موقعه الستراتيجي وسلطته في أوربة الغربية ؛ ولأن الإمارتين الصغيرتين ، المجاورتين نسبياً لمنطقة ميلانو ، تسهلان أيضاً حركات الجيوش بين البلاد ـ المنخفضة

الاسبانية ، ومنطقة ميلانو (ميلانيا) . وعليه وجدت فائدة عظيمة لمواقع اسبانيا السياسية ، في المستقبل ، على الطرق الكبرى في وسط أوربة .

وفي القرن السابع عشر ، لم تكن الفائدة الأرضية الأساسية في الحصول على حدود توسع أرضاً مملوكة من قبل . ولكن الأنجع هو الإمساك بمواقع أساسية على الطرق التي تسمح لعبور الجيوش أو قوافل التجارة . وفي الغالب إن الحجة الاقتصادية غطت الداعي أو السبب الستراتيجي .

لقد أتت المعارضة ، لترشيح الأرشيدوق فرديناند من عائلة آل هابسبورغ ، من الوزراء (البالاتينيين) . فقد كانوا يعرفون جيداً طبع الأرشيدوق فرديناند ، وفكروا بأن الفرصة مناسبة ـ لأن خط آل هابسبورغ الذي يشغل العرش الامبراطوري منذ عدة أجيال كابراً عن كابر ، أو من أخ لأخ ، وجد منطفئاً ، أو على عتبة الانطفاء ـ لانتزاع التاج الامبراطوري من آل هابسبورغ ، ولعدم السماح بتأسيس فرع جانبي قريب جديد ، ولإثارة ترشيح آخر .

ومن الملفت للنظر أنهم كانوا يفكرون بدوق بافاريا ، ومن الملفت للنظر حقاً أن الذين يقومون بهذه الحملة ضد ترشيح الأرشيدوق فرديناند كانوا كالفنيين ، وكان خصمهم الثابت ، في ألمانيا ، دوق بافاريا ، زعيم العصبة الكاثوليكية .

ولكن سياستهم هذه كان لها سببان : **الأول** ، أن دوق بافاريا كان من أسرة (فيتّلسباخ) ، مثل الناخب البالاتيني ؛ **والثاني** ، أن هذا الترشيح ، الذي قد يلاقي مقاومة ممكنة من الساكس ومن اللوثريين ، يجب أن يدعم من الخارج ، من دولة أجنبية ، وهذه الدولة الأجنبية لا يمكن أن تكون غير فرنسا .

وكان الوزراء الفرنسيون ، قدامى مساعدي هنري الرابع ، مسالمين ، ويخشون الاضطرابات البروتستانتية في داخل المملكة ، أو عدوى الاضطرابات

المفاجئة في ألمانيا ، ويمكن أن تكون هذه الاضطرابات حرباً مع اسبانيا . ولذا فإن انتخاب فرديناند المانع لانتخاب ملك اسبانيا بدا لهم ضماناً للسلام . وقد حدد بوجي المقيم الفرنسي في ڤيّنا ـ ولم يكن له لقب سفير ـ في برقياته ، في سنة ١٦١٧ م ، موقف فرنسا في موضوع الانتخاب الامبراطوري بقول يدعو للإعجاب : « لا يمكن منع فرديناند من بلوغ الامبراطورية دون أن نشجع الحزب الهرطقي تشجيعاً عظيماً ، وعلينا ، على الأقل ، ألا نخشى إلا نمو البيت النمساوي » . وهذه النظرة واضحة جداً ، لأن الخطرين يهددان السلام ، وفرنسا تحاول تجنب كل منهما ، إما بنمو البيت النمساوي ، وبخاصة في شخص وسلطة ملك اسبانيا ؛ أو بنجاح ظاهر كثيراً للحزب الهرطقي . وعليه فإن ترشيح فرديناند يبدو حلاً وسطاً ، ضعيفاً بالتأكيد ، ولكنه مطمن تقريباً للجميع .

وبرقية أخرى من بوجي أوضح أيضاً : « لن أقصر عن إدخال قرار الملك الثابتُ في تفضيل تسمية الارشيدوق فرديناند ، حيث يكون مفيداً ، ولن أعير السمع للذين يحاولون تحويله عنها ، ويجعلونه يقدم ويتبنى تسمية دوق بافاريا » .

وجملة أخيرة تلقي الضوء كله على الحالة الأوربية في ذلك الحين : « هناك اقتراح له ظاهر الحق ، وممكن للذين لهم مصلحة في إضعاف البيت النمساوي والتحرر من تملكه الطويل للمنصب الامبراطوري وزعمه تقريباً بأنه أصبح له منذ الآن وراثياً . ولكن يجب الاستعداد منذ زمن طويل لإنجاحه ، والقيام لهذا الغرض بطرق وبذكاءٍ معتمدين على سلطة أمير غير مرتبك في دوله الخاصة وله ثقة وشهرة الملك الراحل بأن له ذكرى مجيدة جداً » .

وهكذا ، مامن تعامٍ عن محذور تفضيل الأرشيدوق فرديناند وتقوية الزعم الضمني عند آل هابسبورغ بوراثة التاج الامبراطوري . وانتخاب دوق بافاريا سيكون حلاً جذاباً ، ولكن لإنجاحه ، يلزم أمير ليس له مشاكل كملك فرنسا في

دوله الخاصة . وهذه المشاكل هي الثورات الدائمة للطبقة النبيلة والبروتستانت ضد وزراء ماريا ميدتشي . ونظراً لفقدان الأفضل يجب قبول ترشيح الأرشيدوق فرديناند . ولكن بوجي لاحرارة له ، أي لم يكن متحمساً . لماذا ؟ لأنه رأى أن ترشيح الأرشيدوق فرديناند لا يبعد أن يكون مدعوماً من اسبانيا .

وللوصول إلى التاج الامبراطوري ، يجب أن ينتخب أولاً ملك على بوهيميا . وليس هذا شرطاً ضرورياً لاغنى عنه ، ولكن هذا هو التدرج الطبيعي .

وفي حزيران ١٦١٧ م ، انتخب الأرشيدوق فرديناند ملكاً على بوهيميا وتوج حالاً .

وهذا الانتخاب الذي جرى في حزيران ١٦١٧ م كان كاشفاً جداً لحالة الرأي العام في مملكة بوهيميا .

أولاً ، إن الانتخاب قام به دياط بوهيميا وحده ، بالرغم من بعض مطالب البروتستانت الذين أرادوا أن ينتخب الملك هذه المرة من دياط مشترك يضم دياط بوهيميا ودياطات الأقاليم المنضمة : سيليزيا ، لوزاس ، مورافيا . لقد حوفظ على التقليد ، وقام بالانتخاب دياط بوهيميا وحده . أما من جهة البروتستانت ، فقد طرح ثانيةً على بساط البحث وبخجل مبدأ التسمية الملكية : هل على المرشح أن يقترحه الملك الحاكم وأن يختار من عائلته كأقرب وارث له ؟ لقد صرح الملك ماتياس بأن إخوته وملك اسبانيا قد تخلوا ، وأن أقرب وارث له هو فرديناند ويجب أن ينتخب .

وبرزت بعض الاعتراضات . فأجاب المستشار لوبكوفيتش بقوله ، من المعلوم ، أن للدياط دوراً يلعبه ، وأن التاج ، في بوهيميا ، لم يكن وراثياً بصورة بحتة ، لأنه يجب تدخل الدياط ، واقتصر دور الدياط على قبول الملك الوراثي . أما الذين دعموا أطروحة أخرى فيحسنون صنعاً بمشاورة مواثيق المملكة ، حيث

لا يجدون شيئاً لصالح رأيهم ، لأن تاريخ بوهيميا يبرهن ، منذ زمن طويل ، على أن الملك (وارث ومقبول) ، إذن غير وارث بصورة بحتة ، وغير منتخب بصورة بحتة .

وهنا أيضاً ، تغلب ثقل التقليد . فبالرغم من التعاطف القليل ، وحتى القلق العميق عند البروتستانت ، قبل الانتخاب بالإجماع . إذن يوجد أناس صوتوا ويأسفون على التصويت في هذا الاتجاه .

ومنذ الآن ، بدا كل شيء واضحاً بالنسبة للمستقبل : ففي اليوم الذي يغيب فيه الملك ماتياس دون أولاد ، يخلفه فرديناند دون شكلية أخرى ، على عرش بوهيميا . ومن البديهي ، أن الناس يعلمون بأن انتخاب فرديناند ملكاً على بوهيميا يبشر بترشيحه للامبراطورية وانتخابه القريب لمنصب (ملك الرومانيين) .

٣ ـ المؤامرة والإلقاء من النوافذ

عندئذ تساءل الكالفنيون الألمان ، ووزراء الناخب البالاتيني بخاصة ، ومديرو الاتحاد الإنجيلي ـ أمراء آنسباخ وأنهالت ـ ماإذا كان يوجد بعد واسطة لمنع هذا الانتخاب ـ وهذا غير محتمل ـ وما إذا كان ممكناً ، على كل حال ، إثارة مشاكل لفرديناند تزعزع سلطته ، حتى ولو كان امبراطوراً .

في آخر ١٦١٧ م ، غادر الامبراطور ماتياس براغ للإقامة في فينّا ، لأن فينّا قريبة من برسبورغ (براتيسلافا الحالية) حيث يعقد دياط هونغاريا . وكان يحسن تأمين منصب آخر لفرديناند : فعندما يقف هذا فيما بعد أمام الناخبين ، يقف ملكاً على بوهيميا وملكاً على هونغاريا . وقبل أن يغادر ماتياس براغ ، عين مجلساً مؤلفاً من عشرة نواب لحكم بوهيميا في غيابه ، وكانوا في غالبيتهم كاثوليك ، ولكن كان بينهم أوتراكيون أيضاً : ثلاثة على عشرة . وفي هذا المجلس نشأت الصعوبات من جانب البروتستانت .

وبمناسبة قضية بروموف ، وقضية أخرى ، بين رئيس أساقفة براغ والرعايا البروتستانت لدومين يملكه في شمال غربي بوهيميا ، في غراب (كلوسترغراب) ، دعا المدافعون المجلس المحدود الذي يستطيعون دعوته في حالة نزاع ، في بداية سنة ١٦١٨ م . ولم يحضر الاجتماع إلا القليل ، لأن البروتستانت الذين يمسكون بوظائف ملكية لم يأتوا ، وبالرغم من أن هذا المجلس عقد في براغ ، فقد امتنع البورجوازيون أيضاً عن الحضور والظهور فيه .

وما كان من المجلس إلا أن وجه شكوى إلى الامبراطور عرضت فيها مظالم البروتستانت ضد الحكومة . وكان النص طويلاً ، ولكن التشديد الأساسي فيه كان على قضيتي بروموف وكلوسترغراب ، أي حالتين منع فيهما البروتستانت من بناء معابد على دومينات كنسية . أو ارتكبت بحقهم أعمال عنف باعتبارهم بنوا عليها . وقرر المجلس أن ينعقد من جديد ، في ٢١ أيار ، لتلقي الجواب الامبراطوري .

ولكن الجواب الامبراطوري وصل بسرعة جداً إلى براغ ، بعد بضعة أيام ، في وقت لم يغادر فيه كل أعضاء المجلس القادمين من الإقليم حتى ولا جميع المدافعين المدينة . وعندئذ دعوا إلى القصر لأخذ العلم بهذه الرسالة ، ونشرها . وهذه الرسالة التي فاجأت بسرعة وصولها ، تسمى في التاريخ (الرسالة المضنية) .

نشرت الرسالة . ولم تكن بياناً عنيفاً بأي حال من الأحوال . فقد حررت المستشارية بالأسلوب المعتاد هذا البيان ، وهو يكتفي بالقول بأن الفئات ، عندما اجتمعت ، في شهر آذار ، تجاوزت بنود رسالة الجلالة . وعلى طول هذه (الرسالة المضنية) تذكر دوماً شرعية رسالة الجلالة . ويوضح الامبراطور بأن كل شيء سوي شرعاً في قضيتي كلوسترغراب وبروموف ، وبأمره ، وحسب أحكام رسالة الجلالة . وفسر رسالة الجلالة بقوله أن ليس للبروتستانت الحق برفع

معابد على الدومينات الكنسية لصاحب منصب في الكنيسة الكاثوليكية .

ثم ، صرح الأمبراطور بأن من حق الملك أن يمنع انتشار الحريق وألا يقبل بالاضطرابات في غيابه : ولذا فحتى عودته إلى بوهيميا ، يمنع المدافعون منعاً مطلقاً من دعوة مجلس جديد ، ويمنع منعاً مطلقاً كل واحد من الذهاب إليه إذا دعي لسوء الحظ .

وبالرغم من المنع الملكي ، اجتمع المجلس في أيار . وكما كان اعتداء سيرايفو سبباً مباشراً لحرب ١٩١٤ م ، كانت ثلاثة أيام سبباً مباشراً لحرب الثلاثين عاماً . وهذا السبب بالتأكيد يصف الحادث ، وغير كاف لإيضاح تحريك الخلاف ونموه ، ولكنه تاريخياً حادث مباشر .

في ٢١ أيار عقدت جلسة الافتتاح . وكان المجتمعون فيه أكثر مما كانوا في شهر آذار . وربما كان ذلك قضية فصل ، وبخاصة قضية قرار عظيم يتخذ من جانب الإقليم ، وحتى من جانب بورجوازيي براغ الذين هيء رأيهم بعناية . وفي جلسة الافتتاح هذه ، دعي المدافعون للقصر لتلقي رسالة ملكية تجدد منع عقد المجلس .

عندئذ تفاوض ممثلو الدول مع نواب الأمبراطور وطلبوا الترخيص بأن يأتوا مسلحين بعد غد ، أي في ٢٣ أيار ، ليأتوا بجوابهم . وقبل النواب أن يأتي المجلس مسلحاً . غير أن أحد النواب أبدى ، ضاحكاً ، بأنهم لا ينوون ارتكاب عمل عنف ضد أعضاء الدول ، إلا إذا كان لهؤلاء ما يقلقهم .....

وفي مساء يوم ٢٢ ، نظمت المؤامرة . ففي قصر من هذه القصور القديمة في ميدان (مالا شترانا) ، قصر (أو مونتاغو) الخاص بأحد الأمراء الأغنياء البروتستانت في بوهيميا ، (ألبرت دو سميريوكي) ، عقد اجتماع لزعماء البروتستانت وأكثرهم نفوذاً وغنىً معاً . فقد اجتمعوا بإيحاء من سمير يوكي الذي قدم لهم الضيافة ، ولكن أيضاً من أمير شاب يمارس وظائف بورغراف كبير

(موظف التـاج) وهو الكونت (تـورن) . ولم يكن هـذا الكـونت تشيكيـاً ولا بوهيمياً ، بل كان أصله من كارنثيا .

وأسهم في الاجتماع شخصية من طابع آخر تماماً وهو (فـاكلاف بودوفيـك ز بودوفا) ، أحد زعمـاء كنيسـة الوحـدة (إذن هو أوتراكي ، بفرق لون وحـدة) ، والكونت (دو روبوف) ، و (فلس) ، و (كينسكي) وعقدت المؤامرة .

وبـدت الظروف مـلائمـة تمـامـاً . كان الممثلون البروتستـانت في بـوهيميـا حـاضرين في براغ ومسلحين . وكان على البلاد البروتستـانتيـة الشرعيـة أن تقـوم بفعـل مسرحي . وبعـد غـد ، في القصر ، اتهم نـائبـان ، وكانـا يعتبران أنشـط الكاثوليك وأكثرهم عداءً لتطبيق موسع لرسالة الجلالة .

وفي ٢٣ أيار . وصلوا إلى القصر ، واحتلت أولاً صـالـة فلاديسلاف الكبرى ، ومنهـا ، بـدرج صغير لـولبي يصـل الغرفتين ، يتـوصـل إلى إحـدى صـالات المستشـاريـة ، وقـد نظمت لاستقبـال المـوفـدين . وكان فيهـا أربعـة نـواب : (شترنبرك) ، بورغراف بوهيميـا الأكبر ، و (ديبولت دو لـوبكـوفيتش) قـاضي محكمة البلاد ورئيس أديرة مالطة ، و (سلافاتـا) ، أول قـاضٍ ـ أكبر في البلاد ، ومـارتينيـك ، بـورغراف (كارلـوف ـ تين) . وفي فترة ، لم يعرف لمـاذا كان الكونت تورن يحتل وظائف بورغراف كارلوف ـ تين ، القصر الـذي كانت تحفـظ فيه دبلومات البلاد وجواهر التاج ثم سحبت منه ، وهذا ماأثاره كثيراً .

وعـوضـاً عن أن يهتم ممثلـو الـدول برسـالـة الامبراطـور ، وضعـوا مبـاشرة مارتينيك وسلافاتا موضع اتهـام ، ولاموهمـا على سيـاستهما المتشـددة ، وجعلوهمـا مسؤولين عن المشاكل التي واجهها البروتستانت منـذ بضع سنوات . حتى اتهموهمـا بتحرير (الرسالة المضنية) التي وصلت إلى براغ بسرعة مفـاجئـة ، وكان يجب أن تحرر في مكاتب المستشارية . وفي الواقع ، وجهت من فيننا .

وعندئذ حاول المتهمان أن يرفعا الاتهـام عنهما ، وأن يجيبا بـالحجج . ولكن الاضطراب زاد بين ممثلي الدول البروتستانتية ، واتجه أحد الخطباء المرتجلين ، (شليك) نحو المندوبين وطلب منهم : هل أنتم متفقون للاعتراف بأن هذين الأميرين انتهكا (رسالة الجلالة) ، وسلكا ، ضد الدول البروتستانتية ، سياسة ظالمة ، معاكسة لقوانين المملكة ، وبالتالي يستحقان الموت ، حسب تعاملات المملكة ؟ في رسالة الجلالة مقطع يصرح بأن الذين يعاكسون تطبيق رسالة الجلالة يعاقبون (حسب تعاملات المملكة) .

وهذا التعامل قديم ، ويرجع إلى العصر الوسيط . ويمكن أن يؤخذ عنه أمثلة من عدة بلاد ، ولكن المشهورة والمعروفة كانت أمثلة بوهيميا . وهو يقضي بالعقاب بالموت بالإلقاء من النافذة . ولم يتوقع مارتينيك وسلافاتا مطلقاً مثل هذا الحادث . فقد وجدا وسط أناس يعرفونهما شخصياً من أصدقاء وأقرباء : لقد رأياهم ينقلبون إلى متهمين ومنفذين لا يرحمون ، لحكم مرتجل ، كوميديا قضائية .

وطلب البائسان البحث على الأقل عن كاهن ليمنحها العفو . وأجاب سلافاتا بأنه اعترف بما يكفي طوال حياته . وصرخ مارتينيك (يا يسوع ، ياماريا) . وهو أفضل تضرع عند الكاثوليك . فرد عليه أحدهم : (سنرى إذا ماريا ستحميك) . وجرا إلى النافذة وألقي بها في الفراغ من ارتفاع ١٥ متراً .

وفي الوقت نفسه ، اقتيد النائبان الآخران ، شترنبرك ، حمو مارتينيك ، وديبولات دولوبكوفيتش خارج الصالة وسلما من هذه المحاكمة العنيفة التي جرت للآخرين .

فازداد الهياج ، وألقي في الفراغ بعد ذلك شاب أمين للسر (سكرتير) اسمه (فابريسيوس) لم يوجه إليه أي لوم .

والعجيب أن أحداً لم يقتل ، ولم يجرح بشكل خطير . فكيف استطاع هؤلاء الثلاثة رجال أن يسقطوا من ارتفاع ١٥ متراً ، ومن نفس المكان دون أن يجرحوا ؟ إن صدفة سعيدة يمكن أن تحفظ حياة واحدة في مثل هذا الحادث ، ولكنها تحدث وتتكرر ثلاث مرات تباعاً ومن نفس المكان . كيف يمكن تفسيره ؟ كان يلزم ، لتلقي المطروحين من النافذة وإطفاء سقوطهم ، تراب متحرك بشكل فريد . لقد قيل بقايا أوراق وأقمشة عتيقة ألقيت من نافذة المستشارية ، إما بعادة تقبل الجدل منذ زمن طويل ، وإما عشية عندما نظمت الصالة حيث كان على النواب أن يستقبلوا الوفد . لا شيء أكيد . وظلت النتيجة سرية . وعلى كل حال ، إن الموحين بالمؤامرة ، بلجوئهم إلى هذه الوسيلة الفظة التي نفذوها واعتذروا فيا بعد بحجة أنهم لم يسفكوا دماً في القصر الملكي ، كانوا مقتنعين بأن النواب سيقتلون . فقد سددت إليهم النار من علٍ دون أن تصبهم ، عندما كانوا في خندق القصر ، ولكن مارتينيك و فابريسيوس السالمين انجدا بسرعة جداً سلافاتا الجريح ولجأ الثلاثة في بستان المستشار دولوبكوفيتش وهرعت زوجته وخدمه لمساعدتهم .

إن هذا الإعدام المزعوم حاول عبثاً الإدعاء برسالة الجلالة . وكان تجنياً على ممثلي السلطة . ولم يبحث تورن والمتآمرون في ٢٢ آيار عن شيء آخر غير الحصول على القطيعة مع سياسة أصدقائهم الذين قبلوا ، رغبة في السلام ، كل شيء من الحكومة ؛ وعلى فتح أزمة خطيرة مع وزراء ماتياس .

وبعد الغد ، في ٢٤ أيار ، صرح الممثلون البروتستانت بانتهاء سلطة النواب وسموا مجلس إدارة (ديركتوار) مؤلف من ثلاثين عضواً ، وأخبروا الأمبراطور بقرارهم في رسالة احترام .

إطاحة براغ والرأي الأوربي

لقد كان لاطاحة براغ صفة غير مألوفة للطريقة المتبناة في الإعدام ، بالرغم

من أنها غطيت بحجج حقوقية ، وبما يشبه الشرعية القضائية . وبرهن ، كما يزعم ، على تجريم المتهمين ، واتخذ بحقهم حكم ونفذ مباشرة .

وفي الواقع ، يوجد في اطاحة براغ صفات يمكن أن نجدها في كثير من الظروف في نفس العصر . لقد كان العنف ، في بداية القرن السابع عشر ، حلاً لكثير من القضايا السياسية . ولم يمض زمن طويل لنرى في فرنسا ملكاً شاباً أراد أن يتخلص من وزير ومحظي ذي نفوذ عظيم ، فأوعز بقتله إلى أناس في خدمته المباشرة ، وهذه هي حالة لويس الثالث عشر وكونتشيني . وفي فرنسا دوماً ، ومنذ وفاة هنري الرابع ، وأثناء قصور لويس الثالث عشر والحكم الذي تركه لأمه إلى ما بعد قصوره ، لم تغب الثورات المتأتية من أعضاء الطبقة النبيلة العليا ، ومن الأمراء أو من الحزب البروتستانتي .

وفي فرنسا ، بالرغم من هذه الثورات التي ستستمر ، وبالرغم من هذه المؤامرات التي لم تنقطع في حكم لويس الثالث عشر كله ، وحتى في عز شوكة ريشليو ، كان يوجد ، في النظم (المؤسسات) وفي التطبيق ، عناصر متانة وثبات . وقوّت المجالس ـ العامة أي مجالس الفئات الثلاث في عام ١٦١٤ م السلطة الملكية ، لأن كل فريق : النبلاء ، الأكليروس ، الفئة ـ الثالثة ، كان يلجأ إلى التحكيم الملكي ويطلب من الملك ممارسة سلطته للحفاظ على التوازن والنظام في المملكة ، من أجل الدفاع عن امتيازاته الخاصة ضد مزاعم وتجاوزات الفرق الأخرى . وبين هذا التصريح والشكل الذي تكيفت حسبه رعايا لويس الثالث عشر طوال حكمه ، يمكن أن ترى تناقضات كبرى ، ولكن السلطة الملكية ظلت عنصر قوة يمكن تعيين نفاذها كله .

وبصورة عامة ، تغطت الثورات بالسلطة الملكية ، وهذا يعني أن الخوارج لا يثورون على الملك ، وإنما على السياسة التي يسلكها الوزراء أو المحظيون الذين يسيئون استعمال سلطتهم ، ويمارسون سلطتهم عوضاً عن سلطة الملك .ولم يكن

هذا خاصاً بفرنسا ، فمن ذلك أن الخوارج في بوهيميا أقاموا مباشرة حكومة يمكن أن نقول بأنها ثورية ، وأعلموا بها الملك ، وظلوا يعتبرون أنفسهم رعايا الملك .

بيد أن إطاحة براغ تسجل قطيعة . لأن الحكم والإدارة المركزية في البلاد انتقلا إلى الدول البروتستانتية . وأكدت الدول بأنها لا تريد إلا احترام (رسالة الجلالة) والشؤون الدينية ، وأن النظام العام لم يتبدل . ومع ذلك وجدت هذه الإهانة المدوية لسلطة العاهل .

وبالحال ، نمت انعكاسات القضية خارج حدود المملكة لأسباب عديدة نمسك بسببين أساسيين منها :

ـ من جهة ، إن كل ثورة بحاجة لأن تعتمد على قوات عسكرية . والقوات العسكرية التي تقع تحت تصرفها ، في الأصل ، غير كافية أبداً . ولذا يجب سوق جنود مسلكيين ، والقيام بتجنيد الجنود في البلاد الأجنبية . فقد كان الأمراء الفرنسيون الثائرون على الملك يجندون الجنود في ألمانيا . وليتم هذا التجنيد ، يجب أن يقبل به عاهل البلد الأجنبي ، وعلى الأقل أن يغمض عينيه . وعندئذ يحاول كل حزب أن يكون العاهل الأجنبي إلى جانبه ، ويسمعه بأن التجنيد ضروري ، ويجب دعمه وعدم دعم قضية خصمه . وهذه قاعدة عامة في الشؤون الدولية في القرن السابع عشر .

ـ ومن جهة أخرى ، يحسن ربط قضية خاصة بمصالح عامة . يجب إثارة الرأي العام في البلاد الأخرى : كأن يرى مثلاً ، في الحالة التي تهمنا ، من جانب الثوار البروتستانت ، بأن المراد هو الحرية الدينية ، والإصلاح ، وعلى جميع المنتسبين إلى الإصلاح أن يكونوا حساسين بالوضع الصعب الذي يوجد به إخوانهم في الدين ، وأن يساعدوهم . ومن الجهة الأمبراطورية بالمقابل ، بأن القصد ثورة خطيرة تشكك في حقوق العاهل الشرعي . وعلى اعتبار أن العواهل متضامنون

مع بعضهم ، فإن الإهانة التي تلحق بجلالة أحدهم تلحق الخطر بسلطة الآخرين . وعلى العواهل إذن أن يتبنوا قضية الامبراطور ـ الملك .

وفي ذلك الحين ، لاتوجد وكالات صحافة ، ولا جرائد ، ولا راديو ، فكيف يمكن الاستخبار من بعيد عن حادث كهذا ؟

ففي حال عدم وجود صحف تتوجه إلى العالم كله ، تنتقل أخبار ، وتصل إلى وسط ضيق جداً ، وإلى رأي عام واسع قليلاً ، ولكنه يعتبر قادراً على فهم الشؤون الجارية والاهتمام بها . وهذا الاستعلام يأخذ مظاهر مختلفة : فتارة يأخذ شكل مراسلات خاصة : مثال ذلك أن وزراء الناخب البالاتيني كانوا على اتصال بشخصيات فرنسية من دينهم وبخاصة (دوبليسي ـ مورنيه) الذي كان في ذلك الحين حاكم (سومور) ، وظل بروتستانتياً ، وربما الشخصية المرموقة أكثر من غيرها في البروتستانتية الفرنسية ، والموالي لمليكه ، وكان خبيراً بتجربته وثقافته بكل قضايا الحكم والدين . ثم كانت توجد رسائل (كتيبات) صغيرة : والكلمة تسوى ماتسوى . ولنتصور كراريس صغيرة ، ومناشير ترسل رزماً إلى البلاد الأجنبية ، وعلى سبيل المثال ، في ألمانيا ، وفي هولاندا ، وبخاصة في البلاد المنخفضة ، كانت تترجم إلى الانكليزية ، وإلى الفرنسية ، وإلى الإيطالية ، ومنها ترسل إلى بعيد وتوزع .

والناس الذين يهتمون بما نسميه الظروف الدولية ، كانوا يستعلمون على هذا النحو . وعلى كل حال ، كان لديهم واسطة بألا يجهلوا الحوادث ودليل للتفكير بهذه القضايا .

لهذا أرسلت دول بوهيميا ، في وقت مبكر ، مبرراً صغيراً ، أي دفاعاً ، لصالحها ، لإيضاح مافعلت ، وقد فعلته عن علم ومعرفة ، مجبرة على هذه الضرورة الفظيعة لبواعث نبيلة ونقية خالصة . وهذا المبرر الأول (أبولوجيا)

يرجع تاريخه إلى شهر حزيران . كما وجد مبرر آخر في شهر أيلول وهو ما يسمى (المبرر الأكبر) .

لقد استقبل المبرر الأول رأساً وبجفاوة من بلاط الناخب البالاتيني الذي كان على العموم مركز معلومات وبث لصالح قضية البوهيميين . وبالرغم من أنه لا يمكن إطلاقاً تحديد مسؤولية البالاتينيين المباشرة في مؤامرة الإطاحة من النوافذ ، فإن العلاقات مع مدبري المؤامرة أكثر من أن تكون محتملة .

ومنذ الثورة ، أقامت الدول في براغ حكومة جديدة من (ثلاثين مديراً) ، عشرة من كل دولة . وبين هؤلاء المديرين ، بعض الوجوه : كان بودفيك ز بودوڤا بروتستانتياً ، ورجل تفكير ، وفكر ، وشخصية خطيرة جداً ومؤمنة جداً ومجهزة بخبرة دولية . وهذا شيء هام جداً . وسليك الذي كان خطيب يوم الإطاحة ، وروبوف . أمّا تورن ، فكان رجل عمل أكثر منه رجل حكم . عهد إليه بإدارة الجيوش ، ولم يكن هذا شيئاً عظيماً ، لأنه ما كان ليتصرف في ذلك الحين إلا بثلاثة آلاف جندي في جيش المشاة ، وألف فارس . وهذه هي كل الجنود التي وجدت حول براغ .

اتخذت الحكومة بالحال بعض التدابير ، أحدها طرد اليسوعيين مباشرة ؛ والآخر مصادرة أموال بعض الشخصيات الكاثوليكية .

وفي فينّا ، وجد حزبان حول الأمبراطور ـ الملك ماتياس : **أحدهما** يديره أسقف فينّا (كليسل) ، وكان يفكر بأن هذه الثورة السياسية الأولى وليست الأخيرة . ولذا يجب المفاوضة مع الدول ، الواسطة الوحيدة لتوطيد النظام . ولا شيء أقبح ، بالإجمال ، مما حدث في السنوات السابقة . **والآخر** ، حول الملك فرديناند . وكان مصمماً ، ويرى بأنه يجب قمع هذه الثورة بالسلاح ، وبالتالي تثبيت الامتيازات . وهذا ما يحصل دوماً : الرعايا تثور ، وبعد مدة ، تخضع للملك . وتثبت الفوائد التي كانت لها قبل التمرد . وفي هذه الثورات عنصر

مساومة يساوي عنصر القرارات . وكان تحت تصرفه جيوش لم تسرح بعد وكانت قد خدمته في حرب حديثه ضد جمهورية البندقية .

ولكن الحالة كانت غير مطمئنة ، لأن الطبقة النبيلة في النمسا كانت لصالح الثائرين دوماً في ثورة الدول ضد الأمير .

وفي تموز أوقف أشياع الملك فرديناند أسقف فينّا وسجن في التيرول .

ماهو موقف الحكومات الأجنبية أمام هذه الحوادث ؟

لقد كان الموقف قاطعاً دون منازع . ولو وجدت حكومات مصممة على التدخل لصالح أحد الأطراف ، أو على فرض السلام مباشرة ، لسويت القضية على وجه الاحتال بسرعة جداً . ولا تخمد قوى المعارضة ، ومن الممكن أن يظهر حادث آخر ويؤدي في ذلك الحين إلى خلاف .

لقد درس موقف الحكومات الأجنبية في عدة كتب . ويوجد مكتبة صغيرة من أربعة أو خمسة كتب تدرس قضية موقف الحكومات الأجنبية بعد حادث الإطاحة من النافذة . نجد في أصل هذا الحادث أعمال أستاذ في جامعة براغ ، وهو الأستاذ (بيكار) . وبعد الحرب العالمية الأولى ، وجدت ذكريات الجبل الأبيض والإطاحة من النوافذ اهتماماً جديداً لسببين : **الأول** ، وهو أن السنين أتت بالذكرى المئوية الثالثة للحوادث : ١٦١٨ ـ ١٩١٨ م ، ١٦٢٠ ـ ١٩٢٠ م ، ١٦٢١ ـ ١٩٢١ م . وفي عهد الجمهورية التشيكوسلوفاكية التي أصبحت مستقلة ، وقع الاهتمام على الظروف التي خسرت فيها المملكة قديماً استقلالها . وقد وجه الأستاذ بيكار اهتمام تلاميذه إلى هذه القضايا . والكتاب الأول في هذا الموضوع هو أطروحة الأستاذ (ل . تابيه) التي ناقشها عام ١٩٣٤ م ، وكانت بعنوان : (سياسة فرنسا الخارجية وحرب الثلاثين عاماً) ، التي ألفها باللغة الفرنسية

وترجمت إلى اللغــة التشيكيــة ، تحت عنــوان : (فرنســا والجبــل الأبيض) ، (بيلاهورا أ فرانسي) .

وبعد بضع سنوات ، بعد الحرب العالمية الثانية ، نجد مؤرخاً ، وهو حـاليـاً أستاذ في جامعة براغ ، الأستاذ (بوليشنسكي) ، ألف كتابين عنوانـاهمـا قريبـان من كتاب الأستاذ تابيه وهما : (انكلترا والجبل الأربيض) ، و (سياسة البلاد ـ المنخفضــة والجبـل الأبيض) . والمـؤرخ (شـودوبـا) درس (الاسبــان والجبـل الأبيض) .

ولم يكن الاتجاه نفسه في هذه الكتب . فالأستاذ بوليشنسكي يطبق الطريقة الماركسية . ولكن النتائج متقاربة ، مع تفسير بفـارق اللون . أولاً ، لأن التوثيق في خطوطه الكبرى يبقى نفسـه : لأن النصوص هي نفس النصوص ، والرسـائل نفسها ، والأخبار نفسهـا ، من الجهـة الأمبراطوريـة ، ومن جهـة دول بوهيميـا ، وكانت تصـل إلى بـاريس ، وإلى مـدريـد ، وإلى لنـدن ، وإلى لاهـاي . وفـوق ذلـك ، خـلال عـامين أو ثـلاثـة أعـوام ، من ١٦١٨ إلى ١٦٢٠ م ، بـالضبــط ، لم تتحرك الدول . وكان جمودها خطيراً ، لأن الحوادث جرت خارجاً عنها ، وهكذا أخذ الخلاف خطورة أكثر وأصبح دولياً .

وهـذا النكوص من الـدول ، يمكن تفسيره بـأشكال مختلفـة . فمن المؤكـد أن البلاد ـ المنخفضة كان لها دواعي عدة للتحالف مع بوهيميـا . وقـد وضح الأستـاذ بـوليشنسكي بمهـارة الشقـاق بخلـل في التـوازن بين الظروف السـوسيـولـوجيــة في البلدين . فقد وجدت في البلاد ـ المنخفضـة بورجوازيـة ، ولنقل تقـدميـة ، غير موجودة في بوهيميا : ففي بوهيميا كان المجتمع بخاصة مؤلفـاً من النبلاء والفلاحين ، ومن هنا لا يوجد إمكان لاتحاد بين الرأيين .

والمـلاحـظ ، في مختلف البـلاد ، أن العـواهـل كانـوا قلقين جـداً من ثـورة النبلاء . والخلاف دوماً قائم بين (سلطـة الملـك) و (سلطـة الـدول) . ولكن لم

يتخذ أي قرار ، لأن القضية ليست بهذه البساطة ، ووضعت في ظروف أوسع ، في منافسات دول بين بعضها .

في الأمبراطورية ـ المقدسة ، يتجابه الكاثوليك والبروتستانت . ومن السهل أن نرى الكاثوليك يبادرون لنجدة الامبراطور ، والبروتستانت لمساندة دول بوهيميا .

الحزب الأمبراطوري ، كان مشغولاً دوماً في الحفاظ على النظام في الأمبراطورية وسلطة الأمبراطور ، وهو الحزب اللوثري ، وعلى رأسه ناخب ساكس . ولقد بينا فيا سبق أن ناخب ساكس كان يداري السلطة الأمبراطورية ، وحتى عندما يكون في حرب مع الامبراطور ، كما سنرى ، ولم يدخل حتى النهاية في حرب مع الامبراطور .

وبين البروتستانت ، يجب أن نميز ، لمتابعة السياسات المختلفة ، اللوثريين والإنجيليين أو الكالفنيين .

وأكثر من ذلك ، حتى في الاتحاد الإنجيلي ، الحلف الدفاعي العسكري لاحترام الامتيازات الدينية ، لم يكن الجميع متفقين ، وذلك لأسباب انتهاز ومصلحة مباشرة أكثر من أسباب مبدأ .

من هم الحربيون ؟ وزراء الناخب البالاتيني ، وإذن ، ناخب بالاتينا نفسه ؛ وبعض الأمراء المصممين ؛ لأن العمل يستجيب لمزاجهم ، أمير انهالت ، ومارغراف انسباخ ، ولم يكن عندهما بلاد كبيرة جداً ، ولكن نفوذهما الشخصي كان قاطعاً .

وبصورة عامة ، إن الأمراء الصغار لم يكونوا محبذين لكل ما يمكن أن يثير الحرب . لقد كانوا مسالمين ومصالحين . لماذا ؟ لأنهم غير محميين جيداً ، لقد كانوا

على يقين من أن الحرب إذا نشبت في منطقتهم فسيكونون أول المتضررين منها وبصورة خطيرة جداً .

وأكثر مسالمة منهم أيضاً ، المدن ، مدن الامبراطورية ، أعضاء الاتحاد الإنجيلي ، ستراسبورغ ، شفاينفورت ، أولم ، روتامبورغ ـ أوب ـ تاوبر . وفي سجلات مجلس الستة عشر (مجلس الشيوخ) في ستراسبورغ ، تقرأ هذه الجملة : « لا تتدخلوا في قضايا بوهيميا » .

وروتامبورغ ـ أوب ـ تاوبر مدينة ألمانية صغيرة حافظت بصورة استثنائية على طابعها الذي كان لها أثناء حرب الثلاثين عاماً . فالشوارع فيها محاطة تماماً بمنازل القرن السادس عشر والسابع عشر . والحصون مازالت موجودة بعد ، وفي الحقيقة ، عندما نكون في روتامبورغ ـ أوب ـ تاوبر ، نجد أنفسنا في الإطار ونظن أنفسنا في جو حرب الثلاثين عاماً . وفيها في شهر تشرين الأول ١٦١٨ م عقد الاتحاد الإنجيلي مجلساً لم ينته إلى شيء ، لأنه لم يوافق على التسلح ولا على المعونات ، واقتصر على التوصية بالمصالحة .

هكذا كانت الامبراطورية ـ المقدسة مقسمة ، وبالأحرى محبذة للسلام بينما في إحدى الدول وجدت إرادة مصممة للعمل في صالح البوهيميين ، ومنها جاءت النصائح التي عجلت بالمغامرة : من بالاتينا .

في فرنسا ، كان الحكم بأيدي وزراء هنري الرابع السابقين ، هؤلاء الذين يسمون (الباربون) ، لأن لحاهم كانت كبيرة مربعة ، على شاكلة هنري الرابع ، عوضاً عن متابعة موضة الشارب والعثنون المتطاول كشبيبة العصر . ولم يكونوا مسنين بل كانوا رجالاً بين الخمسين والستين عاماً . وعندهم خبرة كبيرة بأوربة ، ويتمنون بقاء السلام العام ، ولكنهم كانوا أيضاً كاثوليك ومدافعين مصممين جداً عن السلطة الملكية .

هكذا كانت الحكومة . وربما يجب تمييزها عن السياسة ، وهذا يعني الظروف التي اتخذت فيها القرارات . وهذه القرارات متعلقة في آخر الأمر بالملك نفسه أوبمحظيه ، (لوين) . ولم يكن للملك ولوين تجربة الباربون السياسية ، لقد كانا شابين نبيلين ، قليلي التفكير ، سريعي التأثر والحماسة لقضية وهي قضية السلطة الملكية والكنيسة التي كانت قضيتها الممتازة .

وجرى نقاش لمعرفة السياسة التي يجب اتباعها ، وتضم المحفوظات الفرنسية توثيقاً كاملاً هاماً في هذا الموضوع .

وهناك شكل آخر للأدب السياسي ، وهو المذكرات والخطب . وهذه المذكرات ليست بمعنى الذكريات ، وإنما هي تقارير حررها أناس حسنو الاطلاع ، وهم نوع من مشاورين خفيين منتشرين في الجمهور . والكثير من هذه الرسائل توسع إطاحة براغ وحوادث بوهيميا . وقد نسب بعضها إلى الأب جوزيف صفي ريشليو ، وكان له تأثير على سياسة الكاردينال ، وكان على صلة بروما وعدة بلاد أجنبية . وفي إحدى هذه الرسائل (أو المقالات) أظهرت أو أعطيت قيمة للفائدة التي يمكن الحصول عليها من إخفاق البيت النمساوي في موقع من مواقعه الهامة .

وتؤخذ الأقاليم ـ المتحدة كمثل : فقد ساعدت فرنسا هذه الأقاليم في ثورتها ضد اسبانيا ، ولزم الاعتراف بها دولة مستقلة ، منفصلة عن الدومين البورغوندي السابق التابع للبيت النمساوي . أفلا توجد عملية من نفس الفرع لمحاولتها في أوربة الوسطى ؟ هذا ما أشارت إليه هذه الجملة الموحية : « يمكن تحرير البوهيميين كالهولنديين » . ولكن من جهة أخرى ، تحرير البوهيميين ، كالهولنديين ، يعني دعم الثوار ضد الملك الشرعي ، وهل من المصلحة عمل نفس الشيء في الظروف الحاضرة ؟

لقد حدثت في فرنسا حوادث توضح السياسة التي يجب اتباعها ، فقد ترأس

لويس الثالث عشر إعادة توطيد الكاثوليكية في (بيارن) ، وإدخال الأساقفة إليها رسمياً ، والعبادة الكاثوليكية التي حذفتها جدته (جانّ البريت) . وهنا أيضاً ، يوجد تطابق يلفت النظر مع حالة (رسالة الجلالة) ، فهل للملك الحق في توطيد الكاثوليكية في بيارن ؟ بلى ، حسب حرفية المعاهدات ، ولكن أباه كان له نفس الحق ولم يطبقه . فقد ترك الأمور على حالتها القديمة . أما لويس الثالث عشر ، فقد أوعز إلى البروتستانت في بيارن أن يردوا الكنائس إلى الكاثوليك ، وأن يعيدوا أيضاً الأموال الكنسية ، ليعطي للأكليروس ، في بيارن ، وضعاً صلباً . وأرسل مفوضاً يسمى رونار (ثعلب) ليفرض مرسومه ، وكان من عادة الملك ، إذا أراد تطبيق مرسوم هام ، أن يرسل إلى الإقليم مفوضاً ، وكان هؤلاء المفوضون نموذجاً أول لنظار السلطة الملكية ، وكما يحصل غالباً ، أسيء استقبال المفوض ، فقد صبّحه فتيان المدارس في الدار التي نزل فيها . ولما كان اسمه (ثعلب) ، فقد علق بعض الفتيان على قمصانهم أذناب ثعالب وصرخوا : (الثعلب ! الثعلب !) كما يصرخ في الصيد عندما يمر الثعلب ، ولم يكن هذا بالأمر الخطير جداً ، ولكن الملك لويس الثالث عشر استاء منه كثيراً .

وفي الوقت نفسه ، وجه البروتستانت في بيارن ، من جانبهم ، مقالات ومذكرات إلى الخارج يدعمون فيها أن الحكومة الملكية تظلمهم ، وتتجاوز القوانين السابقة ، وتعكر النظام العام ، وستضطهد الكنائس .

وإذا فكر بأن هذه الحوادث تجري في شهر حزيران ١٦١٨ م ، أفلا تظهر الموازاة فريدة ، مع شدة أقل في بيارن على وجه التأكيد ، مع حوادث بوهيميا ؟ وهل هذا يمكن أن يجعل ملك فرنسا أميل إلى كثير من التعاطف إزاء ثورة بوهيميا ؟

وبالحال كتب الامبراطور إلى الملك لويس الثالث عشر وطلب منه ألا يسمح بتطوع جنود لدول بوهيميا في فرنسا ، وإنما بالعكس أن يسمح بتطوع

الجنود لخدمته ، ودعا إلى تضامن الأمراء أمام الرعـايـا الثـائرة . وطمنـه ، وهـذا التطمين يكشف أنـه عنـدمـا تسنح الفرصـة سيسـاعـد هو أيضـاً ملـك فرنسـا في مشاكله .

وكانت الفكرة الفريدة لدول بوهيميا في إرسال مـذكراتها وطلبـات نجداتها بواسطة مقيم فرنسا في هايدلبرغ ، سانت ـ كاترين ، وهو رجل بروتستانتي مـاهر جداً وواقف على المشاكل الأوربية ، كما عرف بخبرته السيـاسيـة العظيمـة ، واضطر إلى قبول دور الوسيـط ، ولكن وجـد في بـاريس أن دول بوهيميـا ارتكبت خطـأ بروتوكولياً .

النتيجة : هي أن فرنسا لاتعتقد أن بـالإمكان التـدخل ، ولا يمكنهـا إلا أن تعطي أطيب الكلام وإسداء النصح بالسلام .

وفي أنكلترا ، كان الملك جيمس بروتستانتيـاً ، وخصماً مقتنعـاً جـداً للكنيسـة الكاثوليكية ، دخل في نزاع مع لاهوتيي رومـا ، على قضيـة التفوق الحبري ، فهل يستطيع البابا أن يحل الرعايا من واجبات الطاعـة والولاء إزاء ملـك هرطقي ؟ لقد دافع الملك جيمس الأول بشدة عن السلطة الملكية ، واستقلاله الكامل إزاء كل سلطة غير سلطته ، وهذا الاستعـداد منـه لا يحملـه بـالتـأكيـد على التعـاطف مع الكاثوليك ، وليس عنده أي مجاملة إزاء الثائرين . وفوق الاختلافات الـدينيـة ، يقبل التضامن مع العواهل لحماية سلطتهم .

وبـدت من الملـك جيمس بوادر تزويـج ابنـه من ابنـة ملـك اسبـانيـا ، وفي هايدلبرغ لم يدفع مهر ابنتـه التي تزوجت النـاخب البـالاتيني . وفي هـذه الأيـام تطلب منه حكومـة بـالاتينـا ، وبكثير من الإصرار ، دفع هـذا المهر الـذي كانت بحاجـة إليـه لتجنيـد الجنود لصـالح دول بوهيميـا . ولم يعـط الملـك جيمس جوابـاً ملائماً .

أما في هولندا فقد لاقى الثـائرون الكثير من العطف ، ولكن القضيـة وقعت

في وقت غير مناسب ، لأن الأقاليم ـ المتحدة كانت منهمكة في نزاع ديني بين الحزب المتشدد (الغوماريين) ، والحزب المصالح (الأرمينيين) الذين يمثلهم محامي إقليم هولندا ، (أولدنبار نوفلت) . فقد رفعت دعوى على أولدنبار نوفلت ، الوطني المخلص ، المتعلق باستقلال بلده وبالحرية الدينية ، ولكن تعصب خصومه اتهمه بالخيانة وبالتآمر مع اسبانيا .

كان الفرنسيون يعطفون جداً على (أولدنبار نوفلت) ، بينما كان الملك جيمس يكرهه . ولكن الحالة الداخلية كانت مضطربة كثيراً ، ولا تستطيع الأقاليم ـ المتحدة أن تعطي شيئاً إلى دول بوهيميا إلا الوعود بنجدة بالمال والرجال . وسيساعدها الزمن بالوفاء بوعودها .

وفي بلجيكا ، تبنت حكومة الأرشيدوقات موقفاً أوضح . فقد جهز الأرشيدوق ألبرت أخاه الامبراطور بنجدات عسكرية بالحال . ولكننا في ١٦١٨ م ، وستنتهي هدنة الاثني عشر عاماً في ١٦٢١ م . وهذه الثلاثة أعوام الباقية ليست طويلة . ولا يحسن في مثل هذا الوقت تجريد البلاد ـ المنخفضة من الجنود كثيراً ، لتوقع إمكان عودة الحرب . ولذا أريد ألا ترسل جنود كثيرة .

أما اسبانيا ، فهي بعيدة ، ولكن عندما يقال اسبانيا ، يجب ألا يفكر بشبه الجزيرة الإيبرية وحدها ، يجب أن يفكر بميلانيا وبمملكة نابولي اللتين تأتي منهما الجنود ، وإذن عند ملك اسبانيا جنود تحت تصرفه . ولكنه قليل المال ، وفي هذه السنوات الأولى ، يجب ألا يذهب عن البال الضائقة المالية التي كانت فيها الحكومات أياً كانت . ومع ذلك ، يرى في حالة اسبانيا أن كثيراً من الأمور تتبع وصول المعادن الثمينة التي تنتجها المناجم الأميركية .

ويمكن تتبع ذلك في كتب (م . شونو) : « اشبلية والأطلسي » . وهي كتب لاتهم مباشرة حرب الثلاثين عاماً ، ولكن تبدو فيها معلومات ومنظورات غنية جداً . وفيها نرى أن الظروف كانت تنوس من الارتفاع إلى الانخفاض ،

وحسبما يكون وصول المعادن الثمينة من أمريكا أكثر أو أقل ملاءمة تصبح سياسة أسبانيا أكثر أو أقل نشاطاً .

وكانت ضائقة الحكومات المالية سبباً من أسباب جمودها ، فتعوضه بتوزيع أطيب الكلام ، حتى ان البابا بول الخامس جعل منها حجة لدى لويس الثالث عشر . فهو يخول حالاً إسهامه المالي للامبراطور والملك فرديناند . ولكن يطيب له ، في الرسائل التي يوجهها إلى لويس الثالث عشر ليوصيه باقتراح وساطته ، أن يجد هذه الحجة : « إن السلام يوفر عليه كثيراً من النفقات » .

وتركت الثورة بضعة أشهر لنفسها ، فضلاً عن أن الأقاليم المندمجة لم تبد مصممة . وكانت الحرب تخيف الناس جميعاً . وكانت حالة مورافيا واضحة جداً . فقد كان يوجد ، كما هو معلوم ، حلف ، بين مختلف أقاليم مملكة بوهيميا ، والنمساتين وهونغاريا . ولم يلعب الحلف دوره بالحال ، وكان ذلك ، في الجزء الأعظم منه ، بسبب شخصية من أكثر الشخصيات نفوذاً في مورافيا وهو شارل زيروتين . فقد ولد في ١٥٦٤ م ، وكان مسناً في ذلك الحين ولم يكن ليمارس وظائف رسمية ، ولا نقيباً للبلد ، ولا مديراً للخزانة مثل الكردينال (ديتريشستاين) ، أسقف (اولمتز) ، ولكنه كان يتمتع بسلطة معنوية عظيمة في الدياط . وبدا محبذاً لصالح الامبراطور .

وقد نوقش كثيراً في موضوع هذا الموقف من زيروتين ، لأنه كان أيضاً قاطعاً خلال عدة أشهر ، وقال بعضهم : لأنه ينتمي إلى (وحدة الإخوة) ووحدة الإخوة لا تحب العنف . وبين الفرق البروتستانتية المرتبطة بالكنيسة الأوتراكية ، تبدي فرقاً عن البروتستانتية معادياً للقوة بخاصة . وهذا التفسير لاقيمة له ، لأن قناعات زيروتين الوحدوية لم تحوله عن الذهاب والقتال في جيش هنري الرابع ، ولا المشاركة في عصيان الأرشيدوق ماتياس ، في ١٦٠٨ م ، وكان يستاء من جمود البوهيميين .

الحقيقة أن زيروتين كان يؤمن بالملكية ، وكان مقتنعاً بأن فردينانـد وماتياس ملكان شرعيان لبوهيميا ويجب إطاعتها ، وهذا هو المبدأ السياسي الـذي يوضح سلوك زيروتين ، كسلوك زدينيك لوبكوفيتش . وهؤلاء أمراء كبار . وبالتالي فإن كبار الأمراء لا يتبنون سياسة الدول . ولم يكن زيروتين نصيراً للحكم المطلق ، ولكنه يزعم التوفيق بين القوتين السياسيتين ، أي أن يكون مخلصاً لإقليمه وإلى دول هذا الإقليم وإلى الملكية معاً .

وكان يخشى أن تصبح مورافيا مسرحاً للحرب ، وجند ٥٠٠٠ رجل لخدمة الدفاع عن الإقليم ، ضد من ؟ ضد كل من يجتاحون المارغرافيا دون ترخيص من دياط مورافيا . ولكن دياط مورافيا ، بعد أن جمع هذا الجيش لدفاعه ، خول الجيوش الامبراطورية حق اجتياز البلاد للدخول في بوهيميا .

وكانت سيليزيا ، بالعكس ، أكثر تحبيذاً لثوار بوهيميا ، وقدمت لهم نجدات . ويجب ألا ننسى أخيراً أن كانت في النمسا طبقة نبيلة بروتستانتية كثيرة العدد جداً وأكثر تحبيذاً للثوار منها للامبراطور .

وفي بوهيميا نفسها ، كانت الحالة معقدة . وفي الحقيقة ، كما يحصل عادة للمؤامرات ، حدثت المؤامرة في وسط مهيأ قليلاً لتقبل النتائج . وكاد الرأي في بوهيميا أن يقوّم بأيدي حكومة المديرين . وفي دياط المملكة كلها ، صرحت المدن في شهر آب بأنها لا تريد أن تتحمل وحدها عبء الحرب كله . وطلب رجال ومال ولكن كان ينتظر بخاصة مال البورجوازيين . وكان البورجوازيون مقاومين ومترددين بكفاية ، فضلاً عن أنه طلب منهم (الرجل الخامس) أي رجل على خمسة ، على حين لم يجند على الدومينات إلا رجل على ستة عشر رجلاً .

وأكثر من ذلك أيضاً ، أن بعض المدن ظلت موالية للامبراطور ، وليست كلها ، ولا (كوتنا هورا) بخاصة ، وهي ثاني مدينة في المملكة ، وكانت غيورة

على امتيازاتها ، وترتاب إزاء تجـاوزات العـاهل . وأكثر من ذلـك ، **في الجنوب** . بودفايس (بودجيؤفيس) ، المدينة الألمانية التي كانت فيها البورجوازية تعـارض الشعب ـ الأدنى ، وكان هذا الشعب في صالح الامبراطور ويسـانـد سلطـة الحـاكم المخلص والمصمم ؛ وفي الغرب بيلسن (بلزن) .

الفصل الخامس

كونفدراسيون بوهيميا وحكم فريديريك الخامس

شغور العرش الأمبراطوري (١٦١٩ م) .

وصل جنرالا الأمبراطور ، بوكوا ودامبير ، إلى بوهيميا ، حتى (شاسلاف) ، وقابلا جنرالي الدول : تورن وهوهنلوه ، ولم يحدث كفاح ، ونزلا إلى الجنوب ، واخذا حصني (بودفايس) و (كرملوف) القائمين على نهر الفلتافا . وبهذا أمنا المواصلات مع بافاريا . وانتظرا النجدات والتعزيزات التي يجب أن تأتي من الفلاندر بأمر من الأرشيدوق ألبرت ، ومن إيطاليا .

وفي ذلك الحين ، أدخلت مكيدة ملفتة للنظر ونافذة شخصيتين جديدتين إلى المسرح :

أحدهما : دوق السافوا ، وهو أمير طموح ، يفكر في تقديم ترشيحه للامبراطورية . وقد قدم لدول بوهيميا جنرالاً ألمانياً سبق أن كان يعمل لخدمته وعلى نفقته عندما كان في صعوبات ومشاكل مع الاسبان ، ثم عاد إلى ألمانيا ماراً بسويسرا . وهذا الجنرال هو (مانسفلد) ، كما تعهد الدوق إلى دول بوهيميا بالأعطيات الضرورية لجيش مانسفلد . وأخذ هذا يحارب منذ الآن في خدمتها .

وكان الوزراء البالاتينيون على علم بهذه المشروعات ويشجعونها ، في الحد الذي تستطيع هذه الجيوش نجدة دول بوهيميا . ولكن ترشيح دوق السافوا للأمبراطورية لم يعجبهم كثيراً . ولذا ظلوا متحفظين ، والمستقبل يقرر . ولكن

جيش مانسفلد أدى خدمة . فقد حاصر مدينة بيلسن التي ظلت مرتبطة بحزب الامبراطور وسقطت في ٢١ تشرين الثاني .

ولم تجر عمليات في الشتاء . وفي هذه الظروف ، كان الأفضل تسوية النزاع بحل وسط ، واتفق على أن يجتمع أربعة أمراء ألمانيين ، في شهر نيسان ، على حدود بوهيميا وألمانيا في (شيب - إيغر) ، وهي مدينة مرتبطة بمملكة بوهيميا بوضع حقوقي خاص . والأمراء الأربعة هم : ناخب ماينس ، وناخب بالاتينا ، ولم يستطع أن يتهرب من هذا المسعى في التهدئة ؛ وناخب ساكس ، ودوق بافاريا . وهذا معناه : كاثوليكيان ، وبروتستانتيان ، أحدهما لوثري ، والآخر كالفني ، زعيم الاتحاد الإنجيلي للأمراء البروتستانت في ألمانيا .

وحدث حادث غير منتظر : وهو أن الأمبراطور ماتياس توفي ، في ٢٠ آذار ١٦١٩ م . وقرعت نواقيس براغ مؤذنة بوفاة ملك بوهيميا الشرعي . وإذا أمنت ، على ما يبدو ، الخلافة في بوهيميا وهو نغاريا ، بانتخاب فرديناند ملكاً من قبل دياط برسبورغ ، فإن العرش الأمبراطوري ما زال شاغراً ، أي أن الجزء الأخير من البرنامج المتفق عليه لم يتحقق ، لأن الأرشيدوق فرديناند لم ينتخب بعد ، ملك الرومانيين .

هل أصبح ترشيح فرديناند للعرش الأمبراطوري معرضاً للخطر ؟ لقد أفاد من مساندات صريحة ، ولكنها لم تكن من قبل الناخبين ، وإنما كانت مساندة أقوى سادة أوربة : ملك اسبانيا ، ملك فرنسا ، بل وحتى ملك انكلترا وهذا شيء يلفت النظر .

وكان لويس الثالث عشر ، في ذلك الحين ، فريسة صعوبات كبرى في داخل مملكته : مشاكل مع الملكة - الوالدة (ماريا دوميدتشي) التي هربت من قصر (بلوا) ، حيث كانت سجينة نوعاً ما منذ سقوط كونشيني ، والتي أدت

ثورتها المعلنة إلى الحرب الأولى بين الأم والابن ، في ١٦١٩ م ؛ ومشاكل مع النبلاء ومع البروتستانت .

ولا يمكن للألمان ألا يقلقوا من شغور العرش الأمبراطوري ، وبخاصة البالاتينيين . إن الناخب البالاتيني الذي نتعرف عليه الآن بصورة وثيقة ، كان صهر ملك انكلترا جيمس الأول . كان شاباً طموحاً . وربما لم يكن مجرباً كثيراً . ولا داعياً جداً للأحداث التي جر إليها ، ولكنه كان محاطاً بوزراء من نفس جيل الوزراء الفرنسيين : كاميراريوس وبليسّن ، وبأمراء أكثر تصميماً في الاتحاد الإنجيلي : مارغراف آنسباخ ، والأمير كريستيان آنهالت .

قلق الاتحاد الإنجيلي من حركات الجنود التي حدثت في الأمبراطورية بسبب قضية بوهيميا . وقرر أن يزيد جنوده بقرار ملحوظ جداً من الأمراء ، وبتحفظ كبير من المدن . وكما جرى قبل بضعة أشهر ، يرى أن مدن الأمبراطورية ، التي تؤلف جزراً في الاتحاد الإنجيلي ، كانت مسالمة . ورضيت أن تعطي المال لإقامة الجيوش . ولكن بقلقين : **الأول** : وهو أنها كانت الوحيدة التي تدفع . **والثاني** : وهو أن التسلح يعجل بمجيء الحرب التي ستدفع نتائجها .

وطلب الاتحاد الإنجيلي أيضاً ، حسب معاهدات ١٦١٠ م التي وقعها مع هذه الدول ، مساعدات مالية وعسكرية من الأقاليم ـ المتحدة ومن انكلترا . وفي الوقت نفسه استأنف عملاء الناخب البالاتيني المفاوضات مع دوق السافوا . وفي ريفولي ، في أيار ١٦١٩ م ، أدت هذه المحادثات إلى النتائج الآتية : أن يضع دوق السافوا ترشيحه لملكة بوهيميا والأمبراطورية . وأن عرش بوهيميا ليس شاغراً شرعاً ، وإنما يشك في أن صعوبات قد تحدث لوصول فرديناند إلى العرش . وتعهد دوق سافوا بإعطاء الاتحاد الإنجيلي مساعدة شهرية من ١٠٠٠٠٠ دوقا . وفي الوقت نفسه ظل يضمن أعطيات جنود مانسفلد .

وفي ذلك الحين ، أخذ ترشيحه للأمبراطورية بعين الاعتبار ، حتى ان وزراء ملك انكلترا في لندن اقترحوا على السفير الفرنسي أن يسانده بالاتفاق مع فرنسا .

وكان لهذا الترشيح ، في الواقع ، فوائد عدة . كان دوق السافوا أميراً على أراضٍ خارجة عن الأمبراطورية . ولم يكن داخلاً في منازعات الأمبراطورية ، ولهذا يبدي بهذه الصفة الضمانات أو الآمال ببعض الحياد . وهو طرف ثالث . وعدا ذلك ، كاثوليكي ، وإن أصوات الناخبين الكاثوليك يمكن أن تقع عليه دون قلق . وأخيراً كان غنياً بشكل كاف للقيام بالشروط التي تطلب من الامبراطور ، وهي ألا يكون قوياً كثيراً ، ولا أن يكون أهلاً لإخضاع الجميع لإرادته ، ولكن أن يكون غنياً لئلا يطلب مالاً كثيراً من الامبراطورية .

لم تتقيد فرنسا بالاقتراح . لماذا ؟ لأن الحكومة الفرنسية ، مع علمها بأن ترشيح فرديناند للامبراطورية ترشيح اسباني ، ظلت تدعمه دون حماسة ، كما ظلت تعتقد بأنه معقول أكثر .

وبسرعة ، تطورت الحالة في بوهيميا ، وفي كل تركيب دول البيت النمساوي .

لقد شكلت النمسا زمناً طويلاً في الجانب الشرقي من ألمانيا ـ الامبراطورية ، كونفدراسيون جرمانياً أو ريخاً ـ دولة برية تجمع تحت عاهل بوهيميا نفسه ، هونغاريا ، والأرشيدوقيات النمساوية وأقاليم الالب . وهذا التجمع من الدول تحت صولجان البيت النمساوي هو ما يهمنا هنا .

لقد انتخب فرديناند ملكاً على بوهيميا . ولا شيء مما حدث يمكن أن يشكك في صحة انتخابه . وما أن توفي الأمبراطور ماتياس ، إلا ووجه رسالة إلى دول بوهيميا ليعلمها بوفاة الامبراطور ويعرب لها عن تسنمه العرش ، ويضمن لها بأنه يؤكد ويحترم امتيازات المملكة . ولكن هذه الرسالة أعيدت له . ولم تدخل دول

بوهيميا ، التي احتفلت بوفاة ماتياس عاهلها الشرعي ، في علاقات مع من كان ، مع ذلك ، خلفاً شرعياً للعاهل الراحل .

وفي الوقت نفسه ، أي في بداية أيار ١٦١٩ م ، تغلب الحزب الثوري في مورافيا ، ودخل تورن الإقليم على رأس ١٠٠٠٠ رجل ، وتخلى جيش دول مورافيا عن دفاعه . وأوقف زيروتين . وشكلت حكومة من ثلاثين مديراً ، كما في بوهيميا . وكان أول إجراء لها طرد الجمعية اليسوعية .

ونتج عن هذه الحوادث أن الثورة اتسعت في بوهيميا . وتجاوزت حدود المملكة ، وامتدت إلى الأقاليم المدموجة ، ووصلت الآن أرشيدوقيتي النمسا .

ثورة النمسا ـ العليا

في الواقع ، إن وفاة ماتياس أتاحت للطبقة النبيلة البروتستانتية ، في النمسا ، المحبذة لحرية الدول ، الفرصة لتسوية كبيرة للحسابات . فقد وجد العامل الديني والمثل الأعلى السياسي منضمين بشكل وثيق . وحانت الساعة لتحديد مشاريع سلطة العاهل ، مهما يكن ، والتأكيد على أن الدياطات (الدول) هي التي تمارس حكم البلاد .

وفي الأرشيدوقيتين النمساويتين : أي النمسا ـ الدنيا ، وعاصمتها فيِنّا ، والنمسا ـ العليا ، وعاصمتها (لنتز) ، اللتين تميزان في ذلك الحين بنهر (الإينز) : النمسا ـ العليا هي النمسا فوق الإينز والنمسا ـ الدنيا أي : (النمسا تحت الإينز) . وبالرغم من أن الناس من بلد واحد ولغة واحدة وعرق واحد ، يوجد اختلافات كبرى اجتماعية وسياسية ودينية من بلد لآخر .

والخلافة فيها وراثية . والوارث أي الخلف يجب أن يكون أقرب قريب مذكر للعاهل الراحل . وفي التاريخ الذي نحن فيه ، توفي الأرشيدوق ماكسمليان ، الأخ الذي يلي ماتياس ، في كانون الأول ١٦١٩ ، وكان قد لعب

دوراً في سياسة السنوات الأخيرة . ومن بين أولاد الأمبراطور ماكسمليان الثاني ، عاش الأرشيدوق الوحيد ألبرت ، الذي يحكم في بروكسل . وصرحت دول النمسا ، بأن تخليه لصالح فرديناند غير قانوني ، على اعتبار أنها لم تؤيده بعد . ولذا لم تقدم الدول احترامها مباشرة لفرديناند . وحاولت أن تدخل في النمسا كا في بوهيميا ، كا في الأمبراطورية ، فترة بين حكمين .

كان دياط النمسا ـ العليا أكثر عزماً وتصمياً . وكان المحرك الأساسي فيه نبيل بروتستانتي ، ، (جورج أرزم دوتشرغمبل) . فقد نشأ في أسرة قديمة من كارنيول . وفي حوزته دومينان يخولانه التسجيل المدني في النمسا ـ هونغاريا . وكان الزعيم الحقيقي لحزب الدول في النمسا ـ هونغاريا . كان كالفنياً ، ساح كثيراً ، وأتى من إقاماته في الخارج بأفكار جونيف الدينية والسياسية . فهو يرى أن السيادة الحقيقية تعتمد على الشعب ، المتمثل بالدياط ، أي الدول ، وليس العاهل إلا مندوباً عنها . فهو إذن يعارض المفهوم الملكي الذي يخول السلطة الأساسية للعاهل ، بمفهوم أرستقراطي يضع السلطة الفعلية في الدياطات .

وإذا قام المليك بأعمال يرى بأنها مخالفة للخير العام وللقوانين ، تكون الثورة ضده مشروعة . وقد ألف تشرغمبل منذ زمن طويل كتاباً يسمى : (مقاومة الرعايا لأميرها) .

ولم يكن مطلقاً مغامراً على شاكلة تورن ومانسفلد . كان رجلاً مثقفاً ثقافة عالية ، مثل زيروتين . ولكن من الملفت للنظر أن يلاحظ أن زيروتين ، وقد انطلق من الآراء نفسها ، قد شايع المفهوم الملكي ، وأن تشرغمبل ، بالعكس ، أكد على المفاهيم الملائمة لصالح الدول .

وحاول فرديناند أن يتفاهم مع دول النمسا ـ الدنيا التي كانت تقريباً بنفس الاستعدادات ، ولكن كان حول فينا أقلية قوية كاثوليكية ، ولا يوجد في دياط النمسا ـ الدنيا شخصية نشيطة وجذابة كتشرغمبل .

تقدمت جنود تورن في النمسا . ووصلت فينا في غرة حزيران . وفي ذلك الحين دخل الفرسان المدرعون المدينة . ونسب أحياناً مجيئهم إلى أن فردينانـد لم يخول تنازلات لدول النمسا ـ الدنيا ، ولم يأخذ أي تعهد حيالها . والحقيقة هي أن فردينانـد دافعت عنه بعض الجنود ولم يستطع جيش تورن أن يوسع عمله ضد المدينة . وغادر محيط فينا ، لأن مانسفلد هزم ، في ١٠ حزيران ، في (زابلات) ، في بوهيميا الغربية . لقد كانت مناوشة بسيطة ، ولكنها كانت كافية لإيقاع الاضطراب في جنود مانسفلد ، وترك ١٤٠٠ أسير للأمبراطوريين ومتاع قائد الدول . ووجدت في ديوانه وثائق تتعلق بالمهمة التي قام بها في تشرين الثاني لدى دوق السافوا . ولذلك نرى الحزب الأمبراطوري الكاثوليكي في دعايته ، من خطب ، ومذكرات ، ورسائل ، ومراسلات ، يستخدم هذه المعلومات الثمينة لنزع الثقة بدوق السافوا ودعم فكرة نضال مبدأ بين شرعية المليك وجرأة من يشككون بالحق المكتسب لإرضاء طموحاتهم الشخصية .

وعدا ذلك ، في هذه المناوشة الصغيرة التي وقعت في زابلات ، كما في الحروب السابقة ، يمكن وجود مظاهر أساسية لما سيكون حرب الثلاثين عاماً على الأراضي التي ستدور عليها هذه الحرب : جيش دول بوهيميا ضد جيش الامبراطور . فهل يجب أن يقال : البوهيميون ، من تشيكيين وألمان ، ضد النمساويين ؟ لاشيء من ذلك البتة : في جيش مانسفلد ، يوجد جنود مرتزقة من ألمان الامبراطورية . وفي جيش بوكوا ، يوجد هونغاريون وبلجيكيون ، والكل ينهبون منطقة بوهيميا في الجنوب حيث تتسع عملياتهم . ويخطفون حيوانات المزارع والحقول ويبيعونها بثمن بخس في ميدان بو دو جو فيس . وعامل الجنود الشعب معاملة سيئة . واضطر الشعب أن يدافع عن نفسه ضد مرور الجيوش ، بقدر ما يستطيع بالفرار ، بالخداع ، مهما يكن الجيش ، ومهما تكن القضية التي يمثلها هذا الجيش .

وعدا ذلك ، اهتم القادة بمهنتهم وبأعطياتهم أكثر من اهتمامهم بالقضية التي

يزعمون بأنهم يخدمونها . وكشفت وثائق عن قادة الدول الآخرين ، مثل : (هوهنلوهه) و (فلس) البوهيمي . فعوضاً عن أن يلحقوا مانسفلد ويهاجموا بوكوا بعد معركة زابلات ، اتصلوا بالقائد الامبراطوري وشربوا نخب إخفاق حليفهم ، وربما كان ذلك بتأثير أحقاد شخصية . وهذا ما كشفت عنه وثيقة اكتشفها في هانوفر في عام ١٩٢٩ م ، مؤرخ تشيكي وهو : (كاريل شتلور كال)[١] . وهكذا لم تسر الحرب عن قناعة وساعدت الظروف فرديناند على بلوغ فرانكفورت والإعداد لانتخابه الأمبراطوري ،

ومع ذلك ، ترك بوهيميا والنمسا للثورة . وستنمو هذه الثورة نمواً كبيراً جداً ، وفي شهر تموز اجتمع مندوبو مختلف الدياطات في براغ ، واتفقوا على العمل معاً . وطرحت عندئذ قضية تشكيل كونفدراسيون ٦ دول على غط سويسرا أو الأقاليم ـ المتحدة ، لطرح سلطة فرديناند . وهنا تجدر ملاحظة صغيرة ضرورية . نحن نقول (الأقاليم ـ المتحدة) والاسم الحقيقي هو (الأقاليم ـ المتحدة للبلاد المنخفضة) . ونقول (الدول) ويجب أن يفهم من ذلك (الدياطات) ولكن كل واحد من هذه البلاد يؤلف لنفسه وحده دولة . حتى انه لا يمكن أن نقول إقليم إلا لما هو أقاليم مندمجة بالنسبة لمملكة بوهيميا ، ولكن لكل من هذه الأقاليم أيضاً دياطها وتشكل أخيراً دولة . وهنا توجد عقدة القضية حالياً . وإذن يراد تأسيس كونفدراسيون على شكل كونفدراسيون الأقاليم ـ المتحدة من مختلف البلاد . ويدار باتفاق دائم بين مختلف الدياطات . وهذا هو نظام الأقاليم ـ المتحدة الذي لا يكون لأي إقليم فيه تفوق . وهذا هو نظام سويسرا وهو ما يسمى في القرن السابع عشر (نظام الكانتونات) : وهو اتحاد كانتونات

---

(١) راجع لذلك Victor L. TAPIÉ في أطروحته : La politique étrangère de la France et le début de la guerre de Trente - ANS, P. 287 et 365.

ومن الجدير بالذكر أن جندلي Gindely ، وهو عارف لا يشق له غبار بكل ماهو أساسي في هذا الدور ، اعتبر سلوك قادة الدول مشكوكاً به دوماً .

متحالفة مع بعضها . وهكذا أسس الحلف الدائم والدفاعي لدياطات بوهيميا ، مورافيا ، سيليزيا ، لوزاس ، النمسا العليا ، النمسا الدنيا . وهذا يعني الأخذ قليلاً بما كان قد رسم في (شتربوهول) ، في ١٦٠٨ م .

أما ما يتعلق بمملكة بوهيميا والأقاليم المندمجة ، فقد عقد دياط عام في براغ في زمن الملك ماتياس في ١٦١٥ م ، ومن الممكن إقامة بعض الموازاة ، بتحفظ وبفروق ، ولا شك ، مع ما مر أثناء مجلس المملكة العام في فرنسا في ١٦١٤ م . وفي الواقع ، إن اجتماع هذا المجلس ، مجلس الفئات ، انتهى بتعزيز السلطة الملكية التي اتخذت حَكَماً بين مطالب الفئات المتباعدة والمختلفة .

وهذا ما حاول أن يفعله ويحصل عليه مشاور ماتياس الشخصي ، أسقف فينّا (كليسل) . فقد أفاد من النزق الدائم وسرعة التأثر عند مختلف الأقاليم ، فلم يخول شيئاً ، وصان السلطة الملكية . ولم تكن هذه السلطة الملكية قوية كما في فرنسا ، ولكن اختيار القوة بين الدول والملك أظهر صفات مشتركة في الحالتين . وقد أسهمت الدول عن غير إرادة منها في تعزيز السلطة الملكية ، لأنها لم تتفق فيما بينها ، وناضلت كل واحدة منها ضمن دائرتها الخاصة ، وفضلت نجاح هذه السلطة على المصلحة الكبرى لزميلاتها .

لذا ، كان الكاردينال كليسل سعيداً بهذه المنافسات بين الأقاليم ، لأنها أعفته من اتخاذ التزامات جديدة إزاءها . ومع ذلك ، فقد أبدى رأيه ، مع الحفاظ على الامتيازات الملكية ، بأن الكونفدراسيون يمكن أن يقدم فوائد عظيمة ، إذا أدى إلى تحالف يضع القوات العسكرية المشتركة تحت سلطة المليك ، ويسهل عليه أمر الدفاع ضد الأعداء في الخارج : الأتراك ، وحتى الأمبراطورية . وفي هذه الحالة يمتد الكونفدراسيون على النمساتين . وهكذا ، عوضاً عن توضع دول جنباً إلى جنب ، ولها نفس المليك ، ولكن دون نظم مشتركة ، تتأسس دولة تمتد من بولونيا إلى كارنيول ، وتضم مملكة بوهيميا وأقاليمها المندمجة بها ودوقيتي النمسا ،

وتضع الدول معاً في هذا الكونفدراسيون مواردها المالية والعسكرية لسياسة واحدة .

الكونفدراسيون ، الأحلاف ، الانتخابات الملكية والأمبراطورية

لقد خرجت النمسا ، دولة كبرى ، من حرب الثلاثين عاماً ، ودامت ، بحظوظ مختلفة ، حتى عام ١٩١٨ م . ولكنها ، تحت هذا الشكل ، كانت من عمل السلالة ، عمل الأمراء ، وقواتهم العسكرية ، انطلاقاً من تاريخ معين ، ومن إدارتها ، وظلت على هذا الشكل منقوصة وغير كاملة دوماً .

كان من الممكن ، في ١٦١٩ م ، أن يظن أن الدياطات ستؤسس بتحالفها دولة أقوى وأصلب عوداً . هذا ما قبله المؤرخ النمساوي (م شتورمبرغر) ، في صفحة ٤٨ من كتابه الصغير (الثورة في بوهيميا) . لقد وضع هذا السؤال : هذه الدولة التي ستؤسسها السلالة فيما بعد ، ألا يمكن في ذلك التاريخ أن تخرج دولاً لتشكل هذه الدول مجموعة ؟ كما قال فيما بعد الأمير أوجين دوساڤوا .

وبهذا الانحراف في الأحلاف إجمالاً ، بين الدياطات المختلفة ، وضعت في ذلك التاريخ قضية (النمسا الكبرى) . ومن هنا يلاحظ أن رأي المؤرخ النمساوي حاذق . وله الفضل في الكشف عن القانون العضوي الذي يجبر هذه البلاد على العيش في نوع من الحياة المشتركة ، أي أن تكون لهم مصالح مشتركة ، لاسيما وأن قضية القوميات لم توضع بعد .

بيد أن كل إقليم منها كان غيوراً جداً على مصالحه الخاصة . ومن المؤكد أن وجهة نظر المؤرخ النمساوي من أجل ذلك التاريخ وجهة نظر عقلية . ولنعترف بأن المؤرخين النمساويين يميلون حالياً إلى الدفاع عن فكرة دولة فوقمية أي فوق ـ قومية ، أو في التاريخ ، الذي نحن فيه ، دولة فوقلمية أي فوق ـ اقليمية . وفي هذا الضوء يظهر عمل تشرنمبل . ومن هذه الملاحظات غير الباطلة تماماً ، لأنها تبحث عن بلوغ المعنى العميق للحوادث ، لنرجع إلى الوقائع .

لقد توطد بين الأقاليم المندمجة ومملكة بوهيميا ما سماه المعاصرون بكلمة لاتينية (الكونفدراسيو بوهيميكا) أي : (الكونفدراسيون البوهيمي) .

وابرم هذا الكونفدراسيون ، الذي شكل في شهر آب ١٦١٩ م ، بعد بضعة أيام على إنشائه ، معاهدتي حلف : إحداهما مع دياط النمسا ـ الدنيا ، والأخرى ، مع دياط النمسا ـ العليا ، وعليه فإن الكونفدراسيون لم يمتد على أرشيدوقيتي النمسا . لقد وقع معاهدتي حلف مع هاتين الأرشيدوقيتين كا يوقع حلفاً مع دولة مجاورة أجنبية . وإذا لم يتوصل والحالة هذه إلى (النمسا ـ الكبرى) فقد توصل إلى (بوهيميا الكبرى) لأن دستور ١٦١٩ م ضم الأقاليم بشكل أوثق مما كانت في الماضي حتى الآن . وفي الواقع ، لقد انتخب ملك بوهيميا ، ولم يكن وارثاً ، حتى أنه اتفق ، وهذا ما لن يلاحظ ، على ألا ينتخب خلف الملك ، في حياة الملك . وهكذا ، فيا يتعلق بالوظيفة الملكية ، جنبت الوراثة تماماً ، بينما كانت لُحمة لكل سياسة آل هابسبورغ منذ فرديناند الأول . لأن الملك ينتخبه دياط عام وليس دياط بوهيميا وحده . وأصبحت رسالة الجلالة « قانوناً أساسياً » لـ (الكونفدراسيون) . وامتدت قيمتها على الأقاليم الأخرى . وعلى الملك ألا يضع جنوداً في الحصون دون ترخيص الدول ، وعليه أن يسمي كبار الموظفين ولكن بناءً على قائمة أعدتها الدول . وأخيراً ، طرد اليسوعيون إلى الأبد من أراضي الكونفدراسيون .

وتوقعت الحالات التي يمكن أن يلعب فيها بصورة آلية الحلف الدفاعي المشترك بين مختلف أعضاء الكونفدراسيون إذا نكث الملك عهده ونقض وعده .

وهكذا كانت سلطة الملك ملحقة . وللرعايا الحق في إبعاد الملك إذا لم يف بالتزاماته،وإذا أراد عضو الكونفدراسيون القطيعة مع الميثاق ، أو هاجم الكونفدراسيون بلد أجنبي ، وإذا لم يشأ الكاثوليك في دياط بلد من البلاد ، أن يخضعوا للميثاق ، فإن القوات العسكرية للمجموع تدخل في العمل .

وتمنى تشرنمبل امتداد هذا الكونفدراسيون على النمساتين . ولكن هذا لم يحصل . لقد وقع الكونفدراسيون معاهدات الحلف . ولم تكن هذه المعاهدات متطابقة أيضاً . ففي المعاهدة الموقعة مع النمسا ـ العليا ، اتضح ، بأن الملك إذا ارتكب سوءاً ضد الدين أو حرية الدول ، فإن رعاياه (تلقائياً) في حل من يمين طاعتها له . ولكن هذا البند لم يكتب في الحلف مع النمسا ـ الدنيا . وبتعبير آخر . إذا ارتكب المليك شيئاً ضد حرية الدول أو ضد رسالة الجلالة في بوهيميا أو في مورافيا ، فإن مختلف أعضاء الكونفدراسيون تشكو السلاح ، وكذلك النمسا ـ العليا . أما النمسا ـ الدنيا فلم تكن ملزمة بالتدخل .

ومن حيث المبدأ ، يجب أن يكون لهذا الكونفدراسيون وحلفائه مليك واحد ، ولكن يجب أيضاً أن يتطابق انتخاب ملك بوهيميا مع الوراثة في أقاليم النمسا .

وأخيراً لم تسوَّ المسألة مع هونغاريا . فقد ظلت هونغاريا خارجة عن هذا النظام ، وكانت في ذلك الحين مضطربة كثيراً . وكما يقال ، وجد (مستاؤون) . لقد كانت ترانسلفانيا تحكم بأمير كالفني ، (بيتلن غابور) . شرقي السلوك قليلاً ، وعلى صلات غير أكيدة مع السلطان العثماني ، ولا يعلم جيداً ماذا سيفعل . وإذا حكم بيتلن في ترانسلفانيا فقد انتخب الدياط فرديناند ملكاً على هونغاريا . وفي هونغاريا ، كان الدياط حراً في انتخاب مليكه . ويخول بند في دساتير هونغاريا ، منذ زمن طويل جداً ، الرعايا الحق في خلع الملك إذا لم يحترم التعهدات المتخذة أثناء تتويجه .

إن القضايا التي طرحتها هذه الحوادث والإصلاحات المؤسسية ظهرت بكل وضوح للرأي الأوربي . فقد شوهد تدخل مبدأ الحرية الدينية الذي تمثله رسالة الجلالة في تسوية القضايا الدينية بناء على إتفاق بين المليك والدول . وهناك قضية أساسية أخرى ضغطت بثقلها على السنوات التالية ، وهي : هل للرعايا

الحق في خلع أميرها ؟ والدياط ، باعتباره المعبر عن الإرادة القومية ، هل يمكنه أن يخلع مليكاً معترفاً به من قبل ؟ لقد أقلقت هذه القضية كثيراً لويس الثالث عشر ، وجيمس الأول ، وبالطبع اسبانيا ، ووضحت السلوك المتردد للويس الثالث عشر وجيمس الأول . ولقد استطاع كل واحد منهما أن يهنئ نفسه بأن نتيجة الثورة كانت في إضعاف البيت النمساوي والحزب الاسباني . ولكنهما ، في الوقت نفسه ، احتوت مثلاً قبيحاً : وهو الاعتراف بأن الدول كانت سلطة سياسية ، وأعلى ، في الحقيقة ، من سلطة الملك .

وفي الغالب ، قرر كونفدراسيون بوهيميا ، وهو عمل أقلية ، بإيحاء من الوزراء البالاتينيين ، سقوط فرديناند ، لأسباب شرعية أو لأسباب شخصية .

فالأسباب الشرعية تتعلق بكونفدراسيون ١٦١٩ م . لأن فردينانـد انتخبه دياط بوهيميا وحده . وعليه يجب إعادة الانتخاب . ولكن الكونفدراسيون لم يسمه ، لأنه انتخب حسب الحق الوراثي ، ولا يراد ملك وارث أبداً .

والأسباب الشخصية ، لأنه تدخل في قضايا داخلية ، في حياة ماتياس ، وتصرف بالتاج ، باتفاق مع ملك اسبانيا .

وهنا نرى معارضة حق الدولة لحق الملك . فقد انعقد الدياط العام في براغ ، وسمى ملكاً جديداً وهو الناخب البالاتيني . بالرغم من أن مدينة براغ كانت محبذة لناخب ساكس ، وأن دوق السافوا كان له أنصار ودفع مالاً كافياً لهذا الغرض .

وفي غضون ذلك ، انتخب فرديناند امبراطوراً في فرنكفورت . وهكذا ، في نفس الأيام ، خسر تاج بوهيميا وكسب التاج الأمبراطوري . ويجب أن نفهم كيف أن الحق الملتمس قليلاً لعب من أجله . لقد انتخب ملكاً لبوهيميا من قبل دياط ١٦١٧ م ، كما يسمح بذلك الدستور ، وانتخابه منتظم ، حسب الحق

القديم . وانتخب ملكاً على بوهيميا وكان ناخباً . وبالتـالي كان يتصرف بصوتـه . وفي هذه الحالـة ، لا يصوت النـاخب المرشح سراً ببطـاقـة بيضـاء ، بل عليـه أن يصـوت علنـاً لنفسـه . وأضيف صـوتـه الخـاص إلى أصـوات النـــاخبين الكنسيين الثلاثة . وفي ذلك مـا يجعل تصويت النـاخبين الآخرين الثلاثـة ممكنـاً في أقليـة وهم : ناخبو براندبورغ ، وساكس ، وبالاتينا .

ثم جاء منـدوبـو ديـاط بـوهيميـا إلى فرنكفـورت ، وطلبـوا من مستشـــار الأمبراطــوريــة ، نــاخب مــاينس ، ألا يقبــل بصــوت فردينـــانــد . ولكن كونفدراسيون بوهيميا لم يوطد بعد في ذلك التاريخ . وكان ناخب ماينس يرغب بانتخاب فرديناند ، فأجاب بأن الأمبراطوريـة اعترفت بـه ملكاً لبوهيميـا وبـأنـه سيقبل في التصويت .

ومما يلفت النظر كثيراً ويزيـد في الإيضـاح أيضـاً ، أن النـاخـب البـالاتيني كان ممثـلاً في الانتخـاب . لأن النـاخـب يمكن أن يحضر شخصيـاً لممارسـة حقــه في التصويت ، ولكن يمكنه أيضاً أن يندب عنه ممثلاً فوق العـادة . وقـد مثلـه أحـد تابعيـه وهو الكونت (دوسولمز) وأعطيت لـه التعليمـات التـاليـة : صوت لـدوق ســافوا ، بتطبيق اتفـاق ريفولي ، ولكن إذا لم يحصـل دوق السـافـوا على أصـوات أخرى ، صوِّتْ في اتجـاه غـالبيـة النـاخبين . وهكـذا ، أعطى كـونت دوسـولـمز لفرديناند صوت منافسه فريديريك ، ناخب بالاتينا .

وهنا تـدخل عنصر آخر ، سنجـده فيا بعـد ، وهو الجهـد الـذي بـذل لفصل شؤون ألمانيا وشؤون بوهيميا . لقد كانت بوهيميا اقطاعاً أمبراطورياً وملك بوهيميا هو ناخب أمبراطورية ، ولكن الرابطـة لا تـذهب إلى أبعـد من ذلـك . ومن غير المعقول أن يصوت الناخب البالاتيني في فرنكفورت لفرديناند شتيريـا ، في نفس الأيام التي يأخـذ فيهـا هـذا النـاخب البـالاتيني نفسـه في براغ مكان من انتخبـه أمبراطوراً . الحق بالغ الدقة .

بقي أن نعرف أن الناخب البالاتيني إذا انتخب ، هل سيقبل بتاج بوهيميا ، لأن أوربة ، على العموم ، اعترفت بفرديناند ملكاً على بوهيميا . ولـذلـك أسـدت انكلترا وفرنسا النصح لفريديريك بالتعقل والحـذر . وبهـذه المنـاسبـة أتى الوزير (بوزيولوكس) على ذكر مذكرة هنري الرابع ، وكان له معاوناً ، وصرح بقولـه : « قد لا يكون صاحب الجلالة الراحل من رأي آخر ، ولكن جلالته الراحلة ربما لا تبقى مكتوفة اليدين . وقد تفرض تحكيها بنفـاذ » ، وكانت قويـة بما يكفي لفعل ذلك .

وبالرغم من هذه النصائح في الحذر ، قبل فريديريك بـالاتينـا تسميتـه ملكاً لبوهيميا ، ودخل بوهيميا وتوج ملكاً ، وأقام في براغ .

وفي الأيام نفسها . عاد الأمبراطور فرديناند إلى فينا ، وظل وضعه في النمسا مبهماً جداً . ولكن الوراثة ، من الناحية العملية ، لعبت لصالحـه : فهو أرشيـدوق النمساتين ، وبالتالي تعرض التحالف للخطر بشكل فريـد . لأن للكونفـدراسيون ملكاً ، وهـو فريـديريـك البـالاتيني . وللـدولتين الحليفتين عـاهـلاً آخر ، وهـو فرديناند .

الفصل السادس

ملك الشتاء والجبل ـ الأبيض

إن ماينقص قضية بوهيميا هو المال أولاً . ويمكن أن يوجد منه في البلد نفسه ، بأفضل تنظيم ضريبي ، أي بالضرائب ، ولدى الحلفاء الهولانديين والألمان . ويأتي في المقام الثاني ، وهو الأخطر ، السياسة الواضحة والحرة من جانب الحكومات . وأخيراً ، قرار الأمة بأكملها في النضال ضد البيت النمساوي . الأمة بكاملها ؟ إن هذا التعبير يجب أن يطبق على جميع سكان المملكة ، على البوهيميين ، دون تمييز بالقومية ، في ذلك الحين . وقد يكون من العسير إضافة دون تمييز دين ، لأن حكومة الملك فريديريك ودول بوهيميا هي حكومة عقائدية بروتستانتية صراحةً ، ومن هنا ينتج بالتالي ، على الأقل ، تحفظات كبرى من جانب الكاثوليك .

إن اختيار فريديريك الخامس ملكاً لبوهيميا ، لم يكن صالحاً ، فهو لا يطابق أمنية عامة للرأي . ولم يكن إلا حظاً في سياسة أمراء الاتحاد الإنجيلي ، لأن بورجوازيي براغ كانوا يفضلون ناخب ساكس .

إن كتابة أو تدوين التاريخ حالياً يصر على آراء أحد المديرين البورجوازيين ، (بيير ميلنر ميلهاوزن) الذي أصبح فيا بعد نائباً لمستشار المملكة ، ويبدو أنه كان أحد أفضل زعماء الثورة . فقد كان يفضل نظاماً جمهورياً على شكل الأقاليم ـ المتحدة . ولكنه كان منعزلاً .

وبالرغم من كل شيء ، فإن ملك بوهيميا الجديد استطاع أن يجمع حوله

القوى المعنوية في المملكة . لقد كان فتىً يافعاً ، عمره ثلاث وعشرون عاماً ، وبخاصة كان يجهل كثيراً جداً هذا المشروع . وصدر قانون عن الدياط العام في ١٦١٥ م يمنع إعطاء وظائف في المملكة لمن لا يعرف اللغة التشيكية . وفريديريك لا يعرف هذه اللغة ، وجهله لها يمكن أن يؤلف عقبة لقبول انتخابه . ولكن يجب أن نفهم جيداً معنى قانون ١٦١٥ م : فقد كان القصد منه صيانة مصالح التشيكيين في داخل مملكة ثنائية اللغة . وهذا لا يعني إخراج الألمان . بل إن هذا الحكم التشريعي يدل على قوة التقاليد المحلية ، كما يدل على أنه يجب ألا يحكم في شؤون بوهيميا من وجهة نظر ألمانية واحدة ، أو حتى تبعاً لشؤون الأمبراطورية ـ المقدسة . وتدل حالة فريديريك الفكرية على أمير ألماني وبروتستانتي لا ينظر لملكة بوهيميا إلا من وجهة نظر منافع هيبته الشخصية والسلالية . وكانت تشجعه في ذلك زوجته ، بنت جيمس الأول ملك أنكلترا . وكانت أميرة طموحة رومانسية . وربما بولغ في دورها ، ولكنها مارست نفوذها على الملك في اتجاه القبول . وما أن استقر البلاط في براغ إلا واهتمت الملكة بكسب رأي البلاد .

ويحكى أن وفداً من المدينة استقبل الملك فريديريك الخامس ، على الطريق ، على مسافة من براغ ، وكان بينه حرس في لباس قديم يرجع إلى الأزمنة الهوسية ، وسخر الملك بالحال من لباسهم المضحك . وكانت البداية سيئة من جانبه . وبهذه المناسبة نذكر أن لويس الرابع عشر أوصى حفيده فيليب الخامس ، عندما قبل تاج اسبانيا ، بقوله : « لا تظهر مصدوماً من الصور العجيبة التي ستجدها ، ولا تهزأ بها ، إن كل بلد يعمل على شاكلته » . ولم يكن عند فريديريك الخامس مثل هذه الحكمة .

وعندما توج فريديريك ، ترك واعظه (سكولتيتوس) يغير الترتيب الداخلي لكاتدرائية القديس ـ غي ، في براغ . وبدا أن الكنيسة ستصبح معبداً

للعبادة الكالفنية . فقد سحبت منها التماثيل والصور وقطع الجوهرات ، وكل وسائل العبادة الكاثوليكية التي تمثل التقاليد المحلية . وكثير من هذه الروائع الفنية الجميلة أتت من مجموعات رودولف الثاني . وهذه المجموعات نفسها التي تعتبر ثروة حقيقية لبوهيميا ، أصبحت موضع طمع ، فقد فكر ببيعها للحصول على المال . وربما تبرر ضرورات الحكم هذه التدابير ، ولكنها اتخذت بخرق . وفي مراسلات العصر ، توجد كثير من التلميحات إلى تحويل كنيسة القديس ـ غي . واضطر فريديريك الخامس أن يبرر نفسه في رسائل إلى العواهل الأجانب أو في جدل لخدمته . فقد استعمل الحق الذي كان لكل أمير في تكييف كنيسته الخاصة للعبادة التي يعترف بها . ولكن من الصعب أن يقبل أن تكون كاتدرائية القديس ـ غي قابلّة خاصة للملك .

وقام فريديريك الخامس بجولة براقة في الأقاليم لتقبل احترام الدياطات المحلية : في بريسلو ، في سيليزسا ، في برون ، في مورافيا ، وكانت الاحتفالات جميلة ، واستعراضاً صافياً نقياً . ولم يتجمع رأي المملكة والأقاليم حوله بالإجماع . وصوت الدياط على ضرائب جديدة ، وكان على المدن والطبقة النبيلة أن تجهز تكاليف الحرب ، وعلى الأمراء أن يدفعوا ضريبة حسب عدد رعايا دوميناتهم ، ولكن الرعايا في الحقيقة دفعت أيضاً ضريبة الرأس ، حسب زعيم العائلة .

وظلت الحرب غير شعبية . فلا بورجوازيو براغ ولا اليهود كانوا يرغبون بمتابعتها . ودفعوا من المال أقل بكثير مما كان باستطاعتهم أن يفعلوا . ومع ذلك كان الجميع ملزمين بالدفع ، والجميع مجندين .

وفي ربيع ١٦٢٠ م ، عندما وصل الأيكوسيون الذين جندهم الكولونيل (غراي) ، وهولنديو الكولونيل (فرنك) ، تصرف هؤلاء وهؤلاء كما لو كانوا في بلد مفتوح ، فنهبوا المزارع والحقول ، وأساؤوا معاملة السكان . وثار الفلاحون على هؤلاء الأجانب الذين جاؤوا من كل مكان لخدمة الملك وقضيته .

وأسيء جداً دفع أعطيات الجنود . ولم يقبض الضباط المال فتركوا رجالهم ينهبون الريف . وربما فكروا بأن الحكومة ، أمام هذه الاضطرابات ، تقرر دفع الأعطيات بصورة منتظمة . ورأى المؤرخون الماركسيون في هذا الموضوع أن هذه الثورات الفلاحية تعبر عن نزاع طبقات ، وعن حركة سكان ريفيين ضد الإقطاعية والنظام الأميري . وقبلوا بأنه يمكن الحصول ، بتحرير الفلاحين ، على ثورة بلد يدافع عن نفسه ، ويدافع عن ملك بوهيميا . وجرى الكلام ، بهذا الشأن ، عن تحرير الفلاحين ، ولكن الذين نشروا هذه الضجة هم الامبراطوريون . ولئلا يكونوا مفوضي الملك فريديريك ، عندما أرسلوا لتهدئة الثورات الشعبية ، كانوا يغدقون وعوداً مماثلة . فحيث وجد نزاع الطبقات كان يترجم بتعارض مصالح بين الفلاحين الخاضعين للنظام الأميري والمستفيدين من هذا النظام . ومن الصعب جداً الاعتقاد بأن تحرير الفلاحين قد أعطي له حل دفعة واحدة . وتوجد هذه الوعود عبر كل تاريخ أوربة الوسطى إلى أن ألغيت القنانة . ولم يكن كل هذا غير كلام . لأنه كان من الصعب على أي حكومة أن تقرر ، في ذلك التاريخ ، برنامجا إيجابياً في هذه النقطة . وكان من اللازم قلب الاقتصاد بكامله ، وما من حكومة ، أمبراطورية ولا ملكية ولا كاثوليكية ولا بروتستانتية كانت قادرة على اتخاذ تدبير ثوري كهذا .

وبسبب هذا الضعف الداخلي ، لا تستطيع الثورة البوهيمية أن تنجح إلا إذا كانت الجيوش قادرة على قهر جيوش الامبراطور ، ولو كانت الحكومة تتصرف في أوربة بأحلاف صلبة .

وفي آخر ١٦١٩ م ، بدت الحالة ملائمة للثورة البوهيمية . وقامت الحكومة بمفاوضات مع أمير ترانسلفانيا (بيتلين غابور)[1] وبعد أن اتفق بيتلين غابور مع

---

(١) الاستعمال الهونغاري يضع اسم الشخص بعد اسم العائلة .

جيش ملك بوهيميا ، أطلق هجوماً باتجاه فينّا . ولكنه لم يتوقف عندها ، لدى سماع خبر بأن جيوشاً جندت للأمبراطور في بولونيا ، ويوجهها نبيل هونغاري ، (دروغيت دوهامونّا) ، وصلت بطريق وديان سلوفاكيا ، واقتربت من براتيسلافا (برسبورغ) . فانسحب عندئذ . وقامت الجيوش الأمبراطورية والجيوش الملكية ببعض عمليات زحف دون معنى كبير ، وأخذت مواقعها الشتوية في النمسا ، على مسافة قليلة من حدود بوهيميا .

في ألمانيا ، كان الاتحاد الإنجيلي قلقاً جداً . وأدرك السياسيون أن الأمبراطور يمكنه أن ينتصر بمساندة اسبانيا . وفي هذه الحالة يمكن أن يعتبر فريديريك تابعاً متمرداً ويوضع خارج الامبراطورية . وكان من اختصاصات دياط الامبراطورية أن يعلن سقوط أمير يثور على الامبراطور وقوانين الامبراطورية . فهل يحاول فرديناند بصورة وقائية احتلال أراضي فريديريك الشخصية ، أي بالاتينا الدنيا ، وبلاتينا العليا .

وكانت حدود الدول في الأمبراطورية المقدسة تبدي ترسيماً متعرجاً . ولا توجد أرض محددة جيداً ، ومتجانسة . لقد كانت سلسلة دومينات يطغي بعضها على بعض . وكانت بالاتينا ـ الدنيا قريبة التناول جداً عبر الناخبيات الكنسية ، بصعود وادي الراين . وبالاتينا ـ العليا تجاور حدود بوهيميا . وبالتالي ، يستطيع الامبراطوريون أن يتقدموا بجيوشهم في هاتين المنطقتين بسهولة .

ولكن لو وقع هذا التنفيذ الامبراطوري على الناخب البالاتيني الذي هو عضو في الاتحاد الإنجيلي ، فإن أمراء الاتحاد الآخرين سيضطرون للتدخل للدفاع عنه . وعندئذ تضاف مباشرة إلى الحرب في بوهيميا وفي النمسا ، حرب في ألمانيا .

تبنى الاتحاد الإنجيلي موقفاً يلفت النظر جداً : لقد أراد أن يتسلح للدفاع عن الأراضي الألمانية ، ولكنه زعم بأنه لا يريد أن يزج نفسه في شؤون بوهيميا . وهذا يعني أن غزو الأراضي الألمانية كان ممكناً مع ذلك نتيجة لشؤون بوهيميا .

وفي غضون ذلك ذهب أحد رسل الاتحاد الإنجيلي ، وهو فرتامبر جوازي (من فرتامبرغ) ، باسم (بوفنخاوزن) ، ويسمى في باريس (دو بينيكوز) ، إلى انكلترا ، ورجا الملك جيمس الأول أن يمنح مساعداته ونجداته إلى الاتحاد الإنجيلي . وأوضح جيداً أن الاتحاد الإنجيلي يفصل قضيته عن قضية بوهيميا . وفي حرارة وحرية الحديث تجرأ وقال للملك جيمس : « إن صهرك ، عندما يطرد من بوهيميا وبالاتينا ، سيجد ملجأ في بلاط لندن ، ونحن ، ستكون الحرب عندنا وعلى أرضنا » .

أما من جهة الامبراطور فردينانـد فقد أبرم ، في تشرين الأول ١٦١٩ م ، تحالفاً مع زعيم الرابطة الكاثوليكية ، الدوق ماكسمليان دوبافاريا . وأخذت الرابطة الكاثوليكية المال من البابا ، وانتظرت أن يأتيها أيضاً من ملك اسبانيا . وزعمت بأنها ستجهز ٣٠٠٠٠ رجل في الربيع وتهاجم بالاتينا عندئذ .

وهكذا ، كان قلق الاتحاد الإنجيلي له ما يبرره . فقد اجتازت الحرب حدود بوهيميا وحدها ووصلت الأقاليم الداخلة في النمسا ، وأثقلت بتهديدها القريب على أراضي الأمبراطورية ـ المقدسة نفسها .

غير أن هذه الأعمال العسكرية لا يمكن أن تحدث قبل بضعة أشهر . وكان الاسبانيون يُرجون دوماً ، ولكنهم لم يبادروا بإعطاء الأموال . ولتفهم الحوادث جيداً ، يجب أن تلاحظ في ظرف أوسع .

من أين كانت تأتي أموال ملك أسبانيا ؟ بصورة أساسية من عودة السفن الحربية من أمريكا التي تجلب معها إنتاج المناجم . ولكن عودة الأساطيل لا تحدث كل سنة في التاريخ المحدد ، ولا دوماً بنفس النجاح . ومن المعلوم في شتاء ١٦١٩ ـ ١٦٢٠ م ، أن العودة من أمريكا كانت ملائمة ، ولكن لا شيء من ذلك كان مؤمناً ، في اسبانيا ، في خريف ١٦١٩ م . وفي فينّا ، كان الانطباع في أن الاسبان لا يهتمون بمصير الامبراطور . وعندئذ حدث مسعىً خطير جداً مثقل

بالنتائج : وهو نداء مباشر لملك فرنسا . فقد أرسل فرديناند إلى لويس الثالث عشر سفيراً ، الكونت (دو فورستنبرغ) ، بمهمة دقيقة وواضحة جداً ليطلب منه نجدة عسكرية ، مذكراً بحجتين يمكنهما أن تؤثرا على لويس الثالث عشر ، وهما : التضامن الملكي ومصلحة الكاثوليكية .

غير أن لويس الثالث عشر كان يشعر بصعوبات في مملكته ، لأن قسماً من الطبقة النبيلة كان مستمراً بمكايده مع الملكة ماري آل ميدتيشي أم الملك (وقد جرت الحرب الثانية مع أمه في آب ١٦٢٠ م) ، وفي (بيارن) ، حيث لم ينفذ توطيد الكاثوليكية ، تحرك بروتستانت المملكة ونادوا ببراءة نانت . وكانت البراءة تعترف للكنائس البروتستانتية بحق عقد مجالس لتعيين النواب الذين يضمنون في البلاط مراعاة براءة نانت ، وينقلون إلى الملك تظلماتهم ضد الموظفين أو النبلاء أو الأكليروسيين الذين كانت حركاتهم في الإقليم مضادة لبراءة نانت . وكان كل حزب يحاول دون حق أن يوسع فوائده على حساب الآخر . وعلى العموم كانت (براءة نانت) محترمة ، ولكنها كانت تعاكس في التفاصيل دون انقطاع . وهذه الحالة تشبه حالة (رسالة الجلالة) في بوهيميا . وصرح البروتستانت بأن صلاحية مجالسهم لاتتحدد بتعيين نواب يأخذون مقاعدهم في البلاط ، وإنما من حق هذه المجالس أن تتقدم بنفسها بظلامات إلى الملك .

وعليه ، كان الملك لويس الثالث عشر يلاقي ، في مملكته الخاصة ، حالات لم تكن دون علاقة بحالات فرديناند في بوهيميا .

وكان لويس الثالث عشر والوزراء الشيوخ : (الرئيس جانن) ، و (سيلليري) ، و (بويزيولكس) ، صهر (فيللوروا) أمين سر الشؤون الخارجية ، يرون بأن الملك يمكنه أن يقترح وساطته . وفي هذا الاتجاه أجابوا فورستنبرغ . ولكن هذا الأخير كرر بأن مهمته ليست من أجل مناقشة ملك فرنسا بوساطته ، بل كان مكلفاً بطلب نجدة من الرجال ولا شيء غيره .

وفجأة ، في ليلة عيد الميلاد ١٦١٩ م ، ولبواعث نفسية وشخصية من الصعب إيضاحها بعد ، اتخذ لويس الثالث عشر قراراً بالموافقة على هذه النجدة من الرجال . وأرسل بويزيولكس ليخبر فورستنبرغ ، فأجاب هذا مطالباً بمزيد من الإيضاح أيضاً : كم رجلاً ، وفي أي تاريخ ؟ وكان من المستحيل الإجابة عن هذين السؤالين . إلا أن المقيم الفرنسي في فينّا (بوجي) كان مكلفاً بإعلام فرديناند ووزيره (اغنبرغ) بأن ملك فرنسا وافق على النجدة العسكرية المطلوبة .

ثم أوضح بوجي بأن الأمبراطور يرغب عن حسن نية بأن يوفر على الجيوش الفرنسية رحلة طويلة جداً إلى بوهيميا ، وسيستخدمها في ألمانيا ، ضد البروتستانتيين حلفاء فريديريك الخامس (٥ شباط ١٦٢٠ م) .

لقد كانت السياسة الامبراطورية واضحة جداً : كانت تسعى للحصول من ملك فرنسا ، مذكرة بالتضامن الملكي والتضامن الكاثوليكي ، على ما حصلت عليه من ناخب بافاريا : أي جنوداً للقيام بتنفيذ عمل في ألمانيا ضد الأمراء البروتستانت ، حلفاء الاتحاد الإنجيلي .

ولئلا يجهل شيء ، دل بوجي ، في برقيته في ١٢ شباط ١٦٢٠ م على أن الدول الألمانية التي ستكون معرضة لعمل الجيوش الفرنسية هي : مدينة ستراسبورغ ، مع الدول التي تتبعها في الألزاس ؛ مركيزباد وكونت ناسو ، وساربروك ، ودوق الجسرين ، والناخب البالاتيني . وقال بوجي : « لقد عينتهم ، لتعتبر في ذلك مصلحة جلالته ، رغم أني أعتقد بأنه فكر وجهز ، عندما صرح إلى الكونت دو فورستنبرغ ، بأن للامبراطور المعني كامل التصرف بهذه النجدة حال دخولها إلى ألمانيا » .

وهذه البرقية تعتبر مثلاً جيداً للبرقيات التي يوجهها عامل دبلوماسي في القرن السابع عشر . إنه ينفذ الأوامر التي أعطيت له ، ولكنه يفهم سراً لأي نقطة

هذه الأوامر خطرة وتبدو له أنها أعطيت بخفة . وما يطلب ليس جنوداً تذهب إلى بوهيميا ، وإنما لتستعمل في ألمانيا ضد حلفاء فرنسا .

لأن الأمراء البروتستانت في الاتحاد الإنجيلي كانوا زبائن تقليديين لفرنسا ، وإنه من المشين لفرنسا أن تتركهم يهاجمون بجنودها الخاصين . وفوق ذلك ، إثارة الحرب في ألمانيا ، فيما يجب إبقاء هذه المناطق في سلام .

ولذا ، بعد بضعة أسابيع ، رجع إلى فكرة الوساطة ، ولكن ، في هذه المرة ، بشكل سفارة رسمية كبرى تتم مهمة إعلام وتوفيق ، أي مصالحة . وذهبت هذه السفارة إلى الامبراطور مارة بالأمبراطورية وتوقفت تقريباً في كل دول الامبراطورية ، وأخذت رأي الحكومات في الوضع بغية أن تقبل وساطة ملك فرنسا .

غير أن الوعد الذي قطع بدا غير بصير ومثقلاً بالأخطار ، حتى فكر بألا يوفى ، وكلما جرى الكلام عن مساعدات ونجدات . كان الدبلوماسيون الفرنسيون يجيبون : « في هذه الآونة نبدأ بسفارة » .

وفي هذا الحين تبدلت الحال في اسبانيا . لأن هذه الأخيرة ، وقد جهزت بالمال ، قررت أن تقدمه . وجند رجال في الفلاندر ، وألمانيا ، وإيطاليا ، وفي منطقة نابولي .

ويقول مثل قديم : « أن تعطي وأن تمسك هذا مالا يلزم » . لقد خطت فرنسا خطوة إلى الوراء فأثارت استياء كل العالم . وأربكت سلفاً حظوظ الوساطة .

ومن جهة أخرى ، إن (**بيتلن غابور**) ، الذي اعترف به أميراً في هونغاريا من قبل دياط كانون الثاني ١٦٢٠ م ، لم يقبل بالمنصب الملكي ، كما كان ينتظر في ذلك الحين . وهذا الإجراء في الثورة ساعده ، بعد بضعة أسابيع ، على

إبرام هدنة دائمة مع الأمبراطور دامت حتى عيد الملاك القديس - ميشيل (ميكائيل) أي نهاية أيلول ١٦٢٠ م .

وهكذا وطد الأمبراطور الوضع بسرعة . وخلال حين لا يعلم جيداً تحت أي تأثير ، في آخر تشرين الثاني ، وربما كان ذلك حين هجوم بيتلن غابور ، اعتقد بأن يطالب بنجدة ملك فرنسا لسلامته . وفي الوقت الذي رجع فيه ملك فرنسا الى وعده ، لم يكن الأمبراطور بحاجة لتنفيذه . وفي بضعة أشهر تخرب موقف الحكَم لفرنسا .

وفي الَربيع ، وبفضل مساعدات اسبانيا . تعزز جيش (بوكوا) الذي كان في خدمة الامبراطور . ودعا تجنيد الرابطة وألمان البلاد المنخفضة الاسبانية تحت قيادة سبينولا ، إلى تفكير الاتحاد الإنجيلي بأن سحق البروتستانت الألمان كان مؤكداً . ولذا جهز الجيوش لدفاعه أيضاً .

وفي بداية تموز ، وفي (أولم) ، على الدانوب . وجد جيش الرابطة وجيش الاتحاد الإنجيلي ، وكان كل منهما قوياً بما يقارب ٢٠٠٠٠ رجل . وبالرغم من أنه لا يوجد سبب جديد ، لأن أي بلد من الامبراطورية لم تهاجمه بعد قوات باسم الامبراطور ، كان هنالك انطباع بنشوب الكفاح . وأن النار ستشتعل . وفي هذا الحين ظهرت السفارة الفرنسية .

وكان على رأس هذه السفارة الفرنسية شخصية هامة ، أمير من الأسرة الملكية تقريباً ، وهو شارل أنغوليم ، وهو ابن طبيعي للملك شارل التاسع و (ماريا توشيه) . ولكن العامل الأساسي في السفارة كان دبلوماسياً وهو الكونت (بيتون) . وكان يساعده دبلوماسي آخر ، وهو (شاتونوف دو بريو) وأيضاً نبلاء آخرون . وكانوا على العموم ، يعرفون جيداً قضايا الامبراطورية . وكانت هذه السفارة إذن مشكلة جيداً . ومن الممكن ، حسب محفوظاتها ، متابعتها ساعة ساعة في كل ما فعلت . ففي أولم لم تفكر إلا في شيء واحد : وهو

تجنب نزاع محتمل الوقوع بين الجيشين . وتفاوض الفرنسيون مع كل منهما . وبما أنه لا يوجد بواعث لحرب مباشرة ، يمكن تجنب الخطر إذا ابتعد الجيشان الواحد عن الآخر . وفي ٣ تموز ، في أولم ، تقرر أن ينسحب جيش الاتحاد الإنجيلي باتجاه الغرب ، للدفاع ضد كل تدخل ممكن من بالاتينا ـ الدنيا ؛ وأن ينسحب جيش الرابطة نحو الشرق . ولكنه بقي حراً في حركاته . وهذا يعود إلى القول بأنه يستطيع أن يدخل بوهيميا ، أي تسليم بوهيميا للحرب ، وقضية الملك فريديريك لجيوش فرديناند المتفوقة عددياً لأن الرابطة ستلتحق بجيوش (بوكوا) .

ودون النفوذ إلى النتائج كلها ، يرى أن بعض الألمان ، وهم الأكثر اعتدالاً في الاتحاد الإنجيلي : الفورتامبر جوازيون ، قد أصروا كثيراً للحصول على هذا الحل . وعلى أثر خبر الإتفاق ، فاه أحد الناخبين الكنسيين بهذه الكلمة : « فليقاتلوا في بوهيميا ما أرادوا ، وسنظل جيراناً صالحين في هذه الحارات » .

ومن تموز إلى تشرين الثاني ، مضت أربعة أشهر ، وظلت السياسة الفرنسية تخسر اللعبة في أوربة الوسطى .

وفي فرنسا ، انطلاقاً من شهر آب ، كانت الحرب الثانية بين الأم والابن ، وازدادت الصعوبات مع البروتستانت . وعندما قام لويس الثالث عشر برحلة تهدئة في نورماندیا ، تغلب الجيش الملكي على جيش الملكة ـ الأم بانتصار (بون ـ دو ـ سيه) . وعوضاً عن تسريح لويس الثالث عشر لجيوشه ، قام بحرب صغيرة ضد رعاياه في (بيارن) ، وفرض توطيد الكاثوليكية في المدن الأساسية .

وفي غضون ذلك ، تابعت السفارة رحلتها ومفاوضاتها . وفي (لنتز) ، تفاوضت مع ممثلي دياط النمسا والزعماء العسكريين . وكان نبلاء النمسا قليلي الحزم كثيراً في مطالبهم . وقلقوا من تفوق الجيوش الامبراطورية ولذا طالبوا السفراء الفرنسيين بأن يسووا خضوعهم للامبراطور .

وعندما وصلت السفارة إلى فينا تكلم الأمبراطور ببعض عبارات التهكم . فقد صرح بأنه سعيد باستقبالها ، وطلب أخباراً عن المساعدة العسكرية التي وعد بها . فأجاب السفراء بأن الملك كان مضطراً للاستعانة بجيوشه لتوطيد النظام في مملكته . ورد فرديناند مبتسماً بأنه حزين حقاً . ونظراً لإرادة لويس الثالث عشر الطيبة حياله ، يأمل هو جيداً ، متى وطد النظام في دوله ، أن يأتي لنجدة ملك فرنسا .

وربما فكر بهذه الحجة ، التي أعطاها السفراء الفرنسيون ، المؤرخ النمساوي (هانس شتورمبرغر) في (ثورة بوهيميا) فقد كتب : « بأن اتفاق أولم قد أبرمه الفرنسيون كمخرج للصعوبات الداخلية في المملكة » . وهذا التفسير مغاير للحقيقة ومفرط ، لأن الاتفاق أبرم في ٣ تموز ، والاضطرابات حدثت فيما بعد في فرنسا . لقد أبرم الإتفاق لمنع صدام بين الجيشين لا غير . هذا هو السبب الحقيقي .

ومن الجانب الامبراطوري ، كان ينتظر القرار العسكري . واعتقد بأن الوقت قد حان للحصول عليه دون وساطة أحد . وانفضّ سفير ملك انكلترا بنفس الشكل .

ولم تكن الحرب صاعقة . فقد قام جيش ماكسمليان باسترداد النمسا ـ العليا ، واحتلت لنتز في ٢٠ آب . وخضع الدياط . وتمكن عندئذ جيش بوكوا المرابط على حدود بوهيميا والنمسا أن يستأنف الهجوم في بوهيميا . ولكنه كان بطيء السرعة ، على خلاف ماكسمليان ، الذي كان يزمع الحصول على القرار قبل الشتاء . وظلت الجيوش ضعيفة . وضعفت في الغالب بسبب الفرار من الجندية ، والأوبئة وسوء الأعطيات دوماً . وكان يشك في إخلاص قادة ملك بوهيميا . ففي تشرين الأول فاوض مانسفلد بتسليم بيلسن . ومهما تكن الجيوش . فقد ساد الذعر أمامها ، وهجر أمراء بوهيميا قصورهم ، والتجؤوا في براغ أو في المدن المحصنة ، وكان

الفلاحون ينهبون ويحرقون القصور . وينتقلون من دومين لآخر . ويتجمعون في عصابات مسلحة جهد استطاعتهم ويطالبون بملجأ وتحالف مع بورجوازيي المدن الذين أغلقوا الأبواب في وجوههم .

وهكذا ظهر أملهم الأخير في عطف الامبراطور . واستجاب جاه العاهل القديم إلى حالة الرأي الطبيعية للمجتمع الأبوي الذي يحفظ فيه الشعب ثقته بأميره الوراثي . ومن الممكن أن يلاحظ مسار مشابه في الثورات الشعبية لروسيا في القرن السابع عشر : فقد كان الثائرون يزعمون دوماً بأن أميراً من الأسرة الملكية معهم أو القيصر نفسه ، أو عضواً ما من عائلته ، ضحية حكومة سيئة .

وأخيراً ، في ٨ تشرين الثاني ١٦٢٠ م . حدث اللقاء بين جيش ملك بوهيميا وجيش الامبراطور ، على هضبة الجبل الأبيض (بيلا هورا) على بضعة كيلو مترات من براغ .

ولابد لنا من الكلام عن حالة الرأي وتركيب الجيوش ، ولو بكلمة : كان جيش الأمبراطور يضم ، في الحقيقة ، جيشين : جيش الرابطة ، الذي يقوده ماكسمليان بافاريا و (تيللي) ؛ وجيش بوكوا . كان الأول أفضل من الثاني بضباطه وقياداته ، وحالته الروحية خاصة : لقد كان الجيش الوحيد الذي كان يقاتل في سبيل مثل أعلى . وكان هذا المثل الأعلى دينياً . فقد أرسل إليه من روما مبشر كرملي ، وهو : دومينيك يسوع ـ ماريا) الذي بشر في صبيحة القتال بقول الإنجيل : « دعوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله » . ويبدو أن النص طبق على حرب مقدسة لتوطيد الامبراطور والدين . وكلمة الأمر التي أعطيت في ذلك اليوم كانت (القديسة ماريا) . وقبل القيام بالقتال ، أقيم قداس جرت فيه عدة مناولات . أما جيش بوكوا فلا يمثل هذه الصفة لجيش صليبي : لقد كان جيش مرتزقة ، كجيوش فريديريك الخامس . وفي هذا الجيش . جهزت فرقة صغيرة من قبل سكان البلاد ، من المورافيين . وكان الباقي يضم ألماناً أو فرساناً

أعدوا في هونغاريـا . وكان يؤمل بنجـدة أخرى من جيش الفرسـان الهونغـاري ، نجدة بيتلن غابور . لأن الهدنة بين الأمبراطور وأمير ترانسلفانيـا انتهت مـدتهـا في عيد القديس ـ ميشيل .

اتخذت الجيوش استعداداتها للقتـال : ٢٨٠٠٠ رجل من جهـة ، و ٢١٠٠٠ من الجهة الأخرى . إذن يوجد تفوق خفيف للأمبراطوريين ، ولكن مثل هذا العـدد يمكن أن يقرر الحل .

وفي الهجوم الأول لجيش الفرسـان الامبراطوري ، تفرقت القطعـات الملكيـة في جيش تـورن . ثم حـاول جيش الفرسـان الهـونغـاري أن يهرب بـاتجاه النهر . وتماسـك ابن الأمير أنهالت بشكل أفضل في الوسـط ، وبخـاصـة المورافيون ، وهم التشيكيون الوحيـدون في جيش المرتزقـة ، الـذين قـاوموا حتى المسـاء لـدى قصر النجم الصغير .

وانتهى القتال في ساعتين .. ولم يدخل البلـد بكاملـه في النزاع فحسب ، بل إن جميع قوات المرتزقة التي كان يتصرف بها (فريديريك الخـامس) لم تـدخل في العمل : فلا حرس الملك ، ولا القطعة الألمـانيـة لمنطقـة سـاكس ـ فيار ، اللـذان ظلا في خنـادق قصر براغ ، ولا جيوش الكولونيل (فرنـك) و (غري) المعلقـة في منطقـة تـابور للنضـال ضـد الثـورات الريفيـة ، شـاركت في قتـال ٨ تشرين الثاني .

وعندما علم فريديريك الخامس بإخفاق جيوشه ، كان يتهيأ بنبل للإنطلاق إلى الجبل الأبيض . ولكنـه غـادر القصر فجـأةً وعبر الجسر ، ووصـل إلى المـدينـة القديمة . ونصح الأمير (أنهـالت) بـالإنسحـاب نحو سيليزيـا ، فيا كان النمسـاوي (تشرنمبل) ينصح بالعودة إلى القصر وبـارتبـاط الجيوش والمقـاومـة والقتـال من جديد . ووجد تعـارض في الآراء بين الألمـاني في الأمبراطوريـة والـدانوبي : كان الألماني يقول : « المعركة خـاسرة ، لنعـد إلى بيوتنـا » . ولكن الـدانوبي كان يرى

القضية على حقيقتها : كان يفهم أن إخفاق ملك بوهيميا إخفاق للدول ، وأن مصير النمسا ـ العليا معني بذلك ، وأن الأقاليم المتمردة ستتعرض لانتقام الامبراطور .

وفي مورافيا ، عاد زيروتين إلى السلطة ، وبدأ المفاوضات مع الامبراطور . وفي سيليزيا ، مرّ فريديريك ، وترك الإقليم لذاته ، فانهار بسرعة . وسبق لناخب ساكس ، في الربيع ، أن وعد الامبراطور بالمساعدة ، وعبرت جيوش ساكس الحدود واحتلت لوزاس . وقهرت ثورة الدول .

الفصل الســابع

نتائج معركة الجبل الأبيض

دلت معركـة الجبل الأبيض على هزيمة جيش ملـك بوهيميـا ، في ٨ تشرين الثاني ١٦٢٠ م ، وعلى النتـائج الممتـدة لهـذا الإخفـاق . وكانت ، عبر التـاريخ . موضع تقديرات وتثمينات مختلفة هامة في ذاتها لفهم حرب الثلاثين عـامـاً . ولـذا يجدر بنا أن نصر قليلاً على هذا الموضوع .

لقـد جهزتنـا هستوريوغرافيـا القرن التـاسع عشر بتفسيرهـا ، ولكن القرن التاسع عشر يبدو بعيداً عنا . غير أن أوربة الغربية ـ على الأقل ـ عندما تهتم بهذه القضـايـا تقبل بـالنتـائج أيضـاً . وفي هـذا المنظور سجل الجبل الأبيض « نهـايـة استقلال مملكـة بوهيميـا »[1] : كانت المملكـة الحرة محرومـة من نخبتهـا وخـاضعـة لسيطرة ملـك أجنبي يعتمـد على القوة العسكريـة . ويلاحـظ أن النصر انضم فيـه المبـدأ الملكي والـدين الكاثـوليكي ؛ لأن اليسـوعيين ضحـايـا الثـورة ، عـادوا إلى المملكة ، وفرض رأيهم في القرن التالي .

وتفسر الحوادث على أنها انتصار لمبادئ السلطـة ، في السيـاسـة وفي الـدين ، على مبادئ الحرية والاختيار الحر في الأمور الدينية .

ويـدعم أحيـانـاً ، بـأن الجبـل الأبيض يمثـل انتصـار الألمـان على السـلاف ، ويشرح الواقع بإدخال أرستقراطية جديدة في مملكة بوهيميا ، أرستقراطية ألمانيـة مكان الأرستقراطية القديمة التشيكية القومية .

---

(١) هذه التسمية هي عنوان كتاب : Ernest denis, La fin de Lindépendance bohême, paris 1891

وفي هذا التفسير ، يجب أن نعترف بعدد من الحقائق والوقائع . ولكن الشكل الذي جمعت فيه عناصر هذا التفسير ووضحت ، يؤلف أسطورة . وعليه فإن هذا الرأي هو رأي عاطفي ومزين بحجج عقلانية ، ولكنه بلا شك فرض نفسه .

وبعد حرب ١٩١٤ م ، ظهر تشكيل الدولة التشيكوسلوفاكية بالضبط بعثاً للحريات القديمة التي خنقت خلال عدة قرون وتعويضاً لهزيمة ١٦٢٠ م .

إن المؤرخين الماركسيين اليوم يقدمون تفسيراً آخر ، أقل سياسة ، وأقل ديناً أيضاً ، وأكثر اجتماعاً . فهم يرون أن الهزيمة ، مع الكوارث والنكبات التي جرتها ، نجمت بالضرورة عن طبيعة الثورة ؛ لأن هذه الثورة كانت ثورة نبلاء ، ويقودها أناس لا مبالون بقضايا زمانهم الحقيقية الاقتصادية والاجتماعية .

في بوهيميا ، كانت طبقة التقدم الاقتصادي والاجتماعي ، أي بورجوازية المدن ، ضعيفة جداً عدداً ووسائل ، وظلت عملياً لا مبالية بالثورة ، أو أنها لم تقدر على توجيهها . وإن النبلاء الذين قادوا الحركة ، حاولوا ، حتى في خلالها ، استغلال امتيازاتهم كطبقة ، ولم يشاؤوا أن يحرروا الفلاحين ، ولا أن يسلحوا الشعب .

وهذه هي النتيجة التي نجدها في الصفحة ١١٩ من كتاب (بوليشنسكي) في « حرب الثلاثين عاماً والأمة التشيكية » : « إن الجبل الأبيض يمكن أن يظل مثالاً منبهاً ، منذراً ، لكل ما يحتفظ به الخوف ، أمام الشعب ، من نتائج مأساوية أدت إليها السياسة المتطلبة للطبقات الموجهة والمستغلين » .

والآن سنحاول أن نستخلص موضوعياً طابع معركة الجبل الأبيض ونتائجها الأولى .

الصفة الأولى : ويقصد بها هزيمة جيش مرتزق ، في خدمة ثورة نبيلة وبروتستانتية تكافح النزعات الجديدة للملكية وراثية ومركزية .

هزيمة جيش مرتزق ، ولكنها أيضاً انتصار جيش مرتزق . وفي هذا الجيش المرتزق ، يحسن أن نميز فريقين : أحدهما ، فريق الرابطة الكاثوليكية التي تدخلت بعد اتفاق أولم ببعيد . وكان يقوده دوق بافاريا و (تيللي) وتحركه لحد ما عقلية الصليبيين ؛ والآخر ، فريق جيش بوكوا ، جيش مرتزقة بلجيكيين وهونغاريين ، ولم يكن له نفس الصفة .

لقد كسب النصر لصالح البيت النمساوي ؛ ولكن هذا النصر ، بسبب صفة الحرب الصليبية لجيش مرتزق ، كان لصالح الكنيسة الكاثوليكية أيضاً .

وأعطى جيش الرابطة الكاثوليكية للجبل الأبيض معنى انتصار كرملي ومـاريّ . لأن الكرمليين استغلوا وجروا لأنفسهم ربح الانتصار على البروتستانت ؛ ولأن هذا النصر كان بفضل توسط العذراء ، ودور الأب الكرملي دومينيك يسوع ـ ماريا الذي أرسل من روما للتبشير بالحرب الصليبية . وكلمة الأمر كانت : « القديسة ـ ماريا » .

ومن مظهر هذا النصر الكرملي والماري الذي لم يصحح دوماً ـ لأن موقف النظام الديني لا يمكن أن يكون قاطعاً لا من أجل متابعة الحوادث ولا من أجل كامل حرب الثلاثين عاماً ـ كثرة الشواهد في الفن وفي علم الأيقونات الدينية .

ومن يعرف روما ربما يتذكر كنيسة على مسافة قليلة من محطة ترميني ، وهي كنيسة باروكية تحت اسم « كنيسة القديسة ماريا المنتصرة » (١٦٢٦ م) . وهذه الكنيسة الكرملية على العموم مشهورة وتزار لهذا السبب ، ولأنها تضم التمثال الشهير (نشوة القديسة ـ تيريزا) للفنان برنيني . ولكن اسمها يعود لانتصار الجبل الأبيض . وفي المحراب فرسكة من القرن التاسع عشر تمثل دخول الجيوش الكاثوليكية براغ . والأهم بكثير هو الموهف ـ السكرستيا ـ ، أي مكان حفظ الحلي والأواني المقدسة ، الذي تنسى زيارته عموماً ، ويحتوي على لوحات

تمثل مختلف مراحل معركة الجبل الأبيض ، وصور الأب دومينيك يسوع ـ ماريا وكبار قادة الجيش الكاثوليكي .

والشاهد الثاني هو بناء كنيسة وتأسيس دير صغير للكرمليين على الجبل الأبيض (بيلاهورا) .

وأخيراً ، عبادة أيقونية منتشرة كثيراً في الطقوس الكاثوليكية منذ ثلاثمائة عام للطفل ـ يسوع في براغ .

وهذا التمثال الأصلي للطفل ـ يسوع في براغ نسخت منه نسخ لا عدّ لها ، ومماثلة له كثيراً أو قليلاً . ويوجد في براغ كنيسة (بانّا ماريا فيتيزنا) أي كنيسة القديسة ـ ماريا المنتصرة ، وهي أيضاً كنيسة للكرمليين ، وفي الحقيقة معبد لوثري قديم عهد به إلى الكرمليين بعد الجبل ـ الأبيض ، وفي هذه الكنيسة صندوق كبير لبقايا القديسين موضوع في وسط رافدة باروك وراء المذبح يضم طفلاً صغيراً من الشمع مرتدياً قماشاً فخماً ومعتمراً بتاج عال . وهذا التمثال جاء من اسبانيا حيث يوجد الكثير مما يماثله في القرن السادس عشر . وتمثل هذه التماثيل الطفل ـ يسوع وترائيه ـ للقديسة ـ تيريزا . وأحد هذه التماثيل خاص بأم بوليكسين دوليوبكوفيتش ، وهي السيدة (برنشتين) المولودة باسم : (مانريكويز دولارا) ، وقدمته هدية للامبراطور فرديناند ، ووضعه هذا بدوره وفاء بنذر واعترافاً بفضل (EX - VETO) في الكنيسة الخاصة بالعذراء ، ذكرى للنصر .

وعلى الطريقة الأسبانية ألبس التمثال ، وتوّج ، وأثقل بالجواهر . وتذكر البزة التي خصصت له بملابس الأمبراطور ، واستلهم التاج من تاج الأمبراطور رودولف الثاني الذي أمر بصياغته ، ثم أصبح في القرن التاسع عشر ، تاج أباطرة النمسا . ونسخت المعاطف بألوان مختلفة ومتجددة حسب مراحل السنة

الليتورجية ، عن المعطف الامبراطوري . وأخيراً وضع في يد التمثال كرة العالم ، وهي إحدى الشارات الامبراطورية .

ومن نتائج الجبل الأبيض انتشار الكاثوليكية من جديد في بوهيميا . وبصورة موازية نما فن الباروك . ويفسر هذا الفن ديناً مطابقاً لمجمع ترانت ومهتماً بعبادة القديسين ، ويعتبر إعلان قداسة (القديس - يوحنا نيبوموسين) ، في ١٧٢٩ م ، أهم تعبير لذلك .

ولذا فإن تفسيرات الجبل الأبيض تهم أيضاً الفن الباروك . وانتشرت فكرة زمناً طويلاً تقول : بأن الفن الباروك أدخله الغالبون إلى بوهيميا ، وفرض على البلد المغلوب تزيين حضارة غريبة عن عبقريته . ومن بعد وجد بين المؤرخين من يرى أن الدفاع عن الباروك أو الأهمية المعطاة له مرتبطتان بتجاهل ، وبتقدير ضعيف جداً للنوائب التي مرت بها الأمة البوهيمية بعد الجبل الأبيض . وهذا الرأي هو أيضاً رأي بوليشنسكي في الكتاب نفسه (حرب الثلاثين عاماً والأمة التشيكية) حيث يقول : « لقد كان الجبل الأبيض بداية لكل المحن التي دارت فيا بعد ؛ وإن المعجبين بالباروك الكاثوليكي الذين يرون في عذراء الانتصارات رمزاً للنهضة القومية ، يظلون عمياناً عن المصائب التي حلت بالشعب التشيكي » .

ولا شك أن في ذلك مثاراً لكثير من القضايا المختلفة ، فانطلاقاً من ١٦٤٨ م ، لا يمكن أن ينكر أن الكاثوليكية في بوهيميا والفن الباروك قد أسهما في توعية الشعب التشيكي . هذا فضلاً عن انه من الممكن تثمين الفن الباروك تماماً والاهتمام بتطوره الخاص في أوربة الوسطى ، دون إنكار ، عن جهل أو عن تحزب ، للمحن التي مرت بها الأمة التشيكية . ويحسن بنا أن نحلل هذه القضايا كما يلي :

أولاً : إن الحرب ، التي افتتحت بالإطاحة من النوافذ في براغ ، لم تنته

بمعركـة الجبـل الأبيض . بـل ، بـالعكس ، لقـد تـلاحقت الحرب : أولاً ، في الامبراطـوريـة بسبب الرد الانتقـامي الـذي مـارسه الامبراطـور ضد النـاخب البالاتيني . وتحقق التهديد الـذي شعر بـه الأمراء الألمـان . فقـد حكم الامبراطور بوضعه خارج الامبراطورية . والأمير الألماني التابع والثائر على سيده يعتبر خائناً لدساتير الامبراطورية . والوضع خارج الامبراطورية يقتضي حجز أملاكـه ، ولا يمكن تنفيـذ هـذا الإجراء إلا بـالجيـوش المرتـزقـة . ومن هنـا دخلت الجيـوش الأجنبية أرض الامبراطورية ـ المقدسة . وظهرت عندئذ مقاومة كثير من الأمراء الألمان لهذا التنفيذ . وإن كل مـا تنبئ بـه أثنـاء السنتين ١٦١٩ و ١٦٢٠ م ، وألزم الأمراء بـاقتراح وسـاطتهم لتسـويـة القضيـة قبـل أن يمتـد النزاع ، أصبـح واقعـاً مأساوياً .

ثانياً : كانت هذه الحوادث تتطابق مع آخر هـدنـة الـ ١٢ عـامـاً . وكان من الممكن تمديـدهـا ، ولكن لم يعمل شيء لـذلـك ، واستؤنفت الحرب بين الأقـاليم ـ المتحدة واسبانيا .

أصبحت الحرب بالنسبة للأقاليم ـ المتحـدة ولاسبـانيـا أكثر من إلهـاء وصرف نظر . كانت عنصراً هاماً جداً لنزاعهما الخاص . لأن الحرب بين الأقـاليم ـ المتحـدة واسبـانيـا لم تـدر في الأراضي البلجيكيـة والأقـاليم ـ المتحـدة فحسب ، وإنمـا في الامبراطورية أيضاً .

ومنـذ ذلـك الحين ، يرى أن دول شرقي أوروبـة : السـويـد ، الـدانيارك ، بولونيا ، روسيا وجدت مهتمة ، لأسباب سياسية ودينية وضرورات لتجارتها بهـذه الحرب الممتدة والمليئة بالتقلبات . ولا يمكن أيضاً لفرنسا بسبب تنافسها الدائم مع اسبانيا أن تبقى بعيدة عن النزاع .

وهكـذا ترتسم خطـوط القـوة لهـذا النزاع الأوربي النـاجم عن ظروف

السياسات الأوربية والدينية بين النبلاء والحكومات . وتتضح ضخامتها بما بلورت من معارضات ومقاومات أقدم كثيراً وأعمق كثيراً .

إن تقسيم حرب الثلاثين عاماً إلى أدوار زمنية : الدور البوهيمي ، والدور البالاتيني ، والدور السويدي ، والدور الفرنسي ، تخلى عنه المؤرخون المعاصرون تماماً ، هذا فضلاً عن أنه يغذي ضلالاً آخر . فالدور البوهيمي لم يختم مطلقاً بمعركة الجبل الأبيض ، لأن البلاد باعتبارها أحد طرق الوصول باتجاه فينّا ، ظلت بعد المعركة إحدى المناطق الستراتيجية المتنازع عليها أكثر من غيرها أثناء النزاع . فقد استمر القتال في بوهيميا حتى شهر تشرين الأول ١٦٤٨ م ، لأن نبأ توقيع معاهدات وستفاليا وحده أوقف القتال الذي كان يدور منذ عدة أيام على جسر براغ ، بين الجيوش السويدية وجيوش الامبراطور .

وإن بقاء بوهيميا إحدى المناطق ، التي اجتازتها الجيوش غالباً أكثر من غيرها ، كان بالنسبة لها نتيجة من أكثر نتائج معركة الجبل الأبيض بلاءً . فقد ظلت تحت وطأة الحروب ثمانية وعشرين عاماً دون انقطاع ، ولا سيا عبور الجيوش ، مع الفديات ، والنهب ، والحرائق ، والأوبئة . ومات الناس بين ١٦٢٠ و ١٦٤٨ م ، في بوهيميا ، بسبب الأوبئة التي جرتها الجيوش بعدها أكثر مما كان بسبب المعارك أو وقائع الجرب . وهذا ما شكل دوراً لا ينتهي من النكبات الدائمة ، وما أسماه المؤرخون « الزمن المظلم » (تمنو) . إن فظاعة المحن لا نقاش فيها . فقد تركت هذه الآثار في الخيال الشعبي كالرواية التاريخية .

ولكن هذه المصائب لم تحدث لأن الشعب كان بوهيمياً أو تشيكياً أي جرمانياً أو سلافياً ، لأنه لا يوجد هنا أي حرب عرقية ، أو لأنه لم يدافع عنه عاهل وطني . لقد كان السبب الوحيد جغرافياً ، وفرض عليها أن تتحمل الحضور المادي للجيوش بكل نتائجه الاقتصادية . وعرفت بوهيميا ، دون سائر البلاد التي مستها حرب الثلاثين عاماً ، أثقل هبوط ديموغرافي .

ونتساءل الآن ماهي النتائج المباشرة للهزيمة ، وما هو الموقف الذي تبناه الامبراطور حيال رعايا ثائرة ومغلوبة ؟

لقد وضعت الثورة موضع التشكيك مبادئ السلطة غير القابلة للمس للمليك المتوج ، أو حق الأمة ، أي الدول ، في أن تثور على أميرها وأن تحل رعاياه من يمين الولاء والطاعة . وقدر البيت النمساوي ، أي الامبراطور فرديناند ، الذي لم يكن شخصياً رجلاً سيئاً ولا دموياً ، ومستشاروه أن ثورة ، بهذه الصفة ، يجب أن تعاقب بشدة بغية تثبيط « شعوب عجلة إلى التنصل من مسؤولياتها » فلا تحاول أبداً ثورة مماثلة .

ولم تكن تقاليد العصر تميل إلى اللين . لقد اتخذ العدل طابع العقوبة المشددة . ونوقشت قضية معرفة لأي حد كان العاهل القاهر لرعاياه الثائرة حكيماً حتى يبدو متسامحاً أو صارماً . وكذلك أقيمت موازاة بين موقف هنري الرابع وموقف لويس الثالث عشر في سلوكهما تجاه رعاياهما الثائرة . لقد جنح هنري الرابع الحذق الناعم ، عن حساب وعن مزاج ، إلى اختيار التسامح ، ولكنه تسامح يقظ لين وعن غير ضعف . واختار لويس الثالث عشر الشدة وضرب الأمثلة لغيره . وحاول مع ذلك ألا يظهر بأنه أخذ ثأره . ولكن السياسيين الفرنسيين ، في عام ١٦٢٠ م ، عندما لاحظوا الحالة بعد الجبل الأبيض ، أبدوا قلقهم من الاستعدادات التي قد يتخذها الامبراطور ، لأنه يوجد دوماً تناقض مقصود بين سلوك الحكومة والأيديولوجيا السياسية في القرن السابع عشر . فإذا كانت الحكومة مطلقة فذلك في سبيل الحفاظ على المملكة ، لأنها مقتنعة بأن الحكم المطلق يعطي قوة للدولة . وما من أحد في ذلك الحين كان يتصور بناء منسجماً لأوربة ، فقد كان العمل الأساسي والطبيعي تنافس الدول فيا بينها . ويظهر جيداً أن البلاد المتجاورة ، أي المتنافسة ، لم يكن لها بنية وسياسة تجعلان الدولة قوية . وبتعبير آخر كانت كل واحدة منها تريد أن تكون قوية بذاتها وتشجع

ضعف الجار . ومن هنا خرج الحكم المسبق الملائم للحفاظ على ملكية انتخابية في الدول الأخرى . ولذا كان رجال الدولة الفرنسية ، في عام ١٦٢٠ م ، يتنبؤون بقلق ويخشون أن يرد الامبراطور جميع دوله إلى دولة مطلقة وغير انتخابية ويسلك في دوله سلوكاً مطلق الحكم ، وأن تكون موارد دوله تحت تصرفه ، وبشكل أقوى وأوثق بكثير مما لو كانت في وضع ملحق نسبياً بالملك المنتخب الذي لا تصنع إرادته الوحيدة القانون .

وقد كتب (بويزيولكس) أمين الدولة للشؤون الخارجية ، في ٣٠ كانون الأول ١٦٢٠ م ، أي بعد بضعة أسابيع على الجبل الأبيض : « فيما يتعلق بنا ، لقد خشينا دوماً أن يتغلب أحد الطرفين على الآخر بطريق السلاح ، لأن مثل هذا الأمر لا يمكن إلا أن يكون خطراً على القضية العامة » . وهذه الخشية لم تزل عن الحكومة الفرنسية منذ ١٦١٨ م إلا عندما وعد لويس الثالث عشر - عن طيش - الكونت فورستنبرغ بنجدة عسكرية .

وأضاف بويزيولكس : وككاثوليك طيبين ، جنحنا دوماً إلى جانب الدين الكاثوليكي . ومع ذلك ، تعلمون ما كان من سيطرة اسبانيا وكيف تسيء بسهولة استعمال هذه الصفة للدين لتغطية مقاصدها الزمنية » . وهكذا ككاثوليك يفضل نصر الكاثوليك ، ولكن القلق يخامر النفوس إذا كان نصر الكاثوليك ، الذي حققه حلفاء ملك اسبانيا ، يخول هذا الملك وسائل أكثر لتثبيت تفوقه في أوربة .

اتخذت حكومة الامبراطور عدة تدابير ، في بوهيميا ، تنزع إلى تعزيز سلطتها . ولكن هذه التدابير ، في الوقت نفسه ، يمكن أن تحدث الاضطراب في البنية الاجتماعية لمملكة بوهيميا وتضعها تحت رحمة حكومة الامبراطور أكثر مما فعلت بها معركة ٨ تشرين الثاني .

وعهد الأمبراطور بحكومة بوهيميا إلى (شارل دو ليشتنشتاين)،فأقام محكمة

استثنـائيـة للتحقيق في الثورة ومعـاقبـة رعـايـا المملكـة ولا سيا الضـالعين منهم بخاصة .

كانت الإجراءات الشخصيـة : الحكم بـالموت على ٢٧ شخصـاً . ونفـذ الحكم في ميـدان القصر البلـدي في براغ ، في ٢١ حزيران ١٦٢١ م : ثلاثـة أعضـاء من فئـة الأمراء ، ونخص بـالـذكر منهم (فكلاي بودفيـك دو بـودوڤـا) الـذي لم يشـأ أن يغادر مملكة بوهيميا مع الملك فريديريك ، وظل على أرضـه ، في وطنـه ، ينتظر الحوادث . ومات بشجاعة كبرى على المشنقـة في براغ . أمـا العضوان الآخران من فئة الأمراء فكانا (شليك) و (هارانت) . ويوجـد عـدا ذلـك سبعـة فرسـان ، وسبعـة عشر بورجوازيـاً ألمـانـاً وتشيكيين . وبين هؤلاء البورجـوازيين ، مـدير جامعة شارل ، الطبيب (إيسّنيوس أي : إيسن) : وهو ألماني من سليزيا ، وعـالم يقدره زملاؤه كثيراً ، وكان مكلفاً بالقيام بعدة مهمات دبلوماسية ومتورطاً جـداً . وبعد إعدامه ، قطع جسده إرباً إربـاً ، وعرضت هـذه القطع في عـدة نقـاط من مدينة براغ .

إن إعدام سبعـة وعشرين شخصـاً ، قطعت رؤوسهم في يوم واحـد ، عقـاب هام ، ولكن العدد ليس عظيماً ، بالنسبـة إلى شعب من عـدة ملايين نسمـة . ولمـا كان لا يوجد إلا ثلاثة أعضاء من فئة الأمراء ، يرى جيداً بـأن الطبقـة النبيلـة في بوهيميا لم يحكم عليها كلها بالموت .

وهناك إجراء آخر تناول عدداً عظيماً جدا من رعايا المملكـة في أموالهـا . ولم يطبق العقاب على زعماء الثورة وحدهم ، ولكن على كل من خول مساهـة مـا إلى حكومة المديرين أو الملك فريديريـك ، سواءً إذا أدوا بكثير من الغيرة ضرائبهم ، أم تقـدموا بطلبـات إعفـاء إلى الحكومـة . وعرض دورهم على تقـدير لجنـة تحقيق فأصدرت أحكامها على أموالهم .

لقد تناول الإجراء قسماً عظيماً جـداً من سكان المملكـة . ولا شـك أن أنـاسـاً

حاذقين تخلصوا بثمن رخيص . مثال ذلك : أن كثيراً من رجال الأعمال في براغ وجدوا الوسيلة ، رغم تعاونهم ، بصورة معتدلة ، بتكاليف الحرب من أجل الملك فريديريك ، وأعلموا الامبراطور أو القادة ، بأنهم خضعوا للضرورة ، وأنهم يتحفظون من أجل المستقبل . ودون تمييز في الأمة : أي بين الألمان أو التشيكيين ؛ ودون تمييز في الدين أيضاً بين الكاثوليك والبروتستانت ، تعرض الجميع للمصادرات .

إن كتاب المؤرخ التشيكي (بيليك) ، في القرن التاسع عشر ، وهو بعنوان : (تاريخ المصادرات) يقدم مسرداً لكل من تناولتهم أحكام المصادرات ، ويسمح بأن يلاحظ أنهم عديدون جداً ، وأنهم من فئات اجتماعية مختلفة : أمراء ، فرسان ، بورجوازيون ، بل وفلاحون .

كانت المصادرة تتناول الدومين بكامله ، حتى ان الغرامة التي توجبت ما كانت لتبلغ قيمة الملك (المال) . وتعهدت إدارة الضرائب مبدئياً بأن تطهر الوضع ، وأخذت بعين الاعتبار الديون التي كانت على المال (الملك أو الدومين) ويجب أن تدفع . فبعد تثمين القيمة العامة للملك وطرح الغرامة يرد إلى المالك السابق ما يعود إليه .

وبتعبير آخر إن الشخص ، الذي أصابته المصادرة ، خسر ماله أي ملكه ، ولكنه لم يخسر قيمة هذا الملك كلها .

ولدفع الرصيد الباقي ، كما هو الأمر في الدفع للدائنين ، أصدرت الغرفة الملكية أسناداً اعترفت بها بالمبالغ التي بقيت مدينة بها ، واستعملت هذه الأسناد بأشكال مختلفة ، إما بالمفاوضة مقابل المال إذا وجد أحد يريد أن يأخذها ، أو تبدل مقابل أراضٍ معروضة للبيع . وهكذا كان الأشخاص ، الذين يستطيعون ذلك ، يجمعون أسناداً عديدة جداً ويحولونها إلى نقود أو يشترون بها أملاكاً .

كانت هذه العملية خطيرة وخطرة ، سواء بنتائجها الاقتصادية أم بنتائجها الأخلاقية ، في بلد كان الاقتصاد فيه زراعياً بصورة أساسية ، وكان الناس يعيشون فيه من موارد الأرض ، وكانوا عاطفياً متعلقين بتراثهم .

وهذه الصفة التعسفية في المصادرات والاستغلالات ، التي أقامت مالكين جدداً على الأراضي التي جردت من أصحابها السابقين ، قلبت المفاهيم القديمة . وأكثر من ذلك ، ان كتلة الأملاك المطروحة في السوق أسقطت قيمتها في الحال ، فقد ثمنت الأملاك المصادرة بحالة السوق العادية ، وبسرعة جداً ، وكان العرض أعلى من الطلب ، فلم تبع الدومينات بالسعر الذي ثمنت به وإنما بسعر أضعف .

ومن كانوا أضعف من غيرهم ، كالفرسان ، أصبحوا لا يملكون شيئاً ونكبوا عملياً . غير أن آخرين أمنوا لأنفسهم أرباحاً من العملية . واتفق أن أناساً نكبوا جزئياً وكانوا مجهزين بالأسناد فأفادوا من استعمالها ثانية .

وهكذا أفاد من كانوا يملكون المال أو وسائل الحصول عليه بسرعة من هذه العملية واشتروا الأراضي بثمن رخيص من دومينات وحقول وغابات وسبخات (برك مائية) .

لقد أفادت العملية أعضاء طبقة الأمراء ، وحتى بعض الفرسان ، ولكن من يملك منهم سلفاً أملاكاً كبرى . وهكذا أسست عائلة لوبكوفيتش ، وعائلة سلافاتا ، وعائلة تشرنين ، التي انتقلت من طبقة الفرسان إلى طبقة الأمراء ، دومينات أكثر بكثير من التي كانت تملكها من قبل . إن حركة تجميع الأراضي ونمو الدومينات العقارية الكبرى ، التي كانت صفة عظيمة لاقتصاد أوربة الوسطى ، عشية حرب الثلاثين عاماً ، قد تسارعت لصالح من كانوا أكثر غنماً من غيرهم .

ومنح الأمبراطور بعض الدومينات إلى أشخاص كان يريد أن يعوضهم أو

يكافئهم بصورة خاصة . وهكذا أخذ (إغنبرغ) ، المشاور النمساوي لفردينانـد ، دومينات من آل (روزمبرك) بعد انطفاء العائلة ، في القسم الذي كان عائـداً إلى الغرفة الملكيـة . وكسب بوكوا دوميناً بـالسـلاح ، أثنـاء الحرب ، في نـوفيرادي (غراتزن) . ولكن ، في هذا التاريخ ، قل الأجانب الـذين دخلوا في المملكـة . وكان المستفيدون من العملية في غالبيتهم بوهيميين ، وبخاصة أعضاء الطبقة النبيلة التشيكية . أما الغزو الكثيف للملاك الأجانب فلم يحصل إلا آجلاً .

وهذه الهبات من الدومينات إلى أمراء ، كان على الحكومة التزامات تجاههم ، تستجيب لطرق مستعملة في بلاد أوربة كلها . ولجأ إليها فريديريـك الخـامس ، فقد أعطى ، مثلاً ، دومين (شلوميك) ، في بوهيميا الشرقية إلى أحد أفراد عائلـة آل كينسكي .

وهناك أسطورة تقول بأن الطبقة النبيلة التشيكيـة قـد جردهـا الأمبراطور كاملاً ، وأن أموالها وزعت على أمراء ألمان . والواقع أن الطبقة التشيكية من أصل قديم بقيت في بوهيميا ثم في تشيكوسلوفاكيا حتى ثورة ١٨٤٨ م .

إن مصادرة أموال البوهيميين الذين تورطوا في ثورة ١٦١٨ ـ ١٦٢٠ م لم يكن لها نتائج ملائمة للغرفة الملكية المكلفـة بعمليـة البيع . ولـذا نجـدهـا خلال سنوات طويلة ، وحتى بعد حرب الثلاثين عاماً ، قد أثقلت بـالـديون التي يجب أن تقوم بعبئها ، وبالأسناد ، عوضاً عن أن تغنى بالمصادرات .

وهذه العملية التي أسيء نجاحها ، بقـدر مـا أسيئت نيـة العقوبـة ، تستجيب لضرورة ضريبية . فقـد كان الأمبراطور ، كسـائر سـادة أوربـة ، يجهز جيوشـاً ، وكان بحاجة إلى مال ، وإلى مال مباشر ، لدفع أعطيـات الجنـد المرتزقـة . وهـذه إحدى النقاط الأساسية لحرب الثلاثين عاماً . إن جيوش المرتزقـة لم تكن مـدربـة على خدمة قضية ، وتقاتل لأن القتال مهنتها . ولـذا تنقطع عن العمل إذا لم توف

أعطياتها في حينها . وهذا يعني أنها تنهزم أو تنهب المنطقة التي تكون فيها دونما اعتبار لآراء ولا لظروف السكان .

ولهذا سيطر التزام دفع أعطيات جيوش المرتزقة على كل شيء ، وبدا بطابع شديد بخاصة . وذلك لأن كثيراً من العمليات التجارية تعمل لأجل ، والمرتزقة لا تتحمل مهلة . لهذا يجب الحصول على المال حالاً وفي التاريخ المحدد ، وحتى المال من النقد الصغير الذي يساعد الجنود على القيام بمشترياتهم بسهولة .

وكان العاهلان الاسبانيان : شارل ـ كنت وفيليب الثاني يتصرفان بموارد نقدية من أمريكا ، وكانا ولا شك عاهلين غنيين جداً . ولكن خزانتهما في الغالب بائسة ، وكانا مضطرين إلى القروض من أصحاب البنوك الذين يقرضونهما بفوائد كبيرة ، ومقابل تقديم رهون هامة .

إن ثروة أمريكا توضح الاعتماد الذي كان يخول إلى العاهلين الاسبانيين . ولكن عدم انتظام الدخول من أمريكا يوضح أيضاً الصعوبات المالية التي كان يتخبط بها هذان العاهلان . وهذا ما دل عليه المؤرخ الاسباني (كارّاند) في كتابه (شارل ـ كنت وأصحاب المصارف) .

ثم إن الحاجة إلى عملة صغيرة يمكن صرفها وفكها توضح أيضاً إصدار النقد النحاسي الذي كان صفة من صفات الاقتصاد الاسباني في آخر القرن ، ثم الاقتصاد الأوربي في بداية القرن الثامن عشر : بغزو النقد النحاسي الصغير الآتي من اسبانيا والمنافس لقطع الفضة المتداولة في مختلف البلاد .

وهناك ملاحظة أخرى أيضاً : وهي أن العصر الحديث ـ القرن السادس عشر والسابع عشر وحتى القرن الثامن عشر ـ عصر « اقتصاد المبادلات النامية أكثر فأكثر ، ولكنه لا يتصرف بوسائل نقدية معدنية كافية لحياته ، أو وسائل قادرة على دفع أو تجنب عدم الكفاية » .

وهكذا بالرغم من التقدم الاقتصادي العام ، حتى وبالرغم من صفة الاقتصاد العالمي التي تأكدت في ذلك الحين ، نجدنا أمام اقتصاد ضعيف لا يستطيع أن يتابع وتيرة النمو السريع ، وتنقصه باستمرار الوسائل النقدية الضرورية لبقائه وعمله ككل نظام اجتماعي وسياسي .

إن صعوبات الدفع وضعت الحكومات أمام ضرورات اللجوء إلى اتخاذ تدابير من شأنها تغيير النقد . وأصدرت قطع نقود تتغير فيها النسبة بين النحاس والفضة بالنسبة للإصدارات السابقة . وضربت قطع نقد كان فيها النحاس أكثر من الفضة . وعدا ذلك ، أعلن تخفيض قيمة النقد ، أي صرح بأن النقود القديمة ، اعتباراً من تاريخ معين ، تصبح غير قابلة للتداول ، وأن النقود الجديدة ، التي تحتوي نسبة فضة أضعف ، تكون وحدها مقبولة .

ويجب أن يؤخذ بعين الاعتبار أيضاً منافسة النقود المختلفة بعضها لبعض ، والقانون الاقتصادي الذي يقول : « إن العملة الرديئة تطرد العملة الجيدة » .

والنتيجة هي زيادة جديدة عامة في أسعار السلع ، وبخاصة زيادة أسعار السلع الاستهلاكية في الأسواق .

أما وقد وضعت المبادئ ، فمن الممكن أن يفهم بشكل أفضل أن العمليات التي قامت بها حكومة الأمبراطور فرديناند الثاني ، لم تكن استثنائية . حتى أن خصوم هذه الحكومة التجؤوا إليها من جهتهم أيضاً . ومنذ ١٦١٩ م باشرت حكومة ديركتوار بوهيميا ثم الملك فريديريك الخامس بإصدارات نقد أضعف . وهذا ما سمي بـ (النقود الطويلة) وهو شكل من التضخم لوحظت نتائجه مباشرة على حياة الأفراد اليومية .

وفي الكتاب الجميل (الجمهورية البوهيمية) الذي صدر في هولاندا في

١٦٣٣ م ، في مجموعة الناشرين (الزفير[1]) ، يشكو تشيكي منفي يسمى (كاريل سترانسكي) من النقود المتناقصة القيمة التي يصدرها المديرون ، أعضاء مجلس الإدارة ، الديركتوار . ويأخذ عليهم أنهم دشنوا الحسابات بـ(الكرويتزرات[2]) ، على حين أنه كانت تحسب القيمة حتى ذلك الحين بـ (الغرو[3] الفضي) وبـ (غرو بوهيميا) . وفي الصفحة ٣١٠ من الكتاب يقول : « لهذا الإهمال لحق السيادة ولمثل الأجداد القدامى يجب ألا تعذر هذه الإجراءات غير المعقولة بالقول بأن البلاد كانت بحاجة إلى نقد خول لنقد الامبراطورية لدفع أعطيات الجند ، لأن المرتزقة الألمان يخدمون أيضاً في القطعات الفرنسية والبلجيكية ، ولم يتخل أبداً في هذه البلاد عن نقدها القديم » .

وهذا الشاهد من معاصر يمكن أن يؤخذ ككاشف للرأي وعدم الثقة فيما يتعلق بهذه الإجراءات ، في بلد لم يعرف تياراً تجارياً قوياً أيضاً . ويتذكر هذا البوهيمي المنفي بأنه كان يوجد قبل الحرب في المملكة عملة سليمة مع نظام التقسيم إلى (غروات فضية) وإلى (غروات بوهيميا) ، ويدل على أن النقد السيء النسبة بالمعدن الثمين هو النقد الذي يراد أن يحل محله زعماً بفائدة توافقه مع النظام النقدي في الأمبراطورية .

وكانت النقود الجديدة التي أصدرتها حكومة الديركتوار وحكومة ملك بوهيميا ، تحمل كالقديمة أسد بوهيميا المتوج مع الشعار (بالله القوي) ورقماً صغيراً

---

(١) (الزفير ـ ELZEVIRS) اسم لعائلة طباعين وأصحاب مكتبات هولانديين مقيمين في ليدن ولاهاي وكوبنهاغن في القرن السادس عشر والسابع عشر .

(٢) (الكرويتز ـ Kreuz) في الأمبراطورية عملة فضية صغيرة منقوشة بصليب تقبل الفكة أي الصرف بأجزاء صغيرة .

(٣) (الغرو ـ LE GROS) عملة فضية تساوي ١٢ (دانقاً ـ DENIERS) سكت في حكم القديس لويس عام ١٢٦٦ م ، واستمرت . والدانق في العملة الفرنسية كان يتراوح بين ١٢ و ٢٠ و ٢٥ نحاسة .

أيضاً يدل على معادلها بالكرويتزرات : ٢٤ ، ١٢ . وما أن استقر الأمبراطور فرديناند في بوهيميا إلا وسك (غروات فضية) ولكنها لا تحتوي النصف فضةً ، وتوطدت قيمتها على هذا النحو : (تالر) بوهيمي واحد لكل ٢٠٠ غرو . وهذا يعني التضخم ، لأنه يتطلب أكبر عدد من قطع الفكة مقابل القطعة ـ العيار .

وأكثر من ذلك ، لم يكن في الأمبراطورية نظام نقدي موحد . وبالرغم من عدة تنظيمات ، كانت وحدات الحساب تختلف من منطقة لأخرى . وهذا ما جعل عمليات القطع دقيقة . ونضيف إلى ذلك تزييف النقد في أوساط الجمهور . وكان مزيفو النقد يقتطعون جزءاً صغيراً من الفضة من قطعة النقد . ولإجراء الحسابات كان يجب التأكد من أن القطع مهما يكن عيارها لها وزنها المنتظم .

وتبقى كوحدات أساسية :

١ ً ـ (التالر) أو : (الرايخشتالر) اللذان كان يسميها الفرنسيون المعاصرون (الريكسدال) ، وكان ريشليو يحسب بالريكسدال المبالغ المحولة إما لملك السويد وإما إلى الأمراء الألمان .

٢ ً ـ (الغولدن) أو : (الفلورن) ويمثل $\frac{٧}{٨}$ التالر . وكان التالر يساوي حوالي ٧٠ كرويتز ، والفلورين ٦٠ كرويتز .

وفي سنوات ١٦٢١ ـ ١٦٢٢ م ، كان الأمبراطور بحاجة إلى المال أكثر فأكثر ، ولم تأت مصادرات الدومينات بالنتائج المرتجاة ، ويعرف ما تعانيه الخزينة من ضيق لدفع أعطيات المرتزقة ، وعهد بحكومة بوهيميا إلى (كارل دو ليشتنشتاين) . وبدأ هذا الإداري الموقت بضرب قطع أقل نسبة بالمعدن الثمين . ولكن النتيجة لم تكن مرضية ، لأن الأمبراطور كان يريد الحصول مباشرة على ٦ ملايين فلورن ، واضطر ليشتنشتاين إلى اللجوء إلى عمليات أكثر تعقيداً .

ونتساءل من هم الأشخاص القادرون على مساعدة العاهل في هذه الضائقة التي أربكت الخزينة ؟ قبل كل شيء أصحاب الأموال الذين نسميهم إجمالاً أصحاب المصارف . ولكن المصرف (البنك) لم يكن ، في الحقيقة ، منظماً كما هي الحال في عصرنا الحديث . لقد كان القصد تجاراً أغنياء أو مضاربين يتصرفون بالأموال وبوسائل الحصول عليها ، مثل تاجر من براغ من أصل هولاندي وهو : ((هانس دوفيت) الذي أفرد له الأستاذ الألماني (ارنستبرغر) كتاباً خاصاً .

أبدى هانس استعداده لإيجاد الـ ٦ ملايين المطلوبة بسرعة ، شريطة أن يعطى عقداً . وشكل شركة دخل فيها (كاريل ليشتنشتاين) نفسه ثم ضابط شاب سيكون له شأن عظيم في حياته العسكرية في السنوات التالية وهو (ألبرت فالدشتاين) ، ويهودي من براغ اسمه (باسّيفي) ، وأصله من فيرونه ، ووثيق الصلة والمعرفة بالقضايا المالية .

خول العقد هانس دوڤيت لعام التزام مشاغل سك النقد في بوهيميا وموراڤيا والنمسا ـ الدنيا . وهكذا تخلصت الغرفة الملكية في بوهيميا لأجل من حق سك النقود . وكانت المشاغل النقدية المعنية مشاغل براغ ، (يوآشيمشتال) في شمالي بوهيميا ، حيث توجد مناجم الفضة ، وكانت الأولى التي أعطت « التالر » اسمه « كوتنا هورا » (كوتّانبرغ) ، وبرنو (برونْ) في موراڤيا وڤيّنا . ومن المهم أن نلاحظ أن نشاط الشركة المالية (الكونسورتيوم) امتد إلى النمسا ـ الدنيا .

وكان ممنوعاً إخراج النقود العليا من البلاد كالتالرات التشيكية القديمة ، وأخذ الكونسورتيوم على عاتقه جمعها ، وقام بذلك باسيفي ، وشراءها بسعر ثابت بموجب براءة ، وإرسالها إلى دار السك . وعدا ذلك ، حصل الكونسورتيوم على حق خاص لشراء فلذات الفضة في بوهيميا بسعر ٣٢ غولدن المارك الفضي الخالص . وأخذ بصفة مجانية ٤٠٠ كنتال من النحاس . واشترى فوق هذه الكمية ، ولكن بسعر محدد . وجهز بالخشب والفحم بشروط مربحة بخاصة ، لتغذية مشاغل السك .

وحسب المارك الفضي الخالص ، في العملات الجديدة ، بـ ٧٩ غولدن .

وكانت القطع المضروبة (التالر المزدوج) وهو يعادل العملة القديمة المسماة (كوب مايسن) ولكنه حسب بـ ١٥٠ كرويتزاً عوضاً عن ١٢٠ . وعدا ذلك ضربت قطع نقد صغيرة فضية ، واختلفت قيمتها مباشرة في سوق براغ وفي سوق فيينّا . وكان من الممكن المضاربة والحصول على ربح بشراء الفضة من مدينة وبيعها في مدينة أخرى .

وحصل الامبراطور على مبلغ الـ ٦ ملايين فلورن الذي طلبه ، وأثرى أعضاء الكونسورتيوم في الوقت نفسه في هذه العملية النظامية من حيث المبدأ ، ولكنها أصبحت فضيحة بسرعتها ، وبنسبة الأرباح التي كانت تسمح بها . وفي الواقع ، إن أعضاء الكونسورتيوم استطاعوا بالنقد السيء الخليطة ، أن يكسبوا بسعر رخيص جداً ، ملكيات أقل من ثمنها بواسطة التلاعب البسيط بقانون العرض والطلب ، الناجم عن أعدادها الكثيرة في السوق . وبالمقابل ، إن الذين أخذوا النقد واستعملوه لاستهلاكهم ، وجدوا أنفسهم أمام زيادة عامة في الأسعار . وماذا يقال عن هؤلاء الذين صودرت أملاكهم جزئياً ، ولم يحصلوا بالتالي ، إلا على نقد منخفض القيمة .

وبالرغم من كل شيء ، إن عملية الإصدار كانت دقيقة ، حتى ان الكونسورتيوم نفسه اعترف بضعف هذه المضاربات ، بالرغم من أرباحها ، وفضل ألا يطالب بعد عام ، بتجديد العقد ، وكان بإمكانه أن يطالب به . وفي ١٦٢٣ م ، أعاد الامبراطور إلى الغرفة الملكية أمر سك النقد . ولكنه ، في ٢٨ كانون الأول ١٦٢٣ م ، صرح كما بدا الأمر في أسبانيا ، بنوع من إفلاس . (وسمي هذا الإفلاس باسم : الكالادا) .

إن الفلورينات التي أصدرت سكت بوزن وحبة النقود القديمة في القرن

السادس عشر . ولكن قيمتها الاسمية أصبحت ٩٠ كرويتزاً ، على حين أن هذه القطع في السوق الحر كانت تقدر بـ ٢٧٠ كرويتزاً .

لذا كان يجب التخلص بأسرع ما يمكن من النقود التي ينالها القرار الذي ينفي عند حلول الأجل المعين عدم استعمالها ، وسك نقود جديدة تحتوي نسبة فضة أقل . وكان المضاربون أو الأشخاص المليئون يستطيعون متابعة العمليات ميدانياً . ولكن هذه الانخفاضات الدائمة في النقد أو العودة إلى نقد أعلى أطالت أزمة اقتصادية خطيرة ، وظهرت الحوادث المألوفة عنها في المدن ، من نفاد الأسواق ، وعدم كفاية التموين بالطحين ، والصفوف أمام دكاكين باعة الخبز ... إلخ .

واضطربت الحالة المعنوية في البلاد من جراء الصبأ الديني . فإذا كانت (رسالة الجلالة) قد خولت فوائد للبروتستانت ، فلم تقرر لا هي ولا الاتفاقية المرفقة بها ، حذف العبادة الكاثوليكية ، وعلى العكس إن الديانة المقبولة في المملكة بعد واقعة الجبل الأبيض ، كانت الديانة الكاثوليكية . فقد منعت العبادة البروتستانتية تدريجياً في المدن وطرد الرعاة منها ، والعبادة الوحيدة التي سمح بها كانت العبادة الكاثوليكية . وفي سياق سنة ١٦٢٤ م ، اتخذت قرارات قسرية لإجبار غير الكاثوليك على ممارسة الديانة الكاثوليكية الرومانية .

وكان للأمراء الخيار بين اعتناق الكاثوليكية وبيع أموالهم ، وإذا لم يصبأوا ، كان عليهم أن يغادروا البلاد ، وقد فعل الكثير منهم ذلك . وفي الحقيقة ، كان أعضاء الطبقة النبيلة قادرين على إعداد وتصور النزوح عن الوطن ، وكان بإمكانهم ، على أي حال ، أن يحققوا أموالاً ، ويغادروا البلاد ويهيئوا لأنفسهم مقاماً جديداً في غيرها . ونضيف أن النبلاء ، وهم أكثر ثقافة ، وأكثر تعليماً ، كان وجدانهم واضحاً بتقاليدهم الدينية . أما الناس المتوسطو الحال والفلاحون في

المدن والأريـاف ، فلم يستطيعوا تنظيم هجرتهم بسهولـة ، ولـذلـك ظلوا حيث هم واستسلموا للضغط الذي يمارس عليهم ، وقبلوا تغيير دينهم .

وهكـذا نرى رحيـل عـائـلات عـديـدة ، الأمر الـذي أسهم في قلب ظروف بـوهيميـا والأقـاليم المجـاورة ، فمن ذلـك أن المهـاجرين البـوهيميين من تشيكيين أو ألمان ـ ذهبوا إلى ألمانيا وبخاصـة إلى هولانـدا . حتى ان (زيروتين) نفسـه اضطر للابتعاد عن مورافيا ، وحالتـه هـامـة بسبب وفـائـه الواضح للامبراطور ورفضـه الصبأ . لقد أبدى كثيراً من الولاء للبيت النساوي لئلا يفقد حظوته ، ومع ذلـك فضل أن ينعزل في سيليزيا حيث توفي في ١٦٣٦ م .

كان من أعظم حمـاة (وحـدة الإخوة) ، ولم يستطع أن ينقـذ الكنيسـة التي يتبعها ، وظل متعلقاً بها بعمق . وكل ما استطاع أن يقدمه خدمات مالية لأبنـاء دينه . فقد كان يملك ديوناً في أماكن كثيرة . ولـه ديون على ملـك فرنسـا ؛ لأن الديون التي عقدها مع هنري الرابع لم توف تمامـاً . ولـه أموال عنـد رجـال أعـمـال سويسريين .

وكان بين النبـلاء ، الـذين غـادروا وطنهم ، كثير من التشيكيين الـذين حاولوا أن يثيروا في ألمانيـا الحرب ضد الامبراطور ، وجـذب الجيوش إلى بوهيميـا لاسترداد المملكة .

ومن المنفيين الآخرين كان مفكرون وفنـانون ، مثل أسقف **وحدة الاخـوة** (كـومينسكي) المعروف بـالشكل الـلاتيني لاسمـه (كـومينيـوس) . وكان يتمتـع بشهرة واسعة بين معاصريه فيما وراء حـدود بوهيميـا . وقـد لقى كومينيوس بعض الشهرة في أيـامنـا . فمن ذلـك أن مؤتمر كومينسكي عقـد في براغ ، وأقـام معرضـاً لمؤلفاته العـديـدة ، من مطولات ورسـائل ، في عـام ١٩٥٧ م . وقـامت أكاديميـة العلوم في تشيكوسلوفاكيا بإعـادة نشر آثـاره التعليميـة ، المنشورة في ١٦٥٧ م ، في أمستردام ، على نفقـة حـاميـه الهـولانـدي (لـوران دو جير) . كان كـومينيـوس

فيلسوفاً ، وأخلاقياً ، ومربياً . عرض في مطولاته الطريقة التي يحسن اتباعها لتكوين فكر مثقف ، وانفتاحه على المعارف المختلفة دون حذف معرفة اللغات الأجنبية ، وبلوغه الفهم التام للعالم (ORBIS PICTUS) والحكمة العامة (PANSOPHIA) .

كان مسيحياً ورعاً تقياً متحمساً ، كتب مصائب حياته الخاصة ، وكانت كبيرة ، وأوحت إليه المصائب العامة التي حلت بوطنه بصفحات تأمل ورجاء ديني . كان مناصراً للسلام ، وكان في هذا العصر الحربي ، يؤكد تفوق السلام على الحرب ، واستطاع أثر كومينيوس في كثير من الجوانب العليا للزمن الذي كتب فيه ، أن يفيد أجيالاً متعاقبة . لقد كان أديباً إنسانياً يهتم بتقارب الناس بعضهم من بعض ، ولكن بثقافة أكثر سعة ومرونة .

وعاش كومينيوس في بلاد مختلفة . ففي البدء التجأ في بولونيا عند (آل ليزتشينسكي) ، وذهب إلى أنكلترا ، وإلى ترانسلفانيا ، حيث علم في مدرسة (ساريس باتاك) عند آل (راكوتشي) وأخيراً في هولاندا حيث أمنت له أسرة تجار وأصحاب بنوك ، وهي أسرة (آل غير) ، حماية ناجعة .

لقد هاجر كومينيوس (١٥٩٢ ـ ١٦٧٠ م) في سن الرجال . غير أن هنالك بروتستانتيين آخرين من بوهيميا ذهبوا شباباً أو فتياناً إلى الخارج . كالفنان الشاب ، الرسام والنقاش ، الذي كان أحد مشاهير رسامي المناظر في انكلترا في القرن السابع عشر ، وهو (هولار ـ پاڤل سترانسكي) فقد كتب وصفاً هاماً جداً لدولة بوهيميا ، في وقت لا يعلم فيه بعد ماإذا كان المهاجرون القدامى سيتوصلون إلى العودة إلى بوهيميا ويوطدون دينهم من جديد .

لقد وضع صبأ بوهيميا والأقاليم الداخلة فيها قضايا يعسر الإمساك بها . لأن الدور الممتد من ١٦٢٠ إلى ١٦٤٨ م ، كان كذلك أكثر تعقيداً وغموضاً ، ولا تطبق فيه في كل مكان (البراءات) بنفس الشدة والضبط ، حتى ان الحالة في نفس

العصر كانت تختلف تماماً من دومين لآخر . والأهم من ذلك كان حضور أو غياب الجيوش . فإذا أعطيت للجيوش حجة تطبيق المراسيم المتعلقة بالدين ، كانت تمارس عبثها وسلبها ونهبها بفظاعة . وفي أمكنة أخرى ، كان الأمراء يتمسكون بالفلاحين على دوميناتهم حتى ولو كانوا بروتستانت .

وانقلب كل شيء ، كما في بلاد أوربة الأخرى ، فمن ذلك أن الاكليروس الكاثوليكي ، لم يكن متعلماً ولا مثقفاً ، ولا عديداً حتى أثناء الثورة ، فكيف يمكن العودة بالسكان إلى دين الامبراطور ؟ كان يجب اللجوء إلى المبشرين . وعندئذ أخذ اليسوعيون في أوربة الوسطى صفة طبقة مستقرة ثابتة وجوالة . مستقرة ، لأن إحدى وسائل العمل الهامة للجمعية اليسوعية كانت تأسيس الكليات ، وفيها تعلم الشبيبة ، من أبناء الطبقة النبيلة والشبيبة البورجوازية بل وأطفال الشعب الموهوبين جيداً ، وبخاصة بفكرة إعدادهم للكهنوت والجمعية اليسوعية . ومن جهة أخرى ، كانت الجمعية تجهز بعدد كبير المبشرين الذين كانوا يذهبون من قرية لقرية ليغرسوا من جديد الكاثوليكية ويعقدوا مع العصر الوسيط تقليداً قطعته البروتستانتية .

وبعد زمن ، كان من الممكن أن تهدأ الحالة لولا أن بوهيميا أصبحت من جديد وبصورة دائمة ساحة قتال . فمذ تظهر الجيوش الأجنبية ، كان يجب البدء بكل شيء من جديد . وحيث تكون الحالة هادئة ، دون التقلبات ، كان التغيير يحدث من جيل لآخر ، فالجيل الأول كان بروتستانتياً بحرارة ، والجيل الثاني أخذ يتصل مع المبشرين الكاثوليك ، أو في المدن كان يتأثر بالكليات اليسوعية ، وبعد بضع سنوات ، تأكدت الكاثوليكية من جديد .

وفي ١٦٢٧ م ، اتخذ إجراء هام ، ويجب أن ندرس صفاته عن كثب ، وهو الدستور المجدد أو بصورة أصح براءة البلاد الجديدة .

لقد نشرت هذه البراءة أولاً بالألمانية ، وبعد عام امتدت إلى مورافيا ، ونشر

هذا الدستور الجديد غالباً بصورة خاطئة . فقد قبل انطلاقاً من ١٦٢٧ م أن بوهيميا فقدت صفة دولة ذات سيادة ومستقلة وهذا خطأ . إن الدستور الجديد الذي منحه الملك ، دون تدخل الدياط ، سجل تقدماً عظيماً للسلطة الملكية ، ووجد على خلاف مع دستور ١٦١٩ م . ولكنه وضح دستور (فلاديسلاف) الذي يرجع تاريخه إلى بداية القرن السادس عشر ، بتقريره ان الملكية كانت وراثية ، ولا شك في أن الملك لا يمكن أن يمارس وظائفه إلا إذا توج ، وإن انتقال التاج يؤمن بنظام البكورة أي أن التاج يرجع إلى الابن الأول البكر ذكراً كان أو أنثى . وحق الانتخاب لا يرجع إلى دول بوهيميا إلا في حالة انطفاء السلالة في نسلها المذكر والمؤنث ، وحسب الأحكام التي تتخذها الأسرة الحاكمة .

وظلت هذه الأحكام نافذة المفعول حتى ١٨٤٨ م ، وذلك لأن الأمور في ١٧٤٠ م ، أثناء حرب الوراثة النمساوية ، عندما أصبح ناخب باڤاريا ملكاً على بوهيميا مكان ماريا ـ تيريزا ، لم تمض كما في عام ١٦١٩ م : إن دول بوهيميا لم تنتخب ملكاً جديداً ، ولكنها قررت بين متنافسين ، ناخب باڤاريا وملكة هونغاريا ، أن الوارث الحقيقي هو ناخب باڤاريا . وعليه ظل هذا الدستور لعام ١٦٢٧ م مقبولاً خلال قرنين .

وكان للملك وحده منذ الآن سلطة اقتراح القانون على الدياط . والدياط يقبل أو يرفض القانون المقترح من قبل الملك ، ولكنه لا يأخذ بنفسه زمام المبادهة . وكان على الموظفين الذين يعينهم الملك أن يقسموا له يمين الولاء . وشكل الأساقفة والأحبار منذ الآن الفئة الأولى في الدول . وهكذا ، عوضاً عن ثلاث فئات : (أمراء ، فرسان ، مدن) . حسبت دول بوهيميا أربعاً : (اكليروس ، أمراء ، فرسان ، مدن) . ولكن الدول ظلت تصوت على الضرائب ويجبيها دوماً الموظفون المحليون ، وبقيت (المستشارية) ، ونقلت إلى ڤيّنا ، لأن العاهل يسكن ڤيّنا . ولكن براغ لم تفقد مطلقاً صفتها كعاصمة للمملكة ، وبقيت مقراً للدياط .

لقد بقيت بوهيميا مستقلة وذات سيادة . ومع ذلك ، فإن الصفة السلطوية لدستورها تعارض منذ الآن الصفة الأرستقراطية لدستور بلد مجاور ، هونغاريا ، بالرغم من أن للمملكتين نفس العاهل .

وبقيت قضية اللغة ، فقد قيل غالباً إن هذا الدستور قد حذف اللغة التشيكية ، وأدخل الألمانية ، ولذا يحسن أن نفحص الأمور عن كثب .

لا شك أن الدستور نشر بالألمانية ، ولكن فيا بعد وجدت منه نشرات باللغة التشيكية ، وهو يخول الألمانية بعض الفوائد ، لأن جلسات الدعاوى أمام محاكم البلاد يمكن أن تستعمل اللغة الألمانية ، وأن أعضاء محكمة الاستئناف كانوا ملزمين بمعرفة الألمانية ، ولكن التحقيق في قضية كان يجري دوماً بلغة المتهم .

وأثارت هذه الفوائد الممنوحة للغة الألمانية قضية دقيقة : وهي الوجود أمام محاولة العاهل لفرض لغة على شعب من لغة أخرى ، غريب ، يحاول أن تنزع منه تقاليده الخاصة . وهذا المشروع في نزع القومية لا يتفق مع أفكار العصر . إن الأسباب التي دعت إلى منح امتيازات جديدة للغة الألمانية ترجع إلى اعتبارات عملية واجتماعية . إن الآتين الجدد إلى المملكة ، ولا سيا زعماء الجيش ، الذين منح الامبراطور بعضهم دومينات ، كانوا يطالبون بضمانات ، وفكر القانون أن يقدمها لهم أكثر من أن ينزع من السكان القدامى لغتهم . ولكن قضايا علم النفس الجماعي تكون أحياناً أهم من صفة القانون ، فقد وجد منذ تاريخ مديد حكم مسبق للألمان ضد اللغة التشيكية . وعدا ذلك قام تمثل بين مفهومين : الهرطقة والتعبير باللغة التشيكية لا سيا وأن هذه اللغة لم يكن لها كبير انتشار وتبدو غريبة أو مغلقة . ومع ذلك ، شكل اليسوعيون في كلياتهم كهاناً تشيكيين لغتهم التشيكية ، وطالب هؤلاء الكهان ، في النصف الثاني من القرن السابع عشر بالتقاليد الكاثوليكية لبلدهم . وألفوا مؤلفات وأناشيد باللغة التشيكية ، ولحد ما

جعلوا أنفسهم حماة للغة التشيكية . ونضرب مثلاً لذلك اليسوعي (بوهوسلاف بالبن) .

ولم يمنع هذا حكومة فيّنا والجيش الامبراطوري والمصالح العامة في مختلف دول الامبراطور أن تكون لغتها الألمانية . حتى انه من الممكن أن يتكلم عن خلاف طبقة : إن الطبقة النبيلة ، بالرغم من مقاومة بعض أعضائها ، تبنت أكثر فأكثر الألمانية ، حتى انها اعتبرت التشيكية لغة فلاحين ، ولهجة متخلفة . وانتشر هذا الرأي في البلاد الأجنبية حيث يرى أن اللغة التشيكية لم تكن أهلاً للتعبير عن بعض المفاهيم الحقوقية التي كانت تنتشر بسهولة باللغة الألمانية . ولكن اللغة التشيكية كانت لغة سلافية في وسط (لغات) جرمانية : فالنمساوي مثلاً يفهم بصعوبة ألمانيّاً من الشمال . وفي العصر نفسه ، يرى أن اللهجات السلافية في الأمبراطورية ، مثل : (السورابية) أو : (البوروسية) التي يتكلم بها بعد في بروسيا ، قد ضعفت . وقاومت اللغة التشيكية بشكل أفضل . وفي القرن التاسع عشر ، حين نهضة اللغة الأدبية التشيكية ، قيل بأن أفولها العابر كان سببه القمع المنظم من جانب الحكومة لروح دستور ١٦٢٧ م .

عقوبات وثورات الفلاحين في النمسا ـ العليا

إن العقوبات التي تلت ثورة بوهيميا لم يوح بها عداء خاص ضد الأمة البوهيمية باعتبارها أمة ، حتى ولا ضد الجماعة السلافية ، أي التشيكيين . وقد أعطى الدليل على ذلك مصير النمسا ـ العليا التي كان سكانها ألماناً .

لقد اشتركت النمسا ـ العليا بجزء من طبقتها النبيلة بالثورة ، وعندما استعيد فتحها ، عهد الامبراطور بإدارتها إلى دوق بافاريا ، بصفة رهن لتعويضه عن النفقات التي تكبدها ، لنجدة الامبراطور، بتجهيز جنود لجيش الرابطة الكاثوليكية ، وبقرضه العاهل مبالغ هامة .

أما الطبقة النبيلة التي ثارت ، فقد صفح الأمبراطور عنها بسبب أعضائها الذين لم يفروا إلى الخارج بعد واقعة الجبل الأبيض . لقد سمح لهم أن يبقوا في البلاد ، شريطة أن يدفعوا غرامات ثقيلة جداً . وشكلت لجان ، كما في بوهيميا ، لفحص الحالات المختلفة .

ولكن النبلاء فقدوا امتيازاتهم الدينية ، واحتفظ الامبراطور بحق ممارسة الديانة الكاثوليكية في الدومينات التي لم يصادرها .

وأعطي الرعاة الميشرون ومعلمو المدارس مهلة قصيرة جداً لمغادرة البلاد . وبدلت لجنة التطهير تركيب مجالس المدن وأدخلت في كل مكان ممارسة الدين الكاثوليكي الروماني .

وكانت النتيجة أن بقيت العبادة البروتستانتية بصورة سرية ، إما في القصور حيث ظل الأمراء ، بالرغم من القرارات التي تدخلت في الأمر ، يمارسون العبادة البروتستانتية ، أو في دور الفلاحين حيث كان المؤمنون المقتنعون يأتون لقراءة الكتاب المقدس وغناء المزامير .

وسلك الحاكم البافاري (آدم هربرتستورف) حيال سكان النمسا ـ العليا مسلك الشدة جداً . ولذا لا غرابة إذا تفجرت طويلاً ثورات الفلاحين . وفي بحر سنة ١٦٢٦ م كان الأخطر من ذلك تشكيل جيوش من الفلاحين ، ولكنها سحقت في فرانكنبورغ .

وامتدت الثورة إلى عدة مناطق : المولفيرتل ، في شمال النمسا ـ العليا ، والتراونفيرتل ، حول تراونسيه . وفي فرانكنبورغ ، كانت الإعدامات شديدة جداً ، وحسب طريقة شرسة فظة : يجمع في الساحة الأساسية زعماء القرى ، وضباط المليشات المحلية التي تستخدم عادة للدفاع عن المدن ، ويجبرون على اللعب بالنرد ، ومن يخسر يشنق .

ولذا استمرت الثورات تحت إدارة زعماء فلاحين ، كما ظهر منها من جديد مراراً في تاريخ النمسا حتى التيرولي (أندرياس هوفر) ، في زمن نابوليون . وكان الزعيم الأساسي لهذه الثورات في النمسا ـ العليا آنذاك (فادينغر) .

لقد توقع أن تكون الثورة في أحد عيد العنصرة ، ٣١ أيار ١٦٢٦ م ، ولكنها انفجرت قبل هذا التاريخ بقليل ، في ١٧ أيار ، إثر مشادة عنيفة قتل فيها عدة جنود بافاريين ، في مدينة (لمباخ) الصغيرة .

نصب جيش الفلاحين الأعلام وأخذوا ينشدون الأناشيد وهذا مثال منها :

من نير بافاريا ، من ظلمها
ومن مجزرتها الكبرى
نجنا يا إلهنا ، يا ربنا العزيز
هذا الذي عنده للروح والخير قيمة
وذاك الذي عليه أن يدفع حياته ودمه ثمناً
ربنا هبنا من لدنك شجاعة الأبطال
هذا ما يجب أن يكون

ويجب ألاَّ يفهم من كلمة (الخير) الخير المعنوي فحسب ، أي الفضيلة ، ولكن في هذا المجتمع الريفي أساساً يقصد منها الأرض المُلْك التي أخذت مسحوقة بالضرائب وصودرت ووقع صاحبها في الدمار أو اضطر إلى الفرار .

هذه هي الأصول الأساسية لهذه المرحلة من حرب الثلاثين عاماً ، وليس القصد منها السياسة ، بل الدين دون غيره . لقد كان البروتستانت يناضلون للحفاظ على إيمانهم ، والجيوش الكاثوليكية مكلفة بتوطيد الكاثوليكية ، ولكن طرقها أوجدت ثائرين أكثر من مهتدين .

واضطرت الحكومة إلى التسوية : منحت الثائرين الحرية الدينية ،

وتحسيناً في ظرفهم المادي بالإقلال من الضرائب والأعباء ، ولكن شريطة أن يخضعوا . وكثير من العائلات النبيلة اضطرت آنذاك إلى بيع أموالها ، أراضيها ، ولم تغير دينها . وهاجر قسم من النمسا ـ العليا نحو الأمبراطورية .

إن ما حصل في النمسا ـ العليا يذكر كثيراً ، وربما بشدة أقل في المبدأ ، ولكن بوحشية مماثلة في التنفيذ ، بما مر في بوهيميا .

لقد توطدت حكومة الامبراطور في ١٦٢٨ م . ومن المؤكد أن دور الاحتلال البافاري قد غذى التعلق بالبيت الامبراطوري . فقبل الاحتلال كانت الحياة حرة وطيبة ، ولذلك كانت العودة إلى سلطة الامبراطور المباشرة منتظرة ومرتجاة .

وفي النمسا ـ العليا ، كان النبلاء المتورطون أقل عدداً ، وغادروا البلاد أيضاً ، ومن سمح لهم بالبقاء فقدوا امتيازاتهم الدينية . وعهد بجامعة ڤيّنا إلى اليسوعيين . وفي ذلك الحين ، أي في ١٦٢٧ م ، بوشر ببناء كنيسة الجامعة أو اليسوعيين التي رممت فيما بعد في آخر القرن ، على يد المهندس المعمار والمزين الإيطالي الكبير الأب (بوزّو) ، وإليه يعود المظهر الداخلي الذي تبديه اليوم .

وطرد الأطباء البروتستانت من ڤيّنا ، وحرمت العبادة المصلحة في مدن النمسا ـ الدنيا . وفرض الامبراطور لزوم التعاطف مع العبادة الكاثوليكية ، وكان من السهل اتخاذ التدابير ، ولكن الأصعب تأمين تطبيقها . وبقيت البروتستانتية سرية في قصور النبلاء .

الفصل الثامن

أحداث الحرب بعد الجبل ـ الأبيض

الحرب في ألمانيا وبداية التدخل الدبلوماسي الفرنسي (١٦٢١ ـ ١٦٣١ م)

لم يكتف فرديناند الثاني بالنجاح الذي أحرزه في بوهيميا ، وأراد أن يثأر لنفسه من الناخب البالاتيني . وفي ٢١ كانون الثاني ١٦٢١ م ، أصدر حكماً بوضعه خارج الامبراطورية . وهذا القرار خطير من ناحيتين : أولاً ؛ لأنه اتخذ دون استشارة الدياط ؛ وثانياً : لأنه أدى إلى مصادرة أملاك الناخب وفقدان منصبه الانتخابي . ومع ذلك فقد جمع فريديريك بعض الجنود وغادر براندبورغ وحاول الدخول في دوله ، إلا أن جميع حلفائه تقريباً تخلوا عنه ، واضطر إلى اللجوء إلى لاهاي . أما أعضاء الاتحاد الإنجيلي الذين انضموا إليه ، فأعلنوا للامبراطور خضوعهم الواحد بعد الآخر ، وقرروا ألا يجددوا ميثاق الاتحاد بعد أن انتهت مدته في أيار ١٦٢١ م . وتصالح أمير ترانسلفانيا بيتلن مع فرديناند في معاهدة نيكولسبورغ ، في ٦ كانون الثاني ١٦٢٢ م . وظلت عصابات الزعيمين البروتستانتيين مانسفلد وبرنسويك (المعروف باسم هالبرشتات) تمسك بالبلد وتلاحقها جنود (تيللي) حتى وستفاليا والساكس ـ الدنيا .

وليعرف فرديناند الثاني رسمياً بقراراته المتخذة في ١٦٢١ م ، دعا دياطاً جزئياً[1] ، للانعقاد في راتسبون ، حضره الأمراء الكاثوليك ، في ٢٥ شباط ١٦٢٣ م ، وأعطى هذا الدياط البالاتينا ـ العليا إلى ماكسمليان بافاريا ؛ وعهد

---

(١) الدياط الجزئي DÉPUTATIONSTAG .

بإدارة قسم من البالاتينا ـ الدنيا ، الموضوعة تحت الحراسة ، إلى الاسبانيين ؛ والقسم الآخر إلى البافاريين . وأخيراً نقل المنصب الانتخابي من دوق البلاتينا إلى دوق باڤاريا مدى الحياة . وبدأ في هذا التاريخ نجاح القضية الكاثوليكية : فقد انتصر الإصلاح ـ المعاكس في بوهيميا ، وأصبح عدد الأمراء البروتستانت ، في داخل هيئة السبعة ناخبين ، اثنين عوضاً عن ثلاثة . وعندما اعتلى فيليب الرابع العرش ، في اسبانيا في ١٦٢١ م ، أوصل إلى السلطة محظيه الكونت ـ الدوق (أوليفارس) . وأراد هذا أن يستعيد سياسة فيليب الثاني ويوطد في أوربة قوة الكاثوليكية والمملكة الاسبانية ، بكسر مقاومة الأقاليم ـ المتحدة بعد أن استؤنف العداء معها ، والإمساء بالمواقع الاستراتيجية الضرورية : (الفالتيلين[1]) ، والبالاتينا ـ الدنيا . كما فكر بتعمير القوة البحرية الاسبانية ، وبالانضمام مع ڤيّنا ، توطيد تفوق آل هابسبورغ في بحر الشمال والبالطيك . وفي هذا المنظور ، اهتم أوليفارس بالقضايا الألمانية عن كثب ، وأثر مباشرة على سياسة الامبراطور ، مما زاد في قلق الدول البروتستانتية في ألمانيا ، ومن بعد في أوربة كلها .

ساور القلق الأمراء البروتستانت ، بعد أن رأوا أنفسهم مهددين مباشرةً . ولم تكن هذه حال أعضاء الاتحاد الإنجيلي فحسب ، وإنما الأمراء الآخرين أيضاً : وبخاصة ناخب ساكس الذي كان ينتظر دوماً من فرديناند أن يفي بوعده ويخوله لوزاس . وبعد ، ألا تكون هذه القرارات المتخذة في ١٦٢١ ـ ١٦٢٣ م خطوة أولى نحو إعادة نظر في النظام السياسي الأوربي في اتجاه المركزية ، ونظامها الديني في اتجاه ظفر الكاثوليكية ؟! لذلك حاول الأمراء البروتستانت الاتحاد والبحث عن دعم خارجي لهم :

في فرنسا ، وصل ريشليو إلى السلطة في نيسان ١٦٢٤ م ، وأدرك بوضوح

---

(١) (الفالتيلين ـ LA VALTÉLINE) منطقة في إيطاليا تضم وادي الأدا الأعلى بالقرب من بحيرة كومو .

الخطر الذي تمثله سياسة آل هابسبورغ بشكلها النساوي وبخاصة الاسباني . ولكن السياسة الداخلية شغلته فلم يستطع التدخل مباشرة . ومع ذلك فقد شجع سراً جميع خصوم آل هابسبورغ ، واستطاع الحصول بمعاهدة (مونسون[1]) ، في آذار ١٦٢٦ م ، على انسحاب الجنود الاسبان موقتاً من الفالتيلين بعد أن قدر أهميتها الاستراتيجية .

وبالمقابل ، في أوربة الشمالية ، كان ملك الدانيارك ، كريستيان الرابع ، مستعداً للتدخل . كان لوثرياً ، وأحد أمراء الأمبراطورية ، باعتباره دوق هولشتاين ، وقلق من تقدم السياسة التي تهدده مباشرة وتخاطر بتهديم مشاريعه الخاصة . فقد رأى ، باعتباره مسيطراً على المضائق الدانياركية وعلى مدخل نهر الإيلب ، أن يزيد قوة الدانيارك الاقتصادية في بحر الشمال والبالطيك ، ويؤمن لابنه تملك الأسقفيات بين نهري الإيلب والفيزر : (بريم ، فيردن ، أوسنابروك) . وفي ذلك ما يساعده على السيطرة على أعظم جزء من تجارة ألمانيا الشمالية . بيد أنه كان يخشى أن يتدخل قبله منافسه ، غوستاف ـ آدولف ، ملك السويد ، بعد أن توجه إليه الأمراء الألمان أيضاً . ولهذا تعهد بحلف لاهاي ، في كانون الأول ١٦٢٥ م ، بالدخول في الحرب ضد الامبراطور .

وفي الواقع ، إن ملك الدانيارك لا يمكنه أن يعتمد إلا على قواته الخاصة وعلى عصابات مانسفلد وبرنسويك .

أما انكلترا والأقاليم ـ المتحدة ، فاكتفتا بإرسال عون مالي . ولم يقرر ناخب براندبورغ ولا ناخب الساكس التدخل مباشرة . وثار بيتلن من جديد على الامبراطور وقاتل في هونغاريا بعيداً عن الحدود الدانياركية . وبالمقابل ، لم يشأ فرديناند أن يتبع الرابطة المقدسة ورئيسها ماكسمليان بافاريا ، فعهد ، في

---

(١) مونسون Monçon هي في الانكليزية : (مونزون ـ Monzon) وتقع في إقليم كاتالونيا في اسبانيا .

نيسان ١٦٢٥ م . إلى فالدشتاين (فاللنشتاين) بتجهيز الجيش الامبراطوري وقيادته . وألبرت فالدشتاين (١٥٨٣ ـ ١٦٣٤ م) ، كما رأينا ، نبيل تشيكي اعتنق الكاثوليكية ، وأثرى كثيراً بعد مصادرات الأملاك البروتستانتية ، في ١٦٢٠ م ، وأسس لنفسه دومينا واسعاً على حدود بوهيميا وسيليزيا ، وعرف هذا الدومين باسم دوقية (فريدلاند) وأصبح فالدشتاين من أضخم دائني الامبراطور ، وحمل في ١٦٢٣ م ، لقب أمير امبراطورية ، بعد أن أنعم عليه الامبراطور به .

جهز فالدشتاين جيشاً من ٢٠٠٠٠ رجل في ١٦٢٥ م ، وساعده هذا الجيش على قهر مانسفلد في (داسو) ، في آذار ١٦٢٦ م ، وفي ٢٧ آب ١٦٢٦ م ، كان تيللي على رأس جيوش الرابطة الكاثوليكية ، وقهر في (لوتّر) ، في ساكس ـ الدنيا ، كريستيان الرابع ، فاضطر إلى الانطواء إلى الدانيارك . وحاز فالدشتاين من الأمبراطور على لقب (جنرال البحر المحيط والبالطيك) واستولى على أراضي دوقي ميكلامبورغ ، حليفي كريستيان الرابع . وفي ١٦٢٨ م ، حاصر ميناء (شترالسوند) في بوميرانيا .

وهذه السياسة ، التي أوحى بها (أوليفارس) ، أقلقت غوستاف آدولف ، فقرر إرسال جيش اضطر فالدشتاين إلى رفع الحصار . ولما رأى ملك الدانيارك نفسه مهدداً بغزو ، اعترف بغلبه ، ووقع الصلح في ٢٢ أيار ١٦٢٦ م في (لوبيك)[١] . وبموجب هذا الصلح احتفظ بسلامة دوله ، ولكنه تخلى ، مقابل ذلك ، عن كل مزاعم لابنه على أسقفيات الفيزر ، وتعهد بألا يهتم بالشؤون الألمانية .

وقبل بضعة أسابيع ، في ٦ آذار ، نشر فرديناند الثاني براءة إرجاع الأملاك

---

(١) (لوبيك LüBECK) ميناء ألمانيا الغربية ، في إقليم شلزفيغ ـ هولشتاين ، بالقرب من البحر البالطيك .

إلى أصحابها . وبموجبها على البروتستانت أن يردوا طبقاً للتفسير الكاثوليكي في صلح أوغسبورغ ، جميع الأملاك المعصرنة منذ ١٥٥٢ م . وهذا الإجراء ، الذي رأى بعض الكاثوليك أنه غير مناسب ، أثار معارضة شديدة جداً لدى البروتستانت ، ولاسيا ناخبي الساكس وبراندبورغ ، ومع ذلك ، كلف الامبراطور ، في ١٦٣٠ م ، فالدشتاين وتيللي بتطبيق البراءة ، وعند الحاجة بقوة السلاح . واستعادا العشرات من الأسقفيات والأديرة . وهكذا تم انتقال الملكيات ، والتحول الجديد في توازن القوى لصالح الكاثوليك . ومن جهة أخرى ، إن براءة إرجاع الملكيات المنشورة دون استشارة الدياط كانت لها دلالتها المزدوجة ، كالعملية التي جرت في ١٦٢١ م . فقد قوي فردينانـد الثاني بمساندة جيش دوق فريدلاند ، وقرر انتزاع البروتستانتية من ألمانيا ، وتحويل المنصب الامبراطوري إلى سلطة ملكية مطلقة ووراثية . وفيما وراء هذه الأهداف الواضحة ، كانت هذه السياسة المتضامنة مع مدريد تهدف إلى سيطرة البيت النمساوي ، ولكنها زادت في وعي الأمراء الألمان والدول الأوربية لمآربها .

وخارجاً عن الأمراء البروتستانت المعادين لفردينانـد ، كان ماكسمليان بافاريا وعدد من الأمراء الكاثوليك يرجون ظفر الكنيسة الرومانية ، ولكنهم يريدون مقاومة تحويل نظام الامبراطورية ، وعند الحاجة انتخاب ماكسمليان ملك الرومانيين . ومن جهة أخرى ، قلقوا من النفوذ النامي لسفراء أوليفارس لدى بلاط فينّا ، ومكايد دوق فريدلاند ، الذي ارتفع جيشه إلى ١٠٠٠٠٠ رجل وأخذ يجوب ألمانيا كلها بحجة تطبيق براءة إرجاع الملكية ، وينهب بلامبالاة الأراضي الكاثوليكية والأراضي البروتستانتية على حد سواء .

ووعى ريشليو الخطر أكثر من أي وقت مضى ، ولكنه رأى ، بالرغم من أخذ لاروشل ، في ١٦٢٨ م ، أن الوضع الداخلي في فرنسا لم يكن صلباً بعد ليتصور حرباً مكشوفة ضد آل هابسبورغ . ولذا ، خارجاً عن حملتين

عسكريتين قصيرتين ضد دوق السافوا ، حليف أسبانيا ، انتهتا بانتصار (پا دو سوز)[1] في ١٦٢٩ م ، وأخذ (بينيرول)[2] في ١٦٣٠ م ، كان الجهد الأساسي الفرنسي قاصراً على الصعيد الدبلوماسي .

وفي تموز ١٦٣٠ م ، افتتح في راتسبون مجلس لهيئة الناخبين ، بإيحاء من فرديناند الثاني ، لانتخاب ابنه البكر فرديناند ملك الرومانيين ، كخطوة أولى نحو الاعتراف بالصفة الوراثية للتاج الامبراطوري . وعندئذ أرسل ريشليو إلى راتسبون (برولار دو ليون) والأب جوزيف للاتصال بالناخبين الكاثوليك الوحيدين الذين حضروا المجلس ، واستغلال استيائهم بمهارة ، ولا سيا ماكسمليان .

طالب هؤلاء الأمراء ، قبل كل شيء ، عزل فالدشتاين ، وتسريح جيشه . وبعد أن أرضاهم فرديناند ، رفضوا انتخاب ابنه ملك الرومانيين ، في آب ١٦٣٠ م ، وبعد بضعة أشهر اطمأن ريشليو عن ثقة الملك لويس الثالث عشر به غداة (يوم المخدوعين)[3] ، في ١٠ تشرين الثاني ١٦٣٠ م ، وسجل نقاطاً في إيطاليا بالحصول من اسبانيا على جلاء جديد عن الفالتيلين والاعتراف بشارل غونزاغ ، مرشح فرنسا ، دوقاً لمانتو ، في نيسان ـ حزيران ١٦٣١ م . وفي الوقت نفسه ، وقع مع ماكسمليان بافاريا ، في ٣٠ أيار ١٦٣١ م ، حلفاً دفاعياً ، لمدة ثمانية أعوام . وأحرزت الدبلوماسية الفرنسية ، في ذلك التاريخ ، على نجاح عظيم بإثارة عدو آخر للبيت النمساوي ، وهو غوستاف ـ آدولف .

---

(١) (پا دو سوز ـ PAS DE SUSE) مدينة إيطالية في إقليم بيونت في إيطاليا الشمالية .

(٢) (بينيرول ـ PIGNEROL) : مدينة إيطالية في الإقليم السابق نفسه .

(٣) يوم المخدوعين ، سمي بهذا الاسم ، لأن خصوم ريشليو ، ولا سيا أم الملك ماريا دوميدتشي وآن النمسا ، اعتقدوا أن ريشليو فقد حظوته لدى الملك ، فيا كان الكاردينال يتمتع بها .

غوستاف آدولف وفاللنشتاين (١٦٣١ ـ ١٦٣٥ م)

كان غوستاف ـ آدولف يطمح ببسط السلطة السويدية على أوربة الشمالية وبالدفاع عن اللوثرية . وهذا ماجعله يقاوم آل هابسبورغ ، ويتدخل في الشؤون الألمانية . وفي تموز تفاوض مع دوق بوميرانيا ، فوضع تحت تصرفه ميناء (شتتين) ليكون قاعدة انطلاق له . وحصل من دوق براندبورغ على ترخيص باحتلال بعض المواقع الحصينة ، مثل : كوسترين وفرانكفورت على الأودر . ومن جهة الشرق ، أمن مساعدة تركيا وترانسلفانيا وموسكوفيا . وتعهدت له جميعاً بالتدخل ضد عدوها المشترك ، بولونيا . وأخيراً ، في ٢٣ كانون ١٦٣١ م ، وقع مع البارون (شارناسيه) ، رسول ملك فرنسا ، معاهدة (برفالد) مقابل عون سنوي قدره مليون ليرة . وبموجبها تعهد بأن يتدخل في ألمانيا بـ ٣٦٠٠٠ رجل ، ويحترم العبادة الكاثوليكية حيث تكون موطدة ، وألا يحارب حلفاء فرنسا ، ومنهم بافاريا . وتعهد بما يقابل ذلك ملك فرنسا .

وشجع حادث غير متوقع ومأساوي مشاريع غوستاف ـ آدولف : ففي ٢٠ أيار ١٦٣١ م ، أخذت جنود تيللي ماغدبورغ ، عملاً بتطبيق براءة إرجاع الأملاك إلى أصحابها ، ورافق هذا الحادث حريق المدينة . فهال جميع الأمراء البروتستانت ، حتى ان بعضهم ، كناخب ساكس ، كانوا مترددين أمام تعبئات غوستاف ـ آدولف ، فاصطفوا صراحةً إلى جانبه وعهدوا إليه بتوجيه العمليات . وفي ١٧ أيلول ١٦٣١ م ، سحق ملك السويد ، على رأس الجيوش السويدية والساكسونية ، الجيوش الامبراطورية بقيادة تيللي ، في (برايتنفلد) ، بالقرب من ليبزيغ . وغداة هذا النصر المؤزر ، الذي بدا للبروتستانت كثأر للجبل ـ الأبيض ، أصبح فجأة (أسد الشمال) حكماً على الوضع في أوربة . وتملك الذعر بلاط فينّا ومدريد . وبدأ فرديناند الثاني بمحادثات نشيطة مع فاللنشتاين لإقناعه باستلام قيادة الجيوش الامبراطورية . وأخذ القلق يظهر في باريس أمام

هذا النجاح البروتستانتي ، ويبرر تحذير الأب جوزيف : « يجب استخدام الحلف السويدي كالسموم ، قليلها يشفي وكثيرها قتّال » وازدادت مخاوف ريشليو بموقف ملك السويد . وفي الواقع ، ان غوستاف ـ آدولف ، عوضاً عن أن يزحف مباشرة على فينّا ، عهد بهذه المهمة إلى ناخب ساكس ، فدخل براغ في ١٥ تشرين الثاني . وتوجه هو نحو البلاد الكاثوليكية في ألمانيا الرينانية بطريق التورنج ووادي نهر (الماين) . وفي ٢٣ كانون الأول ، دخل ماينس واجتاز الراين . وفيما كانت جيوشه تأخذ ميدانياً مواقعها الشتوية ، رابط في ماينس وطرد الأساقفة والأحبار ، وجرد الكنائس ، ونظم إدارة موقتة . وربما فكر بأن يؤلف من الأسقفيات المعصرنة دوقية فرانكونيا الكبرى لحساب نائبه برنارد دو ساكس ـ ڤيار . وخالف بذلك بنود معاهدة برڤالد . وخشي ريشليو من مرابطة السويديين في ألمانيا الرينانية خشيته من مرابطة الاسبان ، فقرر أن يتخذ الاحتياطات الضرورية باحتلال اللورين عسكرياً . وما كان من دوقها شارل الرابع إلا أن عقد صلات مع جميع المستائين الفرنسيين ، وقام بمفاتحات مباشرة مع غوستاف ـ آدولف .

وفي ربيع ١٦٣٢ م ، رفض غوستاف ـ آدولف ، بالرغم من جهود شارناسيه أن يوقع معاهدة حياد مع الرابطة المقدسة ، وعاود الحرب باجتياح بافاريا وقهر تيللي للمرة الثانية . وجرح هذا الأخير جرحاً مميتاً لدى عبوره نهر (الليش) ، في ١٥ نيسان . وفي ١٥ أيار ، دخل غوستاف ـ آدولف مونيخ وإلى جانبه الناخب البالاتيني فريديريك الخامس ، والعديد من المحكومين التشيكيين . وتوفي فريديريك بعد بضعة أسابيع . وبعد مفاوضات بين الامبراطور وفالنشتاين ، قبل هذا الأخير أن يستلم من جديد قيادة الجيش الامبراطوري مقابل فوائد جوهرية : كالوعد بالحفاظ على الأراضي التي يفتحها ، والتوجيه الكامل للعمليات ، والحق بإبرام الهدنات ، وطرد الجيوش الساكسونية من بوهيميا . ثم

قاتل خلال شهرين ملك السويد في منطقة نورامبرغ دون الدخول في عمل حاسم . وقلق غوستاف ـ آدولف من حالة جيشه ، بعد أن ساء تموينه وأهلك المرض عدداً عظيماً منه . فقرر الصعود نحو قواعده في ألمانيا الشمالية . ولحق به فاللنشتاين . وفي ٦ تشرين الثاني ١٦٣٢ م ، وقعت المعركة الحاسمة في (لوتزن) بالقرب من ليبزيغ ، وكانت ملحمة مضطربة ودامية تفوق فيها السويديون بفضل برنارد دوساكس ڤيار ، ولكن ملك السويد توفي في بدء العملية وهو على رأس فرسانه يهم بالهجوم .

لقد استقبلت هزيمة فاللنشتاين وموت غوستاف ـ آدولف بارتياح في باريس . وأفاد زوال هذا الملك آل هابسبورغ بخاصة . وفي الواقع ، في سياق سنة ١٦٣٣ م ، انحل التألب البروتستانتي الذي تألف تحت الإدارة السويدية بالرغم من جهود ريشليو وسفيره (فوكيير) . ونجح المستشار السويدي (آكسل أوكسنستيرنا) الوصي لحساب الملكة كريستين الفتية في الحفاظ على علاقاته مع الأمراء البروتستانت ومدن الراين البروتستانتية وسؤاب وفرنكونيا ، وتعزيز هذه العلاقات ، وتأليف اتحاد (هايلبرون[1]) ، في ٢٣ نيسان ١٦٣٣ م ، ولكنه اصطدم بمقاومات ناخب ساكس ، الذي حاول أن يتصالح مع الامبراطور ، وناخب براندبورغ الذي أقلقته المزاعم السويدية على بوميرانيا التي يطمع هو بها .

ومن جهة فاللنشتاين ، فقد انسحب غداة واقعة لوتزن مع جنوده إلى دوقيته ، فريدلاند ، وأخذ يلعب لعبة شخصية ، وربما فكر بتاج بوهيميا . وبينما يفاوض الساكس بأن الامبراطور اعترف له بهذا الحق ، اقترح سراً خدماته على السويد وعلى فرنسا . ولكن تردداته الدائمة وموقف نوابه الذين تخلوا عنه أفادت الامبراطور . وعندما أعلم بخيانته أمر بقتله في قصر (إغر[2]) لآل هوهنشتاوفن ،

---

(١) (هايلبرون ـ HEILBRONN) مدينة وميناء في ألمانيا الغربية على نهر النيكار في إقليم باد ـ فرتامبرغ .

(٢) (إغر ـ EGER) مدينة في الشمال الغربي من بوهيميا في تشيكوسلوفاكيا .

في ٢٤ شباط ١٦٣٤ م ، عندما كان يتأهب للجوء عند السويديين .

وبعد بضعة أشهر ، غلبت الجيوش الامبراطورية تساندها النجدات الأسبانية بقيادة (غالا) الجيوش السويدية في (نوردلنغن[١]) ، في ٦ أيلول ١٦٣٤ م ، بعد أن أضعفها تنافس زعمائها . وأدت هذه الهزيمة إلى انهيار السويديين في ألمانيا الرينانية والدانوبية ، وانفكاك ناخب ساكس . وفي الواقع ، وقع هذا الأخير مع الامبراطور ، في ٢٤ تشرين الثاني ١٦٣٤ م ، مقدمات الصلح في (بيرنا[٢]) وتمت المصادقة عليها في براغ ، في ٣٠ أيار ١٦٣٥ م .

- حافظ هذا الاتفاق على صلح أوغسبورغ ، ووافق على تسوية لإرجاع الأملاك المعصرنة سابقاً بالإبقاء على حالة واقع عام ١٦٢٧ م لمدة ٤٠ عاماً . ونص على عفو عام ، وحل الرابطات : اتحاد هايلبرونّ والرابطة المقدسة ؛ واعترف ناخب ساكس بتحويل المنصب الانتخابي ، وبالأراضي البالاتينية في الضفة اليسرى لنهر الراين لدوق بافاريا . وأخذ بالمقابل اللوزاس التي وعد بها قبل الجبل - الأبيض . وأخيراً دعا جميع الأمراء والدول الألمانية للجنوح إلى السلام . وهذا ما فعله في الأشهر التالية أهم الأمراء ولا سيا ناخب براندبورغ .

وإذا استطاع اتفاق بيرنا - براغ ، في أسوأ الشروط ، أن يفيد أساساً لمصالحة عامة في ألمانيا ، فلم يجب في شيء اهتمامات أسبانيا وفرنسا . ففي مدريد اهتم أوليفارس أكثر من أي وقت مضى بتعزيز مواقعه الاسبانية في المنطقة الرينانية ، بعد حذف السويديين . وفي باريس ، لم يقلق ريشليو من النجاح العسكري والدبلوماسي الذي أحرزه الامبراطور فحسب ، بل أكثر من ذلك أيضاً ، من دسائس السياسة الاسبانية . ولمحاولة دفع هذا الخطر المزدوج صادر في ١٦٣٤ م ، دوقية اللورين واحتلها بكاملها ، واستجاب لنداء كثير من أمراء ومدن الألزاس ،

---

(١) (نوردلنغن - NÖRDLINGEN) مدينة في ألمانيا الغربية في إقليم بافاريا .

(٢) (بيرنا - PIRNA) مدينة ألمانية في إقليم ساكس .

ووضع حاميات في بعض المواقع الألزاسية . وفي آذار ١٦٣٥ م أمر دوق (روهان) باحتلال الفالتيلين .

وعلى الصعيد الدبلوماسي ، أبرم في ١٦٣٥ م ، معاهدات تحالف :

١ ـ معاهدة باريس ، في ٨ شباط ، مع الأقاليم ـ المتحدة .

٢ ـ معاهدة (كومبين) ، في ٢٨ نيسان ، مع السويد .

٣ ـ معاهدة ريفولي ، في تموز ، مع أدواق السافوا ، ومانتو ، وبارما .

٤ ـ وقع اتفاقاً ، في تشرين الأول ، مع برنارد دو ساكس ـ ڤيار النائب السابق لغوستاف ـ آدولف ، وبموجبه دخل في خدمة فرنسا ، وأخذت على عاتقها ١٨٠٠٠ رجل من الجيش الفياري ، وضمنت له لاندغرافيا الألزاس وهاغينو مقابل الوعد بالحفاظ على الكاثوليكية .

وحان الوقت لتنتقل فرنسا من الحرب (المبطنة) إلى الحرب المكشوفة . واتخذ لويس الثالث عشر حجة احتلال الاسبان لحصن تريف وتوقيف أميرها الناخب المحايد والموضوع تحت حماية فرنسا ، في آذار ١٦٣٥ م ، فأعلن الحرب على ملك اسبانيا فيليب الرابع ، في ١٩ أيار ١٦٣٥ م .

حرب ١٦٣٥ ـ ١٦٤٢ م

إذا أخر ريشليو بقدر ماستطاع التدخل في النزاع ، فذلك لأنه يعلم أفضل من أي كان الحالة الحرجة التي ستكون فيها فرنسا . فقد رفض الحزب التقي الورع علناً الأحلاف البروتستانتية والحرب ضد البيت النمساوي بطل الإصلاح ـ المعاكس ؛ والحالة المالية محزنة ويرثى لها ، والنزاع يتطلب نفقات عظيمة ، والجيش ضعيف وسيء التجهيز والقيادة .

لذا فإن النزاع ضد البيت النمساوي ، بعد أن أعلن الامبراطور بدوره الحرب على لويس الثالث عشر في ١٦٣٦ م ، بدأ بشكل سيء بالنسبة لفرنسا . فقد أخفق

غزو البلاد ـ المنخفضة بجيوش الماريشال دو (بريزيه) بشكل ذريع ، واستولى الاسبان على سان ـ جان ـ دو ـ لوز[١] ، وجزر (لين[٢]) ١٦٣٥ م . وفي السنة التالية اجتاحت جيوش (الكاردينال ـ انفان) ، أخي فيليب الرابع ، والحاكم الجديد للبلاد ـ المنخفضة ، إقليم بيكارديا ، وأخذت (كوربي) في ٧ آب ١٦٣٦ م .

ومن جهة الامبراطوريين بقيادة غالاّ ، فقد رابطوا في منطقة الفرانش ـ كونته وحاصروا (سان ـ جان ـ دو ـ لون[٣]) في آخر تشرين الأول . ومع ذلك فقد كان الحظ أقل بكثير مما بدا بادئ بدء . لقد قاومت سان ـ جان ـ دو ـ لون جميع الهجمات ، وغطت على هذا النحو إقليم البورغونيا . أما الجيوش الاسبانية التي أخذت كوربي فكانت سيئة التموين وتفرقت ، واستعادت الجيوش الفرنسية المدينة بسهولة في تشرين الثاني . وفي الوقت نفسه ، أحرز السويدي (بانر) في الساكس نصراً هاماً ، في (فيتستوك) ، في ٤ تشرين الأول ، ولكنه لم يحسن استغلال نجاحه .

وكانت سنة ١٦٣٧ م مضطربة ومترددة على الصعيد العسكري ، ومات فيها الامبراطور فرديناند الثاني ، في ١٥ شباط ، وخلفه ابنه فرديناند الثالث امبراطوراً بعد أن انتخب ملك الرومانيين قبل بضعة أسابيع . وتابع الامبراطور الجديد سياسة أبيه دون كبير حماسة واندفاع ، وحاول جهده أن يحافظ بشكل أفضل على عدم التقارب بالنسبة لمدريد .

---

(١) (سان ـ جان دو ـ لوز : St - Jean - DE - LUZ) مدينة رئيسية في إقليم البيرينه الأطلسية في فرنسا .

(٢) جزر (لين ـ LÉRINS) اسم لجمع من الجزر في البحر المتوسط تجاه جبال الألب البحرية . أكبرها : القديسة مرغريت ، والقديس أونورا .

(٣) (سان ـ جان ـ دو ـ لون : St - Jean - DE - LOSNE) مدينة فرنسية قاعدة إقليم الكوت دور على نهر الصون .

وفي سياق السنوات التالية (١٦٣٨ ـ ١٦٤٢ م) أحرزت فرنسا وحلفاؤها نجاحات هامة على مختلف مسارح العمليات . فمن جهة البلاد ـ المنخفضة ، كانت الحرب حرب حصار ، فبفضل تحالف الهولانديين الذين يمسكون بجزء من الجيوش الاسبانية ، نفذ الفرنسيون إلى منطقة (آرتوا) واستولوا تباعاً على (هسدن) ، في ١٦٣٩ م ؛ و (آراس) ، في ٩ آب ١٦٤٠ م ؛ و (باپوم) ، في ١٦٤١ م .

وفي **الألزاس** ، استقر برنارد دو ساكس ـ ڤيار ، بصلابة على الراين ، ثم عبر النهر وحاصر (بريزاخ) ، وهي موقع حصين وذو أهمية عظيمة لإشرافه على طريق الفرانش ـ كونته نحو الامبراطورية ؛ وعلى طريق منطقة ميلانيا نحو البالاتينا والبلاد ـ المنخفضة . ولذا تأثرت ڤيّنا ومدريد بشدة على سقوط هذه المدينة ، في ١٧ كانون الأول ١٦٣٨ م . ودمر الأميرال الهولاندي (ترومب) أسطولاً اسبانياً قوياً بكامله ، وضرب الاسبان ضربة قاسية . وبعد الطريق البري ، قطع الطريق البحري نحو البلاد ـ المنخفضة . وفي الوقت نفسه كانت نهاية أحلام أوليفارس في السيطرة التجارية البحرية في بحار الشمال . وبعد فترة على أخذ بريزاخ ، مات ساكس ـ ڤيار ، في ١٨ تموز ١٦٣٩ م ، وخلص ريشليو من القلق الذي يسببه له هذا الحليف الفدم الطموح ، وساعد فرنسا على استخدام الجيوش الفيارية وإدارة بريزاخ والقسم الأعظم من الألزاس مباشرة .

واستغل ريشليو بمهارة انفصال البرتغال عن اسبانيا ، وثورة كاتالونيا ، في ١٦٤٠ م ، ووقع معاهدة حلف مع البرتغاليين ، في الفاتح من شباط ١٦٤١ م ، وأرسل جيشاً للكاتالانيين الذين نادوا بلويس الثالث عشر كونت بارشلونة ، في شباط ١٦٤١ م . وفي سنة ١٦٤٢ م ، استقر جيش الماريشال (لاميّريه) في إقليم روسيون واستولى على (بربينيان) ، في ٩ أيلول .

وفي ألمانيا ، اجتاحت جيوش بانر السويدية سيليزيا وشمال بوهيميا (١٦٣٩ ـ ١٦٤٠ م) . وعندئذ جمع فرديناند الثالث الدياط ، في راتسبون ، بغية الحصول

على معونـات مـاليـة جـديـدة من الأمراء الألمـان (١٦٤١ م) . ولكن هـؤلاء قاوموا ، بالرغم من أن الامبراطور دخل بفتح مفـاوضـات مع فرنسـا والسويـد في وستفاليا .

أمـا الأمراء البروتستـانت ، وبخـاصـة من تجمعـوا وراء نـاخب برانـدبـورغ الجديد ، فريديريك ـ غليوم الشاب ، فقد استبشروا خيراً بالنجاحات الفرنسيـة والسويدية ، وفكروا بطرح نظام پيرنا ـ براغ على بساط البحث . وضعف أيضـاً وضع الامبراطور بالهزيمة ، التي فرضهـا على الامبراطوريين ، في ٢ تشرين الثـاني ١٦٤٢ م ، (تـورتنسـون) خلف بـانر على رأس الجيـوش السـويـديـة في معركـة برايتنفلد الثانية . وبعد شهر ، في ٤ كانون الأول ، توفي ريشليو في باريس . وفي ١٤ كانون الثاني ١٦٤٣ م ، فقـد خصمـه القـديم أوليفـارس حظوتـه بنتيجـة الهزائم المتتابعة لسياسته . وفي هذا التاريخ بلغ الإعياء مداه ، ولا سيا في ألمانيـا ، وشرع يعدّ سبل السلام .

حرب ١٦٤٣ ـ ١٦٤٨ م

ومع ذلك ، حاول فيليب الرابع الإفادة من موت ريشليو ومن حالـة لويس الثالث عشر الصحيـة الضعيفـة ، ونظم في ربيع ١٦٤٣ م ، هجومـاً عظيمـاً بـاتجـاه باريس . وجمع حاكم البلاد ـ المنخفضـة الجـديـد (دون فرانشيسكو ميلو) جيشـاً يربو على ٢٥٠٠٠ رجل وحـاصر روكروا ، وهو حصن صغير على جـانب وادي نهر الـواز الأعلى . وعين لـويس الثـالث عشر ، لقيـادة الجيش المكلف بـإيقـاف الاسبـان ، الابن البكر للأمير كونـده ، وهو الشـاب دوق (آنغن) ، ولم يكن لـه من العمر غير ٢٢ عـامـاً . وفي ٩ أيـار ، سحـق آنغن ، بفضـل تفكيره وتقريره وحسن تـدبيره وجرأتـه ، أمـام روكروا ، جيش المشـاة المخيف ، جيش (الترسيوس) المشهور بـأنـه لا يقهر ، فقـد بلغت الخسـائر الاسبـانيـة ٨٠٠٠ قتيل و ٧٠٠٠ أسير ، ولم تستطع جيوش الملـك الكاثوليكي النهوض بسبب خطورة هـذه

الخسائر ، وكان النصر الفرنسي حادثاً هاماً .

ومن جهة أخرى ، وخلافاً لآمال بلاط ڤيّنا ومدريد ، قرر مازارن حالاً متابعة عمل ريشليو . ففي ألمانيا ، حيث لم يستطع الماريشال (غيبريان) ، على رأس الجيش الفيماري ، اجتياح بافاريا ، استعيض عنه في ١٦٤٤ م بالفيكونت الشاب (تورين) ثاني أبناء بيت (بويون) وابن أخ أمراء أورانج . واستطاع هذا القائد بمساعدة جيوش آنغن أن يطرد من (فريبورغ ـ أن ـ بريسغو) ، البافاريين بقيادة (مرسي) . وبعد أن تحول تورتنسون فترة عن شؤون ألمانيا بحرب ظافرة ضد الدانيمارك (١٦٤٣ ـ ١٦٤٥ م) ، ومعاهدة (برومسبرو[1]) ، في ١٣ آب ١٦٤٥ م ، اجتاح من جديد بوهيميا وموراڤيا على أمل الانضمام إلى أمير تراتسلفانيا الجديد ، خلف بيتلن ، جورج راكوتشي . ولكن العملية أخفقت ، وتخلى تورتنسون عن بعض الحاميات وذهب بجنوده إلى ساكس . وتابع تورين هجومه على النمساويين ـ البافاريين بقيادة مرسي ، وقهرهم في نوردلنغن ، في ٣ آب ١٦٤٥ م ، ومات مرسي في المعركة . وفي السنة التالية ، انضمت الجيوش الفرنسية في هسّ إلى الجيش السويدي بقيادة (ورانجل) ، خلف تورتنسون . ودخل الفرنسيون ـ السويديون بافاريا ، حيث ملّ الدوق ماكسمليان من فرض الاقتطاعات على بلاده دورياً وبانتظام ، وساءه القليل من النجدات التي يرسلها إليه الامبراطور ، فقبل أن يوقع هدنة (اولم) ، في ١٤ آذار ١٦٤٧ م . ولكنه علم أن تورين يواجه حركة تمرد في صفوف جيوشه ، فشكا السلاح بعد بضعة أشهر وتسبب في دفع تورين وورانجل إلى اجتياح بافاريا ثانية ، وقهراه في (تسوسمار شاوزن) ، بالقرب من أوغسبورغ ، في ١٧ أيار ١٦٤٨ م ، وزحفا على ڤيّنا ، فيما اجتاح جيش سويدي آخر بقيادة (كونيغسمارك) بوهيميا ودخل براغ . غير أن نبأ توقيع السلام في (أوسنابروك) ، في ٤ تشرين الأول ، أوقف هذا الهجوم على العاصمة النمساوية .

---

(١) (برومسبرو ـ BRÖMSEBRO) ، مدينة في السويد .

وفي غضون ذلك تتابعت الحرب ضد اسبانيا على عدة مسارح معاً ، بحظوظ مختلفة : ففي كاتالونيا ، التي فكر مازارن بمبادلتها ، حين الأوان ، مقابل البلاد ـ المنخفضة ، لم يستطع آنغن ، وقد أصبح أمير كونده ، بعد وفاة أبيه ، في ٢٦ كانون الأول ١٦٤٦ م ، أن يزيح الاسبان عن (ليريدا) ، في ١٦٤٧ م .

وفي إيطاليا ، لم تستطع فرنسا الحصول على نصر حاسم أيضاً . وبعد أن تورط النفوذ الفرنسي ، خلال فترة من الزمن ، توطد أخيراً في السافوا ، ولكن جميع الهجومات أخفقت ضد ميلانيا . وثار سكان نابولي ، بقيادة صياد السمك (مازانيللو) ، في ١٦٤٧ م ، من متطلبات الحاكم الاسباني ، فانتهز مازارن هذه الفرصة للتدخل ، ونودي بهنري دوغيز دوقاً على نابولي ، ولكنه لم يستطع التماسك والصمود في هذا البلد .

وفي البحر المتوسط ، ضرب الشاب (أوربن دومابيه ـ بريزيه) الأسطول الاسباني مراراً ، ولكنه قتل ، في ١٦٤٦ م ، في محاولة للاستيلاء على (أوربيتيللو) .

وبالمقابل ، في البلاد ـ المنخفضة ، أجبر كونده مدينة دنكرك على الاستسلام في ١٦٤٦ م . وبعد عامين ، وبالرغم من انفكاك الهولانديين بعد أن وقعوا صلحاً منفرداً مع الاسبان ، سحق في (لانس) ، في ٢٠ آب ١٦٤٨ م ، جيشاً اسبانياً يفوق عدداً بقيادة الأرشيدوق ليوبولد ، حاكم البلاد ـ المنخفضة . وبعد بضعة أسابيع وقع السلام في وستفاليا .

معاهدات وستفاليا

إذا قبل الامبراطور وفرنسا والسويد المفاوضات في وستفاليا منذ ١٦٤١ م ، فإن المؤتمرات المنوي عقدها لم تفتتح فعلاً إلا في ١٦٤٤ م .

عقدت المؤتمرات في مدينتين :

الأولى ، مونستر ، ففيها اجتمع تحت وساطة القاصد الرسولي ورسول البندقية ، ممثلو الامبراطور ، وأمراء ، ومدن الامبراطورية ، وملك اسبانيا ، وملك فرنسا ، والأقاليم ـ المتحدة ، والكانتونات السويسرية وعدة دول إيطالية . وترأس الوفد الفرنسي رسمياً الدوق دولونغفيل ابن حمي كونده ، وفعلياً كان موجه الوفد الكونت (دافو ، وآبل سرفين) ، وهما دبلوماسيان ممتازان ومعاونان سابقان لريشليو . ويمثل الامبراطور (تراوتمانسدورف) ؛ و (بينارآندا) ، ملك اسبانيا .

الثانية : أوسنابروك ، وفيها نوقشت الشؤون التي تهم السويد والامبراطورية . وكان يوجه الوفد السويدي جان أوكسنستيرنا ، ابن المستشار .

وبالرغم من أن المؤتمرين منفصلان ، إلا أنهما كانا يتفاوضان معاً ويكثران مبادلة الرسائل والمذكرات ، ويتخذان باتفاق تام قراراتها كلها .

بدت المفاوضة المزدوجة في الحال نشيطة : أولاً لأنه لم يكن لأحدٍ منهم رغبة خاصة في أعماقه للتفاوض . وكان كل واحد يأمل دوماًبفوز عسكري حاسم ؛ وأيضاً لأن القضايا كانت متعددة ومعقدة . ومنذ ١٦٤٤ م ، أبدى الفرنسيون والسويديون مزاعمها ولم يقبل بها آل هابسبورغ ، ولم يطالبوا بتوطيد الوضع السياسي والديني ، الذي كانت عليه ألمانيا عام ١٦١٨ م ، فحسب ، وإنما أيضاً بـ « ترضيات » أرضية ثمناً لتدخلاتهم وضمانات للمستقبل . وفي ذلك مايحرم الامبراطور من جميع الفوائد المكتسبة بين ١٦١٩ و ١٦٣٥ م . لذا رد عليهم آل هابسبورغ محاولين انقسام التألب الذي شكل ضدهم . وفي هذا الاعتبار ، سجلت اسبانيا نقطة بتوقيع سلام منفرد مع الأقاليم ـ المتحدة التي أقلقتها مشاريع مازارن المتعلقة بالبلاد ـ المنخفضة . وبموجب معاهدة مونستر ، في ٣٠ كانون الثاني ١٦٤٨ م ، اعترف باستقلال الأقاليم ـ المتحدة ، وخولت عدة فوائد تجارية : حق

إغلاق أفواه الإيسكو ، وأرضية : بالتنازل لها عن إدارة بلد العمومية (الدائرة المالية) . وعن الوكالات المفتوحة خارج أوربة .

وتحررت اسبانيا من كل قلق عسكري من هذه الجهة ، واعتمدت على اللاشعبية المتزايدة في فرنسا ضد حكومة مازارن ، وقررت متابعة النزاع ، حتى ان الهزيمة التي لحقت بها في (لانس) ، في ٢٠ آب ، لم تستطع النيل من تقريرها وعزمها .

وبالمقابل ، كان الامبراطور مثقلاً بضغط حلفائه الألمان ، ولا سيما دوق بافاريا الذي دمره امتداد الحرب ؛ كما كان مهدداً في دولة الوراثية ، وفي عاصمته نفسها ، بهجوم مزدوج فرنسي ـ سويدي ، في صيف ١٦٤٨ م ، وقبل التخلي عن ملك اسبانيا ، ووقع السلام مع فرنسا والسويد ، في ٢٤ تشرين الأول .

إن مجموع النصوص المعروفة تحت اسم معاهدات وستفاليا يكرس إخفاق طموحات آل هابسبورغ فينّا ، وانتصار السياسة الفرنسية . وفي الواقع ، فرضت المعاهدات على فرديناند الثالث الحفاظ على الانقسام الديني في الامبراطورية ، وضعف السلطة الامبراطورية : فلم تثبت بنود صلح أوغسبورغ فحسب ، بل إن الكالفنيين تقاسموا منذ الآن مع اللوثريين جميع الفوائد المخولة لهؤلاء . وفوق ذلك ، إذا ظل الأمراء ، بموجب المبدأ « من يتبعه الإقليم يحق له فرض الدين » ، سادةً في تحديد دين دولتهم رسمياً ، فإن السكان الذين لا يتبعون خيار الأمير ، اعترف لهم بحق البقاء في البلد وممارسة عبادتهم فيه بصفة خاصة . أما ما يتعلق بقضية عصرنة الأملاك الكنسية ، فقد تقرر الاعتراف بحالة واقع الفاتح من كانون الثاني ١٦٢٤ م ، وقبولها دوماً . وفي هذا ما أجبر الكاثوليك على التخلي تقريباً عن كل عملياتَ إرجاع الأراضي لصالحهم بموجب براءة ١٦٢٩ م .

وهذه البنود المختلفة التي تضع حداً لحروب دينيةٍ دامت أكثر من قرن في

ألمانيا ، تظهر كما لو كانت هزيمة للإصلاح ـ المعاكس . ولذلك رفض البابا المصادقة عليها وأعلنها (باطلة إلى الأبد) .

وباسم (الحريات الجرمانية) خفضت فرنسا وحلفاؤها جهد المستطاع سلطات الامبراطور في الامبراطورية ، بتعزيز سلطات الأمراء . وفي الواقع ، إن تعزيز سلطات الأمراء لم يشل الامبراطور فحسب ، بل الدياط نفسه أيضاً ، وأدى إلى خلق (فوضى بنيوية) في ألمانيا . ومن جهة أخرى ، استعاد ابن فريديريك الخامس البالاتيني منصبه الانتخابي والبالاتينا الرينانية ، فيما حافظ دوق بافاريا على لقبه ناخباً وعلى البالاتينا العليا . وأصبح الناخبون البروتستانت منذ الآن ثلاثة ، مقابل خمسة كاثوليك ، في داخل الهيئة الانتخابية التي ارتفع عدد أعضائها إلى ثمانية أعضاء . واحتفظت الساكس باللوزاس ، وأعيدت الميكلامبورغ إلى دوقها . وأخذ أمير براندبورغ الأسقفيات المعصرنة في هالبرشتات وميندن ، والقسم الأعظم من بوميرانيا الشرقية ، وأبرشية ماغدبورغ عند وفاة مديرها المؤقت . وأتمت هذه البنود بالاعتراف حقاً بالاستقلال الكامل للكانتونات السويسرية ، وإعلان حرية المواصلات على الراين . ووضع هذا النظام الجديد الذي أنشئ على هذا النحو في الامبراطورية تحت ضمانة الدول المتعاقدة ، وفي أولها فرنسا والسويد . وفي ذلك ما يساعدهما على التدخل تلقائياً حسب رغبتها في الشؤون الألمانية .

وفي موضوع الترضيات الأرضية ، حصلت فرنسا على الاعتراف رسمياً بالأسقفيات الثلاث : تول ، متز ، فردن ، وعلى بينيرول ، وبالرغم من بعض الالتباس في النصوص أراده الموقعون ، تنازل فرديناند الثالث ، كامبراطور أو كزعيم للبيت النمساوي ، عن بريزاخ والقسم الأكبر من الألزاس ، باستثناء مدينة ستراسبورغ الحرة وجمهورية ملهوز .

يكمن الغموض الأول في الخلط بين الألزاس ـ العليا والدنيا . لأن الألزاس ـ

العليا ملك للبيت النمساوي ، بينما الألزاس ـ الدنيا أرض امبراطورية فحسب تابعة لأسقفية ستراسبورغ .

والغموض الثاني يتأتى عن مادة أخرى ، وبموجبها يحافظ على التبعية المباشرة للامبراطورية لعشر مدن امبراطورية وبعض الإمارات الألزاسية الأخرى في نفس الوقت الذي يعترف فيه بكامل سيادة ملك فرنسا عليها . وحسب قول سرفين : « يجب الاكتفاء بأن يبقى كل واحد على مزاعمه ، ويوضح المعاهدة كما يريد أن يقول » .

أما السويد ، فقد أخذت بوميرانيا الغربية وجزيرة (روغن) ، وجزءاً من بوميرانيا الشرقية مع مصب الأودر وميناء شتتين ، وميناء (فيسمار) الميكلامبورجي ، وأبرشية بريم (بريمن) وأسقفية (فيردين) . وهكذا تكون قد سيطرت على أفواه الأنهار الكبرى الألمانية : الأودر ، الايلب ، الفيزر . وتم التنازل لها عن هذه الأراضي بصفة إقطاعات امبراطورية . وفي هذا ما يجعل ملك السويد أميراً ألمانياً مع حق الجلوس في الدياط .

لقد قوبلت معاهدات وستفاليا بارتياح في ألمانيا المتعبة والمنهكة القوى . ولكنها لم تأت مع ذلك بالسلام العام في أوربة : فلم تسوَّ قضايا البالطيك بعد ، وبخاصة ما زالت الحرب مستمرة بين فرنسا واسبانيا .

الحرب الفرنسية ـ الاسبانية ومعاهدة البيرينه

لقد أفادت اضطرابات الفروند وثورة باريس وجزء من فرنسا ، ضد مازارن ، اسبانيا ، وساعدتها على متابعة النزاع بالرغم من انعزالها وإعيائها . ولم تستطع الجيوش الفرنسية القيام بأي عمل هام فحسب ، وإنما وجد فيليب الرابع ، في فرنسا نفسها أيضاً ، حلفاء بين محرضي الشغب والتمرد على السلطة القائمة . فقد قاتل تورين ضد الجيوش الملكية في (روتيل) في ١٦٥٠ م . وكونده ، قاهر

روكروا ولانس ، وقع معاهدة مع اسبانيا ، وحاصر روكروا على رأس الجيوش الاسبانية في ١٦٥٣ .

وادرك مازارن أن القرار سيكون أخيراً دبلوماسياً في الغالب ، وأخذ يشدد على عزلة اسبانيا وإثارة أعداء جدد ضدها ، لإجبارها على السلام .

وبعد الكسوف المديد للاضطرابات والحرب الأهلية (١٦٢٥ ـ ١٦٥٠ م) ، دخلت انكلترا المسرح الأوربي . وكان هذا الحادث هاماً في سنوات ١٦٥٠ م . فمنذ قهر كروموبل منافسيه الهولانديين إثر حرب قصيرة ولكنها شاقة في (١٦٥٢ ـ ١٦٥٤ م) ، فكر بالإفادة من النزاع الفرنسي ـ الاسباني للتحالف مع من يعرض ويقدم أكثر من غيره . فكر أولاً بملك اسبانيا على أمل الحط من أهمية فرنسا المشجعة لآل ستوارت والمنافسة التجارية . ولكن الشروط التي قدمها فيليب الرابع ، وهي التنازل عن فتح مدينة (كاليه) ، بدت له غير كافية . وبعد مساومات طويلة ، قرر كرمويل توقيع معاهدة صداقة مع فرنسا في ١٦٥٥ م ، مقابل التنازل عن دنكرك وفوائد تجارية مختلفة . وسبق لانكلترا أن وقعت ، في السنة الفائتة ، اتفاقاً مع البرتغال ، وقطعت علاقتها مع اسبانيا ، ومنذ ١٦٥٥ م ، استولى أسطول انكليزي على جزيرة جامايكا في الآنتيل الاسبانية .

وبصورة موازية ، تدخل مازارن سراً في منازعات الشمال ليحول دون إضعاف الحليف السويدي أمام بولونيا والدانيمارك ، وأولى كل اهتمامه بخاصة في إبقاء الامبراطورية على الحياد ، وساعده على ذلك إعياء معظم الأمراء الألمان ومبادهة مطران ـ ناخب ماينس في إعداد (عصبة الراين) التي انضم إليها الناخبون الكنسيون الثلاثة ، وبعض أمراء ألمانيا الرينانية ، وملك السويد ، باعتباره دوق بريم وفيردين ، وملك فرنسا . وأبرم أعضاء العصبة ، في ١٥ آب ١٦٥٨ م حلفاً دفاعياً لمدة ثلاثة أعوام للحفاظ على معاهدات وستفاليا .

وفي ٢٣ آذار ١٦٥٧ م ، أصبح الاتفاق الفرنسي ـ الانكليزي ، لعام ١٦٥٥ م ، حلفاً دفاعياً ، وبموجبه تعهدت انكلترا بأن تعاون فرنسا بأسطولها وبجيش من ٦٠٠٠ رجل . وبعد بضعة أسابيع ، دخل جيش فرنسي ـ انكليزي ، بقيادة تورين ، الفلاندر وحاصر دنكرك بمساندة الأسطول الانكليزي . وحاول جيش أسباني تحت أمر كونده ودون جوان النمسا ، الابن الطبيعي لفيليب الرابع ، أن يرفع الحصار عن الموقع ، ولكن تورين قهره في ١٤ حزيران ١٦٥٨ م ، في (معركة الكثبان) ، واستسلمت دنكرك بعد بضعة أيام ، وسلمت إلى الانكليز ، بعد أن دخلها لويس الرابع عشر . وفي الأسابيع التالية وقعت ديكسمود ، وغرافولين ، وإيبر ، في أيدي الفرنسيين . وغلبت اسبانيا على أمرها واضطرت للتفاوض .

وفي الواقع ، بدأت مفاوضات ، في تموز ١٦٥٦ م ، في مدريد ، بين الفرنسي (هوغ دو ليونّ) والوزير الاسباني (دون لويس دو هارو) ، ولم تستأنف بجدّ في مدينة (ليون) إلا غداة معركة الكثبان ، في ١٦٥٨ م . وفكر مازارن أن يؤمن ، على وجه الاحتمال ، حقوق إرث اسبانيا ، فاقترح زواج الملك بماريا ـ تيريزا ابنة ملك اسبانيا . وأمام مقاومة فيليب الرابع ، ذهب مازارن مع حاشيته إلى ليون وتظاهر بفتح مباحثات لزواج الملك لويس الرابع عشر بأميرة من الساڤوا ، وأعلم الاسبان بأن فرنسا ستكون في هذه الظروف أكثر تطلباً في موضوع التنازلات الأرضية (في تشرين الثاني ١٦٥٨ م) ، ونجحت (كوميديا ليون) ، وقبل فيليب الرابع ، على الأسس التي اقترحها مازارن ، أن يفتتح من جديد المفاوضات بعد انقطاعها . ومع ذلك فإن هذه المفاوضات التي استؤنفت في باريس ، في شباط ـ حزيران ١٦٥٩ م ، ثم في جزيرة التدارج[1] على نهر (البيداسوا) كانت طويلة وشاقة . وفيما عدا قضية الزواج ، فسحت حالة كونده مجالاً لمناقشات شديدة ، وأخذت نخوة الشرف ملك اسبانيا بألا يتخلى عن المتمرد

(١) التّدارج : ج مفرده تُدْرُج وهو الطير المسمى بالفرنسية Faisan

ويتركه لانتقام لويس الرابع عشر . وأخيراً ، وبعد عدة مؤتمرات بين مازارن ودون لويس دو هارو ، وقعت (معاهدة البيرينه) ، في ٧ تشرين الثاني ١٦٥٩ م ، وتركت اسبانيا لفرنسا الروسيّون ، والآرتوا ، ماعدا منطقة البادوكاليه وعدة مواقع حصينة من الفلاندر ـ إلى اللوكسمبورغ : (غرافولين) ، (كينوا) و (لاندريسي) ، و (آفين) ، وفيليبفيل ، وماريا نبورغ ، ومونميدي ، وتيونفيل .

واستعاد دوق اللورين ، شارل الرابع ، دوقيته ، ولكنه تخلى لفرنسا عن (الكلرمونتوا) ، و (ستينه) ، و (دن) . وخول الجيوش الفرنسية حق ارتفاق للذهاب إلى الألزاس . وقبل كونده أن يكتب إلى لويس الرابع عشر رسالة استرحام وخضوع ، مفوضاً أمره للعفو الملكي . واستعاد حظوته وألقابه وأملاكه . ووقع عقد الزواج في اليوم نفسه ، ونص على تخلي الابنة ماريا ـ تيريزا عن حقوقها بتاج اسبانيا ، مقابل دفع مهر قدره ٥٠٠٠٠٠ (ايكو) ذهبية .

انتقد بعض الفرنسيين المعاهدة بشدة ، ونخص بالذكر الكاتب سان ـ إيفرومون ، فقد لام مازارن على تضحية كسب البلاد ـ المنخفضة للوراثة الاسبانية الوهمية . ولكنها على الأقل أكدت ، بعد معاهدة وستفاليا ، تفوق فرنسا في أوربة .

الحرب في أوربة الشمالية و صلح الشمال

في عام ١٦٤٥ م ، تنازلت الملكة كريستين السويد عن العرش ، وأصبح ابن عمها شارل العاشر غوستاف ملكاً على السويد . ولم تكفه الفوائد التي حصل عليها في اسنابروك ، وأراد استئناف مشاريع غوستاف ـ آدولف الواسعة دون أن يكون لديه الحس السياسي ولا العبقرية العسكرية .

وعندما اشتبكت بولونيا من جديد مع روسيا ، بدت غنية سهلة . وفي سنة

١٦٥٥ م ، اجتاح شارل العاشر غوستاف الدولة البولونية - الليتوانية ، واقترح على فريديريك - غليوم ، ناخب براندبورغ ، تابع بولونيا بصفته دوق بروسيا ، تقسيماً للأراضي البولونية . وفي ١٦٥٦ م ، حبذ فريديريك - غليوم المشروع ، ولكنه مالبث أن تصالح مع بولونيا بموجب معاهدة (ويلاو[1]) ، في ٦ أيلول ١٦٥٧ م ، بفضل المساعي الحميدة التي بذلها الامبراطور فردينانـد الثالث الذي مكنه من الحصول على الاستقلال التام والكامل لدوقية بروسيا . وأجبر انفكاك براندبورغ والمقاومة البولونية ، ولا سيا هجوم الدانيارك على السويد ، شارل العاشر غوستاف على التخلي عن بولونيا . غير أن سلسلة الانتصارات ، التي أحرزها ملك السويد على الجيوش الدانياركية التي هاجمت دوقية بريم والأرض السويدية عن طريق النورفيج ، ساعدته على فرض معاهدة (روسكيلد) ، في ٢٧ شباط ١٦٥٨ م ، على الدانيارك . وأيدت هذه المعاهدة تنازلات معاهدة (برومسبرو) ، في ١٦٤٥ م ، أي جزر غوتلاند وأوزيل ، وأضافت لها التنازلات عن الطرف الجنوبي من شبه الجزيرة الاسكاندينافية : هالاند ، وسكانيا ، وبليكنجي ؛ وعن ميناء تروندهيم النورفيجي .

ولم يكتف شارل العاشر غوستاف بذلك ، ونقض الصلح ، وفي آب ١٦٥٩ م ، هاجم كوبنهاغن ، ولكن العاصمة الدانياركية نجت بفضل نجدات أرسلتها هولاندا التي خشيت من سيطرة السويد سيطرة تامة على بحار الشمال والمضائق . وفي غضون ذلك ، وبعد أن أصبح ناخب براندبورغ حليف بولونيا والامبراطور الجديد ليؤبولد الأول ، اجتاح هولشتاين التي احتلتها الجيوش السويدية في عام ١٦٥٩ م . غير أن مازارن في باريس ، وقد تحرر من القلق الاسباني بمعاهدة البيرينه ، تابع الحوادث عن كثب ، وخشي أن ينجح هذا

---

(١) راجع :

DAVIDOGG, EUROPE IN THE SEVENTEENTH CENTURY P. 448-449, London, 1954.

ويلاو مدينة في بروسيا الشرقية إلى الشرق من كونكسبرغ .

التألب الذي تألف على هذا الشكل ضد السويد ، في قهر هذه الدولة ، ويؤدي في آخر الأمر إلى طرح نظام وستفاليا على بساط البحث من جديد . وباتفاق مع انكلترا وهولاندا ، اقترح وساطته على مختلف المتحاربين .

يتألف (صلح الشمال) من عدة نصوص وقعت في ١٦٦٠ و ١٦٦١ م . فبموجب معاهدة (أوليفا) الموقعة بالقرب من دانتزيغ (غدانسك) ، في ٣ أيار ١٦٦٠ م ، تتخلى بولونيا إلى السويد عن ليفونيا الداخلية ؛ وإلى ناخب براندبورغ ، عن كامل السيادة على بروسيا ؛ وبعد بضعة أسابيع ، وبموجب معاهدة كوبنهاغن ، في ٤ حزيران ١٦٦٠ م ، صادقت الدانيمارك على التنازل إلى السويد عن سكانيا والمناطق المجاورة ، ولكنها استعادت تروندهيم . وأخيراً ، وبمعاهدة (كارديس) ، في الفاتح من تموز ١٦٦١ م ، اعترفت رَوسيا بفقد الأنغري ، والكاريللي ، السويديتين منذ ١٦١٧ م . وهكذا ، بفضل وساطة فرنسا ، بدت السويد أكبر دولة في أوربا الشمالية .

أوربة نحو ١٦٦٠ م

وفي هذه المرة تم بحق عمل وستفاليا وأصبح صلباً متيناً ، فقد توطد السلام العام ، كما كتب لويس الرابع عشر في (مذكراته) بهذه المناسبة عن الحال في أوربة ، عام ١٦٦١ م : « كل شيء هادئ في كل مكان » . ولكن أوربة خرجت من أكثر من أربعين عاماً حرباً متضررة ومثخنة بالجراح ومتحولة .

لقد خلت أوربة من السكان وعم فيها الدمار . وكانت المعادلة محزنة في البلاد التي عبرت منها الجيوش . وفي هذا الاعتبار ، كانت ألمانيا الضحية الكبرى في هذه الكارثة : فقدت المدن الألمانية وسطياً ما يقارب ثلث سكانها ، والأرياف قرابة ٤٠ ٪ . وهذه الأرقام تخفي أيضاً الفروق العظيمة بين مختلف المناطق . فإلى جانب الأقاليم التي بقيت سليمة معافاة ولم ينلها أذى الحرب تقريباً ، كالنمسا وألمانيا الشمال الغربي ، أو نسبياً تأثرت قليلاً ، كبوهيميا ومورافيا ، خسرت

براندبورغ ، وأسقفية ماغدبورغ ، والبـافـاريـا ، والفرانكونيـا ، نصف سكانهـا ؛ وبوميرانيا وميكلامبورغ والفرتامبرغ والبالاتينـا ووادي الراين ، قرابـة الثلثين ؛ وأصيبت الألزاس ، واللورين ، والشامبانيا ، والبورغونيا بأضرار فظيعـة أيضـاً . ومن المؤكد أن إساءات الجيوش لم تكن وحدها المسؤولـة عن هـذه الخسـائر ، لأن بعض السنين والمجاعات والأوبئة أضافت ضحايا . ولكن هذه وتلك وغيرها كانت في الغالب نتائج مبـاشرة أو غير مبـاشرة للنزاع الطويل . إن الارتفـاع العظيم في الوفيات ، وسقوط الزواج والحمل توضح انهيـار سكان بعض المنـاطق . وإلى هـذه الأسبـاب تضـاف هجرة الأفراد الكثيفـة من الهـاربين أمـام رجـال الحرب ، أو المطرودين من بلادهم لأسباب دينية .

وصحب الدمار خلو السكان . فالأقـاليم الألمـانيـة ، التي خلت من السكان ، كانت أيضاً أكثرها عيثاً ودماراً واجتياحاً . وعانت الأريـاف أكثر بكثير مما عـانت المـدن التي كانت في معصم وراء الأسوار ، وأكثر حمـايـة وأقـل ضرراً ، اللهم إلا إذا أخـذت عنـوةً . وهجرت قرى بكاملهـا ، وأصبحت الأراضي بـوراً ، ونمت القفـار والغابات ، وأخذت الذئاب تسرح وتمرح أسراباً في الحقول المجتاحة والخاليـة . وفي سنـة ١٦٤٠ م ، كتب القـائـد بـانر ، الـذي قـاتـل غـالا في الميكـلانبـورغ ، إلى أوكسنستيرنا المستشـار يقول : « في هـذا الإقليم لا يوجـد إلا الرمل والهواء . وكل شيء أتلف حتى مستوى الأرض . وملئت القرى والأريـاف بـالحيـوانـات الميتـة ، والمنازل بالجثث البشرية ، ومن العسير وصف هذا البؤس » .

وإلى الخسائر المادية ، تضاف الهزة المعنوية التي أصيب بهـا السكان الألمـان . إن شراسة النزاع اللامنتهي ، والإفراط في الآلام ، والمنظر اليومي للموت ، ذهبت بـالكثير من الأحيـاء إلى التشكيـك في جميـع القيم ، وعبرت عن نفسهـا بمـوجـة لاأخلاقية شهر بها الوعاظ ، وباللجوء إلى السحر ، وكان الفن صدى لهذا التداعي الروحي .

ومن وجهة النظر السياسية ، لم تكن أوربة ١٦٦٠ م ، على وجه الصحة ، أوربة سنوات ١٦٠٠ م . فالبيت النمساوي لا يمثل خطراً على السلام الأوربي ، وانقسامه إلى فرعين قد تحقق فعلاً . وقبل آل هابسبورغ فينّا ضعف النظام الامبراطوري وشبه استقلال أمراء الامبراطورية . وفي الحقيقة ، في الوقت نفسه ، ان وضعهم قد تعزز في دولهم الوراثية وفي بوهيميا ، حتى ان نظام المملكة الوراثية والجرمنة لم يطرح على بساط البحث في ١٦٤٨ م : لقد مالوا عن ألمانيا ، واتجهوا نحو تأسيس دولة سلالية واسعة ، متحورة على الدانوب وقابلة للتوسع نحو الشرق على حساب الأتراك .

وضعفت اسبانيا عسكرياً واقتصادياً ، بعد أن حرمت من البلاد ـ المنخفضة الشمالية ، ومن الآرتوا والروسيون ، ومن بعد من البرتغال . ولم تعد تحسب بين الدول من الصعيد الأول .

وخرجت انكلترا من عزلتها ، والأقاليم ـ المتحدة مستقلة وموسعة . والسويد مسيطرة على البالطيك ؛ وأصبحت كلها دولاً عظمى ، وهيأها استعدادها البحري لتكون دولاً بحرية متنافسة . ولكن الحادث الأساسي كان التفوق الفرنسي الذي أحرزته فرنسا . فالمملكة ، التي سلمها مازارن المحتضر إلى الملك الشاب لويس الرابع عشر في ١٦٦١ م ، لم تكن أوسع وأفضل حماية بفضل كسب الآرتوا والألزاس والروسيون فحسب ، وإنما أصبحت تتصرف بمجموعة زبائن تضم تقريباً جميع بلاد أوربة من السويد إلى دول إيطاليا الشمالية ، ومن انكلترا شارل الثاني من آل ستوارت إلى أمراء عصبة الراين . واستطاع لويس الرابع عشر بحق أن يعتبر نفسه حكماً على أوربة . وكتب عن كبرياء : « لقد توطد السلام مع جيراني وبشكل يقبل التصور لزمن طويل كما أريد بنفسي » . وما انفك نفوذ فرنسا الفكري والفني والمعنوي في تعاظم وصعود . وبدأ عصر التفوق الفرنسي في أوربة .

الفصل التاسع

فرنسا من ١٦١٠ إلى ١٦٦١ م

لويس الثالث عشر وريشليو

كانت بداية حكم لويس الثالث عشر مشفوعة بالاضطرابات ، ولكن وزيره ريشليو حاول أن يوطد سلطة الملك في الداخل والخارج ، غير أن نظام الحرب الذي فرضه على البلاد أثار مقاومات شديدة .

في ١٤ أيار ، أي في مساء اغتيال هنري الرابع ، طلب المستشار سيلليري من برلمان باريس أن يعلن الملكة ـ الأم ، ماريا دو ميدتشي ، وصية وحيدة على المملكة مدة قصور الملك الجديد ، لويس الثالث عشر ، وكانت سنه آنذاك تسع سنوات . ورضي البرلمان عن هذا المسعى وقبل بالحال . ومارست ماريا دو ميدتشي السلطة من ١٦١٠ إلى ١٦١٧ م أولاً كوصية ، وبعد ٢ تشرين الأول ١٦١٤ م ، وهو تاريخ بلوغ الملك سن الرشد ، كرئيسة للمجلس . كانت إيطالية الأصل ، كسولة متوانية مهملة وعنيدة ، جشعة ومحدودة ، تشعر بالعظمة الملكية ، وتتذوق السلطة ، ولكنها ظهرت غير كفء لممارستها بقوة ونفاذ .

لقد أبقت في البدء مستشاري هنري الرابع (الباربونات[1]) : سولّي ، سيلليري ، ڤيلروا ، جانن ، في وظائفهم ، ولكن سرعان ما تأكد هؤلاء أن الوصية ، صاحبة النفوذ الكبير ، تنقاد في الواقع بأعضاء حاشيتها ، مثل الأب كوتون ، والسفير البابوي أوبالديني ولا سيا أختها في الرضاع (ليؤنورا

---

(١) الباربونات Les Barbons .

غاليغاي) وزوجها (كونتشيني) ، وكان هذا شخصاً تافهاً طموحاً وقحاً خالياً من الحس السياسي ، وما لبث أن غمر بالشرف وأصبح ماريشالاً ، ومركيز دانكر ، وحاكم بيرونّ . وتحت تأثيره اتجهت ماريا دو ميدتشي نحو سياسة كاثوليكية ومحبذة لاسبانيا . وبموجب هذه السياسة تم الاتفاق بين باريس ومدريد على زواج لويس الثالث عشر مستقبلاً بابنة ملك اسبانيا البكر ، وعلى زواج أخت الملك بأمير الآستوري . وكان سوللي يخالف هذه السياسة ، وقدم استقالته ، في كانون الثاني ١٦١١ م ، ولكن زملاءه الذين قبلوا بأن يكونوا صناع هذه السياسة ظلوا في وظائفهم .

غير أن التقارب مع اسبانيا الكاثوليكية والفضل الذي تمتع به ماريشال دانكر أثارا استياءات أخرى .

أولاً : **استياء البروتستانتيين** ، فقد كانوا قلقين جداً بالرغم من تأييد الوصية لبراءة نانت[1] ، وعقدوا في سومور مجلساً عاماً تحت رئاسة (دوبليسي - مورنيه) ، عام ١٦١١ م ، حضره كبار الأمراء البروتستانتيين : دوق بويون ، أمير عاهل سودان ، أدواق (تريموال) ، (سوبيز) ، (لافورس) ، (شاتيون) وبخاصة الدوق القوي هنري (دو روهان) ، صهر سوللي والزعيم المفترض للحزب البروتستانتي . وقرر المجتمعون تقسيم المملكة إلى (دوائر) لها مجالس دائمة ، واحتفظوا بمواقع الأمن لمدة خمس سنوات أخرى . وهذه الأعمال ليست إلا احتياطات ، ولكنها ذات دلالة .

ثانياً : **الكبار** . بدؤوا يتحركون ، مثل أمراء كونده وكونتي وكونت سواسّون ، الذي توفي في عام ١٦١٢ م - وهؤلاء أمراء دم أبعدوا عن مجلس الوصاية - وأدواق أنغوليم ، وفاندوم - وهم أولاد سفاح من دم ملكي - ، ودوق

---

(١) براءة نانت هي البراءة التي أصدرها الملك هنري الرابع في نانت في ١٣ نيسان ١٥٩٨ م لتسوية الوضع الشرعي للكنيسة البروتستانتية في فرنسا . راجع تاريخ عصر النهضة الأوربية .

نوفير ، ويمت بقرباه إلى آل غونزاغ في مانتو ، ودوق غيز ، وينتمي إلى بيت له نفوذه في اللورين ، وآل مونمورانسي ، وآل لونغفيل ، وآل أوزيس . وحسدوا كونتشيني على تعاظم سلطته ، ولكنهم كانوا مثله جشعين ونهمين وطموحين ويطالبون باستعلاء بالوظائف والمرتبات . ولتهدئتهم ، كانت الوصية تبدد لصالحهم أموال الخزينة التي جمعها سوللي . بيد أن هذه العطاءات انقطعت في عام ١٦١٣ م لفقدان المال ، وغضب معظم الكبار وغادروا البلاط ، وانعزلوا في الأقاليم ، في حكوماتهم ، حيث اعتمدوا على زبائنهم الخاصين ، وانصرفوا هنا وهناك إلى تسليح أنفسهم . ولتهدئة هذا البدء بالاضطراب ، تفاوضت الوصية ، في سانت ـ مينيهولد ، في ١٥ أيار ١٦١٤ م ، مع أمير كونده ، وتعهدت بأن تخول الكبار مرتبات جديدة ، وتؤجل الزواج الاسباني ، وتدعو المجالس العامة في المملكة . وهذه المجالس لها صفة استشارية ، وتتألف من ثلاث فئات : الاكليروس ، النبلاء ، الفئة ـ الثالثة[1] .

اجتمعت هذه المجالس فعلا في باريس ، في شهر تشرين الأول لنفس السنة ، ولكن النزاع بين الفئات الثلاث شل عملها بصورة كلية تقريباً . فقد طالبت الفئة النبيلة والاكليروس بل وحتى قسم من الفئة ـ الثالثة إلغاء البوليت[2] ، أي النص التشريعي الذي يكرس وراثة الوظائف بالمال ، وكان قد أقر في عام ١٦٠٤ م بمبادرة المالي (بوليه) ، فيما كانت الفئة الثالثة تطالب بحذف المرتبات المخصصة للنبلاء ، وتخفيض ضريبة القامة[3] ، المفروضة على غير النبلاء . وكان

---

(١) الفئة ـ الثالثة : Tiers-état قسم من الأمة الفرنسية في النظام القديم غير تابع لا للفئة النبيلة ولا للأكليروس ، أي فئات الشعب الأخرى .

(٢) البوليت La PAULETTE رسم سنوي يدفعه موظفو العدالة والمالية للملك لتأمين نقل وظائفهم إلى ورثتهم .

(٣) ضريبة القامة La TAILLE ضريبة مباشرة ، في فرنسا ، حتى ١٧٨٩ م،وتفرض على كل من ليس نبيلاً .

الاكليروس يضم بين ممثليه أسقف لوسون الشاب ، ريشليو ، الذي يصغى لـه أكثر من غيره ، ويرجو أن « تقبـل » في فرنسـا قرارات مجمـع (ترانت) ، ولكنـه اصطدم بغالليكانيـة الفئـة ـ الثـالثـة . وهكـذا عنـدمـا افترقت الفئـات ، في آذار ١٦١٥ م ، لم يؤت بأي حل عام ، وبخاصة فيما يتعلق بالمشكلة الماليـة . ومع ذلـك فإن حساب الكبار ، الذين كانوا يأملون في أن يروا المجالس تطـالب بوصولهم إلى المصـالح العـامـة ، قـد أحبـط ، لأن الاكليروس الأرستقراطي ، ولكنـه واضح ، والفئة الثالثة رفضا هذا الاقتراح بوضع الملكية تحت الوصاية .

أمـا الملكـة الأم ، فقـد احتفلت في شهر تشرين الثـاني ١٦١٥ م بـالـزواج الاسباني واستسلمت أكثر فـأكثر لكونتشيني ، بيـد أنها وجـدت نفسهـا أمـام ثورة جديدة للكبار . فقـد شكا كونـده وفـانـدوم السلاح ، بينما جنـد روهـان الجنود البروتستانتية في الجنوب ـ الغربي . وللمرة الثانية ، تفاوضت مـاريـا دو ميـدتشي مع كـونـده ، في (لـودن) ، في ٣ أيـار ١٦١٦ م ، ودخـل المجلس ، ولكنهـا بعـد بضعـة أشهر قلقت من شعبيـة هـذا الأمير ، وأوقفتـه ، في الفـاتـح من أيلـول ١٦١٦ م ، ثم طردت فيلروا وجانن . وعظمت شوكـة كونتشيني ، وأحـاط نفسـه برجال أكفاء مخلصين له ، وبخاصـة ريشليو الـذي دخل المجلس ، مجلس الملكـة ، وحاول أن يرفع في الخـارج جـاه الملـك . أمـا كونتشيني وكل من كان يعمل معـه فقد زالت حظوتهم في أوربة كما في المملكة .

وكانت المفاجأة العـامـة في أن لويس الثـالث عشر ، وهو في سنـه السـادسـة عشرة قرر استلام السلطـة بيـديـه ، والتخلص من كونتشيني . وفي الحقيقـة ، ان أمه وضعته جانباً وأذلـه المحظي كونتشيني ، ولم يعترف بـه الجميع ، وعـاش الملـك الشـاب في العزلـة وشيئـاً فشيئـاً تعلـق بنبيـل بروفـانسي ، من إقليم بروفـانس ، (شارل ألبير دو لوين) اهتم به واستطاع أن يقنعه بتوقيف كونتشيني ومحاكمتـه . وفي الواقع ، قتل هذا الأخير في ٢٤ نيسان ١٦١٧ م بعيار نـاري أطلقـه عليـه دوق

فيتري رئيس الحرس الملكي . وفيما كان الفرح الشعبي يعم باريس ، تخلص لويس الثالث عشر من كل من خدموا (الإيطالي) ، وبخاصة ريشليو ، ونفى الملكة الأم إلى (بلوا) . والواقع أن الملك لم يأخذ السلطة على عاتقه فعلاً ، بل عهد بها إلى لوين . وخلف كونتشيني محظي لا يقل عنه طمعاً وجشعاً واحتقاراً . ومع ذلك فإن لوين ، وإن لم يكن مجرباً ، لا ينقصه الحس السياسي تماماً ، فقد حض لويس الثالث عشر على استدعاء (الباربونات) ودعا مجلس الوجهاء إلى الانعقاد في مدينة (روان) ، في كانون الأول ١٦١٧ م . ولكن النظام أبدى نفس الضعف الذي أبداه النظام السابق ، واصطدم بهذا الواقع ، بنفس المصاعب . ففي ٢١ شباط ١٦١٩ م ، فرت ماريا دو ميدتشي من بلوا ولحقت في أنغوليم بدوق (أيبرنون) . وفضل لوين التفاوض مع المتمردين وتخويل الملكة الأم حكم إقليم آنجو . وأثار هذا الضعف ثورة جديدة ، في حزيران ١٦٢٠ م ، فقد انضمت سواسون ، ومايّن وفاندوم ولونغفيل وزبائنها إلى صف ماريا دو ميدتشي . واستؤنفت الحرب بين الأم والابن وبعثر لويس الثالث عشر الجنود المتمردة في (بون ـ دو ـ سيه) ، في ٧ آب ١٦٢٠ م . وبمساعي ريشليو تصالح مع أمه ، ودخلت هذه باريس ، فيما أخذ أسقف لوسون ، ريشليو ، وعداً بقبعة كردينال ، أي أن يرسم كردينالاً ، جزاءً وفاقاً لمساعيه الحميدة ، وحاول سراً أن يحظى من جديد برضى الملك .

وبقيت **المشكلة البروتستانتية** . ففي أيلول ـ تشرين الأول ١٦٢٠ م ، شخص لويس الثالث عشر ومحظيه ، على رأس الجيوش الملكية ، من آنجو إلى بيارن ، ووطدا العبادة الكاثوليكية ، وأرجعا للكنيسة الأموال التي عصرتها (جانّ ألبريت) أم الملك هنري الرابع ، وربطا بالتاج إقليم نافار وبيارن . وهذه القرارات التي كان يؤجلها الملك هنري الرابع ، دون انقطاع ، أثارت استياء عميقاً عند البروتستانت ، حتى ان بعضهم ثاروا في الجنوب ـ الغربي من البلاد تحت إدارة دو بويون وروهان . وأدرك لويس الثالث عشر ولوين ، الذي سمي قائداً

أعلى للجيش الملكي ، أن وحدة المملكة موضع لعب ، فقررا أن يخضعا الأقاليم البروتستانتية بالقوة : بواتو ، سانتونج ، غويين ، لانغدوك . ولكن ، بعد أخذ (سان ـ جان ـ دانجيلي) ، والإخفاق الذي لاقياه أمام مونتوبان ، توفي لوين فجأة ، في ١٥ كانون الأول ١٦٢١ م .

وتخلص الملك من محظي بدأت شوكته تثقل كاهله ، وتابع حملته ضد البروتستانت وقاتل (سوبيز) دو روهان في بواتو (جزيرة رييز) ، ثم رجع إلى غويين ، ونهب (نيغربيليس) ، وإلى اللانغدوك . وبعد أن حاصر مدينة مونبليه عبثاً ، تفاوض مع روهان ، وجددت براءة نانت بكل موادها وأبقي على الحصون الجديدة في لاروشل ومونتوبان بموجب معاهدة مونبليه ، في ١٨ تشرين الأول ١٦٢٢ م . وهذا الضعف ، إن دل على شيء ، فإنما يدل على فقدان الإدارة الحازمة لشؤون المملكة . وأدرك لويس الثالث عشر ذلك وشكا منه . فقد كان محاطاً بشخصيات ضعيفة منصرفة إلى مكايد مسكينة : مثل كونده ، والشابة آنا ملكة النمسا ، والوزراء سيلليري ، بويزيو ، لافيوفيل ، والملكة الأم التي عقّلها السن وتقدم العمر وأخذت تستعلي على ابنها ، وتنصحه باستدعاء ريشليو الذي اعتمر قبعة الكردينال في ١٦٢٢ م ، ولكن لويس الثالث عشر ظل محتاطاً حيال كونتشيني وأمه . وأخيراً أذعن لإيحاءاتها ، وفي شباط ١٦٢٤ م ، حرم سيلليري وابنه بويزيو من حظوته ، وفي ٢٩ نيسان ١٦٢٤ م ، دعا ريشليو إلى مجلسه . وسلك هذا في البدء مسلكاً فطناً ، وأوقف لافيوفيل لنهبه أموال الخزينة ، وحصل من الملك على منصب (رئيس المجلس) في آب ١٦٢٤ م ، وبدأ دور جديد في الحكم .

ريشليو حتى « العاصفة الكبرى » : ١٦٢٤ ـ ١٦٣٠ م

لقد كان التعاون الوثيق بين الملك ووزيره في أساس النظام الذي أسس على هذا النحو . كانت سن لويس الثالث عشر اثنين وعشرين عاماً في ١٦٢٤ م . كان

شخصية معقدة ، صحته ضعيفة ، وأعصابه بخاصة سريعة العطب . قضى طفولته ومراهقته محروماً من العطف والحنان ، وفي ذلك ما يوضح نوعاً ما طبعه الخجول ، وتخوفه وإخفاءه ، كما يفسر أيضاً محبته الشغفة والأفلاطونية التي تربطه فيما تربطه بحظيبه : لوين والآنسة (لافايت) و (سانك ـ مارس) . كان يخشى الذنب بشكل مرضي ، وقضى حياته متقشفاً زاهداً ناسكاً . وكان واعياً لحقوقه وواجباته كملك ، وواعياً أيضاً لحدوده الخاصة ، وإذا كان يحب الحرب وحياة المعسكرات ، والجولات الطويلة ، عبر أقاليم مملكته التي يعرفها جيداً ، فما كان ليتذوق السياسة إلا قليلاً ، لأن تربيته أساءت تهيئته وإعداده لها . ولهذا السبب ، وبعد أن أدرك قيمة ريشليو التي لاتعوض ، عرف كيف يتغلب على مقاومته له ويطمئنه حتى النهاية عن ثقته الكاملة به ، بالرغم من العواصف التي حامت حوله وكادت تجرفه .

وكان لهذه الثقة ما يبررها في الواقع بصورة واسعة . لقد ولد أرمان دو بليسيس ، دو ريشليو في عام ١٥٨٥ م في أسرة نبيلة من إقليم (بواتو) ، ودخل حياة الدير لا لميل فيه وإنما للحفاظ على أسقفية لوسون في أسرته . ومع ذلك فقد ظل طوال حياته كاهناً لا لوم عليه . لقد كان أيضاً رجل مكتب يحب حياة العزلة والدراسة ، ورجل عمل يتذكر بأنه هيئ قبل كل شيء للحياة العسكرية . ومن جهة أخرى ، كان نبيلاً متغطرساً يحب الأبهة والفخامة ، وعاش بمستوى حياة أمير مفيداً زبائنه وأقرباءه من الثروة العظيمة التي جمعها حسب تعاملات العصر ، منذ وصوله إلى السلطة ، هذه السلطة ، التي فعل هذا الطموح كل شيء للحصول عليها ، وكان يتميز بجميع الصفات التي تؤهله لممارستها : كان يملك معاً ذكاءً عالياً وحسّاً حاداً بـ (الممكن) وإرادة صلبة وقدرة عجيبة على العمل ، بالرغم من اعتلال صحته . وقد وضع كل هذه الصفات الاستثنائية في خدمة الملك والدولة .

ومع ذلك لا شيء يشبه قليلاً التنفيذ ، نقطة بعد نقطة ، انطلاقاً من ١٦٢٤ م ، لمخطط وضع من قبل بكل عناية . وفي الواقع ، أمام مقاومة الأحداث والرجال ، يبدو ريشليو انتهازياً عظيماً ، يعرف كيف يتكيف مع الظروف ويتجاوزها ، ويحسب دون انقطاع ، ولا سيا حتى ١٦٣٠ م حساب مؤامرات ودسائس البلاط الذي كان يحاول أن يصل بالملك إلى التخلص من وزيره .

وهكذا ، أمام ثورة جديدة للبروتستانت جرهم إليها روهان وأخوه سوبيز ، تفاوض ريشليو مع المتمردين . كان دون أسطول بحري كاف للعمل بنفاذ ضد لاروشل ، التي كانت جمهورية بحرية وحصناً عظيماً للهغنوت ، ولذلك فضل الانتظار ليؤون الأوان ، ووقع ، في شباط ١٦٢٦ م ، معاهدة لاروشل التي جددت معاهدة مونبليه . وبعد بضعة أسابيع اكتشفت مؤامرة بلاط دبرت لقتله ، وتضم وراء الفتى غاستون ، أخ الملك والوارث للعرش ، أمراء الدم والملكة آنّا . وقطع رأس أحد المتآمرين وهو هنري دو تاليران ـ بيريغورد ، كونت شاليه ، في نانت ، في ١٩ آب ١٦٢٦ م ، وأوقف دوق فاندوم وأخاه . وأصبح غاستون دوق أورلئان ، وقبل الزواج بماري دو بوربون مونبانسيه . وفرت دوقة شيفروز ، وصيفة الملكة إلى اللورين . وأحرج المستشار داليغر ، بعد تعرضه للاتهام ، فترك الأختام الملكية إلى ماريّاك . وأخيراً وقعت براءة ملكية في نانت تأمر بتدمير العديد من القصور الحصينة . وفي السنة التالية ، أعدم كونت مونمورانسي ـ بوتفيل ، في ٢٢ حزيران ١٦٢٧ م ، وكان قد تحدى براءة ١٦٢٦ م التي تجدد الأحكام السابقة ضد خصوم العهد . وهذا يدل على الأقل بوضوح أن الملك ووزيره كانا يريدان إخضاع النبلاء وردهم إلى حظيرة الطاعة بشدة وصرامة .

وفي الوقت نفسه سمي ريشليو (مديراً عاماً مشرفاً على الملاحة والتجارة في فرنسا) ، وطلب من (مجلس الوجهاء) ، في كانون الأول ١٦٢٦ شباط ١٦٢٧ م ، الموافقة على برنامج كامل لإصلاح المملكة ، وحرر هذا البرنامج ماريّاك في جزء

منه . وفي الواقع ، إن ضرورات الحرب ضد الهغنوث ، والنزاع (المغطى) ضد البيت النمساوي ، اضطرته إلى تأجيل هذه الإصلاحات . وطوال عامين استحوذت حرب لاروشل وامتدادها على كل نشاطه تقريباً . ولم يكن قصده القضاء على تمرد البروتستانت فحسب ، وإنما أيضاً ، أن يؤمن لفرنسا ، بفضل تعمير بحرية قومية ، السيطرة على كل موانيها ، عدا تنمية وحماية تجارتها البحرية الكبرى . وكانت انكلترا مستهدفة بصورة مباشرة ، ولم تخدع ، ولذلك لم تأت بمساعدتها للاروشل لأسباب دينية فحسب ، بل كانت تريد أيضاً منع ملك فرنسا من « بسط ملكيته على المحيط » . وفي حزيران ١٦٢٧ م ، نزل بوكنغهام ، محظي الملكين الإنكليزيين جيمس الأول وشارل الأول ، في جزيرة ره[1] لنجدة لاروشل . وقاوم حصن سان ـ مارتن فيها ببسالة . وتردد سكان لاروشل لحظة ، وأخيراً جرهم ضد الملك ، في هذا التمرد المكشوف ، سوبيز ، بعد أن جاء من لندن مع الأسطول الإنكليزي . عندئذ بدأت الجيوش الملكية بمحاصرة الموقع من البر ، في شهر أيلول . وبإيحاء من ريشليو أتم ميتيزو المهندس المعمار الحصار بإغلاق الميناء بسدّ ، فيا كان الأسطول الفرنسي يجول في عرض البحر ، ويراقب عن كثب حركة الأسطول الإنكليزي . وبعد حصار دام ثلاثة عشر شهراً ، غادر بوكنغهام لاروشل مطروداً من جزيرة ره . وبعد أن تعرضت المدينة لمجاعة فظيعة ، استسلمت في تشرين الأول ١٦٢٨ م وألغيت امتيازات المدينة جميعها ، وأزيلت الحصون ، ووطدت العبادة الكاثوليكية ، ولكن العبادة المصلحة (البروتستانتية) ظلت قائمة . وبعد تجريدةٍ في بيمونت ونصر (با دو سوز) ، في شباط ١٦٢٩ م ، عادت الجيوش الملكية إلى اللانغدوك حيث أمسك روهان بالبلاد منذ عامين ، وأجبر الاستيلاء على (بريڤا) واجتياح محيط جبال (السيفين) البروتستانت على قبول شروط الملك . ووقعت براءة العفو الملكي في

---

(١) جزيرة (ره ـ RÉ) .

(آليس) في ٢٨ حزيران ١٦٢٩ م ، وتركت لهم الفوائد الدينية والمدنية والقضائية التي خولتها براءة نانت ، ولكنها حرمتهم من جميع امتيازاتهم السياسية ، كعقد المجالس ، والعسكرية كمواقع الأمن .

ومع ذلك ، فإن براءة آليس وسياسة ريشليو المعادية لآل هابسبورغ فاقمتا نزاعاً عتيداً ، منذ زمن بين (حزبين) وسياستين :

أولاً : **(الحزب التقي)** . كان ملتفاً وراء حارس الأختام (ميشيل دو مارياك) والكردينال (بيرول) العظيم التأثير في البلاد ، ولكنه توفي في تشرين الأول ١٦٢٩ م ، والملكة الأم مارية دو ميدتشي الشديدة الغيرة من محميها السابق ، والملكة آنا وغاستون أورلئان « موسيو » الذي كان دوماً إلى جانب المستائين . كان هذا الحزب يرى بأنه يحسن بأن تجتث البروتستانتية من المملكة وأن تلغى براءة نانت ، وأن يساند البيت النمساوي في جهوده لإرجاع الكاثوليكية ضد الهرطقة ، والتخلي عن كل موقف معاد حيال آل هابسبورغ ، وأخيراً محاولة تحقيق الإصلاحات في الداخل وبخاصة الضريبية والقضائية للتمكن من معالجة بؤس الطبقات الشعبية التي كانت ثوراتها المنفجرة في الأقاليم ظاهرة مقلقة للغاية ، نذكر منها روان ١٦٢٣ م ؛ كيرسي ١٦٢٤ م ؛ أميان ، تروا ، لاڤال ١٦٢٨ م ، أنغوليم ، ليون ١٦٢٩ م . وتدل البراءة العظمى ، التي حررها مارياك في ١٦٢٩ م وتسمى : « قانون ميشو » ، على هذا الاهتمام بالإصلاح الداخلي .

ثانياً : **حزب « الفرنسيين الطيبين »** . أما حزب الفرنسيين الطيبين الذين يعتمد عليهم ريشليو ، فيرى وجوب تجنب « الخلط بين مصالح الدولة ومصالح الدين » . وكذلك في المملكة ، حيال البروتستانت ، كما في الخارج ، أمام الخطر الذي تمثله سياسة آل هابسبورغ الطموحة . إن سلامة الدولة تتطلب بدقة تهديم البيت النمساوي : أولاً ، بطريقة « مستترة » ، ومتى آن الأوان ، بصورة

مكشوفة ، حتى ولو أن سياسة الحرب هذه تجبر على تأجيل الإصلاحات الداخلية التي لاغنى عنهـا ، وأيضـاً على تضخم العبء الضريبي ، وكما كتب ريشليـو إلى المليـك ، في ١٣ نيسـان ١٦٣٠ م : « إذا قرر الملـك الحرب يجب التخلي عن كل فكرة راحة ، وتوفير وتنظيم داخل المملكة » .

وتردد لويس الثالث عشر التقي أمام هـذا الخيـار الأسـاسي ، وبـدا ، طوال سنة ١٦٣٠ م أن الحوادث أعطت الحق للأتقياء ، فقد سبب الجدب والطاعون معاً في قسم عظيم من المملكة بؤساً فظيعاً وتزايداً فظاً وسريعاً في الثورات الشعبيـة : في روان ، كان ، نانت ، آنجه ، أورلئـان ، ديجون ، بواتيـه ، ليون ، غرونوبل ؛ وإن حملة ثانية في إيطاليا الشمالية لتؤمن لشـارل دونوفير دوقيـة مـانتو ، ظهرت صعبة ومغامرة ، بعد بداية طيبة ، وأكثر من ذلـك ، أن الملـك سقـط مريضـاً في شهر تموز بصورة خطيرة . وفي شهر تشرين الثاني ، انفجرت (العاصفة الكبرى) التي كانت تعـد منـذ عـدة أشهر ، ضـد ريشليو : ففي ١٠ من هـذا الشهر قـامت ماريـة دوميـدتشي بفصل عنيف أمـام لويس الثـالث عشر ووزيره ، وفكرت في نهايته بأنها حصلت من ابنها على طرد الكردينال . وهرع أفراد الحـاشيـة إلى قصر لوكسمبورغ يهنؤونها . ولكن بعد بضع ساعـات ، أمر لويس الثـالث عشر بمجيء ريشليو وجدد ثقته به . وشهدت الأسابيع التي تلت هذا اليوم الـذي يسمى (يوم المخدوعين) ، هزيمة الحزب التقي ، فقـد حرم ميشيـل دومـاريـاك من حراسـة الأختام ونفي ، ومثل أخوه الماريشـال دومـاريـاك أمـام لجنـة استثنـائيـة بحجـة استغـلال الـوظيفـة وأعـدم . وهرب غـاستـون أورلئـان إلى اللـورين . ورفضت مـاريـة دوميـدتشي بعنـاد أن تصـالـح الكردينـال ، وفضلت اللجـوء في البـلاد المنخفضـة (تمـوز ١٦٣١ م) . وفيما عـدا مشـاكل الأشخـاص ، تم اختيـار لـويس الثـالث عشر لسيـاسـة الاصلاح . ورأى ريشليو ، بعـد أن اطمأن لثقـة لاتكـذب أبداً ، أن باستطاعة تطبيق مااقترحه من إصلاحات على الملك .

ريشليو ونظام الحرب (١٦٣٠ ـ ١٦٤٢ م)

وانطلاقاً من ١٦٣٠ م كان ريشليو رجل دولة أكثر منه إدارياً ، فقد ألحق السياسة الداخلية كلها بمتطلبات النضال ضد آل هابسبورغ . كان همه الأول أن يؤمن سلطة الملك في المملكة كلها ، والهدوء العام . ولهذا الغرض ، استعمل النظم (المؤسسات) الموجودة ولكنه جعلها أكثر نفاذاً وأدخل فيها موظفين موالين . فكان مجلس المصالح العامة (وهو المجلس الأعلى في المستقبل) يضم إلى جانب الملك والكردينال ، « وزراء الدولة » ، مثل بويون المشرف على المالية ، واثنين من أسرة (بوتيليه ، بيير سيغوير) حارس الأختام في ١٦٣٣ م ، والمستشار في ١٦٣٥ م ؛ **والمجلس الخاص** (أو مجلس الدولة أو الأطراف) . وهو يتألف من موظفي العرائض ، أي الطلبات التي تقدم إلى السلطة لينظر فيها ، وهم يوظفون بشهادة ؛ ومن مستشاري الدولة . ويصدر هذا المجلس قرارات تجادل في قيمتها البرلمانات دون انقطاع ؛ ومن أمناء الدولة الأربعة . وهؤلاء ليسوا سوى منفذين متحمسين . وبالتدريج تزايد دور نبلاء اللباس ، من مفوضين أو موظفين ، في المجالس ، وفي الوظائف الوزارية ، وفي المحاكم الملكية (برلمان باريس بخاصة) .

وفي الأقاليم ، طلب ريشليو من الحكام إطاعة وولاء مطلقين . واستخدم النظار أو المفتشين . وهم مفوضون من بين موظفي العرائض . يغادرون مكانهم لمدة محدودة مخولين بسلطات واسعة جداً بغية توطيد النظام ومراقبة جميع الهيئات الإقليمية التي تجعلها امتيازاتها مهددة : (المجالس) ، البلديات ، النبلاء ، الموظفين الذين يؤلفون طائفة وراثية بفضل دفع البوليت . وأكثر من ذلك ، كان الكردينال يقف على مجرى كل شيء بفضل شرطة قوية ومنظمة جيداً ، ويحاول أن يوجه الرأي العام . وكان يقيم محررين يدافعون عن سياسته ، وأفاد من جريدة أنشأها ، في أيار ١٦٣١ م ، تيؤفراست رينودو وجعل منها جريدة الوزير الشبه رسمية . واعتمد أيضاً على الكتاب . وكان تأسيس الأكاديميا

الفرنسية ، في ١٦٣٥ م ، يستجيب في جزء كبير منه لهذا الاهتمام بالدعاية الملكية .

ولم يكن على الرعايا أن تطيع فحسب ، بل يجب أن تدفع . وكانت حاجات فرنسا المالية في الحرب تزداد بسرعة . ولمجابهتها ، لم يحاول أي إصلاح شامل . وبراءة ١٦٢٨ م التي اتجهت إلى تحويل الأقاليم المنضمة مؤخراً إلى التاج[١] إلى بلاد انتخابات[٢] بإدخالها (منتخبين) أي موظفين لتوزيع ضريبة القامة[٣] أو الأعناق ، تخلي عنها بعد ١٦٣٠ م . ووجد مدراء المالية أن الوزير يضغط عليهم بطلب المال ، فطبقوا سياسة إيجاد مخارج ووسائل لذلك ، ولكنها لم تنجح في دفع زيادة العجز الثابتة ، ومن هذه الوسائل القروض وتحويلات العملة ، وتخفيض الدخول وبيع الوظائف ، وبخاصة زيادة ضرائب القامة والملح وفرض رسوم جديدة .

المشاكل الاقتصادية

كانت المشاكل الاقتصادية تهم ريشليو في الحد الذي تتعلق فيه سلطة الملك بثروة المملكة . ولذلك تبنى أفكار سوللي ولافما « المركانتيلية » .

وفي الواقع ، كانت الإنجازات على هذا الصعيد محدودة للغاية ، كالتعرفات الجمركية والبراءات التقشفية لحماية المصانع (مانيفاكتور) ضد الخارج ، وإحداث الحصر الملكي للبريد في ١٦٣٠ م . وبالمقابل ، كانت الطبقات الشعبية المدنية والريفية مسحوقة بالضرائب دون اعتبار للانعكاسات الاقتصادية لهذه السياسة المالية . حتى ان التدابير المتخذة بغية تفضيل وتشجيع التجارة البحرية الكبرى والاستعمار ، كإنشاء عدة شركات تجارية ، كانت ناقصة . وذلك لأن البحر ، الذي

---

(١) الأقاليم المنضمة إلى التاج هي : PAYS D'ETATS .

(٢) بلاد الانتخابات هي : PAYS D'ELECTIONS .

(٣) التاي : TAILLE .

يشغل مكاناً كبيراً في اهتمامات ريشليو ، كان يهمه بخاصة تبعاً للحرب وقدرة الملك العسكرية .

لقد كان على علم جيد بحاجات وإمكانات البحرية ، ولذلك شعر بأن عليه أن يعمل كل شيء ، ويقوم ، منذ حرب لاروشل ، بجهد عظيم لايكل ، ليجهز البحرية العسكرية بإدارة منظمة سوية ، وقيادة نافذة مثل هنري سوردي وبريزه ، وموانئ مجهزة ، لوهافر ، برست ، برواج ، تولون ، قادرة على إنشاء وإلجاء أساطيل الغرب « بونان » (٦٥ سفينة خط في ١٦٤٢ م) والشرق « لوفان » (٢٢ سفينة تجارية أو حربية) . وكذلك عاد الجيش إلى قبضة يديه ، وبخاصة بعد دروس سنة كوربي ، فقد أرسل النظار والمفتشون إلى الجيوش لتأمين التموين وعطاء الجنود وتذكير الضباط النبلاء بالطاعة الشديدة ، وزيد عدد الجنود ، وعجل بصنع وسائل الحرب من بنادق ومدافع ، ولكن هذا الجهد كلف غالياً ، وانطلاقاً من ١٦٣٥ م ازداد الضغط الضريبي .

المقاومات (١٦٣٠ ـ ١٦٤٢ م)

وسبب نظام الحرب ، الذي فرض على المملكة التي مازالت غير منظمة ، مقاومات عديدة . كانت المعارضة أولاً من عمل الكبار والبلاط ، والمؤامرات غير منقطعة وموجهة ضد الوزير ، ومخيفة ، حتى ان أعضاء الأسرة الملكية كانوا مشاركين فيها ، ولم يتردد المتآمرون في البحث عن سند لهم لدى أعداء فرنسا (اللورين وأسبانيا) . وفي ١٦٣٢ م ، تزعم أحد كبار أمراء المملكة ، الدوق هنري دومونمورانسي ، حاكم اللانغدوك ، مؤامرة ضمت الملكة ـ الأم اللاجئة في البلاد ـ المنخفضة ، وغاستون أورلئان اللاجئ في اللورين ، وكان أرمل وتزوج سراً أخت دوق اللورين . وكانت القضية خطيرة ، لأن اللانغدوك المهددة في امتيازاتها بتحويل محتمل إلى بلاد انتخابات كانت في عز ثورتها منذ ١٦٢٨ م . ومع ذلك فإن مجالس الأقاليم وبرلمان تولوز رفضت اللحاق بالحاكم في تمرده

السافر . وبعد أن جمع هذا بعض الجيوش هزم وأخذ في كاستلنوداري ، في الفاتح من أيلول ١٦٣٢ م ، من قبل جيش ملكي أرسل ضده وحكم بالموت . وقطع رأس آخر رجل من أسرة آل مونمورانسي في تولوز ، في ٣٠ تشرين الأول ، بالرغم من الضغوط العديدة لصالحه . وعاد غاستون إلى فرنسا ولكنه اضطر إلى الفرار من جديد إلى الخارج ، ثم عاد إليها في ١٦٣٤ م ، ورضي بإلغاء زواجه اللوريني . ولكنه بعد سنتين ، اشترك في مشروع يهدف إلى اغتيال الكردينال ، وكان أحد مدبري هذا المشروع أمير دم وهو كونت سواسّون . وقلق غاستون فكشف كل شيء للملك ، فعفي عنه ونفي في بلوا . وفرسواسون إلى سودان عند الدوق دو بويون . وفي السنة التالية ١٦٣٧ م ، اكتشفت مراسلة سرية للملكة آنا مع مدريد وبروكسل . وفي ١٦٤١ م كانت محاولة كونت سواسون ، ولكنه غلب وقتل في كفاح (لامارفه) بالقرب من سودان ، في ٦ تموز ، عندما كان يحاول الدخول إلى الشامبانيا على رأس جيوش اسبانية . وفي ١٦٤٢ م أخيراً ، كانت مؤامرة سانك ـ مارس الهائلة : هذا المحظي الشاب ، الذي أخذ يتعالى على الملك ، واقترح بدوره اغتيال ريشليو ، وأخذ مكانه ، وتسمية (موسيو) نائباً عاماً للمملكة وإبرام الصلح مع اسبانيا . ووقعت معاهدة سرية لهذا الغرض مع أوليفارس . وكان ريشليو والملك آنذاك في لانغدوك ، وحصلا على نسخة من هذه المعاهدة ، وتمكنا من توقيف سانك ـ مارس وصديقه دو تو وإعدامها في ١٢ أيلول ١٦٤٢ م . وعفي عن غاستون ، ولم يعد وارثاً مفضلاً للعرش بعد ولادة ولي للعهد في ١٦٣٨ م .

وكانت المقاومات أيضاً من عمل **الاكليروس والبرلمانات** . وكان ريشليو الكاهن والكردينال معاً يرى بارتياح تقدم الإصلاح الكاثوليكي ، ولكنه باعتباره غاليكانيا ، كان يحذر مذاهب ماوراء الجبال[1] ، جبال الألب ، التي كانت في

---

(١) مذهب ماوراء الجبال هو L'ULTRAMONTANISME .

صالح بلاط روما ؛ وباعتباره وزيراً أول شجب كل الجدل الديني الذي كان من شأنه إثارة الاضطراب في الدولة ، وراقب مؤامرات الحزب التقي المغلوب ، ولكنه لم يهدم . وأكثر من ذلك كان يريد من الاكليروس الطاعة والعون المالي المطلوبين من جميع الرعايا . وطالب مجالس الاكليروس بأن تدفع للملك هبات مجانية متزايدة الأهمية ، وعندما انعقد مجلس ١٦٤١ م ، نفي عدة أحبار ، لأنهم أكدوا حصانة أموال الكنيسة . أما البرلمانات ، فإن الملك والوزير لم يطرحا على بساط البحث حقوقها في التسجيل وبيان محاذير البراءات الملكية ، ولكنهما حاولا أن يخفضا هذه الحقوق باستخدام قرارات مجلس الملك ، وبإرسال نظار إلى الأقاليم ، وببراءة ١٦٤١ م التي تنظم حقوق وواجبات البرلمانات ، حتى في بعض الأحوال بنفي أو سجن البرلمانيين المقاومين المعاندين .

الثورات الشعبية

لقد كانت الثورات الشعبية ، مع مؤامرات البلاط ، أخطر ظاهرات معارضة المملكة لنظام الحرب . وهذه (الهيجانات) المدنية أو الريفية ، الكثيرة قبل ١٦٣٠ م ، تعددت بعد هذا التاريخ . ونجمت بصورة أساسية عن البؤس والضغط الضريبي ، والهتاف : « يحيا الملك دون ضريبة الملح » . وجاءت الخطورة من واقع الجماهير الشعبية التي كانت في الغالب مجندة أو مدعومة في ثوراتها ، إما ببورجوازيين أو نبلاء اللباس ، من برلمانيين وموظفين وقضاة بلديات ، مهددين في بعض امتيازاتهم بتقدم الإدارة الملكية ؛ وإما بأمراء أخذوا على عاتقهم حماية فلاحيهم ضد تجاوزات « جباة ضريبة الملح » . وأخطر الثورات التي كانت في الغالب على صلة بالمحاصيل الرديئة ، حدثت في ١٦٣٥ م ، في غويّن واللانغدوك ، وفي ١٦٣٦ ـ ١٦٣٧ م في آميان ، روان ، رين ، ولا سيما ثورة الكروكان (الفلاحين) بين نهري اللوار والغارون ؛ وفي ١٦٣٩ م في اللانغدوك وبروفانس وبخاصة حركة (عراة الأقدام) في نورماندیا ، وفي

١٦٤٠ م ، في رين ومولان ؛ وفي ١٦٤٣ م ، غرب المملكة كله . وكان الضرب على أيدي العصاة متفاوتاً ، فالموظفون المحليون والبرلمانات كانوا في الغالب ليّنين ، وبالمقابل في الحالات الأكثر خطورة من غيرها ، أرسلت الجيوش الملكية والمفوضون إلى مكان العصيان ومارسوا عدالة سريعة كانت درساً لغيرها . وهذه الحركات العديدة لم تهدد بحق الدولة ، بسبب فقدان التلاحم والبرنامج الحقيقي ، ولكنها على الأقل دلت على مقاومة عميقة وعنيدة للعمل الذي قام به الوزير . وعندما توفي ، في ٤ كانون الأول ١٦٤٢ م ، استقبل موته بارتياح .

ومات ريشليو ، ولكن لويس الثالث عشر ظل وفياً له . فالموظفون الوزاريون ، وفي صدرهم لعب (مازارن) ، الذي أصبح كردينالاً في ١٦٤١ م ، دوراً مافتئ متعاظماً ، تابعوا خلال بضعة أشهر نفس السياسة إن في الداخل أو في الخارج . وكان مع الملك ، قبل وفاته ، ما يكفي من الوقت لتنظيم الوصاية لابنه ، وكانت سنه أقل من خمسة أعوام ، لصالح مجلس الوصاية الذي ضم الملكة انّ ، وموسيو ، وكونده ، ومازارن ، والمستشار سيغيه ووزيري دولة . وفي ١٤ أيار ١٦٤٣ م ، توفي تقياً وسط البلاط ، قبل أن يحرز دوق دانغن الشاب نصر (روكروا) الحاسم بخمسة أيام .

مازارن والفروند

الفروند باللغة الفرنسية تعني المقلاع ، وهو سلاح رمي يتألف من قطعة جلد تربط بسيرين من الجلد أو الصوف أو أي مادة نسيجية أخرى . والفروند بالاصطلاح اسم أطلق على الاضطرابات التي جرت في فرنسا من ١٦٤٨ إلى ١٦٥٣ م ، نتيجة لاستياء الطبقة النبيلة والبرلمان من توطيد السلطة الملكية بسياسة ريشليو المركزية ، والإفادة من قصور لويس الرابع عشر (ولد في ١٦٣٨ م) لاستعادة الامتيازات السابقة جميعاً . إذن فالفروند مجموعة استياءات أكثر منها ثورة ، انتهت بالإعياء العام وانتصار السلطة الملكية التي يمثلها مازارن

القوي ، خلف ريشليو ، إلى جانب الملكة آنّ النمساوية والملك الشاب لويس الرابع عشر . والإيضاح الذي يلفت النظر إلى إطلاق اسم الفرند (المقلاع) على مجموع هذه الاستياءات والاضطرابات هو : أنه كان في خنادق باريس جنود من الشبان يرمي بعضهم بعضاً بالأحجار بواسطة المقاليع . وأصدر البرلمان قراراً يمنع هذه الممارسة . وفي اليوم الذي اتخذ فيه هذا القرار ، تكلم الرئيس حسب رغبة المحكمة (البرلمان) ، غير أن ابنه ، وكان مشاوراً ، قال : عندما يأتي دوري سأضرب بالمقلاع رأي أبي . وعندئذ أطلق الاسم (المقلاعيون) على من كانوا ضد البلاط .

آنّ النمساوية ومازارن (١٦٤٣ ـ ١٦٤٨ م) :

كان أول عمل سياسي للملكة الوصية الطلب إلى برلمان باريس أن يفسخ وصية الملك الراحل ويخولها « الإدارة الحرة والمطلقة والكاملة لشؤون المملكة » : وهذا ما جرى في ١٨ أيار ١٦٤٣ م . وفي الواقع ، كانت آن ضعيفة الذكاء ، ودون تربية سياسية ، ومتسلطة وعنيدة . قررت أن يكون وزيرها الأول ، الكردينال مازارن . ولد (جيوليو مازاريني) في ١٦٠٢ م في إقليم الأبروز ، في إيطاليا ، من أسرة رومانية ، وانتقل من خدمة البابا إلى خدمة ملك فرنسا في ١٦٣٩ م ، واستطاع أن يلتمس أفضال الملكة . وتعلقت به بعاطفة لاتنكر وربما مهرت بزواج سري . وبهذا الواقع كان إلى جانبها آمناً على نفسه ، حتى في منفاه ، وأكثر مما كان ريشليو إلى جانب لويس الثالث عشر . ويشبه هذا الكردينال ـ الوزير الثاني في الظاهر قليلاً الوزير الأول . كان مرناً ، حذقاً ، مرائياً مداهناً يستعمل اللطف والمكيدة حيث كان سلفه يبرهن على حزم لا ينثني . وكان هذا الموقف في الغالب ضرورة لهذا الأجنبي الذي يسيء معرفة الواقع الفرنسي . ومع ذلك كان كريشليو يمتاز بالذكاء العالي والعناد ، وقوة العمل ، ومفهوم عظمة الدولة . كما يمتاز بجشع فاضح وحب للبذخ وحماية الفن ورعايته .

كانت الحرب الخارجية ، التي كان يجب متابعتها والعوز المالي الذي جرته ، ثقيلين على كاهل مازارن ، لاسيا وأنه كان عليه أن يجابه في الوقت نفسه معارضة يمكن أن تظهر بجرية منذ وفاة ريشليو . وهكذا ، منذ الأشهر الأولى للوصاية ، حاول بعض الأعضاء من حاشية الملكة أن يردوها عن قرارها في اتخاذ مازارن وزيراً أول . وأمام رفضها ، قام الدوق (دو بوفور) ، ابن دوق فاندوم ، الذي أطلقت عليه شهرته في باريس لقب : (ملك الهال) ، ودبر مع مدام (شيفروز) مؤامرة تهدف إلى قتل الوزير والاستعاضة عنه بـ (بوتيه) أسقف بوفيه وكاهن الملكة . وعندما علمت هذه بسياق هذه المؤامرة ، التي تعرف باسم (مؤامرة المزهوين) ، أمرت بحبس بوفور في (فانسين) ونفت فاندوم ودوقة شيفروز ، في أيلول ١٦٤٣ م ، وقد شعر مازارن بالكراهة والحسد على مانالـه من صعود مدهش ، فحاول المصالحة مع البلاط ، ولا سيا فئة آل كونده (م . لوبرنس) وابنه (آنغن) المنتصر في (روكروا) ، وذلك بالإكثار من الأعياد على الذوق الإيطالي من موسيقى وأوبرات .

ومع ذلك ، ففي باريس وفي الأقاليم استأنف النبلاء عادات عدم النظام والخلاعة التي كانت في السابق . أما أعضاء المجالس ذات السيادة (البرلمانات[1] ، ودواوين المساعدات والحسابات) وموظفو المالية ، الذين كان منهم أمناء الخزينة الفرنسية والمنتخَبون ، فقد انتظموا في نقابات قوية ، وأكثروا من دلائل الاستقلال أمام النفوذ النامي للنظار والمفوضين الملكيين . وأخيراً استمرت الهياجات الشعبية وبخاصة في الجنوب .

وهذه المعارضات المختلفة المقنعة أولاً ، اغتاظت من الإجراءات المالية التي اتخذها مازارن ورئيس النظار (بارتيشللي إيميري) اللذان استخدما نفس

(١) البرلمان : في النظام القديم ، في فرنسا ، أول هيئة عدلية تنظر في القضايا العدلية ، ولكنها أخذت بالتدريج تلعب دوراً سياسياً .

الوسائل التي استخدمت في عهد ريشليو لمجابهة العجز المتنامي . فقد أكثروا القروض الإجبارية ، والإقلال من الدخول ، الذي أضر بالعديد من البورجوازيين ، وبيع الوظائف الذي استاء منه الموظفون المؤهلون الذين فقدت وظائفهم قيمتها ، وزادوا الضرائب القائمة ، ووضعا رسوماً جديدة تصيب بخاصة البورجوازيين الباريسيين (بموجب براءة توازيه ، في ١٦٤٤ م التي ضربت بمخالفة ملاك الدور المنشأة في جدار السور ، وبراءة (تاريف) لعام ١٦٤٦ م التي وضعت رسوم (الدخولية) الجديدة على السلع الغذائية التي تدخل العاصمة .

وهذه الإجراءات الخرقاء زادت **الاستياء العام** الذي شجعته أخبار حوادث انكلترا . وكان الفروند ظاهرة عنيفة لهذا الاستياء . وقد لعب **الموظفون** المعادون لتعزيز الحكم الملكي المطلق في الفروند دوراً محركاً . **وبرلمان باريس** بخاصة ، الذي يقول عن نفسه بأن الوارث لـ (مجلس الملك) القديم ، ويحتج بالمثال ، المخالف تماماً ، الذي كان عليه البرلمان الإنكليزي ، زعم بأنه سيلعب رسمياً دوراً سياسياً .

واعتمد الكبار على زبائن نبيلة ، وحاولوا من جانبهم فرض وصاية على الملكية ، ولم يترددوا ، عند مقتضى الحال ، في البحث عن سند لهم من اسبانيا التي كانت دوماً في حرب ضد فرنسا . وأكثر من ذلك أيضاً ، أن بعض الطموحين الجشعين إلى السلطة دبروا لعبة شخصية وأنانية بصورة محضة ، نذكر منهم كونده وريتز . وأخيراً ، أحدث البؤس المرتبط بنمو الضغط الضريبي وانحطاط الاقتصاد كله ، بانقلاب الظروف وأزمات الغذاء في سنوات (١٦٤٨ ـ ١٦٥٢ م) ، في **الطبقات الشعبية** ، حالة انفجار استغلها الفرونديون في اتجاه مصالحهم الخاصة . وبلور مازارن ضده معارضات كثيرة ، مختلفة غالباً ، وليس لها في أي وقت زعيم واحد ، ولا برنامج مشترك ، اللهم إلا رفض نظام الحرب الذي فرضه ريشليو وتابعه الإيطالي مازارن . وإذا وجدت محاولة ثورة ، فإن هذه الثورة كانت

رجعية . ومع ذلك ، فإن المناخ الرومانسي لبعض أدوار الفروند والاسم الساخر الذي أطلق عليها يجب ألا يغطيا معناها الحقيقي : فهي تعبير مضطرب ، ولكنه مخيف لأزمة عميقة في الدولة ، والمجتمع ، والاقتصاد .

الفروند من ١٦٤٨ إلى ١٦٥٣ م

الفروند الأولى . هي في الأساس فروند برلمانية (آب ١٦٤٨ ـ آذار ١٦٤٩ م) . ففي ٣٠ نيسان ١٦٤٨ م ، قرر مازارن بأنه يجب على موظفي المجالس ذات السيادة (ديوان المحاسبات ، وديوان المساعدات ، المجلس الأكبر) ، باستثناء مجالس البرلمانات ، أن يفتدوا بالتخلي لمدة أربعة أعوام ضمان تجديد البوليت ، بعد أن أوشكت براءة ١٦٠٤ م القابلة للتجديد كل تسعة أعوام ، على الانتهاء . وكان الوزير دوماً بحاجة إلى المال ويأمل بأن ينال رضى برلمان باريس الذي مافتئ منذ إلغاء وصية لويس الثالث عشر ، يكثر من الإشارة إلى الملك عن محاذير البراءة ورفض التسجيل . ولكن المناورة أخفقت : فقد أعلن برلمانيو باريس عن تضامنهم مع زملائهم في المجالس الأخرى ذات السيادة ودعوهم إلى الاتحاد معهم للنقاش معاً في « إصلاح المملكة » (قرار الاتحاد ، في ١٣ أيار) . وبالرغم من ممانعة الوصية ، اجتمع القضاة في قاعة القديس ـ لويس في القصر ، من ٣٠ حزيران إلى ٨ تموز ، وحرروا ميثاقاً حقيقياً من ٢٧ مادة كان من أهمها أن أبطلت عمل ريشليو بوضع الملكية تحت رقابة موظفيها . ولهذا استقبل الباريسيون بحماسة هذه البراءة وهللوا لها وبخاصة للمواد التي تتعلق بالضريبة ، ولذا ، وبتأثير نصائح مازارن ، أظهرت الوصية أنها تنازلت : فمن ذلك أن الإعلان الملكي بتاريخ ٣١ تموز يصادق على معظم الـ ٢٧ مادة ويأمر باستدعاء النظار ولكن بعد بضعة أسابيع دفع خبر انتصار أمير كونده الشاب في (لانس) ، في ٢٠ آب ، مازارن للعمل . ففي ٢٦ آب أفاد من قداس في كنيسة نوتردام وأوقف ثلاثة برلمانيين عرفوا بمقاومتهم ، وبخاصة (بروسل) الشعبي

جـداً . وكان رد الفعل مبـاشراً : ففي بضـع سـاعـات أنشئ أكثر من ألف ومـائتي متراس في باريس وبخاصة حول القصر الملكي ، مقـام الملكـة . وهنـا أيضـاً تنـازل مازارن أمـام الضغـط الشعبي أكثر من تنـازلـه أمـام رجـاء الرئيس الأول (مـاتيو موله) والنصائح المرائية التي قال بها (غوندي ريتز) معـاون عمـه رئيس أسـاقفـة باريس . ومرة أخرى نصح مـازارن الملكـة بكسب الوقت . ففي ٢٨ من الشهر ، أطلق سراح بروسل ورفعت المتاريس . وانتقل البلاط عندئذ خلال بضعة أسابيع إلى (روي) حيث جاء كونده وجنوده . ومع ذلـك فـإن مـازارن الفطن والحـذر أيضاً أيد بالإعلان الملكي ، في ٢٤ تشرين الأول ، يوم توقيع معاهدات وستفاليا ، قبول الـ ٢٧ مادة ، وفي تشرين الثاني عـاد إلى بـاريس مع البلاط . وثمل البرلمـان نفسـه بنجـاحـه وشعبيتـه ، فـزعم أكثر من أي وقت مضى بـأنـه يراقب الحكـومـة ويشرف عليها . ولكن الوزير انتظر ساعتـه ، وبعـد أن علم أنـه يستطيع الاعتماد على مسـانـدة جيوش كونـده ، فر من بـاريس في الليل من ٥ إلى ٦ كانون الثـاني ١٦٤٩ م مع الملكة ، والملك الشاب ، غـاستون دورلئـان ، وذهب إلى : (سـان ـ جرمان ـ أن ـ ليه) .

وبالحال أعلن البرلمان أن (مازارن عدو عام) وأخذ بيده مقاليد الحكومـة . ومع ذلـك أطلقت الكراريس ضـد الكاردينـال من عقـالهـا وهي تعرف تحت اسم المـازارينيـة . وبـالحـال حـاصر جيش كونـده الملكي العـاصمـة ، المحميـة بـالملشيـا البورجوازية المعززة بـالكتـائب الشعبيـة التي تشكلت على عجل من قبل الكبـار وأوفيـائهم : (كونتي) و (لونغفيل) ، أخو كونـده وصهره ؛ ودوق دوبو يـون ، وبوفور ، الـذي فر من فـانسين مع أخيـه (مركور) ؛ و (غونـدي) كان يمسـك بيده بواسطة الاكليروس الجماهير البـاريسيـة . وكانت دوقتـا لونغفيل وبو يون في وسـط كل المـؤامرات وتجـولاتٍ على رأس الجيـوش . وبسرعـة جـداً ، ظهرت الاختلافـات بين الفرونـديين . ولم يخش البرلمـانيون أنـانيـة كبـار الأمراء ورغبـة

بعضهم بطلب النجدة من اسبانيا فحسب ، وإنما أيضاً من ثورة الأوساط الشعبية . ولذا ، بعد بضع مناوشات ، فضلوا التفاوض مع الوصية .

صلح روي ١١ آذار . وبصلح روي وعدت الوصية بالعفو العام ، وتعهد البرلمان بعدم عقد اجتماعات مشتركة مع بقية المجالس الأخرى ذات السيادة . وساعدت عدة تسويات فردية ووعود بمعاشات النبلاء على عقد الصلح مع البلاط . وفي آب ١٦٤٩ م ، دخلت الملكة والملك الشاب باريس واستقبلا بالترحاب . وفي الواقع ، لم يسوَّ شيء ، لأن الاستياء ضد حكومة مازارن مازال قائماً بتمامه وكماله .

أثار موقف كونده ، في بحر عام ١٦٤٩ م الحركة ، وتسبب في فروند ثانية أو فروند الأمراء (كانون الثاني ـ كانون الأول ١٦٥٠ م) . لقد اغترّ كونده بالانتصارات التي أحرزها وبالخدمات التي قدمها للملكة ، ولم يكتم مزاعمه بأخذ مكان مازارن ، فقد كان يكرهه ويحتقره . غير أن كبرياءه ووقاحته انتهتا بسخط آن النساوية . وباتفاق مع وزيرها ، أوقفته ، في ١٨ كانون الثاني ١٦٥٠ م ، وحبسته في فانسين ، ثم في هافر ، في نفس الوقت الذي حبست فيه كونتي ولونغفيل .

وبالحال اشتعلت الحرب الأهلية . وفي هذه المرة كان بإمكان مازارن أن يعتمد لا على مساندة أو حياد غاستون أورلئان فحسب ، وإنما أيضاً على البرلمان لأنه لم يعد يهتم بمعاودة النزاع ، وعلى شعب باريس الذي رأى في كونده رجل حصار ١٦٤٩ م ، وفي غوندي الذي اشتري بوعد قبعة الكردينال ، ولكن دوقة لونغفيل ، وأميرة كونده وجميع أصدقاء الأمراء الثلاثة المسجونين غادروا باريس وحاولوا إثارة أقاليم : نورماندیا ، غويين ، بواتو ، بروفانس ، بورغونيا . وفي الواقع لم تكن الحالة خطيرة في أي لحظة كما في غويين ، لأن أميرة كونده وبرلمان بوردو أجريا اتصالاً مع اسبانيا ، وفي الحدود الشمالية ، حيث نجحت دوقة

لونغفيل في أن تضم ، لقضيـة الأمراء ، تورين أخي دوق بويـون . ولكن الجيش الملكي ، الـذي كانت ترافقـه الملكـة ومـازارن ، أجبر بـوردو على الاستسـلام ، في تشرين الأول ؛ ثم اتجـه صوب الشـامبـانيـا وقـاتل تـورين الـذي كانت تسـانـده الجيوش الاسبانية ، في (رويتل) في ١٥ كانون الأول .

بيد أن انتصار مازارن وتعزيز وضعه أيقظا عداء برلمان باريس وأثارا اتحـاد الفرونـدين (كانـون الأول ١٦٥٠ ـ أيلـول ١٦٥١ م) فقـد استـأنف البرلمـانيـون ، برئاسة بروسل ، برنامجهم لعام ١٦٤٨ م ، وطـالبوا عـاليـاً بحريـة الأمراء وعقـدوا اتفاقات سرية مع المستائين جميعاً : الكونديين ؛ وكونـدي الغـاضب لأنـه لم يكن بعد كاردينالاً ؛ وغاستون أورلئان وابنته (آن ماري دو مونبـانسيـه) ، الملقبـة بـ (الآنسـة الكبرى) ؛ وأنّ غـونــزاغ ، والأميرة البــالاتينيــة ، ودوقــة شيفروز المتآمرة ؛ وبويون وأخوه تورين . ففي ٣ شباط ، طلب البرلمـان عزل مـازارن . وأدرك هـذا أن الحقـد عليـه في الواقع كان الرابطـة الـوحيـدة بين المتردين ، وأن ذهابه سيفجر انشقاقهم ، فقرر بمهـارة أن يترك السـاحـة حرة لهم . وفي ٦ شبـاط غادر بـاريس ، وبعـد أن ذهب إلى لوهـافر لتحرير الأمراء ، اعتزل في (برول) عند صديقه ناخب كولونيا . وبدا حسابه مضبوطـاً . فبينمـا هو في برول يملي على الملكـة آنّ ومستشـاريهـا : (ميشيـل لـوتيلليـه) ، (آبـل سيرڤين) ، وابن أخيـه (هوغ دو ليون) سلوكهم ، كان الفرنـديون غير قـادرين على التفـاهم فيا بينهم : فقد اقترح كونده ، خلافاً لرأي البرلمـان ، اجتماع **(المجالس العامـة)** ؛ وغونـدي الـذي أصبـح أخيراً كاردينـالاً وأخــذ اسم (ريتز) تقرب من الملكــة فـلاطفتـه وتظاهرت بوعـدهـا لـه بـدخولـه المجلس ؛ وأعلن بويون وتورين عن خضوعهما . ورأى كوندة ، بعد أن فسدت علاقاته حتى الموت لامع البرلمـان فحسب وإنما مع ريتز القوي دوماً في باريس ، أن يغادر العاصمة غاضباً صاخبـاً ، ولحق بـأنصـاره في غويين ، في الوقت الذي أعلن فيه أن الملك أصبح راشداً (أيلول) .

وأثارت مغادرة كونده آخر مرحلة للفروند ، وأكثرها فوضى . وأكثرها تخريباً للمملكة أيضاً ، الفروند الكوندية (أيلول ١٦٥١ ـ آب ١٦٥٣ م) . وبعد بضعة أيام غادرم . البرنس ، والملكة الأم والملك باريس وأقاموا في بواتيه لمراقبة المتمردين بشكل أفضل . ومن بوردو ، حيث طردت الثورة الشعبية الحاكم الطاغية ، الدوق ديبيرون ، ونظمت حكومة ثورية تحت اسم (غابة شجر الدردار)[1] ، أجرى كونده اتصالات مع مدريد فوعدته بنجدات وكسب لقضيته قليلاً أو كثيراً أقاليم : لوبرّي ، الانجو ، الأونيس ، السانتونج ، وقسم من بواتو ، وبعد قليل ، البروفانس . وفي الواقع لم يكن هذا التجمع جبهة متحدة إطلاقاً ، وإنما مجموعة استياءات مختلفة الأصل ضد مازارن ، واتخذت اسم كونده علماً ورمزاً .

ومن المؤكد أن هذه الحالة أقلقت مازارن ، فدخل فرنسا في آخر كانون الأول على رأس ٧٠٠٠ رجل سيقوا من ألمانيا على حسابه ، ولم يكن من عودته إلا تعقيد الحالة بإيقاظ جميع الأحقاد القديمة ضده ، ولا سيا في باريس . وفي الواقع ، تسلم غاستون دورلئان ، المتردد الدائم من الملك عند ذهابه وظيفة النائب العام . وحرم البرلمان كونده ومازارن معاً . ومع ذلك ، فكر كونده بأنه يمكن الاعتاد على مساندة جيش اسباني آتٍ من البلاد ـ المنخفضة وعلى مساندة الآنسة الكبرى التي استولت على أورلئان ، وقررت ترك الجنوب ومحاولة السيطرة على العاصمة . وحاول تورين ، الذي كان على رأس الجيوش الملكية المرابطة في بواتو وعلى نهر اللوار الأوسط ، أن يمنعها . وبعد مناوشات مختلطة في بلينو ، في نيسان ، وايتامب في أيار ، وقعت المعركة الحاسمة ، في تموز ١٦٥٢ م ، تحت أسوار باريس وفي ضاحية سان ـ أنطوان . وقهر تورين كونده وبوفور وفلول جيشها ، ودفع بهم جميعاً حتى أبواب العاصمة ورفض البرلمان أن يفتح لهم الأبواب . إلا أنهم أنقذوا بتدخل الآنسة الكبرى التي أمرت بفتح باب سان ـ

---

(١) غابة شجر الدردار ـ LORMÉE

أنطوان وإطلاق النار على الجيوش الملكية من مدفع الباستيل . وفي الواقع ساءت حالة كونده جداً في باريس ، ولم يتفق مع غاستون أورلئان وريتز والبرلمانيين ، وبدا متغطرساً بشكل لا يمكن التعامل معه . واعتمد على بعض العناصر الشعبية الحانقة بسبب القحط والبؤس ، وأرهب القضاة والبورجوازيين ، في ٤ تموز بمذبحة في القصر البلدي . وكان البلاط آنذاك في بونتواز ، فرأى أن يستغل الحالة وضم للقضية الملكية عناصر كثيرة من البورجوازية الباريسية . وفي شهر آب ، رأى مازارن أن وجوده إلى جانب الملكة يؤلف عقبة أساسية لخضوع الباريسيين ، فغادر بونتواز لنفي ثان في بويون . وأخيراً ، في ١٣ تشرين الأول ، عزم كونده على الفرار للبلاد ـ المنخفضة الاسبانية .

وفي ٢١ تشرين الأول ، دخل لويس الرابع عشر وأنّ النمساوية باريس وسط التهليل والهتاف . وظهرا معتدلين في إجراءات القمع والضرب على أيدي المتمردين : فقد أبعد غاستون أورلئان مرة أخرى إلى (بلوا) ؛ ونفي بوفور وبعض البرلمانيين الكونديين ومن بينهم بروسل . أما ريتز فقد أوقف في ١٩ كانون الأول وسجن في فانسين ، ثم في قصر (نانت) ، ومنه هرب في شهر آب ١٦٥٤ م . ومازارن الصابر ، انتظر حتى ٣ شباط ١٦٥٣ م ، ودخل باريس واستقبله أهلها استقبالاً طيباً بعد الإعياء والضلال . وقمعت الاضطرابات الأخيرة ، في الإقليم في الأشهر التالية ،وفي (بروفانس) حيث سمى مازارن ابن أخيه بالتحالف دوق (مركور) حاكماً ، وفي بوردو حيث استسلمت حكومة الأورمية (غابة شجر الدردار) الديموقراطية في ٣ آب . وهكذا انتهت الفروند بعد أن مضى عليها خمس سنوات .

نهاية وزارة مازارن (١٦٥٣ ـ ١٦٦١ م)

كان الإعياء عاطفة سائدة في البلاد . ولكن هذا الهدوء في الواقع لم يكن كلياً وشاملاً . فقد كان بعض النبلاء يعولون دوماً على انتصار لكونده

والاسبانيين يعيد من جديد طرح كل شيء على بساط البحث . ومن روما ، حيث لم يستطع ريتز احتلال كرسي عمه ، حاول أن يثير الاكليروس الباريسي . ثم إن نمو القضية الجانسنية أقلق مازارن والكثيرين من قدامى الفرونديين بين أصدقاء البور - رويال . وكشف النظار في ١٦٥٨ و ١٦٥٩ م ، « الدسائس والمكائد المحرمة » من بعض نبلاء نورماندیا وبواتو ، وآنجو . وحدثت عدة هياجات شعبية معادية للضريبة في الغرب ١٦٥٦ م ، في آنجه ، ١٦٥٨ م ، في سولوني ، وبواتو ، وأنيس .

ومهما يكن فعلى العموم قبلت البلاد رد فعل الحكم المطلق الذي تبع عودة مازارن وانتصاره . وكان هذا مطمئناً للثقة الودية للملكة الأم واعتراف واحترام الملك الشاب ، ابنه الروحي وتلميذه . واعتمد على فريق لامع من المتعاونين المساعدين : المستشار السابق سيغيه ، ولوتيلليه ، وليون ، ورئيسي النظار آبل سيرفيَنْ ، ونيقولا فوكيه ، دون حساب جان - باتيست كولبر رجل ثقته ، وأرسل من جديد وبالتدريج النظار إلى الأقاليم ، وراقب الطبقة النبيلة بصورة وثيقة ، وحرم على برلمان باريس أي علم بشؤون الدولة ، ولا سيما في مادة الضريبة ، ومنعه في الواقع ، بالرغم من مقاومته ، من حقه في الرد على الملك بمحاذير أي براءة أو خلافها (تدخل لويس الرابع عشر في البرلمان ، في ١٣ نيسان ١٦٥٥ م) . وهكذا انتهى إخفاق الطموحات النبيلة والبرلمانية ، في بلد منهك ، بتعزيز الحكم الملكي المطلق .

وبالمقابل ، لم يغير مازارن شيئاً في السياسة المالية التي كانت تجاوزاتها في أصل الفروند جزئياً . ولمجابهة حاجات الحرب الإسبانية وبلاط فخم وجشع ، ترك فوكيه رئيس النظار الأوحد في ١٦٥٩ م ، يستعمل وسائل تقليدية دون اعتبار للبؤس المخيف الذي كانت عليه الجماهير المدنية والريفية في القسم الأعظم من المملكة : كالسلف على الواردات الآتية ، وقروض من الماليين ، المتعاملين

والأنصار ، وزيادة الضرائب ، وإحداث رسوم جديدة . وبيع الوظائف ، وتحويل العملات ، والتعرفة الجمركية لعام ١٦٥٤ م التي كان هدفها ضريبياً وللحماية . وبفضل علاقاته الشخصية مع ماليين عديدين ، مثل (هرفارت) ، قدر فوكيه نفسه أو على الأقل ، اعتقد بأنه لا يستغنى عنه : وسمح للكردينال أن يعمر ثروته الواسعة ، ويبني هو ثروته الخاصة ، وعاش في (سان ـ مانده) وفي (فو ـ لو ـ فيكونت) حياة باذخة ، وحامياً للكتاب والفنانين . ولكن كولبر كان يراقبه ويكشف للملك عن سوء تصرفه وارتكاباته .

ورأى مازارن نفسه أقوى من أي وقت مضى ، فزوج بنات أخته من آل مانتشيني ومارتينوزي (المازارينيات)[1] لأكبر أمراء المملكة ، وبخاصة كونتي ، مركور ، سواسون ، بويون ، ولكنه عارض لصالح المملكة زواج لويس الرابع عشر من مارية مانتشيني ، وهيأ للملك الزواج الاسباني ضماناً للسلام المنتصر ، وخياراً لإرث اسبانيا . وكانت معاهدة البيرينه ، واستعادة كونده حظوته ، والاحتفال بزواج الملك لويس الرابع عشر في كنيسة سان ـ جان ـ دو ـ لوز تتويجاً للعمل العجيب الذي أنجزه الإيطالي مازارن . وبعد بضعة أشهر على دخول الزوج الملكي الشاب باريس منتصراً ، في ٢٦ آب ١٦٦٠ م ، مات مازارن مسيحياً قوياً في فانسين ، في ٩ آذار ١٦٦١ م .

المجتمع الفرنسي في النصف الأول من القرن السابع عشر

المشاكل الاقتصادية والاجتماعية

إن النهوض الاقتصادي ، الذي قام بعبئه هنري الرابع غداة الحروب الدينية ، قد أوتي ثماره ، فقد كانت فرنسا ، في بداية حكم لويس الثالث عشر ، بلداً مزدهراً . وكان سكانها ، بعد هبوط النصف الثاني من القرن السادس عشر ،

---

(١) المازارينيات LES MAZARINETTES

في ازديـاد محسـوس . وفي الحقيقـة إن الاقتصـاد الـزراعي بقي حرجـاً بصـورة أسـاسيـة ، والجمـاهير الريفيـة ، التي يقـع على كاهلهـا القسـط الأكبر من العبء الضريبي ، كانت من حين لآخر ضحية أزمات الغذاء التي تجر المجاعـة والوفيـات . وهكـذا في ١٦١٧ ، ١٦٢١ ـ ١٦٢٢ ، ١٦٢٥ ـ ١٦٢٦ م ، كان مرور الجنـود هنـا وهنـاك ، عنـد تحرك النبـلاء أو البروتستـانت في الحرب ، يعني في الغـالب الأعم العنف والدمار . ومن جهة أخرى ، كانت الحياة الريفية الفرنسية متنوعة جـداً ، وعلى العموم أفادت من زيادة الإنتاج الشامل ، ويبـدو أنها عرفت ، في الثلاثين أو الأربعين السنة الأولى من القرن مصيراً تحسد عليـه بـالنسبـة إلى مصير كثير من البلاد المجـاورة في نفس الوقت ، كألمـانيـا على سبيل المثـال ، وبـالنسبـة لمصيرهـا الخاص في الدور التالي . حتى ان الأسطورة التي نحتت فيا بعد عن « الدجاجـة في القدر » أي العيش في رغد الملك الصالح هنري لهـا نصيبهـا من الحقيقـة التي يمكن تمديدها إلى ما بعد ١٦١٠ م .

وأوضح من ذلك أيضاً **النهوض العمراني** . وفي الحقيقة ، إذا كانت الأريـاف التي تعيش منطوية على نفسها قليلة الإحساس بموجات الظروف الكبرى ، فلقـد كانت على غير ذلك المدن الكبرى والمتوسطة ، ذات المصـانع والتـاجرة . إن توسع « القرن السـادس عشر الطويل » تتـابع حتى نحـو ١٦٣٠ ـ ١٦٤٠ م مـع ارتفـاعـه المستمر ، رغم بطئه قليلاً ، للأسعار والربح والإنتـاج . وقـد أفـادت البورجوازيـة من هذا التوسع في القرن السابق واستمرت في صعودها . لقد كان التجـار الأغنيـاء يحتكرون أو يسيطرون على الـوظـائف البلـديـة ، ويقرضـون المـال للملـك ، ويشترون لأنفسهم أو لأولادهم أراضي ، نبيلـة أحيـانـاً ، ووظـائف منبلـة في الغالب . وقد لعبت هذه البورجوازية المثقفة والغنية دوراً كبيراً متزايداً في المجتمع وفي الدولة ، ولكنهـا كانت متنوعـة كثيراً جـداً لتشـارك في نفس المصـالح ونفس الطموحات : إن الموظف مالك وظيفته التي أصبحت وراثية ، يعـارض المفوض ،

ولابس الثوب في السير نحو التنبيل يحتقر التاجر ، والمحامي أو الطبيب يكره المالي .

وظلت ثروة الطبقة النبيلة صلبة ببقائها على الأقل تعيش على الأطيان بصورة أساسية . وإذا كانت عملياً في معزل عن التيار العام للثراء الذي تؤلفه نشاطات المصانع والتجارة ، فقد أفادت من ارتفاع الدخل العقاري ، من أجار الأراضي والرسوم الأميرية ، عندما يجبى طبيعياً ، فيما كان الكبار في البلاط يفيدون من الأفضال والمعاشات التي تساعدهم على مستوى حياة هام وإعاشة زبائن من (الأوفياء) . وكانت هذه الطبقة النبيلة الطائشة المعربدة تخضع إلى أخلاق ما زالت إقطاعية . فقد كانت تعبد المجد والبطل ، وتحب المبارزات وركوب الخيل وألعاب الحب ، ومهيأة دوماً لأن تنقل إلى الحياة المؤامرات الرومانسية التي نجدها في (عشتار) ، الرواية الريفية التي ألفها في ١٦١٠ م (هونوريه دورفيه) (١٦٠٧ ـ ١٦٢٨ م) وكان لها تأثير عظيم من الوجهة النفسية على دقة ووضوح القرن السابع عشر .

وانطلاقاً من سنوات ١٦٣٠ ـ ١٦٤٠ م ، يرى أن الازدهار النسبي ، ولكن لا ينكر ، قد ترك المكان رويداً رويداً ، ولأسباب مختلفة ، إلى مشاكل اقتصادية متزايدة . ويرجع ذلك أولاً لتفاقم العبء الضريبي تبعاً لحاجات النزاع ضد آل هابسبورغ : فلم تصب الطبقات الشعبية به وحدها مباشرة ، ولكن هذا الاقتطاع المتعاظم للدخل القومي كان يعمل على حساب الاستثمارات المالية في المصانع أو التجارة البحرية الكبرى . وأكثر من ذلك أن الظروف انقلبت : فبين ١٦٣٠ ـ ١٦٤٠ و ١٦٥٠ م ، وبتواريخ مختلفة بالبداهة حسب الأمكنة والمحاصيل ، توقفت الأسعار عن الصعود ؛ وبعد ١٦٥٠ م ، بدأت حركة نزول أدت إلى هبوط الربح وإلى بعض الكساد في الأعمال والمصالح . وهذه الحركة الطويلة الديمومة انقطعت بارتفاعات دورية غالباً ، وقاسية ومدمرة . وهذه الأزمات الغذائية

المعاشية كانت تصاحبها أوبئة طاعون قاتلة تصيب هذا الإقليم أو ذاك ، بل وحتى معظم المملكــة في سنـوات ١٦٢٩ ـ ١٦٣١ م ، وفي ١٦٣٦ ـ ١٦٣٩ م ، وفي ١٦٤٣ ـ ١٦٤٤ م وبخاصة في ١٦٤٨ ـ ١٦٥٢ م ، سنوات الفروند . وكانت الوفيات النـاجمة عنها تصيب بقساوة ولزمن طويل الشعب الفرنسي . وعبث المحاربين على الحـدود وفي الأقاليم (الفروندية) ، وإن كان في الغالب عابراً ومحلياً ، إلا أنـه كان يزيـد في تفاقم البؤس وخلو البلاد من السكان ، والشواهد على ذلك كثيرة .

وكان التعمير بطيئاً في الأقـاليم المصـابـة أكثر من غيرهـا : إيـل دوفرانس ، بيكارديا ، شـامبـانيـا ، بورغونيـا . وصحبـه في الغـالب نقل ملكيـات هـام على حسـاب بعض نبلاء السيف الـذين دمرتهم الحرب ، أو فلاحين مـلاك ، ولصـالـح البـورجـوازيين ونبـلاء اللبـاس . وبـدا هـؤلاء سـادة قسـاة جفـاة ، وأصحــاب مصلحـة ، وأعـادوا الرسوم الإقطـاعيـة التي أهملت مع الزمن ، وحـاولوا تشكيـل أملاك واسعة مسيجة ، وعلى حساب أموال القرى بفضل حق الانتقاء .

ومع ذلك ، يجب ألا يبالغ بالشواهد عن حالة المملكـة غـداة الفرونـد . فمهما يكن البؤس فظيعـاً في بعض المنـاطـق ، وتراجـع السكان ، ومهما يكن البـطء في المصـالح والأعمـال وفقر بعض الطبقـات الاجتماعيـة ، فـإن فرنسـا ١٦٦١ م ، التي تغلبت من قريب على المحنـة المـزدوجـة من الحرب الأهليـة والحرب الخـارجيـة ، بقيت في تنوع وتوازن أقاليمها ، أكثر البلاد الأوربيـة سكانـاً بعـد هولانـدا ، ومن أكثرها غنىً .

تقدم الإصلاح الكاثوليكي والنزاع الجانسيني

كانت فرنسا أيضاً « المملكة المسيحية جداً » . فمنذ نهاية الحروب الدينية بدأ التعمير الروحي في خـط قرارات مجمـع ترانت . بيـد أن البرلمـانــات والسـوربـون رفضت دوماً أن تقبل في فرنسا قوانينـه ، ولكن مجلس الاكليروس ، في ١٦١٥ م ،

قرر الأخذ بعدم الاعتبار لهذا الرفض . وانطلقت القفزة في السنوات الأخيرة من حكم هنري الرابع : فقد عاد اليسوعيون في ١٦٠٣ م بموجب براءة روانْ ، وأدخلت مدام اسكاري والأب بيرول الكرمليات في ١٦٠٤ م ، ونشر فرانسوا دوسال في ١٦٠٨ م « **المدخل إلى حياة التقوى** » وأصلحت الأم أنجيليكا آرنو ، انطلاقاً من ٢٥ أيلول ١٦٠٩ م الدير السيسترسيني في بور - رويال - دي - شان ، وكان ذلك بداية لغزو صوفي مع تيار مزدوج من **الإنسانية السالية** والأغسطينية البيرولية ، وتفتحت في نصف القرن كله ، هذه النهضة الكاثوليكية الوضاءة على صعيدين ، إصلاح الاكليروس وتجديد التقوى عند العلمانيين ، فيما بدأ النزاع الجانسيني .

إصلاح الاكليروس

كان إصلاح الاكليروس يهم الاكليروس النظامي والاكليروس الزمني . لقد أصلحت النظم القديمة نفسها رويداً رويداً ، مثل بندكتيّو سان - مور (١٦١٨ م) ، والكهنة القانونيين النظاميين في (سانت - جونفيف ١٦٢٤ م) بإيحاء من الكردينال دولاروشفوكولد . ولكن بقي الكثير على هذا الصعيد نحو ١٦٦٠ م . وفي الغالب ، يرى أن أنظمة جديدة ، أو أدخلت حديثاً إلى فرنسا ، كانت تكثر من العمائر في كل مدن المملكة تقريباً . وهذا الازدهار ، دون سابق منذ القرن الثالث عشر ، انتهى بقلق بعض البلديات . **وبين الأنظمة النسوية الجديدة** ، أنظمة وقفت نفسها للتأمل وكانت كثيرة ، مثل أنظمة **الراهبات الكرمليات** التي انتشرت في المملكة كلها ، والراهبات الصليبيات التي أنشئت بدفع من الأب جوزيف ، و راهبات الزيارة - بالنسبة إلى زيارة **القديسة العذراء** إلى القديسة إليزابت - وتحتفل الكنيسة بعيد هذه الزيارة في ٢ تموز ، التي أسسها فرنسوا دوسال و (جان شانتال) في مدينة (آنسي) في ١٦١٠ م ، و (الفويانتينات) أو **السسترسيات** المصلحات . **والأورسولينيات** التي دخلت من إيطاليا ، تعلقت بتربية الفتيات . أما راهبات فتيات الإحسان التي أسسها في

١٦٣٣ م (فانسان دوپول) ولويز دوماريـاك ـ ابنـة أخت الماريشال وأرملة بورجوازي باريسي ثري يـدعى أنطوان لوغرا ـ فقـد وهبن أنفسهن كاملاً لخدمة الفقراء . وهن راهبات من نموذج جـديـد ، دون نـذر إن لم يكن سنوياً ، ودون سور للدير ، ودون لباس مميز ، ويساعدهن في عملهن **سيدات الإحسان** .

والأنظمة الرهبانية المذكرة الجديدة كثيرة أيضاً ونشيطـة . **فاليسوعيون** ، الـذين عظم نفوذهم بسرعـة ، أكثروا ، انطـلاقـاً من ١٦٠٣ م ، دورهم وكليـاتهم . وأسس الأب (دوبيرول) في ١٦١١ م أديرة الأوراتـوريين . و (كهـــان الإرسالية) أو العـازاريين في ١٦٢٥ م على يـد فـانسـان دوپول . وأسس (جـان أود) في ١٦٤٣ م رهبنة (الأوديين) ، ويراد منها ثلاث (جمعيات كهان) أكثر من أنظمة دينية حقيقية . وكل هذه الطرق الرهبانية ، وضعت نفسها في خـدمـة النهضـة الكاثـوليكيـة على جميع الأصعـدة : تثقيف الأكليروس ، تعليم الفتيـان ، التبشير والإرساليات .

وتلاحـظ الحـالـة المحزنـة التي كان عليهـا **اكليروس الخوريـات** في القرى ، في النصف الأول من القرن السابع عشر ، وتؤكد ذلـك الشواهـد الكثيرة التي تكشف عن جهل وعدم انصياع ولا أخلاقية الكثير من الاكليركيين . والسبب في ذلك هو الفقدان الكامل لتثقيف كهنة المستقبل ، خارجاً عن دار المبتدئين في الرهبـانيـة . إن قرار مجمع ترانت المتعلق بإحـداث مـدارس اكليركيـة ظل عملياً حرفاً ميتـاً ، وخارجاً عن الأوراتوريين والعازاريين الذين يهتمون قبل كل شيء بهذه القضيـة ، ولكنهم متجهون جزئياً نحو أعمال أخرى ، نذكر أنها مبادرات خوريين بـاريسيين لها دلالة خاصة وغنية بـالمستقبل : **الأول** (ادريـان **بوردواز**) خوري (سـان ـ نيقولا ـ دو ـ شاردونّيه) ، نظم في ١٦٢٠ م هيئة كهان تستقبل وتعلم من يبـدون استعـداداً لقبول الـدرجـات الكنسية ؛ **والثـاني** جـان ـ جـاك ـ أوليـه ، خوري (سان سولبيس) ، أحدث بدوره في ١٦٤٠ م جمعية جديدة عرف أعضاؤها بـاسم

السولبيسيين ، ويأتون من كل الأبرشيات ويتثقفون في سان ـ سولبيس ، ويؤهلون لإدارة وتشكيل الملاك التعليمي في المدارس الاكليركية في الأبرشية . وفي الوقت نفسه ، شعر الكثير من الأساقفة بواجبهم تجاه كهانهم ومؤمنيهم والتزموا بالسكنى في أبرشياتهم . وهكذا كانت الوسائل في عام ١٦٥٠ م ، في مكانها ، لإصلاح عميق لاكليروس القرى والأرياف يكاد يبدأ في ذلك التاريخ .

وبصورة موازية ، أحدث الأوراتوريون ، وبخاصة اليسوعيون ، كليات عديدة تستقبل أبناء البورجوازية والنبيلة . وأكثر العازاريون واليسوعيون والأوديون والكبوشيون الإرساليات ، اما في الداخل لكسب الجماهير التي تخلت عن المسيحية مثل ميشيل لونوبلتز ، وجوليان مونوار في بروتانيا ـ الدنيا ، أولرد البروتستانت إلى حظيرة الكاثوليكية ؛ وإما إلى الخارج للتبشير بالإنجيل ، كما في الشرق الأدنى ، والهند الشرقية ، وفرنسا الجديدة[1] .

وهذه المبادرات العديدة ، التي قام بها الاكليروس ، كان يساندها بقوة نخبة من العلمانيين الأتقياء : من نبلاء ، وبورجوازيين أثرياء ، وصناع ، وسيدات كبيرات من الطبقة النبيلة والبورجوازية ، وفتيات متواضعات من الأوساط الشعبية ، قرؤوا فرنسوا دوسال أو استمعوا إلى فانسان دوبول ، وبيير دو بيرول ، أو سان ـ سيران ، واهتدوا وبرهنوا عن تقوى شديدة وغيرة في الهداية إلى الكاثوليكية . وكان من بينهم الدوق ليفي دو ڤانتا دور . فقد أسس في ١٦٢٧ م ، في باريس « جمعية سر القربان المقدس » انتشرت في الإقليم وضمت علمانيين من كل صف ، أو اكليركيين مثل : أوليه ، وفانسان دوبول ، وبوسويه . ولم يكن هدفها القيام بأعمال التقوى والإحسان فحسب ، كإسعاف المرضى والفقراء والمساجين ، وإنما أيضاً الدفاع عن الأخلاق المسيحية بتدخلات سرية لدى الحكام

---

(١) فرنسا الجديدة اسم حملته في القرن السابع عشر الممتلكات الفرنسية في كندا .

والموظفين ، وكانوا يراقبون المتبارزين ، والمجدفين والخلعاء ويكشفون عنهم . غير أن السر الذي أحاطت الجمعية نفسها به والطابع القابل للنقاش لبعض نشاطاتها جرا عليها الشك وسوء الظن من السلطة الزمنية والسلطة الكنسية والعداءات الشديدة . ومنعها في ١٦٦٠ م مازارن ولم يغفر لبعض أعضائها مشاركتهم في الفروند ، وعاشت أيضاً بضع سنوات وزالت نهائياً في ١٦٦٧ م .

إن حياة وأثر سان فانسان دو پول (١٥٨١ ـ ١٦٦٠ م) يوجزان تقريباً جميع مظاهر الإصلاح الكاثوليكي . كان ابن فلاح من إقليم (اللاند) ، وأصبح كاهناً وصديقاً لـ : بيرول وفرنسوا دوسال ، وأنشأ في ١٦٢٥ م في باريس (**جمعية الرسالة**) .

وفي ١٦٣٢ م أقام كهان الرسالة في دير سان ـ لازار ، حيث نظم فانسان دو بول خلوات خمسة عشر يوماً من أجل المستعدين لقبول الدرجات الكنسية ، كما نظم ، كل ثلاثاء ، محاضرات للكنسيين . وكانت أعمال الإحسان ، في هذه السنوات ١٦٣٥ ـ ١٦٦٠ م بالنسبة له غير منفصلة عن أعمال الإيمان والتعليم ، وقد كتب : « الشعب يموت جوعاً ويهلك » . وهذا ماذهب به إلى إنشاء جمعية (سيدات وفتيات الإحسان) في ١٦٣٣ م ، وتنظيم عمل الأطفال اللقطاء في ١٦٣٨ م ، وعمل المحكومين بالأشغال الشاقة في ١٦٣٩ م ؛ وفي آخر حياته ، أسهم في تأسيس (المستشفى العام) في ١٦٥٦ م ، مستنكراً التجاوزات التي انتهى إليها هذا الحبس الكبير للفقراء . وإشعاعه جعل منه مستشاراً كنسياً للملكة آنّ النمساوية ، وعضواً في (مجلس الوجدان) ، وهذا ماجر عليه حذر ومن ثم عداوة مازارن . وعندما توفي في ، ٢٧ أيلول ١٦٦٠ م ، كان وجهاً للزعيم الأخلاقي في كنيسة فرنسا .

وكان نجاح الأفكار الجانسينية في فرنسا ـ كما رأينا ـ غير منفصل عن مناخ النهضة الدينية التي نمت فيه . ولكن انطلاقاً من ١٦٤٣ م ، والإكثار من نشر سر

تناول القربان المقدس ، انقلب الجدل الذي عارض به أنطوان آرنو وأصدقاؤه من جماعة بور ـ رويال خصومهم ، إلى نزاع عنيف تجاوز الأوساط الكنسية ، واهتم به فيما بعد قطاع عظيم من الرأي في باريس ، كما في الإقليم ، وأقلق السلطة . وفي تموز ١٦٤٩ م ، قدم نيقولا كورنه ، وكيل السوربون ، إلى زملائه مختصراً عن (الأغسطينوس) بشكل خمسة اقتراحات (نظريات) . وقرر مجلس الاكليروس ، في ١٦٥٠ م ، عرضها على البابا إينوسان العاشر ليحكم بها . وبعد ثلاثة أعوام حكم البابا بـ (المرسوم المناسب) ، المؤرخ في ٣١ أيار ١٦٥٣ م ، بشجب رسمي لهذه الاقتراحات الخمسة . فأثار هذا الحكم النقاش من جديد . وفي الحقيقة ، رد أنطوان أرنولد عليه ، وبخاصة في (رسالتيه إلى شخص ذي مكانة) ، في ١٦٥٥ م ، مدخلاً تمييز الحق عن الواقع . فقد وافق ، في الحق ، على شجب الاقتراحات الخمسة ، وأنكر ـ في الواقع ـ أن تكون في جانسينيوس . ولهذا قررت السوربون حذف اسم آرنولد من عداد دكاترها . وطلب أصدقاء بور ـ رويال ، مثل نيقولا ولوميتر ، عندئذ إلى بليز باسكال طرح النقاش أمام جمهور « الناس الشرفاء » . وكان هذا هدف « رسائل محررة إلى إقليمي من أحد أصدقائه في موضوع المنازعات القائمة في السوربون » ، في كانون الثاني ١٦٥٦ ـ آذار ١٦٥٧ م . وهذه (الإقليميات) الثاني عشرة التي تناولت خمس منها قضية (العفو) الإلّهي ، والأخرى : أخلاق اليسوعيين المتراخية المتلانية ، أحرزت نجاحاً عظيماً .

ولكن البابا الكسندر السابع جدد شجب الاقتراحات الخمسة بموجب (مرسوم القداسة) ، المؤرخ في ١٦ تشرين الأول ١٦٥٦ م ، وقرر مجلس الاكليروس ، في آذار ١٦٥٧ م أن يفرض على جميع الكهان ، رهباناً و راهبات توقيع صيغة حررت على هذا النحو :

« أنا الموقع أدناه أخضع لدستور إينوسان العاشر الرسولي ، الصادر في ٣١ أيار ١٦٥٣ م ، ولدستور الكسندر السابع في ١٦ تشرين الأول ١٦٥٦ م . وأطّرح

وأشجب بإخلاص الاقتراحات الخمسة المستلة من كتاب جانسينيوس المعنون (أغسطينوس) ، بالمعنى الخاص للمؤلف ، كما شجبها الكرسي ـ الأقدس في الدساتير نفسها . وبناء عليه أقسم » .

أمام هذا الهجوم ، لم يكن موقف الجانسينيين إجماعياً : وإذا رفض أنطوان آرنولد وراهبات دير بور ـ رويال ، لأسباب مختلفة أحياناً ، توقيع « الصيغة » ، فإن بعض المتطرفين ، مثل مارتن دو باركو الذي خلف عمه أباً على دير سان ـ سيران ، يزعمون أن الحقيقة لا يمكن الدفاع عنها بوسائل بشرية وجدلية ، وينكرون تمييز الحق والواقع ويقبلون أن يعطوا توقيعاً دون قيمة في نظرهم . ومع ذلك ، لم يتصور أي شدة ضد الراهبات المقاومات . وما كان مازارن ليرجو احتدام النزاع ، فقد أدرك كل ما يخبأ من معارضة سياسية واعية كانت أو غير واعية ، في موقف بعض أصدقاء بور ـ رويال ، من قدامى الفرونديين ، ونبلاء اللباس ، والموظفين ، الذين نقلوا في الجانسينية و « رفضها للعالم » ، مقاومتهم للملكية المطلقة . أما في النزاع مع البابا ، فلم يكن مستعجلاً في إرضاء روما والأتقياء . لقد كان يرجو فقط أن يهدأ النزاع من نفسه ويكف عن تعكير النظام .

التنوع الفرنسي : باريس والإقليم

لقد لعبت باريس دورها كاملاً كعاصمة ، منذ نهاية القرن السادس عشر . وكانت دوماً في حماية سورها الوسيطي الذي ازدوج انطلاقاً من ١٦٣٣ م على الضفة اليمنى لنهر السين بسور ذي زوايا محصنة يضم الحدائق بين قصر اللوفر وقصر التويلوري والحي المسمى حي (الخنادق الصفراء) . وشعبها ، الذي انحدر إلى ٢٠٠٠٠٠ نسمة غداة حصار ١٥٨٩ ـ ١٥٩٤ م ، تضاعف بعد نصف قرن تقريباً . وتعود هذه الزيادة إلى فائض الولادات أقل مما تعود إلى هجرة إقليمية كثيفة بل وأجنبية .

وبصورة موازية ، عرفت المدينة ، في داخلها ، وفيما وراء أسوارهـا ، توسعاً لا سابق له وطابعاً جديداً . وهذا التوسع لا يهم النواة المركزية : المدينـة القـديمة (جزيرة نهر السين ، والجامعة (في الضفة اليسرى للنهر) ، والمدينـة (في الضفـة اليمنى) فحسب ، وإنما منـاطقهـا المحيطيـة حيث مـازال يوجـد بعـد مسـاحـات فارغة : (الماريه) ـ أقدم حي في باريس ، في المنطقة الثـالثـة والرابعـة ، ويضم قصور القرن السـابع عشر ـ وجـزيرة القـديس ـ لـويس ، الحـارة الجـديـدة التي يضمهـا سـور لـويس الثـالث عشر ، وأخيراً على الضفــة اليسرى (لـوبره ـ أو ـ كليرك) ـ وهو مرج أمام سان جرمن ديه ـ بريه كان يفيد مكان لقـاء لتشريف طلاب جامعة باريس القديمة ـ وضاحية سـان ـ جرمن . والطـابع الجـديـد لهـذا التوسع يكمن في الأهميـة التي برهن عليهـا هنري الرابـع بعـد ١٥٩٤ م ، وبـدرجـة أقل ، لويس الثالث عشر ، في تنظيم عاصمتها . وهـذا يتضح أولاً ببنـاء ميـادين ملكية ، وهي ساحات مغلقة بشكل هندسي منتظم ومحاطة بعمائر وحيـدة الشكل تفيد كإطار لتمثال المليك . وأصـالـة هـذا النموذج الفرنسي نوعيـاً تكمن في تقـارب عنصرين مقتبسين عن إيطاليا وهما : الميـدان المبرمج والتمثـال . والميـدان الملكي ، وهو اليوم ميدان الڤوج ، أنشئ بين ١٦٠٦ و ١٦١٢ م يعتبر أفضل مثـال لـذلـك . والميدان الدوفيني المنشأ في نفس السنوات يؤلف ، بشكلـه الشبـه منحرف وتمثـال هنري الرابع على الجسر الجـديـد ، تغييراً أصيلاً على نفس النسق . وتنظيم جزيرة القديس ـ لويس انطلاقـاً من ١٦١٨ م كان أيضـاً نتيجـة مبـادرة ملكيـة . وهـذا مـا يجعل للمجموع وحـدة عمرانيـة . وفي الـوقت نفسـه ، حـاول الملـوك أن يحثـوا وينسقوا أعمـال الأفراد : فقـد بنى النبـلاء والقضـاة لأنفسهم بـالقرب من الميـدان الملكي قصوراً بمفهوم متنوع ، كأن يكون القصر بين ميدان وحـديقـة ، وأسهموا في جعل حي الماريه أكبر حي على الموضة . وبدأ بناء حي ريشليو (الخندق الأصفر القـديم) في ١٦٣٣ م حول المقـام الفخم للوزير (القصر ـ الكردينـال ، ثم الملكي ، مع حديقته الشهيرة) ؛ وعلى الضفـة اليسرى ، شـادت مـاريـا دو ميـدتشي قصر

اللوكسمبورغ ، فيما بدأ بعض كبار الأمراء يتوافدون للإقامة في حي سان ـ جرمن . وشيدت في ذوق العصر كنائس عديدة ، وبخاصة كنيسة القديس ـ لويس لليسوعيين ، وسان ـ جرفيه ، وكنيسة السوربون ، وكنيسة فال دو غراس ، كما كثرت الدور الدينية الجديدة بفضل كرم المؤمنين .

وفي الحقيقة ، إن باريس ، في مجموعها وبخاصة في أحياء المركز القديمة ، ظلت مدينة ذات **مظهر وسيطي** أي يرجع إلى القرون الوسطى : شوارع ضيقة وملتوية ، مع نهر مياه وسخة في الوسط ، ومواصلات صعبة في النهار ، بسبب الزحام ، وخطرة في الليل ، لعدم وجود إضاءة وشرطة كافية : ومع ذلك ، فقد كبرت المدينة وجُمّلت وأصبحت تستحق أن تكون في مصف **العاصمة** ، وليس فقط العاصمة السياسية مقام الملك والبلاط ، ومقر المصالح العامة الكبرى ، وإنما أيضاً العاصمة الفكرية والفنية في المملكة . والصالونات ، مثل صالونات (السيدة رامبويه) ، أو (الآنسة دو سكوديري) ، والأكاديمية الفرنسية بعد ١٦٣٥ م ، أعطتها لوناً وذوقاً . وفي باريس ، كان الكتاب يرون تمثيل قطعهم المسرحية ويطبعون كتبهم ، وإلى باريس والبلاط كانت الأنظار تتجه من كل حدب وصوب في أنحاء الاقليم .

وفيما عدا العاصمة ، وعلى مسافات متغيرة تمتد **الأقاليم** على اختلافها وتؤلف المملكة بالرغم من بطء العلاقات : فمن باريس إلى بوردو مثلاً يحتمل السفر ٨ أيام ، و ١٢ يوماً من باريس إلى مرسيليا . وهذه الأقاليم تتميز :

أولاً : باختلافها الإداري . فكثير من الأقاليم أو المدن كانت تحافظ على حريات محلية منحت لها عند انضمامها للتاج وظلت محترمة منذ ذلك الحين . فنحو منتصف القرن كانت بروتانيا ، بورغونيا ، لانغدوك بخاصة تملك مجالس إقليمية مكلفة بالتصويت على الضريبة وتوزيعها وجبايتها ، بينما كان باقي المملكة يؤلف بلاد انتخابات . وتنتخب بعض المدن حكامها وقضاتها البلديين ،

وامتيازاتهم هامة جداً ، وتتمتع أحياناً بامتيازات ضريبية . ونظام ضريبة الملح متغير للغاية حسب المناطق . والجمارك الداخلية ، على النقل والجسور والطرق ، والموازين والمكاييل مختلفة جداً بشكل غريب ، وحتى (الأعراف) التي تصدر بموجبها الأحكام العدلية . وأخيراً لم تتراجع اللهجات المحلية إلا ببطء أمام اللغة الفرنسية .

والتنوع الاجتماعي أيضاً في الريف، حيث الشقة واسعة بين الفلاح الغني والعامل اليدوي ورجل السخرة، كما في المدينة، حيث يتدافع بالمناكب الاكليروس الزمني والنظامي ونبلاء اللباس والحكام وذوو الدخل وأصحاب الحرف.

وكان الاختلاف في المحاصيل الإنتاجية مرتبطاً باختلاف المناخات والأراضي . ولا تختلف فرنسا الشمال على وجه الإجمال فيما وراء نهر اللوار عن فرنسا الجنوب فحسب ، وإنما كان لكل منطقة ، خارجاً عن الحنطة وتربية هزيلة للحيوانات ، محاصيل ثانوية خاصة بها تجهز الفلاح غالباً ببعض المداخيل المالية الضرورية لدفع الضريبة : كالكرمة ، والأشجار المثمرة ، والنباتات النسيجية ، كالكتان والقنب ، والنباتات الصباغية . وكذا الحال في الحرف اليدوية الريفية النامية والمتعددة الأشكال . ويميل ضعف المواصلات إلى عزل المناطق الصغيرة واختلافها . فقد كانت على العموم متمركزة على مدينة ذات أهمية متغيرة يسيطر سكانها اقتصادياً على البلاد السهلية ويقتطعون ، تحت شكل الأعشار أو الأتاوات ، الفائض التجاري للمحاصيل التجارية ويوجهون العمل التقني في الأرياف . وكانت المدن الرئيسية في الأبرشيات مقامات للمحاكم ، ومقراً للأسواق والمعارض الموسمية . وهذه المدن صغيرة ومحمية بأسوارها الوسيطية وصاخبة بصوت نواقيسها وضجيج حرفها . وهي تلعب بحق دور العاصمة بالنسبة للخوارنة وقرويي الجوار المحيط ، بل وحتى بالنسبة للنبلاء المعوزين المقيمين على أراضيها . وبعضها كانت بنادر إقليمية كبرى بفضل الوظائف العليا والإدارية

والقضـائيـة ، كوجود برلـان مثـلاً ، كما في رين أو تـولـوز ، أو نشـاط اقتصـادي استثنائي ؛ مثل ليون ، ومارسيليا ، والموانئ الأطلسية الكبرى .

وهكذا تظهر المملكـة الفرنسيـة ، في النصف الأول من القرن السـابع عشر حبيسة داخل أسوارها ومختلفة ومتنوعة ، ولكنها غنية بهذا الاختلاف والتنوع .

الفصل العاشر

انكلترا والأقاليم - المتحدة

إخفاق الحكم المطلق في انكلترا (١٦٠٣ - ١٦٤٩ م)

لقد حاول المليكان الأولان من أسرة آل ستوارت توطيد الحكم المطلق في انكلترا ، ولكنهما اصطدما بمجتمع في عز تحوله . فقد عارض المستفيدون من تقدم الرأسمالية مزاعمهما في ذلك الحكم المطلق على الصعيد السياسي والديني والاقتصادي ، وانتهت الحرب الأهلية التي نجمت عن ذلك بهزيمة الملك شارل الأول وإعدامه .

انكلترا تحت حكم الملك جيمس الأول (١٦٠٣ - ١٦٢٥ م)

الملك والأمة

لقد أصبح ملك إيكوسيا (سكوتلاندا) جيمس السادس من آل ستوارت ملك انكلترا تحت اسم جيمس الأول عند وفاة الملكة اليزابث الأولى في ١٦٠٣ م ، وما لبث أن فقد شعبيته بسرعة بسبب طبعه ومفهومه للسلطة وخرقه ، بيد أنه لا يخلو من الذكاء والفطنة والثقافة ، ولكنه كان سكيراً فاجراً صلفاً هلوعاً ، وكئيباً معتل الصحة . وسرعان ما صدمت أفكاره السياسية غالبية رعاياه الإنكليز . كان شديد التعلق بالملكية المطلقة والحق الإلهي ، ويرى بأنه غير مسؤول إلا أمام الله ، وأن الامتيازات الملكية بغير حدود . لقد حاول أن يحكم بموجب القانون ، ولكنه أراد تجاوز البرلمان . ورغم أنه تربى في أحضان الكنيسة

المشيخية في إيكوسيا ، كان معادياً جداً للمظاهر الديموقراطية المشيخية ، ويرى أن يعتمد على الكنيسة الانغليكانية التي يتزعمها ويعين أساقفتها ، ويقضي على جميع المقاومات الكاثوليكية منها والبروتستانتية المنشقة .

كان الكاثوليك كثراً بالرغم من اضطهاد الملكة إليزابث الأولى ، وفي بداية الحكم كانوا يعقدون بعض الآمال على الملك الجديد ، ابن الملكة الكاثوليكية ماريا ستوارت . وسرعان ما خاب رجاؤهم ، حتى ان بعضاً منهم قرروا ، في تشرين الثاني ١٦٠٥ م ، الخلاص من جيمس الأول بنسف قصر وستمنستر أثناء جلسة البرلمان التي يريد حضورها . وهذه المؤامرة التي عرفت باسم (مؤامرة البارود) أحبطت في حينها ، واتخذت إجراءات جديدة ضد الكاثوليك ، فيما غمرت انكلترا كلها موجة معادية للبابوية .

وإذا لاقى اضطهاد الكاثوليك موافقة أكثرية واسعة من الإنكليز ، ففي النقاط الأخرى أساء جيمس الأول معرفة تطلعات رعاياه وارتكب كثيراً من الأخطاء الفادحة وسوء التدبير . لقد كان باستطاعة البرلمان وحده أن يصوت على الضرائب ، وما فتئ العجز المالي الذي تركته اليزابث الأولى يتفاقم بسبب نفقات البلاط ، ونصح الملك شيوخ مثل السور روبرت سيسيل ، كونت سالسبري ، فحاول جهده مراعاة المجلسين ، مجلس العموم ومجلس اللوردات ، ودعاهما للانعقاد مراراً عديدة . ولكنه بعد وفاة سيسيل وثق عشوائياً ، انطلاقاً من ١٦١٢ م ، بمحظي شاب ، في سن الـ ٢٢ عاماً ، وهو (جورج فيلليه) وجعل منه دوق (بوكنغهام) ، وباتفاق معه ، حاول الخلاص من البرلمان باللجوء إلى طرق ووسائل مالية : كالتصرف بالمستغلات الملكية ، وبيع المروج ، وإحداث فئة جديد للنبل (فئة البارونه) ومضاعفة امتيازات الحصر إما باستغلالها لصالح التاج ، وإما ببيعها لشركات أو للأفراد . ومع ذلك نجده في ١٦٢١ م ، يتخذ حجة بعد النداء الذي وجهه إليه صهره الناخب البالاتيني ، ويدعو البرلمان

ليطلب منه عوناً مالياً بالمزيد من الضرائب . وفي الحقيقة ، كان في الوقت نفسه يقوم بمفاتحات مع ملك اسبانيا بغية زواج ابنه شارل مع ابنة ملك اسبانيا . وقبل البرلمان التصويت على المساعدات ، ولكنه أفاد منها لنقد سياسة الملك بشدة في التقارب مع اسبانيا ، وممارسات الحكومة المالية ، وذهب في هذا المنحى حتى حكم وشجب المستشار فرانسيس بيكون المتهم بالارتكابات . وأخيراً ، في ٢٨ كانون الأول ، وجه مجلس العموم إلى الملك احتجاجاً شديداً مذكراً بحقوقه التقليدية ولا سيا في موضوع الضرائب ؛ فأجاب جيمس الأول بحل البرلمان .

ومن جهة أخرى ، كان الملك ، منذ عدة سنوات ، في نزاع مع **البروتستانت المنشقين** : فقد سجن العديد من الطهرانيين ؛ وفضل الآخرون مغادرة وطنهم والعيش في المنفى ، مثل الآباء « حجاج » ميفلاور في ١٦٢٠ م . وبالرغم من التخلي عن مشروع الزواج الاسباني (لقد تزوج أمير الغال أخيراً أخت لويس الثالث عشر) ، عقد اجتماع جديد للبرلمان في ١٦٢٤ م ، وفجر ، مرة أخرى ، الفرقة بين الملك والأمة ، قبل موت جيمس الأول ، في ١٦٢٥ م ، ببضعة أشهر .

ونحو ١٦٢٥ م كانت انكلترا في عز ازدهارها وخصبها ، إثر التحويلات الاقتصادية العميقة التي عرفتها منذ حكم الملكة إليزابث . وكان أهم مظهر لذلك النمو العظيم الذي لاقاه النشاط الصناعي المرتبط بسببه كما في نتيجته بتقدم التجارة البحرية الكبرى . كانت الصناعة المعدنية : الحديد ، الرصاص ، القصدير ، النحاس في عز النهوض . وسهل إنتاج الفحم الحجري بوجود عدة مناجم سهلة الاستغلال ومضاعفته بين ١٦٠٨ و ١٦٣٣ م ، وكانت (نيوكاستل) ميناءً كبيراً مصدراً له . وفي الواقع ، إن فحم الأرض ، باعتباره ناب مناب فحم الخشب بعد أن أصبح نادراً ، أفاد عدة استعمالات لا من أجل التدفئة المنزلية فحسب ، وإنما أيضاً في بعض عمليات صناعية ، كصهر فلذات أخرى غير الحديد وصناعة تحويل المعادن ، ومعامل تكرير السكر . وعرفت الصناعات النسيجية

نمواً كبيراً ، وتعدد صنع الأقمشة ، وأنشأت الرحاب البحرية سفناً كثيرة متكاثرة . وبصورة عامة ، بدأت الصناعة الإنكليزية تتجه نحو إنتاج النوعية . وهذه (الثورة الصناعية الأولى) صحبها تعزيز رأسمالي واضح ، وتجهيز ، واستغلال للمناجم ، وإنشاء رحاب بحرية أو مصانع تتطلب رؤوس مال هامة . ولكن الإنتاج ظل في الغالب مبعثراً ، ولا سيا في الصناعة النسيجية ، حسب نمو العمل المنزلي في المدن والأرياف ، لحساب صاحب مصنع كبير .

وفي **الزراعة** ، استؤنفت حركة تسوير المروج ، وتسارعت لصالح بعض الملاكين الأشراف غير الملقبين ، الجنتري[1] ، الذين اتجهوا أكثر فأكثر ، وبخاصة في الشرق والجنوب ، نحو تربية الخراف .

وهذه التحويلات الاقتصادية العميقة كان لها نتائج هامة . فقد كانت البورجوازية وجزء من الجنتري أكبر المستفيدين من الازدهار ، وهم أصحاب المناجم ، أو مصانع تحويل الصلب إلى فولاذ ، وإعطائه أشكالاً مختلفة ، وأصحاب مصانع الأقمشة ، ومصانع السفن ، والملاحة التجارية ، والمساهمون في الشركات التجارية ، ومربو الخراف ، وكانوا يريدون التمتع بأكبر حرية في نشاطاتهم ويحتجون على كثرة حصر الامتيازات الملكية والتشريع الذي يحاول إعاقة حركة **التسوير** . وفي الوقت نفسه يلومون جيمس الأول ، ومن بعده شارل الأول بعمل لاشيء لحماية الصناعة الإنكليزية ضد المنافسة الأجنبية ، ولتأمين منافذ جديدة لها في أمريكا أو في المحيط الهندي ؛ إذ لم يحصل جيمس الأول من فيليب الثالث ملك اسبانيا على أي فائدة للتجار الإنكليز في المستعمرات الاسبانية ، ولم يقم برد فعل ، عندما طرد الهولانديون الإنكليز من **أمبوان** إحدى جزر الملوك ، في أندونيسيا ، في ١٦٢٤ م . ومع ذلك فإن عدة أعضاء من الأرستقراطية العليا ،

---

(١) الملاك الأشراف الذين لالقب لهم يحملونه هم من يسمون : (جنتري ـ GENTRY) .

الاوفياء لطرق الإنتاج القديمة ، كانوا يعيشون على أملاكهم العقارية ، أو على كرم المليك ، وكانوا في معزل عن تيار الثراء الكبير ومعادين لنظام الأشياء الجديد . وأخيراً ، كانت ضحايا التطور الاقتصادي عديدة . وهذه هي حالة الملاك الصغار ، في الأرياف ، الذين طردهم تقدم التسوير ، ودمرتهم منافسة الأملاك الكبرى ؛ وحال العمال الزراعيين الذين سلمهم للبطالة توسع تربية الخراف ؛ والعمال الحرفيين الذين حرموا من زبائنهم بعد أن خلت الأرياف من السكان . وثار الكثير من الريفيين مراراً لكسر الحواجز وردم الخنادق . ففي ١٦٠٧ م ، أخذت الحركة في الميدلانس نسباً عظيمة ؛ وألقت ثورات (ورويكشاير) ببيان تطالب فيه بعنف بإلغاء التسوير :

« إنهم يطحنون لحمنا برحى البؤس ليعيشوا ، هم ، وسط خرافهم السمينة ، وهم الذين جعلوا قرانا خراباً بلقعاً . إن قرىً كاملة دمرت بأسرها لتترك المجال رحباً للمراعي التي لا يعمل منها إلا في بلدنا » .

وفي المدن ، كان يساء دفع أجور العمال بسبب منافسة الريفيين الذين يقبلون سَوْقَهم للعمل بأجور مخفضة . ولذلك كانوا يضربون أو يهجرون المشاغل .

وتضاعف القلق الاجتماعي بقلق ديني . فقد حاول الملك جيمس الأول أن يجعل من الكنيسة الأنغليكانية أداة لحكمه المطلق ، وكان يردد « لا أساقفة ، لا ملك » . فأثار حوله معارضة كل من ينتمي للفكر الطهراني من مشيخيين أو مستقلين . وكان المشيخيون معادين لنظام التسلسل الأسقفي ، ويتمنون ، في انكلترا ، إقامة كنيسة مشيخية حسب النموذج الإيكوسي . ويطالب المستقلون بالفصل بين الكنيسة والدولة ، وتطبيق أوسع تسامح ديني على جميع البروتستانت باسم الحرية الفردية . وهذه بخاصة حال أنصار استقلال الكنائس

البروتستانتية ، التي ليس لها أسقف ولا كاهن ، لأنها تعترف بأن جميع المسيحيين (كهنة الله)[1] ، والمعمدانيين الذين ألفوا طائفتهم الأولى في لندن عام ١٦١١ م .

وأخيراً ، كان جيمس الأول أقل حذراً وفطنة من الملك هنري الثامن أو اليزابث . وصدم الإنكليز حتى الأعماق في تعلقهم بحرياتهم السياسية . لقد اعتمد على المجلس الخاص الذي يعين أعضاءه ، وحاول أن ينمي المركزية على حساب الاستقلال الذاتي العريض للسلطات المحلية ، وحاول ـ بخاصة ـ تجاوز البرلمان الذي يمثل أعضاؤه مصالح الجنتري والبورجوازية ، ويدعون بأنهم وحدهم المؤهلون للتصويت على الضريبة . وهكذا ، بين عاهل يريد أن يحكم ملكاً مطلق الحكم ويحافظ على التوازن بين الطبقات الاجتماعية التقليدية ، ومجتمع تريد فيه الطبقة الرأسمالية الجديدة السيطرة على الملكية ومتابعة صعودها بحرية ، كان الخلاف حتمياً لا مناص منه ولا مهرب .

بداية حكم شارل الأول (١٦٢٥ ـ ١٦٤٢) م

لم تكن شخصية وتطلعات الملك الجديد لتؤهله لتسوية الأمور . وفي الواقع ، إذا كان شارل الأول ، على نقيض أبيه ، جميلاً وشجاعاً ، فقد كان مثله مقتنعاً بالقدرة الملكية المطلقة . وأكثر من ذلك ، كان ينقصه الإخلاص والمرونة . ولذلك فقد بسرعة شعبيته التي خولها له عند اعتلائه العرش شبابه ومظهره . فهو لم يبق بالقرب منه بوكنغهام الذي قتل في ١٦٢٨ م ، ويضع على رأس الشؤون الدينية الأسقف (وليم لاود) المعروف بعدائه للمنشقين فحسب ، وإنما لجأ ، عقب حل برلمانين متعاقبين ، إلى قرض إجباري ، وطلب من كل رعاياه قرضاً مساوياً لآخر ضريبة دفعت . وعلى الصعيد الخارجي ، أسهمت

---

(١) هؤلاء الطهرانيون يسمون : les CONGRÉGATIONALISTES ، وهم الذين هاجروا إلى أمريكا وأدخلوا المذهب الطهراني إليها في ١٦٢٠ م .

هزيمة الأسطول الإنكليزي في الحرب التي انفجرت مع اسبانيا في ١٦٢٥ م ، وبخاصة إخفاق بوكنغهام أمام لاروشل (١٦٢٧ ـ ١٦٢٨ م) أيضاً في فقد الملك لشعبيته . وفي ١٦٢٨ م كانت الحالة المالية متردية ، حتى انه دعا البرلمان للانعقاد من جديد . ولكن الناخبين أرسلوا لمجلس العموم نواباً ، مثل توماس ونتورث وجون إيليوت ، وجون بيم عازمين على الاحتجاج ضد سياسة الملك . وفي أيار ١٦٢٨ ، وجه إليه المجلسان (**ملتمس الحقوق**) الذي يعدد التجاوزات التي ارتكبت ويذكر بالحريات الإنكليزية .

قرر الملك قبول الملتمس ، ولكنه في السنة التالية أمر بجباية رسوم جمركية لم يصوت بعد عليها مجلس العموم . واعترض هذا المجلس وصرح « بأن كل من يشاركون منذ الآن بأعمال غير مشروعة خونة حيال الوطن والحرية » . فرد الملك بحل المجلسين وأعلن عن نيته بأن يحكم ملكاً مطلق الحكم دون اللجوء إلى البرلمان .

وخلال إحدى عشرة سنة من الظلم والطغيان (١٦٢٩ ـ ١٦٤٠ م) حاول شارل الأول أن يؤمن النصر ملازماً للحكم المطلق والانغليكانية . وكان يساعده في عمله (لاود) الذي سمي رئيس أساقفة كنتربري في ١٦٣٣ م ، وونتورث ، الذي أوحى بملتمس الحقوق ودفعه طموحه لخدمة الملك الذي منحه لقب كونت (ستافورد) . وأصبح عضواً في المجلس الخاص ، ومن ثم لورداً حاكماً على إيرلانده . كان ذكياً وصارماً ، نظم المالية وفرض على البلاط نظاماً اقتصادياً شديداً ، ووضع حداً للخلاف مع فرنسا واسبانيا . وحاول أن يؤمن للملكية موارد منتظمة بتأسيس امتيازات حصر لصالح الملك (الخمر ، الملح ، الصابون ، إلخ ...) ، وأعاد تنفيذ الرسوم التي أهملت بسحق التهريب تحت طائلة المخالفات والحجوز التي تحكم بها محكمة استثنائية (غرفة النجوم) . وسيطر على الحياة الاقتصادية كلها . وأكثر التنظيمات . وأخيراً ، أقام في إيرلانده عدة ألوف من

الجنود المشاة وأنشأ بذلك نواة الجيش الدائم في خدمة الملك . أما لاود فقد باشر بكسر جميع المقاومات ضد الأنغليكانية : وشكلت **لجنة ذات مهمة كنسية عليا** تطهر الاكليروس من جميع العناصر الطهرانية . ووضعت الرقابة على التبشير والصحافة ، ومنعت الكتب المقدسة الكالفنية . وعاقبت « غرفة النجوم » المقاومين بشدة ، مثل الطبيب (لايتون) الذي قطعت أذناه ووسم وجهه بالحديد ، لأنه كتب ضد سلطة الأساقفة . وأكثر من ذلك ، أن لاود أدخل بالتدريج الليتورجيا الأنغليكانية بطقوس مقتبسة عن الكاثوليكية . وثار الرأي العام لمذهب (البابوية) الذي حاولت نشره الملكة هنريت الفرنسية ، ورأى في هذه الإجراءات خطوة أولى نحو توطيد الكاثوليكية في انكلترا . وفي الوقت نفسه قرر لاود والملك أن يدخلا في إيكوسيا ، المتعلقة جداً بالمشيخية ، كنيسة أسقفية من النموذج الأنغليكاني ، واستعمال كتاب الصلاة الإنكليزي . وفي إيرلانده أخيراً ، حاول ستافورد ، بناء على نصيحة لاود ، أن يصلح الاكليروس الأنغليكاني ، ولكن دون أي تنازل للكاثوليك الذين يؤلفون أكثرية واسعة من السكان ويظلون بهذا الواقع معادين للملك الستوارتي . وهكذا نرى أن سياسية لاود الدينية أكثر من سياسة ستافورد المطلقة ، ستثير انكلترا وإيكوسيا على الظلم والطغيان .

المقاومة الإنكليزية

لقد حرمت المقاومة الإنكليزية من وسيلتها الطبيعية في التعبير عن نفسها . وكان البرلمان بطيء التنظيم ، حتى ان كثيراً من الطهرانيين اختاروا الرحيل إلى أمريكا (ما يقارب ٢٠٠٠٠ نسمة بين ١٦٣٠ و ١٦٤٠ م) . ولكن في ١٦٣٧ م ، دل حادث على أهمية المعارضة . فقد كان هنالك عرف قديم يخول ملك انكلترا أن يطلب ، في حالة حرب ، إلى الموانئ وكونتيات الشاطئ تجهيز عدد من السفن ، أو ، إن لم يكن ذلك ، فدفع المعادل مالاً نقداً . وفي ١٦٣٤ م ، وتحت حجة

صحيحة وهي أن السواحل تعج بالقرصان ، طلب ستافورد المعادل النقدي ؛ وفي السنة التالية ، طلب الرسم من جديد ومدده هذه المرة على كل المملكة ؛ وفي ١٦٣٦ م ، طلبه للمرة الثالثة ، ونزع إلى أن يكون على هذا النحو ضريبة عامة ودائمة . كانت الاحتجاجات شديدة ، ورفض العديد من المكلفين الدفع ، ولا سيا جون هامبدن . وهو عضو سابق في البرلمان المنحل . وبعد ترددات كثيرة ، قرر الملك ان يضرب مثلاً ، وطلب مثول هامبدن أمام العدالة . وكان للدعوى المقامة ضده صدى واسع في كل البلاد . وفي نهاية مناقشات طويلة ومربكة ذكر محامي الدفاع خلالها بأن الملك لا يستطيع فرض ضريبة دون موافقة البرلمان ، واستند القضاة على القول : « الملك قانون » وحكم المتهم بمخالفة شديدة ، وظهر في أعين الرأي بطل الحريات الإنكليزية (١٦٣٧ م) .

وفي هذه السنة نفسها كانت ثورة إيكوسيا . ففي ٢٣ تموز ١٦٣٧ م ، قامت مشادة في كاتدرائية أدنبره بمناسبة إدخال كتاب الصلاة الأنغليكاني ؛ وعندها ثارت المملكة الإيكوسية كلها ، وعلى رأسها النبلاء والرعاة . وفي شباط ١٦٣٨ م ، وقع المعارضون بالألوف ميثاقاً شهيراً[1] ، تعهدوا بموجبه حماية الحرية الدينية في إيكوسيا . وتشكلت عصبات مسلحة تسجن أو تطرد عملاء الملك . وفي ١٦٣٩ م ، قهر الجيش الإيكوسي ، الذي يقوده (لسلي) ، الملازم السابق عند الملك غوستاف ـ آدولف ، شارل الأول وأجبره على التفاوض .

وبناء على نصائح ستافورد الذي فكر أن بإمكانه الاعتماد على عداء الإنكليز للإيكوسيين ، قرر الملك ، وكان بحاجة للمال والجنود لكسر التمرد في إيكوسيا ، أن يدعو البرلمان الإنكليزي . ولكن النواب بدؤوا بالاحتجاج ضد المساوئ المرتكبة منذ أحد عشر عاماً . وحل بعد ثلاثة أسابيع هذا **البرلمان القصير الأجل** (نيسان ـ أيار ـ ١٦٤٠ م) ومع ذلك ، أخذ ليسلي نيوكاستل و (درم) وزحف

(١) هذا الميثاق معروف تحت اسم CONVENANT

على يورك ، واضطر شارل الأول ، في شهر ايلول ، أن يدعو برلماناً جديداً لآخر السنة . وأوصلت الانتخابات إلى مجلس العموم أكثرية من المعارضين يوجههم جون بيم وقرروا الخلاص من نظام الحكم المطلق . ومنذ اجتماعاته الأولى في شهر تشرين الثاني ، **قام البرلمان الطويل** (ظل حتى ١٦٥٣ م) بالهجوم ضد عملاء الطغيان ، والمجرمين ، وفي صفهم الأول ستافورد ولاود . أوقف ستافورد ، في ١١ تشرين الثاني ، بناء على تدخل (بيم) وأعلن بعد ذلك أنه خارج عن القانون بموجب قانون الحرمان من الحقوق المدنية ، وحكم عليه بالموت ، ونفذ الحكم في ١٢ أيار ١٦٤١ م ، دون أن يجرأ الملك على استخدام حق العفو . ولاقى لاود المصير نفسه في ١٦٤٥ م . ثم طالب الملك بطرد الأساقفة الأنغليكان من مجلس اللوردات ، وإبعاد الكاثوليك عن البلاط ، وتسريح الجيش الذي أنشأه ستافورد ، وإلغاء المحاكم الاستثنائية .

وفي عضون ذلك . تصالح الملك مع المتعاهدين الإيكوسيين ، وثارت إيرلانده ، وفي ثورتها هذه ذبح الكاثوليك ألوف البروتستانت في إقليم أولستر ، في تشرين الأول ١٦٤١ م . وأقلقت وأغضبت هذه المصالحة والثورة نواب مجلس العموم فصوتوا ، في ٢٢ تشرين الثاني ١٦٤١ م ، بـ (١٥٩) صوتاً ضد (١٤٨) على (**التحذير الكبير**) ، وهو قرار الاتهام العنيف الذي حرره بيم . ورأى الملك أن قرار الاتهام هذا لم يصوت عليه إلا بأكثرية بضعة أصوات ، ففكر أن بإمكانه إخماد المعارضة **بضربة قوة** . وفي ٣ كانون الثاني ١٦٤٢ م ، وجه رسالة إلى مجلس العموم يطلب فيها أن يسلم إليه بيم وهامبدن وثلاثة نواب آخرين أعلن أنهم مجرمون بالخيانة العظمى . وفي الغد ، في ٤ كانون الثاني ، جاء بنفسه إلى قصر وستمنستر ، يصحبه أكثر من ٢٠٠ نبيل وجندي لتوقيف (الخمسة) . ولكن هؤلاء وجدوا ملجأ في المدينة . وما علم شعب لندن بضربة القوة إلا وثار ، ونظم بيم لجنة ثورية . وأمام تواطؤ البرلمان وشعب لندن ، فضل شارل الأول مغادرة العاصمة ، في ١٠ كانون الثاني ، والذهاب إلى أوكسفورد ليجمع أنصاره .

الحرب الأهلية (١٦٤٢ - ١٦٤٩ م)

انفجرت الحرب الأهلية في آب ١٦٤٢ م ، بعد بضعة أشهر من المفاوضات غير المثمرة ، وقسمت انكلترا إلى معسكرين : أنصار الملك ، وقد بدئ بتسميتهم بـ (**الفرسان**) ، ويضمون بخاصة ممثلي الأرستقراطية العليا التقليدية والانغليكانية في الغرب والشمال وزبائنهم . وانضم إليهم الكاثوليك وأكثرية الانغليكان من جميع الأوساط ؛ **وأنصار البرلمان** أو الرؤوس المستديرة[1] ، بسبب شعورهم الحليقة والقصيرة ، على النسق الطهراني ، ويضمون جميع الإنكليز المتعلقين بالحريات السياسية والدينية والاقتصادية ، وأصحاب المصانع والتجار ، ونبلاء الأرياف في الجنوب والشرق وأيضاً شعب المدن الصغير الذي يرى في النزاع وسيلة للتعبير عن استيائه . وبعضهم أنغليكان ، وأكثرهم مشيخيون أو مستقلون .

كان النزاع من ١٦٤٢ م إلى ١٦٤٤ م ، متردداً بسبب توازن القوات العسكرية تقريباً ، ولأن بعض الزعماء البرلمانيين لم يشاؤوا خلق مالا يمكن إصلاحه . كان الفرسان جنوداً صلبين ومجربين ويقودهم الأمير ربرت ابن الأمير البالاتيني وابن أخت الملك . وكانت الرؤوس المستديرة تساق من بين عمال المدن وخدام الحقل ويقودهم نبلاء ، وليس لهم عموماً نفس القيمة العسكرية التي لخصومهم ، ولكن كانوا يفضلون عليهم باحتلال وسط المملكة كله مع الموانئ الكبرى والمناطق الصناعية الأساسية ، وتحت تصرفهم ، بفضل مال (المدينة) موارد مالية تنقص الملك بفظاعة . وأخفق الفرسان في محاولتين للزحف على لندن ، وهزموا في الشمال هزيمة نكراء دامية في مارستون - مور ، في ٢ تموز ١٦٤٤ م . ولكن جيش البرلمان الذي يقوده اسكس ومانشستر أخفق مراراً . وفي تموز ١٦٤٣ م بدا (بيم) رئيس حكومة حقيقي وجعل مجلس العموم يقبل ، بالرغم من كراهية بعض النواب ، بتبني النظام المشيخي . وساعد هذا الإجراء على التقارب مع

---

(١) راجع : JASPER, RIDLEY, THE HISTORY OF ENGLAND P : 168, London, 1981.

الإيكوسيين وعلى توقيع ميثاق جديد ، في شهر أيلول ، أقسم بموجبه الإنكليز والإيكوسيون « بأن يعيشوا إخوة » إخوة متحدين بالحب والإيمان لاستئصال شأفة البابية ، والأسقفية ، والأباطيل والخرافات ، والحيدة والكفر ، وأن يحموا حقوق البرلمان وامتيازاته ، والحريات الوطنية وأن يوحدوا المملكتين بصورة وثيقة » .

ومع ذلك ، وبعد موت (بيم) ، في كانون الأول ١٦٤٣ م ، حاول اسكس وعدة قادة برلمانيين تسويات مع الملك . لأن الاستياء الذي أثاره موقفهم ، وبخاصة إعلان تحالف شارل الأول مع الإيرلانديين الكاثوليك ، شجعا ، في داخل جيش (الرؤوس المستديرة) ، أكثر الزعماء تعنتاً ، أنصار الحرب حتى النهاية ، ولاسيما (كروموبل) .

أوليفيه كروموبل (١٥٩٩ - ١٦٥٨ م)

هو نبيل ريفي من محيط كمبردج ، وبروتستانتي مستقل ، ونائب في مجلس العموم في ١٦٢٨ م ، ثم في البرلمان القصير والطويل في ١٦٤٠ م ، في صفوف المعارضة حيث عرف بتعنته وطهرانيته الصلبة . وإذا ظل برلمانياً ضئيلاً ، فإن الحرب كشفت عن صفاته زعيماً عسكرياً . فمنذ بداية النزاع ، شكل على نفقته وفي كونتيته فرقة من ألف رجل ساقهم بصورة أساسية من بين المستقلين . إن القيمة العسكرية لجنود كروموبل وزعيمهم ، والتعصب الديني الذي دفعهم ، والدور الحاسم الذي لعبوه في مارستون - مور ، خولتهم لقب (زنود الحديد) . وفي كانون الأول ١٦٤٤ م ، وبإيحاءٍ من كروموبل الغاضب من بطء ودسائس بعض الزعماء البرلمانيين ، قرر مجلس العموم ببراءة التخلي الذاتي أن يفرض على أعضائه التخلي عن الوظائف العسكرية التي يمسكون بها . وهذا الإجراء ، الذي جعل له استثناء لصالح كروموبل تحت ضغوط جنوده ، أدى إلى استقالة اسكس ومانشستر ، وساعد على الاستعاضة عن العديد من الضباط المشيخيين بمستقلين .

وفي الأشهر الأولى لعام ١٦٤٥ م . أصبح كرومويل النائب القوي للقائد الأعلى الجديد توماس فيرفاكس . أصلح الجيش البرلماني على شاكلة جنوده (زنود الحديد) وضم الجيش النموذجي الجديد ٢٢٠٠٠ جندي ، وكلهم مستقلون تقريباً ، ويرون في النضال ضد الملك حرباً مقدسة حقيقية . واختير الضباط لقيمتهم وتقواهم ، دون تمييز في الولادة . وبفضل هذه الأداة الجريئة أحرز كرمويل على الجيوش الملكية التي يقودها الأمير (ربرت) نصراً مبيناً في نيزبي ، في ١٤ حزيران ١٦٤٥ م . وخسر شارل الأول أكثر من ٥٠٠٠ رجل ومدفعيته كلها ، وحاول عبثاً الاعتماد على الكونتيات الموالية في الغرب . واضطر بعد ذلك إلى مغادرة بريستول والكورنوال وقرر البحث عن ملجأ في إيكوسيا حيث يأمل أن يحيي عند رعاياه تعلقهم بسلالة آل ستوارت ، في أيار ١٦٤٦ م . ورفض الاشتراك بالميثاق . وسلمه برلمان أدمبره إلى برلمان لندن مقابل دفع ٤٠٠٠٠٠ جنيه وهي تطابق بقايا حساب الأعطيات الواجبة للجنود الإيكوسيين (في ٣٠ كانون الثاني ١٦٤٦ م) .

ولم تنه هزيمة الملك الحرب ، لأن الغالبين انقسموا على أنفسهم . كان النواب وأنصارهم ، في الغالب ، مشيخيين ، ويطالبون بتطبيق قرارات لجنة وستمنستر الكنسية (١٦٤٣ ـ ١٦٤٨ م) وإقامة كنيسة جديدة في انكلترا ، غير أسقفية ، ومصلحة على نسق الكنيسة المشيخية في إيكوسيا . ودعم الجيش الجديد ، بالعكس ، مطالب المستقلين الذين احتجوا ضد بقاء كنيسة للدولة ، وطالبوا بالحرية لجميع الفرق البروتستانتية . وانفصل الغالبون أيضاً على الصعيد السياسي : البرلمانيون الذين فرضوا على الملك إقامة جبرية في قصر هولمبي ، بين كوفنتري ونور ثامبتون ويأملون بأن يكون الملك أكثر مصالحة مما كان قبل خمسة أعوام ، وأن يكون بالإمكان عقد اتفاق معه . وأظهر شارل الأول لكسب الوقت ، بأنه يريد مناقشة الشروط الموضوعة . ولكن قرار البرلمان ، في شباط ١٦٤٧ م ، بتسريح الجيش دون دفع الأعطيات المتأخرة ، تسبب في تشكيل

(**مجلس الجنود**) الذين سموا فيما بعد بـ (المحرضين) ، وانتخبوا بنسبة ممثلين عن كل فرقة (فوج) وقبل كروموِيل وضباطه طوعاً أو كرهاً التنظيم الجديد ، ولكنهم قرروا لتعديله تشكيل مجلس ضباط بنفس الشروط . وفيما ينقل بعض الجنود الملك إلى هولمبي ليوصلوه إلى الأركان العامة ، قرر مجلس كبير ضم المجلسين ، بناءً على مبادرة كروموِيل ، أن يزحف على لندن ويقدم للبرلمان (مطالبه العادلة) وبخاصة بقاء (الجيش الجديد) في الخدمة ، والحرية للفرق الدينية وطرد ١١ نائباً معادين بصورة خاصة للمستقلين ، في حزيران ١٦٤٧ م .

وبعد أن سيطر كروموِيل وصهره إيريتون على الملك حاولا التفاهم معه . ولكن شارل الأول رفض كل تنازل . ومن جهة أخرى ، احتج بعض العناصر المتقدمة في الجيش من دعاة إلغاء الفوارق الاجتماعية[1] ، من رجال جون ليبورن ، ضد نية زعمائهم الذين يريدون أن يرجعوا إلى الملك جزءاً من امتيازاته ، وطالبوا بإلغاء الملكية والتصويت العام ، والمساواة أمام القانون . وأخيراً ، في مؤتمرات (بوتني) التي ضمت مجلسي الضباط والجنود وكل الأركان ، توصل كروموِيل إلى وضع تسوية والحفاظ على وحدة الجيش في تشرين الأول ـ تشرين الثاني ١٦٤٧ م .

بيد أن شارل الأول أفلت ، في ١٥ تشرين الثاني ١٦٤٧ م ، من حراسه ولجأ إلى جزيرة وايْت[2] . ومنها تفاهم مع الإيكوسيين ، وتعهدوا أن يعيدوه إلى السلطة بالقوة مقابل اشتراكه بالميثاق . واستؤنفت الحرب الأهلية . وفيما فيرفاكس يقاتل بالقرب من لندن الإنكليز الملكيين الذين ثاروا من جديد ، زحف كروموِيل على الإيكوسيين ، الذين دخلوا انكلترا ، وقاتلهم في برستون ، في ١٧ آب ١٦٤٨ م ، ودخل أدمبره في ٢٦ أيلول . ولدى عودته إلى لندن ، في

---

(١) دعاة إلغاء الفوارق الاجتماعية : THE LEVELLERS .

(٢) وايت : Weight .

شهر تشرين الأول ، قرر الخلاص من الملك والبرلمان اللذين افتتحا من جديد ، في شهر أيلول ، مفاوضات لمحاولة مصالحة . وفي ٣٠ تشرين الثاني ، اختطف شارل الأول من جزيرة وايت . وفي ٦ كانون الأول ، كلف الكولونيل برايد أن يقوم بتطهير البرلمان بالقوة : أوقف ٤٥ نائباً ، ونفى ٩٦ . وبعد أن اقتصر البرلمان الطويل على ٦٠ عضواً مستقلين جميعاً ، لم يعد غير برلمان كَفَل[١] . وكان أول قرار له أن طلب من الملك المثول أمام محكمة عليا ، أصدرت حكمها بإعدامه في ٢٨ كانون الثاني ١٦٤٩ م .

وفي ٣٠ كانون الثاني (٩ شباط حسب التقويم الغريغوري) ، وبعد شهرين على تطهير الكولونيل برايد ، سجل إعدام الملك نهاية الحرب الأهلية . وهكذا انتهى كرومويل والمستقلون من الملك والعناصر المشيخية والمعتدلة في البرلمان ، ولكن انتصارهم كان انتصار أقلية ، ولم يحل في الواقع أي مشكلة أساسية .

الأقاليم ـ المتحدة من ١٦٠٩ إلى ١٦٥٠ م

عرفت الأقاليم ـ المتحدة في النصف الأول من القرن السابع عشر أمجد دور في تاريخها . فبالرغم من المنازعات الداخلية ومتابعة حرب الاستقلال ضد اسبانيا . استطاعت أن تصبح ، بفضل تجارتها البحرية الكبرى ، أول دولة اقتصادية في أوربة ، وأن تشع بكل ضياء حضارتها الفكرية والفنية .

الصعوبات السياسية

في الوقت الذي تدخلت ، في ١٦٠٩ م ، هدنة الاثني عشر عاماً مع اسبانيا ، كانت جمهورية الأقاليم ـ المتحدة تحتوي السبعة الأقاليم وهي : (غرونينغ)[٢] ،

---

(١) البرلمان الكفَل : RUMP PARLIAMENT .

(٢) غرونينغ GRONINGUE

فريز[١] ، أوفيريجسّل[٢] ، غلدر[٣] ، أوترخت[٤] ، هولاندا[٥] ، زيلاندا[٦] . وحكومة الجمهورية معقدة في الحد الذي تتوضع فيه النظم المركزية فوق النظم المحلية ، وتحتل أسرة آل أورانج ، لأسباب تاريخية ، في الدولة ، وضعاً استثنائياً .

في أخفض مستوى ، كانت كل مدينة تتمتع بأوسع استقلال ذاتي : فهي تدار باوليغارشية « أوصياء » مؤلفة من أغنى الأسر تسمي الحاكم (بورغمستر) . والحكام البلديين التابعين له . ويشكل مندوبو المدن ، ومندوبوا الطبقة النبيلة ، وفي بعض الحالات ، مندوبو الفلاحين ، في إطار كل إقليم ، **المجالس الإقليمية** . ومع ذلك فإن تركيب هذه المجالس أبعد من أن يكون موحداً : ففي **هولندا** تضم نواب ثماني عشرة مدينة ، وكل واحد منهم يتصرف بصوت واحد ، وسبعة ممثلين عن الطبقة النبيلة لهم صوت واحد . وفي **زيلاندا** ، تتصرف ست مدن كل واحدة منها بصوت واحد ، في حين أن صوت أول النبلاء ، وهو أمير أورانج ، يعتمد لمجموع الطبقة النبيلة . وفي **غلدر** ، **وأوترخت** ، وأوفيريجسل ، بالعكس ، تتوازن المدن والطبقة النبيلة تقريباً . وفي **فريز** وغرونينغ أخيراً ، نجد الفلاحين ممثلين إلى جانب الطبقة النبيلة ومنضمين لها ، ويتفوقون على المدن . وإذا استثنينا الإقليمين الفقيرين في الشمال ، فإن أهمية الأوليغارشية المدنية عظيمة ، وبخاصة في هولاندا وفي زيلاندا ، حيث تقبض على الثروة الاقتصادية والسلطة السياسية . وإلى جانب المجالس المكلفة بالتصويت على القوانين ، يوجد موظف ،

---

(١) فريز FRISE .

(٢) اوفيريجسل OVERIJSSEL .

(٣) غلدر GUELDRE .

(٤) وترخت : UTRECHT .

(٥) هولاند HOLLANDE .

(٦) زيلاندا ZELANDE .

على العموم حقوقي ، تعينه هذه الدول وتتكفل براتبه وهو رئيس السلطة التنفيذية . فهو يهيء عمل المجلس ويوجه البوروقراطية (الديوانية) الإقليمية . وأخيراً الشتاتودر (الحاكم) ، الذي تعينه المجالس أيضاً ، ويسهر على تنفيذ القوانين ، ويعين الموظفين لعدة وظائف ، ويقود القوات العسكرية المحلية باعتباره (**نقيباً**) وأميرالاً .

تضم المؤسسات الاتحادية أولاً : **المجالس ـ العامة في الأقاليم** ـ المتحدة ، أي أعلى محكمة للجمهورية ومقرها في **لاهاي** ، في هولاندا . ويمثل كل إقليم فيها بعدد متغير من النواب ، ولكنه لا يتصرف إلا بصوت واحد مهما يكن عدد النواب . ومن جهة أخرى ، يجب أن تتخذ القرارات الهامة بالإجماع . فهي في الواقع مجلس مناقشة أقل مما هي مؤتمر سفراء ملزمين دوماً باستشارة من انتدبوهم . ويساعد المجالس العامة في عملها وزراء ، ومجالس وبخاصة مجلس الدولة . ومن جهة أخرى ، يرى ، بالنظر إلى مقر المجالس العامة في لاهاي ، وفي هولاندا أكثر الأقاليم سكاناً وغنى ، أن رئيس السلطة التنفيذية في هولاندا كان ينتخب لخمسة أعوام قابلة للتجديد ، ورويداً رويداً انتقل من موظف إقليمي بسيط إلى أن أصبح أحد الشخصيات الأولى في الجمهورية تحت اسم **الموظف الأكبر** ، ويكلف فيما يكلف بتوجيه السياسة الخارجية . ومنذ ١٥٨٦ م ، كانت هذه حال جان فان أولدنبارنفلت (١٥٤٧ ـ ١٦١٩ م) . وأخيراً ، كان على رأس الجيش والأسطول رئيس عام وأميرال عام . وهذان المنصبان العسكريان العاليان قد احتكرهما ، منذ وفاة غليوم الصامت ، ابنه (موريس دورانج ـ ناسّو) ـ (١٥٦٧ ـ ١٦٢٥ م) الذي كان فوق ذلك ، كما كان أبوه حاكم هولاندا وزيلاندا ، وبعد قليل ، درنته وغرونينغ ؛ وأصبح **الشتاتودر** ، بفضل الحرب والدور الجيد الذي لعبه آل أورانج ، أول شخصية في الدولة .

وهكذا يرى ، في ١٦٠٩ م ، حزبان متعارضان ، في الواقع ، في الجمهورية :

الموظف الأكبر يعتمد على المجالس الإقليمية في هولاندا ، ويدافع عن مصالح كبار التجار وأصحاب المصانع الهولانديين الذين يفضلون السلام الضروري لنمو المصالح والأعمال ويهتمون بالحفاظ على الاستقلال الذاتي السياسي والمالي لكل إقليم في إطار اتحادي رخو تقريباً . **والشتاتودر** ، وأساس قوته عسكري ، كان يرجو متابعة الحرب ضد اسبانيا ، وأكثر من ذلك ، كان قوياً بمساندة الطبقة النبيلة وأهل ريف الأقاليم الفقيرة في الداخل ، والملاحين الزيلانديين وشعب المدن الصغير ، الذين يؤلفون ضباط وجنود الجيش الذي يقوده . وكان يفضل ضعف النظم المحلية لصالح سلطة مركزية قوية ، وإذا سنحت الظروف ، سلطته . وفي الحقيقة ، كان النزاع بين هذين الحزبين : (الجمهوريين) و (الأورانجيين) يسيطر على تاريخ الأقاليم ـ المتحدة في القرن السابع عشر .

وإذا كانت خاتمة هدنة الاثني عشر عاماً نصراً لـ أولدنبارنفلت ومجالس هولاندا ، فإن نزاع (الأرمينيوسيين)[1] و (الغوماريين)[2] ساعد موريس دوناسّو أن يأخذ بثأره وأن يأمر بإعدام أولدنبارنفلت لآرمينيوسيته (أيار ١٦١٩ م) . وبعد أن تخلص موريس من خصمه القديم زاد كثيراً في سلطة الشتاتودر بفضل الحرب التي استؤنفت ضد اسبانيا في ١٦٢١ م ، وربما فكر بانقلاب ملكي ، ولكنه مات فجأة في نيسان ١٦٢٥ م . وخلفه نصف ـ أخيه **فريديريك ـ هنري** (١٥٨٤ ـ ١٦٤٧ م) نقيباً عاماً ، وأميرالاً عاماً ، وشتاتودر لأربعة أقاليم . كان محارباً عظيماً كأخيه ، وأكثر منه رجل دولة ، ماهراً ، متسامحاً ، وغير نفعي . تابع الحرب ضد اسبانيا ، وأخذ ماستريخت (١٦٣٢م) وبريدا (١٦٣٧م) ، وهدّأ

---

(١) آرمينيوس : Arminius ، جاكوبوس ـ Jacobus (١٥٦٠ ـ ١٦٠٩) ، اسم لاتيني لـ (هرمان ـ Herman) وهو لاهوتي بروتستانتي أسس فرقة الآرمينيوسيين ، ولطف مذهب كالفن في القضاء والقدر .

(٢) غومار ـ Gomar أو Gomarus (فرانسوا : François) لاهوتي بروتستانتي ولد في بروج وأحد زعماء الكالفنيين المتشددين وخصم أرمينيوس . وأنصار مذهبه الغوماريون .

المنـازعـات الـدينيـة بـدعوة الأرمينيوسيين المنفيين (اللوامين) وحكم بتعقـل من لاهاي ، وكان له فيها بلاط فخم . وعنـد وفـاتـه ، في آذار ١٦٤٧ م ، خلفـه ابنـه غليوم الثـاني في وظـائفـه . وكان هـذا الأخير طموحاً يحلم بتحويل الحـاكميـة إلى ملكية وارثية . ولكن كان عليه أن يتنازل أولاً لضغـط المجالس العـامـة ومجـالس هولاندا ، ويقبل بتوقيع السلام مع اسبانيا ، في كانون الثاني ١٦٤٨ م . وأمن هـذا السـلام المجيـد لـلأقـاليم المتحـدة ، بعـد ثمـانين عـامـاً من الحرب ، الاعتراف حقـاً باستقلالهـا ، وبإغلاق أفواه الإيسكو ، وكسب منطقـة مستريخت والجزء الشمالي من الفلاندر والبرابان على أن تديرها المجالس العامـة ، أو : العموميـة (ومن هنـا يأتي اسم بلاد العمومية)[1] . ولكن نهـايـة الحرب لا تلائم الشتـاتودر ، لاسيا وأن مجـالس هولانـدا ، بحجـة تخفيض النفقـات ، طـالبت بتسريح قسم من الجنـود ، وإلغاء وظائف القائد العام والأميرال العـام . وعنـدئـذ قرر غليوم الثـاني محـاولـة ضربـة قوة : وفي ٣٠ تموز ١٦٥٠ م ، ألقى في غيـاهـب السجن الستـة نـواب الأكثر شغباً في مجالس هولاندا ، ولكنه أخفق عنـدمـا أراد الاستيلاء على أمستردام .. وفي الأسابيع التالية تدخلت تسويـة (حل وسـط) أرضت غليوم عن سعـة ، ولكنـه توفي فجأة ، عن ٢٤ عاماً ، في ٦ تشرين الثاني ١٦٥٠ م .

الازدهار الاقتصادي

لم تحل المنازعات السياسية ، ولا الحرب ضد اسبانيا ، التي دارت رحاها منذ آخر القرن السـادس عشر ، خـارج أرض الجمهـوريـة ، دون النهـوض الاقتصـادي العظيم لـلأقـاليم ـ المتحـدة . فمنـذ ١٦١٥ م يصف الفرنسي (مـونكريستيـان) بـ (معجزة الصناعة) نجاح النئرلانديين ، سكان نئرلاند أو البلاد ـ المنخفضـة ، ولكن كلامه لا يخلو من مبالغة .

---

(١) بلاد العمومية هي : PAYS DE GÉNÉRALITÉ .

ومن المؤكد ، خارجاً عن الموقع الجغرافي بين البحر البالطيك والمحيط الأطلسي وعند منفذ الطريق الريناني الأكبر ، أن الظروف الطبيعية غير ملائمة جداً : كضيق الأرض ، ووجود برك ماء واسعة ، وجفاف براح الأقاليم الشرقية . وفقدان الخشب والمواد الأولية ، ما عدا التورب ، وخطر المياه الساحلية ، والشواطئ الرملية . ولكن ، بفضل العمل الدائب والصناعة ، عرف النئرلانديون كيف يفيدون من هذه التربة الكنود ومن هذا الشاطئ غير الصالح لرسو السفن . فمنذ آخر العصر الوسيط باشر سكان (البلاد ـ المنخفضة) نزاعاً صابراً وناجعاً ضد الماء . وكانت تقنية البولدر[1] في القرن السابع عشر قد تحسنت : من وضع السدود ، وضخ المياه بواسطة طواحين الهواء ، والتجفيف بواسطة الأقنية ، وساعدت على تجفيف عدة مستنقعات وبحار داخلية من إقليم هولاندا . ومع ذلك ، فنحو ١٦٥٠ م ، بقي كثير يجب عمله : وهكذا لم يجفف بعد بحر (هارلم) ويحمل دوماً سفناً ضخمة . وعلى هذا التراب المتنازع على البحر والأنهار ربى النئرلانديون الأبقار الحلوبة وزرعوا بعناية ، دون اللجوء إلى ترك الأرض بوراً ، الحنطة ، والكتان ، والخضار ، والأزهار ، فيما كانت الخراف العديدة ترعى على براح الشرق . وفي الحقيقة . مع ذلك ، كان يجب استيراد الحبوب لتغذية السكان ، والمواد الأولية لحاجات الصناعة . وبالمقابل يمكن تصدير الزبدة ، والأجبان ، وبصل الأزهار .

ونما **النشاط الصناعي** في آخر القرن السادس عشر ولا سيما عند مجيء العديد من البروتستانت الفارين من البلاد ـ المنخفضة الاسبانية . وكانت تباع أقمشة ليدن الصوفية ، ومخامل أوترخت ، وأقمشة هارلم القطنية والكتانية وخزف دلفت في أوربة كلها . وتستعمل أمستردام مواد أولية استعمارية في مشاغل الماس

---

(١) البولدر POLDER هي المناطق التي كسبها الإنسان من البحر وجففها واستغلها .

ومعامل التبغ ، وتكرير السكر . وفي زاندام رحاب بحرية هامة تشتغل لحساب الحاجات المحلية والأجنبية معاً .

ولكن الثروة العظيمة للأقاليم ـ المتحدة تأتي من البحر ، أي من صيد سمك الرنكة في بحر الشمال الذي يشغل أكثر من ٢٠٠٠٠ بحار زيلاندي وهولاندي وفريزوني ، ويغذي صناعة السمك المملح الموضوع في البراميل ، وأكثر من ذلك أيضاً التجارة البحرية الكبرى .

وهذه الموهبة التجارية نشأت ، في الجزء الأعظم منها ، من النزاع ضد الاسبان . إن إغلاق ميناء لشبونة في وجه النئرلانديين بعد ١٥٨٠ م أسهم بخاصة بإطلاقهم في البحار البعيدة بغية التموين مباشرة بالتوابل ، وشكلوا رويداً رويداً على حساب البرتغاليين أمبراطورية استعمارية كبرى . فقد تشكلت شركة الهند الشرقية في ١٦٠٢ م بمبادرة أولدنبارنفلت باتحاد ثماني شركات منعزلة ، وأخذت حصر التجارة في شرق الكاب وفي غرب مضيق ماجلان . وبفضل رأسمالها من ٦ مليون فلورن ومراكزها العديدة في المحيط الهندي وأندونيسيا التي جعلتها سيدة تجارة التوابل ، وألوف بحارتها ، وجنودها ، ومستخدميها ، نشأت عن هذه الشركة قوة الجمهورية الاستعمارية والتجارية . وحقق أصحاب الأسهم ، أعضاء البورجوازية الهولاندية والزيلاندية أرباحاً مدهشة : ٢٥ ٪ في العام ، وسطياً . وأحياناً ٥٠ ٪ بل و ٧٥ ٪ . وفي ١٦٢١ م أنشأ (ويللم أوسيلنك) شركة الهند الغربية ، التي مارست النهب المنظم للسفن الاسبانية والبرتغالية ، وأسس أمستردام ـ الجديدة واتخذ موطئ قدم له لزمن في البرازيل (١٦٣٠ ـ ١٦٥٤ م) .

وكان النئرلانديون في الوقت نفسه سادة **تجارة العبور الأوربية** . كانت بضائع جميع البلاد تفد إلى موانئها لتوزع من بعد في كل مكان : خشب الشمال . حديد ونحاس السويد ، حبوب بولونيا ، جلد وكتان وقنب البلاد البالطية وروسيا ، خمور ألمانيا وفرنسا ، أصواف اسبانيا ، أجواخ أنكلترا ، والمنتجات

الاستعمارية أخيراً الآتية من مراكزهم الخاصة ومن المستعمرات الاسبانية والبرتغالية بفضل التهريب . وفي النصف الأول من القرن ، كان الجزء الأعظم من تجارة انكلترا وفرنسا واسبانيا والدول الألمانية والإيطالية في أيدي الأقاليم - المتحدة التي كانت بحق ناقلة لتجارة البحار والموانىء ، ومخازن عامة لكل أوربة .

وكانت تمسك بهذا الدور الكبير بفضل تجهيزها العظيم في العصر . فنحو ١٦٥٠ م كان الأسطول التجاري يضم أكثر من ٢٠٠٠ سفينة كبيرة الحمولة والوزن ويُمثل ولا شك ثلاثة أرباع الأسطول الأوربي كله . وساعدت قيمة التجهيز والعمائر البحرية على تأمين النقليات في أصغر وقت وأعظم أمن بممارسة تعرفات أخفض من أي بلد آخر . وكانت الموانىء الكبرى : أمستردام ، روتردام ، ميدلبورغ منظمة ومجهزة بشكل عظيم ، والشبكة المتراصة من المراسلين والعملاء الموزعين في العالم كله تجهزها في كل حين بمعلومات وأخبار وثيقة . ويساعد السوق المالي (البورس) في أمستردام على المضاربة على كل البضائع التي تنزل على شواطئها ويتاجر بها .

ولكن أساس القوة الاقتصادية يكمن في تنظيمها المصرفي دون منافس في أوربة . فقد تأسس بنك أمستردام في ١٦٠٩ م على نسق بنك ريالتو في البندقية ، وخول حصر « القطع » . وكان في الوقت نفسه بنك وديعة ، وكل مودع كان معتمداً بالقيمة العينية لوديعته ويمكنه التصرف بها إما نقداً ، وإما نقلاً لحساب مودع آخر . لقد كان النشاط الأساسي للبنك إذن تبسيط الدفوع التجارية لزبائنه أل ٢٠٠٠ نئرلاندي وأجنبي . ولم يكن مخولاً إصدار أوراق مالية ، ولا عمل اعتماد رسمياً : ومع ذلك ، ففي ١٦١٩ م ، قبل تقديم سلفات مؤقتة قوية لشركة الهند الشرقية ولمدينة أمتسردام . إن وفرة الذهب والفضة المودعين ، اللذين يمثلان بصورة أساسية الأرباح العظيمة للتجارة البحرية الكبرى ، أمنت ثبات

البنك وجذبت رؤوس المال الأجنبية ، وجعلت من أمستردام أكبر مركز للمعادن الثمينة في أوربة كلها .

الحضارة النثرلاندية

كانت الأقاليم ـ المتحدة دولة اقتصادية كبرى ، ومركزاً فكرياً وفنياً أيضاً . وهذا يعود أولاً إلى الحرية التي سادت فيها وجعلت منها ملجأ لجميع المضطهدين . فغداة المنازعات العنيفة بين الغوماريين والأرمينيوسيين ، ساد روح التسامح رويداً رويداً وأصبحت هولاندا بلد حرية الفكر وحرية التعبير .

وأسهمت الجامعات والمطابع والصحف في الإشعاع الفكري للأقاليم ـ المتحدة . لقد كانت **جامعة ليدن** ، التي تأسست في ١٥٧٥ م ، في بداية القرن السابع عشر ، أنشط وأشهر جامعة في أوربة . ويعود ذلك إلى قيمة أساتذتها ، الأجانب غالباً ، مثل الفرنسي كلود سوميز ، وبخاصة ، إلى طابع التعليم الجديد جداً فيها : دراسة اللغات الشرقية ، التشريح ، علم النبات ، علم الفلك . وأنشئ فيها حديقة نباتات في ١٥٨٧ م ، ومرصد في ١٦٣٢ م . ولم يكن هذا التعليم ، سواءً في ليدن أم في الجامعات الأخرى و « المدارس الشهيرة » ، على الإطلاق رقاً لتقاليد العصور الوسطى ، بل يؤدي إلى القضايا التقنية والتطبيقات العملية : صنع أجهزة القياس ، التلسكوب ، المكروسكوب ، الترمومتر إلخ ...) ، تحرير المؤلفات الجغرافية والأطالس (مثل أطالس ويللم بلو) ، والإكثار من تمارين التشريح التي تساعد أكثر فأكثر على إعداد طب علمي . إن الحقوقي الكبير (هوغو دو غروت) المسمى بـ (غروشيوس) (١٥٨٣ ـ ١٦٤٥ م) الذي اضطرته أرمينيو سيته وعداؤه لآل أورانج (الأورانجية) إلى العيش خارج بلاده انطلاقاً من ١٦١٩ م ، أسس الحقوق الدولية العامة في كتابه « حق الحرب والسلم » (١٦٢٥ م) . وشهرة المطابع الهولاندية عظيمة أيضاً في أوربة . والمكتبة ـ المطبعة التي أسسها في ليدن في ١٥٨٠ م ، الزفير الأول (١٥٤٠ ـ ١٦١٧ م) انتشرت فيما بعد

في المدن الأخرى . وفي النصف الأول من القرن سجلت ٢٤٤ مكتبة ناشرة وطابعة معاً في صنف (نقابة) أمستردام . هذا وإن الصفة المادية للكتب ، وحرية النشر ، التي لا تخلو أحياناً من بعض الاضطهادات ، ووجود زبائن واسعة محلية وأجنبية ، توضح كلها نمو النشر النئرلاندي . وكذلك ، يرجع نجاح « القزيطات » والصحف إلى كفاءة مراسليها ووثوق معلوماتها وأخبارها ، لعدم وجود أي رقابة عليها في الغالب . فقد كانت صحيفة أمستردام أو (هولاندا) و (أخبار ليدن الفائقة) المحررتين بالفرنسية تقرآن وتقدران في كل أوربة .

وأخيراً ، كان القرن السابع عشر بحق بالنسبة لهولاندا « عصراً ذهبياً » لكثرة فنانيها . أنشأ مهندسوها المعماريون القصر البلدي في أمستردام ، و (الموريتشويس) في لاهاي وكل هذه المساكن الجميلة البورجوازية من أمستردام إلى دلفت ، ومن ليدن إلى لاهاي كانت في رشاقتها البسيطة رمزاً لنجاح طبقة اجتماعية بكاملها . ويصح هذا أيضاً في لوحات فنانيها العظام : من رسوم الأشخاص فردياً أو جماعياً ، والمشاهد الداخلية ، والمناظر . وإن عبقرية (فرانز هالس) ، (فيرمير) و (رامبرانت) يجب ألا تنسي سحر كثير من الأساتذة ممن أقل منهم شهرة . أما جان سويلنك (١٥٦٢ ـ ١٦٢١ م) العازف على الأورغن في الكنيسة البروتستانتية القديمة في أمستردام خلال ما يقارب أربعين عاماً ، فقد كشف في تآليفه للأورغن ، من مسلسلات ومنوعات ، عن مبدع عظيم وسيكون تأثيره عظيماً على عازفي الأورغن الألمان .

والمعجزة النئرلاندية ليست مادية فحسب ، بل أيضاً بالأعمال الفكرية التي أثبت سكان الأقاليم ـ المتحدة ، وعلى رأسهم الهولانديون ، قدرتهم المبدعة وأتوا بإسهام حاسم للحضارة الأوربية .

الجمهورية الإنكليزية وكرومويل (١٦٤٩ ـ ١٦٦٠ م)

كان كرومويل في البدء عضواً بسيطاً في مجلس الدولة في جمهورية انكلترا

وإيكوسيا وإيرلانده ، ثم تخلص من البرلمان ، في ١٦٥٣ م ، وسمى نفسه اللورد الحامي ، وحكم الجمهورية سيداً مطلقاً حتى وفاته في ١٦٥٨ م . وبعد عامين اعتلى عرش أنكلترا شارل الثاني من آل ستوارت .

بداية الجمهورية والعلاقات الإنكليزية ـ الهولاندية (١٦٤٩ ـ ١٦٥٣ م)

غداة إعدام شارل الأول ، نظم البرلمان الكفل النظام الجديد ، فقد ألغيت الملكية ، وأعلنت الجمهورية ، في ١٩ أيار ١٦٤٩ م . وحذف مجلس اللوردات ، وأصبحت السلطة بيد البرلمان ، وأخذ يمارس السلطة التشريعية مباشرة . ويؤمن إدارة السياسة الداخلية والخارجية مجلس الدولة ، وهو مؤلف من ٤١ عضواً ينتخبهم كروموبل ويرأسهم . وهكذا كانت السلطة في أيدي أوليغارشية (أقلية) دينية من المستقلين ، يمكنها الاعتماد على الجيش ، ولكنها وجدت نفسها بعد قليل أمام مشاكل داخلية كبيرة تجابهها .

وفي انكلترا نفسها ، كانت المعارضة تتألف من العناصر الأكثر تقدماً في الجيش الجديد . فمن ذلك أن ليلبورن احتج على الاتهام الذي وجه إلى أنصاره باعتبارهم يريدون (تعادل) ، ظروف جميع الناس وحذف حق الملكية ، وكشف عن (السلاسل الجديدة) ، التي صنعت لإبقاء الإنكليز في حالة عبودية ، وذكر ببرنامجه في المساواة السياسية التي تعبر عن تطلعات البورجوازية الصغيرة . وتجاوزه بعض المعادلين المتطرفين . وهذه بخاصة حال بعض الناقدين من الفلاحين الحفارين[1] ، الذين يطالبون ، إثر نداء جيرار ونستانلي ، الفلاح الملهم ، بالمساواة الاقتصادية ، والمساواة الاجتماعية وتوزيع الأراضي .

ولكن صغار البورجوازيين وأرباب الحرف في المدن الذين التحقوا

(١) الفلاحون الحفارون DIGGERS

بليلبورن ، والفلاحين المطرودين بسبب « التسوير » وتبعوا ونستانلي ، لم يلقوا صدى لندائهم ، ولم يستطيعوا شيئاً ضد القوة النافذة وحدها ، أي الجيش الذي يمسك به **فيرفاكس** وكرومويل . وفي ٢٨ آذار ١٦٤٩ م ، أعلن أن ليلبورن خائن وزج في السجن ولكنه بريء وحرر في تشرين الأول ثم أوقف ثانية . وفي الأشهر التالية ، طهر الجيش من جميع العناصر الثورية .

وكذلك حكم بالعجز على معارضة الملكيين من كاثوليك ، وأنغليكان ومشيخيين . ومع ذلك ، في ١٦٤٩ م ، أكثر العديد من المحررين المشهرين والقادحين هجوماتهم على النظام ، ولكن الرقابة الشديدة والتدابير القمعية أسكتتهم بعد قليل . ومن جهة أخرى ، كانت أوساط الأعمال والمصالح نفسها مستاءة . وفي الحقيقة ، إن التخلي عن كل تنظيم اقتصادي منذ زمن سترافورد ، وإلغاء الحصر والامتيازات ، وتطبيق نظام حرية كاملة قد استجابت لتمنياتهم ، ولكنهم انتهوا في الوقت نفسه إلى انخفاض محسوس في نوعية المنتجات وإلى إفلاسات عديدة ناجمة عن المنافسة .

وأخطر من ذلك أيضاً حوادث إيرلاندا وإيكوسيا . ففي الثورة المفتوحة منذ ١٦٤١ م استطاع الكاثوليك الإيرلنديون بفضل الحرب الأهلية أن يكونوا مستقلين عملياً . ففي ١٦٤٩ م ، طرد الإنكليز من الجزيرة كلها تقريباً ، عدا (دبلن) . وكلف كرومويل من قبل البرلمان الكفل أن ينهي هذا الانفصال ، فنزل الجزيرة في ١٥ آب ١٦٤٩ م مع ١٢٠٠٠ رجل ، وكان يرى بأن الله أرسله وندبه ليثأر لمذابح ١٦٤١ م ، وقاد الحملة بشدة فظة ، وفي أيلول ، استولى على ميناء دروغيدا ، وأبيد السكان .

وفي الوقت نفسه طرد العديد من الملاكين الكاثوليك من المناطق الغنية ، وأعطيت أراضيهم إلى بروتستانت أتوا من أنكلترا . وفي ربيع ١٦٥٠ م ، غادر

كروموويل أيرلانـدا ، وترك مكانـه إلى (آيرتون) . واستمر هـذا حتى ١٦٥٢ م في النضال ضد العصابات المسلحـة ولكن هـذه ، تحت اسم (توريز) استطـاعت أن تبقى قابضة على البلاد .

ومـا كاد كروموويـل يعـود إلى بريطـانيـا العظمى إلا وقـام بمجـابهـة الخطر الإيكوسي . وفي الحقيقة ، غداة وفاة شارل الأول اعترف برلمان أدمبره بابنه شارل الثاني ملكاً على إيكوسيا ، وكان في ذلك الحين لاجئاً في هولانـدا ، جـاء وتزعم في ١٦٥٠ م رعاياه . فأرسل كروموويل ضده ، وانتصر عليه للمرة الأولى في (دنبـار) في ٣ أيلول ١٦٥٠ م ، وأخضع جنوب إيكوسيا كله . وفي السنة التالية قـام شـارل الثاني و (ليسلي) بمناورة جرئية واجتـاحـا انكلترا وزحفـا على لنـدن . ولم يجـدا المساندة التي يرجوانها وقهرهما كروموويل تماماً في (ورسستر) في ٣ أيلول ١٦٥١ م ولاذ الملك بالفرار إلى فرنسا . وفي آخر ١٦٥١ م ، خضعت إيكوسيا . كإيرلاندا ، لرحمة الغالب ، وحرمهـا من كل استقلال ذاتي وربطهـا بصورة وثيقـة بـانكلترا في إطار الجمهورية .

وفي الوقت نفسه ، ساءت العلاقات الأنغلو ـ الهولانـديـة فجـأة . وفي الواقع كانت سيئـة منـذ زمن طـويل : إن ذكرى مـذبحـة أمبوان في ١٦٢٤ م والتعـاطـف الذي أبـداه آل أورنج ـ نـاسو حيـال آل ستوارت قبل وبعـد ١٦٤٩ م ، وبخـاصـة المنافسة الدائمة التجارية والاستعمارية توضح جميعـاً هـذا الحقـد . وفي ١٦٥١ م ، أدرك **البرلمان الكفل** « لا شعبيته » المتزايدة وأراد كسب أوساط الأعمال والمصـالح اللندنية بخاصة ، وحاول أن يفيـد من الحـالـة الجـديـدة التي نشـأت في الأقـاليم ـ المتحدة بموت غليوم الثاني من آل أورانج ، في ٦ تشرين الثاني ١٦٥٠ م . ففي آب ١٦٥١ م ، وابتغاءً لإلحاق المصالح التجارية بهولاندا بصورة وثيقـة بمصـالح انكلترا اقترح على المجالس العامة الانصهار في الرابطة البريطـانيـة فرفضت المصـالح هـذا العرض المسموم ، وتبنى البرلمان الكفل عندئذ ، في ٩ تشرين الأول ١٦٥١ م قـانون

الملاحة الموجه ضد الهولانديين بالرغم من أنهم لم يذكروا فيه . ولم يكن من هذا القانون ، سوى تعميم سياسة تقليدية ، لحجز تجارة التصدير بالسفن الإنكليزية وحدها ، باستثناء السفن الأجنبية التي تدخل إلى أنكلترا البضائع الآتية من بلدها الخاص . ورأى النئرلانديون أنهم مهددون مباشرة في نشاطهم كـ (جوابي بحار) ، فاحتجوا احتجاجاً شديداً . وبعد قليل من الزمن ، وقع حادث عَلَم بين سفن البلدين ، وبخاصة رفض الهولانديون دفع رسم العشر على السمك الذي يصيده مغتربوهم على الشواطئ البريطانية ، وأدى هذان الحادثان إلى القطيعة في أيار ١٦٥٢ م .

كانت الحرب الأنغلو ـ هولاندية الأولى قصيرة وحاسمة قليلاً ، فمنذ ١٦٤٩ م ، تجدد إعمار الأسطول الإنكليزي وبقيادة (بليك) فاز في البدء ، ولكن ، دمر نصف قسم منه في عرض دوفر ، في ٣٠ تشرين الثاني ١٦٥٢ م ، على يد الهولاندي ترومب الذي اقتحم ممر نهر التاميز ونشر الذعر في لندن . وفي السنة التالية أخذ بليك ثأره ، وغلب ترومب للمرة الأولى في عرض (بورتلاند)، في ٢٨ شباط ١٦٥٣ م ، وقتل في ٣١ تموز في كفاح غامض مشكوك فيه بالقرب من (تكسل) . واضطرت الأقاليم ـ المتحدة إلى توقيع معاهدة وستمنستر ، في ٥ نيسان ١٦٥٤ م . وبموجبها قبلت قانون الملاحة ، والتزامها بتحية السفن الإنكليزية في البحار الضيقة ؛ وتعهدت من جهة أخرى بأن تطرد شارل الثاني ستوارت ، وأن تجعل بموجب قانون الطرد عودة آل أورانج إلى السلطة أمراً مستحيلاً . وفي هذا التاريخ ، كان كروموبل منذ بضعة أشهر سيداً وحيداً في انكلترا .

حماية كروموبل (١٦٥٣ ـ ١٦٥٨ م)

إن انتصارات كروموبل في إيرلانده وفي إيكوسيا فاقمت التوتر الذي ظهر بسرعة جداً بين البرلمان الكفل و (الجيش الجديد) . فقد أخذ هذا الأخير على

البرلمانيين جشعهم وعدم كفاءتهم ، وطالب ، منذ ١٦٥٠ م ، بحل المجلس المنتخب في ١٦٤٠ م وانتخابات جديدة . وقلق البرلمانيون سادة السلطة من وجود جيش عرمرم موال كلياً لزعيمه ويتدخل باستمرار في الشؤون السياسية . وفي ١٦٥٢ م ، زادوا أيضاً في لا شعبيتهم بالإكثار من المناورات للبقاء في مكانهم . وأدرك كرومويل أن المجلس الكفل أدنى من مستوى مهمته ، وقرر وفاقاً مع مجلس الضباط أن يتخلص منه . وفي ٢٠ نيسان ١٦٥٣ م ، شخص إلى مقر وستمنستر ونحى باللوم على النواب وطردتهم جنوده أخيراً .

وأراد كرومويل أن يتصالح والرأي الذي رحب بزوال من بقي في البرلمان الطويل ، وأسس عندئذ مجلساً جديداً للدولة وكان هو ببساطة أحد أعضائه الثلاثة عشر ، ودعا برلماناً جديداً من ٧٠ نائباً غير منتخبين ، ولكنهم معينون من قبل مجلس الدولة ، لأنه كان يخشى معارضات مختلفة . وهذا البرلمان (الباربون) ، الذي سمي باسم أحد أعضائه ، مؤلف من أناس أكفاء متحمسين ، ولكن انقساماتهم في معظم القضايا حكم عليهم بالعجز . وخاف بعض الزعماء المعتدلون في الجيش ، ولا سيا لامبرت ، من وقوع البلاد في الفوضى ، وتوصلوا إلى إقناع النواب بأن يتفرقوا بأنفسهم في ١٢ كانون الأول ١٦٥٣ م . وفي ١٦ من هذا الشهر أعدّ مجلس الدولة ومجلس الضباط ، أداة الحكومة ، نصاً يخول السلطة إلى كرومويل مع لقب **اللورد الحامي** لجمهورية انكلترا وإيكوسيا وإيرلاندا . وكان كرومويل يرى أن وصوله إلى السلطة ليس طموح رجل عامي ، بل رجل مقتنع بعمق ، بأن الله اختاره لينقذ انكلترا ، وأنه وحده يستطيع النجاح في هذه المهمة ولا يحق له أن يتخلف عنها .

ورأت (أداة الحكومة) أي الجيش ، أن تعطي البلاد مؤسسات مستقرة وثابتة ، ولم تهر الحامي سلطة مطلقة ، وإذا كان زعياً للجيش وزعياً للدولة معاً ، فهو يخضع إلى رقابة **مزدوجة** من مجلس مؤلف من عشرين عضواً في

ممارسة السلطة التنفيذية ، ومن برلمان منتخب لثلاثة أعوام في ممارسة السلطة التشريعية . وفي الواقع ، كان المجلس مؤلفاً من أشخاص موالين كلياً لكرومويل . أما البرلمان الأول الذي انعقد في أيلول ١٦٥٤ م فقد حُلّ في ٢٢ كانون الثاني ١٦٥٥ م . وبناءً على نصيحة لامبرت ، رأى كرومويل أن يثبت سلطته ، فقسم انكلترا إلى اثنتي عشرة منطقة يقود كل واحد منها لواء مخول بسلطات واسعة ، وهكذا حوصرت وأخمدت كل المقاومات ، من ملكية ومشيخية ومساواتية (تعادلية) . وأسس نظام صرامة وشدة طهرانية تماماً ، وأغلقت المسارح والحانات ، ومنعت مطاردات ركوب الخيل ، وهراش الديكة ، ووضعت الرقابة على الأخلاق ، وقبلت الغالبية العظمى من الإنكليز طوعاً أو كرهاً هذا الاستبداد خشية الوقوع في حرب أهلية جديدة ، واعترف لكرومويل بإعادته النظام وممارسة التسامح الديني العريض ، الذي استثني منه الكاثوليك ، لاسيا وأنه كان بسياسته الخارجية بطل البروتستانتية والعظمة البريطانية .

وبعد أن فرض كرومويل على الهولانديين معاهدة وستمنستر ، حصل من الدانيارك من أجل السفن الإنكليزية التي تعبر مضيق (السوند) ، على نفس الفوائد الممنوحة للهولانديين . وفي ١٦٥٥ م ، دافع بقوة عن فودوا[1] السافوا المضطهدين . وفي هذه السنة نفسها تقرب من **فرنسا** التي كانت في حرب مع **اسبانيا** . وفيما كان أسطول بليك يقوم في البحر المتوسط بتظاهرة قوة ، استولى أسطول إنكليزي آخر على جامايكا الاسبانية ، في أيار ١٦٥٥ م ، وفي ايلول ١٦٥٦ م نهب كنوز الأسطول في قادس .

وأدت الحرب ضد اسبانيا بكرومويل إلى الحاجة إلى المال ، ودعوة برلمان

---

(١) الفودوا : سكان الفود ، أحد كانتونات سويسرا ، وقاعدته لوزان . والفودوا فرقة مسيحية تأسست في ليون في ١١٧٩ م . ومذهبها مؤسس على الكتاب المقدس بعهديه ويختلط جزئياً بالكالفنية في القرن السادس عشر .

جديد ، في ايلول ١٦٥٦ م . وأمن تأثير ألوية الجيش في الانتخابات أكثرية نواب طيعين ، فيا رأى بعض منتخبي المعارضة أنفسهم رفض حقهم في أخذ مقاعدهم في البرلمان . وفي هذه الظروف ، خول البرلمان كرومويل المساعدات الحربية المطلوبة . وفي ٢٣ شباط ١٦٥٧ م وجه إليه (ملتمساً متواضعاً) طلب فيه أن يعيد كرومويل توطيد الملكية ومجلس اللوردات ، وأن يأخذ لقب ملك . وتحت ضغط الضباط والألوية قبل كرومويل إعادة توطيد المجلس الأعلى (مجلس اللوردات) الذي يسمي أعضاءه ، ولكنه رفض لقب ملك بالرغم من ضغط البرلمان ، وقبل منحه لقب (صاحب السمو) وحق تعيين خلف له ، في نيسان ١٦٥٧ م . وفي السنة التالية ، في حزيران ١٦٥٨ م ، شاركت قطعات عسكرية بريطانية في (معركة الكثبان)[1] ، وأصبح ميناء دنكرك إنكليزياً . ولكن عشر سنوات قضيت في التعب والنصب أنهكت قوى أوليفيه كرومويل ، ومات ، في ٣ ايلول ١٦٥٨ م ، بعد أن عين ابنه ريشارد خلفاً له .

من كرومويل إلى العهد الرجعي (١٦٥٨ - ١٦٦٠ م)

لم يعوز ريشارد كرومويل الذكاء ، ولكن لم يكن عنده طاقة أبيه ، ولا قناعاته الدينية العميقة . وتجاه زعماء الجيش الذين لا يفهمون الخضوع أمام هذا المدني الخلو من الجاه والنفوذ ، اضطر ريشارد إلى التنازل عن منصبه في ٢٥ أيار ١٦٥٩ م ، وعندئذ دعا مجلس الضباط البرلمان الكفل باعتباره وفياً للشرعية . ولكن أعضاءه أصبحوا قليلي العدد والقيمة للقيام بعمل مفيد . وزحف لامبرت على وستمنستر وطردهم ، في ١٣ تشرين الأول ١٦٥٩ م ، وعرفت الجمهورية عند ذلك ستة أشهر فوضى ، قامت فيها ثورات شعبية دامية مشهودة في لندن ، وثورة للملكيين مكشوفة ، وتحرك في صفوف الجيش . وفي شباط ١٦٦٠ م ، زحف (**مونك**) قائد جيش الشمال بدوره على العاصمة ودعا مرة جديدة البرلمان

(١) معركة الكثبان (DUNES) في ١٦٥٨ م انتصر فيها تورين على كونده والاسبان .

الكفل ، ولكن لإجباره على القيام بانتخابات جديدة . وضم البرلمان المؤتمر المنتخب على هذا النحو أكثرية هامة من الملكيين اعترفت في الفاتح من شهر أيار « بأن الحكم هو ، ويجب أن يمارسه ملك ومجلس لوردات ومجلس عموم » . وأن شارل الأول ، عند وفاته ، خلفه ابنه مباشرة بموجب حق الولادة ، وأن شارل الثاني في مؤتمر (بريدا) وعد باحترام حقوق البرلمان ، ونزل في ٢٥ أيار في ميناء (دوڤر) ورحب به مونك . وفي ٢٩ منه دخل لندن ظافراً .

ومع ذلك فإن العهد الرجعي لم يصل بالأمور إلى الحالة التي كانت في ١٦٤٢ م . ومهما تكن الحظوة التي فقدها البرلمان الطويل ، فإن الأزمة بالإجمال ، ثبتت المؤسسة البرلمانية التي ظهرت مساويةً للتاج . ومن جهة أخرى ، إن جهود آل ستوارت في المركزية ، وأكثر من ذلك أيضاً إن إدارة الألوية قد عززت عند الإنكليز الإخلاص والولاء للحريات المحلية . وأخيراً لقد أيدت الثورة الأكثرية منهم في حذرهم تجاه الجيش والاستبداد ، وفي تعلقهم بالتسامح الديني ، وبالحرية الفردية . وأمنت فوق ذلك ظفر الطبقة الرأسمالية التي فهمت أن مصلحتها تبقى في تطبيق « المركانتيلية » (حب الكسب) المرنة التي تربط احترام الفردية والحرية الاقتصادية بتشريع عام ملائم لنمو الأعمال والمصالح (تعرفات جمركية حامية ، قوانين الملاحة ، معاهدات التجارة) . ولكن الكثير من المشاكل بقيت مطروحة : فهل الاتحاد الوثيق الذي أقيم بين انكلترا وإيكوسيا سيحافظ عليه ويبقى ؟ وهل ستعود الكنيسة الإنكليزية بتسلسلها الأسقفي وامتيازاتها ؟ في ١٦٦٠ م يُرى أن الإعياء العام والخوف من الفوضى قد انتصرا في الرأي ولعبا لصالح شارل الثاني ستوارت الذي أُعيد إلى العرش بعد أحد عشر عاماً على إعدام أبيه .

الفصل الحادي عشر

الحضارة الأوربية

في النصف الأول من القرن السابع عشر

الفن الباروك

إن لفظ الباروك[١] مأخوذ عن كلمة بارّوكو[٢] البرتغالية وتعني اللؤلؤة غير المنتظمة . وربما كان أصل هذه الكلمة عربياً ومأخوذاً عن كلمة (البرق) . وبين البرق واللؤلؤ صفة جامعة وهي البريق . وعليه يمكن أن نطلق على كلمة (باروك) الوصف (برّاق) ونسمي الفن الباروك بـ (الفن البراق) ، لأن كلمة (باروك) تدل على الاسم والصفة ، مع الاحتفاظ بلفظ (باروك) صفة للفن الذي نما في أوربة على شرف الإصلاح الديني الكاثوليكي المعاكس للإصلاح البروتستانتي ، في القرن السادس عشر والسابع عشر حتى منتصف القرن الثامن عشر .

وكلمة باروك يمكن أن تأخذ معاني مختلفة . وإذا دل هذا التعبير عند بعضهم على المراحل التي مرت بها جميع الأساليب الفنية في سياق حياة الأشكال ، فمن الممكن الكلام في هذا المعنى عن فن غوطي باروك عند ذكرنا للفن الوهّاج[٣] .

---

(١) باروك BAROQUE .

(٢) بارّوكو BARROCO .

(٣) الفن الوهاج FLAMBOYANT هو فن آخر دور للفن الغوطي في القرن الخامس عشر وقد اخترنا الوصف (الوهاج) من (وسراجاً وهاجاً) .

ويبدو من الأصح أن تؤخذ الكلمة بمعنى دقيق وواضح ؛ لأن الفن الباروك وجد في مكانه وزمانه . فقد أخذ ينمو نحو ١٦٠٠ م في إيطاليا . وبصورة أدق في روما ، وبلغ البلاد المجاورة بصيغ وأشكال متباينة وبتواريخ مختلفة وبنجاح كثير أو قليل .

الفن الباروك فن ينشد الحركة المنتظمة . وهذه الحركة تؤلف جوهر الذوق الباروك . وقد كتب الفنان الإيطالي برنيني : « إن الإنسان لا يشبه نفسه إلا إذا تحرك » .

والبحث عن الحركة يؤدي ، في البناء ، أي فن العمارة ، إلى الواجهات المتموجة ، والأعمدة الملتوية ، والشرفات والمنابر التي تجمع بين الخطوط المنحنية المحدبة والمقعرة .

وفي الرسم والنحت المتوائمين بصورة وثيقة ، يظهر ذوق الحركة في اختيار الموضوعات الدرامية والمضطربة ، وفي تقنيات يستخدم فيها الملاط المركب عادةً من الجص الناعم والكلس المطفأ وغبار الرخام أو الحوار (الطباشير) ، وإمكانيات المنظور ، وآثار خداع النظر ، وتلاعب الظلال والأنوار ، والإفراط في الألوان وترى كلها مستعملة دون اهتمام بحدٍ أو اعتدال ، ولكن بأعظم مهارة .

والباروك أيضاً فن المشاهدة والمسرح والعرض والتباهي والتفاخر . والاهتمام بالتزيين والزخرفة عنده يفوق الاهتمام بالبناء . ففي تزيين المسرح وأقواس النصر المؤقتة لدخول الملوك ، وقواعد النعوش ، ومواكب الدفن يتفجر خيال الفنانين ومهارتهم بأفضل مما في غيرها . كما أن الأوبرات التي أبدع نوعها الإيطالي كلوديو مونتفردي ، في أوبرته (أورفيو) في ١٦٠٧ م ، وباليهات البلاط ، أي الباليهات التي كان يرقصها الملوك ورجال الحاشية في آخر القرن السادس عشر ، والقطع المسرحية الريفية الدرامية والتراجيكوميديات شاركت بموضوعاتها جميعاً ذوق العصر . وتطيب لمؤلفيها عقد الروايات التي تلعب فيها تقلبات الأحوال

والتنكرات دوراً أساسياً . ولا يتراجعون أمام عرض العواطف المفرطة ، وحتى على المسرح نفسه ، أمام منظر الموت والتعذيب . وغالباً ماتستعمل اللغة والشعر بخاصة الاستعارات الجريئة والمقاربات غير المنتظرة كالجمع بين الضجيج والسكون ، والطيران وظلام الليل . وموضوعات الماء والنار ، والتقلب والوفاء ، والحياة والموت تفضل بخاصة . إن الباروك عدو كل قاعدة ، يرفض التوازن ، والحد والعقل . إنه ظفر لكل ما هو مؤثر ومحزن ، ومفرط ولا عقلاني .

والباروك ، في الوقت نفسه ، وبخاصة ، فن ديني ، ونجاحه في الواقع غير منفصل عن تطور الكنيسة الرومانية منذ مجمع ترانت . لأن فن الإصلاح المعاكس الكاثوليكي ، وإن اطرح بعض المظاهر (الوثنية) لفن عصر النهضة ، فقد أخذ على عاتقه النضال دون رحمة ضد (الهرطقة) البروتستانتية التي كانت تهدده في كل مكان ، وتمجيد العقائد الكبرى التي ثبتها المجمع وأكد عليها . لقد كان فن كفاح ونظام متحمساً للدين ، متمسكاً بالعبادة ، شديداً وصارماً معاً . وانتصار الكنيسة الكاثوليكية على البروتستانتية ، وإن كان جزئياً ، إلا أنه كان غير منازع نحو ١٦٠٠ م . إن روح الجدل وأوامر الشدة فسحت المجال شيئاً فشيئاً لتوكيد الإيمان الظافر والواثق من نفسه . فقد كانت الكنائس ، مسارح تضحية القداس ، مزينة بفخامة نادرة من واجهتها حتى رافدات المذابح ، فلا شيء أجمل ولا أغنى منها لتمجيد الخالق المبدع وكنيسته . وكان تمجيد المسيح ، والعذراء ، والقديسين ، والشهداء ، وعرض حقائق العقيدة مصورة برموز موضوعات كبرى في هذه التزيينات . وقد وضع (قيصر ريبا) في العام ١٥٩٣ م ، فهرساً لعلم أيقونات هذه الرموز ، وأصبح الباروك تعبيراً للإنسانية الكاثوليكية التي تحاول أن توفق بين واقع الحياة الدنيا والآمال بالآخرة .

ومع ذلك فإن فن الباروك لم يرتبط ، على سبيل الحصر ، بانتصار الكنيسة الرومانية في مطلع القرن السابع عشر . فإلى جانب هذا المظهر الأساسي ، كان ،

من بعض الاعتبارات ، حيث ظفر ، انعكاساً للمجتمع :

١ً) للمجتمع الملكي الذي كانت فيه شوكة الملك المقدسة ، لأكثر من صفة ، تتضح ، بين غيرها ، في فخامة التزيين والبذخ والأبهة التي كانت تجري في وسطها الأعمال الكبرى لحياته .

٢ً) للمجتمع الأميري ، الذي كانت الطبقة النبيلة صاحبة الأطيان ، تحتفظ فيه ، بين جماهير الفلاحين ، بنفوذ وسلطة تذكران ، مع مراعاة كل النسب ، بنفوذ الملك وسلطته .

٣ً) للمجتمع الريفي ، الذي كان فيه الفلاحون أميين في معظمهم وأقل توصلاً إلى المحاكمة العقلية منهم إلى العجيب والمحسوس ، ويرون في عبادة القديسين ، مثلاً ، كما هي مصورة على الكثير من رافدات كنائس الريف ، عزاءً وشفاعةً وأملاً .

وبالمقابل ، كانت الطبقة البورجوازية التاجرة متعلقة بالقيم القائمة على العمل والتوفير وبعيدة جداً عن تذوق الباروك ، صنيع البذخ والعرض والتباهي والتفاخر .

وأخيراً ، وبصورة أعمق ، كان فن سنوت ١٦٠٠ ـ ١٦٦٠ م تعبيراً لحساسية عصر مضطرب أكثرت فيه حرب الثلاثين عاماً الخسائر في أوربة الوسطى ، وتمزقت فيه انكلترا وفرنسا بالمنازعات الأهلية ، وحل فيه البؤس والسلب والنهب في إيطاليا ولا سيما في اسبانيا .

نشـــأة الباروك

لقد حافظت شبه الجزيرة الإيطالية في القرن السابع عشر على تفوقها الفني الذي كسبته في القرنين السالفين ، وظلت مبادهة للتيارات الجديدة . ففي روما ولد فن الباروك نحو ١٦٠٠ ـ ١٦٢٠ م . ويرتبط ، علاوة على ارتباطه بالتصنع

والتكلف ، بدروس النهضة وبصورة منفصلة أكثر ، بميكيل آنجيلو . فقد أخذ البابـاوات يقلدون بعض أسلافهم ، وكانوا أكبر المبادهين لهذه الحركة . وكان المشغل الأساسي في روما دوماً كنيسة القديس بطرس . ففي ١٦١٢ م ، أنهى **كارلو مادرنا** (١٥٥٦ ـ ١٦٢٩ م) البناء ، بوضعه في الكنيسة التي هي على شكل الصليب الأغريقي الذي صممه ميكيل آنجيلو ، ثلاثة أروقة لصحن الكنيسة مع جانبين منخفضين ، وبإنشاء واجهة ذات أركان وأعمدة ، مع لوح صغير متوسط يفيد كـ (إطار للبركات) . وقد اشتهر برنيني في تزيين الكنيسة التي انتهت على هذا النحو ، وفي تنظيم الساحة أمام الكنيسة .

برنيني

كان لورنزو برنيني (١٥٩٨ ـ ١٦٨٠ م) ، مع بورّوميني ، أكبر فنان ممثل للفن الجديد . فقد كان مهندساً معماراً ، ونحاتاً ، ورساماً ، ومخرجاً ، وأسهم أكثر من أي فنان آخر في نجاح التفسير الباروك للعناصر التي خلفتها النهضة ، من أعمدة ، وجبهات ، وعمارات مدورة وقباب . وتحت قبة القديس بطرس ، أقام في ١٦٢٣ ـ ١٦٢٤ م ، فوق مذبح الاعتراف ، مظلة (سرادق) من البرونز محمولة على أربعة أعمدة ملتوية تعطي للمجموع كل اندفاعه وحركيته . وفي آخر حياته ، في ١٦٦٧ م ، شاد في المحراب المجموعة المدهشة المساة : (مجد القديس بطرس) وتضم : دكتورين لاتينيين ودكتورين أغريقيين ، رمزاً لعمومية الكنيسة ، يقدمان كرسي القديس بطرس ، وهو عرش ـ أثري عظيم من البرونز يهيمن عليه (المجد) الإلهي مع حمامة الروح ـ القدس في وسطه . وهكذا نجح برنيني ممثلاً تشكيلياً حقيقياً لما فوق الطبيعة ، وعبر بشكل محسوس عن العون الذي وعد به المسيح لخلفاء بطرس ، وعن المفهوم الرمزي التام للتفوق الروماني . وعدا ذلك ، يحتل برنيني مكاناً من الصعيد الأول في تزيين باقي الكنيسة ، وبخاصة ضريحي أوربينو الثامن ، في ١٦٤٢ م ، والكسندر السابع في ١٦٧٢ م ،

اللذين نجد فيهما الذوق المعاصر لتمثيل الموت ، أما تنظيم ساحة القديس بطرس ، في ١٦٥٦ و ١٦٦٧ م فيبدو من أثره العظيم المؤلف من مجموعة أعمدته الفخمة التي يوهم رسمها الاهليلجي بمجال أعمق بكثير مما هو عليه في الحقيقة . وعبر ، كنحات عظيم ، عن النشوة الصوفية بواقعية وحمية في نشوة القديسة تيريزا ، وأعطى في نبع الأنهار الأربعة ، في ميدان نافونه ، في روما ، موجزاً لمفهوم الباروك عن الحركة .

بورّوميني

أما فرنشسكو بورّوميني (١٥٩٩ ـ ١٦٦٧ م) فيعارض ، لأكثر من صفة ، برنيني . كان مزاجاً معقداً ومضطرباً ، وأصيب بالنوراستينيا ومات منتحراً . كان فناناً وحيداً منعزلاً وظل غير مفهوم زمناً طويلاً ، ولكنه كان ثورياً أكثر من منافسه . استعمل الخط المنحني بمهارة مدهشة ، في كنيسة القديس شارل ونوافيرها الأربع (١٦٣٨ ـ ١٦٤١ م) وفي واجهة (القديسة آنيس) في ميدان نافونه .

ومن روما ، بلغ فن العمارة الجديدة شيئاً فشيئاً مراكز إيطالية أخرى وبخاصة بعد ١٦٦٠ م . وقبل هذا التاريخ يجب أن نذكر أثر المهندس المعمار الكبير **بالتازار لونغينا** (١٥٩٨ ـ ١٦٩٢ م) . فقد شاد في البندقية ، انطلاقاً من ١٦٣١ م ، كنيسة القديسة ماريا ديلا سالوته التي يعبر مظهرها الخارجي والأبواب الثانية التي تعلوها قبتان ، عن التعقيد الباروك للمخطط الداخلي ورسمه المثمن الشكل .

أما الرسم ، في روما وفي باقي إيطاليا ، فقد أفاد من الدروس المتعارضة للأكاديمية البولونية[1] عند لودوفيكو كارّاتشي وابني عمه أغسطينو وآنيبال ، ومن

---

(١) بالنسبة إلى مدينة بولونيا في إيطاليا .

واقعية **كارافاج** . وقد مارس هذا الأخير بقوة إلهامه ، وبشدة تأثيراته الضوئية ، وباختيار موضوعاته ، نفوذاً عظيماً على الرسم الأوربي كله . ومع ذلك ، وخارجاً عن كارافاج الذي توفي في ١٦١٠ م ، لم يكن لروما أو البندقية رسامون شبيهون برسامي القرن السالف : ولم يكن بيير دو كورتون (١٥٩٦ ـ ١٦٦٩ م) سوى منفذ ماهر لرسومات السقوف المعالجة بمهارة .

انتشار الباروك : لم يتأثر بلد بالباروك كما تأثرت به اسبانيا الكاثوليكية ، بلد التمجيد الديني ، والخارقة اليومية ، والعنف ، والتأثير في النفس والعواطف . وإذا كان قصر الأيسكوريال وأثر (**غريكو**) مميزين لفن الإصلاح المعاكس المعروف بالتقشف والاعتدال . فإن النحت المتعدد الألوان على الخشب : من تماثيل موكب ، ومشاهد رافدات ، وواقعية حادة ، يعتبر أصدق تعبير لحساسية الباروك . وكان الفنانون الكبار ، ماعدا فيلاسكيز ، كل حسب مزاجه ، معبرين لهذه الحساسية : كان ريبيرا (١٥٩١ ـ ١٦٥٢ م) ، الذي عاش طويلاً في إيطاليا ، من طبيعية شبه عامية ؛ **وزورباران** (١٥٩٨ ـ ١٦٦٤ م) فكراً دينياً عميقاً ، عرف كيف يظهر المعنى الصوفي للموضوعات التي عولجت بواقعية ؛ وموريللو (١٦١٧ ـ ١٦٨٢ م) ، الذي تغلب عنده الرشاقة الطفولية على الحزن والمؤثر المأساوي ، لاقى في عصره نجاحاً واسعاً بلوحاته ، مثل (الحبل بلا دنس) أو (الأسرة المقدسة) . وأكثر من الرسامين أيضاً ، كان لوب دوڤيغا (١٥٦٢ ـ ١٦٣٥ م) وكالديرون (١٦٠٠ ـ ١٦٨١ م) كاهنين ومؤلفين دراميين وخصيبين مدهشين ، أعطيا في (التقديس الذاتي) ، وفي كوميدياتهما ، صورة للمجتمع الاسباني الديني والعاطفي الحاد .

والبرتغال ، التي لم يكن عندها فنانون من الصعيد الأول ، وكان ملوكها من ١٥٨٠ إلى ١٦٤٠ م ملوك اسبانيا ، عرفت ازدهار الباروك الذي هيأ فيها نجاح الفن المعماري ـ التزييني . وهذا الفن يتجلى في العمارة ، التي ظلت بسيطة ، أقل

مما يتجلى في تزيين الكنائس والمواهف[1] والأروقة ، مع تقنية (الأزوليخوس) أي تغطية الجدران بالخزف الأبيض والأزرق .

وانتشر الباروك الإيبري في أمريكا اللاتينية ، وامتزج بالتقاليد القديمة في الفن وحضارات البلاد الأصلية ، وانتهى بباروك استعماري أكثر حدة من فن شبه الجزيرة ، كما يرى ذلك ، مثلاً ، في كنيسة القديسة ماريا الوردية في (بوئبلا) في المكسيك .

وفي الجزء الجنوبي من البلاد ـ المنخفضة ، التي بقيت كاثوليكية واسبانية ، كان بيير ـ بول روبنس (١٥٧٧ ـ ١٦٤٠ م) أكبر الرسامين الباروكيين . وبعد أن أقام ثمانية أعوام في إيطاليا ، استقر عام ١٦٠٩ م في أنفرس ، وكانت آنذاك في أشد تراجعها الاقتصادي ، ولكنها كانت قلعة أمامية للكاثوليكية أمام الأقاليم ـ المتحدة . وأبدى فيها روبنس نشاطاً فائقاً للعادة ، وعرف حتى وفاته نجاحاً يدل على النقطة التي اتفق فيها انتاجه مع ذوق معاصريه . وكل أثره نشيد لفرح الحياة بأشكاله المختلفة ، وتمجيد للخالق في خلقه . ويضم فهرس آثاره أكثر من ٣٠٠٠ لوحة قماش . وكان صديقاً كبيراً لليسوعيين في أنفرس ، وحقق في أثره مثلهم الأعلى في الإنسانية الكاثوليكية . ويتضح ذوقه للتراكيب المضطربة والألوان الفخمة ، وشهوانيته الحارة ، وحبه للحياة في الموضوعات المختلفة : كمشاهد الاحتفالات الخيرية (الكرمس) الشعبية أو السعادة العائلية البسيطة ، مثل **« هيلانة فورمانت وأولادها »** ، والصور الميثولوجية أو التراكيب التاريخية الكبرى ، مثل (ماريا دو ميدتشي) ، وأخيراً الموضوعات الدينية مثل : النزول عن الصليب ، وشهادة القديس ليفْن .

وكان روبنس في الوقت نفسه أستاذاً غير منازع لجميع رسامي العصر

---

(١) الموهف : مكان تصف فيه حلي الكنيسة ويلبس الكهان ملابسهم الكهنوتية .

الفلامانديين ممن اشتغلوا زمناً في مشغله مثل : جـان بروغيل دو فيلور (١٥٦٨ ـ ١٦٢٥ م) أو أنطـوان فـان دايـك (١٥٩٩ ـ ١٦٤١ م) الـذي أصبح في ١٦٣٢ م المصور الرسمي لبلاط انكلترا ، كما في لوحة (شارل الأول في الصيد) أو ممن تأثروا به مثل فرانس سنايدرس ولا سيما جاكوب جوردانس (١٥٩٣ ـ ١٦٧٨ م) .

وظهر تأثير روبنس أيضاً في العمارة . وعلى هـذا الصعيـد كانت الإنجـازات الكبرى من عمل اليسوعيين في أنفرس دون أن يكون بالإمكان الكلام هنا أكثر مما في غير مكان عن أسلـوب يسـوعي . وهـو يسـانس المهنـدس المعمار لكنيسـة (القـديس ـ شـارل ـ بورّوميـه) ، التي تعتبر واجهتها المسرحيـة جـداً رافـدة عظيمـة ، وينتمي إلى الجمعيـة اليسوعيـة مثل : فـان هيس ، المسمى : (هسيوس) الإنساني ورجل العلم والمهندس المعمار لكنيسة القديس ـ ميشيل في لوفن .

وأقل وضوحـاً من إيطـاليـا ، والعـالم الإيبيري أو الفـلانـدر ، عرفت فرنسـا لويس الثالث عشر ومازارن عصرها الباروك أيضاً . ففي هذا البلد ، الذي ما كاد يتخلص من المنازعات المدنية التي قامت في القرن الفائت ؛ والمنافسات الاجتماعية العنيفة بصورة خاصة ، والذي حاولت فيه الأرستقراطية المشاغبة أن تقاوم تقـدم السلطة الملكية المطلقة ، كانت الاتجاهات الفنية الآتية من وراء الجبـال ، أي من إيطـاليـا ، تتجـاوب مـع التطلـع للحريـة ، والهـوى النفسي ، والـوفرة ، وشـدة الحيوية ، وإلى شكل للفوضى . ولكن هذا التيـار القوي للبـاروك والـدقـة ، التي تنجم عنه دون أن تختلط به ، تصطدمان بتيـار معـاكس من التحـديـد والقيـاس والصرامة والتمسك بالقواعد . وفي الحقيقة ، كان هـذان التيـاران يختلطـان غـالبـاً جداً في هذا النصف الأول من القرن السابع عشر .

وفي الآداب ، تتعلق قصائد (سپوند ، وسانت آمـان ، وتيوفيل دو ڤو) بعلم الجمال الباروك . وكذلك ، من بعض الاعتبارات ، الرواية الريفية ، (**عشتـار**) لمؤلفهـا **هـونـوريـه دورفـه** ، والروايـة الكـوميـديـة لمـؤلفهـا **سكارّون** ،

والقطع المسرحية الريفية والتراجي ـ الكوميديات العديدة المقلدة من اسبانيا ، والأوبرات على الطريقة الإيطالية ، وباليهات البلاط . والشاعر مالرب نفسه ، أول الكلاسيكيين (الاتباعيين) كان باروكاً في عدة مقطوعات في (دموع القديس بطرس) ، وكذلك أيضاً الشاعر (كورنيْ) في قطعه المسرحية الأولى ولا سيا (الوهم الكوميدي) وحتى أيضاً في قطعة (السيد) . ولقد تبنى المزينون أكثر من المعماريين ، في فرنسا ، الذوق الجديد . وفي الحقيقة ، إذا كانت الكنائس العديدة التي بنيت في ذلك الحين قليلاً قليلاً حسب التقاليد الغوطية ، وأكثر فأكثر حسب المثال الروماني ، فإن أسلوب الإصلاح المعاكس المنسجم والمتقشف ، بواجهة ذات جبهة وتزيينات حلزونية الشكل ، وقبة ، هو الذي قلد في كنيسة السوربون في باريس التي بناها (لومرسيه) ، وفي كنيسة فال ـ دو ـ غراس التي بناها (مانسار) ـ (١٥٩٨ ـ ١٦٦٦ م) أو في كنيسة اليسوعيين في باريس ، والتي هي اليوم كنيسة القديس بول ـ القديس لويس . ونادرة كانت الكنائس ، مثل كنيسة القديسة ماريا في نوفير ، التي تنفجر فيها على الواجهات وفرة تزيينات برنيني أو بوروميني . وبالمقابل يظهر تيار الرسم والتزيين المستمد بصورة نموذجية من الباروك ، مثل لوحات روبنس في قصر اللوكسمبورغ وآثار جاك كالّو (١٥٩٢ ـ ١٦٣٥ م) ، المراقب الدقيق والنير لبؤس عصره . وسيمون ڤويه (١٥٩٠ ـ ١٦٤٩ م) الذي بقي أربعة عشر عاماً في إيطاليا وأصبح بعد ١٦٢٧ م الرسام الدارج على الموضة في تزيين الحياة اليومية : مثل البذخ في الأثاث الملون والأقمشة المتعددة الألوان ، وفخامة العمائر الموقتة ، مثل أقواس النصر المقامة لدخول لويس الرابع عشر وماريا تيريزا باريس ، في ٢٦ آب ١٦٦٠ م .

أما **أوربة الوسطى** ، ألمانيا والبلاد الدانوبية ، فقد كانت بين ١٦١٨ ـ ١٦٤٨ م ، تمزقها حرب الثلاثين عاماً ، ولم يستطع الفن الباروك أن يتفتح فيها بحق إلا في النصف الثاني من القرن . ومع ذلك ، فإن ظفر الكاثوليكية ، في

أملاك آل هابسبورغ ، ظهر في تقبل الذوق الإيطالي ، كما في كنيسة جامعة فينّا ، وكنيسة المنقذ الأقدس في براغ .

مقاومة الباروك

ولم يظفر فن الباروك أيضاً في أوربة كلها . وحتى في البلاد ، التي يظهر أنه تفوق فيها ، مثل إيطاليا واسبانيا ، يرى أن بعض الفنانين ، مثل فيلاسكينر ، أمكنهم التعلق به بصعوبة . وفي بلاد أخرى ، مثل فرنسا ، قاوموه في الوقت الذي يستقبلونه ، بجمال مخالف تماماً ؛ وأخيراً ، في بلاد أخرى ، مثل أنكلترا ، والأقاليم المتحدة ، رفضوه تماماً تقريباً .

لقد كان الفنان الاسباني دييغو فيلاسكيز (١٥٩٩ ـ ١٦٦٠ م) أكبر فنان ، في القرن السابع عشر ، مع روبنس ورامبرانت ، ولكنه تخلص من كل تصنيف . لقد أغرته الكارافاجية جداً في البدء ، ولكنه مالبث أن تحرر من كل تأثير وظهر نموذجاً لـ (الرسام المحض) الذي رفض كل رغبة أدبية ، واجتماعية ، وحتى نفسية ، واكتفى بأن يعبر عن نفسه بالرسم والتصوير . لقد كان يتميز بحسه الدقيق في التركيب ، ولكنه كان بخاصة ملوناً عجيباً يعرف كيف يلعب بفروق الألوان والنور . ولوحاته شاهد على عصره ، كما في (استسلام بريدا) أو لوحات أشخاص البلاط العديدة (كالسيدات المتعلقات بالاميرات الاسبانيات) .

وفي **فرنسا** ، يرى أن جهود (فوجيلا) والأكاديمية الفرنسية ، التي تأسست في ١٦٣٥ م ، وأثر ماليرب الشيخ العجوز ، وأثر كورني بعد ١٦٤٠ م ، هيأت انتصار الكلاسيكية (الاتباعية) الأدبية . ففي البناء تمثل القصور ، و الدارات من أسلوب لويس الثالث عشر ، كقصر (بالروا) ، بسقوفها العالية ، وتوالي الحجر والآجر ، حلاً فرنسياً بصورة نموذجية . وإذا بنى سالومون دوبروسّ (١٥٦١ ـ ١٦٢٦ م) قصر اللوكسمبرغ لماريا ميدتشي فقد استوحى ذلك من النماذج الإيطالية ، واقتبس هذه النماذج عن فلورنسا النهضة ، لا عن روما

الباروك . وكذلك إذا كانت الرحلة إلى إيطاليا تعليماً لا غنى عنه للمصورين الفرنسيين ، فقد أخذ هؤلاء بخاصة الدروس الكبرى من العصر القديم وعصر النهضة وعرفوا كيف يفسرونها بكل حرية .

وهكذا كان نيقولا بوسّن (١٥٩٤ ـ ١٦٦٥ م) أول كبار المصورين الاتباعيين . كان رساماً أكثر منه ملوناً . وصور لوحات مبنية ومتوازنة عن علم ، وكل ما فيها ثابت ومنسجم . وتراكيبه الكبرى المستوحاة عن الميثولوجيا ، مثل : أورفيه وأوريديق ، كانت في الوقت ذاته مناظر عجيبة هادئة ومضيئة . وهذه الطبيعة الهادئة نجدها أيضاً في لوحات كلود جلله الملقب بـ : اللوريني (١٦٠٠ ـ ١٦٨٢ م) . وجورج دولاتور (١٥٩٣ ـ ١٦٥٢ م) تأثر أيضاً **بالكرافاجية**[1] في لوحة (الميلاد) : والإخوة لونان يذكرون بالفلاحين والدواخل البورجوازية . وفيليب دو شامبين (١٦٠٢ ـ ١٦٧٤ م) رسام للأشخاص مؤثر ؛ وأوستاش لوسوور (١٦١٧ ـ ١٦٥٥ م) بأسلوبه المعرّى ، كما في حياة القديس برونو ، كانوا رسامين للواقع وشعراء معاً ويرفضون كل تفخيم وكل تباهٍ وتفاخر .

ولم تتخل **انكلترا** أوائل آل ستورات بعد تماماً عن الفن الغوطي . ومع ذلك ، فإن المهندس المعمار الكبير إينيغو جونز (١٥٧٣ ـ ١٦٥٢ م) المتحمس تلميذ (بالاديو) ، أدخل إلى إنكلترا البالاديانية[2] . وتحت هذا الشكل لم يظهر التأثير الإيطالي فيها تحت شكل الباروك ، بالرغم من جهود المليكين وقسم من الطبقة الأرستقراطية ، المهتمين بالوجاهة والأبهة والفخامة . ولكن الطهرانية كانت

---

(١) الكرافاجية : بالنسبة إلى كارافاج ، في الرسم ، هي إعطاء الرؤية واقعية درامية تباين قوي بين الظل والنور .

(٢) البالاديانية : بالنسبة إلى بالاديو المهندس المعمار الإيطالي الذي استوحى فن العمارة عن ڤيتروڤ المهندس المعمار الروماني .

بصورة جذرية جداً تتنافى مع روح الباروك ، فلم يستطع تأثير هذا الفن تجاوز دائرة البلاط الضيقة .

وهذا التنافر نفسه يوضح ولا شك بصورة عريضة أن **الأقاليم ـ المتحدة** كانت ، هي أيضاً ، مغلقةً تقريباً على الفن الجديد . ولا فرق في أن الدين المصلَح كان يتطلب أماكن عبادة عارية ، دون زينة ، ومراكز بسيطة للصلاة والاجتماع ، أو أن الكنائس الكاثوليكية فهمت كأناشيد ظافرة بمجد الله وقديسيه . لقد كان البورجوازيون الهولانديون متعلقين بإيمانهم البروتستانتي ، وفخورين بنجاحهم الاقتصادي والسياسي ، ويهتمون بخاصة بالرسم والتصوير ويطلبون من فنانيهم أن يعيدوا لهم الصورة الهادئة لحياتهم اليومية : مناظر ، دواخل ، طبيعات صامتة ، رسوم أشخاص منفردة أو جماعية . وفي هذه الموضوعات كان العديد من الفنانين يعبرون عن أنفسهم حسب اختلاف مزاجهم ، مثل : (رويسدال) و (بيتر دو هوخ) ، ومن بينهم تظهر ثلاثة أسماء كبرى للتصوير كله وهي : فرانس هالس (١٥٨٠ ـ ١٦٦٦ م) ، رسام الأشخاص الذي لا يرحم . كما في (الوصيات) ، وجان فرمير دو دلفت (١٦٣٢ ـ ١٦٧٥ م) الذي بلغ ، بوسائط بسيطة جداً ظاهراً ، أعلى ذرى الشعر في : (الفتاة ذات العمرة) ، كما يراها دلفت ، وأخيراً رامبرانت .

رامبرانت (١٦٠٦ ـ ١٦٦٩ م)

كان رامبرانت نموذجاً لعبقرية لا تقبل التصنيف . كان رساماً ونقاشاً معاً . ودون أن يكون في إيطاليا ، تأثر كالكثير من معاصريه بكارافاج وأسس على الظلام المنير (التعتيم) الجزء الأكبر من أسلوبه : ومعظم آثاره ، من لوحات قماشية وحفرية ، هي حوار النهار والليل . والظل والنور . وفي لوحاته الشخصية الذاتية ، مثل (الرجل ذو العمرة) ، وشخصياته الجماعية مثل جولة الليل ، ونقباء الجواخين ، ومناظره ، ومشاهده التوراتية ، مثل داود وشاؤول ،

يجمع إلى حدة الرسم أستاذية مدهشة في اللون . لقد كان معاصروه في أمستردام يعجبون به ، ولكنهم فهموه قليلاً ، وأساؤوا دعمه ، وضللتهم عبقريته . وترك عند وفاته أثراً وافراً ومتنوعاً جداً . وهذا الأثر ، رغم بعض مظاهره ، وبخاصة في الحس الحركي والمأساوي ، كان ككل التصوير الهولاندي في عصره ، على نقيض الفن الباروك ، أقل كاثوليكية وأقل افتخاراً وأبهة .

نشأة العلم الحديث

لقد كان القرن السابع عشر عظيم الأهمية في تاريخ الفكر . ففي هذا العصر ، وبفضل غاليليه وديكارت ، تأسس العلم الحديث التجريبي والكمي ، الذي كان كوبرنيك سلفاً عبقرياً له في القرن السابق . ولكن هذه الثورة العميقة في العقلية لا تظهر آثارها بحق إلا في النصف الثاني من القرن .

يقظة العقلية العلمية : غاليليه وديكارت

لقد جابه العالم الإيطالي غاليليه (١٥٦٤ ـ ١٦٤٢ م) مذهب أرسطو وهاجمه واستعمل بشكل منظم التجريب واللغة الرياضية ، وكشف عن نفسه أول مؤسس للعلم الحديث . وبهذا الاعتبار ، لا يمكن لأهمية معاصره الإنكليزي فرانسيس بيكن (١٥٦١ ـ ١٦٢٦ م) أن تكون مشابهة لأهميته . وما من شك في أن بيكن ، الفيلسوف ورجل الدولة معاً ، مستشار إنكلترا من ١٦١٨ إلى ١٦٢١ م ، قد وجه اللوم أيضاً للعلم الأرسطاطاليسي ووضع في كتابه : (نوڤوم أورغانوم[1] (١٦٢٠ م) أسس الطريقة التجريبية . ولكن معارفه الضعيفة في الرياضيات لم تساعده على كشف الدور الأساسي الذي أخذت تلعبه هذه الرياضيات منذ الآن .

كان غاليليه أستاذاً ، في بيزا ، مسقط رأسه ، في ١٥٨٩ م ، ودرس فيها

---

(١) نوڤوم أورغانوم : NOVUM ORGANUM .

حركة القذائف ، وعدد التجارب ، وهاجم بشدة نظرية أرسطو في الحركة . ثم سمي أستاذاً في جامعة پادوا الشهيرة في ١٥٩٢ م ، وأوضح فيها في ١٦٠٩ م النظارة الفلكية وكسب بذلك شهرة عالمية .

وفي الحقيقة ، إن النظارة ساعدت غاليليه على تأسيس علم فلك الرصد . وفي ١٦١٠ م ، أصبح أول عالم رياضي لدوق توسكانا الأكبر وأقام في فلورنسا . وعندئذ تعلق بتقويض فيزياء أرسطو بشكل منظم والعمل على قبول فرضية كوبرنيك . ونشر لهذه الغاية ، في العام ١٦٣٢ م ، : (حوار في منظومتي العالم الكبريين) بين أرسطاطاليسيٍّ وكوبرنيكيين ، وانتهى الحديث بإفحام الأول . وبالرغم من الصداقة القديمة التي تربط البابا أوربينو الثامن بغاليليه فقد أذعن لضغوط أعداء العالم ، واضطر العالم أن يمثل أمام (محكمة التفتيش) ، في ١٦٣٣ م ، وحكم عليه بشدة « مشبوهاً بالهرطقة ، لأنه تمسك بهذا المذهب الخاطئ والمخالف للكتاب المقدس والإلهي ، وهو أن الشمس مركز العالم ، وأنها لا تتحرك من الشرق إلى الغرب ، وأن الأرض تتحرك وليست مركز العالم ، وأنه يمكن دعم رأي محتمل والدفاع عنه ، بعد أن عُرِّف صراحةً بأنه يخالف الكتاب المقدس . ولهذا ، فقد عرضت نفسك لجميع التأديب الكنسي ، والعقوبات التي فرضتها ونشرتها القوانين الكنسية المقدسة والدساتير الأخرى العامة منها والخاصة ضد أمثال هؤلاء الآثمين . ويسعدنا أن نحلك من هذه العقوبات ، شريطة أن ترعوي منذ الآن بقلب مخلص وبإيمان غير مصطنع ، وأن تلعن وتكره أمامنا الأخطاء والهرطقات المشار إليها أعلاه » .

هكذا أنذر غاليليه ، وكانت سنه سبعين عاماً ، فرجع عن قوله . وبعد اعتقال دام ستة أشهر في أبرشية سيين ، عاد إلى فلورنسا وكرس نفسه ، في السنوات الأخيرة من حياته ، لأعمال جديدة في الحركة تضع أسس الفيزياء الحديثة .

وبعد أربعة أعوام على حكم غاليليه ، ظهر في باريس ، كتاب : (خطاب في الطريقة لسلوك العقل والبحث عن الحقيقة في العلوم) ، في ١٦٣٧ م ، للفيلسوف الرياضي رونيه ديكارت (١٥٩٦ ـ ١٦٥٠ م) . ولد في لاهيه من إقليم تورين في فرنسا ، وكان تلميذاً قديماً لليسوعيين في مدينة (لا فليش) . ومنذ ١٦١٩ م ، خلال إقامته في ألمانيا ، كانت عنده فكرة في وحدة العلم وضرورة إيجاد طريقة عامة للبحث عن الحقيقة . وهذا البحث المنظم يجب أن يكون في منأى عن السياسة والدين باعتبارهما مسلمات يحسن « عدم وضعها موضع شك » . وأقام في هولندا في ١٦٢٩ م ليستطيع العمل بحرية كاملة ، وبقي فيها حتى ١٦٤٩ م عندما ذهب إلى ستوكهولم مستجيباً لدعوة ملكة السويد كريستينا ومات فيها بعد بضعة أشهر .

لقد كان « خطاب في الطريقة » أول أثر كبير فلسفي وعلمي كتب باللغة الفرنسية يطرح أسس ثورة فكرية حقيقية : لأن ديكارت يعارض فيه الفكر السابق للمنطق ، والطبيعية السحرية ، والفيزياء الكيفية لرجال عصر النهضة ، بالأسلوب الواضح لرجل شريف ، الدروس الكبرى للشك **الأصولي المنهجي** ، **ولأفضلية العقل والتجربة** . ولضرورة **اللغة الرياضية** . وهذه هي القواعد الأربع التي قرر التمسك بها :

الأولى : ألا أقبل أبداً بأي شيء بأنه صواب قبل أن أعرفه بصورة واضحة كما هو : أي أن أتجنب بعناية السرعة في اتخاذ القرار وإعطاء الحكم دون فحص واختبار ، وألا أفهم شيئاً أكثر في محاكاتي إلا ما يبدو لي بصورة واضحة ومتميزة لعقلي بأنني لم أدع أي فرصة أضعه فيها موضع شك .

الثانية : أن أجزئ كلاً من الصعوبات التي ألاحظها إلى أجزاء صغيرة ليمكن ويصبح من المناسب حلها بشكل أفضل .

الثالثة : أن أوجه أفكاري بنظام بادئاً بأبسط الأشياء وأسهلها معرفةً ،

لأصعد شيئاً فشيئاً ، على درجات ، إلى أن أبلغ معرفة أكثرها تركيباً ، ومفترضاً الترتيب بين تلك التي لا يسبق بعضها الآخر بصورة طبيعية .

الرابعة والأخيرة : أن أقوم في كل مكان بإحصاء كامل وباستعراض عام لأكون واثقاً من أنني لم أحذف شيئاً .

وإذا فقدت بسرعة فيزياء ديكارت (الميكانيكية) والمنظمة كثيراً كل قيمتها ، فذلك شيء ثانوي ، لأن المعول عليه ، خارجاً عن اكتشافاته الهامة في الرياضيات ، هو الجانب الثوري للطريقة العلمية التي فضلها ، ولاقت ، فيما بعد ، لدى الجمهور المثقف ، نجاحاً عظيماً ، بالرغم من بعض المقاومات الشديدة ، ولاسيا بعد ١٦٦٠ م . وسيكون **لافونتين** معبراً عن أغلبية معاصريه عندما يحيي ذلك الميت الذي لو كان عند الوثنيين لصنعوا منه إلّهاً .

التقدم العلمي

وبصورة موازية ، مالت ظروف العمل العلمي إلى التطور : من جهة زال شيئاً فشيئاً خضوع العالم للكنيسة ، بحيث لا ترى بعد ١٦٣٣ م محاكمة كمحاكمة غاليليه . لأن بعض الاحتياطات تكفي منذ الآن لتجنب صعوبات خطيرة . ومن جهة أخرى ، لانت الرابطة بين التعليم والبحث ، في الحد الذي تقاوم فيه الجامعات ، قلاع التقليد ، بصورة عامة كل المستجدات . فقد كان العلماء نادراً أساتذة ، مثل غاليليه أو هارفيه ، وغالباً هواةً ، وقضاة . ورجال كنيسة ، وحتى رجالاً بسطاء عصريين . ومع ذلك ، فإن هؤلاء الغواة لم يشتغلوا بصورة منعزلة : فقد أقاموا فيما بينهم مراسلات نشيطة ، ووجدوا في أكاديميات ، مثل (لينشئي) في روما و (شيمنتو) في فلورنسا ؛ أو في حلقات خاصة مثل : حلقة الأب : (ماران ميرسين) في باريس .

الرياضيات

نزعت الرياضيات إلى أن تصبح لغة العلم الحديث ، وكان تقدمها شرطاً لتنمية هذا العلم . لقد اخترع النبيل الإيكوسي جون نابيه أونيبير (١٥٥٠ ـ ١٦١٧ م) اللوغاريتمات ، وفي ١٦١٤ م نشر كتاباً عرف فيه اكتشافه ؛ وفي السنوات التالية أدرك (كبلر) أهمية اللوغاريتمات وأسهم في انتشارها في ألمانيا . وأتى أربعة علماء كبار فرنسيين بإسهامات أساسية في **تأسيس الرياضيات الحديثة : ديكارت ؛ وبليز باسكال** (١٦٢٣ ـ ١٦٦٢ م) أحد كبار العقول في عصره ؛ **وجيرار ديزارغ** (١٥٩١ ـ ١٦٦٢ م) ضابط سابق ؛ وبيير **دوفيرما** (١٦٠١ ـ ١٦٥٥) المشاور في برلمان تولوز . وأنشئت **الهندسة التحليلية** ، أي تطبيق عمليات الجبر على الهندسة في الوقت نفسه على يد ديكارت وفيرما (١٦٣٧) ؛ **والهندسة الانعكاسية** ، أي الهندسة التي تدرس الخصائص الانعكاسية للأشكال على السطوح المستوية ، من قبل ديزارغ وباسكال (١٦٤٠ م) ؛ وطرح فيرما وباسكال أسس حساب **الاحتمالات** (١٦٥٤ م) **والتحليل اللا نهائي** (١٦٥٨ م) .

الفلك

كانت الأعمال الأساسية للفلك أعمال غاليليه وكبلر . فقد ضاعف غاليليه بفضل نظارته في العام ١٦٠٩ م الرصد المباشر . وهكذا اكتشف تباعاً أربعة توابع (للمشتري) ، وحلقة زحل ، والبقع الشمسية ، ومراحل الزهرة والمريخ ، وتضاريس القمر . ونشر اكتشافاته في ١٦١٠ م في كتابه (نونتيوس سيديروس) . وكان صديقه ومراسله ، الألماني يوهانس كبلر (١٥٧١ ـ ١٦٣٠ م) ، مساعداً لـ (تيخو ـ براهه) في براغ وخلفه فلكياً للأمبراطور في ١٦٠١ م . ونشر كتابه (علم الفلك الجديد) ، في ١٦٠٩ م ، قبل نشر غاليليه لكتابه بأربعة أشهر .

وفي هذا الكتاب ، ثمرة دراسة دقيقة ومنظمة لحركات المريخ ، صحح كبلر فرضيات كوبرنيك ، وأطال في عمرها ، ووضع القانونين الأولين اللذين يحملان اسمه ، ووضع القانون الثالث في ١٦١٩ م . وهذه القوانين هي :

١ ـ كل كوكب يرسم في الاتجاه المستقيم قطعاً أهليلجياً مركزه الشمس .

٢ ـ المساحات التي يرسمها الشعاع الموجه المنطلق من مركز الشمس إلى مركز الكوكب ، تتناسب مع الزمن المستخدم لرسمها . وهذا القانون يسمى (قانون المساحات) .

٣ ـ مربعات أزمنة الدوران الفلكي للكواكب تتناسب مع مكعبات المحاور الكبرى لمداراتها .

وهكذا أمنت أعمال كبلر نصراً لمركزية الشمس وأعطت لعلم الفلك صحة اللغة الرياضية ؛ وبذلك وضعت جسراً بين فرضيات كوبرنيك وملاحظات غاليليه من جهة ، وبين التركيب الكبير لنيوتن ، من جهة أخرى .

هذا ويعتبر غاليليه ، بدراساته على سقوط الأجسام الحر وحركة القذائف ، أول من وضح البنية الحديثة للفيزياء التي هي تعبير رياضي للقوانين التجريبية التي تسير الحوادث . ففي ١٦٠٤ م ، اكتشف **القانون الأساسي لسقوط الأجسام ، وبموجبه تتناسب المسافة مع مربع الزمان اللازم لقطعها** . وفي كتابه الذي صدر في ١٦٣٨ م ، تناول مجموع أعماله في هذه القضايا وأسس على هذا النحو **علم الميكانيك الحديث** . ومدد تلميذه اللامع إيفانجيليستا **توريتشللي** (١٦٠٨ ـ ١٦٤٧ م) أعمال أستاذه ، وبرهن بخاصة على أن الخط ، **الذي ترسمه القذيفة ، هو قطع مكافئ دوماً** . ومن جهة أخرى كان توريتشللي ، مع باسكال ، في أصل الأعمال على ميكانيك السوائل . وتجاربه في قياس الضغط الجوي ، التي تناولها باسكال في باريس وفي قمة بوي ـ دو ـ دوم (١٦٤٦ ـ ١٦٤٨ م) ، برهنت على وجود الفراغ والضغط الجوي . بيد أنه مع

الاعتقاد باستحالة الفراغ ، كان غاليليه وديكارت يعتقدان بالخوف من الفراغ . وتلك بقية من البقايا الأخيرة للفيزياء الأرسطاطاليسية التي زالت .

وإذا عرفت الرياضيات وعلم الفلك والفيزياء في النصف الأول من القرن تقدماً عظيماً ، فلم تكن الحال كذلك في العلوم الأخرى ، ولا سيما علوم الحياة . وحتى في هذا المضار ، حقق العالم الكبير الإنكليزي وليم هارفي (١٥٧٨ ـ ١٦٥٨ م) كشفاً رئيسياً . فقد كان طبيباً في بلاط ملوك آل ستوارت ، ونشر في ١٦٢٨ م كتابه وبرهن فيه على الدوران الكبير للدم ، ووضح دور القلب ، والأوردة والشرايين . وكتب :

هذه هي أعضاء ورسم انتقال الدم ودورته : أولاً من الأذين اليمنى إلى البطين ، ومن البطين عبر الرئتين حتى الأذين اليسرى ، ومن هنا ، في البطين الأيسر ، في الشريان الأبهر وفي كل الشرايين التي تبتعد عن القلب ، ثم في مسام الأعضاء ، في الأوردة ، ومن الأوردة ، نحو قاعدة القلب حيث يعود الدم بسرعة .

وبعد عدة عمليات على الحيوانات الحية ودراسات مباشرة على كبار الجرحى توصل إلى هذا الاكتشاف الأساسي الذي اصطدم دفعة واحدة باعتراضات التقليديين المزدرية وتهكماتهم اللاذعة .

حدود التقدم العلمي

إن النزاع ، الذي قام بعد ١٦٣٠ م حول قضية دوران الدم ، يميز الصعوبات والحدود التي ما زال العلم يلاقيها بعد . وهي نفس تلك التي عرفها القرن السادس عشر . ولم يبدأ انتصار العقلية العلمية بحق إلا في السنوات ١٦٤٠ ـ ١٦٦٠ م تحت تأثير أفكار ديكارت . أما في السابق ، فقد كان الاحترام البالغ للتقليد وسلطة القدامى بل وعقلية العصر تعيق تقدم العلم .

أما بالنسبة للعلماء (الرسميين) من أساتذة جامعات وغيرهم ، فقد كان العمل العلمي يقوم أساساً على تفسيرات أزلية و « منازعات » على آثار **أرسطو وبطليموس وهيبوقراط وجالينوس** . وإذا انهار علم الفلك والفيزياء الأرسطاطاليسيين شيئاً فشيئاً تحت ضربات مؤيدي غاليليه وكبلر وباسكال ، **فإن العالم الأغريقي ظل** ، على الأقل ، بالنسبة للكثيرين ، السلطة الكبرى ، ولاسيما على صعيد علوم الطبيعة . ففي الطب ، كان ظلم هيبوقراط وجالينوس مخيفاً بخاصة ، لأنه يؤدي إلى دفع كل كشف ، ثمرة الملاحظة ، باسم عصمة القدامى : « لا يوجد هذا في هيبوقراط » . فمن ذلك أن الطبيب (غي باتن) يمثل هذه النزعة التي ذهبت به إلى الجمود في الماضي والانغلاق عن الأفكار الجديدة . وفي الحقيقة إن المؤلف الكوميدي الفرنسي ، موليير ، لا يبالغ في ملاحظته على مديح الدكتور (ديافواروس) لابنه توماس إذ يقول :

« إنه حازم في الجدال ، قوي كتركي ثابت على مبادئه ، لا يَعْدِلُ أبداً عن رأيه ، ويتابع البرهان حتى آخر ركن خفي للمنطق . ولكن الذي يعجبني فيه ، في كل شيء ، ويحذو حذوي فيه ، هو أنه يتعلق عشوائياً بآراء قدامانا ، ولم يشأ أبداً أن يفهم أو يصغي **لأسباب** وتجارب الكشوف المزعومة لعصرنا المتعلقة بدوران الدم والآراء الأخرى المماثلة » .

والعلم **المثقل بالتقليد** ، كان أيضاً **مثقلاً بالمذاهب** « المسبقة » . **لأن العادة لم تؤخذ بعد بحق ، إلا عند بعض الطلائع ، بالاقتصار على التفسير الدقيق للحوادث الملاحظة أو الجربة . وفي علوم الطبيعة** ، تأثر العلماء بأعمال الرياضيين والفلكيين ، وأعدوا نظريات وحاولوا إخضاع الحوادث لها فيما بعد . وكان **الطب** أكبر ضحية لروح هذا المذهب : فمن ذلك أن الأطباء الميكانيكيين ، مثل الإيطالي **بوريللي** (١٦٠٨ ـ ١٦٧٩ م) حاولوا أن يطبقوا على حركات الكائنات الحية القوانين التي تسير الفيزياء والرياضيات ؛ وأما بالنسبة للأطباء

الكيميائيين ، الذي كان على رأسهم الفلاماندي فان هلمونت (١٥٧٧ ـ ١٦٤٤ م) ، فإن وظائف الجسم البشري تأتمر بعناصر غيبية تسمى : (أرشيه) ، والمرض يتسبب بثورة أيٍّ من هذه العناصر . ومع ذلك يحسن أن نسجل لحساب أطباء بداية القرن جهودهم ضد أكبر وباء في العصر وهو **الطاعون** الذي إن لم يشفوا منه ، فعلى الأقل احتووه .

وأوسع أيضاً من احترام التقليد وروح التقيد بمذهب من المذاهب ، **كانت عقلية العصر التي تشكل عائقاً للتقدم العلمي** . ان معاصري غاليليه وديكارت لم يكتسبوا بعد ما أسماه المؤرخ (لوسيان فيبفر) (**معنى المستحيل**) ولم ينج أكثر الناس ثقافة من غياب الروح النقدي . وهكذا فإن السيد (دو مونكوني) ، القاضي الليوني ، والرحالة العظيم ، الشغف بالعلوم ، وعلى صلة بالعديد من العلماء ، كتب بعناية في (يومياته) لقطات عديدة من نوع هذه :

« إذا تبول المريض قبل أن تأخذه حمى البرداء ، وعجن الطحين بعد ذلك بهذه البولة ، وأطعم الخبز كله لكلب مذكر ، أصابت الحمى الكلب ، وشفي المريض » .

وهذا الغياب لـ (معنى المستحيل) الذي يرتبط به النصف الأول من القرن السابع عشر مباشرة بالقرون السابقة ، يظهر بشكل مأساوي في محاكمات السحر التي تضاعفت آنذاك في أوربة كلها ، الكاثوليكية والبروتستانتية . ففي فرنسا ، كان أشهر هذه المحاكمات ، محاكمة الخوري (أوربن غرانديه) من لودن ، الذي حكم عليه بالحرق بالنار في ١٦٣٤ م ، غير أن القضاة الذين أصدروا هذه الأحكام ، بناء على شهادات غير صحيحة ، على ما يبدو ، كانوا رجالاً أذكياء ومستنيرين ، إلا أنهم شاطروا أفكار عصرهم وأباطيله . ومع ذلك فقد كتب المفكر الحر (غابرييل نوديه) :

« لماذا إذن تحرق امرأة فقيرة اعترفت ، عن مرض ، أو عن حماقة وبالقوة أو بغيرها ، بأنها حملت ، على الأقل للاشيء ، على تيس ، على مذراة ، أو على مكنسة ، إلى جماعات تبعد تارة مئة فرسخ ، أو تارة قريبة من قراها حيث فعلت بها ألف فعلة غريبة صبيانية ومضحكة ومستحيلة ؛ وكان الأولى أن تعالج هذه الجماعات أو أن تحبس في أبنية صغيرة ، عوضاً عن إبادتها ، كما جرى ، بالنار والحبل » .

وهكذا تم التخلي عن هذه الكلمة الكبرى (مستحيلات) . ووجهة النظر هذه ، الاستثنائية قبل ثلاثين أو أربعين عاماً ، أصبحت تدل ، نحو منتصف القرن ، على ثورة عميقة في الفكر في طريق الإنجاز ، لأن النخبة الأوربية وعت دروس ديكارت الكبرى ، وولدت العقلية العلمية الحديثة .

الدين واللادين

أفول البروتستانتية : إن التقهقر ، الذي سجله البروتستانت على الصعيد السياسي منذ بداية القرن . ولا سيا في السنوات ١٦٢٧ ـ ١٦٢٩ م ، بالدستور التشيكي ، وبراءة إعادة الأملاك إلى أصحابها الأصليين ، وبراءة (آليس) قد أرفق بالبهر ، ضيق النفس ، على الصعيد المذهبي والرعاية الأسقفية البروتستانتية . ففي داخل المعسكر اللوثري ، يرى أن صيغة الاتفاق ، في ١٥٨٠ م ، التي تؤكد تعاريف لوثر المذهبية ، لم يقبلها الجميع دون نقاش ، وأكثر من ذلك أن اللاهوتيين اللوثريين في الغالب انغلقوا على أنفسهم في شكلية ضيقة .

وكان الكالفنيون أكثر حرية ، ولكن الجدل في قضية الجبرية أدى إلى شقاق خطير بينهم . ففي الأقاليم ـ المتحدة ، دعم آرمينيوس (١٥٦٠ ـ ١٦٠٩ م) ، الأستاذ في جامعة ليدن ، ضد زميله غومار (١٥٦٥ ـ ١٦٤١ م) ، على نقيض توكيدات كالفن ، بأن الله لم يشأ سقوط آدم . وبعد وفاة آرمينيوس احتدم النزاع

بين أنصار غومار وأنصار آرمينيوس وتعقد بخلفيات سياسية . فمن ذلك أن الشتاتودر[1] موريس دو ناسّو ، المحبذ لاستئناف الحرب مع اسبانيا ، دعم الغوماريين واتهم الآرمينيوسيين ، مثل الحقوقي غروشيوس ورئيس السلطة التنفيذية الأكبر في هولاندا ، أولدنبار نوفلت ، بتشجيع الكنيسة الكاثوليكية وسلطة البابا ، واوقف هذا الأخير في ١٦١٨ وأعدم في السنة التالية ، فيما ضم مجمع دور درخت (١٦١٨ ـ ١٦١٩) كالفينيين من جميع البلاد ، وشجب الأرمينيوسية وأكد على الجبرية المطلقة ، وأدخل بعض التمييزات التي اقتبس معظمها عن كالفن ، كما نرى ذلك فيما يأتي :

« إن قرار القدر مطلق لامغير له . والله يمنح الإيمان الحق والحي لمن يشاء خلاصهم وحدهم من العذاب الأبدي العام . وهذا الإيمان هبة من الله . وقد بشر بالخلاص جميع البشر دون تمييز . ومن لا يؤمنون به يرفضونه بخطئهم ، والمؤمنون الحقيقيون يعتنقونه بفضل من الله . ولكن المصطفين وحدهم هم من قرر الله أن يمنحهم الإيمان الذي يبرؤهم ، وبه ينجون بعصمة من الله » .

ومع ذلك ، وبالرغم من هذا الشجب ، فقد ظل بعضهم يدافع عن النظريات الأرمينيوسية ، ويشجع ، في هذا البلد المتجه صوب الخارج بنشاطاته الاقتصادية ، نجاح أفكار التسامح والحرية الدينية .

وخارجاً عن الأقاليم ـ المتحدة ، ظلت الجبرية ، الإيمان بالقضاء والقدر ، تغذي المنازعات المذهبية في داخل الكنائس الكالفنية ، ولاسيما في فرنسا . فمن ذلك ، أن الراعي الأنجفي (من مدينة آنجو) موسى آميروت (١٥٩٦ ـ ١٦٦٤ م) الأستاذ في أكاديمية (سومور) ، دافع عن نصف ـ أرمينيوسية في تعليمه وفي

---

(١) (الشتاتودر STATHOUDER) الحاكم في البلاد المنخفضة ، ولقب حمله في البدء حاكم كل إقليم ، ثم الزعماء العسكريون في الاتحاد ، ولا سيما أمراء آل أورانج .

(٢) (رئيس السلطة التنفيذية الأكبر LE GRAND PENSIONNAIRE) هو الحاكم في هولاندا عندما لايوجد حاكم .

كتابه : « المختصر في القضاء والقدر » (١٦٣٤ م) ، فجرّ على نفسه اللوم من عدة مجامع . وهذا الجدل اللاهوتي العقيم أسهم في فتور الإيمان البروتستانتي ، وتقدم نوع من اللامبالاة بأمر العقيدة ، وبصورة عامة ، بضعف البروتستانتية الفرنسية ، عبر عنه بارتداد الكثير إلى الكاثوليكية . وفي جونيف دافع عدد من الرعاة عن أفكار آرمينيوس ثم عن أفكار آميروت ، خلال فترة من الزمن . وفي انكلترا أخيراً ، أخذ المشيخيون على كنيسة آل ستوارت الأنغليكانية ميلها إلى الأرمينيوسية ، وأمن لهم نصر كروموويل نجاحاً مؤقتاً : فقد تبنى مجلس وستمنستر (١٦٤٣ ـ ١٦٤٨ م) الأساسي من المذهب الكالفني ، ولكن رجعة آل ستوارت إلى الحكم ، في ١٦٦٠ م ، أعاد توطيد الأنغليكانية .

وفيا عدا ذلك ، أخفقت جميع المحاولاتِ لتجاوز الفروق المذهبية لمختلف الديانات غير الرومانية . وهكذا كانت البروتستانتية تعارض بجبهة منقسمة كل يوم وبكفاحٍ أقل حركية الإصلاح الكاثوليكي .

الروحانية الكاثوليكية والإنسانية التقية

لقد تتابع وتكاثف تجديد الكنيسة الرومانية ، الذي بدأ في القرن السابق بمجمع ترانت ونتائجه الأولى . فعلى صعيد الروحانية ، ظهر بازدهار **صوفي حقيقي** . وخلف كبار الأساتذة الروحيين الإسبان في القرن السادس عشر ماأمكن تسميته (مدرسة الروحانية الفرنسية) التي يمثلها (**بيرول**) **الشهير** (**١٥٧٥ ـ ١٦٢٩ م**) **. كان ابن مستشار في برلمان باريس ، وفيها أنشأ في ١٦١١ م جمعية كهنة الأوراتوار** . ثم رسم كاردينالاً في ١٦٢٧ م ، وأسس روحانيته على **الفكرة الأغسطينية في عدم الإنسان أمام عظمة الله اللامتناهية** . ونراه على نقيض الإنسانيين الفلورانسيين ، الذين تثقف في شبابه على يدهم ، وأخذ عنهم الإعجاب بالأفلاطونيين ، **لايعرّف الإنسان إلا بالنسبة إلى الله** . وفي هذا

اللاهوت يحتل سخص المسيح ، الله المتمثل بإنسـان ، مكاناً أسـاسياً ، وفي ذلـك يقول :

« علينا أولاً أن ننظر ابن الله ، ومن بعـد ننظر الخلق وأنفسنـا فيـه . ولكن يجب أن ننظره الأول . إن يسوع المسيح هو المركز الحقيقي للعالم ، وعلى العالم أن يكون في حركة مستمرة نحوه » .

وعلى الصلاة وممارسة الفضيلة أن تكونا ظاهرتي الحب المجرد عن المنفعة الذي يجب أن نكنه لله . وهكذا انتهت اللاهوتية المركزية البيرولية ، التي نشرها كهنة الأوراتوار ، **إلى تقوى متقشفة ومتطلبة ، كثيرة الطلب** .

وفي الحقيقة وجد اتجاه موازٍ يعرض ؛ على كل من يعيشون في العـالم ، دينـاً أقرب تناولاً . فقد عارض مجمع ترانت التشاؤم البروتستانتي بمفهوم تفاؤلي للإنسان ولصلاته بالله وبالعالم . وهكذا نشأت **الإنسانية المسيحية ، أو التقية الورعـة** ، وكان اليسوعيون رسلاً لها . ففي كلياتهم التي تستقبل أبناء الطبقة النبيلة والطبقة البورجوازية ، مسَّحوا تراث الإنسانيين القديم ، واقترحوا على تلاميـذهم ، حكمـاء العصر القديم ، من أفلاطون إلى سينيـك ، هـادياً ودليلاً ، إلى جـانب القـديسين والشهداء . وفي توجيه الوجدان ، حـاولوا أن يقـدموا لتوابيهم متطلبـات الإنجيل على ضوء محبب ومتفق مـع الحيـاة في العـالم : ففي شجبهم للثري السيء يقـولـون على سبيـل المثـال : لقـد شجب المسيـح سوء استعمال الثروة ، لا الثروة بـذاتهـا . ووجهوا ورع المؤمنين نحو أشكال لتقوى جماعيـة عصريـة ومسرحيـة قليلاً ، وعلى وفاق مع فن العمارة الباروك .

وهذا المفهوم للحياة المسيحية يعتمـد على لاهوت الفضل ، فضل الله ، ويجـد تعبيره في الكتاب **(الإرادة الحرة)** ، الـذي نشره اليسوعي الأسبـاني **(مولينـا)** في لشبونة عام ١٥٨٨ م . والمولينية لا تجـادل عقيـدة الخطيئـة الأصليـة ، ولكنهـا تصغر نتائجها ، وتقول : **الطبيعة ليست فـاسـدة بصورة جـذريـة ، والإنسـان**

يبقى أهلاً لعمل الخير بفضل الله . وهذا الفضل لا يمكن أن يحدث تأثيره إلا بقرار حرية إرادة الإنسان . ولاقت المولينية ، في داخل الكنيسة ، معارضة كل من يتمسكون بمواقف القديس أغسطينوس الذي أرجع إلى الحد الأدنى نصيب حرية الإرادة أمام فضل الله العلي القدير .

وكان القديس فرانسوا دوسال (١٥٦٧ ـ ١٦٢٢ م) ، أسقف جونيف ـ آنسي ، وأحد أفاضل ممثلي هذا الاتجاه المتفائل والواثق الذي تشكله الإنسانية المسيحية ، ولكن دون أن يشاطر النظريات المولينية تماماً . ففي كتابه : « مدخل إلى حياة التقوى » ، (١٦٠٨ م) ، الذي لاقى نجاحاً عظيماً جداً ، وطبع أربعين طبعة من ١٦٠٨ إلى ١٦٢٢ م ، يتوجه إلى رجال عصره ، بلغة لطيفة جميلة ويعلمهم ، برفق ودعة ، ممارسة الفضائل المسيحية . وفي ذلك يقول : ليس ضرورياً أن ينقطع الإنسان عن العالم ليصنع خلاصه وسعادته الأبدية ، وإن الله يبارك في هذه الحياة الدنيا كل من يثقون به ، ويدأبون على واجبهم المهني دون فكرة خلفية :

« اعملوا كصغار الأطفال ، يمسكون بأبيهم بيد ، ويقطفون الفراولة وتوت السياج بالأخرى ، لأنكم أنتم كذلك ، وإذا جمعتم أموال هذا العالم وتصرفتم بها بيد ، فامسكوا يد الأب السماوي بالأخرى ، راجعين إليه بين حين وآخر لتروا ماإذا كان راضياً عنكم وعن أعمالكم . وبودي إذا كانت أعمالكم ومشاغلكم العامة لاتتطلب عناية قوية وعاجلة ، لو نظرتم إلى الله أكثر من الأعمال . أما إذا كانت الأعمال ذات أهمية عظيمة وتتطلب كل عنايتكم لتكون حسنة ، فانظروا ، إلى الله من حين لآخر كما يفعل راكبو البحر ، وهكذا يعمل الله معكم وفيكم ولكم ، وسيكون عملكم عزاءً لكم » .

وهذه الإنسانية التقية عند اليسوعيين وفرنسوا دوسال تقيم على هذا النحو جسراً بين الطبيعة وفوق الطبيعة ، وتصون حقوق العقل والحرية البشريين

دون أن تجحد لذلك حقوق الإيمان ، وتحاول أن توجه الأرواح إلى السماء دون أن تهمل ظروف الحياة الدنيوية ، ولكنها عرضت نفسها للأخطار بسبب أعمال طائشة : كالتعلق البالغ بالقديم الوثني ، وتراخي الأخلاق ، والتسيب والإهمال عند بعض اليسوعيين ، واصطدمت بخاصة بهجومات الجانسينيين والخلعاء معاً .

نشأة الجانســـينية

توضع الحركة الجانسينية في الأصل ، في نطاق الإصلاح الكاثوليكي : لأن تفكير كاهنين متقشفين في الفضل وجد أرضاً مناسبة في دير (بور ـ رويال) المصلَح . فقد درس الفلاماندي (**كورنيليوس جانسين**) المعروف تحت اسمه اللاتيني **جانسينيوس** (١٥٨٥ ـ ١٦٣٨ م) ، والباسكي **جان دوفرجيه دو هورانّ** (١٥٨١ ـ ١٦٤٣ م) اللاهوت في لوڤن ، ثم ربطتهما الصداقة في باريس . وبين ١٦١١ و ١٦١٦ م ، قضيا عدة سنوات معاً بالقرب من بايّون ، وزادا بأبحاث شخصية وبقراءات واسعة جداً التعليم اللاهوتي المصطبغ بقوة بالتشاؤمية الأوغسطينية التي تلقياها في لوڤن وفي باريس . ثم انفصلا عن بعضهما ؛ وأصبح دوفرجيه أب (سان ـ سيران) في إقليم بواتو ، وعاش في الغالب في باريس . أما **جانسينيوس** فقد عاد إلى الفلاندر ، ورسم أسقف (إيبر) في ١٦٣٦ م . وظلا يقيمان بينهما مراسلة نشيطة . وفي الوقت نفسه ، دخل سان ـ سيران في علاقات مع بيرول وتأثر به كثيراً ، ثم أصبح في ١٦٣٤ م موجهاً لوجدان راهبات بور ـ رويال .

وأصلح الدير السِّترسيني في **بور ـ رويال ـ دي ـ شان في وادي شيفروز** ، انطلاقاً من ١٦٠٩ م على يد الأم **أنجليكا آرنولد** ، وهي من أسرة قضاة باريسية . وطدت قاعدة **القديس برنار بكل صرامتها** . وبعد أن عظم إشعاع الدير ، نقل ، في ١٦٢٥ م ، إلى باريس في ضاحية القديس ـ جاك . وبإيحاء من (روبير أرنولد دانديي) الأخ البكر للأم أنجيليكا ، وصديق سان ـ سيران الحميم ، أقام

جماعة من العلمانيين الأتقيـاء ، القلقين على تـأمين خلاصهم بعيـداً عن العـالم ، في عمارات وادي الشيفروز . وكان أولهم محامياً لامعاً وهو (الأستـاذ أنطوان) ، ابن أخ أنجيليكا آرنولد . وقد أفصح عن قراره إلى مستشار العدلية بهذه العبارات :

« سيـدي ، أنـا لاأترك مهنتي ، التي جعلتهـا لي مشرفـة جـداً ومفيـدةً جـداً فحسب ، وإنما أيضاً كل ماكنت آمله أو أرغبه في العالم . وأنزوي في عزلـة لأتوب وأخدم الله في بـاقي أيـامي ، بعـد أن قضيت عشرة أعوام في خـدمـة النـاس ، ولا أظن ، ياسيدي ، أنني مضطر لتبرير هذا العمل ، لأنـه صـالح في ذاتـه وضروري لمـذنب مثلي . ولكني أفكر ، لأنيركم تمـامـاً بكل خبر يمكن أن ينتشر عني ، بـأن أكشف عن سري العظيم وأقول لكم بأني أتخلى أيضاً وإطلاقـاً عن الأعبـاء الكنسيـة كالمـدنيـة ، ولا أريـد تغيير طموحي فحسب ، بل ألا أملـك شيئـاً البتـة . وإنني أيضاً أبعد من أن آخذ درجة من درجات الكهانـة ، أو أتقبل فوائـد ، أو أستعيـد ظروف الحياة التي تركتها . ولي وطيد الأمل بأن ما يبدو جنونـاً أمـام النـاس لن يكون أمام الله » .

ويعيش المعتزلة أو سـادة بور ـ رويـال في الحقول حيـاة التقوى ، والخشوع والإحسـان . وفي ١٦٣٨ م ، فتح بعضهم ، مثل : (لانسولـو) ، و (هـامـون) ، مدارس صغيرة كانت لها فيما بعد شهرة عظيمة .

لقد كان تأثير سان ـ سيران عميقاً على **راهبـات بور ـ رويـال وعلى معتزلـة الحقول** . لأن شدة توجيهه الروحي كرد فعل ضد الممارسة الكثيرة جـداً والسهلـة جداً في سر التوبة والقربان المقدس ، كانت تتفق وتطلعات الجميع . وبعد أن توفي بيرول ، أصبح سان ـ سيران زعيماً لحزب التقوى ، وبذلك أصبح مشبوهاً بالنسبـة للكاردينال ريشليو رئيس وزراء الملك ، فحقد عليه حقداً شديداً ، وفي ١٤ أيـار ١٦٣٨ م سجنـه في حصن فـانسين ، ثم أطلق سراحـه ، في شبـاط ١٦٤٣ م ، غـداة وفاة ريشليو ، وتوفي بعد بضعة أشهر .

وفي الـوقت الـذي أوقف فيـه سـان ـ سيران ، تـوفي جـانسينيـوس في إيبر ، تاركاً **مخطوطة عظيمة** ، وهي صدى لمحادثاته ورسائله مع سان ـ سيران ، ولكنهـا كانت أثراً شخصيـاً بخـاصـة . ونشر أصـدقـاؤه في لوفن هـذه المخطوطـة في أيلـول ١٦٤٠ م تحت عنوان : **(أوغسطينوس)** . وهو كتـاب من القطع الكبير يقـع في ١٣٠٠ صفحة على عمودين وبطباعة مرصوصـة . وفي هـذا المؤلف اللاهوتي الصرف **أراد جانسين تنظيم فكرة القـديس أغسطينـوس في قضيـة الفضل** . وفي الواقـع ، كان يفسر دوماً هذه الفكرة بـالمعنى الـدقيق ويتخـذ بخـاصـة المواقف الصلبـة التي أعدها أسقف عنـابـة (هيپون) في الجزائر ، عنـد جـدلـه مع الراهب (بيلاج) . وشهر بـأخطـاء البيـلاجيين ، وأنصـاف البيـلاجيين ، وكل خلفـائهم ولا سيما المولينيين ، الذين استهدفوا بخاصة دون ذكر اسمهم ، ويذكر بكل ما يراه ويقدره في المـذهب الأوغسطيني ، مثـل : ضرورة العفـو (الفضـل) الإلّهي ليستطيـع الإنسان المخطئ الخلاص واستحقاق السعادة الأبدية ، والنفاذ المعصوم لهـذا الفضل دون الضرر بحريـة الإنسـان ، والاختيـار منـذ الأزل للمجـد السماوي بقضـاء الله وقـدره . وهكـذا ، على نقيض الاتجـاه المتفـائـل الـذي يمثلـه مـولينـا ، **يشـدد جانسينيـوس على الفساد الأساسي والعميق للطبيعـة البشريـة وعلى قـدرة الله الكلية .**

وقد أثار كتاب (الأغسطينوس) ، منذ صدوره اهتمامـاً بـالغـاً في الأوسـاط الكنسيـة في معظم البلاد الكاثوليكيـة . ففي لوفن نفسهـا ، قـام اليسوعيـون برد فعـل عنيـف وحصلـوا من رومـا على حكم بشجب الكتـاب ، شجبـاً غـامضـاً بـ (المرسـوم البـابـوي)[1] المؤرخ في ٦ آذار ١٦٤٢ م . وفي فرنسـا ، لقي هـذا الكتـاب المنشـور بعـد وفـاة جـانسينيـوس تحبيـذاً عـديـداً ولا سيما من جـانب الأوراتوريين والـدومينيكان ، وبعض دكاترة السوربون ، ولكنـه اصطـدم بعـداء

---

(١) (IN EMINENTI) أي (مرسوم النيافة)

ريشليو واليسوعيين . وللدفاع عن هذا الكتاب أمام هؤلاء ، تصدى أنطوان أرنولد (١٦١٢ ـ ١٦٩٤ م) وألقى بنفسه في المعركة . وهو من سيسمونه فيما بعد أرنولد الكبير وكان أصغر التسعة عشر أخاً وأختاً للأم أنجيليكا وأفضل تلميذ لسان ـ سيران . فقد اهتم أيضاً ، كأستاذه ، بالقضايا الأخلاقية وبالالتزامات العملية أكثر من اهتمامه بالقضايا اللاهوتية الصرفة الدقيقة . فقد نشر في ١٦٤٣ م كتاب (في المناولة المتواترة) ، ونجح هذا الكتاب نجاحاً عظيماً ومباشراً وأسهم كثيراً ، وعلى وجه التأكيد أكثر من كتاب أسقف إيبر ، جانسينيوس ، في نشر الأفكار الجانسينية في فرنسا . وفيه يندد آرنولد بممارسات المجاهرين بالإيمان المسيحي من اليسوعيين الذين يسمحون بسهولة جداً بالقداسات ويذكّر بقواعد الكنيسة البدائية والاحترام اللامتناهي الواجب للقربان المقدس . ودون أن يشجب ، بحق ، المناولة الكثيرة الوقوع ، كما سيلومه على ذلك بغير حق خصومه ، كان يميل إلى تقديمها مثلاً أعلى غير قابل للوصول تقريباً ، عاطفاً ، على هذا النحو ، الأرواح المؤمنة نحو الاحترام والخوف أكثر منه نحو الثقة والحب . ويرى أن هذا الموقف مع كل نتائجه الأخلاقية ، له أساسه في أغسطينية جانسينيوس وسان ـ سيران ، وأن الأخلاق المتراخية التي يشهر بها عند اليسوعيين تستقي مصدرها من المولينية .

وهكذا ينضم الأغسطينوس والمناولة الكثيرة الوقوع إلى بعضهما ويتمم أحدهما الآخر : ففي ١٦٤٠ ـ ١٦٤٣ م ، نشأت الجانسينية ، باعتبارها حركة دينية ، بشكلها المزدوج اللاهوتي والأخلاقي .

الخلعاء

وعلى نقيض الجانسينيين ، يمارس الخلعاء إما خلاعة الأخلاق ، وإما أعظم حرية فكرية تذهب حتى الإلحاد ، وإما الاثنتين معاً . وقد ميز فيهم أحد خصومهم وهو اليسوعي (غاراسّ) ، في العام ١٦٢٣ م ، ما يلي :

« اسمى **الخلعاء** سكيرينا ، ذباب الحانات ، الأرواح غير الحساسة بالتقى ، الذين ليس لهم من إله غير بطنهم . حقاً إن هؤلاء الناس يؤمنون لحد ما بالله ، ويكرهون الهوغنوت (البروتستانت) وكل أنواع الهرطقات . ولهم فترات مشرقة ، وبعض الضوء الذي يريهم حالة روحهم البائسة . وهم قوم يخافون الموت ويخشونه ، ولم تخبلهم الرذيلة تماماً ، ويتصورون وجود جهنم ، ومع ذلك يعيشون بخلاعة ، ويبدؤون حياتهم بارتكاب المنكرات » .

« وأسمي **كافرين وملحدين** من هم أكثر تقدماً بالخبث ، وعندهم من الطيش ما يجعلهم يلفظون بتجديفات فظيعة على الله ، ومن يرتكبون أعمالاً فاحشة ، ومن يبيحون شعراً بكبائرهم الكريهة ، ويجعلون من باريس عامورة ، ومن يعملون على طبع (بارناس الهجائي) . ومن كانت لهم هذه الخصلة السيئة ، وهي أنهم غير طبيعيين بشكل حياتهم ، حتى انه لا يجرأ أحد على دحضهم ونقدهم بشكل صحيح خشية تعليم رذائلهم واحمرار بياض الورق خجلاً منها » .

وهذه الخلاعة في الأخلاق أو في الفكر كانت في الغالب سرية . فما كان الواحد منهم يرى من المستحسن الإعلان بصخب شديد عن (فجوره) اللهم إلا إذا كان منتمياً لمحيط شخصية قوية ، مثل غاستون أورلئان أخ الملك لويس الثالث عشر ، أو لويس الثاني أمير كونده ، أو كونده الكبير (١٦٢١ ـ ١٦٨٦ م) ، أحد كبار قادة حكم لويس الرابع عشر في فرنسا . وقد لوحق ، في العام ١٦٢٣ م ، الشاعر الفرنسي تيوفيل دو فيو (١٥٩٠ ـ ١٦٢٦ م) لنشره (بارناس الهجائي) الذي عارض به مفهوم ماليرب في الفن ، وندد بالأب غاراسّ ، وكاد يلقى بسببه عذاب الحريق . وانطلاقاً من ١٦٣٠ م ، أصبحت الخلاعة (فقهاً) أي علماً عميقاً واسعاً وصارت واقع رجال العلم والثقافة العالية الذين يجتمعون ويتبادلون أفكارهم ، في حلقات مغلقة ، مثل صالون الإخوة (دوبوي) في باريس ويسمى (الأكاديمية البوتيانية) ، أو صالون (بايريسك)

في اكس ـ أن ـ بروفانس . أما ما يجمع هؤلاء الخلعاء الفقهاء فيما بينهم فهو استقلالهم الفكري التام ؛ وشكهم ؛ ورفضهم الخضوع لعقائد وأخلاق الكنيسة دون فحص ؛ واحتقارهم الجماهير الجاهلة التي يقابلون بها العدد القليل من العقول المستنيرة . ومن جهة أخرى ، تأثر بعضهم بمذهب الطبيعية والمادية لمدرسة بادوا ، في إيطاليا . ومع ذلك فإن الفكر الخليع كان متنوعاً : فمن ذلك أن بيير غاسّاندي (١٥٩٢ ـ ١٦٥٥ م) ، الكاهن القانوني في مدينة ديني في منطقة جبال الألب الدنيا ، وأستاذ الرياضيات في كلية فرنسا في باريس ، والفلكي والفيزيائي ، نشر ، في ١٦٣٤ م ، كتاباً في (مدح ابيقور) ، وحاول فيه أن يوفق بين المسيحية والمادية الابيقورية . وهناك خليع حذر عاقل وهو **غابريل نوديه** (١٦٠٠ ـ ١٦٥٣ م) ، فهو لا يوجه اللوم إلى الدين القائم ، ولكنه يبحث ، في التاريخ ، **عن أمثلة عديدة لخوارق مزيفة ولعدم تسامح ، ويشجبها باسم العقل** . وأما البرلماني والفيلسوف لاموت لوقاييه (١٥٨٨ ـ ١٦٧٢ م) فقد دأب على تهديم الأرثوذوكسية الدينية دون أن يقابلها وجهاً لوجه . وعني باستثناء المسيحية من الانتقادات التي وجهها للأديان الأخرى . ولكن هذا المتنكر لا يمكن أن يخدع . وفي الواقع أدت به الحال إلى استحالة كل إيمان وإلى الإلحاد . وسيرانو دوبرجراك (١٦١٩ ـ ١٦٥٥ م) ، تحت ظواهر الطيش والجنون في حياته وفي أثره ، كان عقلاً عميقاً جداً . وليست روايتاه اللتان نشرتا بعد وفاته إلا صورتين سهلتين لعرض الأفكار الجريئة : وهما : (دول وأمبراطوريات القمر) و (التاريخ الكوميدي لدول الشمس) ، وبتجاوزه النقد البسيط للعقائد الدينية : وجود الله ، خلود الروح ، المعجزات ، **اعتنق مذهب المادية المطلقة** .

وهكذا ، في باريس ، وفي لندن ، وفي هولاندا ، وحتى في إيطاليا وألمانيا ، اطرح الخلعاء المسيحية ، إما عملياً ، وإما نظرياً ، واتجهوا إلى الشك والريب ،

وبعضهم إلى الإلحاد . ومع ذلك ، وبالرغم من توكيدات المعاصرين الفزعين ، مثل الأب مرسين الذي تكلم عن ٥٠٠٠٠ خليع في باريس ، فإن هؤلاء الخلعاء لم يكونوا إلا أقلية صغيرة في داخل النخبة المثقفة في عصرهم .

وفي الحقيقة ، إن هذه النخبة المثقفة التي تعجب بـ فيلاسكيز ، أو روبنس ، وتقرأ غاليليه أو ديكارت ، والقديس فرانسوا دوسال أو آرنولد ، ليست نفسها إلا أقلية . وعندما يتكلم عن الحضارة الأوربية في النصف الأول من القرن السابع عشر ، يجدر بنا ألا ننسى كلياً تلك الجماهير المدنية والريفية التي كانت ثقافتها ابتدائية ، وظلت تتغذى بمصادر الوعظ ، أو التبشير يوم الأحد وبالأدب الشائع في التقاويم ، والصور وسير القديسين والروايات الصغيرة . إلخ .. وهذه الثقافة الشعبية أصلية في ذاتها منذ قرون ، وستبقى ، زمناً طويلاً ، لا مبالية ، أو ما يقارب ذلك ، بالتغيرات العميقة ، على صعيد الفن والعلم أو الدين ، وتؤثر في الطبقات المثقفة وتعطي للنصف الأول من القرن السابع عشر لونه الخاص .

القسم الثاني

دول أوربة القارية

الفصل الأول

دول أوربة القارية في القرن السابع عشر

الملكية الاسبانية

تـاريـخ الملكيـة الاسبـانيـة في القرن السـابـع عشر تـاريـخ دولـة آخـذة بالانحطاط : فقد شهدت اسبانيـا أفولاً سيـاسيـاً واقتصـاديـاً ، بـالرغم من إشعـاع حضـارتهـا ؛ وخسرت على التوالي البرتغـال التي استعـادت استقلالهـا انطلاقـاً من ١٦٤٠ م ؛ والفرانش ـ كونتـه وجـزءاً من البـلاد ـ المنخفضـة لصـالـح فرنسـا بين ١٦٥٩ و ١٦٧٨ م ، وممتلكات إيطاليـة ، وبـاقي البلاد ـ المنخفضـة لصـالح الملكيـة النمساوية .

المشاكل الداخلية في اسبانيا

حتى سنوات ١٦٤٠ م ، ظلت شوكة اسبانيا السياسية عظيمة جداً بـالرغم ممـا فت في عضـدهـا في كثير من المشـاكل . لقـد كان الملـك فيليب الثـالث (١٥٩٨ ـ ١٦٢١ م) عاهلاً مسكيناً وأصلح لحياة الـدير منـه للعرش . ترك الـدوق دو لرمـا وجهـازاً من الـوزراء التـافهين القليلي القيمـة والجشعين يحكـمـون البـلاد . وضربت الحكومة المثل في الفسـاد ، فقلـدهـا كبـار الموظفين والقضـاة ورجـال الكنيسـة . وخارجـاً عن بعض قرارات دون أهميـة كبرى ، مثل إنشـاء لجنـة لأفضل جبـايـة لـ (الميلون) أي الرسوم على الزيت والخمر ، كان طرد المـوريسكـو ، أي المسلمين

الذين صبؤوا إلى المسيحية الكاثوليكيـة في القرن السـادس عشر ؛ والإجراء الـذي ضرب موريسكو مملكة فالانس ، في ٢٠ أيلول ١٦٠٩ م امتـد بعـد ذلـك إلى أبنـاء دينهم في الأنـدلس (كانون الأول ١٦٠٩ م) ، وآراغـونـه (أيـار ١٦١٠ م) ، وكاتالونيا (آذار ١٦١١ م) ، وقشتالة (كانون الأول ١٦١١ م) ، مما يقارب جمعاً من ٢٧٥٠٠٠ موريسكي ، منهم أكثر من ١٠٠٠٠٠ من مملكة فالانس وحدها طردوا من اسبـانيـا وبحثـوا عن ملجأ لهم في أفريقيـة الشماليـة (في مراكش ووهران) . وهكذا تحققت الوحدة الـدينيـة و « نقـاوة الـدم » المصون ، ولكن بثمن انحطـاط اقتصادي عميق في أقاليم اسبانيا الجنوبية . وعلى الصعيد الخارجي ، كانت سياسـة لرما حذرة ومحبة في هدنة ١٦٠٩ م مع الأقاليم ـ المتحـدة ، وتميل أكثر فـأكثر إلى تقارب ملحوظ مع فينّا انطلاقاً من ١٦١٨ م .

وإن اعتلاء فيليب الرابع العرش ، في ٣١ آذار ١٦٢١ م ، أوصل إلى السلطة محظياً جديـداً وهو (اوليفـارس) . ولم يكن للملـك من العمر سوى ١٦ عـامـاً في ١٦٢١ م ، وكان من الوجهة الجسـديـة منهوك القوى لكثرة زواجـه من أصل أبوي واحد (من دم واحد) ، وفاسداً وتقياً معـاً ، ولا يهتم إلا قليلاً بشؤون الـدولـة ، ويتركها كلها تماماً إلى محظيه . اما دون غاسبـار غوزمـان كونت دوق أوليفـارس (١٥٨٧ ـ ١٦٤٥ م) فقد كان ذكياً ، قوياً ، شديداً ، عاطفياً شغفاً يريـد أن يرد لأسبانيا البهاء الذي عرفته في القرن السالف ، ويحلم بوحدة أوربـة في ظل الملـك الكاثوليكي . وقد عبر عن هذه السيـاسـة الطموحة في الخـارج بتـدخل نشيـط في حرب الثلاثين عاماً . وفي اسبانيا حاول القيام بعمل يريد منه تقويماً ضروريـاً . ضرب بشدة على يد لرما وأصدقائه . واسترد من الموظفين غير الشرفاء مـا أخـذوه بالباطل ، واتخذ إجراءات ضـد الرشوة والفسـاد وبـذخ الكبـار ، في كانون الثـاني ١٦٢٣ م . رغم مـا كان عليـه من جشـع كسلفـه . واستـوحى من مثـل الملكيـة الفرنسية وحاول تقوية المركزية بإعطـائـه واقع السلطـة إلى (الكونسولتـا) وهو

مجلس سري مشكل من الوزير الأول ، وكاهن الملك وثلاثة أمناء سر : النظارة العامة ، الشمال وقشتالة ، وإيطاليا) ؛ ومجالس الحكومة الاثني عشر ، وأهمها مجلس الدولة ، مجلس محكمة التفتيش ، مجلس المالية ، ومجلس الهند . وهذه المجالس ملحقة بالكونسولتا . واختصاصاتها إدارية وتشريعية وقضائية وهي تشكل أوليغارشية من كبار الموظفين وكلهم أمراء كبار تقريباً ، ولكن الرشوة والفساد وعدم الكفاءة شلت حسن سير النظام .

وفي الوقت نفسه حاول أوليفارس أن يخفض (امتيازات) الممالك المحيطية : الأقاليم الباسكية ، أراغونه ، كاتالونيا ، فالانس ، البرتغال . ثم إن الحرب ضد الأقاليم ـ المتحدة التي استؤنفت في ١٦٢١ م ، والمساندة التي قدمت إلى الامبراطور ، ومن بعدها الحرب ضد فرنسا في ١٦٣٥ م ، كلفت اسبانيا غالياً دون انقطاع . ولم يستطع أوليفارس أن يثقل كاهل قشتالة إلى مالا نهاية ، فرأى نفسه مضطراً أن يطلب إلى باقي شبه الجزيرة دفع الضرائب . ولكن هذه السياسة خطرة عندما يكون فيه ولاء الممالك المحيطية في الجزء الأعظم منه تابعاً لاستقلالها الذاتي الواسع وشبه حصانتها الضريبية . وإذا نجح الوزير تقريباً في أراغونه وفي فالانس في الا يجمع المجالس (كورتيس)[1] إلا نادراً وشكلياً ، ويدخل موظفين قشتاليين ويحصل على مساعدات مالية هامة ، فبالمقابل أثارت هذه المتطلبات الاضطراب في بسكاي وفي غاليس في ١٦٣٧ م ، ولا سيا ثورة البرتغال وكاتالونيا في ١٦٤٠ م . وقبل ذلك في ١٦٢٥ م ، وفي ١٦٣٢ م ، احتجت الكورتيسات ضد التجاوزات الأولى على امتيازاتها في موضوع الضريبة . وفي ١٦٤٠ م كان إلزام الكاتالانيين بالخدمة في الجيش خارج إقليمهم مؤشراً للثورة . ففي ٧ حزيران ١٦٤٠ م دخلت عصابات من الجبليين والمهربين بارشلونة بمناسبة

---

(١) (الكورتيس : COrtes) مجالس في الدول الإيبرية وظيفتها مناقشة القوانين والتصويت على الضرائب .

عيد ـ الله[1] ، وذبحت نائب الملك ومعظم الموظفين القشتاليين . وتألف حزب انفصالي ، واستنجد بفرنسا في شهر أيلول .

وبعد عامين على الثورة البرتغالية والكاتالانية ، كانت ثورة روسيّون . وسجلت هذه الثورات إخفاق سياسة أوليفارس . وخدع فيليب الرابع من إخوته وأمه وسرح (المحظي) في ١٤ كانون الثاني ١٦٤٣ م . وبعد بضعة أسابيع قرعت الهزيمة الساحقة في (روكروا) ناقوس الخطر على قدرة اسبانيا العسكرية .

وبدا منذ الآن أن **الانحطاط السياسي** وضعف الدولة يتسارعان . فقد عهد فيليب الرابع بالسلطة إلى محظي آخر ، وهو ابن أخ أوليفارس ، (دون لويس دوهارو) ، وهو دبلوماسي حاذق ، ولكنه كوزير أول دون طاقة . وإذا أخمدت الثورة الكاتالانية أخيراً في ١٦٥٢ م باستسلام بارشلونه ، في ١٦ تشرين الأول ١٦٥٢ م مع تثبيت معظم امتيازات كاتالونيا ، في ٣ كانون الثاني ١٦٥٣ م ؛ وإذا انفجرت ثورة في نابولي وقمعت أيضاً ، فبالمقابل ، دارت الحرب ضد البرتغاليين لصالح هؤلاء ، لاسيما وأنه كان على اسبانيا أن تنحني أمام الأقاليم ـ المتحدة في ١٦٤٨ م وأمام فرنسا في ١٦٥٩ م . وعندما توفي فيليب الرابع ، في ١٧ أيلول ١٦٥٥ م ، ترك اسبانيا مقطعة الأوصال نهائياً من البلاد ـ المنخفضة الشمالية ، ومن الآرتوا ، وروسيون ، والبرتغال .

وكان عمر **شارل الثاني** (١٦٦٥ ـ ١٧٠٠ م) أربعة أعوام عند وفاة أبيه . فعهد بالوصاية إلى أمه الملكة (ماري ـ آن) وكانت كسولة وغير كفء . وكانت

---

(١) عيد ـ الله هو عيد القربان المقدس ، عيد جسد الرب ، عيد الجسد الذي أسسه في العام ١٢٦٤ م البابا أوربينو الرابع ، وحدده في الخميس الثاني بعد عيد العنصرة . وهذا العيد الأخير هو عيد نزول الروح القدس على الحواريين ، ويقع بعد خمسين يوماً على عيد الفصح عند الطائفة المسيحية .

السلطة في الواقع بين يدي اليسوعي (نايدهاردت) العضو العام في محكمة التفتيش والوزير الأول ، ولكنه بعد قليل فقد خطوته في ١٦٦٩ م لصالح ابن طبيعي لفيليب الرابع **دون جوان النمسا** (١٦٢٩ - ١٦٧٩ م) ، وكان قائداً له قيمته ، ولكنه غير كفء كرجل دولة ، ومع ذلك حاول أن يقوم برد فعل ضد الفساد والرشوة وينظم الشؤون المالية . وزال عن الجيش والأسطول بهاؤهما القديم ، ولم يعرفا سوى الهزائم أمام فرنسا ، واضطر دون جوان إلى التخلي للملك لويس الرابع عشر عن الفرانش - كونته وجزء من الفلاندر في ١٦٧٨ م ، وتوفي في السنة التالية بعد أن فقد حظوته بدوره .

ولما بلغ شارل الثاني سن الرشد في ١٦٧٥ م ، كان هو أيضاً فاسداً منحطاً ومريضاً دوماً ، ووفاته منتظرة في كل حين ، ولا يخلو من صفات وخصائص ، ولكن حالته الصحية يرثى لها وتوضح في الجزء الأعظم عدم مبالاته بشؤون الدولة . وفي ١٦٨٥ م ، حاول الوزير الأول الجديد ، الكونت (أوروبيزا) بدوره أن يحول دون انحطاط اسبانيا واضطراب ماليتها ، ولكنه أبعد عن السلطة في ١٦٩٠ م بعد الزواج الثاني للملك من (ماريا - آن دو بافاريا - نوبورغ) ابنة حمي الامبراطور . وكانت الملكة الجديدة طموحة تهوى الدسائس والمكايد ، ويسيطر عليها جماعة من المحظيين النمساويين ويؤلفون حولها بطانة سوء حقيقية فرضت نفسها على الخزينة لتقتطع منها المال دورياً . ولم يكن للملك ولد ، وأصبحت قضية الوراثة هامة ، فهل سيكون خلف شارل الثاني أرشيدوقاً ، ابن الامبراطور أو حفيد ملك فرنسا ؟ وأمام حزب الملكة ، الذي يفضل الحل النمساوي ، تألف برد الفعل حزب وطني متعاطف مع فرنسا . ولاجتناب تقسيم الدولة ، امتثل شارل الثاني للحل الثاني ووقع قبل وفاته ، في الأول من تشرين الثاني ١٧٠٠ م ، ببضعة أيام ، وصيةً لصالح الدوق (فيليب دانجو) . وفي ١٩ شباط ١٧٠١ م ، دخل فيليب الخامس ، أول ملك بوربوني مدريد باحتفال مهيب .

والملاحظ أن الضعف الدائم للدولة في عهد أواخر آل هابسبورغ ، إذا وضعت وزارة أوليفارس جانباً ، لا يرجع فحسب لشخصية الملوك الثلاثة المحزنة ، وإنما أيضاً لأسباب عميقة ترجع إلى أن الوحدة الوطنية لم تتم ، وإلى بقاء النزعات الاستقلالية في الأقاليم الأخرى دون قشتالة ، وإلى عيوب إدارة متكاثرة فاسدة وفي الغالب غير كفء ، وأخيراً إلى الأزمة العميقة في الاقتصاد والمجتمع .

وهذه الأزمة التي لاحظها المعاصرون كانت أولاً **ديموغرافية** . فقد كان سكان اسبانيا أكثر من ٨ ملايين نحو ١٦٠٠ م ، وسقط هذا العدد إلى أقل من ٦ ملايين نحو ١٧٠٠ م . ولهذا الانهيار الحقيقي أسباب مختلفة : الهجرة وبصورة أساسية الهجرة القشتالية ، هجرة العناصر الشابة والنشيطة نحو العالم الجديد ، وطرد الموريسكو ، والنتائج المباشرة والبعيدة للطاعون الفظيع في ١٦٣٠ م ، الذي كان منه ما يقارب نصف مليون وفاة ، وفقدان الأرواح على ساحة القتال ، وتطبيق حق البكورة عند الطبقة النبيلة في الإرث لصالح الابن البكر ، والأهمية العددية للعزاب ، من رجل كنيسة ، وجنود وملاحين ، وخدم وشحادين . وكان هذا الخلو من السكان مرتبطاً بالأزمة الاقتصادية . وكل من الحادثين أثر في الآخر .

بدأت الأزمة في اسبانيا منذ بداية القرن ، وكانت شبه الجزيرة الأيبرية أول من تأثر بالبطء ثم بالسقوط الفظ لوصول المعادن الثمينة من أمريكا .. وخلف « دورة الفضة » بعد قليل ، دورة القلز (البرونز) ، ولكن السبب العميق والبعيد للأزمة كان في الأثر المجدب لنشاط الإنتاج ، وتدفق الذهب أو الفضة الأميركيين في القرن السادس عشر .

وانحطاط الزراعة كان ملحوظاً بصورة خاصة بتوسع تربية المواشي على حساب زراعة الحبوب ، فقد كانت (المستا) الشركة القوية لكبار ملاك القطعان في قشتالة تمسك بامتيازات باهظة . فلقد هجرت قرى بكاملها ، وأصبح

ثلث الأراضي المزروعة بوراً ومرعى للماعز والأغنام . وقالت (الكورتيسات) القشتالية في ١٦٢١ م : « إذا استمر الضرر فلن يكون هنالك شخص لزراعة الأرض » ، واضطرت اسبانيا في كل سنة لاستيراد الكثير من الحنطة لتغذيتها . وفي منطقة فالانس أثر ذهاب الموريسكو بصورة قاسية على زراعة البحر المتوسط : من خمور ، وفواكه ، ورز وسكر . كما انحط إنتاج المصانع في الحرائر والأصواف في أشبيلية و (آفيلا) ، وصناعة الجلود في طليطلة وقرطبة ، ومعاصر الرمان . والأباطيل الاجتماعية ، وندرة اليد العاملة ، وتجاوزات الأنظمة القانونية والضرائب المالية ، والأسعار الباهظة بالنسبة إلى الأسعار الأجنبية توضح هذا الانحطاط . والنتيجة هي أن الواردات الآتية من البلاد المجاورة كانت أعلى من الصادرات ؛ وأن المعارض الموسمية الكبرى والمدن التجارية : مدينة دل كامبو ، سرقسطة ، مدينة الوليد فقدت أهميتها ، وفي الموانئ الكبرى : أشبيلية ، قادس ، فالانس ، بارشولونة ، بيلباوو ، أصبح دور التجار الهولانديين والفرنسيين والإنكليز والجنويين مسيطراً . والتجارة مع العالم الجديد التي صنعت عظمة اسبانيا وثراءها في القرن السالف ، أخذت تثري منذ الآن الخارج بخاصة . و (كنوز) أمريكا الاسبانية التي ظلت تلعب دوراً محركاً في الاقتصاد الأوربي لم تفد منها الوطن الأم (اسبانيا) الفقيرة .

وتضاعفت هذه الأزمة الاقتصادية بأزمة اجتماعية وأخلاقية ، لأن الذهب والفضة الأميركيين اللذين ساعدا اسبانيا على العيش من عمل الغير ، كانت نتيجتها البطالة المعممة أو على الأقل نمو النشاطات غير المنتجة . وهذا أولاً واقع البلاط المنظم حول شخص الملك المقدس حسب آداب تشريفات احتفالية وصارمة ، وواقع الطبقة النبيلة العديدة (ربما خمس السكان) التي كانت تعيش حالة بؤس ولكنها تعتبر العمل غير جدير بها ، وواقع الاكليروس الزمني والنظامي الذي كانت أعداده وثروته العقيمة تزداد دون انقطاع . وهذا أيضاً

واقع الطبقات الشعبية ، في المدن والأرياف التي كانت تضم إلى جانب العناصر النشيطة مباشرة ، جمهوراً من الخدم ، وأنصاف العاطلين عن العمل ، ومن هبطت طبقتهم الاجتماعية ، والمتشردين ، مما يؤلف عالماً لاقيمة له كلياً .

وآخر صفة هامة ، هي أن هذه الأزمة الديموغرافية ، والاقتصادية والاجتماعية أصابت بخاصة قشتالة التي كانت حتى الآن تحتل المكان الأول في تاريخ شبه الجزيرة . لقد خلت بشكل قاس من رجالها وثرواتها بنسبة أهم بكثير من اسبانيا المحيطية ، وكاتالونيا بخاصة ، التي تتناقض حركيتها ، عند النهوض في القرن التالي ، مع خبل قشتالة .

ومع ذلك ، فإن معاصري الانحطاط من كتاب وفنانين قد أطالوا حتى نحو سنوات ١٦٦٠ م سناء **العصر الذهبي** ، ونخص بالذكر سرفانتس (١٥٤٦ ـ ١٦١٦ م) الذي نشر (دون كيشوت) بين ١٦٠٥ و ١٦١٥ م ؛ وغونغورا (١٥٦١ ـ ١٦٢٧ م) ، وبالتازار غراسيان (١٦٠١ ـ ١٦٥٨ م) ، وغيلم دوكاسترو (١٥٦٩ ـ ١٦٣١ م) وتيرسو دومولينا (١٥٧٠ ـ ١٧٥٠ م) ، ولوب دوفيغا (١٥٦٢ ـ ١٦٣٥ م) ، وكالديرون (١٦٠٠ ـ ١٦٨١ م) ، وريبيرا (١٥٨٨ ـ ١٦٨٢ م) ، وزورباران (١٥٩٨ ـ ١٦٦٢ م) وفيلاسكيز (١٥٩٩ ـ ١٦٦٠ م) ، وموريللو (١٦١٨ ـ ١٦٨٢ م) الذين ـ كل على شاكلة ـ كانوا شهود عيان لاسبانيا المتناقضة والمناقضة ، الواقعية والصوفية ، التي تعي أفولها وتلجأ إلى ذكريات عظمة تفر منها رويداً رويداً . وهذا الازدهار خول الحضارة الاسبانية إشعاعاً لامثيل له في النصف الأول من القرن . إن معظم بلاد أوربة أخذت عن مدرسة اسبانيا كما أخذت عن مدرسة إيطاليا : إن آداب السلوك في بلاط مدريد نسخها كبار سادة أوربة ، وكذلك الموضات ، والأذواق القشتالية ؛ وقرئ شعراؤها وروائيوها وكتابها المسرحيون ، وترجموا إلى اللغات الأوربية وقلدوا . ففي فرنسا كانت كراهية الطبقات الشعبية لاسبانيا تغذيها بعناية الدعاية

الرسمية ، وفي ذلك ما يختلف مع الفضل الذي تكنه الطبقة الأرستقراطية والنخبة المثقفة لكل ما يأتي من اسبانيا . إن سنة (كوربي) (١٦٣٦ م) كانت أيضاً سنة (السيد) . لقد كان الباريسيون يصفقون لمغامرات رودريغ التي اقتبسها كورنيّ عن (غيلم دوكاسترو) ، في الوقت الذي كانت فيه جنود فيليب الرابع تهدد المملكة . وانطلاقاً من ١٦٥٠ ـ ١٦٦٠ م بدأ النفوذ الفرنسي يغلب على أوربة ، وأفل نجم القرن الذهبي الاسباني ، وأصبحت نيرانه في ومضاتها الأخيرة .

البرتغال الاسبانية والمستقلة

منذ ١٥٨٠ م كان ملك اسبانيا في الوقت نفسه ملك البرتغال ، وحقق على هذا النحو وحدة شبه الجزيرة الأيبرية . وفي الحقيقة ، إن فيليب الثاني ، وبدرجة أقل فيليب الثالث احترما طابع الاتحاد الشخصي للتاجين وتركا لرعاياهما قوانينها وإدارتها . ومع ذلك ، عزّت على البرتغاليين خسارة استقلالهم ، لاسيا وأن الهولانديين ، بفضل الحرب ضد اسبانيا ، استولوا على جزء كبير من مستعمراتهم ، وأكثر من ذلك ان أوليفارس ، بعد أن أصبح الوزير الأول ، أراد أن يبسط على البرتغال سياسته في المركزية لصالح قشتالة . وهيأ الانصهار الإداري للملكتين وبخاصة امتصاص الكورتيسات الاسبانية للكورتيسات البرتغالية . ووزع على النبلاء الاسبان الوظائف العليا في المملكة . واغتاظ البرتغاليون من الهولانديين الذين أخذوا ميناء ريسيف (١٦٣٠ م) وجزءاً من شاطئ البرازيل ، ونحوا باللائمة على الاسبان لأنهم لم يحموهم بصورة كافية . وفي ١٦٣٥ ـ ١٦٣٧ م ، زاد إدخال وجباية شديدة لرسم ٥ ٪ على الأملاك العقارية ، الاستياء ضد نائبة الملكة مارغريت سافوا ، دوقة مانتو . بيد أن هذا الاستياء كان أقل مما كان ضد وزيرها البغيض (فاسكونسيلّوس) الذي فرضه أوليفارس . ولتهدئة الأفكار ، سمى هذا الأخير الدوق جان دو براغانس ، المتحدر من السلالة الملكية البرتغالية القديمة ، حاكماً عسكرياً عاماً . ولكن

براغانس دفعته زوجته الطموحة (لويز دو غوزمان) فانضم إلى المعارضة الوطنية التي كان يشجعها ريشليو في الخفاء . وفي الفاتح من شهر كانون الأول ١٦٤٠ م ، انفجرت ثورة في لشبونة : هوجم الحرس القشتالي ، وقتل فاسكونسيلّوس ، واقتيدت مارغريت إلى الحدود . وفي ٢٨ كانون الثاني ١٦٤١ م دعم الاكليروس وجزء عظيم من الطبقة النبيلة الدوق دوبراغانس ونودي به **ملك البرتغال** تحت اسم **جان الرابع** .

وفي شهر حزيران انضم الملك الجديد إلى خصوم اسبانيا ، فرنسا وهولاندا ، مقابل هدنة عشرة أعوام للهند الشرقية والبرازيل . وفي السنة التالية إلى انكلترا . ورفضت مدريد الاعتراف بالأمر الواقع ، وبدأت حرب ٢٧ عاماً على هامش النزاع الكبير الفرنسي ـ الاسباني . وكانت الحرب رخوة من كلا الجانبين . وبعد أن دحر البرتغاليون جيشاً أرسله فيليب الرابع ، أخذوا مساعدات من فرنسا وهاجموا غاليس (١٦٤١ م) ، وقاتلوا الاسبان في (مونتيخو) في ١٦٤٤ م ، ثم في (إلفاس) في ١٦٥٩ م . وفي الوقت نفسه ، استطاع جان الرابع أن يقمع المؤامرات التي دبرتها اسبانيا في داخل المملكة . وحرم صلح البيرنيه (١٦٥٩ م) البرتغال لزمن من مساعدة فرنسا المالية . ولكن لويس الرابع عشر كان يحاول منذ ١٦٦١ م ، بكل الوسائل إضعاف اسبانيا ، وقرر أن يساعد من جديد لشبونة على مسؤولية الحليف الإنكليزي .

وهكذا ، بفضل مساندة جنود (شومبرغ) الفرنسية دفع البرتغاليون محاولتي غزو الاسبان : في المرة الأولى في (أميكسيال) في ١٦٦٣ م ، وفي الثانية في (فيلاّ ـ فيسوزا) في ١٧ حزيران ١٦٦٥ م . وهذا النصر الأخير الحاسم أجبر الاسبان على الاعتراف باستقلال البرتغال مقابل (سبته) بموجب معاهدة لشبونة التي وقعت في ١٣ شباط ١٦٦٨ م .

وخلف جان الرابع ، صانع الاستقلال ، في ١٦٥٦ م ابنه ألفونس السادس

(١٦٥٦ ـ ١٦٨٣ م) ، ولكنه مريض وغير متزن ، وأعلن في ١٦٦٧ م بإسقاطه ونفي إلى جزر آصور . وأصبح أخوه (بيير) وصياً ثم عند وفاة أخيه ألفونس في ١٦٨٣ م ، ملكاً تحت اسم بيير الثاني (١٦٨٣ ـ ١٧٠٦ م) . كان قوياً ومتسلطاً ، وحاول أن يسلك سياسة وطنية ويحكم عاهلاً مطلقاً مملكته البرتغالية وما بقي من الأمبراطورية الاستعمارية ، أي البرازيل وبعض المراكز في أفريقية وفي المحيط الهندي : وفي ١٦٨٤ م ، وضعت تعرفة جمركية حامية تحمي البرتغال ضد البضائع الأجنبية ؛ وأمن اكتشاف مناجم الذهب ، للملك ، في البرازيل نحو ١٦٩٠ م ، موارد منتظمة أغنته عن دعوة الكورتيسات انطلاقاً من ١٦٩٧ م . والأدب الذي ما زال بعد متعاطفاً مع الاسبان على يد (مانويل دوميلو) (١٦١١ ـ ١٦٦٧ م) استعاد أصالته الخاصة بانفتاحه على التأثير الفرنسي .

وظل بيير الثاني زمناً طويلاً وفياً للتحالف المزدوج مع انكلترا وفرنسا . فقد اختار ، في بداية حرب الوراثة الاسبانية ، التحالف الانكليزي ، ووقعت المعاهدة التجارية التي تفاوض بشأنها اللورد (ميثون) ، في ٢٧ كانون الأول ١٧٠٣ م . **وبموجبها يحصل الإنكليز مقابل فتح السوق البريطاني للخمور البرتغالية ، على إلغاء تعرفة ١٦٨٤ م لصالحهم ، والحق بأن تكون لهم مستودعات في لشبونة ، والتجارة بحرية مع البرازيل . وهكذا افتتحت البرتغال والسوق البرازيلي الواسع لأجواخ وإنتاج المصانع الانكليزية . ورسخت معاهدة ميثون لزمن طويل مصير هذا البلد الأطلسي الصغير الذي استعاد سيادته ، ولكن هذه السيادة تخفي وراءها تبعية اقتصادية وثيقة بل وسياسية حيال بريطانيا العظمى .**

الفرانش كونته والبلاد ـ المنخفضة الاسبانية

في ١٥٩٨ م ، تنازل فيليب الثاني قبل وفاته بكامل سيادته عن الفرانش ـ كونته والبلاد ـ المنخفضة إلى ابنته إيزابل ، التي تزوجت في السنة التالية ابن عمها

الأرشيدوق ألبرت ، الكردينال (المعصرن) أي الذي أصبح علمانياً غير رجل دين . وكان هذا التدبير حاذقاً ، لأنه إرضاء واضح للكونتوازيين والبلجيكيين المتعلقين بالاستقلال الذاتي . ومن جهة أخرى ، عرف الأميران كيف يحببان بنفسيهما . ولكن عند وفاة الأرشيدوق في ١٦٢١ م . عاد الإقليمان إلى التاج الاسباني ، ولم يكن لإيزابل حتى وفاتها في ١٦٣٣ م ، غير منصب حاكمة عامة ، والحكام الذي توالوا بعدها في بروكسل كانت مدريد تسميهم اهتماماً منها بالمصالح الاسبانية .

وكان وضع **الفرانش ـ كونته** ، في فاتحة القرن السابع عشر ، معقداً جداً لأنها تؤلف جزءاً من الامبراطورية ، ولكنها كانت في الوقت نفسه ممتلكاً اسبانياً تديره البلاد ـ المنخفضة ، فيما كانت (**بوزانسون**) مدينة امبراطورية حرة . وحتى ١٦٣٥ م ، عاشت الكونتية بسلام ، وكان الإصلاح الكاثوليكي (الإصلاح المعاكس) نشيطاً بدفع رئيس الأساقفة (فردينانـد دو ري) . ولكن في الحرب الفرنسية ـ الاسبانية ، بدأت لهذا الإقليم اثنتا عشرة سنة فظيعة (١٦٣٦ ـ ١٦٤٨ م) ، فقد سحقها الخصمان بشكل لا يعرف الرحمة ، واجتاحها الطاعون وخلت من السكان . وصحب عودة السلام إليها في ١٦٤٨ م ، بالرغم من أن الفرنسيين والاسبان كانوا دوماً في حرب ، إعمار شديد ، بفضل عشرين عاماً من الهدوء . وفتحها لويس الرابع عشر للمرة الأولى في ١٦٦٨ م ، ثم أعيدت لاسبانيا بعد بضعة أشهر ، ولكن خرق ومتطلبات الحكام أقامت ضد مدريد جزءاً من الشعب الكونتوازي المتعلق حتى ذلك الحين بالنظام الاسباني ، وبنصف الاستقلال الذاتي الذي يتمتع به . وهذا الاستياء سهل **الفتح الفرنسي الثاني في** ١٦٧٤ م ، وكان هذا الفتح في هذه المرة قطعياً . ومع ذلك فإن دمج هذا الإقليم في الملكية الفرنسية لم يكن دون مشاكل . لأن العديد من الكونتوازيين يذكرون بحنين الاستقلال المفقود . لقد انتقلت المؤسسات القديمة التي كانت فيها ، من برلمان وجامعة ، من (دُولْ) إلى بوزانسون ، حيث يقيم (الناظر) الذي يديرها

بسلطته ، لاسيا وأن المجالس لم تكن تدعى للانعقاد . ولم تندمج الفرانش - كونته بحق في الحياة الفرنسية إلا نحو ١٧٠٠ م .

البلاد المنخفضة - الاسبانية

تضم عشرة أقاليم : الفلاندر والبرابان وهما أكثر الأقاليم غنى وسكاناً ، ومدناً كبرى مثل : بروكسل ، انفرس ، وغاند ، ثم مالين ، نامور ، هينوت ، تورنيزي ، آرتوا - وفيما عدا أسقفية لييج ، الأمارة الكنسية المستقلة في نطاق الامبراطورية - غلدر الاسبانية ، ليبورغ ، ولوكسمبورغ . وفي ١٦٠٩ م ، في الوقت الذي تدخلت هدنة الاثني عشر عاماً ، كانت البلاد في الجزء الأعظم منها قد دمرتها الحرب الأهلية ، وتجريدات الكسندر (فارنيز) .

وشغلت سنوات التهدئة ، التي أتت بها الهدنة ، بدافع من الأرشيدوقات ، لتقويم الحالة الاقتصادية . وكان نهوض الزراعة أول مظهر لها ، واستغلال الأراضي في الفلاندر وبرابان اعتبر في الخارج نموذجاً يحتذى . وساعد الاستعمال الكثيف للأسمدة على إبدال الأرض البور بزراعة اللفت . وأثرت الحبوب والكتان ، وحشيشة الدينار المنطقة . وانطلاقاً من ١٦١٢ م بوشر بتجفيف المرازغ بين دنكرك وفورن . ويعبر عن نهوض الصناعة بخاصة بنمو الصناعة الحرفية اليدوية وفي صنع المنسوجات والصناعة المعدنية . ومن جهة أخرى ، أخذ استخراج الفحم الحجري في هينوت أهمية متزايدة . ومع ذلك ، فإن هذا النهوض قد كبحه وأخر نموه أفول تجارة التصدير الكبرى بسبب إغلاق الأيسكو ، وانحطاط الملاحة الفلاماندية ، وهذا ما أجبرها على اللجوء إلى الهولانديين - وخراب ألمانيا ، الزبون التقليدي ، وأخيراً سياسة الحماية للدول الكبرى المجاورة : الأقاليم - المتحدة ، فرنسا ، انكلترا . وكان المنفذ الوحيد للحاصلات الفلاماندية ، اسبانيا ، ولكن إذا سمحت هذه الدولة في ١٦٢٤ م بإنشاء شركة ممتازة (الميرانتزاغو) ، في أشبيلية ، مؤلفة من فلاماندين يقيمون في اسبانيا ، فقد

منعت ، على الأقل حتى ١٦٤٠ م ، رعاياها في البلاد ـ المنخفضة من التجارة مع مستعمراتها الأميركية .

غير أن معاودة النزاع مع الأقاليم ـ المتحدة في ١٦٢١ م ، وبخاصة بداية الحرب الفرنسية ـ الاسبانية في ١٦٣٥ م ، قد أضرت بهذه النتائج وفتحت في تاريخ البلاد ـ المنخفضة **عصر البلاء** . فقد أصبحت مسرحاً للقتال في أوربة ، وأحد رهانات المنازعات بين الدول الكبرى معاً . اجتاحها رجال الحرب مراراً مختلفة واقتطعوا بالتوالي الفلاندر الزيلاندية وشمال برابان في ١٦٤٨ م ، والآرتوا ودنكرك في ١٦٥٩ م ، والفلاندر الغربية والقسم الأعظم من هينوت (١٦٦٨ ـ ١٦٧٨ م) ، فيما فتحت معاهدات (الحاجز) عدة مواقع محصنة في الحاميات الهولاندية . وسببت خسائر الحرب المستمرة الدائمة ، والتصديق في ١٦٤٨ م على إغلاق الأيسكو هبوطاً محسوساً في السكان والركود الاقتصادي . فميناء أنفرس ، الذي حرمت عليه التجارة البحرية الكبرى ، عاش في ضيق ، وحافظت المدينة مع ذلك على بعض الأهمية كبلد مصرفي ، ومركز للماس والطباعين ، وسوقاً لتصدير الأعمال الفنية والسجاد . وأصيبت الزراعة بشدة ، ولم تستطع مجابهة كل الحاجات . وتباطأ نشاط المصانع بفقدان الأمن ورؤوس المال والمنافذ . ولم تهتم الحكومات المتعاقبة بالمصالح الحقيقية للأقاليم التي تديرها . إلا أن ناخب بافاريا وحده ، ماكسمليان ـ إيمانويل ، الذي عين حاكماً في ١٦٩٢ م كان له الفضل في مساندة الجهود التي بذلها ، بين ١٦٩٧ و ١٧٠٠ م ، (الكونت برجيك) مدير المالية العام . فقد كان (كولبرتياً) مؤمناً ، أنشأ في (أوستاند) شركة الهند الشرقية وغينة ، وحصل من مدريد على امتياز في سان ـ دومينغ لتأسيس مستعمرة فيها . وحسن طرق المواصلات ، وفكر بوصل نهر الموز بالبحر عن طريق بروكسل وغاند . واتخذ إجراءات حماية لتشجيع نهوض الصناعة . ولكن عداء انكلترا والأقاليم ـ المتحدة ، ولا مبالاة اسبانيا ، واستئناف الحرب أدت بسرعة إلى إخفاق جهود برجيك . وعادت البلاد ـ المنخفضة من جديد ، انطلاقاً

١٧٠٢ م ، مسرحاً للقتال ، وعرفت طوراً وطوراً الاحتلال الفرنسي والاحتلال الانكليزي ـ الهولاندي ، قبل أن تصبح في ١٧١٤ م تحت السيطرة النمساوية . أما الشعب فقد دمرته الحرب ، وأضناه الاسبان ، وخشي الفرنسيين كما خشي الهولانديين الكالفنيين ، واستقبل بلا مبالاة هذه الرعوية الجديدة .

ومع ذلك ، فإن عصر البلاء كان أيضاً بالنسبة للبلاد ـ المنخفضة **عصراً مجيداً** . لقد كانت قلعة الإصلاح الكاثوليكي منذ حكم الأرشيدوقات وأرضاً صالحة للفن الباروك الذي وجد أجمل تعبير له في الكنائس التي شادها المهندسون اليسوعيون ، وبخاصة في العمل الفخم والظافر الذي أنجزه **(بيير ـ بول روبنس)** .

إيطاليا الاسبانية والدول الإيطالية المستقلة

كانت اسبانيا حاضرة مباشرة في شمال وفي جنوب شبه الجزيرة الإيطالية ، وتمارس في الوقت نفسه نفوذاً هاماً كثيراً أو قليلاً على الدول الإيطالية المستقلة .

ميلانيا (منطقة ميلانو)

تقع منطقة ميلانو في منفذ الشعاب الألبية الهامة . وهي إحدى المناطق الطبيعية الغنية في إيطاليا أكثر من غيرها ، ولكن السيطرة الاسبانية التي يمارسها نائب الملك ، الذي يعين جميع الموظفين ، يعبر عنها في الغالب بالركود الاقتصادي . فقد كانت المنطقة منطوية على نفسها وعلى صلة مع المتروبول وحدها ، وخلت من السكان ، وفقدت رويداً رويداً ازدهارها القديم ، وهجرت الزراعة ، وتهدمت المصانع . وميلانو التي كانت تعد نفوسها ٣٠٠٠٠٠ نسمة في القرن السادس عشر لم يكن فيها أكثر من ١٠٠٠٠٠ نسمة في ١٧٠٠ م .

وفي **نابولي** وفي **صقلية** حيث تمثل اسبانيا بنائبي ـ ملكيين ، أحدهما في نابولي ، والآخر في بالرمو ، لم يكن الاستقلال الذاتي إلا ظاهرياً . وتصوت

المجالس على الضرائب دون مناقشة ، ولا تشاور إلا صورياً . وحذفت مجالس نابولي في ١٦٤٢ م . وضحيت مصالح المملكتين لمصالح اسبانيا ، والقسم الأعظم من الضرائب الثقيلة جداً لا يستخدم ميدانياً بل يرسل إلى مدريد . وكان إنتاج الحنطة في انخفاض ، ولكن نظم تصديره بعناية . والصناعات النادرة المزدهرة في القديم كصناعة الحراير والأجواخ كانت في عز انحطاطها . ونواب ـ الملوك يحاولون الاعتماد على الاكليروس العظيم النفوذ ، وعلى الطبقة النبيلة التي كانت قوية بأملاكها الواسعة التي تسيء إدارتها واستغلالها طبقة الفلاحين البائسة . ومع ذلك فإن الثورات الشعبية ضد المحتل الاسباني كانت كثيرة ، وترجع إلى البؤس والمجاعة أو إلى تفاقم العبء الضريبي ، وفي الغالب لم يكن لها في الأصل هدف سياسي واضح . وأخطرها ثورتا ١٦٤٧ ن و ١٦٧٤ م . ففي ١٦٤٧ . ثارت بالرمو وسالرن والبوي والكالابر وبخاصة نابولي إثر فرض رسوم جديدة . وفي نابولي ، استلم السلطة صياد السمك (توماس آنيللو) الملقب بـ (مازانيللو) ، بعض الوقت ، ثم قتل . عندئذ استنجد الثائرون النابوليون بفرنسا ، ولكن الاسبان استعادوا الوضع بيدهم ، في ١٦٤٨ م . وفي ١٦٧٤ م ثارت مسينا واستنجدت بملك فرنسا ، فأرسل نائب ـ الملك ، الدوق دو (فيفون) ، ولكن لويس الرابع عشر تخلى عن المدينة في ١٦٧٨ م وتركها عرضة لانتقام اسبانيا . وفي الواقع ، إن الفرنسيين باستجابتهم لنداءات النابوليين والصقليين الثائرين ، لم يفكروا إلا بإضعاف اسبانيا ، دون مساعدة هؤلاء لاسترداد استقلالهم ، كما تشهد بذلك رسالة أرسلها من مسّينا إلى كولبر ، في ٧ تشرين الأول ١٦٧٤ م ، الفارس (دو فالبل) رئيس الأسطول الذي كان تحت إمرة (فيفون) .

وفي ١٧١٤ م ، كانت الممتلكات الاسبانية في إيطاليا رهاناً بسيطاً كالبلاد ـ المنخفضة بالنسبة للسياسة الأوربية ، وقد فصلت عن إرث فيليب الخامس وأعطيت للنمسا ولدوق سافوا . ولم يعمل الميلانيون والنابوليون والصقليون سوى أن غيروا سيدهم .

ويضم باقي شبه الجزيرة الإيطالية تسع دول مستقلة . وكان النفوذ الفرنسي سائداً في الدوقيات الصغرى : بارما ـ بليزانس (لآل فارنيز) ، ومودينا ـ ريجيو (لآل ايست) ومانتو ـ مونفرّا (لآل غونزاغ) . وبالمقابل ، كان نفوذ اسبانيا مسيطراً في جمهورية (لوقا) الأرستقراطية وبخاصة في جنوة وفي توسكانا . وكانت جمهورية جنوة مؤلفة ، عدا كورسيكا الدائمة الثورة ، من شريط شاطئي في منطقة ليغوريا ، وخاضعة بصورة وثيقة لاسبانيا التي تستخدم ميناءها كمرحلة نحو منطقة ميلانيا . وهذه الشبه ـ تبعية كلفتها قصف الأسطول الفرنسي لها في أيار ١٦٨٤ م . وكان كبار أدواق توسكانا ، كوزم الثاني من آل الميدتشي (١٦٠٨ ـ ١٦٢١ م) وابنه فرديناند الثاني (١٦٢١ ـ ١٦٧٠ م) إداريين ضعيفين ، ومضطرين لسلوك سياسة حذرة وممحية والتسامح بوجود الاسبان في مواقعهم المحصنة . ومن جهة أخرى ، تسارع انحطاط دولة فلورنسا : فبعد التجارة والصناعة أفلس البنك . وفي مضمار الآداب والفنون ، فقدت فلورنسا تفوقها الذي كان لها في السابق . وفي الحقيقة ، إن مؤسس العلم الحديث ، غاليليه ، كان بيزانياً (من مدينة بيزا) ، ولكن كرم فرديناند الثاني ساعد العالم الكبير أن يقضي في فلورنسا أخصب سنوات حياته ثمراً وعطاءً . أما كوزم الثالث (١٦٧٠ ـ ١٧٢٢ م) فكان أميراً صلفاً يحب المظاهر ، ولكنه غير قادر على أن يعيد لتوسكانا أبهتها القديمة .

أما دول البابا ودوقية سافوا وجمهورية البندقية فقد استطاعت أن تنجو من الوصاية الاسبانية . إن الباباوات الأحد عشر الذين تعاقبوا من ١٦٠٥ إلى ١٧٢١ م ، كانوا في الوقت نفسه سادة زمنيين وزعماء الدولة الحبرية . وإذا كانوا كلهم أحباراً شرفاء ، أتقياء مقتنعين بواجباتهم ، فإن اثنين منهم فقط ظهرا بابوين عظيمين : الأول **أوربينو الثامن** ، حامي الآداب والفنون ، وصديق غاليليه ، رغم حكمه عليه ، وأعظم بابا يهتم بالبعثات التبشيرية ؛ والثاني **إينوسّان الحادي عشر** ، الذي لقب بـ (غريغوار السابع في القرن السابع عشر) ، كان

مصلحاً لا يكلّ ، ومدافعاً دؤوباً عن حقوق الكنيسة تجاه الملك لويس الرابع عشر . وكان البابوات يشاركون بصورة عميقة في المؤامرات والخلافات التي تقع بين الدول الكبرى ، ولا سيا دولة آل هابسبورغ وفرنسا الكاثوليكيتين ، ولكنهم لم يستطيعوا منع علمانية تدريجية للسياسة الأوربية لاتقوم منذ الآن على فكرة المسيحية ، وإنما على فكرة داعي المصلحة العليا للدولة . وفي هذا الاعتبار ، كان احتجاج إينو سان العاشر على معاهدات وستفاليا عبثاً وله دلالته معاً . وأكثر من ذلك أن جهودهم للدفاع عن سلامة الإيمان والعمل على امتداد الإنجيل ، اصطدمت بكثير من خيبة الأمل . لقد انتصر الإصلاح المعاكس في بداية القرن ، وسجل خطوة أمام البروتستانتية بعد ١٦٣٠ م ، وقاومت الجانسينية كل شجب ، وتعرض عمل البعثات التبشيرية للخطر في آسيا بالنزاع بين الطقوس . وكسادة إيطاليين ، ظلوا حماة للآداب والفنون كأسلافهم من وجهة نظر مزدوجة في النهوض العمراني والإشعاع الفني في روما . وحاولوا أيضاً النضال ضد الفوضى المتعاظمة في دولهم ، ولكن كثيراً منهم مارسوا أيضاً المحسوبية لصالح أقربائهم وأعضاء عائلتهم ، مما زاد في ثراء وقوة بعض الأسر الكبرى . لقد كان جلال البلاط الحبري يتناقض مع بؤس الأرياف ، حيث كانت تربية الحيوانات تمارس على حساب الزراعات ، وحيث كانت عصابات الأشقياء تعيث الفساد ، حتى أصبحت داءً مستوطناً .

وفي الشمال الغربي من شبه الجزيرة ، كانت دوقية سافوا ـ بيمونت تقوم على سفحي جبال الألب وتتجه أكثر فأكثر شطر إيطاليا ، فقد انتقلت العاصمة من شامبيري إلى تورينو في ١٥٦٢ م ، وفي ١٦٠١ م تنازل الدوق شارل ـ إيمانوبل الأول (١٥٨٠ ـ ١٦٣٠ م) لفرنسا عن (البريس) و (البوجيه) وبلد (جيكس) مقابل مركيزية (سالوس) . ونجح الدوق زمناً طويلاً بالمراوغة بين المصالح المتنافرة لفرنسا واسبانيا ، ولكن ريشليو ولويس الثالث عشر ، في ١٦٢٩ م ، كانا يريدان استخدام الدوقية لضرب اسبانيا في إيطاليا الشمالية ،

وهاجما شارل إيمانويل واجتاحا دوله . وفي ١٦٣١ م عقد الدوق الجديد فيكتور ـ آميديه الأول (١٦٣٠ ـ ١٦٣٧ م) الصلح مع فرنسا وتنازل لها عن (بنيرول)[١] بموجب معاهدة (شيراسكو)[١] . وخلال أكثر من نصف قرن ، ولاسيما في عهد شارل ـ إيمانويل الثاني (١٦٣٨ ـ ١٦٧٥ م) ، وجدت الدوقية في حالة تعاقب خضوع وسوء إرادة ، منقادة للسياسة الفرنسية . إلا أن فيكتور ـ آميديه الثاني (١٦٧٥ ـ ١٧٣٢ م) ، في ١٦٨٩ م ، قطع روابط هذه التبعية الوثيقة وشارك في عصبة أوغسبورغ . ومكث زمناً حليفاً لفرنسا في بداية حرب الوراثة الاسبانية ، وانقلب من جديد ضدها في ١٧٠٣ م . وبهذا الواقع احتلت الجيوش الفرنسية السافوا وقسماً من بيونت مرتين موقتاً (١٦٩٠ ـ ١٦٩٦ ، و ١٧٠٣ ـ ١٧١٣ م) . ولكن مشاركة فيكتور ـ آميديه ، في التألبات المتعاقبة ضد لويس الرابع عشر ، خولته ، في ١٧١٤ م ، صقلية ولقب ملك .

وإذا استطاعت البندقية أن تصون استقلالها حيال اسبانيا ، فإن القرن السابع عشر كان على الأقل ، بالنسبة (لصاحبة الشوكة) ، جمهورية البندقية ، عصر انحطاط وأفول . فهي تحتل في إيطاليا الشمالية ، وفي الأدرياتيك وفي البحر المتوسط الشرقي مكاناً من الصعيد الأول ، ولذلك هي مضطرة ، بالرغم من إعلان حيادها ورغبتها في السلام ، أن تقيم أسطولاً وجيشاً لتحمي ـ ضد آل هابسبورغ وضد الأتراك ـ سلامة ممتلكاتها التي لا غنى عنها لاقتصادها . وبالرغم من هذه الجهود والمساعدة الفرنسية ، اضطرت إلى التخلي عن جزيرة كانديا[١] إلى العثمانيين في ١٦٦٩ م . وفي الحقيقة ، لقد تنازل هؤلاء إليها في ١٦٩٩ م عن شبه جزيرة موره ، ولكن هذا الفوز كان ظاهراً أكثر منه حقيقياً ، لأن الأرض

---

(١) أو (بينيرولو : PIGNEROLO) و (شيراسكو : CHERASCO) مدينتان في إقليم بيمونت في إيطاليا .

(١) (كانديا CANDIE) اسم قديم لجزيرة كريت .

المكتسبة فقيرة وقليلة السكان ، ولأن الحرب التي اشتعلت منذ ١٦٨٤ م أنضبت أموال الجمهورية وأظهرت عجز حكومتها .

وأخطر من ذلك انحطاط النشاط التجاري الناجم عن نقص أسطولها التجاري ، ومساوئ القرصنة ، وبخاصة منافسة الدول الأطلسية . وما من شك في أن البندقية بقيت مركزاً صناعياً نشيطاً لصناعة الزجاج والحرائر ، وميناءً هاماً ، ولكن منافذه كانت أكثر فأكثر قاصرة على الممتلكات البندقية وحدها ، والتفوق الوحيد الذي بقي لها هو أنها كانت دوماً ولزمن طويل أيضاً ، عاصمة أوربة للقمار والمسرات واللذائذ ، ومن أكثر المدن الجميلة زيارة في شبه الجزيرة الإيطالية .

أما إيطاليا كلها ، فقد حافظت في الجزء الأعظم من القرن على إشعاع لامثيل له . و (رحلة إيطاليا) بالنسبة للفنان من أي بلد أوربي تعتبر ثقافة لاغنى عنها . وقل مايحفظ لأفضل الرحلات من انطباع عميق بمثل مايحفظ عنها . ولم تكن أطلال العصر القديم الاغريقي ـ الروماني التي يبحث عنها فيا وراء الجبال فحسب ، وإنما أيضاً دروس كبار المبدعين في القرنين السالفين والقرن الحالي ، من أساتذة القرن الخامس عشر إلى كارافاجيو ، ومن ميكيل آنجيلو إلى برنيني . وفي البلاطات الإيطالية نشأت في بداية القرن الأوبرا وموسيقى الكونشرتو التي قلدت فيا بعد في كل أوربة . وإذا فكر بالإشعاع الموازي لاسبانيا ، فمن الحق أن نقول « ان النور كان يأتي من الجنوب » في الثلاثة أرباع الأولى من القرن السابع عشر .

الامبراطورية والملكية النمساوية

في ألمانيا التي أيدت معاهدات ١٦٤٨ م تجزئتها ، أصبحت ناخبية براندبورغ مملكة بروسيا القوية ، في ألمانيا الشمالية ، فيا حافظ آل هابسبورغ على العظمة الامبراطورية ، وتعلقوا بتنظيم ممتلكاتهم الخاصة في الدولة الدانوبية الواسعة .

الامبراطورية والدول الألمانية الهامة

لقد سجلت معاهدات وستفاليا إخفاق محاولة الامبراطورين فرديناند الثاني (١٦١٩ ـ ١٦٣٧ م) وفرديناند الثالث (١٦٣٧ ـ ١٦٥٨ م) لجعل الامبراطورية المقدسة دولة ألمانية مركزية وكاثوليكية . وثبت الانقسام السياسي والديني في ألمانيا باسم (الحريات الجرمانية) وبضمان الدول الموقعة . وكان الأمراء الألمان في داخل دولهم مستقلين عملياً ويتمتعون تقريباً بكل الحقوق الملكية : كفرض الضرائب ، وسك النقود ، وإقامة الجيوش ، وإبرام المعاهدات مع من يحسن التعاقد معه ، شريطة ألا تكون موجهة ضد الامبراطور أو الامبراطورية . ومعظمهم يحددون حقوق مجالس الدول[1] التي لا تشاور إلا شكلياً أو لا تدعى أبداً . وقد جرى هذا التعزيز لسلطة الأمراء على حساب الطبقة النبيلة الصغرى (المباشرة) أي التابعة نظرياً للامبراطور مباشرة ، وبعض المدن الحرة بموجب مبدأ يعترف بأن سيادة الأمير مطلقة في حدود أرضه .

وأصبحت منذ الآن امتيازات الامبراطور شرفية بصورة محضة . وباعتباره أميراً ألمانياً يخضع لقوانين الامبراطورية ، وتنتخبه هيئة انتخابية مؤلفة من سبعة أعضاء في بداية القرن ، ثم أصبحت ثمانية في ١٦٤٨ م ، ثم تسعة في ١٦٩٢ م ، بعد رفع دوق برنسويك ـ لونيبورغ سيد هانوفر إلى رتبة ناخب . وفي الواقع إن الامبراطور ، حسب التعبير الذي استعمله فيما بعد فريديريك الثاني ، (ليس أكثر من زعيم تنتخبه جمهورية أمراء نبيلة) . وانطلاقاً من ١٦٦٣ م ، أصبح الدياط (مجلس الامبراطورية) بهيئاته الثلاث دائماً ، وتحول ، على هذا النحو ، إلى مؤتمر دائم يقوم فيه سفراء الأمراء بمناقشات لا تنتهي ودون مفعول عملي ، وليس الأمراء أنفسهم .

---

(١) مجالس الدول : LANDSTÄNDE .

وانطلاقاً من ١٦٤٨ م كان **النفوذ الفرنسي** مسيطراً في الامبراطورية . فقد جعل مازارن ، ثم لويس الرابع عشر ، الذي يفكر بالحصول على التاج الامبراطوري ، من نفسيهما حاميين للأمراء الألمان ، وأغدقا عليهم الأموال عن سعة . ولكن سياسة ملك فرنسا الكاسحة ، وتحريضاته ، وموقفه إزاء البروتستانت انتهت بتحويل معظم الأمراء عنه ، وأحدثت في الرأي العام الألماني رعشة ألمانية قوية . وفي بداية القرن الثامن عشر حقق **النفوذ النمساوي** كسباً عريضاً ، في ألمانيا الجنوبية ، يعادله في ألمانيا الشمالية نمو نفوذ براندبورغ - بروسيا .

وتفاقمت التجزئة أيضاً بواقع : وهو أن الأمراء ظلوا يمارسون تقسيم أملاكهم بين أولادهم . وعلى هذا النحو يرى أن بيت ساكس يضم ، في آخر القرن السابع عشر ، ثمانية فروع : (فيمار ، غوتا ، كوبورغ إلخ ...) عدا عن أن الأسرة الناخبية نفسها مقسمة إلى ثلاثة فروع . فمن بين ألـ ٣٥٠ دولة التي تؤلف الامبراطورية وتتحول جميعاً كثيراً أو قليلاً نحو الحكم المطلق ، وخارجاً عن النمسا وبراندبورغ ، كان أهمها الساكس وبافاريا . وكان بلاط ناخب ساكس في **درسدن** من أفخم بلاطات ألمانيا ، ولكن أهمية الدولة الساكسونية في ألمانيا الشمالية تضاءلت بواقع ضعف أمرائها وتقدم براندبورغ . وفي آخر القرن صبأ الناخب فريد يريك أوغست الأول (١٦٩٤ - ١٧٣٣ م) إلى الكاثوليكية لينتخب ملكاً على بولونيا تحت اسم أوغست الأول عند وفاة (جان سوبيسكي) (١٦٩٦ م) . وهكذا خسر لصالح آل هوهنتسولرن الدور الهام الذي كان يلعبه لدى الأمراء البروتستانت . وكان ناخبو **بافاريا** الكاثوليك ، مكسمليان الأول (١٥٩٨ - ١٦٥١ م) ، وفردينانـد - ماري (١٦٥١ - ١٦٧٩ م) ومكسمليان - إيمانويل الثاني (١٦٧٩ - ١٧٢٦ م) يتأرجحون بين التحالف النمساوي والتحالف الفرنسي ، ويشاركون تقريباً في كل الخلافات الأوربية بين ١٦١٨ و ١٧١٤ م ،

وفي جر أكبر بلاء لبلادهم . وهذا لم يمنع فردينانـد ـ مـاري من تجميل عـاصمتـه ، مونيخ .

واجتاحت حرب الثلاثين عاماً ألمانيا ولم تنهض من دمارهـا إلا ببـطء . ومع ذلك يرى ، في آخر القرن ، عودة الزراعة في كثير من الأراضي . وأخذت التجارة الداخلية والتجارة البحرية الكبرى ، بواسطة هامبورغ ولوبيك ، بعض الأهمية ، وازداد عـدد السكان . واستطـاعت بعض الـدول ، مثـل بـافـاريـا وبخـاصـة براندبورغ ، أن تنجح في عمل التعمير المادي أفضل وأسرع من غيرها .

ولكن ألمـانيـا كانت مزعزعـة معنـويـاً بخلاف فظيـع . لأن تفـاقم التجـزئـة السياسية وحدوث (فوضى قائمة) جعلا من الصعب النهوض في هذا المضمار . فقـد كانت الجـامعـات في انحطـاط كامل نحـو ١٦٤٨ م ، ولم تستعـد شهرتهـا إلا رويـداً رويداً . ولم تبدأ آداب اللغة الألمانية بـالتغلب على آداب اللغـة اللاتينيـة أو اللغـة الفرنسيـة إلا في سنوات ١٦٨٠ م . فقـد كان (ليبنتز) ـ (١٦٤٦ ـ ١٧١٦ م) أكبر اسم في الفكر والعلم الألمانيين في القرن السابع عشر ، يفضل الكتابة بـاللاتينيـة أو بالفرنسية . وفيما عدا الموسيقى . مع (شوتز) و (بوكستهوده) ، كان الفن عـديم الأصالة وكبار المبدعين . وكان الأمراء الألمان يحـاولون نسخ قصر فرسـاي حرفيـاً في حدود وسائلهم . وبالمقابل ، على الصعيد الديني ، كانت ألمانيا مسرحاً لتجديـد حقيقي ، كما في (حركـة التقـوى والـورع) . وكان اللـوثري (فيليب ـ جـاك سبنر) ـ (١٦٣٥ ـ ١٧٠٥ م) ، الألزاسي الأصل ، يبشر بضرورة تحويل الأخلاق والعـادات ، وقـاوم الجهـل الـديني والشكليـة (التعلـق المفرط بـالأشكال والشكليات) ، وفضل تشكيل مجالس صغيرة « مجـالس التقوى »[1] تجمع المؤمنين الأتقياء مرة في الأسبوع بهدف عاطفة تقوى متبادلة . وكانت (الحركة التقاتيـة) فرقة لوثرية تصر على ضرورة التقوى الشخصية والعـاطفـة الـدينيـة أكثر ممـا تصر

---

(١) مجالس التقوى : COLLEGIA PIETATIS

على الأرثوذكسية (الحنيفية المذهبية) الشديدة . والتقاتية عملية وتطبيقية جداً وليست عقائدية ، ولذلك اصطدمت بكثير من الحذر الرسمي ، ولكنها لاقت في الوقت نفسه نجاحاً كبيراً جداً في ألمانيا كلها ، كشاهد على تجديد الفكر والأخلاق والعادات بعد اضطراب بداية القرن .

البراندبورغ وتشكيل الدولة البروسية

لقد استطاع آل هونتسولرن ، ناخبو براندبورغ ، بلاد البراح والمرازغ في وسط ألمانيا ، أن ينجحوا ، في النصف الأول من القرن السابع عشر ، في تثليث رقعة دولهم . ففي ١٦٠٩ م ، عندما توفي دوق دوكليف وجوليه ، قام ناخب براندبورغ جان ـ سيجسموند (١٦٠٨ ـ ١٦١٩ م) مباشرة ، وأثبت حقوقه في إرث الدوق الراحل قريبه . وفي ١٦١٤ م ، عندما تدخلت تسوية هذا الإرث المتنازع ، نجح في التنازل له عن المدينة ودوقية كليف الغنية على الراين ، والكونتيتين الصغيرتين المجاورتين (مارك) على الرور ، و (رافنسبرغ) بالقرب من نهر الفيزر . وفي ١٦١٨ م ، عند وفاة ابن عمه ، ألبرت فريديريك هونتسولرن ، دوق بروسيا ، وليس له أولاد ، ورث بروسيا ، وهي بلاد واسعة وفقيرة وقليلة السكان وواقعة خارج الأمبراطورية ، ولكنها تحت سيادة ملك بولونيا . وعندما توفي جان ـ سيجيسموند في السنة التالية ، كانت ممتلكاته غير متصلة جداً مع بعضها وتمتد من نهر الراين إلى نهر (نيمن) . وفي عهد خلفه جورج ـ غليوم (١٦١٩ ـ ١٦٤٠ م) عاشت دولة براندبورغ في محنة فظيعة وهي حرب الثلاثين عاماً . إلا أن فريديريك ـ غليوم ، على الأقل ، وقد أصبح ناخباً في سن العشرين ، استطاع أن يحصل ، عند معاهدات وستفاليا ، على ترضيات أرضية جوهرية : بوميرانيا الشرقية ، والأسقفيات المعصرة : (ميندن) ، وهالبرشتات وماغدبورغ ، وقد احتلت هذه الأخيرة فعلاً في ١٦٦٦ م . وهذه المكاسب أنمت بصورة جسيمة امتداد أملاك آل هوهنتسولرن ولكنها أساءت تعويض الخسائر التي سببتها الحرب وعدم تنظيم الدولة .

واستطـاع فريـديريــك ـ غليـوم الملقب بـ « النـاخب الأكبر » (١٦٤٠ ـ ١٦٨٨) أن يصنع من هذا المجموع غير المتجانس والفقير من هـذه الأراضي ، دولـة حـديثـة كبرى . لقـد تربى جزئيـاً في هـولانـدا ، في جـامعـة ليـدن ، وفي جيش فريـديرك ـ هنري أورانج ـ نـاسو ، وتـزوج ابنتـه ، وبـدا عـاهـلاً نشيطـاً جـداً وطموحاً ومفضلاً مصلحة الدولـة قبل كل شيء . كان عصبي المزاج ، ولكنـه عرف كيف يبرهن عن مرونة ، وحتى عن مداهنـة وريـاء للوصول إلى أهـدافـه دون أن يقيد نفسه بمبادئ صارمة جداً . فقد وحد الإدارة في ممتلكاته ، ودخل في نزاع مع المجالس الإقليمية[1] في مختلف دوله ، وحرمها من امتيازاتها الماليـة . وبعـد أن كان كل مجلس يقرر الضرائب ويوزعهـا ويجبيهـا ، أصبحت بعـد اليـوم بيـد مـوظفي الأمير ، وغـدا مجلس الـدولـة السري في برلين تحت رئـاسـة النـاخب وأكبر لسـان للحكومـة . وتـولى الإدارة في كل إقليم من الأقـاليم مـوظفـون جـدد (المشـاورون الإقليميون) . وفي الوقت نفسه ، أمن فريـديريـك ـ غليوم لنفسـه موارد مـاليـة منتظمـة . بـإحـداث ضرائب جـديـدة ودائمـة : الاكسيز أو الضريبـة على المـواد الاستهلاكية وتدفعها المدن ، والبيرغلد ، أو ضريبة الجعـة (البيرة) ، وحصر بيع الملح .

وتعلق بخاصـة بعـد ١٦٦٠ م بـإعمـار دولـه وتوطين السكان فيهـا وإثرائهـا . واستنجـد بـالخـارج لاعمـار المجـالات الـواسعـة غير المـأهـولـة كامـلاً بـالسكان في برانـدبورغ ، وفي بروسيـا ، وفي بوميرانيـا . وجـذب الهـولانـديين الـذين تـؤلف قراهم[2] ، مزارع نموذجية حقيقية .

وبـالرغم من أنـه كالفني مـؤمن ، فقــد رحب بكل من اضطهــدوا في بـلادهم لأسباب دينيـة : من كاثوليـك ، و (سوسينيين)[1] ، ويهود و (ڤودوا) . وقبل

---

(١) مجلس الإقليم : LANDTAG .

(٢) القرى الهولاندية : LES HOLLANDERIES .

(١) السوسينيون : هم أتباع Socini ، وهو إيطالي بروتستـانتي في مـدينـة (سيين ـ SIENNE) ـ

إلغاء براءة نـانت ، عرض اقتراحـات مفيــدة للكالفنيين الفرنسيين بمـوجب براءة بـوتسـدام ، تشرين الأول ١٦٨٤ م ؛ واستجـاب لنـدائـه هــذا أكثر من ٢٠٠٠٠ ، ودخلوا الجيش ضباطاً ، وأقاموا في الأرياف ، وحولوا برلين وأنشؤوا فيها بسـاتين لـزراعـة الخضـار ، ومصـانـع وكليـات . وسـاعـد تـدفـق الأجـانب على النهوض الاقتصادي في دولة براندبورغ حيث قامت الأعمال الكبرى : مثل تجفيف العديـد من المرازغ ، وإدخـال النبـاتـات الجـديـدة : التبـغ ، والتـوت ، وتنميـة زراعـة الحنطـة ؛ وإحـداث مصـانع تحميهـا التعرفـات الجمركيـة : كصنـاعـة الأجـواخ ، والزجـاج . والورق ، وحفر القنـوات ، مثـل قنـاة (اودر ـ شبريـه ـ إيلبـه) ، ولكن أيضاً مع الاحتفاظ بل تفـاقم الرقيق في بروسيـا وفي برانـدبورغ . هـذه هي الإنجـازات الأسـاسيـة التي أسهمت في صنـع أمـلاك آل هـونتسـولرن دولـة غنيــة ومزدهره بعد عقم أرضها وجحود تربتها ، ما عدا البلاد الرينانية .

وهذا الثراء النسبي منضماً إلى جباية الضرائب المنظمة سـاعـد فريـديريـك ـ غليوم ، المأخوذ بمثل ملك السويد غوستاف ـ آدولف ، على تحقيق الهـدف العزيز عليـه وهو : إقـامـة جيش دائم مؤلف من أكثر من ٣٠٠٠٠ مرتـزق بمـلاك ضبـاط جيد ، ومسلح جيداً وخاضع لنظام حديدي . وبدا له أن هذه الأداة لا غنى عنها للحفاظ على أملاكه ونموهـا . وتـدخل في حرب الشمال وحصل من ملـك بولونيـا على كامل السيادة على دوقية بروسيا في ١٦٥٧ م . وفي حرب هولانـدا ، قرر بعد كثير من المماطـلات ، الانضمام لخصوم لـويس الرابـع عشر . وعنـدمـا هـاجمـه السويـديون ، حلفـاء فرنسـا . تغلب عليهم بـانتصـار فيربلين[1] ، في ٢٨ حزيران ١٦٧٥ م ، وباشر ، بمساعدة الدانياركيين والهولانديين ، بفتح الأراضي السويـديـة

ـ (١٥٢٥ ـ ١٥٦٢ م) أسس المذهب المعادي لعقيـدة التثليث والمسمى بـاسمـه (السوسينيـانيـة = Socinianisme) .

(١) (فيربلين ـ FEHR BELLIN) .

في ألمانيا : بريمن[1] ، فردين[2] ، بوميرانيا الغربية . ولكن لويس الرابع عشر ، غداة صلح نيميغ[3] ، أجبر الناخب الأكبر ، في معاهدة سان ـ جرمن ، في حزيران ١٦٧٩ م ، أن يعيد إلى السويد جميع البلاد التي فتحها . وبالرغم من هذه الخيبة الفظيعة ، أظهرت الحرب قيمة جيش براندبورغ وطموحات آل هوهنتسولرن .

وكان فريديريك الثالث (١٦٨٨ ـ ١٧١٣ م) ، الذي خلف أباه ، معتل الصحة ، ضعيف العقل ، كثير الأوهام . أراد بأي ثمن ، وبزهو أن يحمل لقب ملك كابني عمه غليوم أورانج وأوغست . وأراد أن يأخذ هذا المنصب الملكي لا في براندبورغ ، أرض الامبراطورية ، وإنما في بروسيا حيث كان عاهلاً ، بالتام والكمال . ولذا ينبغي له الحصول على موافقة الامبراطور ليؤبولد . وظل يرجوه طويلاً . وكان ليؤبولد في ١٧٠٠ م بحاجة إلى مساندة في النزاع الذي سيفتتح بسبب الوراثة الاسبانية ، فسمح لفريديريك أن يأخذ لقب ملك بروسيا مقابل الوعد بـ ٨٠٠٠ جندي براندبورغي ، بموجب معاهدة التاج ، في ١٦ تشرين الثاني ١٧٠٠ م . وفي ١٨ كانون الثاني ١٧٠١ م ، وفي سياق احتفال فخم في كونكسبرغ ، أصبح فريديريك الثالث ، ناخب براندبورغ ، فريديريك الأول ملك بروسيا ووضع بنفسه التاج الملكي على رأسه . وهذا الحادث ، الذي أوحى به الزهو وحده ، كانت له أهمية عظيمة : وهي أن آل هوهنتسولرن أصبحوا منذ الآن أعلى من الأمراء الألمان الآخرين ، وظهروا منافسين في ألمانيا لآل هابسبورغ الكاثوليك .

---

(١) (بريمن = BREMEN) .

(٢) فردين VERDEN .

(٣) (نيميغ ـ NIMEGUE) ، وبالألمانية (نيميغن ـ NIJME GEN) .

الملكية النمساوية

كان فرديناند الثاني (١٦١٩ ـ ١٦٣٧ م) مفعماً في أعماقه بحقوقه كامبراطور . ويعتبر نفسه قبل كل شيء زعيم المسيحية ومدافعاً عن الكاثوليكية في ألمانيا وفي أوربة . وباعتباره خلفاً حقيقياً لشارل ـ كنت ، جعل من نفسه بطل سياسة امبراطورية فات عليها الزمان منذ الآن . وفشل هذه السياسة التي تابعها ابنه فرديناند الثالث (١٦٣٧ ـ ١٦٥٨ م) يدل على منعطف رئيسي في تاريخ آل هابسبورغ : فقد اضطروا إلى التخلي عن المثل الأعلى القديم للامبراطورية وللمسيحية في العصر الوسيط ، وبجتهم ألمانيا ولم يكن للقب امبراطور الذي يحافظون عليه سوى قيمة رمزية ، واتجهوا صوب دولهم النمساوية وممالكهم في بوهيميا وهونغاريا ، ليجعلوا منها دولة دانوبية واسعة واضعين على هذا النحو أسس النمسا الحديثة .

كان حكم ليوْبولد الأول (١٦٥٨ ـ ١٧٠٥ م) ، في هذا الاعتبار حاسماً . وفي الحقيقة كان ليؤبولد عاهلاً نشيطاً وجاداً ، ولكنه ضعيف ، يهتم بخاصة بالوراثة الاسبانية ويريد تسويتها لصالحه على حساب لويس الرابع عشر . ولكن المتابعة العنيدة لهذا الهدف لم تمنعه من أن يكرس نفسه لأفضل تنظيم لدوله . وقطع فرديناند الثاني مرحلة هامة غداة واقعة الجبل الأبيض ، عندما حول مملكة بوهيميا الانتخابية المتمتعة بحريات سياسية ودينية هامة ، إلى مملكة وراثية ، وكاثوليكية ومتجرمنة بشكل عريض . وكان من أهداف ليؤبولد أن يحقق الشيء نفسه في مملكة هونغاريا الانتخابية . ولكن المشكلة هنا مضاعفة : إذ ينبغي ألا يتغلب على مقاومة سكان هونغاريا الملكية المتعلقين بامتيازاتهم فحسب ، وإنما أيضاً أن يستعيد من الأتراك القسم الأعظم من المملكة الذي يحتلونه منذ انتصارهم في (موهاكس) في ١٥٢٦ م . وحاول الهونغاريون ، والكثير منهم بروتستانت ، مراراً عديدة ، منذ النصف الأول للقرن ، أن يزيحوا عن عاتقهم نير آل هابسبورغ

بانتخاب ملك لهم ، أمير ترانسلفانيا[1] ، بيتلن (١٦١٣ ـ ١٦٢٩ م) ، ثم **جورج الأول (راكوتشي)** (١٦٣٠ ـ ١٦٤٨ م) . وغداة صلح ١٦٤٨ م ، بدأ فردينانـد الثالث ، وبعده بخاصة ليؤبولد الأول ، يوجهان اللوم إلى الحريات السياسية والدينية في هونغاريا الملكية ويحرضان ضد ملوك الهونغاريين اتحاد جميع المجر من نبلاء وفلاحين ، وكاثوليك وبروتستانت . وانفجرت عدة مؤامرات ولكنها كشفت وقمعت ، وبخاصة في ١٦٧١ م ، مؤامرة الكونتات الثلاثة الذين أعدموا ، فيما انهال على البلاد نظام الإرهاب . ولم يتردد بعض النبلاء ، مثل (توكيلي) عندئذ ، في توحيد مصالحهم مع مصالح الأتراك . ولكن ليؤبولد نجا من الخطر العثماني بانتصار (كاهلنبرغ) (١٦٨٣ م) وقرر أن يخمد نهائياً (هونغاريا الملكية) . وأقيمت محكمة استثنائية في مدينة إيبيريس[2] ، وانطلقت في الرد بعقوبات دامية (مذابح أو ملاحم إيبيريس) . وفي ١٦٨٧ م ، انعقد دياط في (برسبورغ) واضطر إلى الاعتراف **بالطابع الوراثي** لتاج القديس إيتين في البيت النمساوي . ولا يمكن لحق الانتخاب أن يمارس إلا في الحالة التي ينطفئ فيها سليل مذكر من آل هابسبورغ . ومع ذلك تعهد ليؤبولد بالحفاظ على القوانين الأساسية ومؤسسات المملكة المجرية . وبعد زمن قليل ، أجبرت انتصارات الأمير (أوجين) على الأتراك أن يتنازلوا لليؤبولد عن ترانسلفانيا وهونغاريا العثمانية ، ماعدا بانات تيميشفار ، بموجب معاهدة كارلوفيتز ١٦٩٩ م . وهكذا أعيد تشكيل مملكة هونغاريا تحت سلطة آل هابسبورغ . ولكن سياسة هؤلاء تجاه قدامى ومحدثي رعاياهم الهونغاريين كانت فظة وخرقاء ، حتى ان ثورة عامة انفجرت في ١٧٠٣ م في عز حرب الوراثة الاسبانية . ووضع المستاؤون ، على رأسهم **فرنسوا الثاني راكوتشي** ، سليل أمراء ترانسلفانيا . ورفع هذا أعلامه بشعار : (الله ، حرية ، وطن) ، وتحالف مع لويس الرابع عشر ، وهدد فيّنا فـ

(١) ترانسلفانيا إقليم مستقل ذاتياً تحت السيادة التركية ومأهول في غالبيته بكالفنيين .

(٢) (إيبيريس EPERIES) .

١٧٠٣ م ، وانتخب في ١٧٠٤ م أميراً لترانسلفانيا ، ثم أمير (كونفدراسيون الفئات الهونغارية) ، وأعلن في ١٧٠٧ م سقوط آل هابسبورغ واستقلال هونغاريا . ولكن راكوزي لم يستطع الاعتماد على مساندة فرنسا الفعلية ، وقهره النمساويون ، واضطر في ١٧١١ م إلى التخلي عن النزاع ومغادرة البلاد . واتفق الامبراطور الجديد جوزيف الأول (١٧٠٥ ـ ١٧١١ م) مع الثائرين في صلح (زاتمان) في ١٧١١ م ، ومقابل بعض التنازلات وطد سيطرة آل هابسبورغ على مملكة هونغاريا كلها .

وبصورة موازية لهذه الجهود ، حاول ليؤبولد الأول وجوزيف الأول تنظيم مجموع أملاكهما في دولة حديثة قوية . ومهراها بجيش دائم انطلاقاً من ١٦٨٠ م ، وضرائب غير مباشرة منظمة وإدارة مركزية قليلاً بفضل تعزيز سلطات الهيئات التقليدية : المجلس السري للشؤون السياسية ، والمحكمة العليا لمشاكل الأموال والتجارة ، والمجلس الحربي ، والإدارات الثلاث للنمسا وبوهيميا وهونغاريا) . وبعد محنة مزدوجة من الطاعون في ١٦٧٩ م ، والحصار في ١٦٨٣ م ، شاد فنانو الباروك في فيّنا كنائس وقصوراً ، وأخذت أكثر فأكثر وجه عاصمة كبرى .

ومع ذلك ، فقد كان تنقص الدولة النمساوية الوحدة ، في بداية القرن الثامن عشر . والشعوب التي تسكنها : (ألمان النمسا وسيليزيا ، سلاف بوهيميا ومورافيا ، مجر هونغاريا ، رومانيو ترانسلفانيا) ، تفصلها التقاليد واللغة والدين . وبالرغم من بعض الجهود في المركزية كانت الوحدة السياسية بعيدة عن التحقيق : فقد حافظت هونغاريا بخاصة على مؤسساتها الخاصة ، وقوانينها ، ودياطها المؤلف من مجلسين يدعوان إجبارياً مرة في العام . وإذا زاد بصورة عظيمة في ١٧١٤ م كسب البلاد ـ المنخفضة ، وميلانيا ، ومملكة نابولي في توسيع رقعة الملكية النمساوية ، فقد فاقم أيضاً في عدم تجانسها وضعفها العميق . والرابط الوحيد بين هذه البلاد المبعثرة والمختلفة يبقى في الحقيقة في شخص العاهل نفسه .

أوربة الشمالية والشرقية

لقد كانت البلاد الاسكاندينافية : السويد ـ فنلاندة ـ الدانيمارك ـ النورفيج اللوثرية ـ وبولونيا الكاثوليكية ـ وروسيا الأرثوذكسية يحارب بعضها بعضاً بصورة مستمرة تقريباً . وهي بلاد واسعة قليلة السكان ، عرفت ، خارجاً عن القضايا الخاصة ، تطوراً اجتماعياً متشابهاً ملحوظاً بصعود الطبقة النبيلة صاحبة الأطيان وتفاقم ظروف الفلاحين .

البلاد الاسكاندينافية

لقد نودي بغوستاف الثاني آدولف ملك السويد ، وعمره ١٧ عاماً ، بعد وفاة أبيه بشهرين عام ١٦١١ م . وكان مستعداً لعمله بدراسات متينة وبتجربة مبكرة في المشاكل السياسية والعسكرية . كان ذكياً وصاحب إرادة ، ولوثرياً مؤمناً ، وملكاً طموحاً وسيكشف عن نفسه بأنه أعظم آل (فازا) ويريد أن يعمل معاً على تقدم اللوثرية وجعل السويد دولة أوربية كبرى وتحويل البالطيك إلى (بحيرة سويدية) .

كان يهتم بأن يكون مطلق اليدين للبدء بالإصلاحات الداخلية الضرورية : صفى أولاً لصالحه حالة الحرب مع جاريه : فبصلح كنارد (١٦١٣م) ، عدل ملك الدانيمارك كريستيان الرابع عن مزاعمه في التاج السويدي . وبصلح ستولبوفو (١٦١٧ م) تخلى القيصر ميشيل رومانوف إلى السويد عن أنغري **وكاريللي** . وعندئذ باشر الملك **بتجديد الدولة** بمساعدة المستشار (آكسل أوكسنستيريا) . وبمهارة جداً ، عرف كيف يدبر مساندة (الريكسدي) أو الدياط الذي يضم الطبقات الأربع : النبيلة ، الاكليروس اللوثري ، البورجوازيين ، الفلاحين . وقد اتجهت تدابير مختلفة مثل تقسيم مجلس الحكومة أو (الريكسراد) إلى عدة هيئات ، وإنشاء محكمة عليا (١٦٢٤ م) وإصلاح العدالة والمالية ، نحو إشراك الطبقة النبيلة في الحكومة ، وأسهمت في إعطا

السويد إدارة حديثة وناجعة . ومن جهة أخرى ، كان غوستاف ـ آدولف يعلق أهمية كبرى على قضايا التعليم : أسس كليات (جمنازات) عديدة ، وأعاد تنظيم جامعة أوبسالا وأغدق عليها وأثراها . وأنشأ جامعة (دربات) في البلاد البالطيكية . وأخيراً نمى الاقتصاد السويدي ، وجذب إلى المناجم والصناعة المعدنية عمالاً ومهندسين أجانب ، وبخاصة إنكليز وهولانديين ، وفلاماندين مثل لويس دو جير ، وأسس عدة مدن ، ومن بينها مدينة (غوتبورغ) ، وأكثر الإجراءات لصالح التجارة والملاحة .

ولكن جهود الملك انصرفت بخاصة إلى إعداد جيش قوي ليصنع منه أداة سياسته اللوثرية والسويدية . وساعدته الحرب مع بولونيا المندفعة بنشاط غداة الصلح مع روسيا في التغلب على خصومه بعدة انتصارات ، وفرض عليهم في ١٦٢٩ م ، هدنة (آلتمارك) المبرمة لستة أعوام بواسطة ريشليو : وبموجبها تتخلى بولونيا إلى السويد عن ليفونيا البرية والموارد الهامة من جمارك دانتزيغ والموانئ البروسية . وبعد عامين ، وبفضل التدخل في ألمانيا والحملة الخاطفة ، في بضعة أشهر ، أصبح غوستاف آدولف حكم الوضع في أوربة ، ولكن هذه الحملة انتهت بشكل مفجع بوفاته على ساحة القتال في (**لوتزن**) ، في ٦ تشرين الثاني ١٦٣٢ م .

واعترف الريكسدي بالحال بابنته الوحيدة كريستين ، وعمرها ٦ أعوام خلفاً له . ونظم الوصاية لصالح مجلس يرأسه المستشار أوكستانستيرنا ، وبعد عامين وافق على دستور ١٦٣٤ م الذي يعطي واقع السلطة كله إلى الطبقة النبيلة وبخاصة إلى أقرباء وأصدقاء المستشار الوصي . وهذا التطور نحو حكومة أرستقراطية يعبر عن الغنى المتزايد للطبقة النبيلة التي أفادت من مشاكل غوستاف ـ آدولف المالية ، ومن بعده من مجلس الوصاية ، ثم من كريستين . وبالرغم من المساعدات الفرنسية ، كان تجهيز الجيش السويدي يكلف غالياً ، والسلطة بحاجة إلى المال ، ولذلك كانت تكثر من الاستيلاء على الأملاك الملكية

لصالح الطبقة النبيلة التي كانت في الوقت نفسه تشتري بثمن مناسب الأراضي من الفلاحين العديدين المثقلين بالضرائب أو ممن جند منهم في الجيش . ونحو ١٦٥٠ م كان ٧٠ ٪ من الأراضي ملكاً للنبلاء ، بعد أن كان ٢٢ ٪ قبل مئة عام . وكان الفلاحون أحراراً ، ولكنهم أصبحوا أكثر فأكثر (مستأجرين) وليسوا ملاكين . ولذلك شعروا بأنهم مهددون حتى في حريتهم . وفي ١٦٥٠ م ، احتجت الفئات الدنيا في الريكسداغ على الحالة المالية ، وطالبوا بقوة ، ولكن عبثاً ، التاج بإرجاع الأموال التي استملكها النبلاء .

وفي ١٦٤٨ م ، شهدت معاهدة (أوسنابروك) ظفر السويد المفقرة ، ولكنها توسعت ببوميرانيا الغربية وبأفواه نهر الأودر والفيزر . وقد كبرت كريستين وأصبحت راشدة في ١٦٤٥ م . كانت ذكية ومثقفة مزهوة وعاطفية . قررت أن تحكم بنفسها ، وحاولت أن تخضد شوكة جماعة أوكسانستيرنا ، ورفضت أن تتزوج وعينت في ١٦٤٩ م ، خلفاً لها ابن عمها (شارل ـ غوستاف دوبالاتينا ـ دو ـ بون) . وفي ١٦٥٤ م ، تنازلت لصالحه ، لتستطيع اعتناق الكاثوليكية . وماتت في روما ، في ١٦٨٠ م بعد حياة مضطربة . وأرضى الملك الجديد شارل العاشر ـ غوستاف (١٦٥٤ ـ ١٦٦٠ م) جزئياً الفئات الدنيا في الركسداغ بإرجاع جزء من الأموال المستملكة ، وفرض تكليفاً (ضريبة) على أموال النبلاء (١٦٥٥ م) ، ولكنه كان خيالياً ورجل أوهام طموحاً ، ويحلم بتوسع على القارة وباتحاد اسكانديناڤي ، وحشر نفسه في حرب جديدة ضد بولونيا ، ثم ضد الدانيمارك ، وتوفي في شباط ١٦٦٠ م ، قبل أن تؤمن مساندة فرنسا الدبلوماسية ببضعة أسابيع إلى السويد ، بموجب معاهدتي أوليڤا وكوبنهاغن (أيار ـ حزيران ١٦٦٠ م) تملك ليفونيا الداخلية وسكانيا . وهكذا تحقق عملياً حلم غوستاف ـ آدولف وأصبح بحر البالطيك بحيرة سويدية بشكل واسع .

ولم يكن لشارل العاشر غوستاف ، **شارل الحادي عشر** (١٦٦٠ ـ ١٦٩٧ م) غير خمسة أعوام من العمر . وتأسست **وصاية** جديدة لصالح الملكة الأم وخمسة

ممثلين عن الأرستقراطية العليا ، ومن بينهم المستشار (ماغنوس دو لاغاردي) . وجر تفاقم المشاكل المالية العودة إلى تطبيق عمليات الاستيلاء على الأراضي . وفي الخارج تقربت السويد فترة من انكلترا وهولاندا بموجب الحلف الثلاثي في ١٦٦٨ م ، ثم عادت في ١٦٧٢ م إلى التحالف مع فرنسا . وفي هذه السنة الأخيرة ، تسلم شارل الحادي عشر السلطة بيده محتفظاً بلاغاردي . وفي ١٦٧٤ م هاجم براندبورغ ، ولكنه قهر في (فيربللين) على يد الناخب الأكبر في سنة ١٦٧٥ م ، فيما أخذ الدنياركيون (فيسمار) ودخلوا سكانيا . وتغلب شارل الحادي عشر في (لوند) ، في كانون الأول ١٦٧٦ م ، وجنب الخطر الدانياركي ، ولكنه لم يمنع الناخب الأكبر من الاستيلاء على الممتلكات السويدية في ألمانيا . وفي الحقيقة ، إن تدخل لويس الرابع عشر ساعد ملك السويد على استرجاع الأراضي التي خسرها ، في معاهدة سان ـ جرمن ، في حزيران ١٦٧٩ م .

واستطاع شارل الحادي عشر أن يصون سلامة المملكة ، واهتم بإصلاح الفوضى الداخلية ، وقرر الريكسداغ أن يسترد من أعضاء مجلس الوصاية ما أخذوه بغير حق ، وأرجع إلى التاج كل الأموال التي استولى عليها الملوك السابقون . وتناول هذان الإجراءان الملكية العقارية وبخاصة الشوكة السياسية ، التي كانت للأرستقراطية العليا ، وساعدا على توطيد التوازن في المالية . وفي الوقت نفسه ، أعلن الركسداغ أن الملك غير مرتبط بدستور ١٦٣٤ م ويستطيع ، أن يفرض الضريبة أو على الأقل ، أن يشرع دون الرجوع إليه . وعندما توفي شارل الحادي عشر ، في ١٦٩٧ م ، كان في الواقع عاهلاً مطلق الحكم وأخفقت محاولة إقامة نظام أرستقراطي .

ويشبه تطور **الملكية الدانياركية** من عدة وجوه تطور الملكية السويدية . فبعد أن قهر الامبراطور ثم السويديون كريستيان الرابع (١٥٨٨ ـ ١٦٤٨ م) اضطر رويداً رويداً أن ينسق موقفه مع أرستقراطية غنية بخاصة وقوية ، وأن يتخلى عن تحسين وضع الفلاحين . وفي ١٦٤٨ م ، اضطر ابنه فريديريك الثالث

(١٦٤٨ ـ ١٦٧٠ م) لينتخب ملكاً أن يقبل بميثاق يفرض على المليك وصاية (**الريغسراد**) أو مجلس الشيوخ المؤلف من ممثلين عن الطبقة النبيلة . ولكنه في المجالس المنعقدة في ١٦٦٠ م ، طالب الاكليروس والطبقة البورجوازية بإلغاء الامتيازات الضريبية التي كانت للطبقة النبيلة . وعند رفض هذه الأخيرة ، اعتمد الملك على المعارضة وبخاصة **المليشا** البورجوازية التي حاصرت كوبنهاغن وأعلنت وراثة التاج ، وألغت ميثاق ١٦٤٨ م (في ١٣ تشرين الأول ١٦٦٠ م) . وتم إعلان سلطة الملك المطلقة ، في كانون الثاني ١٦٦١ م ، بـ (**الكونجيلوف**) أو القانون الملكي ، في ١٤ تشرين الثاني ١٦٦٥ م ، وهو دستور حقيقي يجعل من العاهل الدانياركي ملكاً وراثياً مطلق الحكم ، لوثرياً وبحق إلهي ، ويمهر الدانيارك إدارة حديثة ومركزية على النسق السويدي (هيئة وزارية في القمة ، وموظفون يسمون على رأس الأقاليم) . وفي عهد كريستيان الخامس (١٦٧٠ ـ ١٦٩٩ م) الذي أحاط نفسه بحاشية من الطبقة النبيلة من أصل ألماني ، تتابع التطور في اتجاه تعزيز الحكم المطلق على حساب الطبقة الأرستقراطية الدانياركية القديمة .

أما المشاكل الاجتماعية والاقتصادية فقد وضعت في مجموع البلاد الاسكاندينافية في حالة واحدة تقريباً : تركيز الملكية لصالح الطبقة النبيلة ، تفاقم ظروف الفلاحين ، مشاكل صناعية وتجارية . وإذا فقدت الطبقة النبيلة ، في آخر القرن السابع عشر ، معظم سلطتها السياسية لصالح الملكين اللذين أصبحا عاهلين مطلقي الحكم ، فقد احتفظت بالأساسي من ثروتها العقارية ، حتى في السويد ، لأن استرجاع الأراضي لم يجرد بحق إلا بضع أسر . وفي الوقت نفسه تفاقم وضع الفلاحين . وفي الحقيقة كانت الأحوال متنوعة بشكل كاف ، فقد كان الفلاحون السويديون أحراراً وممثلين في الركسداغ ، وفي الغالب ملاكين . وبالمقابل ظل الرق في الأقاليم البالطية والألمانية المنضمة إلى السويد . وفيما كان الفلاحون في الدانيارك أحراراً ، كانوا دون حقوق سياسية . ولكن الأعباء المفروضة على الفلاحين كانت ثقيلة كثيراً ، كالسخرات العديدة على أملاك الطبقة

النبيلة وعلى أملاك التاج ، وزيادة الضرائب ، وبخاصة في السويد . وأخيراً ، حاول العاهلان في المملكتين تنفيذ سياسة اقتصادية كبرى من النموذج المركانتيلي ، مع إنشاء مصانع وشركات تجارية ومحاولة استعمار (السويد الجديدة في أمريكا الشمالية) . ولكن هذه المحاولات الطموحة للغاية في بلاد ضعيفة الموارد في المال والرجال ، منيت بالإخفاق أمام منافسة الدول الاقتصادية الكبرى : هولاندا ، انكلترا ، فرنسا . وبالمقابل ، كانت الصناعة المنجمية والمعدنية في السويد مزدهرة جداً بتشجيع هيئة أو مجلس المناجم الذي أنشئ في ١٦٣٤ م ، وأسهمت في تفوق الجيش السويدي وساعدت على تصديرات مربحة من الحديد والنحاس .

وفي ١٦٩٧ م عرفت المملكتان الاسكاندينافيتان ، منذ ١٦٧٩ م ، سلاماً نافعاً ومفيداً بعد قرن من حروب لا تنقطع تقريباً . ولكن اعتلاء شارل الثاني عشر عرش السويد سيلقي بها في مغامرة ، ويعجل بعد (بولتافا) في ١٧٠٩ م ، بانحطاط المملكة السويدية .

بولونيا

في عهد سيجيسموند الثالث آل فازا (١٥٨٧ ـ ١٦٣٢ م) ، وفي عهد ابنه لاديسلاس الرابع (١٦٣٢ ـ ١٦٤٨ م) ، عاشت بولونيا آخر عقود عصرها الذهبي . فقد كثرت أمامها المشاكل الداخلية والخارجية . وأخفق سيجيسموند في محاولة لإقامة ملكية مطلقة ووراثية (١٦٠٦ ـ ١٦٠٩ م) وزاد على هذا النحو في حذر الطبقة النبيلة حيال التاج . وصحب تقدم الإصلاح المعاكس تسامح حقيقي حيال المذاهب غير الكاثوليكية الرومانية . ولكن تبعثر السوسينيانيين ، أتباع (راكوف) في ١٦٣٨ م كان أول نصر لعدم التسامح . ومن جهة أخرى ، نزع المجتمع إلى التجمد في طبقتين : طبقة نبيلة منطوية على نفسها بشدة وتحتكر الثروة العقارية ، وطبقة فلاحين بائسة تردت إلى الرق والعبودية . وكانت

الطبقة البورجوازية متعلمة وغنية بسبب نمو المدن والتجارة الخارجية في تصدير الحنطة والكتان ، بيد أنها كانت ضعيفة من الوجهة العددية .

وكانت المشاكل الخارجية أهم من غيرها في نظر عاهلي آل فازا اللذين ضحيا بالواقع البولوني لأحلامهما في عرشي السويد وموسكوفيا .

واضطر سيجيسموند إلى التخلي عن تتويج ابنه لاديسلاس (١٦١٠ ـ ١٦١٣ م) قيصراً ، كما اضطر أن ينحني أمام غوستاف ـ أدولف في هدنة التمارك ١٦٢٩ م . ولما أصبح لاديسلاس ملكاً دفع غزو الموسكوفيين (١٦٣٢ ـ ١٦٣٤ م) ، ولكنه تخلى عن كل مزاعمه في تاج القياصرة في صلح بوليانوف (١٦٣٤ م) .

ويطابق حكم جان ـ كازيمير الخامس آل فازا (١٦٤٨ ـ ١٦٦٨ م) ، الذي انتخب ملكاً عند وفاة أخيه ، انهياراً حقيقياً لبولونيا . فعلى التخوم الروسية ـ البولونية ـ التركية ، كان بعض الكوزاك في أكرانيا تابعين للقيصر ، وهم كوزاك نهر الدون ، والآخرون تابعين لبولونيا وهم كوزاك زابوروغ نهر الدنيبر . ومنذ آخر القرن السادس عشر قام البولونيون باستعمار منظم لأكرانيا على حساب الزابوروغ الذين دحروا رويداً رويداً ، وثاروا في ١٦٤٨ م تحت إدارة الهلمان (بودغان شميلنيكي) ، وطردوا البولونيين ووضعوا أنفسهم في ١٦٥٤م تحت حماية القيصر (الكسيس) وقبل هذا العرض الذي قدم له واستولى على **سمولنسك** وفيلنو ودخل ليتوانيا وأكرانيا . وأفاد ملك السويد شارل العاشر ـ غوستاف من الوضع واجتاح بولونيا الكبرى واحتلها لفترة بكاملها تقريباً . وليؤمن جان ـ كازيمير لنفسه مساندة ناخب براندبورغ ، تخلى عن سيادته على دوقية بروسيا ، فيما ساعدت رعشة قومية على دفع المجتاحين . ولكن الملك اضطر إلى التخلي إلى السويد عن ليفونيا الداخلية في معاهدة أوليڤا ، في ١٦٦٠م ، وإلى روسيا عن قسم من روسيا البيضاء مع سمولنسك وكل أكرانيا إلى شرق نهر الدنيبر مع كييف في معاهدة آندروسّوڤو ، في ١٦٦٧ م .

وغداة هذه السلسلة من الغزوات (الطوفان) كانت المملكة البولونية - الليتوانية في حالة يرثى لها : نقص في عدد السكان بمقدار الثلث أو النصف ، واجتياح مناطق بكاملها ، وتدمير مدن عديدة ، وانهيار التجارة الخارجية . وبالرغم من جهود التعمير ، لم تنهض أبداً من هذه المحنة الفظيعة . وأفاد جان كازيمير من دروس النكبة وحاول القيام بإصلاح المؤسسات بإحداث ضرائب دائمة وإلغاء (حق الرفض) الذي تبناه الدياط في ١٦٥٢ م ؛ ولكنه تسبب في ثورة الطبقة النبيلة ، وهجر مشاريعه ، وتنازل عن العرش في ١٦٦٨ م .

وبرد فعل قومي ، قرر الدياط عندئذ ألا ينتخب الدوق (دانغن) ، كما كان يؤمل جان كازيمير ، وإنما انتخب أميراً بولونياً ، ميشيل كوريبوت فيسنيوفيكي (١٦٦٩ - ١٦٧٣ م) الذي بدا غير قادر على مواجهة غزو تركي ، واضطر أن يتنازل للسلطان عن البودوليا وأكرانيا البولونية ، في ١٦٧٢ م . وفي السنة التالية سحق الماريشال (جان سوبيسكي) الأتراك في (شوسيم)[1] ، في ١١ تشرين الثاني ١٦٧٣ م . ثم انتخب ملكاً عند وفاة ميشيل في ١٦٧٤ م . وكان العاهل الجديد جان سوبيسكي (١٦٧٤ - ١٦٩٦ م) ذكياً شجاعاً وفارساً . ردَّ في ١٦٧٦ م ، غزواً تركياً جديداً ؛ وفي ١٦٨٣ م ، استجاب لنداء الامبراطور ، وقهر الجيش العثماني في (كالانبرغ) ، وأنقذ على هذا النحو فيّنا والمسيحية ديناً وبلاداً . وشغلته شدة الحرب ضد الأتراك ، فلم يستطع شيئاً من الإصلاح ضد الأمراض التي تعاني منها الدولة ، وتبددت أوهامه . ولكنه ظل متماسكاً . وقال في آخر حياته : « بإمكاني أن أحصل على انتصارات من حين لآخر ، ولكني أعترف بأني لا أملك أي وسيلة لإنقاذ بلدي » .

وعندما توفي في ١٦٩٦ م ، عن عمر يناهز السادسة والسبعين عاماً ، زادت الأسباب الداخلية في انحطاط بولونيا وبدا ضعف السلطة السياسية غير قابل

---

(١) (شوسيم Chocim) ، مدينة ، وتدعى أيضاً : (خوتين KHOTINE) .

للشفاء ، وعظمت الفوضى مستفيدة من حق الفيتو . وقد اضطر التعامل بهذا الحق معظم الدياطات والدياطات الإقليمية أن تنحل دون أن تقرر شيئاً . فمن ١٦٥٢ م إلى ١٧٠٤ م ، حل ٤٨ دياطاً على ٥٥ . بيد أن هذا الحق ظهر لمعظم النبلاء البولونيين فداءً للحرية التي يفاخرون بها .

وأدى التطور الاجتماعي غداة (الطوفان) إلى انهيار البورجوازية لانحطاط المدن والتجارة ، وإلى تعزيز الرق الذي آل إليه كل الفلاحين تقريباً ، وإلى سيطرة النبلاء السياسية والاقتصادية من ماغنات أثرياء وفي الغالب غير متعلمين ، وسيطرة طبقة نبيلة صغرى (الزلاختا) معوزة وغير مثقفة وأنانية ومشاغبة . ثم إن وجود شعوب مختلفة في داخل الدولة من بولونيين ، وليتوانيين وألمان وروس بقي عقبة أمام تعزيز الوحدة القومية . وأخيراً تفاقمت الانقسامات الدينية بواقع سياسة الإصلاح المعاكس حيال المذاهب غير الرومانية . فاليهود أبعدوا عن الدياط والمجالس الإقليمية والوظائف القضائية . والأرثوذكس الذين يؤلفون في المناطق المتاخمة لروسيا جمهرة فلاحية بائسة وأمية جاهلة ، تركوا وشأنهم . حتى ان الـ ٤ ملايين موحدين ، وهم روثينيون طقوسهم أرثوذكسية ، انضموا لروما (أي البابوية) في ١٥٩٦ م ، وكان الكاثوليك البولونيون ينظرون إليهم بحذر وسوء ظن . وكانت هذه المشكلة الدينية أكثر خطراً لاسيا وأن المنشقين والمستائين من المصير الذي سوّي لهم ، اضطروا إلى البحث عن حماة فيما وراء الحدود ، البروتستانت في براندبورغ بروسيا ، والأرثوذكس والموحدون في روسيا .

روسيا

بعد أن أصبح ميشيل رومانوف قيصراً في ١٦١٣ م ، بعد دور م عرفته روسيا ، أخذ يهتم بالتهدئة الداخلية والدفاع الخارجي عن البلاد

في عمله هذا أبوه (فيدور) الذي انتخب بطريركاً لموسكو تحت اسم (فيلاريت) وكشف عن رجل دولة سلطوي بصير . اعتمد على (الزمسكي سوبور) (المجلس التمثيلي) وعرف كيف يداريه ، وكيف يقمع تجاوزات (الفويفود) ، حكام الأقاليم ، ونظم الشؤون المالية ، ووضع سجلاً عاماً لأملاك بلده ، وزاد عدد الستريلتسي[1] (جنود القيصر) ، وشجع النشاط الاقتصادي ، وعزز نظام التسلسل في الكنيسة الأرثوذكسية .

وعند وفاة ميشيل ، خلفه ابنه اليكسيس (١٦٤٥ ـ ١٦٧٦ م) . كان مثقفاً وفكراً منفتحاً ، ويعتبر من أعظم قياصرة روسيا ، وحاول القيام **بإصلاحات هامة** . وعزز بقانون ١٦٤٩ م سلطات العاهل على حساب (الزمسكي سوبور) ولم يدعه للانعقاد بعد ١٦٥٣ م . ونظم إدارة مركزية قوية على رأس مجموعة وزارات يوجهها البويارد أو (البويار) أي : نبلاء البلاد . وحدد حقوق وبخاصة واجبات مختلف الطبقات الاجتماعية ، وكرس ارتباط الفلاحين بالأرض . وفي ١٦٦٧ م ، وفي ختام حرب دامت ثلاث عشرة سنة ضد بولونيا أصبحت أكرانيا في شرق نهر الدنيبر وكييف روسية . وفي آسيا تتابع اكتشاف سيبريا واحتلالها . وتم الوصول إلى المحيط الهادئ وأنشئت (اوخوتسك) . وبدأت المدن ، والحصون ، والحقول الزراعية تساير مجاري الماء . ولكن محاولات تنظيم روسيا في دولة مركزية وازدياد الضرائب واسترقاق الفلاحين تسببت في قيام ثورات شعبية هائلة : في موسكو في ١٦٤٨ م وفي ١٦٦٢ م ، وفي نوفغورود في ١٦٥٠ م ، وأخطرها ثورة كوزاك الدون تحت إدارة (ستنكا رازين) . ولم تكن الحركة موجهة ضد القيصر نفسه ، وإنما ضد الموظفين والملاك النبلاء . وسرت هذه الحركة سريان بقعة الزيت ، وعمت القسم الأعظم من روسيا إلى أن قبض على رازين وأعدم في موسكو (١٩٦٩ ـ ١٦٧١ م) .

---

(١) ستريلتسي STRELTSI (جنود القيصر)

وترك اليكسيس عند وفاته من زواجه الأول بـ (ماريا ميلوسلافسكي) ، ولدين : (**فيودور**) و (**إيفان**) ، وعدة بنات منهن **صوفيا** ؛ ومن زواجه الثاني بـ (ناتاليا ناريشكين) ، ولداً آخر ، بطرس المولود في ١٦٧٢ م . ووفاقاً لإرادة القيصر الراحل ، خلفه فيودور ، وعمره ١٤ عاماً ، ومات عن ٢٠ عاماً بعد حكم قصير (١٦٧٦ ـ ١٦٨٢ م) مارس السلطة فيه تباعاً أسرة ميلوسلافسكي مع صوفيا ، ثم أسرة ناريشكين المنفتحة جداً على الأفكار الغربية . وانتخب فيودور ، بتأثير ناتاليا ، بطرس ليكون خلفاً له ، ولكن (الستريلتسي) ثاروا وطالبوا بأن يعهد بالتاج إلى نصفي الأخوين **إيفان وبطرس** معاً تحت وصاية أختهما صوفيا (أيار ١٦٨٢ م) . وكانت هذه طموحة وقوية ، انقلبت على الستريلتسي وزعيمهم الأمير القوي (خوفانسكي) ، وأوقفت هذا الأخير وقطعت رأسه . وفيما أبعد بطرس وأمه ناتاليا إلى أبواب العاصمة بالقرب من (السلوبودا) ، ضاحية الأجانب ، أقامت صوفيا وإيفان في قصر (الكرملن) . بيد أن إيفان كان ساذجاً ، ولذلك حكمت صوفيا وعشيقها الأمير (غوليتسين) وقررا بخاصة الانضمام إلى (**الرابطة المقدسة**) ضد الأتراك في ١٦٨٦ م والتفاوض مع الصين بالتنازل عن منطقة نهر (آمور) (١٦٨٩ م) . وفي أيلول ١٦٨٩ م ، بلغ بطرس السابع عشرة من عمره وتخلص من صوفيا وسجنها في دير دون القيام بشيء ضد إيفان ، الذي توفي في ١٦٩٦ م ، وقرر أن يحكم مع أمه ناتاليا .

وفي التاريخ الذي استلم فيه بطرس الأول السلطة لم تلامس روسيا بعد البحر البالطيك والبحر الأسود ، ولكنها شملت سمولنسك وجزءاً من روسيا البيضاء ، وكييف وأكرانيا الشرقية كلها ، وبلغت القوقاز وبحر الخزر وغطت آسيا الشمالية كلها حتى المحيط الهادئ . وحاول أوائل آل رومانوف ، وبخاصة أليكسيس أن يجعلوا من هذه المجموعة الواسعة دولة مركزية وحديثة ، المحافظة على خط التقاليد القومية : فمن ذلك أن إدخال المطبعة إلى موسك بداية القرن شجع على توسيع التعليم نسبياً ونشأ الأدب الروسي بخاصة مع ا

التي وضعها رئيس الكهنة (آفاكوم) ترجمة لحياتـه (١٦٧٢ ـ ١٦٧٥ م) . وأنتج فن العمارة المـدنيـة إبـداعـات أصيلـة ، وبخـاصـة في مـوسكـو وفي يـاروسـلاف . وأصبحت الحياة المادية أكثر راحـة ، في الطبقـات الغنيـة على الأقل . وفي الوقت نفسه ، بدأت التأثيرات الأوربية تنفـذ إلى المجتمع الروسي ، ولكن تطوره جنح إلى مقاومة أوربة الغربية بصورة عميقة .

وفي الواقع ، خـارجـاً عن بورجوازيـة كبرى تجـاريـة في طريـق التشكيـل وقليلة العدد بعد ، كانت هنالك طبقتان تـدخلان وحـدهـا في الحسـاب وهـا : الطبقـة النبيلـة وطبقـة الفلاحين . وكان النبلاء ، الـذين كانت ثروتهم عقـاريـة بصـورة أسـاسيـة ، ملـزمين بخـدمـة القيصر كـموظفين ، ولا سيا البـويـار ، أو كعسكريين . ومقابل هذه الخدمـات كانوا يتمتعون بحقوق هـامـة أكثر فـأكثر على الفلاحين . والواقع أن حالة هؤلاء مافتئت تنحط منذ آخر القرن السادس عشر . وأتم قـانـون ١٦٤٩ م تـأسيس الاسترقـاق بحـذف كل تقـادم في حـق البحث عن الفلاحين الفـارين . وهكـذا ارتبـط الفلاح الروسي بشـدة في الأرض ، وحرم من معظم الحقوق المـدنيـة ، فلا يستطيع الحضـور أمـام الهيئـة القضـائيـة للمرافعـة ، وأصبح قنـاً لا يشرى أو يبـاع ، كما سيحـدث انطـلاقـاً من القرن الثـامن عشر . وسواء أعاش على ملك التاج أم ملـك الكنيسـة أم أرض نبيلـة ، فعليـه أن يـدفع للأمير (سنيور) جزءاً من محـاصيلـه وأن يقوم بسخرات إلزاميـة على أرض الأمير الخاصة . وبقي فلاحو الشمال وسيبريا وحـدهم أحراراً . ولم تفرض هـذه العبوديـة دون مقـاومـة : فكثير من الأقنـان فروا فرادى إلى أراضي سيبريـا أو أكرانيـا ، وكثيرة ما كانت الثورات الجماعيـة أيضـاً . وهـذه المقـاومـات توضح جزئيـاً نجـاح الحيـدة الكبرى أو (الراسكول) التي عرفتهـا الكنيسـة الروسيـة في القرن السـابع عشر .

وغـداة « زمن الاضطرابـات » ، تعـالت صيحـات المطـالبين بـإصلاح عميق

للكنيسة بعد أن أقلقهم تقدم الزندقة والتطير ، وعدم كفاية الاكليروس الأبيض (الكهنة الروس) غير المثقف والفاجر ، وانحلال النظام الرهباني .

وفيما كان بعضهم ، مثل (نيكون) الذي عين بطريرك موسكو في ١٦٥١ م ، يرون أن الإصلاح يجب أن يكون سلطوياً بمساندة الدولة ويهتم بخاصة بتعليم الكهنة الروس والمؤمنين وبتطهير بعض الطقوس الليتورجية بالاستلهام من تعاملات الكنيسة الإغريقية ، يرى الآخرون المتعلقون جداً بالتقاليد ، مثل رئيس الكهنة آفاكوم وجماعة (أحباء الله) ، أن الإصلاح يجب أن يكون بصورة أساسية تعمقاً بالإيمان الأرثوذوكسي الروسي القديم . وظل الخلاف عتيداً زمناً طويلاً وانفجر في ١٦٥٣ م بسبب الإصلاحات التي أدخلها نيكون بمساندة القيصر أليكسيس ، مثل : مراجعة الكتب الدينية الخالية من أخطاء النساخ الكثيرة ، وتبني إشارة الصليب بثلاث أصابع عوضاً عن اثنتين ، تحريم الضراعات المتعاقبة ، وإدخال البوليفونيا) أي الموسيقا الصوتية الميلودية الدخيلة من بولونيا ، والتبشير والوعظ في الكنائس . وقد احتج السواد الأعظم من الشعب تبعاً للكهنة والعديد من الرهبان ، ضد هذه (التجديدات) . المقتبسة عن الكنيسة اليونانينة (الأغريقية) والمشبوهة ، في نظر بعضهم بأنها (بدع لاتينية) . ودعم أليكسيس نيكون واستصوب إصلاحاته ، وعاقب خصومه . ونفى آفاكوم إلى سيبريا في ١٦٥٦ م ، ولكنه غضب من طرقه الاستبدادية وأجبره على الاستقالة ونفاه في ١٦٦٤ م .

بيد أن الإصلاحات على الأقل بقيت وأيدها علناً مجمع كبير ضم الأحب الروس والاغريق ولعن (الإيمان القديم) وحرم المدافعين عنه والمتمسكين (١٦٦٦ م) . ولكن (المؤمنين القدامى) أنكروا كل حق لمجمع غير حصراً ، ورفضوا الخضوع . وتمت الحيدة (الانفصال) عندئذ . فعلى كنيسة رسمية تخضع أكثر فأكثر للدولة ، أراد جزء من الشعب أن

لـ (الإيمان القديم) ولأعرافه ، ولقيمه الدينية والروحية . وذهب هذا الوفاء عند بعض (المنشقين) حتى (رفض العالم) وفساده ، ونصحوا باللجوء إلى الصحراء .

وهكذا ، نرى الراسكول ، خارجاً عن محتواه الديني ، ورغماً عن كل الاضطهادات التي قامت ضده ، انقسم إلى فرق عديدة ، وأسهم عند الشعب الروسي في إبقاء موقف الانطواء على الماضي والاحتجاج الفوضوي والمناصر للمساواة ضد المركزية والقنانة وكل المستجدات .

الفصل الثاني

العالم خارج أوربة

١ ـ آسيا وافريقية

لقد عرفت الامبراطورية العثمانية والامبراطورية الفارسية ، الدولتان المسلمتان المتنافستان ، بدايات انحطاط بطيء في القرن السابع عشر ، فيما كان تقدم رق الزنوج في افريقية السوداء يحكم بالتخلف على مجموع القارة .

الامبراطورية العثمانية

كانت الامبراطورية العثمانية ، بأصلها وحضارتها وامتدادها الأرضي آسيوية وأفريقية أكثر منها أوربية . لقد نشأت في سهوب تركستان ، وامتدت نحو ١٦٠٠ من الحدود الجزائرية ـ المراكشية إلى العراق ، ومن السهل الهونغاري إلى شبه جزيرة العرب . وتاريخها في القرن السابع عشر تاريخ انحطاط بدأ منذ سنوات ١٦٠٠ م وما فتئ يتفاقم في النصف الأول من القرن ، ثم توقف بين ١٦٥٦ و ١٦٧٦ م ، وبعد ذلك تراجع بصورة لا شفاء له .

كان السلطان أحمد الأول (١٦٠٤ ـ ١٦١٧ م) في عراك حرب جديدة ضد الفرس ، ومع عدة ثورات داخلية في الأناضول وسورية ولبنان . قد استطاع وزيره الأعظم العجوز مراد باشا ، بدبلوماسيته ومهارته أن يوطد الحالة جزئياً : سحق ثورة السوريين ودروز لبنان ، وفي ١٦١٨ م ، وقع السلام مع فارس . وبموجبه تخلت تركيا عن منطقة تبريز التي فتحتها في القرن السادس عشر . ومن

جهة أوربة المسيحية ، وقع سلام (**سيتفاتوروك**) مع الامبراطور في ١٦٠٦ م ، ودام هذا السلام خمسين عاماً ؛ لأن الامبراطور الهابسبورغي كان منهمكاً في حرب الثلاثين عاماً ، والأتراك غير قادرين على كسب الوضع . وخلف أحمد الأول أخوه مصطفى ، ولكن عثمان ابن أخيه أحمد خلعه عن العرش ونودي به سلطاناً في ١٦١٨ م . كان **عثمان الثاني** (١٦١٨ ـ ١٦٢٢ م) هذا رجلاً قوياً ، وواعياً لضرورة القيام بإصلاحات عميقة . ولكنه عندما أراد أن ينظم من جديد جيش الانكشاريين ويفرض عليهم العودة إلى النظام السابق الشديد والدقيق ، تسبب في ثورتهم وفي سقوطه الخاص . فقد أسر وشنق في أيار ١٦٢٢ م ، وحل محله على العرش عمه مصطفى السلطان المخلوع . وكانت **ثورة القصر** هذه أول مثل ، وليس الأخير ، لخلع السلطان وإعدامه على يد الانكشارية . لقد وعى هؤلاء قوتهم ، وأرادوا فرض إرادتهم كلما سمح بذلك ضعف السلطان أو الوزراء العظام .

وتوفي مصطفى الأول في السنة التالية وخلفه أخو عثمان ، مراد الرابع (١٦٢٣ ـ ١٦٤٠ م) ، ولم يكن له من العمر غير اثني عشر عاماً في ١٦٢٣ م ، وكانت السلطانة ـ الأم تدير شؤون الدولة في السنوات التسع الأولى من حكمه . وضخمت فترة قصور السلطان الفوضى ، فأعاظم الوزراء دون سلطة ، والجنود تهدد بالثورة دون انقطاع ، وعادت الحرب الأهلية في الأناضول ، وبدأ الفرس بالعداء ، واجتاحوا العراق ودخلوا بغداد في ١٦٢٣ م ، وفي ١٦٣٢ م ، قرر مراد الرابع أن يأخذ شؤون الدولة على عاتقه ، وناضل بقوة لاترحم ضد الفوضى الداخلية ، وقمع جميع الثورات ، وفرض إرادته على الانكشارية ، وأعاد النظام في المالية . وفي الخارج ، قاتل الفرس واستعاد تبريز وبغداد . ولكنه توفي في شباط ١٦٤٠ م . وكان خلفه إبراهيم الأول مجنوناً فظيعاً شرساً وفاجراً ، وفي ثمانية أعوام من الحكم ، طرح على بساط البحث كل العمل الذي قام به مراد ، قبل قتله في ٨ آب ١٦٤٨ م ، وحل محله محمد الرابع وكان طفلاً له من العمر سبعة أعوام . وكان الاضطراب في أقصاه . كانت أم السلطان وجدته تتنازعان على السلطة ،

ويتعاقب أعاظم الوزراء دون أن يكون لهم وقت للعمل . فقد عدّ تسعة منهم في أربعة أعوام . وكان جيش الانكشارية في عز تفسخه وانحلاله ، ولم يسق رجاله من بين الأطفال المسيحيين ، لقد كانوا يتزوجون ، ويقيمون حيث يريدون ، حتى ويبيعون وظائفهم إلى مستحدثين ، عمال يدويين ، أو أصحاب دكاكين مأخوذين بالامتيازات المتعلقة بها . ففي استامبول ، ثارت طوائف المهنيين مرات مختلفة ؛ واعتبر كثير من حكام الأقاليم أنفسهم مستقلين عملياً . وأصبح فساد الوظائف جارياً . وثارت الأناضول من جديد . وعدل عن حصار كانديا (كريت) التي كان البنادقة يدافعون عنها (١٦٤٥ ـ ١٦٤٩ م) . غير أن تدخل صدرين أعظمين قويين ، في حينه ، أوقف الفوضى لزمن وقوّم الوضع بشكل أصبح مضرب المثل ، ولكن هذا التقويم كان وقتياً ولم يدم .

وفي ايلول ١٦٥٦ م ، سمى محمد الرابع صدراً أعظم باشا البانياً بسيطاً عمره ٧٥ عاماً وهو محمد كوبرولو (أوكوبرولي) ، ووضع هذا شرطاً ، لقبوله التكليف ، وهو إمكان العمل بكل حرية . حكم بالإرهاب الظالم حتى لقب بالفظيع أو الشرس ، واستطاع في خمسة أعوام أن يعيد النظام ، ويجعل الباب العالي من جديد مهاباً من جيرانه . وعند وفاته في ١٦٦١ م ، خلفه ابنه أحمد كوبرولو صدراً أعظم ، وكان يلقب بـ (السياسي) ، وتابع خلال خمسة عشر عاماً (١٦٦١ ـ ١٦٧٦ م) عمل والده ، ولكن بكثير من الإنسانية وحسن الإدارة والتدبير . لقد كان الأب وابنه بعيدين عن الفساد والرشوة ، ونظما جيوش الانكشارية والسباهية وأجبرا البكوات والباشوات على الطاعة ، ووطدا النظام في الأناضول . وكان كوبرولو الثاني عالماً مثقفاً ومتسامحاً ، راعى المسيحيين وشجع الآداب والفنون . وفي الوقت نفسه استردت تركيا قدرتها القتالية ، ففي ١٦٦١ م . تغلغل كوبرولو الثاني في ترانسلفانيا ، ثم اجتاح هونغاريا الملكية مع ١٢٠٠٠٠ رجل . ولكنه غلب في (سان ـ غوتار) ، على نهر (الراب) ، في الأول من آب ١٦٦٤ م ، على يد الجيش النمساوي الذي كان يقوده

(مونتكوكولي) وتعززه جنود أجنبية ، وبخاصة فرنسية . ولكن خصومه لم يستطيعوا استغلال انتصارهم ، ووقعوا ، في ١٠ آب ١٦٦٤ م ، معاهدة (ڤاسڤار) التي أبرمت لعشرين عاماً ، وتؤكد على استقلال ترانسلفانيا الذاتي تحت السيادة التركية . وفي ٢٧ ايلول ١٦٦٩ م ، وبعد حصار طويل ، استولى كوبرولو الثاني على كريت (كانديا) التي كان يدافع عنها الدوج (كونتاريني) وفرقة فرنسية . واضطرت البندقية أن توقع السلام وتتخلى عن كريت للعثمانيين ، وفي ١٦٧٢ و ١٦٧٦ م ، قامت حربان منتصرتان ضد بولونيا وساعدتا تركيا على ضم (البودوليا) وجزء من أكرانيا .

ولكن هذا النهوض غير المنتظر كان قصير الأمد . ففي ١٦٧٦ م ، أصبح صهر كوبرولو الثاني ، قره مصطفى ، صدراً أعظم ، ولكنه كان غريب الأطوار بخيلاً ولصاً ، وأعدم في ١٦٨٩ م . ومن بعده انتقلت الصدارة العظمى إلى كوبرولو ثالث وهو مصطفى الملقب بالفاضل . كان شجاعاً ، ذكياً ، ونزيهاً . غير أن حكمه كان قصيراً جداً (١٦٨٩ ـ ١٦٩١ م) ولم يستطع أن يجنب الانحطاط . وكان خلفاء محمد الرابع ، الذي خلعه الانكشاريون في ١٦٨٧ م ، سلاطين غير أكفاء ، وعاد في عهدهم التفسخ الداخلي وتسارع . وفقد الإسلام إشعاعه لدرجة أن اليونانيين في النصف الثاني من القرن بدؤوا بالتغلغل في التسلسل الإداري دون اعتناقهم الإسلام . وأخطر من ذلك بكثير بداية الانطواء في أوربة الوسطى . ففي ١٦٨٢ م ، أراد الأتراك الإفادة من مشاكل الامبراطور في هونغاريا الملكية ، فقرروا القيام بالهجوم ، وتحت إدارة قره مصطفى حاصروا فيّنا ، في تموز ١٦٨٣ م . وقاومت المدينة ببطولة ، وسحق جيش نمساوي تعززه جنود بولونية بقيادة (جان سوبيسكي) العثمانيين في معركة (كالانبرغ) ، في ١٢ ايلول وأجبروهم على الرجوع القهقرى حتى بلغراد . وكان لهذه الهزيمة التركية وقع عظيم في أوربة المسيحية كلها . وفي السنة التالية ، وبإيحاء من البابا تألفت رابطة مقدسة ضمت الامبراطور ، والبندقية ، وبولونيا ، وبعد قليل انتظمت

الروسيا ضد الأتراك . وبينا كان الروس يهاجمون في القرم ، والبنـادقـة في موره وفي الاتيك (هدمت البارتنون جزئيـاً في ١٦٨٧ م) أنهى الامبراطوريون بقيـادة (أوجين دو سافوا) فتح هونغاريا وأخـذ (بودا) في ١٦٨٦ م ، ودخلوا بلغراد في ١٦٨٨ م ، غير أن حرب عصبـة أوغسبورغ ، التي حولت الامبراطور عن الشؤون الشرقية ، مكنت الأتراك من استعـادة بلغراد ، في ١٦٩٠ م ، وطرد البنـادقـة من مـوره ، ولكن في ١١ ايلـول ١٦٩٧ م ، سحـق الأمير أوجين جيشـاً تركيـاً في (زنتا) ، في هونغاريا ، وفي السنـة السـابقـة ، استولى بطرس الأكبر على مينـاء آزوف . وفي هـذه الظروف ، قبل الأتراك وسـاطـة انكلترا والأقـاليم ـ المتحـدة ، ووقعوا في ٢٦ كانون الثاني ١٦٩٩ م ، معاهدة (كارلوفيتز) وبموجبهـا تخلوا للنمسـا عن ترانسلفانيا وهونغاريـا دون بـانـات تيمسفـار ؛ وعن موره وقسم من الشـاطئ الدالماسي إلى البندقيـة ، وعن آزوف إلى روسيـا ، وأعـادوا البودوليـا وأكرانيـا إلى بولونيا . وبدأ التراجع العثماني في أوربـة ، وكان علامـة مؤشرة لانحطـاط لاعلاج له .

الامبراطورية الفارسية

بلغت فارس في عهد الشاه عباس الأول الملقب بـالكبير (١٥٨٧ ـ ١٦٢٩ م) قمة أوج السلالة الصفوية ، ثم بدأت الظواهر الأولى لانحطـاط بطيء . لقـد أبعـد الشاه عباس أولاً التهديد الـذي كان يثقل بـه مختلف جيرانـه المسلمين على بلاده . ويأخـذ هؤلاء الجيران على الفرس شيعيتهم ويطمعون بطرق التجـارة التي تمر عبر فارس وتصل آسيا بشرقي البحر المتوسـط ، وهي الطريق البري للهضبـة الإيرانيـة والطريق البحري للخليـج العربي . وسـاعـده تنظيم الجيش ، بفضـل الاستعـانـة بـالمـدربين الإنكليز ، على قهر أوزبـك تركستـان في هرات (١٥٩٧ م) وإنهـاء غزواتهم السنوية في شمال البلاد ، في خراسان . ولحماية المنطقة ، أقام فيها ٢٧٠٠٠ عـائلـة كرديـة وأرمنيـة . ثم التفت إلى الأتراك واسترجع في ١٦٠٢ م تبريـز

وأذربيجـان ، ثم في ١٦٢٣ م بغـداد وجزءاً من العراق . وفي ١٦٢٢ م ، قهر جيوش أكبر المغولي واستولى على قنـدهـار . وفي السنـة نفسهـا طرد البرتغـاليين من هرمز بمساعدة الإنكليز ، وخول هؤلاء مكانة ممتازة في المينـاء الكبير . وكان عبـاس أميراً متسامحاً ، استقبل بالألوف الأرمن المطرودين من تركيا ، وعقد الصلات مع كثير من الـدول الأوربيـة ، ولاسيا انكلترا . ويرجع ازدهـار فـارس إلى هـذه الصلات بصـورة واسعـة . وفي الحقيقـة ، كان التجـار الانكليز يصـدرون من مينـاء **بنـدر عباس** ، الذي حل محل ميناء هرمز ، نحو الشرق الأقصى ، وبخاصـة نحو أوربـة ، المنتجات الفارسية : الحرائر ، والسجـاد ، والمـاس ، واللؤلؤ ، ويـأتون إلى فـارس بأجواخ انكلترا وهولندا ، والـدانتلا والمرايـا من البنـدقيـة ، والأدوات النحـاسيـة الإنكليزية . واستجاب الفنانون الأوربيون لدعوة العاهل ، واشتغلوا في العـاصمـة الجديدة أصفهان التي كانت موضع إعجاب السياح جميعاً مثل الفرنسي (شـاردن) الذي أقام فيها مرتين بين ١٦٦٥ و ١٦٧٧ م .

ففي البنـاء والنحت ، وفي السجـاد والمنمنـات ظفر فن أصيـل امتزجت فيـه التأثيرات الآسيوية والأوربية . واشتهرت اللغة الفارسية ، بشعرائها ومؤرخيهـا ، وكان العالم الإسلامي في أفريقيا وآسيـا ، يتكلم بهـا . وبلغ الازدهـار الاقتصـادي والحضارة الفكرية والفنية الأوج في عهد الشاه عباس .

بدأ الأفول بعد الشاه عباس . فقد هيـأه بنفسه بتحديـه المرضي وفظـاعتـه اللذين ذهبا به إلى قتل إخوته الثلاثة وسمل عيونهم . ومن جهـة أخرى ، لم ينجح بأكثر من السلاطين الأتراك في إعطاء الـدولـة بنيـة صلبـة ونـافـذة ، وظل يعتبر رعـايـاه أنـاسـاً مغلـوبين وخـاضعين لمحـاربين منتصرين ، والامبراطـوريـة ملكاً لـلاستغـلال . وتربى خلفـاؤه الشـاه صفي (١٦٢٩ ـ ١٦٤٢ م) وعبـاس الثـاني (١٦٤٢ ـ ١٦٦٧ م) ، وسليمـان (١٦٦٧ ـ ١٦٩٤ م) ، بين الخصيـان والنسـاء ، وكانوا عاجزين ودمويين وفـاسـدين فـأفسـدوا العمل المنجز . وأسيئت أعطيـات

الجيش فاضطرب نظامه . وتاجر حكام الأقاليم بوظـائفهم . وفي هـذا الحين ، كان الأوربيون يتنازعون على المكان الأول في تجـارة فـارس . وأفـاد الهولانـديون من انطواء الإنكليز أثناء الحرب الأهليـة ، فحلوا محل منـافسيهم انطلاقـاً من ١٦٤٥ م وحصلوا على حصر تجارة الحرير واستثنـائهم من الرسوم الجمركيـة . ولكن شركـة الهنـد الفرنسيـة ، التي تـأسست في ١٦٦٤ م ، استطـاعت أن تحصـل على فـوائـد مشابهة . وفي ١٦٨٣ م ، حصل لويس الرابع عشر على امتيـاز يعترف بـه حـامياً للمسيحيين ، وبخاصة الأرمن الذين يعيشون في الامبراطورية . وأخطر من ذلـك الخطر الخارجي . فقد استرد الأتراك بغداد والعراق في ١٦٣٨ م ، وعـاد الأوزبـك إلى أعمال النهب والسلب في خراسان . وفي الشرق ، سئم الأفغان المسلمون السنيون معاملتهم كتابعين وأخذوا يتحركون . وأخيراً ، ظهر ، في الشمال ، تهديد جـديـد في آخر القرن ، وهـو خطر الروس الـذين أخـذوا يتهيـؤون من بحر الخـزر إلى الهجوم على فارس . وصـدقت كلمـة شـاردن حين يقول : « لا ازدهـار بعـد وفـاة الشاه عباس العظيم » .

أفريقية

في أفريقية الشمالية كانت الوصايـات الثلاث : طرابلس ، تونس ، الجزائر ، من الوجهة النظرية ، أقاليم من الامبراطورية العثمانيـة وتـدار وتسير كغيرهـا من الأقاليم الأخرى . أمـا في الواقع ، فقـد أدى البعـد عن القسطنطينيـة إلى استقلال هذه الدول عملياً . كان الباشاوات يعينون كل ثلاثة أعوام من قبل السلطان ، غير أنهم كانـوا دون سلطـة . ففي الجزائر كانت مجالس الانكشـاريـةالترك السـادة الحقيقيين . وابتـداء من ١٦٧١ م ، كان الـدايـات ينتخبـون مـدى الحيـاة . ففي تونس ، كانت السلطة بأيدي البكوات زعماء الجنود المحليين . وظلت القرصنة في البحر المتوسط وحتى الأطلسي نشـاطـاً أسـاسيـاً ، فمن ١٦١٩ إلى ١٦٢٧ م ، سيقت ٩٣٦ عمـارة أوربيـة إلى مينـاء الجزائر وحـده . ومن حين لآخر ، كانت تنظم

تجريدات مسيحية انتقامية ، ولكن دون كبير نجاح : في ١٦٠١ م ، أخفق أندريا دوريا ضد الجزائر ؛ وفي ١٦٠٧ م استولى (سيلفيو بيكّولوميني) لبعض الوقت على (بونه) ؛ وفي ١٦٦٤م ، أخفق الدوق دو بوفور في الهجوم على (**جيجيللي**) ؛ وقصف الفرنسيون الجزائر بالقنابل في ١٦٦٥م ، والإنكليز في ١٦٦٨م ، وفي ١٦٧١ م ، وقصفها الفرنسيون من جديد في ١٦٨٢ م وفي ١٦٨٤م ؛ وقصفت طرابلس أيضاً في ١٦٧١ م وفي ١٦٩٢ م . غير أن بعض البلاد ، مثل السويد والأقاليم ـ المتحدة ، فضلت أن تشتري بالذهب حرية ملاحتها ، ووضع وجود عدة أسرى في الموانئ المغربية ، بالنسبة للأوربيين ، قضية وجدانية خطيرة : ففي الواقع ، إذا استطاع الأسرى الأغنياء أن يتحرروا بدفع فدية ، فإن الآخرين ليس لهم هذا المورد ، وينتهون في الغالب باعتناق الإسلام والبقاء في البلاد حيث هم . وأدت هذه الحالة في الماضي إلى خلق أعمال لفدية الأسرى . ففي ١٦٤٦ م كلف العازاريون أو (كهان الإرسالية) رسمياً بقنصليتي الجزائر وتونس ؛ وبهذه الصفة ، كانوا حتى ١٦٧٦ م وسطاء مقبولين لدى السلطات المحلية لافتداء الأسرى المسيحيين .

في غرب المغرب ، ظلت مراكش مستقلة تماماً عن تركيا . وعند وفاة أحمد المنصور ، في ١٦٠٣ م ، تنازع ثلاثة من أبنائه على السلطة ؛ وبعد حذف أحدهم تقاسم الآخران البلاد التي وجدت ، كما في القرن الخامس عشر ، منقسمة إلى مملكتين ، **فاس ومراكش** . وفي الواقع ، كانت السلطة الحقيقية بيد المرابطين . وأكثر من ذلك ، ان هجرة المسلمين الكثيفة الذين طردهم من اسبانيا فيليب الثالث في ١٦٠٩ ـ ١٦١٤ م وضعت قضية هائلة ، لأن القادمين الجدد أسيء اندماجهم في مجتمع يختلف جداً عن مجتمعهم في شبه الجزيرة الإيبرية . وبعد نصف قرن من الفوضى ، قامت أسرة قوية من منطقة تافيلالت أو (تافيليلت) . في الصحراء المراكشية ، في جنوب جبال الأطلس العليا ، وهي أسرة العلويين ، وأعادت توطيد النظام ، ونودي بمولاي الرشيد سلطاناً في ٦ حزيران ١٦٦٦ م ،

وفي أربعة أعوام ، وحّد من جديد مراكش كلها تقريباً . وكان أخوه وخلفه مولاي إسماعيل (١٦٧٢ ـ ١٧٢٧ م) أعظم السادة العلويين . بدأ بإعادة النظام بالإرهاب غالباً . وأدت به حاجاته للمال وبخاصة لبناء عاصمته الجديدة ، مكناس ، إلى فرض ضريبة ساحقة على رعاياه . وأعاد تنظيم الجيش من جديد بفضل ٤٠٠٠٠ زنجي رقيق مجمعين في ٧٦ حصناً منتشرة عبر البلاد . وكان بطل الإسلام ، واستأنف الحرب المقدسة ضد المواقع المسيحية على الشاطئ المراكشي : استولى على العرايش ، ولكنه أخفق أمام سبتة ومليلة . وفي الوقت نفسه أقام علاقات تجارية مع انكلترا وهولندا وبخاصة فرنسا ووقع معها معاهدة صداقة ظلت دون غد .

وفيما وراء الصحراء الكبرى ، عرفت **أفريقية السوداء** ، خلال قرن من الزمن دور **امحاء وانحطاط** . ونتج هذا أولاً عن تدمير امبراطورية (غاو) على أيدي المراكشيين بين ١٥٩١ و ١٦٠٥ م ، ولكن هؤلاء كانوا بعد قليل ، غير قادرين على البقاء في البلاد بسبب الفوضى التي وقعت فيها . وأفادت القبائل الرحل البيضاء ، الطوارق ، في الصحراء ، من هذه الحالة ، فأكثرت غزواتها وهجماتها على مدن النيجر وفيما وراء النهر ، وأثقلت بتهديدها الدائم ، بين النيجر وتشاد ، على المدن التجارية الغنية في دول (هاوسّاس) وعلى امبراطورية (بورنو) الإسلامية . والسبب الآخر في انحطاط أفريقية السودانية يكمن في وجود تيار مزدوج للرق : أحدهما نحو البحر المتوسط والامبراطورية العثمانية انطلاقاً من المناطق التشادية ، والآخر نحو خليج غينه والعالم الجديد انطلاقاً من المناطق القريبة من الشاطئ . وكان هؤلاء الأفارقة البائسون ، مأخوذين بين الباب العالي والهند . ومنذ منتصف القرن السادس عشر ، أصبح الشاطئ الأطلسي لأفريقية ، بين الرأس الأخضر وآنغولا ، خزاناً للأرقاء من أجل مناجم ومزارع العالم الجديد . وعلى شاطئ خليج غينة ، من الرأس الأخضر إلى نهر الكونغو ، خلف الهولانديون ، انطلاقاً من سنوات ١٦٠٠ م ، البرتغاليين واحتلوا

بخاصة مراكز الميناء ، وويداه أو (جودا) ثم بدأ هذا الشبه ـ حصر أكثر فأكثر ، انطلاقاً من ١٦٧٠ ـ ١٦٨٠ م بيد الإنكليز وممثلي الدول الأوربية الأخرى : فرنسا ، الدانيمارك ، براندبورغ . وبالمقابل ، استطاع البرتغاليون البقاء والتماسك في جنوب نهر الكونغو ، في المملكة الصغيرة المسماة بهذا الاسم ، وكانت في عز انحطاطها ، وعلى شاطئ أنغولا ، في (لواندا) وفي (بنغلا) التي أنشئت في ١٦١٧ م . ومهماتكن قوميات هؤلاء النخاسين الأوربيين فقد استعملوا جميعاً طرقاً واحدة : وهي أنهم ما كانوا ليبحثوا أبداً بأنفسهم عن أرقائهم ، وإنما يقايضونهم مع وسطاء على الشاطئ مقابل السلع الأوربية : المنسوجات المسماة « قطع غينة » والأسلحة النارية ، والكحول .

أما مساوئ استرقاق شعوب أفريقية السوداء ، من دورة الجهنمية للحرب بين القبائل ، والتردي الديموغرافي والاقتصادي والثقافي ، فستكون محسوسة أكثر بكثير أيضاً في القرن الثامن عشر .

وعرفت أفريقية الشرقية والوسطى مشاكل مشابهة تقريباً . إن مملكة (مونوموتاپا) التي أعلن في ١٦٢٩ م أنها تابعة للتاج البرتغالي ، قد دمرها جيرانها في سياق القرن . وفي قلب القارة ، أي في حوض زامبزيا ، والبحيرات الكبرى ، انتظمت ممالك وكونفدراسيونات قبائل ، ثم زالت . وعلى الشاطئ خسر البرتغاليون جزءاً من مراكز شركة الهند الشرقية . وفي الواقع ، إن بعض الموانئ وبخاصة (كيلوا) ، (مومپاسا) ، (ميلند) ، (مقديشو) ، تحملت بعناء الوصاية البرتغالية القاسية ، والحصر التجاري الذي فرضته عليها هذه الوصاية ، ووجدت حليفاً ثميناً في شخص إمام عُمان على الخليج العربي . وبين ١٦٢٢ و ١٦٥٠ م طرد عرب عمان البرتغاليين وقاموا بتجارة الرق بين الشاطئ الأفريقي وبومباي . وفي ١٦٩٨ م أصبحوا سادة الشاطئ كله في شمال رأس دلغادو . ووجد البرتغاليون أنفسهم محصورين في منطقة موزامبيك ، ولكن

المستعمرة انفصلت إدارياً عن (غوا) البعيدة كثيراً عن البرازيل لتفيد كخزان للرق ، وتركت عملياً لنفسها وللبرازيروس (وهم الخلاسيون الزنوج ـ البرتغاليون) .

وأفريقية الجنوبية هي المنطقة الوحيدة في القارة التي كانت مسرحاً لاستعمار أوربي حقيقي . فمنذ رحلة فاسكودوغاما ، اعتاد الملاحون البرتغاليون ، في طريقهم نحو المحيط الهندي ، أن يحطوا في نقاط مختلفة في ربوع رأس الرجاء الصالح ، ولم تقرر شركة الهند الشرقية الهولاندية إقامة محطة ثابتة في جون (التابل) للترويح عن سفنها إلا في ١٦٥٢ م . إن الخمسين هولاندياً الذين وصلوا إلى الموقع ، وعلى رأسهم الجراح (جان ڤان ريبيك) ، أسسوا مستعمرة الكاب (الرأس) . وفي سنة ١٦٨٠ م كانوا ٦٠٠ على أثر زيجات إما من هولانديات أو من نساء أصليات من بنات البلاد من قبائل (الهوتانتو) . وفي ١٦٨٥ م التحق بهم ٣٠٠ هوغنوتي (بروتستانتي) فرنسي أتوا بخاصة من جبال (السيفين) ومن إقليم البروفانس . وهكذا في آخر القرن ، وجد شعب جديد في حيز التشكيل في أقصى أفريقية ، وأقام غالبية الهولانديين والفرنسيين بعيداً عن الكاب للخلاص من المضايقات الإدارية لمستخدمي شركة الهند ، وقطعوا كل صلة تربطهم بوطنهم الأصلي وأصبحوا شيئاً فشيئاً (**متأفرقين**) ، وفخورين ببياض بشرتهم أمام الخلاسيين الذين ردوا إلى وضع ثانوي ملحق ، وأمام الهوتانتو الذين دحروا إلى الداخل .

جنوب ـ شرقي آسيا والشرق الأقصى

الهند في عهد أورنجزيب

غداة وفاة السلطان أكبر ١٦٠٥ م خلفه ابنه ووارثه جهانغير (١٦٠٥ - ١٦٢٧ م) ، وكان عليه أن يواجه ثورة متتابعة من ابنين من أبنائه . وأعدم الأول

منها ؛ وخلفه الثاني شاه جهان (١٦٢٧ ـ ١٦٥٧ م) ، ولكنه رأى بدوره ثلاثة من أبنائه يثورون عليه ؛ وأخيراً ، قام أحدهم وهو أورنجزيب وضرب الجيش الامبراطوري وطرح أباه في السجن ، وأعدم إخوته وأعلن نفسه امبراطوراً (١٦٥٩ م) . ولم تمنع هذه المآسي الأسرية هؤلاء الطغاة الدمويين من إتمام عمل أكبر والقيام بفتح الدكّنْ . فقد قام جهانغير ثم شاه جهان بسلسلة حملات وفرضا على السادة المسلمين ، في جنوب (الغوداڤيري) ، معاهدات سيادة (١٦٣٦ م) . ولكن القضية أخذت فيما بعد مظهراً دينياً عظيماً . وفي الحقيقة ، إن شاه جهان وبخاصة أورنجزيب ، قطعا علاقاتها بسنكريتية أكبر ، واعتنقا المذهب الإسلامي السني . وفي ١٦٦٩ م أمر أورنجزيب جميع حكام الإقليم بهدم معابد (الكافرين) وطرد الفرس الشيعة الذين يؤلفون نواة جيشه وهاجم صغار السادة المسلمين الشيعة في الدكن . ولكنه في الوقت نفسه أثار رد فعل هندياً عنيفاً قام به **الراجبوت** في راجبوتانا ، وبخاصة **الماهرات** مزارعو الغات الغربية ، بين غوا والغودافيري ، الذين خدموا طواعية فرساناً في جيوش الأمراء المسلمين في الدكن الوسطى . ونحو ١٦٤٨ م ، نظم سيفاجي (١٦٢٧ ـ ١٦٨٠ م) المهراتي ، الهندي المتعصب ، منطقة الغات في دولة عسكرية قوية ، وأعلن نفسه مدافعاً عن الهنود المضطهدين ، وضاعف المهراتيون غاراتهم ضد الممالك الإسلامية المجاورة وضد الامبراطورية المغولية نفسها . وعلى أثر الهزائم العديدة التي مني بها الجنرالات ، استلم أورنجزيب ، في ١٦٨١ م ، قيادة الجيش المغولي العرمرم . وبعد ٢٦ عاماً من الحملات العسكرية استطاع أن يخضع شبه جزيرة الدكن كلها (ممالك بيجابور وغولكوند بخاصة) ، باستثناء القسم الأقصى الجنوبي . وبعد موت سيڤاجي ، دحر المهرات في حصونهم في الغات ، ولكنهم لم يستسلموا وظلوا يهددون .

وفي الشمال ـ الغربي من شبه الجزيرة الهندية ، كان رد الفعل الهندي ضد المسلمين ، من خلفاء أكبر ، من عمل سيخ وادي الأندوس في البنجاب .

نشأت حركة السيخ في القرن السادس عشر من ثورة دينية حقيقية في داخل

الهندوسية (البراهمانية) الديانة الخاصة بالهند دون تهديم هذه الديانة ، وأرادت أن تتجاوزها بالتأكيد على الوحدانية الإلهية بشكل أوضح وطرح نظام الطبقات . بدأ الاضطهاد في عهد جهانغير واشتد مع أورنجزيب وتسبب في عدة ثورات قام بها السيخ ولا سيا مع (غوبند سينغ) ، وهددوا مراراً امبراطورية أكبر المغولي .

وعند وفاة أورنجزيب ، في ١٧٠٧ م ، كان السيخ قد انتظموا حول مدينتهم المقدسة آمريستار ، وكانوا مستعدين للهجوم على سهل الغانج .

وفي هذه الامبراطورية الموسعة ، ولكنها مهددة من الداخل ، كان بؤس جماهير السكان يضرب حس جميع السياح والرحالة . كان الفلاحون مسحوقين بالضرائب ، مداسين برجال الحرب ، ومستهدفين لإزعاجات الحكام ، ويعيشون في حالة عدم أمن دائم ، تهلكهم دورياً المجاعات والأوبئة . لقد كانت مجاعة ١٦٣٠ و ١٦٥٠ م أفظع المجاعات وأخلت الدكن من السكان . ولا يقل عن ذلك بؤس المستحدثين ، وقد عرف إنتاج الأقطان وأعمال المستحدثين الهنود العديدة تغيرات فجة قبل أن تتحمل ، في آخر القرن ، بطءاً عاماً .

وكان الاختلاف مبيناً مع الثروات الأسطورية في (أغرا) ودلهي والعواصم الأخرى في شبه الجزيرة . ونشأ فن مختلط هندي مسلم ، وأنتج روائع فنية دقيقة وناعمة . ففي (أغرا) شاد شاه جهان تاج محل الشهير ، وهو ضريح من المرمر الأبيض شيد لزوجته . وفي دلهي التي جعلها أورنجزيب عاصمته ، يوجد القصر والجامع الكبير ببهائها الذي لا شبيه له . ولكن وراء هذه الواجهة المشرقة ، مافتئت حالة امبراطورية المغولي أكبر تتفاقم ، بسبب التهديدات الداخلية من قبل المهرات والسيخ ، والبؤس العام ، وتدخل الأوربيين الملحوظ أكثر فأكثر في تجارة الهند . وعندما توفي أورنجزيب عن عمر يناهز التاسعة والثمانين عاماً في ١٧٠٧ م ، وكان على درجة من الجلاء والوضوح ومقدراً سعة إخفاقه .

صين المانشوريين ويابان الشوغونه

في بـدايـة القرن الـسـابع عشر كانت صين آل منغ في عز انحطـاطهـا . وكانت السلطـة في أيـدي الأبـاطرة أقـل منهـا في أيـدي الخصيـان والامبراطـورات أو السراري . وفي حدود الشمال ، كان المانشوريون تابعين نظريـاً للامبراطوريـة ، واجتـاحـوا الصين مراراً ، ولا سيا في ١٦١٦ م وفي ١٦٢٩ م . وفي ١٦٣٦ م ، نـادى الزعيم المانشوري (آباهي) بنفسه امبراطوراً ، وتبنى اسم (تسنغ) كاسم سلالي ، ثم استولى على كوريـا والبـلاد في شمال الـسـور العظيم . وفي الـداخـل كان الفسـاد والاضطراب في كل البلاد . ويساء عطاء الجند فانصرفوا للشقـاوة وأعمال السلب والنهب وألفوا عصابات واسعة ، واجتاحوا الأقاليم التي تفاقم فيها البؤس بمجاعـات فظيعـة . وفي ١٦٤٠ م ، انطلق زعيم العصـابـة (لي تسو ـ تشـانغ) من (شـان ـ سي) على رأس ٢٠٠٠٠٠ رجـل ، وسمى نفسـه قـائـداً عـامـاً (جنراليسيم) وأعلن استقـلالـه . وفي ١٦٤٤ م ، استـولى على بكين حيث انتحر آخر أبـاطرة منـغ . والجنرال (ڤو) ، زعيم الجيش الامبراطوري المكلف بحراسـة السور العظيم ، وجـد نفسه أمام المانـدشوريين ، وتفـاهم معهم وطرد لي تسو ـ تشـانغ من بكين . ولكن دورغون الذي خلف أخاه آباهي زعيماً للمانـدشوريين استقر امبراطوراً في بكين في ١٦٤٤ م . وفي السنة التالية استولي على **نانكن** حيث حـاول أحـد أفراد أسرة منغ أن يعمر الامبراطوريـة ، وسـانـد البرتغـاليون الموجودون في (مكاو) هـذا الأمير الأخير من سـلالـة منـغ ، ولكنـه اضطر في ١٦٥١ م إلى اللجـوء في برمـانيـا (بورما) . وهكذا استطاع المانـدشوريون بقليل من القوات القـادمـة من بلادهم الأصليـة والموزعـة على النقـاط الاستراتيجيـة أن يفتحوا ويقبضوا على بلاد الصين الواسعة .

وبعد حكم قصير لأحد أبنـاء آبـاهي (شوان ـ تشـه) (١٦٥١ ـ ١٦٦١ م) ، أصبح ابن هـذا الأخير امبراطوراً تحت اسم (كانـغ ـ هي) (١٦٦١ ـ ١٧٢٢ م) ،

وكان حكمه أطول وأمجد تاريخ لآل تسنغ . كان كانغ ـ هي ذكياً وشجاعاً . سحق ثورة جنرالات الصين الجنوبية ، ولا سيما الجنرال (ڤو) الذي قهر وزال في ١٦٧٨ م . واستعاد فورموزا التي أصبحت نقطة استناد للقرصان (كوكسينغا) ، ومن بعد لابنه . ورأى الروس مستقرين على ضفاف نهر آمور ، فحاول أن يطردهم عنها . وبموجب نصوص معاهدة نرتشينسك (١٦٨٩ م) ، تخلت موسكو عن كل مزاعمها على وادي آمور ، ولكنها أخذت بالمقابل ترخيصاً بالتجارة بحرية في الصين . وما ان تخلص كانغ ـ هي من القلق الروسي إلا والتفت عندئذ نحو (الإيلوثيين) ، وهم قبائل رحل مخيفة فتكوا بمونغوليا وهددوا الصين مباشرة ، ودمرهم وأخضعهم في ١٦٩٦ م . وفي هذا التاريخ ساد السلام في الامبراطورية كلها وفي حدودها .

لقد كان الماندشوريون فاتحين منتصرين ، ولم يختلطوا بالصينيين المغلوبين : ولذلك وجد توضع مجتمعين أحدهما فوق الآخر ولم يحدث ذوبان أو انصهار بينهما . وفي الحقيقة إن هؤلاء (البرابرة) الذين كانوا يعيشون بتماس مع الحضارة الصينية الباهرة قد (تصينوا) بصورة عريضة أثناء الفتح . ومن جهة أخرى ، كان من محاسن حكم كانغ ـ هي الطويل أن سهلت قبول الصينيين وإذعانهم للسيطرة الماندشورية ، وهكذا ساد النظام والسلام من جديد في الامبراطورية ، مما أدى إلى زيادة سريعة في السكان . وامتد التأثير الصيني على آسيا الوسطى كلها ، وتاجر الملاحون الصينيون في جنوب ـ شرقي آسيا كله . واحترمت الكونفوشيوسية وأبقي على تسلسل المثقفين . واهتم كانغ ـ هي المثقف والمتسامح بالبوذية والمسيحية ، وحمى اليسوعيين المقيمين في بكين . وظلت امبراطورية (الوسط) ، كما في زمن آل منغ منفتحة بصورة عريضة على الخارج .

غير أن الحال لم تكن كذلك في **اليابان** ، لأن انتصار (توكو غاوا اياسو) في ١٦٠٠ م على (الدايميو) الثائرين وتسميته شوغوناً ، أي دكتاتوراً عسكرياً

يشغل منصب (الشوغونه) ، في ١٦٠٣ م ، فتحا عصر شوغون آل توكوغاوا .
إن نظام الشوغونة ، أو : (باكوفو) كان اقطاعياً ومطلقاً معاً . فالأمراء أو الدايميو كانوا سادة إماراتهم والفلاحين الذين يعيشون فيها . وكان في خدمتهم (الساموراني) ، أي : المحاربون النبلاء ، وكانوا يرتبطون بالشوغون بالرباط التبعي الذي يؤلفه (الإقطاع) . وكان الشوغون يؤخذ دوماً من أسرة توكوغاوا ، وتحت السلطة الإسمية تماماً للميكادو ، أمبراطور اليابان ، ولكنه كان الزعيم المطلق في الحكومة المركزية : يوزع الإقطاعات ، ويستطيع اقتطاعها أو مصادرتها حسب هواه . وأكثر من ذلك ، يفرض على جميع الدايميو ، لمراقبتهم بشكل أفضل ، وجوب الإقامة سنة على سنتين في العاصمة : ييدو (توكيو الحالية) . وتتم سياسة « انغلاق الدولة » النظام (باكوفو) : فبعد عدة تدابير مجزأة حرمت براءة ١٦٣٨ م على كل ياباني الخروج من اليابان دون ترخيص . وأُغلقت البلاد تماماً في وجه الأجانب باستثناء الهولانديين وحدهم الذين تنازل لهم عن جزيرة (دشيا) الصغيرة ، في جون ناغازاكي . وهكذا جمدت اليابان في بنية إقطاعية وعسكرية ، وانطوت على نفسها بما يقارب مئة وخمسين عاماً .

الأوربيون في آسيا

هنالك ثلاثة وقائع كبرى تميز تاريخ الأوربيين في آسيا في القرن السابع عشر : حلول الهولانديين والإنكليز محل البرتغاليين ، وتقدم الاستثمار التجاري والرأسمالي ، وإخفاق محاولات التبشير بالإنجيل أي بالمسيحية .

بعد أول رحلة هولاندية في جزر الصوند في ١٥٩٥ ـ ١٥٩٦ م ، دل إنشاء شركة الهند الشرقية ، في أمستردام عام ١٦٠٢ م ، على إرادة الأقاليم ـ المتحدة في حذف البرتغاليين واحتلال مكانهم في المحيط الهندي ، مستفيدين من الحرب ضد اسبانيا ، حتى ١٦٠٩م ، ثم بعد ١٦٢١م ، ومن اتحاد التاجين الاسباني والبرتغالي . وكان البرتغاليون مهددين أيضاً من الإنكليز الذين أسسوا منذ ١٦٠٠ م ، شركة

الهند الشرقية أيضاً لحسابهم . وشيئاً فشيئاً طرد البرتغاليون من مراكزهم في المحيط الهندي ولم يحافظوا ، في آخر القرن ، إلا على (غوا) و(ديو) ، وفي الصين على (ما كاؤ) . واستقر الهولانديون بصلابة في جزر الصوند إما باحتلالهم مباشرة بلاد (أمبوان) و (باندا) في جزر الملوك ، انطلاقاً من ١٦٠٥ م ، والقسم الغربي من جاوا ، حيث أسست (باتافيا) في ١٦١٩ م ؛ وإما بفرضهم معاهدات على السادة أو السلاطين المحليين في سومطره ، وجاوا ، وبورنيو وسيليب . وأكثر من ذلك احتلوا جزيرة (موريشيوس) في ١٦٢٤م ، و (كوشن) في ١٦٦٣ م ، وكولومبو في ١٦٥٦ م ، ومالاكا في ١٦٤١م ، وفورموزا في ١٦٢٤ م ، ولكن القرصان كوكسينغا طردهم منها في ١٦٦٢م ، فيما حصلوا في اليابان على جزيرة (دشيما) .

أما **الإنكليز** ، وإن اضطروا إلى الانحناء والخضوع أمام الهولانديين في (أندونيسيا) ، في مذبحة أمبوان في ١٦٢٤ م ، فقد استطاعوا أن ينشؤوا على شواطئ الهند عدة وكالات أهمها في مادراس في ١٦٦٤ م ، وبومباي في ١٦٦١ م ، وكالكوتا في ١٦٩٠ م .

وأسس الفرنسيون في ١٦٦٤ م شركة الهند الشرقية الفرنسية ، فأنشأت هذه وكالات في بونديشيري في ١٦٧٤ م ، ثم في شاندرناغور في ١٦٨٦ م . وهكذا خلف الحصر البرتغالي ، في جزر الصوند ، الحصر الهولاندي ، وفي باقي آسيا ، وبخاصة في الهند ، تنافس الدول البحرية الكبرى .

كان **الاستثمار التجاري** أول نتيجة لهذا الحضور الأوربي في آسيا . فقد كان الهولانديون أكثر اهتماماً بالربح والكسب منهم بنشر المسيحية ، وباشروا باستغلال منظم للمجال الاستعماري الذي أوجدوه في أندونيسيا . قهروا المقاومات المحلية ، وحذفوا المنافسين الأوربيين . وشركة الهند ، التي كان لها حصر الاستغلال ، فرضت على أبناء البلاد الأصليين وعلى الأمراء التابعين لهم الزراعات التي بدت لهم

أكثر ربحاً وفائـدة ، مثل القرنفل وجوزة الطيب ، والفلفل ، وقصب السكر ، ثم القهوة ، على حساب الزراعات الغذائيـة . وكانت هـذه الحـاصلات كلهـا تجمع في بـاتـافيـا ، التي أصبحت أكبر مستودع في جنـوب ـ شرقي آسيـا . وتـأتيهـا السفن الشراعية الثقيلة القادمة من أمستردام مارةً برأس الرجـاء الصـالح ومنهـا تعود إلى أوربة بعد أن تحط في وكالات الهند .

وفيما كانت **جزر الفيليبين** ممتلكاً إسبانياً ، كانت تتطلع إلى مـا وراء المحيـط الهـادئ نحـو أمريكا الإيبرية ، حيث كانت ترسـل في كل عـام ، بـواسطــة سفن **مانيلا** الحربية ، الحرائر والبورسولين الصيني الذي يـأتي من مـاكاؤ . ولكن هـذه التجارة الصينية ـ الفيليبينيـة انقطعت عمليـاً في ١٦٤٠ م مع انفصـال البرتغـال . وبقي البرتغـاليـون سـادة مـاكاؤ ، وقبلـوا ، منـذ آخر القرن الســادس عشر ، أن يفتحـوا وكالتهم لـلإسبـان والإنكليز ومن بعـد للهـولانـديين والفرنسيين . ولكن التجـارة التي تتنـاول بخـاصـة الـذهب ، والشـاي ، والحرير والبـورسـولين ظلت محـدودة جـداً ، فضلاً عن أن المـلاحـة التجـاريـة ، طـوال الشـواطئ الصينيـة ، ومبادلات الأمبراطورية المانـدشوريـة مع جنوب ـ شرقي آسيـا ، كانت في أيـدي الملاحين الصينيين . ولم تأخذ التجارة إلى الصين أهميتهـا إلا في القرن الثـامن عشر بعد فتح ميناء كانتون للأوربيين في ١٦٨٥ م . وبالمقابل في الهند ، حيث لم يحاول الأبـاطرة المغـول تـأسيس قـدرتهم على البحر ، حـاول الإنكليز والهـولانـديـون والفرنسيون الحصول على امتيازات من شأنها أن تؤمن لهم المكان الأول في التجـارة الهنديـة . وبـالرغم من التقـدم الـذي أحرزه الفرنسيون بعـد ١٦٦٤ م ، ومنـافسـة التجـار العرب ، ففي آخر القرن ، كانت الشركـة الإنكليزيـة أكثر نشـاطـاً بفضل تجارتها مع سواحل الهند نفسهـا ، وتجـارتهـا في المحيـط الهـنـدي ، واتجـاه الأقطـان الهندية شطر أوربة مع ما يضاف لها من إنتاجات المستحدثين الفرس .

لقد كان الأوربيون تجاراً ، ولكنهم أرادوا أن يكونوا أيضـاً **مبشرين** . فمنـذ

وصول البرتغاليين إلى آسيا ، حاولوا جهدهم التبشير بالمسيحية ، ولكن النتائج كانت مخيبة . ففي ١٦١٠م أوضح اليسوعي (نوبيلي) السبب العميق لهذا الإخفاق وأرجعه إلى عدم الفطنة الذي ارتكبه البرتغاليون باعتبارهم خصوا أنفسهم باسم (فرنجي) الذي يدل الهنود عليهم به ، وتسميتهم المسيحية دين الفرنجيين كما يرى في تعاليمهم الدينية . وقد قيل بذلك : « إن ممارسة الديانة المسيحية معناها العيش فرنجياً . ومن هنا خطرت في هذا البلد فكرة مسبقة بأن المسيحية دين الفرنجية وأن الصليب رمزهم الخاص . ومثل هذا الخرق جعل من المستحيل إلى الأبد التبشير بالإنجيل المقدس عند هذه الشعوب » .

وهذا الوضوح الدقيق كان في أصل جهد عظيم قام به اليسوعيون في بداية القرن السابع عشر للتكيف مع الظروف الخاصة للتبشير في آسيا . وكان هذا أولاً من عمل الإيطالي ماتيو ريتشي (١٥٣٢ ـ ١٦١٠ م) . فقد وصل إلى الصين في ١٥٨٣ م ، وقرر أن « يجعل نفسه صينياً مع الصينيين » . تعلم اللغة الصينية ، ولبس اللباس الصيني ، ودرس عن كثب الكونفوشية ، وهذه أكثر انتشاراً من الطاوية والبوذية ، وحاول أن يظهر النقاط التي تلتقي فيها مع المسيحية . وفي ١٦٠٠ م ، استقبل في بلاط بكين . وفي السنوات التالية ، قلد خلفاؤه طرقه ونجحوا في الدخول والاستقرار في البلاط حيث قدروا وثمنوا نظراً لصفاتهم كعلماء وتقنيين . وارتبكت حالتهم موقتاً بمجيء الماندشوريين ، ولكنها ثبتت وتصلبت في عهد الأمبراطور كانغ ـ هي ، بعد أن أصدر في ١٦٩٢ م براءة تسامح لصالحهم . وفي الوقت نفسه ، حقق يسوعي إيطالي آخر ، روبير دونوبيلي (١٥٧٧ ـ ١٦٥٦ م) في الهند تجربة من نفس النوع . فقد وصل إلى غووا في ١٦٠٤ م ، ثم أرسل إلى (مادوريه) في جنوب شبه الجزيرة . وهنا درس الهندوسية . وقرر أن يعيش (سانياسّي) أي تائباً أو زاهداً ناسكاً . وتوجه إلى البراهمانيين وبين لهم أن المسيحية لم يكن منها سوى تجاوز الهندوسية دون أن تجحدها تماماً ، وأن الصبأ لا يعني الانضمام إلى (الفرنجية) والخيانة حيال الهند .

ولم تترك النتائج مجالاً للإنتظار : فمنذ ١٦٠٩ م صبأ ٧٠ براهمانياً ثم قلدهم عدة أشخاص من الطبقات العليا ؛ وفي آخر القرن السابع عشر ، وجد أكثر من ١٥٠٠٠٠ مسيحي في الهند الجنوبية .

ولكن هذه المحاولات أثارت بسرعة جداً حذر السلطات الكنسية في آسيا وفي أوربة وحسد الأنظمة التبشيرية الأخرى . ومع ذلك ، ففي ١٦٢٣ م ، وبالرغم من الضغوط المختلفة ، فإن البابا غريغوار الخامس عشر ، الذي أسس جمعية (الدعاية للإيمان) في ١٦٢٢ م ، لتنسيق جهود الإرساليات التبشيرية ، وافق صراحةً على الطرق التي استخدمها نوبيلي في الهند . ولكن ما لبث نزاع الطقوس أن قفز بعد قليل . ففي ١٦٤٥ م ، حصل (مورالس) الدومينيكي الإسباني من جمعية الدعاية على شجب بعض ممارسات اليسوعيين في الصين : فقد اعتبر هؤلاء أن التشريفات التي يكرم بها كونفوشيوس والاحتفالات بذكرى الأسلاف ليس فيها شيء من عبادة الأصنام ، وأجازوا للصينيين الصابئين الاستمرار في ممارسة هذه الشعائر . وهكذا هوجم اليسوعيون ، فردوا بشدة ، وما عتم النزاع أن استحر من جانب وآخر . واشترك في المعركة جميع خصوم الجمعية اليسوعية : الدومينيكيون ، والفرنسيسكانيون ، وكهان جمعية الإرساليات الأجنبية التي تأسست في باريس في ١٦٥٩ م ، والجانسينيون ، وبعض الجمعيات الرهبانية من روما . وبين ١٦٥٧ و ١٧٠٠ م صدر أكثر من ٢٠٠ كتاب أو مؤلف في هذا الموضوع ، في فرنسا وحدها . وأخيراً ، في ١٧٠٤ م ، أعلنت (الجمعية المقدسة) ، أي : الجمعية المكلفة بالسهر على نقاوة الإيمان وفحص الكتب واحتمال وضعها على القائمة السوداء ، بأن الشعائر الصينية تشوبها الوثنية والأباطيل وحرمها رسمياً . وشخص رسول البابا ، المونسنيور (دو تورنون) إلى الهند وأوقف جهد التكيف الذي يتابعه خلفاء نوبيلي ، ومنها إلى الصين حيث بلّغ مختلف المبشرين بقرارات الجمعية ـ المقدسة . وأزعجت فحوى هذه القرارات وعدم حذاقة الرسول البابوي الامبراطور كانغ ـ هي ، فقرر عملياً أن يخص اليسوعيين

حق الدخول إلى الصين . وأكثر من ذلك ، أن الالتزام بمراعاة القرار الروماني أنضب رويداً رويداً اعتناق المسيحية . وكما كتب من الصين ، في ١٧٢٦ م ، يسوعي : « إن المثقفين الذين يريدون أن يكونوا مسيحيين يتركوننا منذ أن ننشر لهم بأمر الأب ـ الأقدس ، هذه القرارات » . وظل نزاع الطقوس حتى ١٧٤٢ م ، وأدى بشكل لا شفاء له إلى عرقلة عمل التبشير الصعب الذي بوشر به في الهند والصين وفي شبه الجزيرة الهندية ـ الصينية : سيام ، تونكن . أما في اليابان فقد حذفت المسيحية منذ بداية القرن السابع عشر على أثر اضطهادات عديدة .

وهكذا ، بالرغم من التفوق العسكري ، والعلمي ، والتقني ، تراجع الأوربيون أمام فتح الامبراطوريات الآسيوية الواسعة ، واكتفوا ، باستثناء الهولانديين في أندونيسيا ، بثبات متين في بعض النقاط على الشواطئ ، واستغلوا دون وسوسة وبنجاح حاصلات البلاد التي يمكن أن تباع بربح في أوربة ، ولكن انقساماتهم وجشعهم وفرقتهم تشرح في الجزء الأعظم رفض آسيا لمحاولات التبشير.

٢ ـ أمريكا الاستعمارية

بينما كان الإسبانيون والبرتغاليون يستغلون أمريكا الوسطى والجنوبية ، ويجمعون الثروات ، كان الفرنسيون والإنكليز والهولانديون يثبتون أقدامهم في بحر الآنتيل وعلى شواطئ أمريكا الشمالية . ومع ذلك ، في آخر القرن السابع عشر ، وبالرغم من السيطرات النظرية ، فإن مناطق واسعة في الأمريكتين ما زالت في منجاة تماماً من سيطرة البيض وإشرافهم .

أمريكا الإسبانية

كانت أمريكا الإسبانية الممتدة من هضاب المكسيك العليا إلى أرض النار ، ما عدا البرازيل ، أوسع مضمار استعماري وجد آنذاك . فقد ظلت بنيتها السياسية

والإدارية على ما كانت عليه في القرن السادس عشر . وفي إسبانيا ، كان مجلس الهند ، نظرياً ، أكبر هيئة في اتخاذ القرار ، ومع ذلك فإن أهمية المكتب المكلف برقابة المبادلات التجارية بين المستعمرات والوطن الأم (المتروبول) أخذت تتناقص ، لأن مقرها ما زال في إشبلية ، فيما كانت قادس ميناء انطلاق القوافل ووصولها . وكانت أمريكا نفسها منقسمة إلى نيابتين ملكيتين : إسبانيا ـ الجديدة وعاصمتها مكسيكو ، والبيرو ، وعاصمتها (ليما) ، وهما منقسمتان إلى عشر **أوديانسيا** ، هيئات قضائية وإدارية معاً ، وسلطتها تتعلق بمنطقة استيطان مركزة على مدينة هامة . وفي القرن السابع عشر ، أخذت سلطة الملكية الإسبانية تتراخى على أمريكا ، تاركة المجال لمركزية تدريجية . ولم تنم سلطات نواب ـ الملوك والأوديانسيات فحسب ، بل إن الملكيات الكبرى أو (**الهاسياندا**) انتظمت رويداً رويداً وحداتٍ مستقلةً عملياً . والملاك أمير حقيقي يمارس سلطة لا حد لها على عبيده الزنوج أو الهنود وحتى على عماله (الهنود الأحرار) . وحل على هذا النحو شكل استغلال الإنسان الذي تمثله الملكية الكبرى محل تطبيق الاستغلال الحر الآخذ بالزوال . وإلى جانب الهاسياندات نمت **المرتديات** (**المعازل**) : وهي قرى ضخمة متحدة أنشأها اليسوعيون لتجميع الهنود الرحل الذين اعتنقوا المسيحية وارتدوا عن دينهم الأصلي . وتأسست (المرتدية) الأولى في ١٦١٠ م ، عند غواراني (هنود أمريكا الجنوبية) منطقة باراغوي الذين حصل اليسوعيون منهم على حكمها ثم تعددت هذه المرتديات في البلاد الواقعة بين باراغوي وأوروغوي وساعدت الغوارانيين على التخلص من غزو قناصة العبيد الآتين من البرازيل والعيش في طوائف وديعة هادئة مسالمة تعمل في الزراعة والمهن اليدوية تحت السلطة الأبوية لأبين أو عدة آباء يسوعيين في (مرتدية) تتألف من ٣٠٠٠ إلى ٨٠٠٠ هندي . ونحو ١٦٥٠ م ، تجمع على هذا النحو ٣٥٠٠٠ غواراني وسيكونون ١٠٠٠٠٠ في بداية القرن الثامن عشر . وأنشئت (مرتديات) أخرى في نقاط مختلفة من أمريكا الإسبانية حسب النموذج الباراغوائي .

ولكن النجاح القابل للنقاش في (المرتديات) يسيء تغطية الإخفاق العظيم الذي مني الاستعمار الإسباني به بسبب عدم تمثل الهنود ، باعتبارهم عرقاً أدنى ، وبهذا الواقع كان مستعبداً ومحتقراً ، أو ، في أفضل حالة ، كانت (المرتديات) منعزلة بصورة اصطناعية وبقيت في مرحلة طفولة . وأسهم التبشير ، هو أيضاً ، بالعزل بصورة غير مباشرة . وفي الواقع ، وبعد الصبا الكثيف ، في القرن السادس عشر ، والمتحقق بسرعة كثيراً ، لاحظ الاكليروس الإسباني ، أو البيض المولودون في المستعمرات ، الطابع السطحي جداً في الغالب لهذا الصبأ ، ولذا جنح إلى اعتبار الهنود مسيحيين قاصرين ، ويحسن إبعادهم بصورة خاصة عن الكهنوت . وفيما كان المبشرون الأوائل ملزمين بتبشير الهنود بلغتهم الأصلية ، فإن هذا الجهد قد تراخى رويداً رويداً : ففي القرن السابع عشر ، كان معظم الخوارنة يجهلون لغات أبناء البلاد الأصليين ، ومع ذلك لم يعمل شيء بصورة جدية لتعليم الهنود الإسبانية .

وتطور المجتمع الاستعماري قليلاً . ومع ذلك فإن الإسبانيين والبيض المولودين في المستعمرات تكاثر عددهم شيئاً فشيئاً ، وانتقل من ١٣٠٠٠ في ١٥٧٠ م إلى أكثر من مليون نحو ١٧٠٠ م . وكان الخلاسيون أيضاً في ازدياد مستمر . ولكن جمهور الهنود والزنوج ظل بصورة محسوسة نفسه ، حول ٩ ملايين ، بالرغم من نمو استرقاق الزنوج .

ومن الوجهة الاقتصادية ، إذا أطالت العشرون أو الثلاثون سنة الأولى من القرن السابع عشر ، ولو بشكل خفيف تدريجياً ، موجة التوسع الكبرى للقرن السابق ، فإن الملاحظ انطلاقاً من سنوات ١٦٢٠ م ، هبوط عام في الواردات في قادس من ذهب كولومبيا وفضة المكسيك وبوتوزي ، ولكن أيضاً الجلود ، والسكر ، والمواد الصباغية والصيدلانية من وراء الأطلسي . وهذا يعود أولاً إلى انخفاض الإنتاج ، وبخاصة الإنتاج المعدني ، ولكن أيضاً إلى نمو مجتمع الأوربيين

المولودين في المستعمرات ، وإلى تقدم تجارة التهريب ، أو التجارة الممنوعة : فقد كان قسم متزايد دون انقطاع من ربح استغلال الموارد الأميركية بجهد الهنود والزنوج معاً ، يُمتص ميدانياً من قبل النخبة البيضاء ، أو يحول عن طريق (التجارة الممنوعة) ، بما يخالف مبدأ الحصر ، نحو هولاندا ، وفرنسا ، وبخاصة إنكلترا .

ولهذه الأسباب كلها ، لم تعد الأمبراطورية الإسبانية من الوجهة العملية إنطلاقاً من ١٦٥٠ م ، تؤلف ربحاً بالنسبة للوطن الأم ، إسبانيا .

البرازيل البرتغالية

تاريخ البرازيل في القرن السابع عشر مطبوع بإخفاق الهولانديين في محاولاتهم لاحتلال مواقع البرتغاليين فيها ، وبازدهار الشاطئ البرازيلي ، وبدايات اكتشاف الداخل .

لقد دل الهولانديون ، بإنشاء شركة الهند الغربية في ١٦٢٠ م ، أثناء عودة حرب الاستقلال ، على إرادتهم في التوسع التجاري والاستعماري فيما وراء الأطلسي على حساب الإسبانيين والبرتغاليين . ففي ١٦٢٤ م استولوا على العاصمة البرازيلية ، باهيا ، في جون تودوس أوس سانتوس ، وتماسكوا فيها بضعة أشهر . وفي السنوات التالية ، وبالرغم من مقاومة خصومهم ، ضاعفوا ضرباتهم ضد الممتلكات والأساطيل الإيبرية . وفي سنة ١٦٣٠ م ، استولوا على برنامبوك ، (رسيف) أكبر مركز للسكر في المنطقة وأقرب ميناء أمريكي من أوربة . وسيصبح ، خلال ٢٤ عاماً ، عاصمة البرازيل الهولاندية . ومن ١٦٣٧ م إلى ١٦٤١ م ، امتد (جان - موريس دوناسّو) ، بالفتح إلى كل الشاطئ الشمالي - الشرقي ، من ساؤ لويس دو مارانهاو إلى سرجيب دل ري . وهذه السنوات الأربع تؤلف أوج المستعمرة وتصدير السكر إلى أمستردام . غير أن استدعاء جان - ماري دوناسّو ، وعداء كبار المزارعين البرتغاليين وطهرانية الهولانديين ، جرت فيما بعد على شركة الهند الغربية مشاكل عدة . وفي الحقيقة ،

إن الإستعمار الهولاندي كان واجهة تجارية بسيطة أقيمت على الساحل ، دون جذور عميقة لا في ظهير البلاد ، حتى ولا في مجتمع الشاطئ ، وما لبث أن انهار . وانطلاقاً من ١٦٤٤ م ، كثرت ثورات الغراسين البرتغاليين بمساعدة أبناء وطنهم في باهيا . ودلت خسارة برنامبوك ، في كانون الثاني ١٦٥٤ م ، على نهاية البرازيل الهولاندية . ومع ذلك ، فإن الفلامنغو (الفلسنكيين) لم يطردوا كاملاً من أمريكا اللاتينية : فقد ظلوا في جزيرة كوراسو وجعلوا منها مركزاً نشيطاً للتهريب ، وكذا الحال في سورينام (غويانة الهولاندية) بعد أن تركتها إنكلترا ، في ١٦٦٧ م .

والبرازيل الشاطئية هي برازيل السكر . فقد أدخل إليها قصب السكر في ١٥٣٢ م . وتسبب في ازدهار المنطقة الساحلية الممتدة بين أفواه الآمازون و (الروح ـ القدس) . وفي ١٥٨٤ م . يحصى ١٠٨ طواحين لهرس القصب ، ثم أصبحت عدة مئات من الطواحين بعد قرن . ومن الوجهة السياسية ، كانت سلطة الحكومة العامة ، التي أنشئت في ١٥٤٩ م ، وعاصمتها باهيا ، تمتد بصورة أساسية ، على هذا الشاطئ الشمالي ـ الشرقي . وشيئاً فشيئاً تشكلت شركة رق ، وكان العنصر الأساسي فيها الملكية الكبرى التي كان فيها السيد الأبيض (أمير الطواحين) يشغل ، نظراً لفقدان الهنود النادرين كثيراً والفارين نحو الداخل ، زنوجاً أتي بهم زرافات من شواطئ أنغولا (٥٠٠٠ في العام وسطياً ، في منتصف القرن) وإذا كان القانون البرتغالي يحرم الزواج من امرأة ملونة ، فبالمقابل ، كان التسري بالعبدات الرقيقات قاعدة بالنسبة للسيد الذي أكثر أولاده ، عن طريق السفاح ، عدد الخلاسيين ، فيما كان يربي أولاده الشرعيين مرضعة سوداء تقص عليهم أساطير أقوام البانتو . وهكذا ، على هامش العلاقات الاقتصادية ، نسجت ، من سادة إلى أرقاء ، روابط معقدة وعميقة . ومع الحفاظ على رضى إجتماعي وعرقي شديد ، قربت هذه الروابط العروق والثقافات وأبدعت حضارة أصيلة بعمق انعكست على الدين والفن ، وهذه المسيحية ، وهذا الباروك (الفن

الباروك) البرازيلي اللذان استوردا من أوربة ، كانت تتغلغل فيهما التأثيرات الافريقية . وما فتئ إنتاج السكر ، النشاط الأساسي في هذه الأملاك الكبرى ، في ازدياد في القرن السابع عشر ، الذي يمثل في تاريخ البرازيل ، (دورة قصب السكر) التي خلفتها بعد ١٧٢٠ م (دورة الذهب) التي بدئ باستثمارها في سنوات ١٦٩٠ م في (ميناس جيراس) في المستقبل .

وفي الجنوب ، في منطقة (سان باولو) ، كانت البرازيل الداخلية ، في طريق الخلق والإبداع . وكان الباوليون ، سكان سان باولو ، في معظمهم خلاسيين (أو مماليك) . وفقراء كثيراً ، ولا يمكنهم شراء أرقاء زنوج ، ولذلك فضلوا الحصول مباشرة على اليد العاملة الخادمة بغارات على القرى الهندية في الداخل .

وهذه الغزوات الرقية أوصلت (العصابات) الباولية حتى قدم جبال الآند وحتى حوض الأمازون ، وأسهمت على هذا النحو ، في اكتشاف القارة تدريجياً .

الآنتيل

لقد ترك ضعف القدرة البحرية الإسبانية ، في السنوات ١٦٣٠ م ، المجال حراً ، في جزر وبحر الآنتيل ، للمغامرين الأوربيين من جميع البلاد ، الذين يعيشون من الصيد والقرصنة . وبصورة موازية ، كان الفرنسيون والإنكليز يقومون باستعمار منظم لبعض الجزر . ومنذ ١٦٢٥ م . استقر **الفرنسيون في** سان ـ كريستوف ؛ وفي ١٦٣٥ م ، في الغواديلوب وفي المارتينيك . ولكن هذا الاستعمار الفرنسي الأول قد أفاد بخاصةٍ الهولانديين . وفي الواقع ، إن شركة سان ـ كريستوف ، التي أصبحت في ١٦٣٥ م شركة الجزر ، لم يكن عندها الوسائل الكافية للإشراف على الاستغلال . وكان الحكام في المستعمرات مستقلين عملياً ، بل ورسمياً مالكين بعد حل الشركة (١٦٤٨ م) ، فتوجهوا للهولانديين الذين أدخلوا زراعة قصب السكر وأمنوا الروابط التجارية مع أوربة . وبدأ المعمرون

(المرتبطون) بهم من أقاليم بروتانيا ، نورمانديا ، آنجو ، بواتو ، سانتونج ، يأتون ويستقرون في هذه المستعمرات الآنفة الذكر . ووجد منهم ١٥٠٠٠ نحو ١٦٥٠ م ، بجانب ١٢٠٠٠ رقيق زنجي . ولكن بعد ١٦٦١ م ، قرر (كولبر) ، وزير المالية أن يأخذ على عاتقه من جديد هذه الجزر الفرنسية . وعهد بحصر استغلالها إلى شركة الهند الغربية التي أحدثت في ١٦٦٤ م .

وبعد حل الشركة في ١٦٧٤ م ، انتقلت إدارة الجزر : سان ـ كريستوف الغواديلوب ، المارتينيك ، والقسم الغربي من سان ـ دومينغ التي احتلها الفرنسيون انطلاقاً من ١٦٦٥ م ، إلى إدارة الملك المباشرة ، وفتحت لكل سفينة فرنسية تحمل بضائع آتية من الوطن الأم (المتروبول) .

غير أن استلام إدارة هذه الجزر لم ينطلق دون خلافات مع المعمرين ، المغامرين : الإسبان والهولانديين . وأكثر من ذلك أن السكان أخذوا يتطورون قليلاً قليلاً : فالمزارعون البيض (من النبلاء أو قدامى المعاقدين الملتزمين بالعمل) مالوا شيئاً فشيئاً إلى استخدام اليد العاملة الزنجية الرقيقة التي أتي بها من أفريقية ، لأن اليد العاملة من أصل فرنسي كانت تكلف غالياً ، ومن المحتمل أن تكون منافسة . لأن المعمرين الذين يأتون إلى المستعمرين عن طريق التعاقد يتحررون من تعاقدهم بعد ثلاث سنوات من الخدمة ، ويستقرون في المستعمرات على حسابهم . وكان عدد الزنوج نحو ٥٠٠٠٠ في عام ١٧٠٠ م ، ويحميهم نظرياً **القانون الزنجي** (١٦٨٥ م) الذي يساء تطبيقه . وكان هؤلاء الزنوج يشتغلون في مزارع السكر والتبغ ، والنيلة ، والقهوة ، وهذه هي النشاطات المرخص بها من الوطن الأم . وهكذا أنشئت شركة استعمارية مشابهة تقريباً لشركة شمال ـ شرقي البرازيل .

الإنكليز ، واستقر الإنكليز في ١٦١٢ م في جزر برمودا ، وفي ١٦٢٥ م ، في بارباد . وفي ١٦٥٥ م ، وبفضل التحالف الإنكليزي ـ الفرنسي ضد إسبانيا ،

استولوا على جامايكا ، التي أصبحت ، منذ ١٦٨٠ م ، أغنى جميع الجزر بالسكر . وكان القسم الأعظم من تجارة الجزر الإنكليزية تؤمنه **الشركة الملكية الإفريقية** التي كانت سفنها تقوم عموماً بتجارة مثلثة : إنكلترا ، غينة ، الآنتيل . وأكثر من ذلك في ١٦٧٠ م ، ان الإنكليز اتخذوا لهم موطئ قدم على القارة الأميركية في هوندوراس ، وفي ١٦٧٠ م ، في جزر باهاما .

وتوطدت أهمية جزر الآنتيل في الاقتصاد العالمي ، بوضوح ، في آخر القرن السابع عشر . وشهد القسم الفرنسي من سان ـ دومينغ . وجامايكا الإنكليزية انتاجهما بقصب السكر يزداد باستمرار : ومنذ سنوات ١٧٢٠ م سيحتلان مكان البرازيل كأول منتج للسكر في العالم .

الفرنسيون والإنكليز في أمريكا الشمالية

في ١٦٠٨ م أسس الفرنسي صاموئيل شامبلان (١٥٧٠ ـ ١٦٣٥ م) ، على الضفة اليسرى لنهر سان ـ لوران ، ميناء (كيبيك) . وأقنع الملك هنري الرابع بأن ينشئ في وادي النهر الكبير وعلى شطئان شبه جزيرة أركاديا ، **فرنسا ـ الجديدة** ، التي فخر بسحرها فيا بعد في رسالة وجهها إلى الملك لويس الثالث عشر .

وفي الواقع ، ظلت النتائج ضعيفة زمناً طويلاً . فالمعمرون الآتون من الوطن الأم كان عددهم غير كافٍ . وشركة فرنسا ـ الجديدة التي تأسست في ١٦٢٨ م ، بإيحاء من ريشليو ، كانت تنقصها الوسائل . وفي ١٦٢٩ م ، وبفضل حوادث لاروشل والقطيعة بين إنكلترا وفرنسا استولى الإنكليز على كيبيك . والحقيقة ، في ١٦٣٢ م ، بعد معاهدة سان ـ جرمن التي أعادت كيبيك إلى فرنسا ، هي أن أسطولاً بقيادة (رازيللي) ، أرجع شامبلان إلى كندا . وأن **اليسوعيين ، إلى جانب النظم الدينية الأخرى ، قاموا بتبشير القبائل**

(الهورونية) و (الآيروكوازية) ، وحاولوا أن يحدثوا في فرنسا بعلاقاتهم مع فرنسا ـ الجديدة ، هيئات حقيقية للدعاية ، ومناخاً ملائماً للمشروع الكندي : وهكذا ، وبناء على مبادهة علماني تقي آنجفي (من إقليم آنجو) ، تأسست (مونريال) ، في ١٦٤٢ م . وفي ١٦٥٩ م ، أصبح المونسنيور (لافال) أول أسقف في كيبيك . ولكن في ١٦٦٠ م ، لم يكن في المستعمرة إلا ٢٠٠٠ أبيض : زراع ، تجار ، جوابة غابات[1] ، مبشرون ، تحت رحمة هجمات الأيروكوازيين .

وفي ١٦٦٣ م ، أراد كولبر أن ينهض بفرنسا ـ الجديدة فأرسل قطعة جيش (كارينيان) ضد الأيروكوازيين ، وحول المستعمرة إلى ممتلك للتاج وأعطاها البنية الإدارية لإقليم من أقاليم فرنسا ، وعين لها حاكماً ، (فرونتيناك) ، من ١٦٧٢ إلى ١٦٨٢ م ، ومن ١٦٨٩ إلى ١٦٩٨ م ، وموظفاً مالياً ، (جان تالون) ، من ١٦٦٥ إلى ١٦٧٢ م ، ومجلساً ذا سيادة ، معادلاً للبرلمان . وأصبح التشريع الفرنسي كله مطبقاً في كندا ، باستثناء قرار الملك بناء على رأي مجلس السيادة . ولإتمام سياسة التمثيل هذه . شجع كولبر الإنطلاق إلى ما وراء الأطلسي بـ ٤٠٠٠ فلاح « معاقد » ، وأوصى « بدعوة أبناء البلاد إلى وحدة العيش مع الفرنسيين » ، وتعليمهم « بحِكَم ديننا ، بل وأخلاقنا » ليصنع من جميع سكان كندا ، مهما يكن أصلهم ، شعباً واحداً . ولكن هذا البرنامج الجريء اصطدم ميدانياً بكثير من المصاعب ، وبخاصة بموقف اليسوعيين الذين خشوا على الهنود من تماسهم مع البيض وحاولوا أن يعزلوهم بالقرب من البحيرات الكبرى في (معازل) من النموذج الباراغوائي . ومهما يكن من أمر . فقد كان الكنديون قرابة ١٢٠٠٠ ، في آخر القرن .

وفي الوقت نفسه ، أخذت فرنسا ـ الجديدة تتسع بجهود المبشرين والجنود ،

---

(١) جوابة الغابات هم صيادون أو تجار فراء يتغلغلون في قلب البلاد التي تحتلها القبائل الهندية في فرنسا ـ الجديدة (كندا) .

والتجار ، وجوابة الغابات . وفي ١٦٦٩ ـ ١٦٧٠ م ، اكتشف الأب (ماركيت) ، وتاجر من كندا اسمه (لوي جوليه) ، محيط البحيرات الكبرى ، ووضعا تحت حماية ملك فرنسا القبائل الهندية التي تعيش فيه . وفي ١٦٧٣ م ، انطلقا من بحيرة ميتشيغان ، واكتشفا نهر المسسبي وبدآ ينحدران معه . وفي ١٦٨١ ـ ١٦٨٢ م ، نزل (كافاليه دولا سالّ) النهر الكبير حتى مصبه ، وفي ٩ آب ١٦٨٢ م ، تملك باسم لويس الرابع عشر المنطقة كلها ، وأطلق عليها اسم لويزيانا . ووصل مكتشفون آخرون ، نحو الغرب ، بحيرة (وينّيبغ) و (ساسكا تشيوان) ، فيما كان تجار وصيادون فرنسيون يحاولون منازعة الإنكليز منطقة جون هودسون وشواطئ جزيرة الأرض ـ الجديدة . وهكذا ، في آخر القرن ، كادت أمريكا الشمالية كلها تقريباً أن تصبح فرنسية ، لولا أن الإنكليز استقروا بصلابة طوال المحيط الأطلسي .

وفي ١٦٠٨ م ، أرسلت شركة لندن الفيرجينية ١٢٠ معمراً إلى جون (تشيزابيك) ، وتأسست مدينة (**جمستاون**) أول مؤسسة إنكليزية على الشاطئ الأميركي ، بعد رونوك ـ آيلاند الموقتة ، (١٥٨٤ ـ ١٥٩١ م) . وفي الواقع ، لقد لاقى هؤلاء الرواد الأوائل صعوبات من كل نوع : من عدم ملائمة البلاد للصحة ، والمجاعة ، وهجوم الهنود ، حتى ان من عاش منهم ، قد أنقذوا في آخر الأمر ، في تشرين الثاني ١٦٢١ م ، بوصول سفينة نجدة . وسجل تعمير مدينة جستاون في ١٦٢٢ م نقطة انطلاق حقيقية لفرجينيا مستعمرة التاج . وفي الخمسين سنة التالية ، أوغل التوسع في الداخل طوال الأنهار ، ودون أن يبتعد عنها كثيراً ، حتى (فول لاين) . ويتألف الشعب بصورة أساسية ، من المستخدمين بعقد ، معادلين للمعاقدين الفرنسيين ، الذين يأتون وبعد عدة سنوات من العمل ، ودفع مقابل أجور اجتيازهم للمحيط الأطلسي ، يأخذون أراضي ويستقرون فيها على حسابهم . وكان تيار هذه الهجرة هاماً بادئ بدء في عصر (طغيان) الملك شارل الأول ، ولكنه ندر انطلاقاً من ١٦٤٠ م عندما استورد العبيد الأوائل من أفريقية

في ١٦٣٨ م . ونحو ١٦٨٠ م ، أخذت الشركة الفيرجينية تستقر : فالمزارعون الكبار المتحدرون من المستخدمين بعقود نجحوا ، واستغلوا باليد العاملة الزنجية أملاكاً كبرى يزرعونها تبغاً ، بصورة أساسية ، إلى جانب الحنطة الضرورية لتغذية المستعمرة . ومن وجهة النظر الدينية ، ظل الفيرجينيون مؤمنين بالأنغليكانية . وفي شمال (بوتوماك) ، و (الميريلاند) ، التي أسماها كاثوليكيو اللورد بولتيمور بهذا الإسم على شرف العذراء ماريا ، كانت اجتماعياً واقتصادياً تشبه كثيراً فيرجينيا ، ولكنها منفتحة على الكاثوليك . وفي جنوب نهر رونوك ، أنشئت **كارولينا** في ١٦٦٣ م وعاصمتها شارلستون ، في ١٦٧٠ م . وكان ازدياد السكان من أصل إنكليزي ، ومن أصل فرنسي (هغنوت) أيضاً ، بطيئاً . ففي ١٧٠٠ م ، بدأ ٢٥٠٠ أبيض وبقدرهم عبيد أرقاء ، بزراعة الرز والنيلة على طول الشاطئ .

وفي ٩ تشرين الثاني ١٦٢٠ م ، أنزلت سفينة الميفلاور بالقرب من رأس (كود) ، على ١٠٠٠ ك م شمال جمستاون ، ١٢٠ أباً (حاجاً) وجد بينهم عدد من الأطهار الإنكليز اللاجئين في هولاندا . وانتظمت المستعمرة الجديدة ، ماسّاتشوستس في وحدة مستقلة ، ثم انفتحت فقط على المشيخيين وحدهم . ومن ١٦٣٠ إلى ١٦٤٠ م ، جاء ٢٠٠٠٠ طهراني طردتهم السياسة الدينية التي أتبعها رئيس الأساقفة (لاود) وضخموا سكان المستعمرة الفتية ، فيما كان بعض الرواد ، ضحايا المضايقات الطهرانية ، يرجحون تأسيس مستعمرات مستقلة ، نيوهامبشير ١٦٢٤ م ، وكونيكتيكوت ١٦٣٦ م ، رود ـ آيلاند ١٦٣٦ م . وهكذا تشكلت قليلاً قليلاً **إنكلترا الجديدة** والمختلفة جداً اجتماعياً واقتصادياً عن فرجينيا : لأن البورجوازية الطهرانية والمثقفة ، التي أسست في ١٦٣٦ م جامعة هارفرد ، عاشت متجهة صوب البحر أكثر بكثير منها نحو الداخل ومارست تربية الحيوانات والزراعة المتعددة . وتأسس ميناء بوسطن في ١٦٣٠ م ، وغذت الموانئ الآنتيل الإنكليزية بالخشب والقطران ، والسمك ، والفراء .

وبين فرجينيا وإنكلترا ـ الجديدة ، وجد ، في منتصف القرن ، فراغ لم يسده الاستعمار الإنكليزي إلا بعد حذف بعض المنافسين . وفي الواقع ، في ١٦٢٤ م ، سنة مذبحة آمبوان وأخذ باهيا ، أسس **الهولانديون** في وادي الهودسون ، الطريق العظيم للتغلغل نحو الداخل ، عدة وكالات ، فورت ـ أورانج (الباني) في **أمستردام ـ الجديدة** . ومن ثم في الجنوب ، طوال (ديلاور) ، أسست شركة سويدية في ١٦٣٨ م ، **سويد جديدة** حول فورت ـ كريستين المأهولة بالسويديين ، والفانلانديين والألمان . ولكن ، في ١٦٥٥ م ، سقط مجموع المؤسسات السويدية في أيدي الهولانديين . وكان هؤلاء بدورهم ، قليلي العدد ليقاوموا طويلاً ضغط معمري إنكلترا ـ الجديدة . ففقدوا في آب ١٦٦٤ م أمستردام ـ الجديدة التي سميت بعد ذلك باسم جديد ، نيويورك ، وتخلوا للإنكليز بمعاهدة بريدا (١٦٦٧ م) عن كل وكالاتهم في الهودسون وديلاور . وإلى هذه المستعمرات الإنكليزية الجديدة ، تضاف في ١٦٨١ م ، **البانسلفانيا** التي أسسها وليم بين (١٦٤٤ ـ ١٧١٨ م) تلميذ جورج فوكس مؤسس فرقة الكويكرز المسيحية (الأصدقاء) . واستجاب لدعوته مهاجرون أوربيون ، وبخاصة ألمانيون ، أتوا واستقروا في بانسلفانيا . وعاصمتها ، فيلادلفيا ، كانت ، في ١٧١٥ م ، ثاني مدينة في أمريكا الشمالية ، بعد بوسطن .

وفي هذا التاريخ ، شكلت **المستعمرات الإنكليزية** ، دون حساب الإنضمامات التي تمت في ١٧١٣ م : أركاديا ، الأرض ـ الجديدة ، جون هودسون ، جبهة مستمرة طوال المحيط من كندا إلى فلوريدا . وتحت أنظمة حقوقية مختلفة (مستعمرات التاج ، حكومات ملاكة ، مستعمرات ذات ميثاق) ، مهرت بنظم (مؤسسات) متقاربة تقريباً : فإلى جانب الحاكم ، الذي يمثل الملك ، وجد مجلس ينتخبه الملاك ، ويمثل المعمرين . وأكثر من ذلك ، بالرغم من المسافات التي تفصلها ، والاختلافات العميقة التي توجد فيا بينها ، نشأ بينها نوع من تضامن باعتبارها جابهت مشاكل متشابهة : الخطر الهندي ، الذي يزداد كلما بدأ المعمرون بالتوغل

نحو الـداخـل ؛ والعـلاقـات الصعبـة مـع الـوطن الأم (المتروبـول) التي أمسكت بمستعمراتها بصورة رعوية وثيقة سياسية واقتصادية ، على أثر ثورة ماساتشوستس في ١٦٨٤ م ، التي ألغي دستورها ثم أعيد في ١٦٩١ م ؛ وأخيراً التهديد بـالتطويق الذي أثقل به الفرنسيون ، سادة كندا ولويزيانا : وفي الحقيقة ، في بـدايـة القرن الثـامن عشر ، كان المعمرون الفرنسيـون ١٥٠٠٠٠ والإنكليز ٤٥٠٠٠٠ ، ولـذا كان لهؤلاء تفوق عددي ملحوظ ، وسيكون هذا التفوق حاسماً عند أي مجابهة حتمية .

القسم الثالث

أوربة في النصف الثاني

من القرن السابع عشر

الفصل الأول

فرنسا لويس الرابع عشر
من ١٦٦١ إلى ١٦٨٥ م

الملك وتعزيز السلطة

غداة وفاة مازارن ، في ٩ آذار ١٦٦١ م ، أعلم الملك لويس الرابع عشر رجال البلاط والحاشية عن إرادته بألا يعين بعده وزيراً أول . واكتفى بمساعدة بعض كبار الموظفين ممن أحسن اختيارهم ، يشيرون عليه ، ولكنهم لا يقررون شيئاً . وحاول أن يعزز السلطة الملكية في جميع المجالات ، ويطبق (حكمة النظام) .

الملك والبلاط

ولد لويس الرابع عشر في سان ـ جرمن ـ أن ـ ليه ، في ٥ أيلول ١٦٣٨ م ، وأصبح ملكاً ويتيماً ، في ١٤ أيار ١٦٤٣ م ، وعمره أقل من خمسة أعوام ، وتأثر في طفولته بمؤثرين قطعيين : أولاً : تأثير أمه آنّ النساوية التي أهملت نوعاً ما تعليمه العام ، ولكنها طبعت فيه عواطف دينية عميقة ، وذوق آداب السلوك وأصول المجاملات والمراسم والتشريفات الرسمية على الطريقة الإسبانية ، ومعنى العظمة الملكية ؛ وثانياً ، تأثير مازارن . الذي اهتم ، بعد ١٦٤٦ م ، وبكثير من الجد بتربيته السياسية بشكل عملي وحسي أكثر مما هو نظري : فقد قبل في مجالس مختلفة منذ ١٦٥٠ م بصفة مراقب صامت ولكنه منتبه وواع . وفي هذه المجالس تعلم الملك الشاب رويداً رويداً (مهنة الملك) ، واكتسب فن السر ومعرفة عميقة عن أوربة ومشاكلها الدبلوماسية والعسكرية . وفي الوقت نفسه ، ساعدته شدائد

الفروند ، التي تركت في نفسه انطباعاً عميقاً ، على التجوال في جزء من مملكتـه . وبعد ذلك بقليل أصبح شاباً وفارساً لامعـاً ، وشـارك بنشـاط في حيـاة البلاط ، والأعياد ، والرقص ، ومباريات واستعراضات الفرسان ، والحب الأول ، ومافتئ يعدّ نفسه للحظة الأمل والخشية التي يكون فيها سيداً وحيداً .

كان الملـك جميلاً ومفعماً جلالاً دون أن يكون طـويـلاً ، وصحتـه وحيـويتـه أهل لمقاومة كل شيء ، ووفق بين لذاته وبين ممـارسـة مهنتـه ملكاً . وهـذا الـدأب على العمل سهل عليه باللذة التي يشعر فيها بأدائه . كان مجدّاً وشـديـد الـدقـة في مبـاشرة أعمـالـه في الوقت المعين ، رابـط الجـأش ، ومتعلقـاً بمعنى الجلالـة الملكيـة وبتذوقه السر والكتمـان . وإذا لم يكن عـالي الـذكاء ، فقـد مهر بحس سليم صلب يملي عليه أعقل الحلول عندما لا تعميـه غطرستـه . وكانت الغطرسـة عنـده تهيمن على كل شيء ، بل وتشكل طبيعته . والقول الحق هو أنه عندما اتخذ الشمس رمزاً وشعاراً ، لم يعمل سوى أن سلـك الـدروس التي طبعت فيـه منـذ طفولـة وسمعهـا طوال حياته . فبالنسبة لمنظري الحكم المطلق ، مثل الحقوقي (كاردن لوبريه) في (المطـول في سيـادة الملـك) (١٦٣٢ م) ، والراعي (إيلي مرلا) أو الأسقف بوسـويـه (السيـاسـة من الكتـاب المقـدس ١٦٧٧ م) ، الملـك يمثـل الله ، وليس مسؤولاً إلا أمامه وحده . إنـه تجسيـد للـدولـة ، ولـه كل السلطـات ، ويجب أن يطيعه الجميع لا تحت طـائلـة جريمة الاعتـداء على الجلالـة فحسب ، وإنمـا تحت طائلة خرق القدسيات أو الاعتداء على شخص قدسي أهل للإجلال . وهو مصدر كل عـدل : حقـاً إنـه يفوض سلطـاتـه إلى مختلف المحـاكم ، ولكنـه يستطيع دومـاً ممـارسـة هـذا الحق مبـاشرةً برفـع الـدعـوى إلى مجلسـه ، وبلجـانٍ فـوق العـادة ، وبرسائل العفو ، والرسائل المختومة أي الرسائل المغلقة بختم الملـك وتتضمن أمراً من جـانبـه . وهو مصـدر كل تشريع ، والقـانون الحي حسب (الحكمـة القـديمـة) . ويشرع بأوامر ، وبراءات ، وإعلانـات أو قرارات مجلس . وهو أخيراً مصـدر كل سلطـة إداريـة ، ويفـوض جـزءاً من هـذه السلطـة إلى عمـلاء ، أو مـوظفين ، أو

مفوضين يظلون نظرياً تحت إشرافه . ويفرض الضرائب بإرادته الوحيدة . وهو وحده قاضي النفقات . إن الحد الوحيد والمعترف به رسمياً للحكم المطلق الملكي يكمن في الاحترام الذي يلزم به حيال (القوانين الأساسية) للمملكة ، ولا سيما القانون السّالي(1) وعدم التصرف بالدومين الملكي ، والامتيازات ، وحصانة بعض الهيئات وبعض الأقاليم .

لقد تربى الملك على هذه المبادئ مفعماً بعمق بالعظمة الملكية وبالحقوق والواجبات التي تقتضيها ، ولذا يعتبر نفسه بحق كـ (نائب عن الله على الأرض) ، وهذه القناعة توحي بكل أعماله وكل أفعاله حتى اليومية منها ، وأصبح شخصه موضع عبادة حقيقية تمارس في نطاق البلاط . وظل هذا البلاط متنقلاً حتى ١٦٨٢ م ، ولا يقيم إلا نادراً في قصر اللوفر أو التويلوري ، ولكنه كان طوراً في قصر فونتينوبلو الذي أصلح ووسّع ، وطوراً في سان ـ جرمن ، وأحياناً في شامبور أو في فرساي حيث أمر لويس الرابع عشر ببدء الأعمال التي تحول جناح لويس الثالث عشر الصغير إلى مقام جدير به .

ومهما يكن المكان الذي يوجد فيه البلاط ، فإن الحياة فيه منظمة حسب آداب السلوك ، المقتبسة في جزء منها عن إسبانيا . **والأسرة الملكية** تحتل الصف الأول بعد الملك . ومن الستة أطفال الذين خلفهم الملك من الملكة ماريا ـ تيريزا ، الشخصية الممحية ، عاش أحدهم بعده ، وهو لويس الذي ولد في ١٦٦١ م ويلقب (الوارث الأكبر للتاج) أو: الخلف الأكبر أو: المونسنيور. وكان لقب أخي الملك ، فيليب دورلئان ، السيد (مسيو) . وقد ولد في ١٦٤٠ م ، وتزوج في ١٦٦١ م هنريت إنكلترا ، وبعد وفاتها المفاجئة ، في ١٦٧٠ م ، تزوج الأميرة البالاتينية التي ستكون أم دوق شارتر . وقد أبعد الملك أخاه عن كل وظيفة

---

(1) القانون السالي هو القانون الذي يستثني النساء من وراثة الأرض ، ثم فسر بشكل يحرم النساء من تاج فرنسا .

وتركه للذائذه المشكوك بها . كما أبعد أمراء الدم أيضاً عن السلطة ، وأعاد للأمير **كونده** اعتباره سواء على رأس الجيوش ، أم في قصره في شانتّي . وتوفي أخوه **كونتي** في ١٦٦٦ م تاركاً ولدين . وكانت **خليلات الملك** يتمتعن بمكانة هامة في البلاط ، ولكنهن لا يلعبن أي دور سياسي ، ونخص بالذكر لويز دو لافالبير التي انسحبت نهائياً عند كرمليات شايّو في ١٦٧٤م ، وخلفتها منذ ١٦٦٧ م المتغطرسة فرانسواز آتينابيس دو روششوار ـ مورتمار ماركيز دو مونتسبان ، ولها من الملك ثمانية أطفال . ويتقاسم جمهور رجال الحاشية الوظائف المتعددة والخدمات في البلاط التي كانت مصادر للشرف والكسب . وأصبحوا على هذا النحو وزراء العبادة الملكية ، ويشاركون حسب قواعد احتفالات معقدة في أوقات نهار الملك وبخاصة في الصباح والمساء ، ويقضون معظم وقتهم بالأعياد (كوميديات وحفلات راقصة) ، وفي دسائس ومكايد مسكينة ، حتى في أظلم الألعاب . فمن ذلك فضائح قضية السموم ، بين ١٦٧٠ و ١٦٨٠ م ، التي أساءت لسمعة عدة شخصيات في البلاط ، واقتضت ضرورة إنشاء غرفة حارة سميت (محكمة السموم) يوجهها (لاريني) وزج فيها (لابرانفيليه) ، (لافوازن) ، و (لافيغورو) إلخ . وكان لويس الرابع عشر يريد بإرجاعهم إلى هذا الدور ، أن يرفع جاهه الخاص ويمنع عودة الاضطرابات كاضطرابات الفروند . ولذا قصر أفضاله على النبلاء الذين كانوا ، خارجاً عن وجودهم في الجيش ، يظهرون بانتظام في البلاط ، وأفضل من ذلك أيضاً يقيمون فيه .

المجالس والوزراء

الملك يحكم ويقرر وحده . ولكنه لا يستطيع أن يستغني عن معاونيه ، وجدّ في اختيارهم لا من الأسرة الملكية ، والطبقة النبيلة العليا أو الاكليروس الأعلى ، وإنما من بين البورجوازيين أو رجال الرداء (اللباس) المتنبلين حديثاً ،

الـذين يكونـون أكثر تعلقاً بـه بـاعتبـارهم مـدينين لـه بـالنبـل والشرف والثروة لأنفسهم ولأسرتهم .

وهؤلاء المعاونون قليلو العدد : ثلاثة أو أربعة وزراء دولة ، ثلاثون مستشـار دولة ، وأقل من مئة قاضي عرائض مقرر في مجلس الدولة . وحافـظ لويس الرابع عشر على الأجهزة القديـمة ، وجمعهـا حول شخصـه وجعلهـا أكثر مرونـة ، ولاسيا بممارسة الجمع بين الوظائف وتغطيتها : مثل كولبر في آخر حياته . فقد كان مراقبـاً عاماً للماليـة ، ورئيس نظـار العمائر والفنون والمصـانع ، وأمين الـدولـة للبحريـة وبيت الملك .

وبنتيجـة تطـور بطيء وجـد **مجلس الملـك** ، في ١٦٦١ م ، مقسماً إلى عـدة أقسام متخصصة . وينعقد في أيـام مختلفـة . فـالأقسـام الثلاثـة الأولى كان الملـك يرأسهـا دومـاً . أمـا الأخير فكان يرأسـه المستشـار في الغـالب . والمجلس الأعلى ، ويسمى أيضـاً المجلس الضيق ، أو مجلس الشؤون ، أو مجلس الـوزارة ، هـو المجلس الحقيقي للحكومة . وتدرس فيه يومـاً على يومين تقريبـاً ، جميع الشؤون الكبرى في السياسـة الـداخليـة والخـارجيـة . ويـدعو الملـك إليـه من يريـد . والواقع أن الاستـدعـاء إليـه ولو مرة واحـدة يعطي الحـق بلقب وزير دولـة . وغـداة وفـاة مازارن ، دعا لويس الرابع عشر إليـه (فوكيـه) ، و (لوتيلليـه) و (ليونّ) . ولكنه في ٥ أيلول ١٦٦١ م ، أوقف فوكيه بعد أن أغاظه بـذخـه وزهوه ، وجعلـه يـدفع ثمن سـوء تصرفـه الخـاص وسـوء تصرف مـازارن أيضـاً : ومثـل أمـام لجنـة استثنـائيـة ، وحكم عليـه بـالنفي في ٢٠ كانـون الأول ١٦٦٤ م . ولكن الملـك ، بسلطته الخاصة ، أمر بتخفيف العقوبة إلى الحجر الـدائم . ومنـذ أيلول ١٦٦١ م ، كان كولبر عـامـلاً أسـاسيـاً في خسـارة فـوكيـه ، وخلفـه وزيراً للـدولـة . وحتى ١٦٧١ م ، لم يدع الملك إلى المجلس الأعلى إلا الثلاثي الجـديـد : لوتيلليـه ـ ليونّ ـ كولبر . وفي هذا العام ١٦٧١ م ، عند وفاة ليونّ ولوفوا ، ابن لوتيلليـه ، وآرنولـد

دو (بومبونّ) الذي انيب بعد فقدان حظوتـه في ١٦٧٩ م بـ كولبر دو كرواسي ، دخلوا المجلس بدورهم .

مجلس الرسـائل ، يضم كل خمسـة عشر يومـاً مبـدئيـاً ، الجهـاز الحكـومي ، ولا سيما أمناء سر الـدولـة . وتقرأ فيـه الرسـائل القـادمـة من الأقـاليم وتحضر فيـه الأجوبة عليها .

مجلس المالية الملكي ، أحدث في أيلول ١٦٦١ م نيابـة عن رئـاسـة النظـارة . ويضم عدا رئيس المجلس ، وهذه الوظيفـة شرفيـة صرفـاً ، نظـار المـاليـة ، وبعـد ١٦٦٥ م ، المراقب العام . ويهتم بجميع المسائل المالية .

أما مجلس الدولة أو المجلس الخاص أو الأطراف ، فهو جمعية حقيقيـة يرأسهـا المستشار ، على يسار كرسي الملك الفارغ ، ويتألف ، إلى جانب وزراء الـدولـة ، وأمناء الدولة ، من قضاة ممتهنين : ٣٠ مستشار دولة ، و ٨٠ إلى ١٠٠ قـاضي مقرر عرائض . ولهذا المجلس حق **إداري** في بعض القضايا المالية بخـاصـة والنظر فيهـا ، **وتشريعي** أي أنـه يصـدر قرارات المجلس ويهيء البراءات والأوامر ، وبخـاصـة **قضائي** ، أي أنه يؤلف المحكمة العليا التي تنظر في القضايا المدنية والإدارية .

إما **معاونو الملك** الأسـاسيون الـذين ليس لهم حق بلقب وزراء دولـة إلا في الحد الذي يأخذون مقاعدهم في المجلس الأعلى ، وهذه الحالة أبعد مـا تكون ، فهم المستشـار ، والمراقب العـام للمـاليـة ، وأربعـة أمنـاء دولـة . والمستشـار هـو ثـاني شخصية في المملكـة من حيث المنصب ، وهو رئيس القضـاء وحـافـظ للأختـام ، ولا يعـزل ، ولكن الملـك يستطيـع دومـاً أن يسحب منـه الأختـام ، أي حقيقـة وظـائفـه . وفي الـواقـع إن المستشـار سيغيـه المتـوفى في ١٦٧٢ م وداليغر (١٦٧٤ ـ ١٦٧٧ م) لم يلعبا إلا دوراً ثانوياً في الحكومة . أمـا لوتيلليـه وزير الـدولـة فـإن واقع خلافته لـداليغر كان مكافـأة بمهنـة جميلـة أكثر ممـا هو تزايـد سلطـة حقيقي (١٦٧٧ ـ ١٦٨٥ م) .

ولقب **المراقب العام للمالية** لم يحدث إلا في ١٦٦٥ م لصالح كولبر . فقد حذف الملك وظيفة رئيس النظار في أيلول ١٦٦١ م ، ولكن منذ هذا التاريخ مارس كولبر فيها الوظائف ، كوزير دولة ، وناظر للمالية ، وعضو لمجلس المالية . ولم يكن المراقب العام على رأس الإدارة المالية كلها فحسب ، بل كان يوجه أيضاً النشاط الاقتصادي كله .

وأمناء الدولة الأربعة : الخارجية ، الحرب ، البحرية ، بيت الملك ، يملكون الصلاحيات التي يقتضيها منصبهم ويحافظون أيضاً على حق النظر في إدارة الأقاليم ، حسب (المقاطعة) أو حسب توزيع متغير . وفي (**الشؤون الخارجية**) خلف آرنولد بومبونّ (١٦٧٢ ـ ١٦٧٩ م) ثم كولبر دو كرواسّي (١٦٧٩ ـ ١٦٩٦ م) هوغ دوليونّ . وفي **الحرب** ، حصل ميشيل دوتيلليه ، أمين الدولة من ١٦٤٣ م إلى ١٦٨٥ م ، لابنه لوڤوا وراثة وظيفته منذ ١٦٥٥ م وشاركه في الشؤون منذ ١٦٦٢ م . وتخلى له عن توجيه الحرب في ١٦٧٧ م عندما أصبح مستشاراً . وفي البحرية ، أصبح كولبر أميناً للدولة في ١٦٦٩ م ، والتحق به في وقت مبكر ابنه (سينيوليه) .

وهكذا يرى في المجلس الأعلى وفي الوظائف الحكومية ، تجدد الجهاز قليلاً . لأن الملك لا يحب الوجوه الجديدة بل يشجع صعود سلالتين أو ثلاث سلالات من الموظفين المخلصين والمجربين : آل كولبر ، آل تيلليه ، وبصورة ثانوية آل فيليبو (لافريلير وبونتشار ترن) . وفي الواقع ، لعب رجلان في الجزء الأول من حكم لويس الرابع عشر الشخصي ، دوراً من الصعيد الأول ، وهما : كولبر ولوڤوا .

ينتسب جان ـ باتيست كولبر (١٦١٩ ـ ١٦٨٣ م) إلى أسرة بورجوازيين من مدينة رنس ، في منطقة الشامبانيا ، يعملون تجاراً وموظفي الملك . بدأ حياته (مهنته) في ١٦٤٠ م كمستخدم موظف مكتب عند ميشيل لوتيلليه أخي

زوجة أحد أعمامه . وفي ١٦٥٠ م أوصى لوتيلليه به مازارن فجعل منه رجل ثقته . اهتم بشؤون الكردينال الخاصة ، وبدأ ثروته الخاصة ، وتمرس على القضايا الكبرى في الدولة . وفي ١٦٦١ م ، وبناء على توصية مازارن ، سماه لويس الرابع عشر ناظراً للمالية . وعندئذ استشرى كولبر في ضياع فوكيه ، ليكون خلفاً له . وساعدته قدرته العجيبة على العمل ، وفكره المنظم والأصولي المنهجي على القيام ، خلال أكثر من عشرين عاماً ، بعمل عظيم . فقد كان يقوم وحده بعمل عدة وزراء ويهتم عملياً بكل إدارة المملكة ، باستثناء الشؤون الخارجية والعسكرية . لقد كان طبعاً باسراً وفظاً ، ومتكبراً لدرجة السخرية أحياناً ، وجشعاً منهوماً لا يشبع . وهذه الصفة شائعة غالباً عند رجال هذه الوظيفة : وهو لم يجمع ثروة عظيمة فحسب بل أمن ثروة عائلته ، ودفع إخوته ، وأبناءه ، وأبناء عمه ، وأبناء إخوته إلى المناصب العليا في الدولة أو الكنيسة بتزويج بناته إلى ثلاثة أدواق وشيوخ (شيفروز ، بوفيلليه ، مورتمار) . وتكمن عظمته في الطاقة التي يبذل فيها نفسه لخدمة الملك والدولة .

وفرنسوا ـ ميشيل لوتيلليه ، ماركيز دو لوفوا (١٦٤١ ـ ١٦٩١ م) ، شارك ، وهو شاب جداً ، أباه ، وأصبح منذ ١٦٦٢ م رئيساً حقيقياً لوزارة الحربية ، بانتظار دخوله المجلس الأعلى في ١٦٧٢ م ، وخلافة والده في ١٦٧٧ م . كان فكراً واضحاً ودقيقاً ، وكان أيضاً شغيلاً كبيراً ، وجشعاً مثل كولبر ، وطموحاً شرساً لا يداري أحداً إلا لويس الرابع عشر ، فقد كان يعرف كيف يمالؤه دون حياء . وأسهم تأثيره على الملك ، ولا سيا انطلاقاً من ١٦٧٩ م ، في إعطاء السياسة الفرنسية طابعها العدواني والمتسلط . ولكن ، مهما يكن الدور الذي لعبه كولبر ولوفوا ، فإن لويس الرابع عشر ، الذي يلعب بالتنافس الدائم بين الرجلين ، ظل في كل حين السيد الوحيد الذي يقرر ، ولولاه لعاد هذان الموظفان الكبيران إلى العدم .

توطيد النظام

لقد كتب الملك في « مذكراته » : « الاضطراب يسود في كل مكان » ، وهذا القول لا يخلو من مبالغة فيما يتعلق بالحالة الداخلية في ١٦٦١ م . وكان العمل الأول الذي انصرف له بادئ ذي بدء ، بمساعدة كولبر ، توطيد النظام .

أولاً : مراقبة الهيئات الكبرى في الدولة . لقد ردت الطبقة النبيلة إلى الصمت و « دجنت » في البلاط . وكان الحكام في الأقاليم دوماً من كبار الأمراء . ولكنهم لا يسمون إلا لمدة ثلاث سنوات ، ويمكن التجديد لهم ، وهم ملزمون بالإقامة بالقرب من الملك ، لا في حكومتهم حيث تكون وظائفهم العسكرية في أيدي نواب عامين عنهم وأقل نبلاً منهم . وكانت مجالس الاكليروس ودسائس الورعين مراقبة بعناية . والمجالس ذات السيادة التي أصبحت تسمى المجالس العليا ، انطلاقاً من ١٦٦٥ م ، قد أخمدت لزمن طويل : فكان على البرلمانات أن تسجل البراءات دون مناقشة ولا تصويت (كانون الأول ١٦٦٥ م) ولا يمكنها أن تقدم « نصحاً محترماً إلا بعد هذا التسجيل . والملك أيضاً لا يقيم لها أي اعتبار . ولأقل بادرة مقاومة يرسل البرلمانيون إلى المنفى ، مثل منفى مدينة (رين) في ١٦٧٥ م . ووضعت اجتماعات الضباط في استحالة لتجديد ثورة الفروند . وفي ١٦٦٢ م . ألزم مديرو الخزائن المالية والمنتخبون بحل النقابات التي شكلوها ووضعوا تحت رقابة النظار المباشرة . حتى ان عدد وظائفهم بالشراء قد نقص . وأوقف لعدم وجود وسائل مالية كافية .

وبقيت **المجالس الإقليمية** ولاسيا في بروتانيا ، بورغونيا ، واللانغدوك ، ولكن انتقاء أعضائها لم يكن حراً ، وجلساتها متباعدة وسريعة ، وأصبحت سلطاتها ظاهرية صرفاً . وكذا حال مجالس الطوائف التي حلت في البروفانس محل المجالس في ١٦٣٩ م .

أما المدن ، والكثير منها بؤرات اضطراب أثناء الفروند ، فكانت محرومة

من حق انتخاب موظفيها البلديين بعد تسمية الملك لهم ، وفي مدن أخرى كانت الانتخابات مراقبة جداً . وأخيراً ، بحجة التنظيم في حساباتها التي كانت في الغالب مثقلة بالديون ، كان الناظر يتدخل باستمرار في إدارتها . وفي باريس ، أحدثت براءة آذار ١٦٦٧ م قاضياً جديداً ، يسمى **نائب الشرطة العام** ، وكانت وظائفه واسعة جداً : الأمن ، تفتيش العمائر العامة ومراقبة الألعاب العامة ، وإدارة الأعياد والتموين ، والإعاشة ، والأوبئة ، ومراقبة الأخلاق ، والرقابة على الكتب . وكان أول موظف لهذه الوظيفة نيقولا دو لاريني الغيور والقوي بشكل عظيم . وقد أسهم في جعل هذه الوظيفة وظيفة من الأهمية الأولى .

ثانياً : إصلاح التشريع ، ويصدر أيضاً عن تطبيق (حكمة النظام) . وقد أسف الملك وكولبر من تنوع التطبيقات الحقوقية الجارية في التعامل (الحقوق الرومانية في الجنوب ، والأعراف المختلفة في الشمال) فحاولا إقامة وحدة تشريع . ولهذا الغرض أحدثا في أيلول ١٦٦٥ م مجلساً عدلياً يضم مستشاري المجالس وبرلمانيين ويسجل ست قوانين عظيمة . وإن أمر سان ـ جرمن المدني أو قانون لويس (١٦٦٧ م) ، وأمر المياه والغابات (١٦٦٩ م) ، والأمر الجنائي (١٦٧٠ م) ، والأمر التجاري أو القانون التجاري (١٦٧٣ م) . والأمر البحري (١٦٨١ م) . والأمر الاستعماري أو القانون الأسود (١٦٨٥ م) ، يحاول كل منها في مضماره أن يثبت مبادئ تنظيم منهجي وحيد الشكل . وفي الواقع ، إن المسافة ستكون في الغالب واسعة بين هذه النصوص وتطبيقها . ونقائص العدالة ، بخاصة ، ظلت واضحة : من تعدد المحاكم ، بطء ونفقة الدعاوي ، وفظاعة الأصول الجنائي .

ثالثاً : الحفاظ على الهدوء العام ، كان من الواضح ، في نظر الملك ، متطلباً أساسياً . ففي ١٦٦٥ ـ ١٦٦٦ م ، عقدت لجنة فوق العادة من برلمان باريس في مدينة كليرمون **أيام أوفيرن العظمى** لمعاقبة عدد من الأمراء اللصوص قطاع

الطرق الذين يسلبون البلاد . وكانت الثورات الشعبية أقل حدوثاً مما كانت في النصف الأول من القرن ، ولكنها ، على الأقل ، كانت تحدث بين حين وآخر بسبب البؤس أو إحداث ضريبة جديدة . وكانت تقمع بلا رحمة ، كما في إقليم بولونيه في ١٦٦٢ م ، وفي (شالوس) و (بيارن) في ١٦٦٤ م حيث كان النبيل (أوديجوس) على رأس الثائرين ، وفي الفيفاريه في ١٦٧٠ م ، وفي غويّنّ وفي بروتانيا في ١٦٧٥ م . وفي حالة التمرد المكشوف ، كان إرسال الجنود الملكية أمراً لاغنى عنه . وفي الزمن العادي تكفي رقابة النظار لتجنب الاضطراب ، وقمعه عند مقتضى الحال .

رابعاً : النظار ، أصبح النظار في الواقع الأدوات الكبرى في تعزيز السلطة الملكية . لقد وطدوا غداة الفروند . ولم يكونوا في ذلك التاريخ غير مفوضين مخولين بصفة موقتة بالتحقيق والتفتيش في عمومية (دائرة مالية) أو عدة عموميات . وهذا هو الهدف الذي عينه كولبر لهم أثناء التحقيق الكبير الذي أجري في عام ١٦٦٤ م . وكان أول مثال لوصف إحصائي ومنظم في المملكة . وفي الواقع إن التطور الذي بدأ منذ عهد ريشليو قد تسارع وانتهىٰ : فنحو ١٦٧٠ م ، كان يوجد في جميع العموميات أو الأقاليم ، ما عدا بيارن وبروتانيا ، ناظر ثابت ودائم ، وقد انتقل من محقق بسيط وأصبح مديراً . والناظر مفوض انتخب في الغالب من بين قضاة ومقرري العرائض ، وخول سلطات عظيمة جعلت منه بحق (الملك الحاضر في الإقليم) .

وناظر العدلية ، يراقب جميع الموظفين الداخلين في نطاق صلاحيته ، ويستطيع أن يرأس جميع المحاكم ويؤسس لجاناً استثنائية . وناظر الشرطة ، يحافظ على النظام ويهتم بمشاكل الإعاشة والجسور والمعابر ، ويراقب البلديات وناظر المالية ، يسهر على توزيع وجباية التاي (القامة) بواسطة المنتخبين وأمناء الخزانة الفرنسية في بلاد الانتخابات ، ويعرض على المجالس الإقليمية

المتطلبات الملكية في بلاد المجالس أي الأقاليم المنضمة حديثاً إلى التاج . ولممارسة هذه السلطات العظيمة ، كان يساعد هؤلاء النظار في بادئ الأمر بعض الموظفين المحليين الذين ينتخبهم النظار بأنفسهم ، وفي الغالب على نقيض تعليمات كولبر ، ويقبلون القيام بدور المفوض الملحق دون لقب رسمي ودون ضمان .

وأسهمت الامتيازات العديدة الخاصة بالنظار في خنق النشاط الحقيقي للسلطات المحلية الأخرى . وإذا بقيت بعض الطوائف القروية حية في مكانها المتواضع جداً ، فذلك لأنها أفادت كوسطاء مجبرين بين الناظر والفلاح الذي يخضع لضريبة القامة . فقد كان المجلس العام (الجمعية العامة) لزعماء الأسر الأساسيين ينعقد يوم الأحد بعد القداس تحت رئاسة ممثل الأمير ، أو وكيل منتخب عنه ، والخوري ، للاهتمام بخاصة في تسيير وإدارة الأموال القروية (القومونية) وتوزيع ضريبة التاي . وهذا المجلس هو آخر حلقة السلسلة التي تربط كل فرد بالملك وتلزمه بالطاعة والدفع .

الملك والوقائع الاقتصادية

لقد نجح لفترة الجهد العظيم الذي قام به كولبر لتوطيد توازن المالية وتنمية الصادرات . ولكن النفقات المخصصة لحرب هولاندا والمشاكل المرتبطة بظرف البطء في الأعمال ، توضح في الجزءالأعظم منها ظهور العجز من جديد وإخفاقاً نصفياً للكولبرتية ، بالرغم مما أحرزت من نجاحات لا نزاع فيها .

المشاكل المالية

لقد أفاد كولبرمن اثنتي عشرة سنة سلاماً ، من ١٦٦٠ ـ ١٦٧٢ م ، على اعتبار أن حرب نقل حق الإرث[1] التي قام بها لويس الرابع عشر ، بعد وفاة فيليب الرابع ملك إسبانيا . مطالباً بالبلاد ـ المنخفضة باسم زوجته ماريا ـ

(١) حرب نقل حق الإرث هي المعروفة باسم : LA GUERRE DE DÉVOLUTION .

تيريـزا ، وليـدة أول زواج لفيليب الرابـع ، كانت سريعـة وقليلـة التكاليف ، واستطاع أن يعيد النظام في المالية ويؤمن موازنة متوازنة ، بفضل أعمال المحاسبـة الشـديـدة والإقلال من الأعبـاء ، ومردود أفضل للضريبـة . وغـاظـه الاضطراب واللبس اللـذان أدخلها فـوكيـه وأسلافه على إدارة الخـزينـة العـامـة ، فقرر ، كمحاسب صالح ، أن يضع بيانات بسيطة وسهلة للواردات والنفقـات ، ليستطيع الملـك أن يعلم في كل حين الوضع الـدقيق والـواضـح لخـزينتـه . ولهـذا الغرض ، أمسك بانتظام ، انطلاقاً من ١٦٦٧ م بـ (سجل كبير) للواردات ، وبدفتر يومية (جورنال) للنفقات يطلع الملـك عليهما في كل شهر . وفيما يتعلق بـالموازنـة يضع (بيان التوقعات) ، في تشرين الأول ، الموازنة المؤقتة للسنـة التـاليـة ؛ ويسجل (البيان الحقيقي) في شهر شباط الحسابات النهائية للسنة المنصرمة .

وفوق ذلك ، تعلق كولبر في الإقلال من أعباء الـدولـة ، وافتـدى عـدداً من الوظائف غير المفيدة ، التي يكلف دفعها غالياً جداً ، وقام بتخفيض أو حتى إلغـاء قروض الدولة المبرمة بخاصة في عهد ريشليو ومازارن ، والتي يمتص دفع فوائـدهـا كل سنـة أكثر من ثلث الـواردات . وكان الـوفر المتحقـق على هـذا النحـو عـدة ملايين . ونقص نصيب أعباء الموازنة الـدائمـة (رواتب الموظفين والقروض) أكثر من النصف في عشر أعوام . وأقيمت محكمة عدلية من ١٦٦٢ إلى ١٦٦٩ م للبحث عن التجاوزات والاختلاسات المرتكبة منذ ١٦٣٥ م . وإذا استطاع الموظفون الماليون المرتكبون أن يفروا ، فقـد استطـاعت الخزينـة أن تسترجع أكثر من ١٠٠ مليـون ليرة .

وأخيراً، حاول كولبر زيـادة الواردات بفضل حصيلـة أفضل من الضريبـة . وفي الحقيقـة ، كان خير من يعلم عيـوب النظـام الضريبي . لأن الضرائب كانت ثقيلة وغير كافية معاً ، وسيئة التوزيع والجباية . فمن ضريبة التاي : الشخصية أو العينية حسبما تتناول الدخول المقدرة بشكل اعتبـاطي إما على الأشخـاص أو على

الأموال ، يستثنى أعضاء الفئتين المتمازين وأيضاً بعض الموظفين ، سكان المدن الحرة وبعض الأقاليم . والضرائب غير المباشرة ، كضرائب المساعدات على الأشربة ، والرسوم الجمركية الداخلية والملح ، كانت تجبى من قبل متمولين التزموا بها وتكلف الأشخاص المفروضة عليهم أكثر مما تأتي بحصيلة للملك . على أن كولبر ، وإن لم يستطع أن يذيب كلياً من جديد نظاماً يشكك بخاصة ببنية الدولة الاجتماعية ، فقد حاول على الأقل أن ينقص بعضاً من مساوئه . أنقص تدريجياً التاي الشخصية التي أصبحت ثقيلة الحمل إثر الزيادات التي توالت منذ ١٦٣٥ م . وفي الوقت نفسه أصبحت جبايتها أسهل وأسرع وأقل كلفة . وسمحت ملاحقة المعفين بشكل سيء ، ولا سيا النبلاء المزيفين ، بتوزيع أفضل للعبء المشترك . وكذلك زادت حصيلة الضرائب غير المباشرة بصورة جوهرية بسبب الرقابة الوثيقة على الملتزمين أكثر من زيادة التعرفات . وكذا الحال من أجل موارد الأملاك الملكية . وبالمقابل ، زادت بعض الضرائب كهبات الاكليروس المجانية وبعض الأقاليم ، والتاي العينية التي كانت أقل ثقلاً حتى الآن من التاي الشخصية .

وأعطت هذه الجهود المنظمة ثمارها : فمن ١٦٦١ إلى ١٦٧١ م تضاعفت موارد الدولة بشكل واسع . ومنذ ١٦٦٢ م ، تجاوزت الواردات النفقات . ودامت هذه الحال كل سنة حتى ١٦٧٢ م ، ما عدا سنة ١٦٦٨ م .

ولكن مع حرب هولاندا ، بدأت مشاكل مالية ولم تنقطع . فقد أصبح عجز الموازنة قاعدة . ويتضح ذلك بصورة أساسية بالنفقات الثقيلة دون انقطاع التي جرتها سياسة الملك العدوانية في أوربة ، وبناء قصر فرساي ، ونفقة البلاط . وأكثر من ذلك أن لويس الرابع عشر ، بالرغم من الرجاء الحار الذي أبداه وزيره ، أكثر في سياق السنة « الاعترافات بالدفع نقداً » دون تبرير ، فجعل بذلك حسابات الموازنة ، وحالة التبصر والاحتياط وهمية . ولمواجهة الوضع ، قرر كولبر زيادة الضرائب : التاي والمساعدات ، والملح ولاسيا اللجوء إلى

الأعمال الاستثنائية ، أي تطبيق طرق ووسائل مهجورة منذ عهد فوكيه : كبيع الوظائف والقروض من الأفراد ، بفضل صندوق القروض الذي أنشئ في ١٦٧٤ م ، والاستيلاء الجزئي على الدومين الملكي ، وإنشاء رسوم جديدة : حصر التبغ ، توسيع فرض الورق المدموغ (العرائض المدموغة) . كما أن إحداث (الالتزام العام) ، في ١٦٨٠ م ، لجباية الضرائب غير المباشرة ، ساعد الملك على قبض موارد هذه الضرائب جملةً ، ولكنه فاقم التحكم في جبايتها .

المشاريع الاقتصادية والإنجازات الأولى

إن السياسة المالية التي حاولها كولبر تفترض بلداً غنياً وقادراً على دعم (مجد الملك) بالضريبة . وكان الوزير يشاطر معاصريه القناعة بأن كمية الذهب والفضة المتداولة في العالم تكاد تكون ثابتة تقريباً ، وأن غنى الدولة يقاس بنقدها . ولا ثراء المملكة ، يجب الشراء من الأجانب قليلاً ، وبيعهم كثيراً . وعرض بنفسه أفكاره على هذا الصعيد مراراً مختلفة .

وعندما أراد كولبر تحقيق هذه السياسة الاقتصادية ، لم يعمل سوى أن استأنف لحسابه (الأفكار المركانتيلية) التي حاولتها فرنسا سوللي أوريشليو ، وانكلترا اليزابيت ، وهولاندا المستقلة ، بكثير أو قليل نجاح ووضعها موضع التطبيق . والجديد هو الجهد المنظم الذي بذله لتوجيه الاقتصاد الفرنسي ، وإخضاعه لوجهات نظره ، فنقل بذلك الحكم الملكي المطلق إلى الصعيد الاقتصادي .

أما المشاكل الزراعية فلا تهمه إلا بصورة ثانوية . وفي الحقيقة ، إن الزراعة أسيء إعدادها لتطبيق مشاريع قاسية وصلبة كثيراً . ومع ذلك ، كان يرجو بأنها بأنها تستطيع أن تجهز المدن بالخبز والمواد الأولية بسعر رخيص ، وهذا ما جرى بين ١٦٦٣ و ١٦٧٤ م ، عندما ولت أزمة الإعاشة الفظيعة من ١٦٦١ إلى ١٦٦٣ م بسبب تدني الأسعار والظروف الجوية الملائمة .

أما الإنتاج الصناعي فكان بـالعكس يسترعي كل اهتمام كولبر . فقـد حـاول تنميته وتنظيمه ، وحمايتـه ، وتـأمنت تنميـة الإنتـاج بملاحقـة العـاطلين عن العمل ونقص عدد أعياد البطالة ، وتقليد الإنتاجات الأجنبية : تنتنة هولانـدا ، مرايـا البندقية ، حراير إيطاليا ، وبخاصة إنشاء مصانع ممتـازة تشتغل بصورة أسـاسيـة للتصدير : فبعضها ، كانت تخص الدولة وتشتغل مباشرة لها ، مثل مصـانع سجـاد (الغـوبلن) (١٦٦٧ م) ؛ وبعضهـا الآخر ، المصـانع الملكيـة ، يخص الأفراد ، ولكنها تأخذ من الملك امتيازات هامة كالإعفاء من الضريبة ، وحصر الصنـاعـة ، وتأمين مساعدة ماليـة ، مقـابل تعهـدات واضحـة في الإنتـاج ، من حيث الكميـة ولا سيا الكيفية . وهذه حالة مصانع (القلانس) في مـدينـة (تروا) المنتشرة في مشاغل (ورشات) صغيرة ، أو مصنع الأقمشة الذي أنشئ في (آبفيل) في ١٦٦٥ م على يد الهولاندي (فان روبيه) .

أما التنظيم فمن عمل مجلس التجارة الـذي نظم من جـديـد في ١٦٦٥ م ونشر انطـلاقـاً من ١٦٦٦ م أنظمـة عـامـة على المصـانـع وبراءات خـاصـة على مختلف الصناعات ، تثبت التفاصيل التقنية في الصنـاعـة وتعـاقب بشـدة إسـاءة الصنع . وليؤمن كولبر بشكل أفضل تنفيـذ هـذه الأوامر ، شجـع الإكثـار من الصنـاعـات المحلفة ، التي سميت فيما بعد **الأصنـاف** ، ولا حق الصنـاعـات الحرة بموجب براءة ١٦٧٣ م . وخول مفتشي المصانع ، الذين أحدثت وظيفتهم في ١٦٦٩ م ، والنظـار صلاحيات واسعة للإشراف والمراقبة .

وتأمنت **حماية** المصـانع الفرنسيـة ، في ١٦٦٤ م ، بتعرفـة جمركيـة جـديـدة ضربت بثقلها المنتجات الأجنبية لدى دخولها فرنسا . وفي ١٦٦٧ م انتهت زيـادة جديدة بتحريم كل المنتجات الإنكليزية والهولاندية تقريباً .

وفي سنـوات ١٦٦٤ ـ ١٦٧٢ م كانت نتـائـج هـذه الجهـود عظيمـة . غير أن الإنتاج ليس كل شيء ، إذ يجب البيع في الخارج . وهذا يفترض أولاً أن المنتجات

تستطيع أن تمر في أفضل الشروط في داخل المملكة ولا سيا باتجاه موانئ الإقلاع الكبرى . ويبدو أن كولبر كان يرجو تحقيق وحدة جمركية بحذف الجمارك الموجودة على حدود كل إقليم والرسوم البلدية أو الأميرية . ولم ينجح إلا جزئياً ، وبخاصة مع التوحيد الجمركي لأقاليم وسط المملكة التي تؤلف ، انطلاقاً من ١٦٦٤ م ، (الجبايات الخمس الكبرى) . وبذلت جهود لتحسين المرور على الطرق المائية : مثل قناة أورلئان ؛ وقناة البحرين أو قناة الجنوب بين تولوز وسيت ، التي بنيت بفضل إصرار وعناد المهندس (ريكيه) بين ١٦٦٦ و١٦٨٠م . أما الطرق نحو الموانئ الكبرى ، وكذلك الطرق الستراتيجية في الشمال الشرقي ، فكانت موضع عناية ولكن النتائج كانت ضعيفة .

والأساسي هو زيادة حجم وقيمة التجارة الخارجية ، وبشكل تؤمن فيه بسفن فرنسية . ونحو ١٦٦٠ م ، كان للسفن الهولاندية أوفى نصيب من التجارة الفرنسية . ولمحاولة التخلص من هؤلاء الوسطاء ، شجع كولبر المنشآت البحرية وخصص جوائز لأصحاب السفن وبنائها وحاول بخاصة إنشاء شركات تجارة مهرت بحصر استغلال وبامتيازات هامة : ففي ١٦٦٤ م ، شركة الهند الشرقية للتجارة مع المحيط الهندي وبلاد التوابل ، وشركة الهند الغربية لاستغلال جزر السكر (سان ـ كريستوف ـ الغواديلبوب ، المارتينيك ، ومن ثمّ الجزء الغربي من سان ـ دومينغ) ؛ وفي ١٦٦٩ م ، شركة الشمال للتجارة في البالطيك ؛ وفي ١٦٧٠م ، شركة الشرق باتجاه البحر المتوسط الشرقي . ولم يدخر لويس الرابع عشر وكولبر أي جهد لمحاولة إغداق الأموال الخاصة نحو هذه الشركات : كالدعاية والضغوط ، والتهديدات . ولكن النتائج كانت مخيبة جداً ، ومواقع الهولانديين التجارية في فرنسا وفي العالم لم تمس إلا قليلاً ، حتى ان الملك ووزيره ، في ١٦٧٠م ، كانا مقتنعين بأن الاستقلال الاقتصادي للمملكة ونهوض تجارتها الخارجية يستوجبان أولاً الهزيمة العسكرية للأقاليم ـ المتحدة بل وحتى ضمها ببساطة .

تبدد الأوهام والوقائع

إن الحرب التي أثيرت في ١٦٧٢ م لم تؤد إلى النتائج المتوخاة . وفي الحقيقة ، خرجت هولاندا من النزاع منهوكة القوى ، وخاسرة جزئياً ، ولكنها ليست مغلوبة ولا مجزأة ، حتى ان لويس الرابع عشر اضطر إلى التخلي ، بموجب بند من معاهدة (نيميغ) ، عن التعرفة الجمركية لعام ١٦٦٧ م . والشركات التجارية الكبرى ، التي أسيء دعمها برؤوس أموال خاصة غير كافية ، أصبحت في خطر الإفلاس أو زالت من الوجود منذ أصبحت مساعدة الدولة قليلةً : فقد حلت شركة الهند الغربية في ١٦٧٤ م ؛ وشركة الشمال كانت عاجزة عن انتزاع التفوق في تجارة البالطيك من الهولانديين ، وزالت في ١٨٨٤ م ؛ وشركة بلاد الشرق ، شرقي المتوسط ، صفيت في ١٦٩٠ م . إلا أن شركة الهند الشرقية وحدها نجحت في تماسكها بفضل مهارة بعض وكلائها : مثل فرنسوا مارتن ، مؤسس وكالة بونديشيري في ١٦٧٤ م . ولكنها لم توزع على مساهميها إلا أنصبة تافهة من الأرباح حتى انها تخلت عن حصرها في ١٦٨٢ م ، كما أن تراخي دعم الدولة المالي للمصانع الكبرى ، ما عدا المصانع التي تهم المجهود الحربي ، كمصانع الحديد والصلب والفولاذ ، والترسانات أو مجد الملك كمصانع الغوبلن ، أدى ، بعد ١٦٧٤ م ، إلى زوال الكثير من التي أنشئت بمصاريف كبرى في سنوات ١٦٦٠ م .

والواقع ، بعد ١٦٧٢ م ، في أن الأموال العامة ، التي كانت في حالة عسر ، لم تستطع أن تدعم ، كما في السابق ، الاقتصاد الفرنسي ، لا يكفي لإيضاح الإخفاق النصفي للسياسة الكولبرتية . لقد كان للكولبرتية جذور عميقة في المقاومات التي لاقتها في داخل المملكة ، وفي قدرة المنافسين الأجانب وفي الظرف الاقتصادي .

إن تدخل الدولة والتنظيم المنظم اللذين فرضهما كولبر ، قد تحملهما بجزع المستحدثون وكبار أصحاب المصانع والتجار وأصحاب السفن ومجهزوها . لقد اعتاد هؤلاء على الحرية ، ولذلك قبلوا بعناء التنظيمات والحصور ، وحاولوا أن

يلفوا حولها ، وبنجاح في الغالب . وبدت جهود المفتشين عبثاً ، حتى ان قسماً عظيماً من نشاط المصانع نجا من كل رقابة : كالصناعات الحرة في المدن ، بالرغم من براءة ١٦٧٣ م ، وعمل المستحدثين أو الفلاحين في الأرياف . وكان قسم من أوساط الأعمال يرجو التوسع في حرية العلاقات التجارية مع البلاد المجاورة ، بل وقدمت في ١٦٦٨ م مذكرة مغفلة تنتقد سياسة كولبر المركانتيلية والحماية الجمركية .

وأكثر ثقلاً بالنتائج كانت اللا مبالاة التي اصطدم بها الملك ووزيره في جهودهما لجذب رساميل البورجوازية الفرنسية نحو التجارة البحرية الكبرى والمصانع . واصطدمت طلبات الإسهام بشركتي الهند ، في ١٦٦٤ م ، برفض الجماعات أو الأفراد التي وجهت لهم . وصرح بهذه المناسبة عمدة مدينة (آنجه) بقوله : « لا يوجد أحد في هذه المدينة يريد الدخول في هذه الرابطة ، وهذا متأت عن فقر السكان » . وهذا العذر السهل صحيح جزئياً ، ولكنه على كل حال ناقص جداً . والواقع ، أن الثراء الفرنسي يفضل أن يتوظف في الفائدة المتأتية عن العقارات ، وقروض الدولة ، وتشكيل دخول فوائد بين الأفراد ، وفي شراء الوظائف . أما كبار مجهزي السفن والتجار فيفضلون ركوب الأخطار في سبيل مشروع تجاري خاص بشدة ، عوضاً عن أن يوظفوا أرباحهم في هذه الشركات الكبرى التي يخشون حصرها وامتيازاتها ويعتبرونها مرتبطة كثيراً بالدولة . وماهو صحيح على الصعيد التجاري صحيح أيضاً وبصورة عريضة جداً على صعيد المصانع .

ومن جهة أخرى ، إن الإنكليز والهولانديين منافسون يخشون كثيراً ولا يمكن طردهم وإزاحتهم في بضع سنين . وإنتاج المصانع الإنكليزية و الهولاندية من نوع ومن غزارة من العسير مساواتها . وكذلك المواقع التجارية للبلدين في بحر الشمال ، والأطلسي والمحيط الهندي ليست سهلة المساس . وبفضل الأسطول

والبنـك ظل الهولانـديون « جـوابي البحـار » المـوثـوقين والأقـل كلفـة وسعراً من غيرهم .

وأخيراً ، إن الصعوبات التي لقيها كولبر تفسر في الجزء الأعظم منها **بالمنـاخ الظرفي** للبطء العام في الأعمال الذي وضعت فيه جهوده : كانخفاض إنتاج المنـاجم الأميركيـة ونـدرة النقـد المتـداول في أوربـة ، المؤدي إلى « جـدب النقـد » الـذي يوضح « سياسة المال » التي سلكها كولبر به وإلى انخفاض الأسعار البطيء الناتج جزئياً عن هذا (الجدب) ويتناول تقريباً كل الإنتاج ؛ وانخفاض الربح المرتبـط نفسه بانخفاض الأسعار ، والمؤدي بدوره إلى بطء الأعمال وفقدان الثقة والحذر من التوظيفات المالية . وإلى هذا الركود تضاف مفاعيل النقص المحسوس في السكان : فـانطلاقـاً من ١٦٥٠ م ، انخفض عـدد السكان في كل مكان تقريبـاً أو على الأقـل كفـّ عن الزيادة ، بنتيجة مصائب فترة الفروند ثم المجاعـة الفظيعـة من ١٦٦١ ـ ١٦٦٣ م . وإذا كان من شأن ذلك أن يرد السكان إلى مستوى الغذاء أو الإعاشة ، فهو يعني أيضاً نقصاً في عدد الرجال لإنعـاش الاقتصـاد وتحمل العبء الضريبي . وفي الحقيقة ، إن الركود الاقتصادي والصعوبات الديموغرافية هي حوادث أوربية وليست فرنسية على وجه التحديد . على أن ما يبقى صحيحـاً على الأقل هو أنهـا توضح بشكل عريض نصف الإخفاق الذي مني به كولبر .

وإذا كان الفارق بين مشـاريع الوزير العظيمـة والإنجـازات المتحققـة عشيـة وفاته يسمح بالكلام بحق عن نصف إخفاق ، فإن **بعض النجـاحـات** في الاقتصـاد الفرنسي بين ١٦٦٠ و ١٦٨٠ م لا جدل فيها وغنية بـالمستقبل . إن محمول الأسطول التجـاري الضعيف ، في ١٦٦٠ م ، قـد تضـاعف في عشرين عـامـاً . والتجـارة الخارجية من حيث الحجم نمت وتأمنت أكثر فأكثر بسفن فرنسيـة . وكان (سـان ـ مـالو) المينـاء الفرنسي على صلـة بخـاصـة مع الأرض ـ الجـديـدة ، وإيطـاليـا وإسبـانيـا . وكانت روانّ ، ونـانت ، ولاروشـل ، وبـوردو مـزدهرة . ونجحت

مارسيليا في تنمية تجارتها مع بلاد شرق المتوسط بالرغم من المنافسة الإنكليزية . كما أن بعض المصنوعات التي شجعها تقدم التجارة الخارجية قاومت الركود وانتصرت عليه .

وبالإجمال ، وبالرغم من الصعوبات العديدة التي عوضها جزئياً الهدوء الداخلي الذي لم تعرفه المملكة منذ زمن طويل ، كان الاقتصاد الفرنسي ، نحو ١٦٨٠ م ، في حال أفضل مما كان عليها قبل عشرين عاماً خلت .

الملك والشؤون الدينية

لقد كان لويس الرابع عشر حريصاً على حقوقه على كنيسة فرنسا ، ومهتماً بتوطيد وحدة الإيمان في المملكة ، ولذا دخل في نزاع مع البابا ، وناضل ضد الجانسينيين وألغى براءة نانت . ولكن ، على هامش هذه السياسة المخيبة في الغالب ، تابعت كنيسة فرنسا بنجاح عمل الإصلاح الذي بدأ في النصف الأول من القرن .

الجانسينية والغاليكانية

إن لويس الرابع عشر ، « الملك المسيحي جداً » يتناول سلطته من الله وحده ، وممسوح بزيت المباركة . ويعتبر نفسه مسؤولاً أمام الله عن سلامة رعاياه بل وأوسع من ذلك عن مصالح المسيحية ، على الأقل ؛ عندما تتفق مع مصالحه الخاصة . وهكذا ، أرسل الجيوش ضد الأتراك إلى جبل سان - غوتار في جبال الألب عام ١٦٦٤ م ، وإلى كانديا في ١٦٦٨ - ١٦٦٩ م ، وقصف مراراً عديدة الموانى المغربية . وفي الوقت نفسه فكر بأن سلطته في المملكة غير منفصلة عن وحدة الإيمان ، وطالب بطاعة الإكليروس بنفس طاعة الفئات الأخرى .

وغداة وفاة مازارن ، كان لويس الرابع عشر معادياً جداً للجانسينيين ، وشك في ولائهم الملكي ، وجدّ ، حسب تعابيره الخاصة في « تهديم الجانسينية

وإزالة الطوائف التي يثار فيها هذا الروح من التجديد » . وفي ٢٣ نيسان ١٦٦١ م ، صدر قرار عن المجلس يأمر فيه الكهان والرهبان والراهبات بتوقيع نموذج الولاء . وفي ٨ حزيران ، نشر نواب الأسقف الذين يديرون أبرشية باريس مكان (ريتز) منشوراً رعائياً يأمر بتوقيع الصيغة ، ولكنه يدخل التمييز بين الحق والواقع . وفي ٢٢ حزيران ، تنازلت راهبات بور - رويال لضغوط آرنولد وقبلن توقيع النموذج في أسفل المنشور الرعائي ، وأضفن إليه بنداً توضيحياً . وحافظن على موقفهن ، حتى بعد أن سحب نواب الأسقف الذين شجبتهم روما والملك ، منشورهم في تشرين الأول - تشرين الثاني . ومع ذلك بقيت الحالة في نقطة ميتة حتى ١٦٦٤ م . وفي هذا التاريخ رسم (هاردون دوبيريفيكس) ، في ١٦٦٤ م ، رئيساً لأساقفة باريس مكان ريتز المستقيل ، وتقبل من البابا قرارات تعيينه المختومة بالرصاص . وفي ٢١ و ٢٦ آب جاء بنفسه إلى بور - رويال باريس ، وخلال زيارتين دراميتين ، أخطر الراهبات بتوقيع الصيغة دون تمييز حق وواقع ، ولكنه اصطدم بمعارضتهن الشديدة . وعندئذ تبعثرت اثنتا عشرة من بينهن ، ومنهن الأم آنيس دوسان بول والأخت أنجيليك دوسان جان ، بنت روبير أخ الأم آنجيليك آرنولد المتوفاة سنة ١٦٦١ م ، وتوزعن على مختلف الأديرة . وحرم باقي الطائفة من القداسات ووضع تحت رقابة ستٍ من راهبات الزيارة ونبالة (جنود) النائب المدني . وفي الأسابيع التي تلت استسلمت بعض الراهبات وحدهن ووقعن الصيغة . وفي ١٦٦٥ م ، تجمع المعارضات في دير بور - رويال - دي - شان الذي تحرسه الشرطة بصورة وثيقة . واضطر (المنعزلون) الذين أقاموا في ١٦٤٨ م ، في (الأهراء) على مسافة قليلة من الدير ، إلى إغلاق مدارسهم الصغيرة وتفرقوا .

ومع ذلك فقد قامت معارضة جديدة في داخل الأسقفية وصدر عن البابا مرة أخرى قرار بتوقيع الصيغة ، وقرر أربعة أساقفة ، بافيون داليه ، وهنري

آرنولد آنجيه ، وشوارت دو بوفيه ، وكوليه دو باميه أن ينشروا هذا القرار في أبرشياتهم بمنشورات تدخل التمييز بين الحق والواقع (١٦٦٥ م) . وكانت هذه المعارضة الأسقفية أخطر بكثير من معارضة راهبات بور ـ رويال . ولم تربك البابا فحسب ، بل والملك أيضاً ، فقد قلق لويس الرابع عشر عندما رأى الكرسي ـ الأقدس يكثر من تدخلاته في المملكة . وفي ١٦٦٧ م حاول البابا الجديد كليمانت التاسع ولويس الرابع عشر الخروج من المأزق . وبعد مفاوضات طويلة أمكن التوصل إلى تسوية ، حل وسط ، وهو أن يكتب الأساقفة الأربعة إلى البابا بأن يتعهد بطلب توقيع النموذج ، ولكن البابا قبل ضمناً بأن تكون التوقيعات في أسفل المنشورات التي تميز الحق والواقع . وهذا السلام ، سلام الكنيسة ، أو السلام الكليمانتيني ، بالنسبة للبابا كليمانت ، أصبح رسمياً بقرار من المجلس ، في ٢٣ تشرين الأول ١٦٦٨ م ، وأدت رسالة البابا المؤرخة في ١٤ كانون الثاني ١٦٦٩ م إلى انفراج مؤقت ، باعتبار أن راهبات بور ـ رويال قرن التوقيع في ١٥ شباط ، ولكنه لم يحل شيئاً من القضايا الأساسية ، ولم يكن غير هدنة تؤلف ـ مع ذلك ـ منعطفاً حاسماً في تاريخ الحركة الجانسينية ، وتقطع تقريباً دابر كل جدل لأكثر من ثلاثين سنة ، لأن الجانسينية التي ظل دير بور ـ رويال ـ دي ـ شان حصناً لها ، صلبت دون صخب مواقعها في باريس وفي الأقاليم ، وفي الطبقة النبيلة والبورجوازية البرلمانية ، وفي الأكليروس الأدنى وبعض النظم الدينية : الأوراتوريين ، البندكتيين والدومينيكيين .

وتجاه الكرسي الأقدس ـ والملك ، طالبت كنيسة فرنسا منذ زمن طويل بعدد من الحريات . ومع الاعتراف للبابا بتفوق الشرف ، يعتبر الغاليكانيون بأنه لا يملك كامل القدرة الرسولية إلا بانضمام الأساقفة له . حتى ان وكيلاً عن السوربون ، ادمون ريشر ، (١٥٥٩ ـ ١٦٣١ م) دعم حقوق الكهان إلى جانب حقوق الأساقفة ، ولكن هذه الأفكار الريشريه لم تنتشر بحق إلا انطلاقاً من

نهاية القرن . وأكثر من ذلك ، حسب الأفكار الغاليكانية . إن كل كنيسة قومية باستطاعتها أن تتصرف بمواردها الخاصة ، وتتمتع باستقلال ذاتي عريض فيا يتعلق بقواعد النظام ، ورأت كنيسة فرنسا أن تدافع عن نفسها حيال تجاوزات الملك وتؤكد استقلالها تجاه السلطة الزمنية . وفي الواقع ، إن هذا الاستقلال لا يمكن أن يكون في الجزء الأعظم منه إلا ضلالاً ووهماً ، وذلك لأن التعيين ، منذ كونكورداتو ١٥١٦ م ، للوظائف الكبرى الكنسية ، وبخاصة الأسقفيات ، خاص بالملك ، والبابا يخول فيا بعد التقليد الروحي . وأكثر من ذلك ، وبصورة موازية إلى هذه الغاليكانية الكنسية ، نمت غاليكانية سياسية : ففي نظر مشرعي الإدارة العليا الملكية ، الملك سيد مطلق لأشخاص وأملاك مملكته ، وهو مقلد بـ (كهنوت ملكي) حقيقي . وله حق النظر في القضايا الكنسية ، لا من وجهة النظر الزمنية فحسب ، بل وحتى ، لحد ما ، من وجهة النظر الروحية : فهو يستطيع بخاصة أن يرفض قبول القرارات الحبرية التي تعتبر مخالفة لـ (حريات الكنيسة الغاليكانية) . وهكذا اتفقت الغاليكانيتان الكنسية والسياسية على حذر واحد حيال روما ومزاعم ما وراء جبال الألب ، بالنسبة لفرنسا ، الملائمة للبلاط البابوي ، ولكنهما تختلفان فيا يتعلق بعلاقات كنيسة فرنسا مع الملك .

والواقع ، ان الملك أمن لنفسه اكليروساً أعلى مطيعاً وموالياً ، ويعتمد ، عند الحاجة ، عليه ، ويريد توكيد استقلاله إزاء البابا . ففي ١٦٦٢ م ، حدث حادث طفيف ، مشادة بين الحرس الحبري وخدم سفارة فرنسا ، كان بالنسبة للويس الرابع عشر فرصة لمصادرة مدينة آفينيون والكونتا موقتاً ، ومطالبة البابا باعتذارات مذلة . وأخطر من ذلك أيضاً **قضية الريغال** أي حق ملك فرنسا بقبض موارد الأسقفيات الشاغرة وتعيين الكنسيين عليها . فبموجب حقوق السيادة الملكية ، يدير الملك في الكثير من الأبرشيات الأموال التابعة لها (الريغال الزمني) ويسمي للوظائف المحلية (الريغال الروحي) ، عند شغور

الكرسي الأسقفي . ففي سنة ١٦٧٣ م ، دفع كولبر لويس الرابع عشر لأسباب ضريبية ، فقرر بأن يسري حق الريغال على جميع الأبرشيات التي لم يكن له سياق عليها ، وبخاصة في الجنوب . فاحتج أسقفان : بافيون داليه ، وكوليه دو پاميه وحدهما المعروفان باستقلالها ، وصرامتها الأخلاقية وتعاطفها مع الجانسينيين . وفي ١٦٧٧ م ، توفي پافيون ، ولكن كان لديه متسع من الوقت قبل وفاته أن يستنجد بالكرسي الأقدس . وكان البابا المنتخب في ١٦٧٦ م تحت اسم اينوسان الحادي عشر بابا مصلحاً تقياً وسلطوياً ومتشدداً في حقوق البابوية . فقد اعتبر امتداد الريغال على جنوب فرنسا مثلاً خطراً لاغتصاب ارتكبته السلطة العلمانية على حساب الكهنوت ، وشجب دون مراعاة أو محاباة أو مداراة « حق الريغال المزعوم » بثلاث رسائل متوالية (١٦٧٨ ـ ١٦٧٩ م) ودعا لويس الرابع عشر إلى العدول عنها ؛ وأمام أجوبة الملك المراوغة رفض النائب الأسقفي الذي انتخبه مجلس الكهنة الفرنسيين ليكون نائباً في (باميه) وسماه الملك بعد وفاة كوليه في ١٦٨٠ م . عندئذ قرر لويس الرابع عشر أن يعارض اكليروس فرنسا البابا . وانعقد مجلس الاكليروس من ٣٠ تشرين الأول ١٦٨١ إلى ٩ أيار ١٦٨٢ وكان مشكلاً من نواب اختيروا بعناية ، وكان من بينهم (بوسويه) الذي حاول أن يلعب دوراً معدلاً ، وتبنى ، في ١٩ آذار ، مع تردد ووسوسة ضمير ، إعلان أربعة مواد وهي كما يلي :

١ ـ الملوك والسادة لا يخضعون لأي سلطة كنسية ، بأمر من الله ، في الشؤون الزمنية .

٢ ـ الباباوات ، نواب يسوع ـ المسيح ، لهم السلطة الواسعة في الشؤون الروحية ، مع التحفظ بأن القرارات الصادرة في الدورة (٤) و (٥) للمجمع المسكوني في كونستانس ، بشأن سلطة المجامع العامة ، تبقى في قوتها وفي مفعولها .

٣ ـ يجب أن تراعى ، حيال السلطة الرسولية ، القوانين المستوحاة من الله والمؤيدة باحترام العالم كله ، وأن تراعى أيضاً القواعد ، والأعراف ، والدساتير المقبولة في المملكة .

٤ ـ بالرغم من أن البابا له القسط الهام في مسائل الإيمان وأن قراراته تتناول جميع الكنائس ، وكل واحدة منها ، إلا أن حكمه لا يكون غير قابل للإصلاح إلا إذا أضيفت له موافقة الكنيسة .

وهذا النص الغامض ، بقيمته الحقوقية القابلة للجدل والنزاع ، على اعتبار أن مجلس ١٦٨٢ م ليس له كفاءة مجمع ، تضاعف في اليوم نفسه ببراءة ملكية تنظم التعليم في المدارس الاكليركية ، وقبول خطي مكتوب من جميع المرشحين إلى الدرجات الجامعية . واغتاظ اينوسان الحادي عشر فكسر جميع قرارات المجلس ولكنه لم يشجب رسمياً وعلناً لويس الرابع عشر ، لئلا يخلق حالة غير قابلة للشفاء . ولكنه ـ على الأقل ـ قرر أن يرفض التقليد القانوني لجميع الأساقفة الجدد الذين سماهم الملك . وبقي الخصمان على مواقعهما دون الذهاب حتى القطيعة .

بيد أن الخلاف في ١٦٨٧ م تفاقم أيضاً إثر حادث دبلوماسي ، وهو **قضية الحصانات** (أو الأحياء) : فعندما أصر لويس الرابع عشر وحده ، دون سائر سادة أوربة ، على ألا يتخلى عن حق اللجوء الذي تتمتع به أحياء السفارات ، حرم البابا سفير فرنسا ؛ فرد عليه لويس الرابع عشر باحتلال آفينيون والكونتا من جديد . ومع ذلك ، فإن الحالة في المملكة لا يمكن أن تخلد دون مجازفات خطيرة : ففي ١٦٨٨ م ، وجد ٣٥ أبرشية دون أساقفة . ومن جهة أخرى ، اضطرت المشاكل الخارجية لويس الرابع عشر إلى البحث عن حياد البابا . وساعدت وفاة البابا اينوسان الحادي عشر في ١٦٨٩ على المصالحة المرجوة من الجميع .

إلغاء براءة نانْتْ

وإذا لم يكن من مـازارن والشـاب لـويس الرابـع عشر غير الثنـاء على ولاء **البروتستانتيين** أثنـاء الفروند ، فـإن مـا يبقى على الأقل بـالنسبـة للملـك ، هو براءة نـانت ، التي نقحت ببراءة (آليس) التي أبرمهـا ريشليو مع البروتستـانت . بيد أنها ليست إلا تسوية مؤقتة لأن عودة المملكة إلى وحدة الإيمان كانت له شغلاً شاغلاً عظيماً . ووجهة النظر هذه كان يشترك فيها الأكليروس والغالبيـة الواسعـة من الكاثوليـك . ونحو ١٦٦٠ م ، كان المصلحون أكثر من مليـون ونصف مـوزعين بين ٦٠٠ كنيسـة في الجنوب (في الـدوفينـه واللانغـدوك) وفي الغرب في بواتـو ، أونيس ، نورمـانـديـا ، وفي بـاريس ، دون حسـاب اللوثريين الألزاسيين الـذين لاتنطبـق عليهم براءة نـانت ، ولكنهم رأوا حريتهم الـدينيـة مضمـونـة بمعـاهـدة مونستر ونجد بروتستانت في جميع الأوساط : علية الطبقـة النبيلـة ، مثل الـدوق دولافورس ، وتورين ، وأصحاب مصانع ، وتجار ، ومستحدثين وفلاحين .

وحتى ١٦٧٩ م ، ظـل لـويس الرابـع عشر متمسكاً بـالخطـة التي رسمهـا في ١٦٦١ م وعرضها نفسه في (مـذكراتـه إلى ولي العهـد) التي أمليت نحو ١٦٧٢ م . وكانت هذه السياسة معتدلة نسبيـاً ، وتتضح دون شـك بتـأثير كولبر الـذي عرف القدرة الاقتصادية التي يمثلها البروتستانت ، دونما نسبـة مع عـددهم ، وبـالأمل في أن يرى هـؤلاء البروتستـانت يعـودون فيـدخلـون من تلقـاء أنفسهم في الأسرة أو البيت الأبوي الكاثوليكي ، وبالمناخ الغضبي المرتبط بمشاريع اتحاد الكنائس الـذي بدئ برسمـه خلال زمن ، وبخـاصـة من قبل (لايبنتز) و (بوسويـه) (١٦٧٠ ـ ١٦٧١ م) . يضاف إلى ذلـك أن التطبيق المحـدد والمقيـد لبراءة نـانت في : أن كل ماليس مرخصاً حرفياً ممنوع قد ترجم بسلسلة تحقيقات في المخالفات التي ارتكبهـا (الهوغنوت) ، وتدمير عدة معـابـد (١٣٥ في لانغـدوك ، و٦٤ في بواتو) والإجبـار على الدفن ليلاً ، والتحـديـد بـ١٢ عـدد المشـاركين في الزواج وفي التعميـد . وفي

١٦٦٥ م ، صدر قرار عن المجلس ينص على أن أبناء البروتستانت ، من سن ١٥ عاماً في البنين ، و١٢ سنة في البنات ، الذين يظهرون نواياهم بأن يصبحوا كاثوليك ، يستطيعون القيام بذلك بالرغم من الرأي المعاكس لأهلهم ، والتربية في دير على نفقة هؤلاء الأهل . ورأى المستحدثون البروتستانت أنهم يرفضون في بعض المدن للوصول إلى المعلمية .

وبصورة موازية ، إن الاكليروس الكاثوليكي الذي يرفض أن يخول أقل قيمة للإيمان المصلح ، يحاول القيام بعمليات صبء ، ولكن هذه العمليات ظلت قليلة العدد كثيراً ليمكن الأمل بحل المشكلة بهذه الوسيلة . ويعتقد بوسويه بخاصة بفضائل الجدال في الموضوعات الدينية ، ولكنه إذا هدى (تورين) في ١٦٦٨ م ، لم ينجح في إقناع الراعي (كلود) ببطلان « الدين المصلح المزعوم » (١٦٧٨ م) ولم يأت صندوق الهداية ، الذي أنشأه في ١٦٧٦ م ، الأكاديمي (بيلّيسّون) ، الهوغنوتي سابقاً ، إلى الكنيسة الرومانية (الكاثوليكية) إلا ببضعة ألوف من المهتدين الذين يشك في اهتدائهم وعودتهم إلى الكاثوليكية .

وانطلاقاً من ١٦٧٩ م تصلب موقف الملك قليلاً قليلاً . ولا شك في أن اعتبارات السياسة العامة توضح هذا التصلب ، أكثر من تطوره الشخصي نحو التقوى والورع . فقد اصطدم الملك في حرب هولاندا بتألب الدول البروتستانتية : انكلترا ، السويد ، وبخاصة الأقاليم ـ المتحدة . ومن هذه الدول ، طلب الهوغنوت الفرنسيون مساندات ورعاةً ـ وفوق ذلك ، في ١٦٨٣ م ، إن الامبراطور قاهر الأتراك دون العون الفرنسي ، أخذ صورة منقذ المسيحية . وبدا للويس الرابع عشر أن استئصال شأفة البروتستانتية من المملكة هو الإجراء الوحيد القادر على التعادل مع الجاه الواسع الذي كسبه الامبراطور لدى الدول الكاثوليكية والبابا الذي كان متشدداً في قضية الريغال آنذاك . ومن جهة أخرى ، تلا نفوذ كولبر قبل وفاته ، في ١٦٨٣ م ، نفوذ لوتيلليه ولوفوا ، وبصورة ثانوية نفوذ مدام دو (مانتونون) و(المعرف) اليسوعي الأب (لاشيز).

وخلال ستة أعوام من ١٦٧٩ إلى ١٦٨٥ م ، تهجمت سلسلة قرارات على براءة نانت وأفرغتها قليلاً قليلاً من محتواها : مثل حذف المحاكم النصفية الأطراف من كاثوليك وبروتستانت وإبعاد الهوغنوت عن جميع الوظائف ومعظم الصناعات الحرة ، وهداية الأطفال المسموح بها منذ سن أل ٧ أعوام ، وتحريم الزواج المختلط ، والضغط على المرضى ومن هم في حالة احتضار . وإلى هذا **العنف القانوني** يضاف بعد قليل **العنف العسكري** . فمن ذلك أن ناظر بواتيه ، (ماريّاك) ، استعمل طريقة بوليسية تقليدية تقضي بفرض سكنى رجال الحرب على الرعايا العصاة أو السيئي الدفع ، فقرر في ١٦٨١ م بإسكان الجنود العابرين عند الهوغنوت الأغنياء وأصحاب النفوذ . وكان « المبشرون لابسو الجزمات » واثقين من عدم العقوبة ، فأفلتوا الزمام والقيود ، واستطاع مارياك أن يعلن عن عدة ألوف من المهتدين . وبالرغم من استنكار الملك لعمل مارياك ، فإن اضطهادات الجنود الذين يسكنون عند البروتستانت قد توسع بها فيا بعد لوفوا على نظارات الجنوب ، في بيارن مع (فوكو) ، وفي اللانغدوك مع لاموانيون دو باڤيل . إن قرىً وحتى مدناً ارتدت بالجملة لدى إعلان وصول الجنود إليها . ووصلت إلى فرساي قوائم لا نهاية لها من المرتدين .

وفي الواقع ، إن الملك لا يجهل لا في أي ظروف حصلت هذه الردات ، ولا إذا بقي أيضاً العديد من البروتستانت في المملكة . ولكنه ترك نفسه يقتنع بسهولة بقول المستشار العجوز لوتيلليه بأهمية إلغاء براءة نانت ، وبأن المهتدين الجدد سيعودون إلى الظرف العام ، وسيحرمون بخاصة من الإعفاءات الضريبية المقبولة لهم لتسهيل الهداية . وأن يطرد الرعاة ؛ لأن البروتستانتية أصبحت غير شرعية بعد الآن . وسيجبر بسرعة أواخر الهوغنوت المقاومين على الردة . ومن جهة أخرى ، تركت هدنة راتسبون(١) الملك مطلق اليدين في أوربة . وفي كانون

---

(١) راتسبون RATISBONNE وبالألمانية REGENSBURG ، مدينة في بافاريا في ألمانيا الغربية .

الثاني ١٦٨٥ م وجه فريق من الرعاة عبثاً آخر ملتمس للويس الرابع عشر . وفي ١٨ تشرين الأول من السنة نفسها ، وقع لويس الرابع عشر براءة فونتينوبلو التي تنص على إلغاء براءة نانت .

استقبل الرأي الكاثوليكي براءة فونتينوبلو[1] بحماسة ومجد على لسان بوسويه (قسطنطين الجديد) . ومع ذلك ، فإن وجود هوغنوت عديدين ومهتدين جدد ينكرون هدايتهم ، وضع انطلاقاً من ١٦٨٥ م ، قضية بروتستانتية مخيفة . فبالرغم من الشدة التي تصورتها البراءة والرقابة الشديدة على الموانئ والحدود، قرر ١٠٠ إلى ٣٠٠٠٠٠ (متدين) النفي : مستحدثون ، أصحاب مصانع ، أصحاب بنوك ، كتاب ، بحارة ، جنود . الهرب نحو بلاد اللجوء في أوربة البروتستانتية ، وبخاصة هولاندا ، سويسرا ، انكلترا ، براندبورغ . أما أبناء دينهم الباقون في المملكة والمعترف بهم رسمياً أنهم (مرتدون جدد) ، فقد عارضوا بمقاومة سلبية إجبارهم على حضور القداسات الكاثوليكية وحاولوا ممارسة عبادتهم سراً . وأخيراً ، أثار إلغاء براءة نانت ، في أوربة ، استياء الدول المصلحة وأسهم في تعزيز تقريرها على مهاجمة فرنسا .

الاكليروس والحياة الدينية

وإذا اختتمت محاولة توطيد وحدة الإيمان في ١٦٨٥ بإخفاق ، فبالمقابل توالت حركة الإصلاح الكاثوليكي وتعمقت . ولقد كان تكاثر المدارس الأبرشية أحد مظاهرها الهامة . فنحو ١٧٠٠ م ، وجدت مدرسة أكليركية في معظم أل ١٣٠ أبرشية في المملكة . وعهد بها في الغالب إما إلى اليسوعيين ، وإما إلى (السولبيسيين) . وأكثر من ذلك ، نظم بعض الأساقفة ، مثل أساقفة لاروشل وآنجه معازل ومحاضرات كنسية لتعويض نقص ثقافة الخوارنة الشيوخ ولتمديد

---

(١) فونتينوبلو FONTAINEBLEAU

حسنات الإقامة في المدرسة الكنسية عند الشبان . وعلى هذا فإن الاكليروس المسلح بشكل أفضل فكرياً وروحياً يستطيع أن يكرس نفسه لأفضل تعليم للمؤمنين بمساعدة مختلف الأنظمة الدينية .

إن التعليم الديني ، والمعازل ، والبعثات ، والفرق تؤلف أشكالاً لقواعد العمل التبشيري للكهان ، ظهرت آثارها محسوسة في آخر القرن . فقد غطت الممارسة الشبه إجماعية تقوى عميقة نقية ، ومفهومة بشكل أفضل مما كانت قبل قرن . وانتشر استعمال المناولة بكثرة ، وكذلك الورع في كنيسة القلب الأقدس في مدينة (باريه ـ لو ـ مونيال) الذي أوحت به راهبة الزيارة ، مارغريت ـ ماري الاكوك ؛ وتوبعت عموماً احتفالات العبادة بشكل أفضل وأكثر وقاراً . وتضاعفت أعمال الإحسان . وكانت المواهب الدينية في جميع الأوساط عديدة جداً . وعرفت مؤلفات الروحانية واللاهوت والجدل الديني نجاحاً عجيباً ، وشهد بناء وترتيب وتزيين الكنائس على شدة التقى والورع العام . وهكذا ، نرى أن رافدات المذبح ، التي كان رواجها عظيماً في غربي فرنسا ، كانت حتى في كنائس الريف المتواضعة ، مصورات للعقائد الكبرى التي ثبتت في مجمع ترانت : الأفخارستيا ، الفداء ، مناولة القديسين . إن الحياة اليومية كلها ، من الولادة إلى الموت ، وضعت تحت شارة الدين ، فضلاً عن أن الأكليروس ، أول فئة في المملكة ، لعب إلى جانب دوره الروحي بخاصة ، دوراً إدارياً هاماً : مثل إمساك الخوارنة بسجلات كنائس قراهم ، وأصبح هذا العمل إجبارياً بأمر عام ١٦٦٧ م .

ومع ذلك ، توجد بعض الظلال في هذه اللوحة . أولها أن الاكليروس الأعلى مازال في الغالب أدنى من مهمته . فإلى جانب الأحبار الممتازين الذين يقيمون في أبرشيتهم ، ويقومون بانتظام بالزيارات الرعوية . ويعقدون المجامع ، كان بينهم الكثير من ثناة أبناء الأسر النبيلة الذين يدخلون دون موهبة واستعداد للحياة الكنسية ، ويفضلون الإقامة في باريس أو في البلاط عوضاً عن الإقامة في

أبرشيتهم ، ويتركون إدارتها إلى نائب كبير عنهم ، ويعيشون حياة قليلة الصلاح ، لتكون قدوة لغيرها ، وأحياناً مشينة . ومن جهة أخرى ، إن كثيراً من الأساقفة الذين تعود تسميتهم أو ترقيتهم إلى الملك كانوا شديدي الخدمة للملك ولوزرائه . حتى ان بوسويه (١٦٢٧ ـ ١٧٠٤ م) لم ينج من ذلك تماماً . لقد كان خطيباً عظيماً في البلاط ، ومربياً للدوفان الكبير (ولي العهد) ومبشراً بملكية الحق الإلهي ، وموحياً لإعلان ١٦٨٢ م . وكان أيضاً إدارياً وجدانياً لأبرشيته في مدينة (مو) ، ومثلاً صالحاً للحالة التي كان يعيش عليها أفضل أحبار زمانه ، ومهتماً بالإصلاح الرعوي وبعظمة الملك المسيحي جداً . وكان الإغراء عظيماً عند الضعفاء والطموحين لتمرير هذا قبل ذاك . والتبعية الوثيقة حيال السلطة تؤلف ، بالنسبة للاكليروس الفرنسي الأعلى ، تهديداً مخيفاً لم يكن منه سوى التفاقم في القرن التالي .

وكذلك ، توجد ظلال في حماسة المؤمنين . وهذه الحماسة لا تبعد الخرافات في الأرياف كاللجوء إلى السحرة ، ولا عدم الأخلاق في البلاط كوباء القمار والزنى والسفاح ، والمثل يأتي من علٍ ، والقداسات السوداء : أي ظاهر من قداس يحتفل فيه على شرف قدرة جهنمية ؛ والسموم ؛ ولا استمرار اتجاه خلاعي حي ، كما يرى ذلك في آثار الكاتبين الفرنسيين : سان ـ إيفريموند وبوسّي ـ رابوتان ، وإن حكم عليه بالصمت أو السرية ، ومهيأ للإفادة من مناخ ملائم .

الفصل الثاني

لويس الرابع عشر وأوربه
من ١٦٦١ م إلى ١٦٨٨ م

سياسة لويس الرابع عشر الخارجية

تستجيب سياسة لويس الرابع عشر الخارجية لاهتمام أساسي ، وهو توكيد مجده وسلطته في كل مكان . وإذا لم تكف طرق الدبلوماسية ، فقلما يتردد باللجوء إلى الأسلحة ، لاسيا وأنه جعل من الجيش الفرنسي أول جيش في أوربة .

الأهداف

من العبث البحث ، في سياسة لويس الرابع عشر الخارجية ، عن وحدة عميقة غير الاهتمام بمجده . فقد كتب بنفسه : « إن فن السياسة كله هو الإفادة من الظروف » . وكان ، كريشليو ومازارن من قبله ، انتهازياً يعرف كيف يستغل الظروف لصالحه . وإذا حاول مراراً مختلفة تعزيز ثغور فرنسا الستراتيجية ، في الشمال الشرقي بخاصة ، فلا يمكن القول بأنه سلك على هذا الصعيد سياسة واعية في ضم البلاد حتى جبال الألب ونهر الراين . وإذا أراد أن يظهر مدافعاً عن الكاثوليكية في أوربة ، ضد الأتراك العثمانيين ، في سان غوتار ، عام ١٦٦٤ م . ولصالح ملوك آل ستوارت ، فقد رفض التوجه لنجدة الدول المسيحية بعد أن هددها العثمانيون ، في ١٦٨٣ م . ولم يتردد في محاربة آل هابسبورغ الكاثوليك ، بل وحتى البابا نفسه . وإذا علق ، في ١٦٦١ م ، كبير أهمية على وراثة محتملة لإسبانيا ، عندما ترك الملك فيليب الرابع العرش في ١٦٦٥ م إلى طفل ، عمره

أربعة أعوام ، ضعيف الصحة جداً ، شارل الثاني ، فإن هـذا الاهتمام الكبير لا يوضح وحده علاقات لويس الرابع عشر مع أوربة في الخامسة والعشرين السنة الأولى من حكمه الشخصي : إن ظواهر (الأبهة) في سنوات ١٦٦١ ـ ١٦٦٤ م تستجيب لأهداف : منها أن الاهتمام بالإرث الإسباني كان غائباً ؛ وكذا الحال ، في الآجل ، في حرب هولاندا التي قامت بخاصة لأسباب اقتصادية ، وفي سياسة الاتحادات . ومن جهة أخرى ، إن شارل الثاني عاش ، ومن بعد تزوج في ١٦٧٩ م ، وبهذا الواقع تأجلت مسألة وراثته .

إن تعزيز الثغور الستراتيجية ، والدفاع عن الكاثوليكية ، والمزاعم على وراثة إسبانية ، إن أي هدف من هذه الأهداف لا يوضح تماماً سياسة لويس الرابع عشر الخارجية بين ١٦٦١ و ١٦٨٨ م . وفي الواقع ، إن العامل الوحيد لوحدة هذه السياسة هو حب الملك للمجد . فقد أصبح سيداً في الوقت الذي أمنت فيه معاهدات ١٦٤٨ ـ ١٦٥٩ م التفوق الفرنسي في أوربة . واعتبر نفسه **أقوى ملك على الأرض** ، ويريد جيداً أن يفيد من جميع الفرص والمناسبات لتوكيد هذه القوة ، وعلى وجه الاحتمال زيادتها . وإذا كان أبعد ما يكون عن التردد أمام المجازفة بالحرب ، فهو يعتبر أن الجاه الذي أحرزه على ساحات القتال هو التتويج الذي لا غنى عنه لحكم عظيم ، وحسب تعبيره الخاص ، « العظمة هي أولى واجب اهتمام السادة » .

ولهذا وبصورة أوضح كثيراً مما في شؤون الداخل ، كان يريد أن يتابع عن كثب بنفسه كل ما يتعلق بشؤون الخارج . فهي تهمّ مجده مباشرة ، ولا يوكل فيها لأحد أمر الحكم أو اتخاذ القرار . وعلى هذا يحسن ، على هذا الصعيد ، إرجاع نفوذ كولبر ، بل وحتى لوفوا ، إلى نسب متواضعة . ففي وقت الخيارات الحاسمة ، لا تتبع نصائحها إلا في الحد الذي تتفق فيه مع تطلعات العاهل العميقة .

الوسائل

أولاً : الدبلوماسية . والواقع أن الملك كان على اتصال بمجريات الوضع في أوربة ، بفضل جهاز دبلوماسي من الطراز الأول ، يوجهه أمين الدولة للشؤون الخارجية . فقد احتل هذا المركز ، من ١٦٦٣ م إلى ١٦٧١ م ، (هوغ دوليون) الذي صنع صلح البيرينه ، في ٧ تشرين الثاني ١٦٥٩ م ، وعرف جيداً وبقوة المحفل الأوربي ، وبدا ناعماً جداً ومقداماً جداً . وخلفه (سيمون آرنو دو بومبون) ، في ١٦٧١ م ، وكان دبلوماسياً موفقاً ومصالحاً ، ومدققاً حيسوباً ، حتى انه تعرض لفقد حظوته لدى الملك في ١٦٧٩ م ، بسبب خجله المفرط ، في نظر الملك ، أكثر من تعاطفه مع الجانسينيين .

وحل محله أخ لكولبر وهو شارل كولبر دو كرواسّي ، الحقوقي الطموح ، والمفعم بالموارد ، ناظر الإلزاس السابق ، والموحي بسياسة (الاتحادات) .

وبالرغم من أنه لاتوجد حياة دبلوماسية بالمعنى الخاص ، فإن بعض الشخصيات المنبثقة عن مختلف الأوساط : الطبقة النبيلة ، الجيش ، الاكليروس ، أخذوا وجه دبلوماسيين ممتهنين كالوزراء المقيمين أو المرسلين تحت سلطة أمين الدولة . واستعمل الملك أيضاً خدمات « أصحاب الرواتب » أي الرعايا الأجانب الذين يعملون لفرنسا مقابل معاشات ويخدمون عملاء استخبارات أو وسطاء ، مثل دوقة بورتسماوث في انكلترا ، و (غليوم - أيغون دوفرستانبرغ) في رينانيا ، و (ماتيولي) وزير دوق مانتو .

ومع ذلك ، وبالرغم من شبكة المخبرين الرسميين أو الشبه رسميين ، فقد كوّن لويس الرابع عشر عن أوربة **فكرة غير كاملة** ، وقليلاً قليلاً مطابقة للواقع في الحد الذي يتقدم فيه الحكم . لقد كان يعرف بقوة البلاطات وبيوت السادة ، ويرى أوربة كاجتماع أمراء أقوياء كثيراً أو قليلاً ، ويحسن أن يكون لنفسه

بينهم ، وبالمال ، أكبر عدد من الزبائن . ولكن يبدو في الغالب كثيراً أنه يجهل الشعوب نفسها ويصغر أهمية العقليات الجماعية واتجاهات الرأي الكبرى . وكان يشارك في هذه الأحكام المسبقة كل السادة أو رجال الدولة في عصره . ولكن أخطاءه في الحكم المتعلقة بالمصالح الاقتصادية والدينية والوسائل المالية للدول البحرية : الأقاليم ـ المتحدة وانكلترا ، كانت بخاصة خطيرة ومثقلة بالنتائج . لقد تعامى بغطرسته وحبه للمجد ، فلم يعترف في الغالب الأعظم بقوة الخصم ، واعتمد وبكثير من الزهو على ثروة الأسلحة . وفي الحقيقة إن الأداة التي صنعها تؤلف فيما بعد أفضل جيش في أوربة .

ثانياً : الجيش والأسطول

كان الجيش موضوع كل تفضيل للملك ، باعتباره أكبر أداة لمجده ، ويسره طوال حياته أن يستعرض الجيوش أثناء العروض الكبرى بالقرب من فونتينوبلو أو سان ـ جرمن . وحتى ١٦٩٢ م ، كان يظهر مراراً على رأس جيوشه محولاً المقاعد إلى مشاهد مختارة مقدمة إلى رجال حاشيته وخليلاته . ولكن فيما عدا هذا الذوق العابث قليلاً ، كان الملك على معرفة عميقة بالأمور العسكرية . وكان معلمه في هذا الموضوع (تورين) الذي سمي ماريشالاً عاماً في ١٦٦٠ م . وقد أوجد هذا اللقب من أجله وجعل منه نوعاً من قائد أعلى للجيوش (جنراليسيم) ، وظل حتى وفاته في ١٦٧٥ م المشاور الذي يصغي له الملك أكثر من غيره . وأكثر من ذلك ان الملك كان من حظه أن اعتمد على زعيمي الدائرة الحربية اللذين كانا أكبر صانعين لتنظيم الجيش : **ميشيل لوتيلليه** وابنه **لوفوا** . وليس بالممكن دوماً أن يميز جيداً نصيب كل منهما في العمل الذي قاما به . فالأب يبدو بأنه كان منذ باريس مبادهاً للإصلاحات الهامة ، فيما كان للابن الفضل في تطبيقها في الواقع ، بفضل طاقته الفظة ونشاطه الذي لا يكل في كل مكان كانت فيه الجيوش . وقد عرفا كيف يحيطان نفسيهما ، في مكاتب الحرب وفي الجيوش ،

بمعاونين غيورين ومتحمسين وأكفاء . وكانت نتيجة هذه الجهود المنضمة جيشاً ملكياً عديداً منظماً ومجهزاً أفضل تجهيز .

وغداة صلح البيرينه والتسريحات التي تلته ، لم تبلغ الجنود ٤٠٠٠٠ رجل . وعلى اعتبار أن لويس الرابع عشر سيد مملكة مجهزة بالرجال والمال أفضل من أي دولة أخرى ، فقد زاد بسرعة هذه الجنود وأقام جيشاً دائماً وأكثر عدداً دوماً من ٧٢٠٠٠ في ١٦٦٧ م ، إلى ١٢٠٠٠٠ في ١٦٧٢ م ، وأكثر من ٢٠٠٠٠٠ في ١٦٨٠ م . وكان سوق هذه القوى العظيمة بهذا القدر مؤمناً بنظام الجمع أو اللم التقليدي ، وهو أن يسوق كل نقيب جيشه الخاص بفضل نواب جماعين يحاولون الحصول على التجنيد الضروري بكل الوسائل ، من الهدايا والوعود الخداعة إلى العنف والتجنيد القسري . وإذا أغمض لوفوا عينيه طواعية عمّا يصفه بـ (الخداعات الصغيرة) ، فقد قمع بشدة إساءات الجنود الزائفين الذين يقدمهم النقباء أثناء الاستعراض ، ليعتقد بأن الجنود عديدة ويقبضوا أعطيات شاملة مرتفعة . ومن جهة أخرى ، كان الملك يستخدم المرتزقة الأجانب ، وبخاصة السويسريين واللورينيين والكورسيكيين . وبالمقابل أبطلت بعد عام ١٦٧٤ م عادة دعوة أتباع النبلاء المباشرين وأواخر أتباع أتباعهم بعد أن ثبت أن نفعهم وقيمتهم ضعيفان كثيراً . أما أفضل النبلاء فكانوا يخدمون في الجيش ضباطاً .

وفرض على هذا الجيش العديد نظام دقيق ما أمكن . فالسلب والسرقة يكون سببها في الغالب عدم دفع أعطيات الجنود ، وفقدان التموين المنظم . ولذا يأمر نظام ١٦٧٠ م بأنه يتوجب على النقباء أن يدفعوا لهم أعطياتهم وهي أعطيات ضئيلة بمعدل خمس نحاسات في اليوم للجنود المشاة ، وخمس عشرة نحاسة للفرسان . وأن يكون الدفع كل عشرة أيام بالضبط . وفي الوقت نفسه اتخذت إجراءات لإعاشة الجنود ، وذلك بإنشاء مخازن في أماكن المراحل أو في الثغور ، يديرها مفوضو الطعام ومصلحة عربات تتبع الجنود في الريف ؛ وتعميم اللباس

الرسمي الذي يختلف حسب قطعات الجيش ، وبناء مستشفيات عسكرية ، وكان عددها غير كاف جداً ، ودار للجنود العاجزين عن الخدمة لسبب أو لآخر ، أو للمشوهين في عام ١٦٧٤ م . وفي الحقيقة ، بقيت مسائل كثيرة لم تحل بشكل كامل كـ : مصلحة الصحة ، وإيواء الجنود ، لأن هؤلاء كانوا دوماً على نفقة السكان . لأن الثكنات الأولى يرجع تاريخها لبداية القرن الثامن عشر . ومع ذلك ، فإن الإجراءات المتخذة تسمح بأن يطلب من الجنود أفضل لباس عسكري حسن الهيئة على الأقل في زمن السلام ، وتبرر العقوبات الصارمة جداً كالعقوبات الجسدية والشنق التي يستحقها المخالفون .

أما أن يطلب من الضباط إطاعة دقيقة لإرادات الملك ، فقد بدا عملاً عسيراً . فوظائف الكولونيل والنقيب كانت عبثاً . وكان أصحابها ، النبلاء مالكي وظائفهم ، أحياناً دون أي كفاءة ، ويسلكون حسب هواهم في الغالب . فالكثيرون في زمن السلام ، حتى ان بعضهم في زمن الحرب لا يعملون غير ظهورهم نادراً على رأس قطعاتهم أو سراياهم ويعيشون في البلاط أو على أراضيهم . ولقمع هذه المساوئ ضرب لوفوا على يد هذا الغياب وفرض الطاعة على الجميع ، وطالب ضباط المستقبل أن يخدموا أولاً في سرايا فتيان النبلاء حيث يتلقون تعليماً متخصصاً . ولحذف عبث وفساد وظائف النقيب والكولونيل أحدث رتباً غير عابثة ورائشة من أجل الضباط الفقراء : ماجور ، ونائب ـ كولونيل بين النقيب والكولونيل ، وجنرال فوق الكولونيل . وأخيراً أحدثت مصلحة تفتيش مع مفتشين عامين ومفوضي حروب .

وأعيد تنظيم القيادة العليا نفسها . إن ماريشالات المعسكر ، والنواب العامون وماريشالات فرنسا لا يتلقون الأوامر إلا من الملك ومن أمين دولته . ولتجنب كل منازعات بين زعماء رتبة واحدة ، وضع لوفوا في ١٦٧٥ م **نظام اللائحة** وبموجبه يكتب الضباط حسب نظام أقدميتهم . فأقدمهم في الرتبة

الأعلى يجب أن يأخذ القيادة آلياً . وأسست اللائحة للترفيع بالأقدمية لا بـالحظوة أو الولادة ، وعَرَضاً بالاختيار المرتبط بالقيمة . وهكذا بدت اللائحة إصلاحاً عميقاً ودائماً .

وهـذا الجيش العـديـد والمنظم كان في الـوقت نفســه منظماً في تركيبــه وفي تسلحـه ليـؤخـذ بعين الاعتبـار تقـدم الفن العسكري . فقـد ظلت **قطعـات بيت الملـك** (١٥٠٠٠ رجـل) تـؤلف جيشـاً مختــاراً وتنظيمــه مستقـلاً . وظـل **جيش الفرسـان** سلاح النبـلاء الممتـاز ، ولكن فقـد رويـداً رويـداً أهميتـه على سـاحـة القتال . ومهر جيش الفرسان الخفيف بسيف وأحيانـاً ببنـدقيـة صغيرة وخفيفـة ، ويؤلفون جيشاً خـاصـاً من حملـة البنـادق ، وازداد على حسـاب جيش الفرسـان الثقيل ؛ وتعزز بقطعـات **دراغون** ، أي جنود يمتطون صهوة الحصـان ويحرسـون القوافل أثناء الزحف ، ولكنهم يخدمون مشاةً أثناء الكفاح .

ويمثل **جيش المشاة** أكثر من ثلثي عدد الجنود . وقد مهر دومـاً بسلاح نـاري خفيف الحمل (بندقية خفيفة) وقنـاة يعلوهـا سنـان ، ومع ذلـك بـدأت أسلحـة جديدة بالظهور ، أخذت قليلاً قليلاً تطرد الأسلحـة القـديمـة . والبنـدقيـة ذات الحجر ، من اختراع ألمـاني ، تفـوقت على البنـدقيـة الخفيفــة بتبسيــط الإطـلاق بإشعالهـا البـارود مبـاشرة ؛ فهي تسمح بهـذا الواقع ، بزيـادة قـدرة النـار بشكل محسوس . وينص أمر ١٦٧٠ م بأنه يجب على كل سريـة أن تضم على الأقل أربعـة جنود من حملة البنـادق . وبـدت الحربـة التي صنعت في الأصل في بـايون ، أولاً ضعيفة ، ولاستعمالها يثبت الحد في مـدفع البنـدقيـة ، وهـذا يجعل البنـدقيـة غير صالحة للاستعمال . وأخيراً تشكل جيش المشاة المسلحين بالقنابل (الرمـانـات) في سرايا متخصصة من رماة الرمانات .

أمـا **المـدفعيـة** فقـد حـاول لوفوا أن ينظمهـا بشكل مستقل وذلـك بتشكيل سرايا من المدفعيين والقاصفين تدريجياً ، فيما كانت مدافع الملك يجرها ويخدمها في

الريف فرسان ومشاة . وكذلك رأى لوڤوا من الضروري جمع ضباط المشاة ، الذين يخدمون مهندسين في هيئة خاصة ، ونظمت مصلحة (الهندسة) انطلاقاً من ١٦٧١ م ، ويوجهها مفوض التحصينات العام . و **(ڤوبان)** (١٦٣٣ ـ ١٧٠٧ م) الذي اشتهر في ١٦٦٧ م بأعمال التحصين في مدينة ليل ، سمي لهذه الوظيفة في ١٦٧٢ م . وسيبرر خلال أربعين عاماً الشهرة التي كانت له : « إن مدينة يحاصرها فوبان ، مدينة مأخوذة ، ومدينة حصنها فوبان ، مدينة لاتؤخذ » . ووجه أكثر من خمسين حصناً . ودوماً بنجاح ، كان يحسن طرق الهجوم باختراع الإطلاق بشكل غير مباشر والتحصن بمتاريس وخنادق موازية للحصون المحاصرة . لقد أنشأ بخاصة مايقارب ٣٠٠ موقع حصين ، إما لأنه وجه بنفسه أعمالها ، وإما لأنه وضع مخططاتها . وأخذ لحسابه من جديد اختراع المهندسين الإيطاليين في القرن السادس عشر ، وهو اختراع التحصينات التي لاتعلو إلى ارتفاع أعلى من ارتفاع الهدف مع منحدر ، وخندق ، وقسم ناتئ ، وتكون مطمورة تقريباً ولا تبدي إلا قليلاً من السهولة للمدفعية العدوة ؛ فمن دنكرك إلى تولون وبربينيان ، ومن بريست إلى بايّون ، أحدثت على هذا النحو مجموعة مواقع تشكل على حدود المملكة حزاماً رهيباً من الحجر .

وأخيراً ، كان من حظ لويس الرابع عشر أن كان على رأس جيوشه حتى ١٦٧٦ م أكبر رجلي حرب في العصر وهما : **(كونده) و (تورين)** . فلقد كانا ، على مزاجيها المختلفين جداً ، تلميذين غير مباشرين لغوستاف ـ آدولف ونصيري الحرب الخاطفة . وقد حصلا على أفضل نصيب من مناورات الجنود المعهودة إليهما ، وبحثا في كل مرة أمكن ذلك عن أفضل سبل الحرب التي يمكن أن تؤدي إلى تدمير جيش العدو .

أما اهتمام الملك بالأسطول فلا يعادل اهتمامه بالجيش . ومازارن الذي أهمل الأسطول الذي عمره ريشليو لم يعرف كيف يوجه اهتمام الملك الشاب إلى مشاكل

البحر . ومع ذلك فإن لويس الرابع عشر ، الذي لم يقبل إلا في ١٦٨٠ م استعراض الأسطول في دنكرك ، كان له الفضل في مساندة كولبر وابنه (سينيوليه) ، الذي شارك أباه في دائرة البحرية منذ ١٦٧٢ م ، في جهودهما الرامية لمهر المملكة بأسطول حربي أهل لها . وفي ١٦٦١ م ، لم يكن تحت تصرف الملك غير ١٨ سفينة ، منها ١٠ في حالة سيئة و ٦ طويلة ومنخفضة الجانب وقادرة على مقاومة البحر . وفي ١٦٧٠ م ، كان عنده ١٢٠ سفينة خط و ٢٥ سفينة فركيطة على المحيط الأطلسي و ٣٠ سفينة غالير في البحر المتوسط . وفي ١٦٨٣ م ، عند وفاة كولبر ، ضمت البحرية الملكية أكثر من ٢٥٠ عمارة ، بالإضافة إلى الأسطول المساعد الذي أقامه قرصان دنكرك ، و (ديب) ، وسان ـ مالو ، ولاروشل . ولسوق العاملين في خدمة السفن من غير الضباط ، قرر كولبر التخلي عن (الضغط) الذي يقتضي عند الحاجة أخذ جميع البحارة الجاهزين في الموانئ وسوقهم طوعاً أو كرهاً ، ووضع نظام **الاكتتاب البحري** ، مقابل بعض الفوائد ، فكان على رجال القرى الشاطئية والصيادين ، ورجال البحر ، الموزعين إلى ثلاث أو أربع طبقات حسب أعباء أسرهم ، أن يخدموا سنة على ثلاث ، على سفن الملك الحربية . وقد صدر أمر بهذا الشأن في ١٦٦٩ م ، ونظمت براءة ١٦٧٣ م الاكتتاب البحري بشكل نهائي .

ولسوء الحظ بدا تطبيق براءة ١٦٧٣ م مخيباً ، وكان يجب من حين لآخر ، اللجوء إلى (الضغط) . أما الغاليرات في البحر المتوسط ، فشكل أشخاصها من الأرقاء الترك ، أو من المحكوم عليهم بالحق العام ، أو من البروتستانت الذين يعيشون مكبلين بالسلاسل في مقاعدهم في ظروف غير إنسانية . وأوصى كولبر الحاكم بمضاعفة الأحكام بالأشغال الشاقة عوضاً عن الحكم بالموت ليستطيع مواجهة الحاجات المتنامية .

وقد طلب من الضباط الضروريين لإطار رجال السفن نفس الإطاعة

ونفس الكفاءة التي تطلب من رفقائهم في الجيش البري . وأحدث كولبر على شرفهم مجموعة مناصب بحرية ، مدارس بحرية حقيقية . وأكثر من ذلك ، أقام إلى جانب الضباط المحاربين ، وكلهم نبلاء ومفعمون جداً بروح الجماعة ، إدارة مدنية من نظار ومفوضي البحرية . وأخيراً أصلح الموانئ الثلاثة : **بريست** ، **روشفور** ، الذي حل محل (برواج) ، **وتولون** الذي تبني دور صناعاته العمائر . وأحواضها المحمية جيداً تخدم موانئ ارتباط لأسطولي الغرب (بونان) والشرق (لوفان) . وكانت الأساطيل الفرنسية مجهزة جيداً ومسلحة جيداً ، من ٢٠ إلى ١٢٠ مدفعاً لكل وحدة مع قيادة آمرية جيدة ممثلة بشخص (دوكين) و (تورفيل) ، وطبقت الهجوم في كل مكان ، وأحرزت حتى ١٦٩٢ م نجاحات مبينة على الأساطيل الانكليزية والهولاندية .

الحروب الظافرة (١٦٦١ ـ ١٦٧٩ م)

كان لويس الرابع عشر يؤكد سلطته بأعمال (عظمة) ، ويهيئ نفسه للحصول على جزء من الإرث الأسباني . وفي الواقع ، في نهاية حرب (انتقال الإرث) ، أو : الوراثة الاسبانية ، اضطره رد فعل الدول البحرية إلى الاكتفاء ببعض المواقع في الفلاندر . ثم أراد أن يأخذ بثأره من هولاندا ، ولكن هذه أثارت ضده تألباً قوياً .

العظمة والدبلوماسية (١٦٦١ ـ ١٦٦٧ م)

كان لويس الرابع عشر ، منذ بداية حكمه الشخصي ، يؤكد عالياً أمام كل أوربة بالتفوق المطلق لتاج فرنسا . وقد وجدت في ١٦٦١ ـ ١٦٦٢ م قضيتا تشريفات وكانت لها دلالتها بشكل خاص . فقد حصل جدال في لندن بين سفير فرنسا وسفير اسبانيا بشأن الصف العائد لكل منها في موكب رسمي ، في ١٠ تشرين الأول ١٦٦١ م ، فطلب لويس الرابع عشر اعتذارات اسبانيا ؛ وفي ١٤

أيار ١٦٦٢ م ، تقدم رسول فوق العادة لفيليب الرابع إلى الملك باعتذارات سيده وقبل باسمه بأن يتقدم سفير فرنسا دوماً على سفير مدريد .

وهذه الكبرياء المعروضة على هذا النحو ظهرت من جديد في قضية (العَلَم) . فقد أبلغ ملك انكلترا شارل الثاني بالتخلي لصالح فرنسا عن حق تحية العلم الإنكليزي من قبل جميع السفن الأجنبية على (البحار الضيقة) المجاورة لبريطانيا ـ العظمى ١٦٦٢ م . وأخطر أيضاً ، ولكن ليس أقل دلالة ، الإذلال الذي فرض على البابا في قضية الحرس الكورسيكي ، كما رأينا آنفاً . وأخيراً نازع لويس الرابع عشر الامبراطور مجد إنقاذ المسيحية دولها وبلادها ، فأرسل إلى أوربة الوسطى جيشاً مؤلفاً من ٦٠٠٠ رجل لعب دوراً جاسماً أثناء انتصار (سان ـ غوتار) على الأتراك ، في الأول من آب ١٦٦٤ م .

غير أن الملك مع قيامه بهذه الأعمال الدالة على العظمة والوجاهة ، حاول بمساعدة ليونّ ، أن يشد الأواصر التي تضم فرنسا إلى دول أوربية عديدة ، **بغية عزل أسبانيا والامبراطور** عند وفاة فيليب الرابع وفتح قضية وراثته ، وفي ٢٧ نيسان ١٦٦٢ م ، أبرم مع الأقاليم ـ المتحدة حلفاً هجومياً ودفاعياً لمدة خمسة وعشرين عاماً . وفي تشرين الأول من السنة نفسها ، افتدى دنكرك من ملك انكلترا مقابل مبلغ ٢٥ مليون جنيه . وأمن لنفسه صداقته ، إن لم يكن الشعب الإنكليزي الفائر والغاضب للتنازل عن الميناء ، فعلى الأقل الملك الذي استميل لصالح فرنسا مقابل مساعدات مالية سرية هامة .

وفي شبه الجزيرة الايبرية ، ظلت فرنسا تساعد البرتغاليين في الحرب ضد الاسبان ، وذلك بإرسال المال والجنود . ومن جهة الامبراطورية ، جدد لويس الرابع عشر في ١٦٦٣ م عصبة الراين ، وهي حلف حياد موجه في الواقع ضد آل هابسبورغ ، ونجح في إدخال أمراء جدد في هذا الحلف ، وبخاصة ملك الدانيارك . فأثار بذلك غضب السويديين ، حلفاء فرنسا ، ولكنهم خصوم

الدانماركيين . وفي الحقيقة ، إن بعض تدخلات فرنسا غير المناسبة في الشؤون الألمانية ، أثارت بعد قليل قلق كثير من الأمراء ، وبخاصة ناخب براندبورغ ـ فريديريك ـ غليوم . وفي شرقي أوربة ، فاوض لويس الرابع عشر الهونغاريين الثائرين . وفي ذلك الحين ، في بولونيا ، أسهم زواج دوق دانغن ، الابن البكر لكونده العظيم بابنة أخ الملك (جان ـ كازيمير) ، في شد الأواصر بين البلدين وساعد ، بعض الوقت ، على الأمل بانتخاب هذا الأمير الفرنسي لعرش بولونيا . وأخيراً ، على ثغور المملكة ، يرى أن اللورين التي تنازل عنها دون شروط الدوق شارل الرابع ، بموجب معاهدة موغارتر في ٦ شباط ١٦٦٢ م ، كانت جزئياً محتلة منذ ١٦٦١ م .

وبصورة موازية لهذا العمل الدبلوماسي ، حضر لويس الرابع عشرع بعناية **الوراثة الأسبانية** . فقد كان يرى الإفادة ، عندما يحين الوقت ، من غموض معاهدة البيرينه ، لأن عدم دفع مهر الملكة ماريا ـ تيريزا قد أسقط ، حسب رأيه ، تخليها عن إرث أبيها ، وفي شباط ١٦٦٢ م ، نبش ليون عرفاً من الحق الخاص البراباني (من إقليم برابان) ، وبموجبه ، يكون الأولاد من الفراش الأول (وهذه حالة الملكة وليست حال أخيها شارل) الوارثين الوحيدين ، وأموال أهلهم ترجع إليهم . وفي بداية ١٦٦٥ م ، قبل موت فيليب الرابع ، وبالتنبؤ بالموت المنتظر لشارل الثاني في المستقبل ، اقترح لويس الرابع عشر سراً تقسيم الممتلكات الاسبانية على الامبراطور ليؤبولد الذي تشبه حقوقه حقوق لويس الرابع عشر ، لأنه هو أيضاً ابن وزوج ابنتي ملكين غير البكر . وفي الحقيقة ، لقد كان القصد بنتين بعد الابن البكر ولكنهما على عكس آنّا النمساوية وماريا ـ تيريزا ، غير ملزمتين عند زواجهما بالتخلي عن حقوقهما . وبموجب هذا المشروع ، تأخذ فرنسا البلاد ـ المنخفضة والفرانش ـ كونته ، ونابولي ، وصقلية ، وموانئ شواطئ أفريقية والفيليبين . ولكن ليؤبولد الخجول والمتردد لم يقرر إعطاء موافقته .

وغداة وفاة فيليب الرابع ، في ١٧ ايلول ١٦٦٥ م ، نشر لويس الرابع عشر « المطول في حقوق الملكة » ، وفيه يمتد حق « الوراثة » البرابانية على الحق الدولي العام ويفيد على هذا النحو أساساً حقوقياً للمطالبة ، باسم ماريا ـ تيريزا ، بجزءٍ من الإرث الاسباني . ورفضت الملكة الوصية على اسبانيا أن تقبل التفسيرات الفرنسية ، فأعد تورين ولوفوا غزو البلاد ـ المنخفضة . ومع ذلك أجل المشروع أكثر من عام بسبب الحرب الثانية الإنكليزية ـ الهولاندية التي انفجرت في آذار ، ووضعت لويس الرابع عشر في وضع حرج . وفي الواقع ، كان ملزماً ، بمعاهدة ١٦٦٢ م ، أن يساعد هولاندا ، ولكنه ، لم يكن على عجلة من أمره ، لأنه لا يريد أن يفسد علاقاته مع ملك أنكلترا . ومع ذلك أرسل جنوداً لحماية ثغور الأقاليم ـ المتحدة التي يهددها مرتزقة أسقف مونستر الذي كان في خدمة الإنكليز . وأخيراً قرر الخصمان توقيع صلح (بريدا) ، في ٣١ تموز ١٦٦٧ م . وفي هذا التاريخ دخلت الجنود الفرنسية البلاد ـ المنخفضة .

من حرب الوراثة الاسبانية إلى حرب هولاندا (١٦٦٧ ـ ١٦٧٢ م)

إن حرب الوراثة الاسبانية لم تكن ، في الواقع ، إلا نزهة عسكرية . فأمام جيش فرنسا القوي المؤلف من ٧٠٠٠٠ رجل ، لم تستطع اسبانيا أن تضع أمامه في البلاد المنخفضة إلا ٢٠٠٠٠ جندي غير منظمين ومجهزين بشكل سيء . وفي شهر أيار ، دخل تورين **الفلاندر** واستولى على اثني عشر موقعاً حصيناً ، وبخاصة تورنيه ، دوويه ، وليل ؛ ثم في شهر تشرين الثاني ، أخذت جيوشه مواقعها الشتوية . وعندئذ انتقل النزاع إلى الصعيد الدبلوماسي . وأمن لويس الرابع عشر وليونّ لنفسها حلف براندبورغ ، في كانون الأول ١٦٦٧ م ، ونجحا في الحصول من الامبراطور ليؤبولد الذي شغله القلق الداخلي ، ولم يبق محايداً فحسب ، وإنما أيضاً أعطى موافقته على مشروع التقسيم في ١٦٦٥ م ، بموجب معاهدة سرية تسمى معاهدة (غريمونفيل) ، باسم السفير الفرنسي ، في ١٩ كانون الثاني

١٦٦٨ م . وفي الوقت نفسه ، تصالحت الدولتان البحريتان ، انكلترا والأقاليم ـ المتحدة ، وقلقتا أيضاً من التقدم الفرنسي في البلاد ـ المنخفضة ، ووقعتا ضد فرنسا ، في ٢٣ كانون الثاني ١٦٦٨ م ، حلفاً ، تحت غطاء وساطة ، ولكنه كان في الواقع موجهاً ضد فرنسا . وفي نيسان أصبح الاتفاق الإنكليزي ـ الهولاندي حلفاً ثلاثياً بانضمام السويد .

وتراجع لويس السادس عشر أمام هذا التهديد المقنع ، وكان واثقاً من حياد الامبراطور ، فقرر عندئذ ألا يعاود الهجوم في الفلاندر ، وأن يحتل الفرانش ـ كونته . وقام بهذا العمل كونده في حملة استمرت ثلاثة أسابيع ، في شباط ١٦٦٨ م ، وبعد قليل من الزمن قبل الملك السلام . فقد تفاوض البرتغاليون مع اسبانيا ، في شهر شباط ، وقلق السويسريون من جوار كونده ، لاسيا وأن انكلترا وهولاندا ضاعفتا دسائسها واستعداداتها .

وقعت معاهدة اكس ـ لا ـ شابل ، في ٢ أيار ١٦٦٨ م . ووضعت اسبانيا أمام الخيار الذي قدمته فرنسا : أي الخيار بين خسارة الفرانش ـ كونته أو خسارة المواقع الحصينة في الفلاندر ، فقررت الحل الثاني ، وتنازلت لفرنسا عن ١٢ مدينة وتوابعها : فورن ، برغ ، أرمانتيير ، مينن ، ليل ، دوويه ، كورتريه ، أودينارد ، تورنيه ، (آط) ، بنش ، شارلوروا . وعندئذ حصن فوبان مباشرة هذه المدن التي تؤلف مواقع أمامية في الأرض الاسبانية . وهكذا برهنت الحرب على قيمة الجيش الفرنسي ، وعززت ثغور الشمال وثبتت مزاعم فرنسا على الإرث الاسباني . وشرح الملك كل ذلك في مذكراته .

وفي الواقع ، لم يكن لويس الرابع عشر ليعتبر السلام غير هدنة موقتة ، وفكر بالثأر من الهولانديين صانعي الحلف الثلاثي الذين اضطروه إلى الاعتدال في طموحاته .

ومنذ ١٦٦٨ م ، أصبحت الأقاليم ـ المتحدة في الواقع خصماً تجب مقاومته .

ولم ينس الملك جحودها ، و « خيانتها » في هذا النزاع الحديث العهد فحسب ، وإنما أيضاً ما هو أكثر . فكل شيء يثيره في هذه الجمهورية ، جمهورية التجار الكالفنيين ، بدءاً بقحة ناشري صحف أمستردام . ولم يكن كولبر أقل منه اهتماماً . فقد أدرك أن نهوض اقتصاد فرنسا ، ولا سيا تجارتها الخارجية ، يتطلب إذلال الأقاليم - المتحدة ، أول دولة اقتصادية في أوربة . ومنذ ١٦٦٧ م ، كان تبني تعرفة جمركية جديدة تضرب بثقلها الشديد البضائع الأجنبية ، أول إجراء موجه بخاصة ضد الهولانديين . ولم يخدع هؤلاء ، وردوا برسوم باهظة على الملح والخمور والمنتجات الأخرى الآتية من فرنسا .

لقد وجد أن الحرب واقعة لا محالة ، ولذلك هيئت بعناية وصرف لها لويس الرابع عشر ما يقارب أربعة أعوام على الصعيد المزدوج العسكري والدبلوماسي . فقد رفع عدد جنود الجيش إلى أكثر من ١٠٠٠٠٠ رجل بقيادة تورين وكونده . ولم يستطع الهولانديون أن يقابلوهما إلا بجيوش غير كافية عدداً ونوعاً ، ومواقع حصينة في حال سيئة . وبالمقابل كان الأسطول الهولاندي بقيادة (رويتر) رهيباً ، واتجهت كل جهود كولبر إلى مقابلته بأسطول مماثل . وعلى الصعيد الدبلوماسي ، حاول الملك مستعيناً برجاله : ليونّ ، ثم آرنولد دو بومبونّ ، أن يعزل خصمه في المستقبل . واقتضى الجهد الأساسي فسخ الحلف الثلاثي . وبعد مباحثات صعبة لعبت فيها هنريت ، دوقة أورلئان ، أخت شارل الثاني ستوارت ، دوراً هاماً إلى جانب كولبر دو كرواسي ، تعهد ملك انكلترا بمعاهدة (دوفر) السرية ، في الأول من حزيران ١٦٧٠ م ، بمساعدة فرنسا في البر والبحر ، والعمل على توطيد الكاثوليكية في أنكلترا . وبالمقابل ، خوله لويس الرابع عشر مساعدات مالية سنوية من ثلاثة ملايين جنيه ، ووعده بعدة موانئ هولاندية . أما السويد فكان من العسير إقناعها : ولزم لذلك كل جهود آرنولد دو بومبون للعودة بها إلى الحلف الفرنسي ، في ١١ نيسان ١٦٧٢ م . وبين الفترتين ، كان موقف دوق اللورين غامضاً ، ولم يحترم معاهدة مونمارتر ، فأمر

الملك باحتلال نانسي ومجموع الدوقية ، وبذلك جعل الاتصال المباشر بين الفرانش ـ كونته والبلاد المنخفضة مستحيلاً على الاسبانيين ، ثم حصل من الامبراطور على وعد بالحياد ، في الأول من تشرين الثاني ١٦٧١ م ، ووقع أحلافاً هجومية مع ملك البرتغال ، ودوق سافوا وأميرين ألمانيين ، أسقف مونستر ، ورئيس الأساقفة ـ ناخب كولونيا الذي كان في الوقت نفسه أميراً ـ أسقفاً لمدينة لييج . وهذه مساندة أساسية في حال توقع غزو الأقاليم ـ المتحدة . ووعد أمراء ألمان آخرون بحيادهم مقابل إعطائهم مساعدات مالية هامة . وهذه بخاصة حال ناخبي بالاتينا ، وبراندبورغ ، وبافاريا ، وساكس . وعلى ما يبدو أن لويس الرابع عشر كان واثقاً بنجاح سهل ، بعد أن قوي بمساندة بعض وحياد بعض آخر .

حرب هولاندا ومعاهدات نيميغ (١٦٧٢ ـ ١٦٧٩ م)

كانت المبادهة من شارل الثاني ملك انكلترا ، عندما أعلن الحرب على الأقاليم ـ المتحدة ، في ٢٨ آذار ١٦٧٢ م . وفي ٦ نيسان ، زحف لويس الرابع ، وكونده ، وتورين ولوكسمبورغ على رأس الجيش الفرنسي نحو الراين ، من شارلو روا وسودان ، عبر أسقفيات ليج وكولونيا . وخدع الفرنسيون الجيوش الهولاندية التي كانت تحت أوامر غليوم أورانج تنتظرهم بين (أيسّل) وزويدرزيه ، وعبروا الراين دون مقاومة تقريباً عند مخاضة (تولوي) في ١٢ حزيران ، وفي ٢٠ منه دخلوا أوترخت التي كانت كاتدرائيتها خاصة بالعبادة الكاثوليكية . ولكن الهولانديين ، في نفس اليوم ، فتحوا سدود (مويدن) لمياه زويدرزيه ، فغمرت قسماً كبيراً من إقليم هولاندا ، ودمرت عمل أجيال عديدة ، ولكنها اضطرت الفرنسيين إلى التوقف ، وأنقذت أمستردام . وفي الوقت نفسه طلب المجلس العام السلام مقابل التنازل عن الضفة اليسرى لنهر (الموز) (بلاد العمومية) ، وغرامة حربية من ١٠ ملايين ليرة . وأثملت هذه النجاحات الملك ، ودفعه لوفوا إلى

المزيد ، فطالب بالتنازل عن منطقة بين الراين والموز ، و ٢٠ مليون ليرة أخرى ، وتوطيد الكاثوليكية من جديد . فتسبب بقطع العلاقات في ١٩ حزيران ، ورجفة استياء عامة في البلاد ، أفاد منها غليوم أورانج الذي انتخبته أقاليم هولاندا وزيلاندا حاكماً (شتاتودر) ، في شهر تموز ، وانتخبه المجلس العام نقيباً عاماً مدى الحياة . وفي ٢٠ آب ، اعتبر جان دو ويت وأخوه مسؤولين عن عدم تهيئة البلاد للحرب وعن الكارثة التي ألمت بها ، وكان جزاؤهما القتل على يد جماعة من الأورانجيين المتحمسين . وبالرغم من صغر سن غليوم أورانج ، ٢٢ عاماً ، وصحته الضعيفة ، كان هولاندياً وبروتستانتياً عن هدى ، حسب كلمة شارل الثاني ، وأصبح روح المقاومة والخصم اللدود للملك لويس الرابع عشر .

وفي بضعة أشهر استطاع أن يقوم الوضع . فعلى الصعيد العسكري قهر أسطول رويتر الإنكليز والفرنسيين في جون (سول) . في ٧ حزيران ، وظل سلياً لم يمس . وأجبر القطع الإرادي للسدود الجديدة الفرنسيين على الانطواء إلى هولاندا الشرقية . وفي كانون الأول حاصر غليوم شارلوروا . ولكنه أخفق ، وبالمقابل لم يستطع منع لويس الرابع عشر من أخذ (مستريخت) ، في ٣٠ حزيران ١٦٧٣ م . وعلى الصعيد الدبلوماسي ، تفاهم مع دوق اللورين ، وملك اسبانيا ، والامبراطور ، وتعهدوا بأن يجهزوه بعون عسكري ، بموجب معاهدة لاهاي ، في ٣٠ آب ١٦٧٣ م . ولكن ملك الدانيارك ، وعدة أمراء ألمان ، ولا سيا ناخب براندبورغ وناخب بالاتينا ، أبدوا قلقهم من وجود الجيوش الفرنسية في رينانيا ، وأغرتهم الفلورينات الهولاندية ، فقبلوا بدورهم أن يأتوا لنجدة الأقاليم ـ المتحدة . وفي ١٩ شباط ١٦٧٤ م ، تنازل شارل الثاني ستوارت لضغوط الرأي العام الإنكليزي وضغوط غليوم فوقع مع هولاندا سلاماً منفصلاً في وستمنستر . وهكذا وجدت فرنسا نفسها منعزلة بدورها ، وأمام هذا التألب لا يمكنها الاعتماد إلا على ناخب بافاريا والسويد ، التي كانت داخلة في نفس الوقت في حرب صعبة ضد براندبورغ .

وبهذا الواقع ، انتقل مسرح العمليات العسكرية . فقد سحب لويس الرابع عشر جيوشه من هولاندا الشرقية ، حيث لم تعمل شيئاً ، وكانت تعيش على البلاد دون مراعاة أو مداراة ، في كانون الأول ١٦٧٣ م ، وبمساعدة ڤوبان استولى دون عناء على الفرانش ـ كونته ، في شباط ـ تموز ١٦٧٤ م ، ولكن كونده الذي كان على ثغور البلاد المنخفضة ، وتورين في الألزاس التي اجتاحها ٥٠٠٠٠ من جنود الامبراطور ، ارتدا إلى الدفاع ؛ ونجحا على الأقل في دفع خصومهما ، الأول في (سينيف) بالقرب من شارلوروا ، في ١١ آب ١٦٧٤م ، والثاني في (توركهايم)، في ٥ كانون الثاني ١٦٧٥ م في ختام حركة جريئة دارت بجبال الفوج وبلفور وجرت في عز شتاء تشرين الثاني ـ كانون الأول ١٦٧٤ م . وقوي تورين بهذا النجاح ، فانطلق بالهجوم . وفي ربيع ١٦٧٥ م ، عبر نهر الراين ودفع الامبراطوريين بقيادة (مونتكوكولّي) ولكنه قتل في (سالزباخ) في ٧ تموز .

ولم يتوقف الهجوم الذي توقعه تورين فحسب ، وإنما اضطر الفرنسيون إلى القتال متراجعين ، واجتياز الراين ثانية . وهددت الألزاس من جديد بالغزو ، بعد أن حاصرمونتكوكولّي (هاغنو) ، ولكن كونده أنقذها في تشرين الثاني . وكانت هذه الحملة آخر حملاته .

وفيما تجدّ الحرب على الراين بحظوظ مختلفة ، كأخذ (فريبورغ ـ أن ـ بريسغو) على يد (كريكي) في ١٦٧٧ م ، حمل الأساسي من الجهد الفرنسي على البلاد ـ المنخفضة الاسبانية . وقام لويس الرابع عشر وڤوبان بفتحها المنظم ، موقعاً بعد موقع : حصار وأخذ لييج ، المحتلة من قبل الهولانديين ، في ١٦٧٥ م ، كونده وبوشان في ١٦٧٦ م ، فالانسيين وسان ـ تومير وكامبريه في ١٦٧٧ م ، وغاند وإيبر في ١٦٧٨ م .

وعلى البحر ، هرع الأسطول الفرنسي في البحر المتوسط ، بقيادة (فيفون) و (دوكين) ، لنجدة الصقليين الثائرين ضد اسبانيا ، وبعد معركة لم يقطع بها

أمـام جزيرة سترومبولي ، في ٦ كانون الثـاني ١٦٧٦ م ، سحـق في عرض آغـوستـا بالقرب من سيراكوزه ، الاسطول الاسباني ـ الهولاندي بقيادة رويتر الذي أصيب بجرح مميت في المعركة ، في ٢٢ نيسـان ١٦٧٦ م . وهـذا النصر الـذي أتمّ بنصر آخر في بـالرمو ، في ٢ حزيران ، أمن لفرنسـا سيـادة البحر المتوسـط وكرس انحطـاط الاسطول الاسباني .

ومنذ ١٦٧٥ م ، افتتح مؤتمر في نيميغ ، ولكن المفاوضـات امتـدت وطـالت ، وكل طرف يأمل بقوة السلاح ، ومع ذلك أخذت المباحثات دوراً حاسماً في بدايـة ١٦٧٨ م . وفي الواقـع ، كان لـويس الرابـع عشر قلقـاً من مـوقف الإنكليز الـذين يدفعون ملكهم للتدخل مبـاشرة ضـد فرنسـا . وخـاب أملـه من نتـائج سيـاستـه الشرقية ، فقد غلبت البراندبورغ وهولانـدا والـدانيارك معـاً حليفـه السويـدي ، ورفضت بولونيـا التـدخل . وأخيراً تقرب من فيّنـا . وفـاقم امتـداد الحرب الوضع المالي للمملكة ، فقلق كثيراً . وهذه الأسباب مجتمعة دفعته للتفاوض ، لاسيما وأنـه كان قوياً بـالرهـائن التي استولى عليهـا : الفرانش ـ كونتـه ، والبلاد المنخفضـة ، وبالخوف الذي توحي به جيوشه ، ولذا يستطيع التفاوض في شروط ملائمة . أمـا المتالبون عليـه فكانوا متعبين ومنقسمين : فقـد كان البورجوازيون الهولانـديون ، إن لم يكن غليوم أورانج المستحر ضـد لويس الرابـع عشر ، يتطلعـون إلى السـلام الضروري لعودة الأعمال ؛ واسبانيا منهكة ؛ والامبراطور يفكر بخـاصـة بـالثورة الهونغارية وبالتهديد العثماني .

وهكـذا ، أدت ثلاث معـاهـدات متعـاقبـة بين فرنسـا من جهـة ، والأقـاليم المتحدة ، في ١٠ آب ١٦٧٨ م ؛ واسبانيـا ، في ١٧ ايلول ١٦٧٨ م ، والامبراطور في ٥ شباط ١٦٧٩ م ، من جهة أخرى ، إلى توطيد السلام .

إن هولاندا لم تفقد شيئاً من أرضها ، بل حصلت على إلغاء التعرفـة الجمركيـة الفرنسية لعام ١٦٦٧ م ، وشتان بين هذه الشروط وآمال ومتطلبـات لويس الرابع

عشر في ١٦٧٢ م ، وبالمقابل دفعت اسبانيا نفقات الحرب . فقد تخلت عن الفرانش ـ كونته ، وباقي الآرتوا (أير وسان ـ تومير) ، والكامبريزي ، وجزء من الفلاندر (كاسّل وايپر) وهينوت (بوشان ، فالانسيين ، كونده ، موبوج) ؛ وكتعويض ضعيف ، استردت بعض المواقع المتقدمة التي تنازلت عنها لفرنسا في ١٦٦٨ م ، ولكنها لاتقدم لهذه الدولة فائدة استراتيجية : شارلوروا ، بينش ، أودينارد ، (آط) ، كورتريه .

وهكذا ، فإن ثغور الشمال الفرنسية التي ظلت حتى الآن غير متصلة ومستمرة ، بحصون متدرجة ومحاطة بأرض أجنبية ، أصبحت مستمرة ومتجانسة ، وتشمل أرضاً واسعة تؤلف قطعة واحدة ، وبادر ڤوبان بتحصينها على الفور ، وتنازل الامبراطور لفرنسا عن فريبورغ ـ أن ـ بريسغو ، وهي موقع حصين يساعد بشكل أفضل على حماية الألزاس ، ولكنه استرد (فيليبسبورغ) . ومن جهة أخرى ، تعهد لويس الرابع بإرجاع اللورين إلى دوقها ، ماعدا نانسي ، ولونغوي ، وأربعة طرق نحو الألزاس ، ووعد الامبراطور من جانبه ، بألا يتدخل في حرب أوربة الشمالية ، وهذا ماسمح لفرنسا بأن تفرض على براندبورغ أن ترجع إلى السويد الأراضي التي كسبتها في معاهدة (سان ـ جرمن ـ أن ـ ليه) ، في حزيران ١٦٧٩ م .

وهكذا في ختام حرب طويلة كثيراً ، وصعبة كثيراً ، ومكلفة كثيراً بالنسبة للمملكة التي لم تحسب حسابها ، لم يستطع لويس الرابع عشر أن يحقق الثأر العظيم الذي كان يأمل به من هولاندا . ولكنه نجح ، بعد أن قاوم تألب الدول الكبرى ، في تثبيت الحدود الفرنسية في الشمال والشرق ، وتوسيع (المرج المربع) ، وأخذ وجه الحكم في أوربه .

الاتحادات وتشكيل رابطة أوغسبورغ (١٦٧٩ ـ ١٦٨٨ م)

غداة صلح نيميغ ، احتفظ الملك لويس الرابع عشر بالجيش قائماً ومستعداً

للحرب ، وبدل بومبون الخجول بكولبر دو كرواسّي . وكان واثقاً من أن ليس له ما يخشاه على القارة . وأصغى إلى لوفوا الذي تتفق وجهات نظره الطموحة مع وجهات نظره . وهكذا انطلق ، في عز السلام ، في سياسة مغامرة همها ضم الأراضي والبلاد والتحريض من كل نوع . وكان من هذه السياسة ، في أقل من عشرة أعوام ، أن أقامت ضدها تألباً جديداً شمل أوربة كلها تقريباً .

(الاتحادات) وهدنة راتسبون (١٦٧٩ - ١٦٨٤ م)

إن سياسة « الاتحادات » أو الضم ، التي أوحى بها كولبر دو كرواسّي ولوفوا لم تكن شيئاً جديداً تماماً . إنها تقتضي تفسيراً عريضاً لمواد المعاهدات السابقة . فهل الأراضي المتنازل عنها تنوزل عنها (مع توابعها) أو مع (حقوقها وماتتبعه) . في هذه الروح كلف لويس الرابع عشر مجلس السيادة في مدينة (بريزاخ) من أجل الألزاس - وهذا المجلس غرفة خاصة في برلمان متز من أجل الأمور المتعلقة بالأسقفيات الثلاث : متز ، تول ، فردن ؛ كما كلف برلمان (بوزانسون) من أجل الفرانش - كونته ، دراسة جميع الحالات المختلف عليها والتي أثارها تطبيق البنود الأرضية في معاهدات وستفاليا (١٦٤٨ م) ونيميغ ١٦٧٨ / ١٦٧٩ م ، وعند مقتضى الحاجة ، اتخاذ قرارات « اتحاد بالتاج » . وإن المدن أو الأراضي ، المعلن عنها أنها اتحدت على هذا النحو ، يجب أن تحتلها الجيوش الفرنسية مباشرة . وعلى هذا النحو ضمت ساربورغ ، وسارلوي ، وبونتا - موسّون ، وعدة قرى في اللوكسمبورغ كتوابع قديمة لأسقفية (فردن) . ثم إن مدينة وكونتية مونبليار الملك الخاص بدوق فورتامبرغ ، أعلن بأنها تابعتان للفرانش - كونته. وبهذه الصفة صودرتا واحتلتا في ١٦٨٠ م. وفي الألزاس، أجبرت مدن الديكابول وجميع أمراء الألزاس العليا والدنيا على قطع العلاقات التي تربطها بالامبراطورية، بفضل غموض نصوص ١٦٤٨ م، والاعتراف بـ « لويس الرابع عشر سيدها الوحيد وملكها » . حتى ان الأمراء الألمان المتلكين

في الألزاس، مثل مارغراف باد، ألزموا بحلف يمين الطاعة، وكذلك دوق دو-بون الذي أعلن عن اتحاد إمارته الصغيرة بقرار من مجلس بريزاخ.

وتمت هذه السياسة باحتلال مدينة ستراسبورغ الحرة التي فتحت مرات عديدة جسر (كيل) للامبراطوريين أثناء حرب هولاندا . وفي أيلول ١٦٨١ م ، ودون الاهتمام بحجة حقوقية ، أرسل لويس الرابع عشر لوفوا و ٣٠٠٠٠ رجل لمحاصرة المدينة ، ولم تستسلم إلا في ٣٠ من هذا الشهر . وصنعت مداليا تذكارية تعطي درساً لهذا الحادث . وهكذا أصبحت الألزاس كلها ، باستثناء ملهوز ، أرضاً فرنسية تماماً . وهذا ما قبله السكان ، لاسيا وأن الملك بمهارته ، احتفظ لهم في داخل المملكة بامتيازات عديدة . كما تشهد بذلك المواد الأساسية في نص استسلام ستراسبورغ .

ولكن عمليات الضم الفرنسية هذه يضاف لها احتلال (كازال) ، في إيطاليا ، التي باعها دوق مانتو في أيلول ١٦٨١ م ، أثارت في أوربة ، قلقاً واحتجاجاً . ففي الأمبراطورية ، اشتعلت كراهية (الأمة الألمانية) لفرنسا وحضت على نشر عدة رسائل معادية لها . ورفع الدياط الجرماني احتجاجاً رسمياً ضد هذه (الانضمامات) . أما غليوم أورانج ، من جهة ، فقد كان قلقاً جداً من الزحف الفرنسي في اللوكسمبورغ ، ووقع معاهدة دفاعية مع ملك السويد ، شارل الحادي عشر ، الذي غضب لضم دوقية الدوبون (الجسرين) التي ورثها في ١٠ تشرين الأول ١٦٨١ م . وكذلك أدى إعلان حصار لوكسمبورغ ، من قبل لويس الرابع عشر ، إلى تقارب بين إسبانيا والامبراطور ، والسويد ، وهولاندا ، وعدة أمراء ألمان ، في شباط - حزيران ١٦٨٢ م . ولكن هجوم العثمانيين على فيّنا حول في لحظة انتباه الجميع نحو الثغور المسيحية الشرقية . ودل انتصار (كالانبرغ) ، في ١٢ أيلول ١٦٨٣ م ، دون مشاركة الفرنسيين ، على قوة آل هابسبورغ الجديدة ، وأمن إلى ليؤبولد جاهاً عريضاً في أوربة كلها . وبعد أن

رفض لويس الرابع عشر نداء البابا ، وكان في خلاف معه ، واحتقر المشاركة بالرابطة المقدسة ضد الأتراك ، وقع معاهدات مع الدانيارك والبراندبورغ (تشرين الأول ـ تشرين الثاني ١٦٨٣ م) ، وأجاب إعلان الحرب الذي وجهته إليه إسبانيا ، في ٢٦ تشرين الأول ، بحصار (كورتريه) ، وغزو جديد للوكسمبورغ من قبوله في كانون الأول عروض وساطة إنكلترا . وكان الامبراطور مشغولاً باسترداد هونغاريا من الأتراك ، والأمراء الألمان قلقين ، ولكنهم عاجزون ، والأقاليم المتحدة حيث لم يستطع غليوم أورانج إقناع البورجوازية الحريصة على السلام ، إن كل هؤلاء لم يستطيعوا منع لويس الرابع عشر من الاستيلاء على كورتريه و (ديكسمود) والوكسمبورغ ، في ٤ حزيران ١٦٨٤م ، وقصف جنوة ، في ١٥ أيار ١٦٨٤ م ، التي جهزت إسبانيا بالسفن الحربية .

ويبدو أن لاشيء يمكن أن يقاوم القدرة الفرنسية . فقد عرفت إسبانيا بأنها غير كفء للنزاع وحدها ، والأمبراطور أراد أن يكون مطلق اليدين ليتابع مصالحه ضد الأتراك . ولذا قررا الصلح مع لويس الرابع عشر . وفي ١٥ آب ١٦٨٤ م ، وقعت في راتسبون معاهدتان عرفتا تحت اسم (هدنة راتسبون) . وبموجبها تركت إسبانيا لفرنسا ، ولعشرين عاماً . حصن لوكسمبورغ وبعض قرى في البلاد ـ المنخفضة . وفي الوقت نفسه اعترف الامبراطور والامبراطورية بالاتحادات والانضمامات السابقة للأول من آب ١٦٨١ م .

من الهدنة إلى الحرب (١٦٨٤ ـ ١٦٨٨ م)

إن هدنة راتسبون تسجل نقطة الذروة للتوسع الفرنسي . وحسب قول سان ـ سيمون ، « هنا ينتهي أوج هذا الحكم ، وهذا الفيض من المجد والازدهار » . وفي الواقع ، كان لويس الرابع عشر في ذروة السلطة ، وأبعد ما يكون عن التعقل والفطنة والاعتدال التي ربما قد تسمح بنسيان هذه القدرة وتحويل هدنة العشرين عاماً إلى سلام قطعي ، ولكنه أخذ يكثر من أعمال التخويف والتهويل كما لو أراد

أن يشعر أوربة بأنه سيدها . ففي كانون الثاني ١٦٨٥ م ، طلب إلى دوج جنوة الذي تمنعه قوانين الجمهورية من مغادرة المدينة ، أن يأتي شخصياً إلى فرساي ويقدم اعتذاره وخضوعه . وفي آذار ، عند موت الناخب البالاتيني شارل الثاني ولم يكن له ولد ، طالب لويس الرابع عشر بجزء من (بالاتينا) ، باسم دوقة أورلئان ، أخت الناخب الراحل ، وعلى حساب الناخب الجديد فيليب ـ غليوم بافاريا ـ نوبورغ ، وعم (أبو زوجة) الامبراطور . وفي تشرين الأول ، أثار إلغاء براءة نانتً استياءً عنيفاً من قبل الدول البروتستانتية ، وبخاصة الأقاليم ـ المتحدة ، وإنكلترا ، والبراندبورغ التي استقبلت العديد من اللاجئين الهوغنوت . وإلى الاستياء يضاف القلق ، عندما قام (كاتينا) ، حاكم (كازال) ، في أيار ١٦٨٦ م بمذبحة (الفودوا) على أراضي دوق سافوا .

وأكثر من ذلك ، أن شارل الثاني . ملك إسبانيا ، الذي تزوج في ١٦٧٩ م ماريا ـ لويز أورلئان ، ابنة موسيو وهنريت إنكلترا ، لم يخلف ولداً ، ويبدو أنه فقد الأمل . وبهذا الواقع ، استعادت قضية الإرث كامل حدتها انطلاقاً من ١٦٨٥ م تقريباً ، وبدأت المزاعم المتعارضة لفرنسا والنمسا تعرب عن نفسها بكل وضوح : فقد بدا أن لويس الرابع عشر يستعد إلى التخلي لنفسه عن الحقوق التي يرى بأنه يمسك بها من الملكة ، ويعتبر بأن ملك إسبانيا في المستقبل يجب أن يكون أحد أحفاده . وبالمقابل ، يرى ليؤبولد بأن ابنه الثاني الأرشيدوق شارل المولود ، في ١٦٨٥ م ، يجب أن يخلف شارل الثاني .

إن كل هذه الوقائع توضح تشكيل رابطة أوغسبورغ ، في ٩ تموز ١٦٨٦ م ، بين الامبراطور والكثير من الأمراء الألمان : دوق بافاريا والناخب البالاتيني ، والأمراء الرينانيون والفرنكونيون . وانضم إليهم ملك إسبانيا والسويد من أجل أراضيها في الامبراطورية .

كانت غاية هذه الرابطة الحفاظ الشديد على معاهدات نيميغ وراتسبون

والدفاع عن أعضائها بعد أن تبين أن من الممكن « أن يكونوا مهاجمين أو قلقين ببحوث ظالمة وغير عادلة وبطلبات غير شرعية » .

وبصورة موازية ، كسر ناخب براندبورغ فريديريك ـ غليوم حلفه مع فرنسا وأبرم سراً مع ليؤبولد معاهدة دفاعية لمدة عشرين عاماً ، في آذار ١٦٨٦م ، وتقرب من غليوم أورانج الذي اهتم من جهته ، وعن كثب ، بالمصالح الإنكليزية وحاول أن يستغل لصالحه المشاكل التي يلقاها الكاثوليكي جيمس الثاني الذي أصبح ملك إنكلترا في شباط ١٦٨٥ م :

ومع ذلك ، فإن لويس الرابع عشر كان أكثر تأثراً بإيحاءات لوفوا من نصائح كولبر دوكرواسي المعتدلة نسبياً ، وتابع تحريضاته . ففي ١٦٨٧ م ، أدت قضية الحصانات إلى قطيعة فظة مع البابا . وأخطر من ذلك بكثير ، قضية كولونيا ، لأن هذه القضية تمسّ مباشرةً ألمانيا . إن رئيس الأساقفة ـ ناخب كولونيا وأسقف ليبيج ماكسمليان ـ هنري بافاريا ، الذي كان منذ ١٦٧١ م حليفاً وفياً لفرنسا ، توفي في ٣ حزيران ١٦٨٨ م . وأراد لويس الرابع عشر أن ينتخب مكانه أحد عملائه الأوفياء ، الكاردينال غليوم ـ إيغون دو (فورستنبرغ) ، أسقف ستراسبورغ ومساعد أسقف كولونيا . وعارضه الامبراطور بـ جوزيف ـ كليمان بافاريا ، ابن أخ رئيس الأساقفة الراحل . ولما انعقد مجلس أسقفية كولونيا لم يخول الأصوات الضرورية لكل من المرشحين ؛ وعليه فالقرار يتعلق الآن بالبابا إينوسان الحادي عشر ، الذي فصل في القضية ، في أيلول ١٦٨٨ م ، لصالح مرشح الامبراطور . وغضب لويس الرابع عشر ورد مباشرة باحتلال آفنيون والكونتا[1] ، وأطلق ، في ٢٧ أيلول ، بياناً إلى أوربة أعطى فيه الامبراطورية مهلة ثلاثة أشهر للاعتراف نهائياً بكل (الاتحادات) وإقامة الكاردينال

---

(١) آفنيون المدينة وإقليم الكونتا كانا ملكاً للبابا حتى ١٧٩١ م .

فورستنبرغ في كولونيا ، وإعطاء تعويضات إلى دوقة أورلئان ؛ وأعلن الملك في الوقت نفسه بأنه سيحتل من جديد أراضي بصفة ضمان . وفي الواقع ، وفي اليوم نفسه ، حاصر جيش فرنسي فيليبسبورغ وبدأ بغزو بالاتينا . وبعد بضعة أيام ، أرسل الملك جنوداً لإقامة فورستنبرغ في كولونيا واحتلال الناخبية وأسقفية لييج أيضاً . وطبقاً لمعاهدة رابطة أوغسبورغ ، قطع الامبراطور والأمراء الأعضاء في الرابطة علاقاتهم مع فرنسا ووجهوا قواتهم نحو الراين .

وفي ٢٦ تشرين الثاني ، أجابت فرنسا احتجاجات هولاندا بإعلان الحرب . وفي هذا التاريخ ، أدت الثورة الإنكليزية إلى سقوط جيمس الثاني (جاك الثاني) حليف وزبون لويس الرابع عشر ، وانتصار ألد خصوم هذا الملك ، وهو غليوم أورانج الذي اعترف به ، من بعد ، ملكاً على إنكلترا ، وحقق ، نوعاً ما ، في شخصه ، اتحاد الدولتين البحريتين الكبريين ضد فرنسا ، متماً على هذا النحو تألب أوغسبورغ . وبدأت حرب جديدة في أوربه .

الفصل الثالث

حكم لويس الرابع عشر
من ١٦٨٥ م إلى ١٧١٥ م
المشاكل الداخلية

الأزمة المالية والاقتصادية

لقد سجل توقيع هدنة راتسبون الموقتة ، في آب ١٦٨٤ م أوج الملك ـ الشمس . وأسهم الكثير من الحوادث أيضاً في جعل سنوات ١٦٨٢م ـ ١٦٨٨ م منعطفاً من منعطفات الحكم الكبرى ، وبخاصة إقامة البلاط في فرساي في ١٦٨٢ م ، وموت كولبر في ١٦٨٣ م ، وإلغاء براءة نانت في ١٦٨٥ م ، وتشكيل رابطة أوغسبورغ في ١٦٨٦ م . وكان الجزء الأخير من الحكم وهو الأطول : ١٦٨٢ ـ ١٦٨٦ ـ ١٧١٥ م زمن المصائب والمحن والأحزان ، والتنازل الذي لابد منه والمقاومات المتسامح بها .

الملك والبلاط في فرساي

كان عمر لويس الرابع عشر ٤٤ عاماً في ١٦٨٢ م . ولم يكن ذلك الشاب والفارس اللامع الذي كان في سنوات ١٦٦٠ م . لقد كان رجلاً أثقلته السن نوعاً ما قليلاً ، ولكنه ظل على جلالته المرهبة ، وحيويته العجيبة . ومنذ ١٦٨٠ م بدأ بالتعقل والتفكير بسلامته : فغداة موت الملكة ماريا ـ تيريزا ، تزوج سراً بـ (السيدة دو مانتونون) (١٦٨٣ م) . وهي (فرانسواز أوبينيه) (١٦٣٥ ـ ١٧١٩ م) أرملة الشاعر (سكارُّون) ، التي رَبَّتْ أولاد السفاح من الملك ومن

(السيدة دو مونتسبان) ، وقبلت في البلاط وأصبحت مركيزة دو مانتونون في ١٦٧٤ م . ولما أصبحت زوجة الملك ، الذي قدّر كرامة حياتها وصفاتها وحسها السليم ، لعبت دوراً سياسياً مباشراً ولا سبيل إلى إهماله : لقد أسهمت في سقوط بعض الوزراء ، وحاولت أن توجه لويس الرابع عشر نحو سياسة محبة للسلام وتقية . وكان يعزز نفوذَها نفوذُ المعرفين اليسوعيين ، (لاشيز) أولاً ، ثم (لوتيلليه) ، ويلحظ هذا النفوذ في الجو الذي حاولت أن يسود في البلاط .

غادر البلاط قصر سان ـ جرمن في أيار ١٦٨٢ م ليقيم نهائياً في قصر ڤرساي ، حيث تتابعت الأعمال سنين طويلة أيضاً . وبدأت قواعد آداب السلوك تتبلور في مجموعة احتفالات منظمة جيداً وتنزع إلى تمجيد الجلالة الملكية . وكانت الأعياد فاخرة ، إلا في السنوات المظلمة ١٧٠٦ ـ ١٧١٤ م ، وليس لها طابع الذوق الغريب والحرية الذي كانت عليه في بداية الحكم ، وفي الغالب حزينة . ومدعاة للسأم . وكان رجال البلاط كثراً ويتكدسون في القصر في ظروف لا تصدق من عدم الراحة ، ويجعلون أنفسهم أتقياء يقلدون الملك أو على الأقل يتظاهرون بذلك .

وتعيش **الأسرة الملكية** بخضوع تحت سلطة السيد . و (ولي العهد الأكبر) ابن لويس الرابع عشر (مونسنيور) الغارق في الشحم وفي الجمود ، دون رذيلة ولا فضيلة ، على حد قول سان ـ سيمون ، وكان له ثلاثة أولاد ، تلاميذ (فينيلون) الحبر والكاتب الفرنسي . وهم : دوق بورغونيا ، المولود في ١٦٨٢ م ، ودوق آنجو ، المولود في ١٦٨٣ م ، ودوق دو برّي ، المولود في ١٦٨٤ م . وتوفي (مسيو) في ١٧٠١ م وابنه ، دوق دوشارتر ، أصبح دوق أورلئان . كان خليعاً يجحف بالرذائل ، ولكنه مثقف وذكي ، وقد وضعه الملك جانباً تحت تأثير السيدة دومانتونون . ومات كونده الكبير في ١٦٨٦ م . وكان أبناء الملك الطبيعيون يظهرون في البلاط ، ولا سيا ابنا السيدة دومونتسبان (اللذان أقرّ بهما شرعاً) .

وهما : دوق دو مين ، وهو المفضل عند الملك وقد زوجه حفيدة كونده الكبير ، وكونت دو تولوز .

وقد اسهم مجيء ماري ـ أديلاييد دو ساڤوا ـ إلى فرساي ، في ١٦٩٧ م ـ ، التي تزوجت دوق بورغونيا ، في فرح الملك العجوز والبلاط ولو قليلاً . ولكن في ١٧١١ ـ ١٧١٤ م ضربت الأحزان المتتالية الأسرة الملكية : في ١٤ نيسان ١٧١١ م توفي الابن الأكبر بالجدري . وفي شباط ١٧١٢ م ، وعلى مسافة ستة أيام مات دوق ودوقة بورغونيا ضحيتي الجدري أيضاً ، وبعد بضعة أسابيع توفي ابنهما البكر ، دوق بروتانيا . وفي ٤ أيار ١٧١٤ م توفي دوق دوبرّي . وأصبح وارث العرش عندئذ طفل عمره خمسة أعوام وهو آخر ولدين لدوق دو بورغونيا ، والثاني دوق آنجو وهو لويس الخامس عشر ، في المستقبل . وفي وسط هذه الأحزان العائلية ، كما في غيرها من المصائب الكبرى الداخلية والخارجية السابقة ، برهن لويس الرابع عشر عن وقار وعظمة وشجاعة قريبة من عدم التأثر والتألم . وللخلاص من متطلبات الحياة في فرساي ، كان يذهب من حين لآخر إلى (مارلي) للاستجمام مع عدد صغير من رجال البلاط مختارين .

وإذا كان قصر ڤرساي مقاماً دائماً للبلاط ، فقد أصبح أيضاً مقر الحكومة . وبموت كولبر في ١٦٨٣ م ، ولوتيلليه في ١٦٨٥ م ، زالت الجماعة التي خلفها مازارن بكاملها . وكما في الجزء الأول من الحكم الشخصي ، ظل الملك لا يدعو إلى المجلس الأعلى إلا ثلاثة أو أربعة وزراء دولة ، وكان هؤلاء ، باستثناء المراقب العام والمستشار (بونشارترن) ، المتوفى في ١٧١٤ م ، ينتمون جميعاً تقريباً إما لحزب لوتيلليه (لوفوا حتى وفاته في ١٦٩١ م عشية فقدان حظوته) ، وإما لحزب كولبر (أخوه كرواسي ، وابنا أخيه (تورسي) و (ديماريتز) ، وصهره دوق (بوفيلليه) ، الأمير الكبير الوحيد المقبول في المجلس . ولكن الملك أخذ يحكم شيئاً فشيئاً وحده ، تاركاً تنفيذ القرارات إلى قبضة من كبار الموظفين .

ويقيم هؤلاء في (جناح الوزراء) ويوجهون مكاتب متخصصة تضم جهازاً هاماً من موظفي أمانة السر .

وهذه البوروقراطية في الإدارة محسوسة أيضاً في الأقاليم . فالناظر حاضر في كل مكان (كان آخر الـ ٣٠ نظارة ، نظارة بروتانيا وتاريخها ١٦٨٩ م) وباق في الغالب في نفس الوظيفة سنين طويلة على رأس مصالح عديدة يوجهها في بعض الحالات مندوب عام . ومن جهة أخرى ، كان تحت أمره مندوبون ، موظفون مأجورون ، بموجب براءة ١٧٠٧ م ، وموضوعون على رأس دائرة من الدوائر . أي المندوبية التي تطابق إما الانتخابية وإما القضاء .

الأزمة المالية

لقد تفاقمت بفظاعة الحالة المالية ، التي تركها كولبر لخلفائه ، في الجزء الأخير من الحكم ، بسبب المجهود العظيم الذي فرضته الحرب غير المنتهية على أوربة المتألبة من ١٦٨٨ م إلى ١٧١٤ م . وتبدو فترة ١٦٩٧ ـ ١٧٠٢ م هدنة بسيطة موقتة . يضاف إلى ذلك النفقات التي لا يرضى الملك أن ينقصها ، والعمائر مثل قصر فرساي وقصر مارلي ، والبلاط وما إليه من مرتبات ومنح من كل نوع . إن المراقبين العامين المتعاقبين : لوبولوتيه (١٦٨٣ ـ ١٦٨٩ م) النزيه والعاقل الفطن ؛ وبونشارترن (١٦٨٩ ـ ١٦٩٩ م) الذكي دون أوهام ؛ وشاميّار (١٦٩٩ ـ ١٧٠٨ م) الشريف ، ولكنه عاجز ؛ وأخيراً ، ديماريتز (١٧٠٨ ـ ١٧١٥ م) الحاذق والنشيط ، لم يكونوا أقل جدارة من كولبر ، لكثير من الاعتبارات ، ولكنهم كانوا في عراك مع عمل لا يمكن التغلب عليه : وهو دعم حرب صعبة ومكلفة أكثر فأكثر لشعب مستنزف أكثر فأكثر .

ومن الواضح أن أفضل مردود للضريبة سيكون أول دواء لعجز الموازنة . ولكن آثار الزيادات الضريبية الجديدة : كالتاي ، دعامة الالتزام العام لجباية الضرائب ، كانت في الجزء الأعظم وهمية . لأن الشعوب المعتصرة بالضرائب

لا يمكن أن تعطي أكثر مما أعطت ، والتأخر في الدفع يتراكم . والحل يكون إما في أفضل توزيع للضرائب الموجودة ؛ وإما في وضع نظام جديد للضرائب . والتعدادات الكبرى والتحقيقات الجزئية أو العامة ، كالتحقيق الذي أجراه النظار في ١٦٩٧ م بإيحاء دوق دوبوفيلليه ، تريد أن تهيء هذا التوزيع الأفضل تبعاً للسكان وثروة كل منهم . أما المصلحون ، مثل (بواغيلبير) في « تفاصيل فرنسا » (١٦٩٩ م) وفي « الواقع » ١٧٠٧ م ، وفوبان منذ ١٦٩٤ م ، ومن بعد في « مشروع عشر ملكي » (١٧٠٧ م) ، فيشهرون بسوء النظام الضريبي القائم على التفاوت وعدم المساواة ، والاستثناء ، والاعتباط ، ويقترحون إحداث ضريبة مباشرة وعامة تقوم مقام التاي .

وعندما أحدث بونشارترن ضريبة (الرأس) ، في كانون الثاني ١٦٩٥ م ، تناول بعض هذه الأفكار . ويرى أن الضريبة الجديدة يجب أن تكون ضريبة عامة يدفعها جميع الفرنسيين ، ماعدا الفقراء والمعوزين ، ولهذه الغاية ، قسم رعايا الملك إلى ٢٢ طبقة حسب وضعها الاجتماعي لا حسب وارداتها الحقيقية : والطبقة الأولى تضم الابن الأكبر للملك ، وأمراء الدم ، الوزراء ، الملتزمون العامون الذين يفرض على كل منهم سنوياً ٢٠٠٠ ليرة ، والطبقة الثانية والعشرون تضم الجنود ، ورجال السخرة ، والمأجورين اليوميين . وفرضت عليهم ليرة واحدة . وأدى هذا النظام إلى محالٍ لا يقبله العقل . وهكذا اكتتب جميع الأطباء في طبقة واحدة ، ودفعوا مبلغاً واحداً على اختلاف أهمية زبائنهم . ولذا أثارت ضريبة الرأس بالحال عدة انتقادات واشتدت أيضاً عندما علم أن الاكليروس وبعض الأقاليم تحرروا منها بالاشتراك ، أي بدفع مبلغ ثابت مرةً واحدة . وألغيت ضريبة الرأس في ١٦٩٨ م بعد صلح ريسويك ، ولكنها اعيدت في ١٧٠١ م . وفي ١٧١٠ ، في أحرج فترة في حرب الوراثة الاسبانية فرضت ضريبة (العشر) .

وبالإجمال ، إن ضريبتي الرأس والعشر فرضتا مدة الحرب ، ولكنها عاشتا

في الواقع ومع زمن السلام . ولم تحلا محل ضريبة التاي بل أضيفتا لها وجبيتا معها في وقت واحد . وإذا كانت هذه الضرائب عـامـة وسواسيـة من حيث المبـدأ ، فلم تكنـه في الواقع على الإطـلاق ، بسبب الاستثنـاءات والاشتراكات . وأخيراً ، كان إنتاجها أقل جداً مما كان منتظراً . والسبب العميق لهـذا الإخفـاق هو أن المسـاواة الضريبية لا تتلاءم مع نظام اجتماعي مبني على التفاوت وعدم المساواة .

كان مردود الضرائب القديمـة والجـديـدة ضعيفـاً كثيراً ولـذا لا يمكن للملـك الاستغناء عن الموارد الفوق عادية . فقد أكثر من إصدارات القروض بأسعار فائدة بـاهظـة متصـاعـدة أكثر فـأكثر ومكلفـة للـدولـة شريطـة تخفيض السعر الأولي (الأصلي) لها في وقت لاحق . وفرضت قروض إجبارية على المحاكم العليا والمـدن والنبلاء الجدد . وطرح اليانصيب ، وبيعت رسائل التنبيل ، وأحـدثت وظـائف جديدة ، معظمهـا غير مفيـد ومثير للضحـك والسخريـة . ولكن عنـد حـد قول بونشارترن : « في كل مرة تحدث جلالتكم وظيفة ، يخلق الله أحمق لشرائها » .

وكانت تغييرات العمـلات ونمـو الاعتماد تستعمـل للحصول على مـوارد لسـد العوز النقـدي الخطير في فرنسـا وأوربـة . والملاحـظ ، من ١٦٥٢ م إلى ١٦٨٧ م ، أن القيمة الإسمية لليرة الذهبية والريـال الفضي ، المحـددة بـالأمر الملكي ، لم تتغير ، عدا محاولة قصيرة من كولبر . وانطلاقاً من ١٦٨٧ م كانت هاتان العملتـان موضع تلاعب في اتجاه الارتفـاع أو الانخفـاض حسب المصلحـة الآنيـة . وكانت الخزينـة مدينة من أجل دفوعها ، ودائنة من أجل ضرائبها .

ويحسب بـالإجمـال ، بين ١٦٨٧ م و ١٧١٥ م ، أربعـون تغييراً للنقـد ، إمـا اضعافاً ، وإمـا في الغـالب تعزيزاً لقيمـة الليرة بـالنسبـة للـذهب والفضـة . وأدى الاتجاه العام إلى تخفيض بطيء لليرة : وهكذا فإن قيمـة الليرة الـذهبيـة التي كانت ١١ ليفرة في ١٦٨٦ م ، قد حددت ١٦ ، عام ١٧١٤ م ، و ٢٠ ، عام ١٧١٥ م .

ويلعب أيضاً على صهر قطع العملـة ووضع قطع في التـداول تحتوي معـدنـاً

أقل مما في السابق من أجل نفس القيمة . وأخيراً ، أجبر مالكو الأواني الذهبية والفضية على حمل هذه الأواني إلى دور النقد ، وضرب الملك نفسه المثل للناس في ١٦٨٩ م لعلهم يقتدون .

وتقتضي محاولات تنمية الاعتماد أولاً إعطاء قيمة نقد للأسناد التجارية ، ثم في ١٧٠١ م ، طرح أوراق نقدية ، أي وصولات بسيطة تدل على الأنواع المودعة في دور النقد ، وتدفع بعد أجل قصير وتحمل فائدة . لقد كان يخامر ذهن ديماريتز المثل الذي ضر به بنك أمستردام وبنك لندن ، وحاول أن يؤسس بنكاً ملكياً مخولاً بإصدار أوراق نقدية مضمونة بالذهب ويمكن مبادلتها حسب المراد عند الطلب . ولهذا تكون مساندة كبار المصرفيين ضرورية ؛ وقد لعب البروتستانتي (صاموئيل برنارد) ، خلال وقت ، دور صاحب بنك حقيقي للبلاط ، ولكنه قارب الإفلاس ، في ١٧٠٩ م . وفي هذه السنة نفسها ، أسس اثنا عشر جابياً عاماً ، ومن بينهم البروتستانتي الرواني ، من مدينة روانّ ، (لوجندر) ، بإيحاء من المراقب العام ، صندوقاً سمي صندوق لوجندر وضع في التداول الأسناد التي أصدرها الموظفون وجباة المالية وضمنها اعتماد الدولة واعتماد الماليين مؤسسي الصندوق . ولكن هذا المحاولات لا تؤسس بنك الدولة العظيم الذي حلم به بواغيلبير . وفي الواقع إن الملكية كانت في حالة يائسة وتتبع شيئاً فشيئاً رجال المال فيساعدونها على مواجهة الأقساط العاجلة ويفيدون من هذه الحالة لصنع ثروات فاضحة وسط البؤس العام . وعلى أي حال لا يخلو الأمر من مجازفات كبيرة .

إن الضرائب والوسائل لم تنجح في منع زيادة العجز المتسارعة . ففي ١٧١٥ م . بالرغم من عودة السلام وتخفيض النفقات العسكرية ، كانت الحالة المالية في كارثة : لأن دخل الضرائب حتى ١٧١٨ م أكل سلفاً وبلغ مجموع الدين رقماً يسبب الدوار ، ملياري ليفره . وكانت الدولة على حافة الإفلاس .

أزمة الاقتصاد الفرنسي

كانت المشاكل الاقتصادية محسوسة انطلاقاً من ١٦٧٢ م ، وتفاقمت في الجزء الأخير من الحكم . ويتضح هذا التفاقم أولاً بحالة الحرب التي كان لها نتائج مشؤومة لا على المالية فحسب ، بل أيضاً على النشاط الاقتصادي : إن تطويق فرنسا والتفوق البحري لإنكلترا بعد (لاهوغ) ، في ١٦٩٢ م ، قطعا الاقتصاد الفرنسي عن جزء كبير من السوق الأوربي وهددا علاقاتها البعيدة مع مستعمراتها وباقي العالم . وعانى نشاط المصانع من نقص الصادرات منضماً إلى نقص الاستهلاك الداخلي بواقع الافتقار . وفوق ذلك كان للسياسة المالية انعكاسات خطيرة على النشاط العام : لأن الاقتطاع الضريبي المتزايد حوّل نحو النفقات العسكرية مبالغ عظيمة ، ولأن تغيرات النقد الدائمة انتهت بشل الأعمال . وأخيراً ، إن رحيل العديد من أصحاب المصانع والتجار الهوغنوت غداة إلغاء براءة نانت ، سبب ضرراً ثقيلاً لبعض المناطق ذات الفاعلية الكبرى ، ولاسيا في اللانغدوك ، وفي روانّ ، وفي ليون ، وثور ، وسودان حيث غادرت ٤٠٠ أسرة المدينة تاركة وراءها ٢٠٠٠ عامل دون عمل .

وإلى هذه الأسباب المباشرة يضاف ثقل الظروف : إن انخفاض الأسعار ، والدخول والأجور تلاحق مع البطء العام في الأعمال الذي سببه . ولكن إذا كان هذا الانخفاض أقل شدةً مما في الدور السابق وأبدت بعض القطاعات وبعض الإنتاجات منذ ١٧٠٠ م بوادر ارتفاع ومعاودة أعمال تبشر بانقلاب الظروف في ١٧٣٠ م ، فلا أقل من أن آخر الحكم في مجموعه يسجل ، كبدايته ، في المرحلة الكبرى لركود سنوات ١٦٥٠ ـ ١٧٣٠ م .

وأخطر من ذلك بكثير أيضاً ، الأزمات الدورية المتكررة : أزمات كلاسيكية في الاقتصاد من النموذج القديم ، وهي ، بخاصة ، كثيرة بين ١٦٩٢ م و ١٧١٣ م . وقد سجل جميع المعاصرين (تفاوت وعدم انتظام الفصول) في هذه

السنوات الحزينة : ربيع وصيف (عفنان) أو شتاء قاس بصورة استثنائية تعرض للخطر أو تعدم المحاصيل وتؤدي إلى الجدب والعوز والارتفاع المفرط في سعر الحبوب مع كل نتائجها الاقتصادية والديموغرافية . يضاف إلى ذلك تأثيرات الأوبئة . فقد كانت مجاعة ١٦٩٣ ـ ١٦٩٤ م كارثة أصابت معظم المملكة وتسببت في مجزرة حقيقية . وشهدت السنتان ١٦٩٨ ـ ١٦٩٩ م أزمة مواد غذائية جديدة ، ولكنها كانت أقل خطورة في هذه المرة . وفي ١٧٠٠ ـ ١٧٠١ م ، ومن جديد في ١٧٠٧ م أصيب الشمال والغرب بوباء الزحار بشكل قاس . وفي ١٧٠٨ م كان المحصول ضعيفاً تقريباً في كل مكان . وتبعه برد فظيع قارس ، في كانون الثاني ـ شباط ١٧٠٩ م ، جمد الحنطة المبذورة في الخريف الفائت وسبب جدباً عاماً حتى ١٧١٠ م . وكان حصاد ١٧١٢ م و ١٧١٣ م من جديد في حالة عجز في كثير من المناطق .

وجميع هذه الأسباب مجتمعة توضح أفول وانحطاط الاقتصاد الفرنسي : في الأفول الصناعي ، مست صناعات البذخ ، وبخاصة صناعة الحرير في تور وليون ، والمخرمات (الدانتلا) في (آلانسون) والسجاد ؛ وظهر الأفول التجاري في سقوط صادرات المنتجات الغذائية والمصنوعة نحو إنكلترا وهولاندا ومعظم البلاد الأوربية .

وأحدثت الأزمة الاقتصادية ، على اختلاف مظاهرها ، بؤساً عاماً يتناقض مع ثراء رجال المال . وكان الاكليروس والنبلاء والبورجوازيون الملاكون يشعرون بحرج عندما تدفع لهم الأتاوات بعد تناقص قيمتها . وكان أصحاب الدخل وأصحاب المصانع والتجار ضحايا نقص الدخول والتلاعب بالعملة والركود العام . ولكن الطبقات الشعبية في المدن والأرياف كانت أكثر تأثراً من غيرها : فقد كانت مسحوقة بالضرائب ، وأهلكتها الأزمات ، وفي الغالب دون خبز ، ودون لباس ، ودون عمل . وقد تمخض اليأس الذي دفعوا إليه عن ثورات عديدة

وعنيفة ، وبخاصة في ١٧٠٩ م . وازداد عدد المتسولين والمشردين ، حتى انه يمثل ، في ١٦٩٨ م ، ما يقارب عشر السكان ، حسب قول ڤوبان المراقب الواضح والجدير بالثقة .

ومع ذلك ، توجد بعض الأنوار في هذه اللوحة القاتمة التي يحسن ألا نسودها إلى حد الإفراط . أولاً : إن اقتصاد النظام القديم كان له مرونة عظيمة تساعده على التغلب بسرعة على الأزمات الدورية حتى الخطيرة ، مثل أزمة ١٦٩٣ ـ ١٦٩٤ م . وفوق ذلك ، إن بعض قطاعات الاقتصاد وبعض المناطق عرفت ازدهاراً حقيقياً ، حتى في أحلك ساعات الدور . ففي ١٦٩٧ م ، أفادت ملاحة موانئ الأطلسي من عودة السلام ، فاستأنفت طريق جزر الأنتيل ، وبدأت ، بخاصة ، بتجارة التهريب مع الموانئ الإسبانية ـ الأميركية في المحيط الهادئ ، بل وحتى إلى ما وراء الصين . فالرحلة نحو (بحر الجنوب) أي (المحيط الهادئ) ، مروراً بمضيق ماجلان ، تكشف عن مصدر عظيم الربح ، بالرغم من الأخطار من كل نوع . وفي ١٧٠٠ م وجد أن مجلس التجارة الذي وقع في حالة سبات ، قد أعاد تنظيمه : ولعب ممثلو الموانئ الأطلسية الكبرى فيه وبالحال دوراً من الصعيد الأول ، ووجهوا انتباه الملك ووزرائه إلى محاذير التوجيهية الكولبرتية وإلى الفوائد المباشرة (الفضة بشكل سبائك أو قطع نقود) المنتظرة من التجارة مع أمريكا الإسبانية . وهذه الأفكار ـ الخلفية التجارية أثرت ولاشك على قرار لويس الرابع عشر في قبول وصية شارل الثاني . وعلى كل حال ، إن اعتلاء فيليب الخامس عرش مدريد أفصح عن نفسه بعد قليل بانفتاح المستعمرات الإسبانية للتجارة الفرنسية . ومنح شركة غينة امتياز (الأزيانتو) أي تجارة العبيد . وفي الحقيقة إن الحرب التي استؤنفت في ١٧٠٢ م ، في القسم الأعظم على وجه الدقة ، لأسباب اقتصادية ، حددت للتجار الفرنسيين الأرباح التي يمكن أن يجنوها من هذه الميزات والتفضيلات . ومع ذلك فالسوق الإسباني مفتوح منذ الآن دون

منافسة ، والسوق الإسباني ـ الأميركي القريب التناول ، بالرغم من الأساطيل الإنكليزية والهولاندية ، طالبا بالمنتجات المصنوعة الفرنسية ، وبخاصة الأجواخ والأقمشة : ومن هذا الواقع ، عرفت بعض المناطق النسيجية ، مثل بيكارديا ، وريف الغرب ، واللانغدوك ، ازدهاراً يتناقض مع الركود العام .

ولكن بنود معاهدات ١٧١٣ م أغلقت أمريكا الإسبانية في وجه التجار الفرنسيين . ووجهت إليهم ضربة مباشرة عوضها بشكل سيء التهريب نحو المستعمرات الايبرية والتجارة مع الآنتيل . وقد صرح لويس الرابع عشر قبل بضع سنوات : «إن الهدف الأساسي للحرب الحالية هو هدف تجارة الهند والثروات التي تنتجها» . إن الهزيمة الفرنسية تعني التخلي عن هذه الآمال الكبرى ، كما تسهم أيضاً في تسويد اللوحة الحزينة التي يعرضها اقتصاد المملكة في السنتين الأخيرتين من الحكم .

المشاكل الداخلية

الشؤون الدينية

والشؤون الدينية أيضاً سببت خيبة أمل للملك وقد أصبح تقياً ورعاً وما وراء ـ جبلياً ، أي تابعاً للمذاهب اللاهوتية الملائمة لبلاط روما : فقد قفز النزاع الجانسيني من جديد ، ونجحت البروتستانتية في العيش في ظل النظام الجديد من عدم التسامح القانوني .

الماوراء ـ جبلية والتجردية

غداة وفاة البابا إينوسان الحادي عشر (١٦٨٩ م) ، قرر لويس الرابع عشر أن يبحث مع خلفيه : الكسندر الثامن ، ثم المصالح إينوسان الثاني عشر ، عن صيغة اتفاق لإنهاء الخلاف الذي وقع بينه وبين البابا منذ ١٦٧٣ م ، وتمّ ذلك أخيراً ، في ١٦٩٣م ، كما يلي : إن البابا يقبل امتداد الحق الملكي في قبض موارد

الأسقفيات الشاغرة وتعيين الكنسيين ، ويقلد الأساقفة المعينين منذ ١٦٨٢ م ؛ وبالمقابل ، يعدل الملك والأسقفية الفرنسية عن إعلان المواد الأربع ولا يكون تعليمها إجبارياً . وهذا الحل ، الذي يسجل تراجعاً محسوساً للغاليكانية ولا يخلو من انهيار ، قد سهل بموقف العديد من الأساقفة ، مثل فينيلون ، الذين يرون في « حريات » الكنيسة الغاليكانية خطر « عبودية » حيال السلطة الزمنية ، وأكثر من ذلك ، إن مصالحة ١٦٩٣ م تدل على تطور لويس الرابع عشر نفسه : فتحت تأثير السيدة مانتونون ومعرفيها اليسوعيين ، أصبح الملك تقياً ورعاً ، وأراد أن يتقرب من روما ، وكان بحاجة لها للنضال ضد الانشقاقات الدينية المختلفة .

وهذه الحالة بخاصة نجدها في قضية (التجردية) وذلك أن سيدة من البلاط ، السيدة (غويون) ، أدخلت بعض أفكار الصوفي الاسباني (مولينوس) (١٦٢٨ ـ ١٦٩٦ م) ، وبحسبها يجب ان تعطى التطبيقات والأعمال أهمية أقل بكثير مما تعطى إلى تأمل (الحب المحض) لله . وأخذ بها فينيلون مربي دوق بورغونيا ، والدوقتان : دوشيفروز ، وبوفيلليه ، والسيدة مانتونون نفسها . وقلق بعض الأساقفة لذلك ، وبناء على طلب فينيلون نفسه ، اجتمعت في ١٦٩٥ م لجنة رصد برئاسة بوسويه ، الحذر جداً بمزاجه حيال انتشار الصوفية ، في (إيسي) وشجبت (تجردية) السيدة غويون . وقفز الجدال من جديد . وذلك أن فينيلون ، الذي سمي رئيس أساقفة كامبريه ، نشر في ١٦٩٧ م : « إيضاح حِكَمَ القديسين » ، وتناول فيه مواد إيسي ، وحاول أن يبرر السيدة غويون . فرد عليه بوسويه في « رسالة في التجردية » . وقام جدل شديد بين الحبرين . وقلق لويس الرابع عشر من تحول الحوادث ، وطلب من البابا أن يحكم في الأمر . وفي ١٦٩٩ م ، راقب إينوسان الثاني عشر ثلاثة وعشرين اقتراحاً أخذت من (حكم) فينيلون دون أن يصفها بأنها هرطقية . وكان هذا العمل بالنسبة لبوسويه نصف نصر . وفقد فينيلون حظوته ونفي إلى كامبريه ، وخضع مع كثير من اللين والوقار . وقلد التجرديون الآخرون خضوعه ، ووقفت القضية عند هذا الحد .

الجانسينية الثانية

ولم تكن الحال نفسها بالنسبة للجانسينية . وفي الواقع ، كما رأينا ، لم يحل سلام الكنيسة شيئاً منذ ١٦٦٩ م ، ولم ينكر الجانسينيون شيئاً من مواقعهم العقائدية والأخلاقية . وفي ١٦٧٩ م ، قلق الملك من إشعاع البور - رويال ، ومنع الدير من قبول الراغبين في الترهب ، ونفي أنطوان آرنولد . وغداة وفاة آرنولد في ١٦٩٤ م ، ونيكول في ١٦٩٥ م ، أخذ الأوراتوري (كيسنيل) وجه زعيم (الحزب) . وعهده : « العهد الجديد بالفرنسية مع الاحكام الاضافية في كل آية » (طبعة جديدة مزيدة في ١٦٩٣ م) لاقى نجاحاً كبيراً وحظي بموافقة كثير من الأساقفة . وفي هذا الكتاب ، تناول كيسنيل الأساسي من أفكار جانسينيوس وآرنولد في العفو ، ولكنه دافع أيضاً عن بعض النظريات الغاليكانية وأفكار (ريشر) الديموقراطية في دور الخوارنة إلى جانب الأساقفة .

وهكذا ، تختلف هذه الجانسينية الثانية أو (الكيسنيللية) بصورة عميقة عن الأولى وتظهر بحق للاهوتيين الرومانيين واليسوعيين ، والعديد من الأساقفة الفرنسيين كمجموعة مبهمة ومخيفة من الأغسطينية والغاليكانية والريشرية قادرة على أن تضع على بساط البحث لا العقيدة الكاثوليكية فحسب ، وإنما تفوق البابا وكل التشكيل التسلسلي للكنيسة . وبالمقابل ، إن نجاح هذه الجانسينية الثانية في الأوساط البرلمانية يتضح جزئياً بنزعاتها الغالليكانية ، وفي داخل الأكليروس - الأدنى بنزعاتها الريشرية . وبهذا الاعتبار ، إن القرار ، الذي اتخذه الملك ، في ١٦٩٥ م ، في إعطاء الأساقفة كامل السلطات على أعمال الإحسان وعلى الاكليروس القروي في أبرشياتهم ، تسبب في غضب الخوارنة ، ولم يكن غريباً عن انضمام عدد منهم إلى الكيسنيللية .

وفي ١٧٠١ م ، اشتعل الخلاف في موضوع القضية المسماة **حالة وجدان** . ففي ٢٠ تموز ١٧٠١ م ، أجاب أربعون لاهوتياً من (السوربون) بالتأكيد عن سؤال

طرحه عليهم خوري من خورية (كلرمون) وهو : هل يمكن منح العفو لكنسي على سرير موته يقبل بشجب المقترحات الخمسة ، مع الحفاظ على الصمت المحترم على نسبتها الواضحة إلى جانسينيوس ؟ فقام اليسوعيان فينيلون وبوسويه ضد هذا الجواب ، وبدأ جدال شديد . وقلق لويس الرابع عشر من الأفكار (الجمهورية) لبعض الجانسينيين ، وظل وفياً لسياسة ماوراء الجبال الجديدة ، وطلب إلى البابا كليمان الحادي عشر شجباً رسمياً للصمت المحترم وحصل عليه في ١٧٠٥ م بـ المرسوم البابوي « الكرْم الرباني » . وأكرهت السبع عشرة راهبة الأخيرة في (بور ـ رويال ـ دي ـ شان) على توقيع المرسوم ، فرفضن ، وفي ٢٩ تشرين الأول ١٧٠٩ م ، بعثرهن على مختلف الأديرة جنود نائب الشرطة ، وبعد بضعة أشهر ، دمر الدير والكنيسة والمقبرة بصورة كاملة بأمر الملك .

ولكن الجانسينيين كانوا أبعد من أن يلقوا السلاح ، وأفادوا من الهياج الذي سببه تدمير البور ـ رويال ، وفوق ذلك ، كانوا يعلمون أنهم مدعومون علناً كثيراً أو قليلاً من بعض الأساقفة ، من بينهم الكاردينال دو نواي ، رئيس أساقفة باريس . ولمحاولة القضاء عليهم ، دفع الأب لوتلليه لويس الرابع عشر ، فقرر أن يتوجه للبابا الجديد كليمان العاشر . وبعد الكثير من التردد ، نشر البابا في ٨ ايلول ١٧١٣ م ، المرسوم « وحدة الخلق » شجب فيه (١٠١) اقتراح مقتطفة من (أحكام) الأب كيسنيل .

وفي الواقع ، أثار المرسوم مباشرة في فرنسا معارضة شديدة ، ورفض برلمان باريس ، بغالليكانية ، أن يسجل (الدستور) الحبري ، وانقسمت الأسقفية : فعلى خمسين أسقفاً عقدوا بسرعة مجلساً في باريس ، في ١٦ تشرين الأول ، عارض تسعة ، ومنهم نواي ، قبول المرسوم . فغضب لويس الرابع عشر بعمق وفرض تسجيل المرسوم ، على البرلمان ، في ١٧١٤ م ، ووضع الأساقفة المعارضين جانباً في أبرشياتهم بموجب رسالة مختومة . وفي ١٧١٥ م ، قبل ١١٢ أسقفاً المرسوم ،

وبعضهم تحفظ . و ١٥ اتفقوا مع نواي على رفضه . وفيما عدا هذه المعارضة الأسقفية ، ظهرت معارضة أكثر عنفاً بين الأكليروس الأدنى وبين المؤمنين . وعندئذ فكر لويس الرابع عشر بأن يمثل الأساقفة المعارضون أمام مجمع قومي ولكن هذا المشروع أخفق بوفاته .

المسألة البروتستانتية

كانت البروتستانتية بالنسبة للملك مصدراً آخر للمشاكل وتبدد الأوهام . لقد تبين بسرعة أن إلغاء براءة نانت ، لم يحقق وحدة الإيمان بتسجيل استئصال شأفة الهرطقة رسمياً ، ووضعت بشكل فظ مسألة بروتستانتية ، وهي أن رحيل الهوغنوت لم يكن كثيفاً فحسب ، ولكنهم بقوا في المملكة عديدين وعنيدين ، بالرغم من الوهم الذي يدل عليهم تحت التعبير (المهتدون الجدد) . وبسرعة جداً أشار كثير من الأساقفة ، وبخاصة (لوكامو) وبوسويه بل وحتى علمانيين ، مثل بونشارترن إلى الخطر الكبير الذي ينجم عن إجبار هؤلاء المهتدين الجدد على حضور الحفلات الدينية وبخاصة تقبل الأسرار .

وفي ١٦٩٨ م ، وبعد مشاورة الأساقفة والنظار ، وقع لويس الرابع عشر في ١٣ كانون الأول إعلاناً ذكّر فيه بصرامة المبادئ ، ولكنه أوصى بتجنب كل إكراه في تطبيقها حيال (أتباع الدين المصلّح المزعوم) . فهو إذن يعترف ضمناً بوجود هذا الدين في المملكة .

وفي الواقع ، إن هذه المرونة في نظام عدم التسامح القانوني ، الذي نظم في براءة فونتينوبلو ، لا يحل القضية ولا يوقف العنف . فمن ذلك أن العنف أودى بحياة الأب (شيلا) رئيس كهان (ماند) . فقد قتله ، في تموز ١٧٠٢ م هوغنوت متحمسون مندفعون . وقامت على اثر ذلك ثورة في جبال (السيفين) ، بين ماند و (آليس) دفع فيها النساء والأطفال بقيادة بعض

المستحدثين الصغار مثل إبراهيم (مازيل) وجان كافاليه ، أو رعاة مواش مثل بيير لابورت المسمى رولان ، الفلاحين السيفينيين فشكلوا عصابات الأدغال (الكاميزار) ونجحوا خلال ما يقارب ثلاثة أعوام (تموز ١٧٠٢ ـ كانون الثاني ١٧٠٥ م) في عز حرب الوراثة الاسبانية ، في هزيمة عدة جيوش ملكية . وأخيراً ، كان ضرورياً القيام بحملة ماريشال فرنسا (فيلاّر) و ٢٠٠٠٠ رجل لإنهاء هذه الحرب التي لاتعرف الرحمة . فقد قتل رولان ، وخضع كافاليه ولم تعد المقاومة أكثر من بعض الجماعات المسلحة التي أمسكت مع مازيل ، بالبلاد حتى ١٧١٠ م .

غير أن مقاومة الكاميزار لم تضعف . وأكد ذلك لويس الرابع عشر في سياسة اللاتسامح : إن براءة آذار ١٧١٥ م بشأن الهراطقة الخونة فاقمت المادة (١٠) من براءة فونيتنوبلو بقرارها : إن جميع قدامى المصلحين الباقين في فرنسا منذ ١٦٨٥ م ، سيعتبرون منذ الآن بالجملة ككاثوليك ، ومع ذلك ، إذا أضعف الرحيل والاضطهادات ، منذ هذا التاريخ ، البروتستانتية الفرنسية بصورة عظيمة ، ولكنها لم تبدها ، فقد ظهرت من جديد عبادة عامة سرية في بلاد السيفين مع مجالس الصحراء ، فيما كان الأساقفة والنظار في الدوفينه والبواتو وحتى في باريس ، يغمضون أعينهم عن « عناد » المتدينين ويحاولون كبح الغيرة المفرطة عند بعض الخوارنة . ففي آب ١٧١٥ م ، قبل وفاة الملك ببضعة أيام ، عقد الراعي أنطوان كور في ساحة على أبواب مدينة نيم ، مجمعاً ضم أهم رعاة الجنوب والعديد من المؤمنين . وهكذا عادت الكنيسة الكالفنية الفرنسية فغرست من جديد ، وأخفقت سياسة الوحدة الدينية التي حاولها الملك .

الكاثوليكية في بداية القرن الثامن عشر

إلى عودة النزاع الجانسيني ، وإخفاق السياسة البروتستانتية ، تضاف من أجل كنيسة فرنسا أسباب أخرى من عدم الارتياح والقلق . فالإصلاح الكاثوليكي

ث ، والحركة الصوفية الكبرى في القرن السابع عشر سقطت ثانية ، وأسهم
فينيلون في قضية التجردية في عدم الثقة بمختلف أشكال الصوفية .
الذي أثارته الجانسينية الثانية ، عكر كثيراً من الضمائر ، وأغلق عصر
ت الكبرى الرعوية ، ومع ذلك يمكن أن نذكر تأسيس جان ـ باتيست
ـ (١٦٥١ ـ ١٧١٩ م) رهبنة إخوة المدارس المسيحية لتربية الفقراء
م) ، والبعثات الكبرى التي أرسلها (لوي ـ ماري غرينيون دو
ـ) (١٦٧٣ ـ ١٧١٦ م) إلى بواتو ، أونيس ، وبروتانيا العليا . ونحو
فتح للإصلاح الكاثوليكي دور استقرار ، بل وحتى افول .

كن يوجد ما هو أخطر : فالكارتيزيانية (الديكارتية) ، والإلهية
ـاد بوجود الله والدين الطبيعي) والعقلانية ، روح البحث الحر ، تمثل
للكنيسة وبالنسبة لكل النظام القائم الذي ترتبط به ، خطراً هائلاً شهر
يه العجوز ، الذي فقد أوهامه ، ولكنه ما زال مكافحاً ، بكل شدة . وفي
إن الخطر لم يتناول بعد إلا بعض الأوساط الأدبية الباريسية . ومع ذلك ،
زمة الوجدان) هذه التي اجتازتها فرنسا كباقي أوربة ، كانت منذ آخر
لك العظيم ، مبشرة بعصور جديدة .

شـــاكل الخارجية

، الحرب ، التي بدأت في الأشهر الأخيرة من ١٦٨٨ م ودامت أكثر من ٢٥
، ما عدا فترة قصيرة بين ١٦٩٧ و ١٧٠٢ م ، وضعت فرنسا أمام تألبين
، متتاليين ، وجرت في ظروف سياسية وعسكرية تختلف كثيراً عن
سنوات ١٦٦١ ـ ١٦٨٤ م . لقد كانت نزاعاً منهكاً لمختلف المحاربين ، ولكن
ة ـ بالنسبة لفرنسا التي استطاعت بعد عدة انكسارات في ١٧٠٢ ـ ١٧٠٩ م
م الحالة بشكل كاف وتفاوض في ظروف مشرفة .

الظروف الجديدة السياسية والعسكرية

بينما كان على فرنسا ، في حرب هولاندا ، أن تواجه تألباً محدوداً ، كان عليها انطلاقاً من ١٦٨٥ م أن تناضل ضد أوربة بكاملها تقريباً . إن رابطة أوغسبورغ ، هذا الاصطلاح غير الصالح للدلالة على الحلف الكبير الذي تصلب في ١٦٨٩ ـ ١٦٩٠ م بعدة معاهدات خاصة ، كانت تضم البيت النساوي (الامبراطور وملك اسبانيا) والساڤوا والقسم الأعظم من الامبراطورية وبخاصة بافاريا وبراندبورغ ، حليفي فرنسا السابقين ، وأخيراً الكتلة البروتستانتية الإنكليزية ـ الهولاندية التي يحركها غليوم أورانج . والحلف الكبير الذي تأسس من جديد في ١٧٠١ م ، بعد أن اعتلى عرش مدريد أمير فرنسي ، لم يكن أقل هولاً بالنسبة لفرنسا ؛ لأن اسبانيا إذا كانت الآن حليفها وليست خصمها ، فإن هذا الحليف ضعيف ولا ينتظر منه أي دعم نافذ ، ويحسن بالعكس ، مساعدته ماأمكن .

وإذا اتحدت كل أوربة تقريباً على هذا النحو ضد لويس الرابع عشر ، فذلك أولاً لوضع حد للطموحات غير المحدودة للملك ـ الشمس التي لا يشك بها مطلقاً ، بعد الانضمامات والإثارات ، في ١٦٨٠ ـ ١٦٨٨ م ، التي يهدف منها إلى السيطرة على القارة كلها . ولكن أوربة عام ١٦٨٩ ليست أوربة عام ١٦٦١ م ، هذا التاريخ الذي استطاع فيه ملك فرنسا أن يكتب بكل الحقيقة : « لقد توطد السلام مع جيراني حسبما أتصور لزمن طويل أريده بنفسي » . ولكن الامبريالية الفرنسية اصطدمت منذ الآن بامبرياليات أخرى . فقد أمنت الانتصارات على الأتراك واسترداد هونغاريا (أخذت بودا في ١٦٨٦ م) للامبراطور ليؤبولد جاهاً واسعاً ونمواً عظيماً في سلطته . وبعد دور الخشوع والحزن والإغماء الذي أعقب معاهدات وستفاليا ، أرادت الملكية النساوية أن تستأنف ، في الامبراطورية وفي أوربة ، الدور الأول الذي ترى أنه يرجع إليها وتأمل ، بوضع أرشيدوق في

مـدريـد ، أن تلحم بشكل أفضـل فرعي البيت النمسـاوي وتعمر نـوعـاً مـا « امبراطورية » شارل ـ كَنْتْ . أما من جهة الـدول البحريـة ، انكلترا والأقـاليم المتحـدة ، فقـد قلقت من التقـدم الـذي أنجـزتـه فرنسـا في المضمار البحري والاستعماري ، وأكثر من ذلك أيضاً ، الفوائد التجارية التي يمكن أن تحصل عليها من الوراثة الاسبانيـة . ولـذلـك أرادت من توحيـد مصـالحهـا أن تطرد منـافسـاً خطراً ، وعلى وجه الاحتمال أن تتقاسم غنائمه .

وتطورت أيضاً الظروف العسكرية في الحرب . والحقيقة ، في ١٦٨٨ م ، ان الجيش والأسطـول الفرنسيين بقيـا الأوليين في أوربـة ، ولكن هـذا التفـوق أخـذ شيئاً شيئاً يشك فيه ويطرح على بساط البحث . ففي البر كانت القضيـة الكبرى قضيــة الجنـود ، ولحلهـا قرر لـوفـوا أن ينظم المليشـا في ١٦٨٨ م : فعلى القرى وبعض الأقاليم أن تعين بين سكانها رجلاً أو عدة رجال عزاب ، من عمر ٢٠ إلى ٣٠ عام ، يدعون للخدمـة في الجيش ويجهزون على نفقـة أهل القرى . وهكـذا جنـد ٢٥٠٠٠ مليشي في حرب رابطـة أوغسبورغ . ونظراً لضعف قيمتهم العسكريـة ، لم يستخدموا في البدء ، إلا في الدفاع عن الحصون . ولكن التجنيـدات انطلاقـاً من ١٧٠٢ م تعممت في المملكة كلها بالرغم من معـارضـة السكان ، وأفـاد المليشيون في تعزيز الجيوش في الحرب . وبفضل المليشـا ، ولا سيما بـالتطوع واستخـدام الجنود المرتزقة الأجنبية ، استطاع الملك أن يجند في ١٧٠٢ م ، رقماً عظيمـاً من ٣٨٠٠٠٠ رجل ، قيمهم متفاوتة . واستعيض عن السلاح النـاري الخفيف الحمل (موسكيـه) والرمح نهائياً في ١٧٠١ ـ ١٧٠٣ م **بالبندقية** تتممهـا الحربـة ذات مـاسورة الوصل بفضل التحسين الذي أحـدثـه فوبـان في ١٦٨٧ م . وانتظمت المـدفعيـة في جيش مستقل مع قطعتي المدفعية ـ الملكية ، والقـاصفـة ـ الملكيـة . وأخيراً ، كان لـدى الملك قـادة ممتـازون من أمثـال لوكسمبورغ و (كاتينـا) وآخرين غيرهمـا ، وإن كانوا لا يساوون كونده أوتورين .

ولكن هذه الجنود العديدة ، وهذا التسلح الحديث ، وهذه القيادة القيمة لاتكفي مطلقاً لتؤمن للجيش الفرنسي الصف الأول الذي كان له منذ واقعة روكروا . وفي الحقيقة ، ان أوربة المتألبة كان عندها العدد الكافي من الجنود الآخذين بالازدياد ، وتدريب الجنود الامبراطورية التي اعتادت الحرب في حملاتها ضد الأتراك ، والتفوق غير المنازع لجنرالاتها مثل غليوم أورانج ، لويس دوباد ، مكسمليان ـ إيمانوئيل دو بافاريا أثناء حرب رابطة أوغسبورغ ، ولا سيا الأمير أوجين ومارلبورو في حرب الوراثة الاسبانية . وأمام هذين الأخيرين ، لا يمكن لفرنسا أن تضع بعد موت لوكسمبورغ في ١٦٩٥ م ، وتقاعد كاتينا في ١٧٠٢ م ، إلا رجالاً من الحاشية غير أكفاء مثل فيللوروا وتالار أو قادة مهرة ولكنهم متفاوتون ، مثل فاندوم وفيلار .

ولم يكن خصوم الفرنسيين في الحقيقة ، ليعرفوا كيف يفيدون تماماً من زيادة قدرتهم النارية المرتبطة بالبندقية ذات الإطلاق السريع وبالجنود المتعددة أكثر فأكثر ؛ لقد أصبحت الجيوش أقل قدرة على المناورة مما كانت في العهد السابق ؛ لأن الحرب الخاطفة والمعارك المدمرة كانت نادرة أكثر فأكثر ورجع فيها على الأغلب إلى (ستراتيجية الملحقات) مثل : حصار المدن ، و (الأرض المحروقة) ، والاحتلال البطيء للأرض المفتوحة . وقد استطاعت فرنسا في أقبح ظروف حرب الوراثة الاسبانية ، على هذا النحو ، أن تتجنب الهزائم وتدمير جيوشها ، وباعتبارها محمية بـ (الحدود الفولاذية) التي أحاط بها (فوبان) المملكة ، أن تنجو تماماً من الغزو تقريباً .

وتطورت الستراتيجية والتاكتيك أيضاً في البحر . فالمعارك الكبرى للأساطيل ، والعديدة بين ١٦٥٠ و ١٦٨٠ م ، أصبحت أيضاً نادرة انطلاقاً من ١٦٨٩ م . ولذا ، بالرغم من انتصارات (تورفيل) الجميلة ، قرر لويس الرابع عشر ، بدافع من بونشارترن وفوبان ، بعد إخفاق لاهوغ في ١٦٩٢ م ، حرب

القرصنة المربحة مباشرة . فقد كان القراصنة يجهزون برسالة ممتازة تسمح لهم بملاحقة السفن التجارية العدوة . فمن ذلك أن قرصان دنكرك ، مثل (جان بار) ، أو سان ـ مالو ، مثل (دغويه ـ تروون) ، يهاجمون سفن العدو ويستولون على ألوف العمائر مع شحناتها .

ومع ذلك ، إذا فرض القرصان الفرنسيون خسائر ثقيلة على العدو ، فلم يستطيعوا خراب تجارته ، وأكثر من ذلك ، إن التخلي الذي تركت فيه فرنسا رويداً رويداً (**أسطول الخط**) ، ساعد الإنكليز والهولانديين على استعادة سيادة البحر التي فقدوها حيناً من الزمن . وإن الظروف الجديدة لحرب ألـ ٢٥ عاماً التي وقف فيها لويس الرابع عشر أمام أوربة ، جرت على جميع المتحاربين أعباء ثقيلة ، ودفعت إلى الصعيد الأول القضايا المالية . وبينما لويس الرابع عشر يبحث عن موارد بشتى الوسائل ، ولا سيا بإحداث ضرائب جديدة ، كان غليوم الثالث يؤسس في ١٦٩٤ م بنك انكلترا ليكون في الوقت نفسه قادراً على مجابهة النفقات العسكرية بطلب الاعتماد . إن استنزاف الأطراف المتنازعة يوضح بصورة عريضة العودة إلى السلام في ١٦٩٧ م ، ومن جديد في ١٧١٣ ـ ١٧١٤ م .

حرب رابطة أوغسبورغ وسلام ريسويك (١٦٨٨ ـ ١٦٩٧ م)

إن حرب رابطة أوغسبورغ كما يسميها الفرنسيون ، أو : حرب أورلئان ، كما يسميها الألمان ، بسبب دوقة أورلئان ، الأميرة البالاتينية ، أو : حرب التسعة أعوام أو : حرب غليوم ، كما يسميها الإنكليز ـ دارت على القارة وعلى البحر . ولكن العمليات تباطأت منذ ١٦٩٣ م ، فيما بدأت محادثات السلام الأولى .

عندما قام لويس الرابع عشر فجأة بالهجوم على نهر الراين ، في تشرين الأول ١٦٨٨ م ، كان يأمل في أن يسبق المتألبين ويحصل منهم على فوائد حاسمة . وفي البداية ، تضاعف احتلال أسقفيات كولونيا ولييج باجتياح بالاتينا للحيلولة

دون استخدامها قاعدة انطلاق للأمبراطوريين . وطوال شتاء ١٦٨٨ ـ ١٦٨٩ م ، أحرقت المدن والقرى بشكل منظم .

وقد أثار حريق بالاتينا الذي أطنب في مديحه لوفوا ، في كل ألمانيا ، استياء عميقاً وكراهية دائمة ضد فرنسا ، وجعلت أواخر الأمراء ، الذين مازالوا مترددين بعد ، أن يقرروا الانضمام إلى التألب . وفي الوقت نفسه ، كانت السهولة التي طرد بها غليوم أورانج الملك جيمس الثاني واحتلاله عرش انكلترا مكانه ، في تشرين الثاني ١٦٨٨ ـ شباط ١٦٨٩ م ، بالنسبة للويس الرابع عشر ، خيبة عميقة . وعندئذ قرر أن يبقى مدافعاً على الحدود ، وبخاصة في معصم منحدر بالاتينا ، ومحاولاً إرجاع جيمس الثاني بعد أن لجأ في فرنسا . وبفضل مساندة الأسطول الفرنسي ، نزل جيمس الثاني ، في ٢٢ آذار ١٦٨٩ م في إيرلاندا حيث استقبله الشعب الكاثوليكي استقبالاً حاراً . وفي ٣ نيسان ، أخذ (دبلن) . وبعد قليل نقصه الرجال والمال وأضاع وقته في إقليم أولستر . وفي السنة التالية ، اضطر فجأة إلى العودة ثانية إلى فرنسا بعد أن غلبه غليوم الثالث في (دروغيدا) على نهر (البوين) ، في ١٠ تموز ١٦٩٠ م . ومع ذلك ، ففي اليوم نفسه هزم الأسطول الفرنسي ، بقيادة (تورفيل) و (شاتورونار) ، الأسطول الإنكليزي ـ الهولاندي في عرض (رأس بيتشي ـ هيد) أو : (بيفيزيه) ، ودمر كثيراً من نقاط الشاطئ الإنكليزي . وفي تلك الآونة ، انتظم التألب ضد لويس الرابع عشر : ففي ١٢ أيار ١٦٨٩ م وقع الأمبراطور والأقاليم ـ المتحدة معاهدة حلف فيّنا اشتركت فيه بعد قليل انكلترا ، ثم السافوا . وفوق ذلك تقربت فيّنا ومدريد بصورة وثيقة : ان شارل الثاني أرمل ماري ـ لويز أورلئان في ١٦٨٩ م ، تزوج في ١٦٩٠ م ماري ـ آنّ بافاريا ـ نوبورغ أخت الامبراطور ، وسمي دوق بافاريا ماكسمليان ـ إيمانوئيل ، صهر الامبراطور وقائد الجيوش الامبراطورية ، في ١٦٩٢ م حاكماً للبلاد ـ المنخفضة الاسبانية .

وهكذا تحولت الحرب السريعة التي أمل فبها لويس الرابع عشر ، إلى حرب طويلة شاقه وغير حاسمة .

في **البلاد ـ المنخفضة** ، أحرز الماريشال لوكسمبورغ ، في ٢ تموز ١٦٩٠ م انتصار (فلوروس) اللامع . وفي السنة التالية ، حاصر لويس الرابع عشر وڤوبان مونس وأخذاها ، في ٨ نيسان ١٦٩١ م ، ثم نامور ، في حزيران ١٦٩٢ م . وقام غليوم الثالث بمحاولتين لاجتياح فرنسا من الشمال فأوقفهما لوكسمبورغ في (شتاينكرك) ، في ٣ آب ١٦٩٢ م و (نيروندن) ، في ١٩ تموز ١٦٩٣ م .

وفي **جبال الألب** ، اجتاح كاتينا الساڤوا والبيمونت ، وقاتل الدوق فيكتور ـ أميديه في (ستافارد) في ١٨ آب ١٦٩٠ م ، ولكنه في ١٦٩٢ م ، لم يستطع منع غزو الدوفينه من قبل السافوارديين الذين استولوا على (إمبرن) و (غاب) ، خلال فترة . وفي ١٦٩٣ م ، قام بهجوم جديد ودخل البيمونت وقاتل دوق الساڤوا في (لامارساي) ، بالقرب من (موندوڤي) ، في ١٤ تشرين الأول .

وفي الجنوب ، دخل جيش فرنسي إقليم **كاتالونيا** . وفي بداية أيار ١٦٩٢ م قرر لويس الرابع عشر محاولة إنزال في انكلترا وأعطى الأمر إلى تورڤيل أن يغادر (برست) إلى (الكوتانتن) بغية إقلاع جيمس الثاني والجيوش المتحدة منها لهذا الغرض . ولكن ، في ٢٩ أيار ، اصطدمت أل ٤٤ سفينة الفرنسية في عرض (بارفلور) بأسطول انكليزي ـ هولاندي أكثر عدداً بمرتين . وبالرغم من هذه القلة العددية تغلب تورڤيل ، ولكن اثنتا عشرة من وحداته أصيبت بأضرار واضطرت أن تبحث عن ملجأ لها في حوض (لاهوغ) ، حيث أحرقها العدو ، في ٢ و ٣ حزيران ، بعد كفاح عنيف . وهذا الإخفاق الذي منى به الأسطول الفرنسي في لاهوغ بالغ الإنكليز في تضخيمه ، ولكن كان له نتائج هامة : فقد جعل من المستحيل الإنزال في انكلترا ، ودفع لويس الرابع عشر إلى التخلي عن

حرب الأسطول لحرب القرصنة . وأعطى تورڤيل نفسه المثل : ففي حزيران ١٦٩٣ م هاجم ، في عرض (لاغوس) في البرتغال ، قافلة انكليزية ـ هولاندية تتألف من أكثر من ٢٠٠ عمارة ، ونهب عدداً كبيراً منها .

وفي ١٦٩٣ م ، أدرك الخصوم أن الأسلحة لا تستطيع أن تأتي بنتائج حاسمة ، وأن الجهود الحربي أنهكهم مالياً ، فدخلوا في مباحثات سرية قليلاً أو كثيراً . ولكن لويس الرابع عشر ، الذي تصالح مع البابا ويبدو أنه اختار الاعتدال ، رفض مع ذلك الاعتراف بغليوم الثالث ملكاً على انكلترا ، واستؤنفت العمليات في ١٦٩٤ م ، ولكن برخاوة . وإذا لم يستطع لويس الرابع عشر الاعتماد على اجتياح انكلترا ، فإن المتألبين من جانبهم فقدوا الأمل باجتياح فرنسا ، بالرغم من أن غليوم أخذ نامور ، في ٤ آب ١٦٩٥ م . وأكثر من ذلك ، إن حرب القرصنة أصابت بقساوة الدول البحرية . وقرر دوق السافوا أن يترك التألب ، وأعطى إشارة السلام . وبموجب معاهدة **تورينو** ، في ٢٩ آب ١٦٩٦ م ، أعاد لويس الرابع عشر إلى فيكتور اميديه فتوحات كاتينا وأعطاه (بينييرول) و (كازال) ورسخ زواج دوق بورغونيا من ماري ـ أديلائيد السافوا المصالحة . وقلقت انكلترا من نجاح فرنسا في أمريكا الشمالية بعد أن أخذت أراضي جون هودسون والأرض ـ الجديدة ، وهددت نيويورك وبوسطون ، وخشيت هولاندا النهمة للسلام هجوماً فرنسياً نحو البلاد ـ المنخفضة ؛ ورأت اسبانيا أنها مهددة مباشرة بعد أخذ بارشولونة في آب ١٦٩٧ م ، فقررتا ، في ٢١ ايلول ١٦٩٧ م ، أن توقعا السلام الذي جرى التفاوض فيه منذ بضعة أشهر في ريسويك ، بالقرب من لاهاي ، بين الفرنسي (بوفلر) والإنكليزي ـ الهولاندي (بنتينك) لورد بورتلاند . وفي الشهر التالي ، في ٣٠ تشرين الأول ، وافق الامبراطور .

معاهدات ريسويك

تسجل **معاهدات ريسويك** أول توقف لسياسة الفتح التي سلكها لويس

الرابع عشر . ويبدو أنه اضطر ، بعداء أوربة وإنهاك مملكته ، لاكتشاف ثمن السلام والاعتدال ، وفي الواقع ، قبل أن يعيد كل اتحادات سنوات ١٦٧٩ - ١٦٨٩ م ، باستثناء ستراسبورغ ، وكل فتوحات الحرب ، أي مونبليار ، فريبورغ ، بريزاخ ، كيل ، فيليبسبورغ ، و (دو - بون) ، والبالاتينا إلى الامبراطور أو إلى الأمراء الألمان ؛ واللورين ، ما عدا سارلوي ، إلى دوقها ؛ واللوكسمبورغ وتوابعها ، كورتريه ، مونس ، آط ، شارلوروا وكاتالونيا إلى اسبانيا . وعليه فقد وجدت فرنسا للمرة الثانية حدود نيمغ ، عدا فريبورغ وبريزاخ وبينيرول ، ولكن مع ستراسبورغ وسارلوي . ومن جهة أخرى ، إن القضيتين اللتين أفادتا حجة للحرب ، سويتا نهائياً على حساب لويس الرابع عشر . فقد اعترف بجوزيف - كليمان بافاريا ناخباً لكولونيا وأسقف لييج ، وتخلى ، مقابل تعويض ، عن مزاعم دوقة أورلئان على البالاتينا . وخولت فرنسا الأقاليم - المتحدة فوائد هامة تجارية وحق إقامة حاميات في بعض المواقع الحصينة في البلاد - المنخفضة الاسبانية ، المجاورة للحدود الفرنسية (المواقع التي تسمى الحاجز) . وأخيراً أرجع لويس الرابع عشر إلى انكلترا الفتوحات التي أجريت على حسابها في أمريكا الشمالية . وقبل ، وهذه نهاية الإذلال ، الاعتراف بغليوم الثالث وعدم دعم مزاعم آل ستوارت .

يسجل سلام ريسويك ، بالنسبة إلى هدنة راتسبون ، تراجعاً هاماً قبله الملك دون أن يكون مغلوباً بحق . وفي الواقع لقد نجح في الحفاظ على الأساسي ، أي على الألزاس وستراسبورغ ، وبقي جاه جيوشه سليماً لم يمس . ولكن زمن العظمة والهيمنة الفرنسية قد مضى ، وبدأ زمن التوازن في أوربة حيث يجب منذ الآن أن تؤخذ بعين الاعتبار انكلترا التي هي في عز ازدهارها ونهوضها ، والملكية النمساوية الواسعة والقوية حيث يمثل افتتاح الوراثة الاسبانية الوشيك الوقوع اهتماماً كبيراً لدى جميع رؤساء الدول .

إرث أسبانيا وحلف لاهاي الكبير (١٦٩٨ ـ ١٧٠١ م)

انطلاقاً من ١٦٩٦ م ، أصبحت حالة الملك شارل الثاني الصحية مقلقة . ولم يكن لـه أولاد . وبينما كان لؤبولـد الأول يقبل ، في ١٦٦٨ م ، فكرة تقسيم ، إذا به الآن يرى استعمال حقوقه ليطالب عند الأوان بمجموع الإرث لابنه الثاني . أما لويس الرابع عشر فقد أدرك بوضوح غداة صلح ريسويك أن مصلحة فرنسا تقتضي فقط طلب جزء من الإرث . وفي الواقع لم تكن الدول الأوربية لتتساهل بأن يعود كامل الأملاك الاسبانية إلى بوربوني أو إلى هابسبورغي من فيّنا ، خشية تعرض التوازن الأوربي ، الذي وطد في ريسويك ، للخطر . وبكثير من المهارة والحكمة بادر لويس الرابع عشر بمفاوضات مع خصميه الكبيرين بالأمس ، انكلترا وهولاندا ، المهتمين بخاصة لا بالتوازن الأوربي فحسب ، وإنما أيضاً بمصير البلاد ـ المنخفضة في المستقبل والمستعمرات الاسبانية . وبالرغم من حذر غليوم الثالث حيال لويس الرابع عشر ، أدت المفاوضات في ١٣ تشرين الأول ١٦٩٨ م ، إلى تسوية ، حل وسط ، يعود بموجبها الأساسي من الإرث : اسبانيا ، البلاد ـ المنخفضة ، المستعمرات ، إلى الأمير ناخب بافاريا . وكان عمره آنذاك ستة أعوام . وهو ابن الدوق ماكسمليان ـ إيمانوئيل وابن أخت شارل الثاني ؛ وأن يأخذ الدوفن،ولي العهد : نابولي ، وصقلية ، و والغيبوزكوا ؛ وأن تعطى الميلانيا (منطقة ميلانو) إلى الأرشيدوق شارل . وإذا وافق دوق بافاريا على هذا التقسيم ، فإن الامبراطور لم يوافق عليه ، لأنه يريد كل شيء لابنه ؛ كما لم يوافق شارل الثاني المتفق مع شعبه ويريد صيانة سلامة ملكيته ، ولم يقبلا الاعتراف بمعاهدة التقسيم . وبعد قليل طرح هذا التقسيم على بساط البحث بموت الأمير الباڤاري الصغير قبل أوانه ، في ٦ شباط ١٦٩٩ م . وبرهن لويس الرابع عشر على اعتدال للغاية ، واتفق عندئذ مع انكلترا وهولاندا بأن يصبح الأرشيدوق شارل ملك اسبانيا ، تحت تحفظ مزدوج : وهو أن يتعهد بألا يدمج

مملكتـه إلى الممتلكات النسـاويـة ، وأن تزاد الحصـة المخصصـة لـ (الـدوفـان) في ١٦٩٨ م بميلانيا ، مع إمكان مبادلة نابولي وصقلية مقابل السافوا ونيس ؛ ومبادلة ميلانيـا مقـابـل اللـورين (٢٥ آذار ١٧٠٠ م) . ولكن ، وللمرة الثـانيـة ، رفض الامبراطور وملك اسبانيا ، كل من جانبه ، إعطاء ضمانه لمعاهدة التقسيم الجديـدة هذه .

ومع ذلك ، فإن شارل الثاني في مدريد كان منجذباً بين تأثير الملكـة ، أخت زوجـة الامبراطـور ، التي كانت تحض ، ولا يخلـو الأمر من خرق ، لصـالـح ابن أخيها الأرشيدوق شارل ؛ وبين تأثير الحزب القومي الاسبـاني الـذي يعـارض كل فكرة تقسيم ويعادي الحل النمساوي الملائم لوراثة فرنسية .

أما شارل الثاني ، فبعد أن تغلب على شكوكه الأخيرة حيال أبنـاء عمومـه في فيّنـا وأخـذ رأي البـابـا ، قرر أخيراً ، في ٢ تشرين الأول ١٧٠٠ م ، أن يسجـل وصيتـه : وذلـك بـأن منع على الإطـلاق كل تقسيم لـلإرث الاسبـاني وعين خلفـه **فيليب دوق آنجو** ، الابن الثاني للـدوفـان ، شريطـة أن يتخلى عن جميع حقوقـه بتاج فرنسا .

وفي حال عدم وجود دوق آنجو ، يعود مجموع الإرث إلى ابنـه الثـاني **دوق دو بِرّي** . وفي حال رفض كل منهما ، يعود الإرث إلى الأرشيدوق شـارل : أو أخيراً ، إذا رفض هذا الأخير ، إلى دوق سافوا ، فيكتور أميديه الثاني ، آخر حفيـد لابنـة **من فيليب الثاني** . وبعد بضعة أسابيع ، في الأول من تشرين الثاني ، توفي الملـك شارل الثاني (المحتضر منذ ولادته) .

عرفت الـوصيـة في فرنسـا ، في ٩ تشرين الثـاني ، وكان لـويس الرابـع عشر آنئذ في فونتينوبلو مع الحاشية ، ووجد نفسه **أمام خيار** شديد الخطورة : فإما أن يرفض وصيـة شـارل الثـاني ويتمسـك بمعـاهـدة التقسيم لعـام ١٧٠٠ م ، أو يقبـل الوصية ويخرق هذه المعاهدة نفسهـا . وفي الحـالين ، أيقن بحرب مع الامبراطور .

ولكن ، في الحالة الأولى : يمكن لفرنسا أن تعتمد على مساندة انكلترا وهولاندا . وبالمقابل ، إن الامبراطوريين المرابطين في اسبانيا والبلاد ـ المنخفضة يهددون المملكة مباشرة . وفي الحالة الثانية يخشى أن تصطف الدول البحرية إلى جانب الامبراطور . وبالمقابل ، لن تكون اسبانيا خصماً ، بل حليفة . وخارجاً عن هذه الأحداث المباشرة ، إن قرار لويس الرابع عشر يُلزم المستقبل : فإما أن تؤمن فرنسا لنفسها ضم اللورين والسافوا بفضل معاهدة ١٧٠٠ م وبإمكانية المبادلة التي يقدمها ، أو تعدل عن هذه التوسيعات الجوهرية على أن تؤمن لنفسها فائدة عظيمة من جميع الاعتبارات ، وذلك بأن ترى ملكاً بوربونياً لا هابسبورغياً ، يحكم في مدريد . ومن المؤكد أن الملك كان حساساً ، في آخر تحليل له عن الموقف ، بالوجاهة السلالية . وبعد أن شاور وزراءه ، قرر قبول **الوصية** ، وجعل قراره عاماً ، في ١٦ تشرين الثاني ، حين قدم الدوق آنجو لرجال حاشيته قائلاً : « أيها السادة . هاهو ذا ملك اسبانيا » . وبرر على هذا النحو قراره في رسالة وجهها في ١٤ من الشهر نفسه إلى سفيره في هولندا .

والواقع ، أن حساب الملك ، على ما يبدو ، سيتحقق . ففيما عدا الامبراطور الذي قطع علاقاته مع فرنسا منذ انتشر خبر قبول الوصية ، اعترفت معظم الدول الأوربية ، ومن بينها إنكلترا والأقاليم ـ المتحدة ، بالدوق آنجو ملكاً على اسبانيا تحت اسم فيليب الخامس . ومن المؤكد أن الملك غليوم ورئيس الهيئة التنفيذية هاينسيوس لم يعترفا إلا كرهاً تحت ضغط شعبيهما النهمين إلى السلام ، وأنهما ينتظران الوقت المناسب للخروج من هذا الحياد وجر بلادهما إلى الحرب . غير أن إساءة تصرف لويس الرابع عشر ستساعدهما على النجاح في ذلك . وفي الأول من شهر شباط ١٧٠١ م ، طلب من برلمان باريس أن يسجل رسمياً وعلناً ، الحفاظ على حقوق فيليب الخامس في تاج فرنسا ، مناقضاً بذلك بنداً من بنود الوصية . وفي الوقت نفسه ، أرسل جنوداً فرنسية لأخذ موقع الحاميات

الهولاندية في حصون (الحاجز) ، في ٥ و ٦ شباط ، وما لبث أن طلب موافقة حفيده على حكم البلاد ـ المنخفضة بالواقع . ولكن يوجد ما هو أخطر : وهو أن فيليب الخامس ، بناء على طلب لويس الرابع عشر ، منح التجار الفرنسيين امتيازات هامة في المستعمرات الإسبانية ، ولا سيا ، امتياز (الآزيانتو) أو حصر إدخال العبيد الزنوج ، في أيلول ١٧٠١ م . وهكذا ، انفتح سوق أمريكا الاسبانية الواسع إلى التجار الفرنسيين . غير أن التجار الهولانديين الذين كان لهم حتى الآن حق (الآزيانتو) ، والتجار الإنكليز الذين بدؤوا بنشاط التهريب في العالم الجديد كله ، شعروا مباشرة أنهم مهددون في مصالحهم الاقتصادية ، واصطفوا إلى جانب فكرة الحرب التي امتدحها هاينسيوس وغليوم . وفي أقل من عام ، بعد وفاة شارل الثاني ، وقع الأمبراطور وإنكلترا والأقاليم ـ المتحدة ، في ٧ أيلول ١٧٠١ م معاهدة حلف لاهاي الكبير ، وبموجبها قبلوا أن يخولوا « إرضاءً عادلاً ومعقولاً لمزاعم الأمبراطور في إرث إسبانيا » ، وأعطوا لويس الرابع عشر شهرين للتفاوض معهم في هذا الغرض . فما أن تمضي هذه المدة إلا ويدخلون في الحرب ضد فرنسا .

وبآخر خرق ارتكبه لويس الرابع عشر أجاب معترفاً بجيمس الثالث (جاك الثالث) ملكاً على إنكلترا ، يوم وفاة أبيه جيمس الثاني في سان ـ جرمن ـ أن ـ لي ، في ١٦ أيلول . ورأى غليوم الثالث والشعب الإنكليزي بكامله . أنها تحديا علناً ، فتهيأ بنشاط إلى الحرب . ولم يمس موت غليوم . في ١٩ آذار ١٧٠٢م ، قرار المتألبين يوجههم منذ الآن ثالوث مؤلف من الهولاندي هاينسيوس ، والإنكليزي مارلبورو والأمير أوجين الساڤو في خدمة الامبراطور . وفي ١٥ أيار ١٧٠٢م ، أعلن موقعو حلف لاهاي الكبير ، بعد أن انضم إليهم بعد قليل ملك الدانيارك وناخب براندبورغ ومعظم الأمراء الألمان ، الحرب جيعاً على فرنسا وإسبانيا .

حرب الوراثة الإسبانية (١٧٠٢ - ١٧١٣ م)

في بداية الأمر . كانت الغلبة لصالح فرنسا وحلفائها ، إسبانيا فيليب الخامس ، وبافاريا ماكسمليان - إيمانوئيل الموقع على معاهدتي ١٦٩٨ و ١٧٠٠ م ، والأكثر مقاومة وترددأ ساڤوا فيكتور آميديه الثاني . وفي إيطاليا ، قاتل ڤاندوم ، في (لوزّارا) ، في ١٥ آب ١٧٠٢ م ، الأمير أوجين الذي اجتاح ميلانيا في الصيف الفائت . وفي ألمانيا ، جاء ڤيلار لمساعدة دوق بافاريا وانتصر في (فريد لنغن) ، في تشرين الأول ١٧٠٢ م ، ثم في (هوخشتت) ، في ٢٠ أيلول ١٧٠٣ م ، دون التمكن من الزحف على فينّا . غير أن دوق سافوا ترك حزبه في ١٧٠٣ م ، وانضم ، في ٨ تشرين الثاني ، إلى التألب ، فجعل من العسير الدفاع عن ميلانيا ، فيما ساعد تحالف البرتغال مع المتألبين ، في ١٦ أيار ١٧٠٣ م ، وبخاصة مع إنكلترا ، بموجب معاهدة (ميثوون) ، في ٢٧ كانون الأول ، خصوم فيليب الخامس على اتخاذ البلاد البرتغالية قاعدة انطلاق .

وعرف الفرنسيون - الاسبانيون آنذاك سلسلة هزائم . ففي الأول من آب ١٧٠٤ م استولى أسطول إنكليزي على جبل طارق . وفي ١٣ آب ، أجبر الانتصار اللامع الذي أحرزه الأمير أوجين ومارلبورو في (بلنهايم) ، بالقرب من هوخشتت ، على (مارسين) و (تالار) ، الفرنسيين على ترك بافاريا والانطواء فجأة إلى ما وراء الراين . وفي السنة التالية ، ثارت كاتالونيا ضد فيليب الخامس ، وفي ٤ تشرين الأول ١٧٠٥ م ، احتل الإنكليز بارشلونة ، حيث نودي ، في ٩ منه ، بالأرشيدوق شارل ملكاً على إسبانيا تحت اسم شارل الثالث . وبعد بضعة أشهر ، طرد العمل المنظم من الجيوش الإنكليزية - النمساوية من البرتغال وكاتالونيا فيليب الخامس من مدريد ودخلها شارل الثالث في ٢٨ حزيران ١٧٠٦ م . ومن الصحيح أن ثورة المدينة لصالح الملك البوربوني ساعدت هذا على الدخول ثانية إلى عاصمته ، في ٣ آب . ولكن في آخر ١٧٠٦ م ، ظل

شارل الثالث يمسك بكاتالونيا ومملكة فالانس وميلانيا ، (بانتصار الأمير أوجين في تورينو ، في ١٧ أيلول) والبلاد المنخفضة التي أجلى عنها الفرنسيون - الاسبانيون بعد انتصار مارلبورو على (فيللروا) في (راميّي) ، في ٢٣ أيار ١٧٠٦ م . وفي ١٧٠٧ م ، قام فيلار بغزو (فورتامبرغ) ، ولكن هذا الغزو ظل دون غد ، واستطاع فيليب الخامس أن يدحر شارل الثالث والإنكليز - البرتغاليين في بارشلونة وبعض مواقع كاتالونيا وجبل طارق . ولكن المتألبين اجتاحوا ، خلال بعض الوقت . إقليم البروفانس واستولوا على مملكة نابولي .

وفي هذه السنة ١٧٠٧ م ، تغلب ملك السويد شارل الثاني عشر على الدانماركيين والروس والبولونيين وبدا أنه أصبح حكماً لأوربه : واقترح عليه لويس الرابع عشر أن يتدخل مباشرة في الأمبراطورية . ولكن مارلبورو ، من جانبه ، ذهب بنفسه إلى ملك السويد ، ومقابل بعض التنازلات التي أجراها الامبراطور جوزيف الأول ، الذي خلف ليؤبولد في ١٧٠٥ م ، استطاع أن يقنعه بأن يتحول عن الغرب والشؤون الألمانية ، ويهاجم بطرس الأكبر الذي اجتاح بولونيا .

ويئست فرنسا من صرف نظر السويد عن أوربة الوسطى ، وعرفت في ١٧٠٨ م سنة من أحلك سنوات الحرب . فقد حاول دوق بورغونيا بعد أن انضم إليه فاندوم ، أن يسترد فتح البلاد - المنخفضة ، ولكن الرجلين لم يتفاهما ولم يستطيعا منع مارلبورو والأمير أوجين من الانضمام إلى بعضهما والتغلب عليهما في (**أودينارد**) ، في ١٠ تموز ١٧٠٨ م ، ومحاصرة مدينة ليل التي استسلمت في ٢٢ تشرين الأول : هذا مع العلم بأن القلعة التي يحميها (بوفلر) تماسكت حتى كانون الأول . وعوضاً عن الهجوم المتوقع على البلاد - المنخفضة ، اجتيحت فرنسا . وبعد بضعة أسابيع حل فصل شتاء ١٧٠٩ م الفظيع ففاقم في سوء حال المملكة ، وفي بؤس الشعب بعد أن أثقلته الضرائب وهددته المجاعة .

وسبق ، في سنة ١٧٠٥ م . أن لويس الرابع عشر قدم إلى هاينسيوس اقتراحات سرية وشبه رسمية ، ولكنه في هذه المرة قرر أن يقوم رسمياً **بمفاتحات السلام** . وأرسل ، لهذه الغاية ، إلى لاهاي ، في أيار ١٧٠٩ م ، وزيره كولبر دو تورسي بن كرواسي وصهر بومبون ، الذي خلق أباه في ١٦٩٦ م . ومقابل تعليق السلاح مدة شهرين ، طالب هاينسيوس ومارلبورو والأمير أوجين بطرد جيمس الثالث ستوارت وبتدمير ميناء دنكرك ، عش القرصنة ، والاعتراف بالأرشيدوق شارل ملكاً على إسبانيا ، والتخلي عن ستراسبورغ والالزاس إلى الامبراطور ، وليل وموبوج ، وتورنيه ، وكونده ، وفالانسيين إلى الأقاليم ـ المتحدة ؛ وأخيراً الوعد ـ وهذا الوعد على ما يبدو غامض ـ بمساعدة فرنسية بطرد فيليب الخامس على وجه الاحتمال من إسبانيا . وبعد قبول المتطلبات الأولى ، ما عدا الطلب المتعلق بالإلزاس ، رفض تورسي ، بأمر الملك ، الطلب الأخير وغادر لاهاي ، وظلت الحرب قائمة . وحصلت فرنسا على نصف ـ نجاح ، فدلت بذلك على أنها لما تغلب عسكرياً . ففي ١١ أيلول ١٧٠٩ م ، هاجمت قوات عديدة بقيادة الأمير أوجين ومارلبورو ، ڤيلار في (مالبلاكيه) ، بالقرب من موبوج ، واضطرته إلى القتال متراجعاً بانتظام ، بعد أن فرض عليها خسائر في العتاد وفي الرجال ، حتى أنه كتب إلى لويس الرابع عشر : « إذا تفضل الله علينا بخسارة هذه الحرب ، فإن جلالتكم يمكن أن تثق بأن الأعداء دمروا » . وحاول الملك أن يفيد من ذلك لعقد المفاوضات من جديد . وفي مؤتمرات جير ترويد نبرغ في هولاندا ، في (آذار ـ تموز ١٧١٠ م) ، ذهب مندوبوه فوق العادة حتى تقديم عون مالي لمساعدة المتألبين على طرد فيليب الخامس من مدريد . ولكن هاينسيوس المتصلب طلب من فرنسا أن تقود بنفسها العمليات العسكرية ضد حفيد الملك . وأعلن هذا أنه يفضل (حرب أعدائه على حرب أولاده) ، وقطع المفاوضات . ومالبث الثالوث أن أسف على عناده .

وفي الواقع ، فيما كانت الجيوش الفرنسية المنهكة ولكنها معتمدة على

تحصينات ڤوبان ، تحاول صيانة التراب الوطني ، أرسل فاندوم إلى اسبانيا لمساعدة فيليب الخامس الذي اضطر للتخلي للمرة الثانية عن مدريد إلى شارل الثالث ، في ٢٨ أيلول ١٧١٠ م ، وانتزع فاندوم ، في ٩ كانون الأول ١٧١٠ م مدينة (بريهويغا) وتغلب في الغداة على الإنكليز ـ النمساويين ، محرزاً نصراً حاسماً في (فيلافيسيوزا) . وللمرة الثانية ، ينطوي شارل الثالث في بارشلونة . وأكثر من النجاح ، أسهم تغير موقف انكلترا في إنقاذ فرنسا من كارثة . وبدأ الرأي العام الإنكليزي يمل من هذه الحرب التي لا تنتهي . وفوق ذلك . في ١٧١٠ م ، ساءت علاقات الملكة آنّ مع مارلبورو وزوجته ، فيما أعطت الانتخابات نتائج لصالح التوريين ، أنصار السلام . وفي بداية ١٧١١ م . عقد رسول فرنسي ، في لندن ، باتفاق مع تورسي ، مباحثات سرية . وأخيراً إن موت الامبراطور جوزيف الأول ، الذي لم يكن له وارث مباشر ، في ١٧ نيسان ١٧١١ م ، بدل معطيات القضية الاسبانية تماماً . وفي الواقع ، خلفه أخوه الأرشيدق شارل (شارل الثالث مالك اسبانيا ، بالنسبة للمتألبين) ، عاهلاً على الممتلكات النمساوية ومن بعد أمبراطوراً تحت اسم شارل السادس ، وما من دولة أوربية (وانكلترا أقل من أي دولة أخرى) استطاعت أن تتصور بأن يبقى في الوقت نفسه ملكاً على إسبانيا ، معمراً على هذا النحو (امبراطورية) شارل ـ كنت .

وانتهت مغامرات القرصان الفرنسيين ، (وبخاصة حريق ريو ـ دو ـ جانيرو على يد دغوي ـ تروون ، في أيلول ١٧١١ م) ، بجعل إنكلترا تتخذ قرارها : وفي ٨ تشرين الأول ١٧١١ م ، وقعت مع فرنسا **مقدمات لندن** على أساس الاعتراف بفيليب الخامس مقابل فوائد سياسية وتجارية ، واقترحت افتتاح مفاوضات عامة في (أوترخت) ، في كانون الثاني ١٧١٢ م . وماطل الامبراطور وهاينسيوس في المفاوضات مقدمين متطلبات لا تقبل ، على أمل الحصول على نجاح عسكري حاسم ، واستدعت انكلترا جيوشها ، بعد أن اتهم مارلبورو بالاختلاس والفساد ، ونفي ، ووقعت في ١٧ تموز ١٧١٢ م هدنة مع فرنسا .

وفي الوقت نفسه ، قرر الأمير أوجين أن يحاول مجهوداً أخيراً . وعلى رأس ١٣٠٠٠٠ جندي أمبراطوري وهولاندي ، أخذ (الكيسنوا) وحاصر (لاندريسي) ، آخر موقع يحمي وادي نهر الواز . وأدرك لويس الرابع عشر خطورة الحالة ، فعهد إلى فيلار بقيادة الجيوش الأخيرة الجاهزة ، وعددها ٧٠٠٠٠ رجل . وخدع فيلار العدو بمناورة حاذقة ، وقطع عن الأمير أوجين تموينه وضربه في (دونان) ، في ٢٤ تموز ١٧١٢ م . وانقلبت مماطلات أواخر المتألبين عليهم : وساعد انتصار دونان فرنسا في الحصول على السلام في شروط مشرفة ، مما لم يحلم به قبل بضع سنوات .

سلام أوترخت والتوازن الأوربي الجديد

بموجب معاهدات ١٧١٣ ـ ١٧١٤ م ، اعترف بفيليب الخامس ملكاً على إسبانيا ، ولكنه تخلى إلى النمسا عن البلاد ـ المنخفضة وممتلكاته الإيطالية ، وخول انكلترا امتيازات تجارية هامة في أمريكا الإسبانية . وقام مقام التفوق الفرنسي في سنوات ١٦٦٠ ـ ١٦٨٤ م توازن جديد بين الدول الكبرى الثلاث : فرنسا ، النمسا ، انكلترا .

معاهدات أوترخت ورشتات (١٧١٣ ـ ١٧١٤ م)

لقد سهلت المفاوضات ، التي افتتحت في أوترخت ، منذ ٢٩ كانون الثاني ١٧١٢ م . بتقرير إنكلترا الوصول إلى تسوية سريعة ، وبإعياء الساڤوا والبرتغال وبراندبورغ ـ بروسيا . ورضيت هولاندا بدورها بالمفاوضة بعد أن ابتليت بكارثة شديدة في دونان . وأصر الأمبراطور شارل السادس وحده على عدم الاعتراف بفيليب الخامس ، وقرر متابعة الحرب . أما لويس الرابع عشر ، فقد أجبر الستوارتي المدعي بالعرش ، في شباط ١٧١٣ م . على مغادرة المملكة ، وفي ١٥ آذار أمر البرلمان بتسجيل تخلي ورثته عن تاج إسبانيا ، ووقع ، في ١١ نيسان ١٧١٣ م سلسلة معاهدات مع إنكلترا ، والأقاليم المتحدة ، والبرتغال ، والساڤوا

وبروسيا . وتفاوض فيليب الخامس ، في ١٣ تموز مع إنكلترا والساڤوا . وأخيراً . وبعد نجاحين حققهما فيلار : أخذ (لاندو) في آب ، وفريبورغ في تشرين الأول ، قرر الأمبراطور أيضاً أن يتفاوض مع فرنسا . وبدأت المفاوضات بين الأمير أوجين وفيّلار في تشرين الثاني وأدت إلى معاهدة وقعت في **راشتات**[1] ، في ٦ آذار ١٧١٤ م ، وتمت بمعاهدة (**باد**) (في سويسرا) بين فرنسا والأمبراطورية ، في ٧ أيلول . وبالرغم من أن فيليب الخامس ، الذي وقع ، في ٢٦ حزيران ١٧١٤ م ، السلام مع الأقاليم المتحدة ، رفض التفاوض مع الأمبراطور الذي لم يعترف به في الحق ملكاً على إسبانيا ، فإن مجموع النصوص الموقعة في أوترخت وراشتات وضعت على الأقل نهاية للنزاع الذي مزق أوربة خلال أكثر من عشرة أعوام .

تتناول **البنود السياسية** للمعاهدات بخاصة وراثة إسبانيا التي كانت قضيتها في الأصل سبباً للحرب . واعترف بفيليب الخامس خلفاً شرعياً لشارل الثاني من قبل جميع الدول الموقعة ، باستثناء الأمبراطور ، تحت تحفظ التخلي رسمياً عن كل حقوقه بتاج فرنسا . وبالمقابل ، تعهد لويس الرابع عشر بألا يدعم آل ستوارت وبأن يقبل نظام الإرث القائم في إنكلترا بموجب قانون التأسيس لعام ١٧٠١ م .

ومن جهة أخرى ، اعترفت الدول بلقب ملك إلى أميرين أوربيين : دوق السافوا ملك صقلية وناخب براندبورغ ملك بروسيا . وأخيراً ثبت دوق هانوفر في منصبه الانتخابي الجديد ، واستعاد دوق بافاريا ، الحليف الوفي للويس الرابع عشر ، دوله ولقبه الانتخابي .

وتسجل **البنود الأرضية** تجزئة الملكية الإسبانية التي أراد شارل الثاني تجنبها . وعلى هذا فإن فيليب الخامس لم يحتفظ إلا بإسبانيا ، دون جبل طارق

---

(١) (راشتات ـ RASTADT) مدينة في ألمانيا العربية ، في إقليم باد ـ فورتامبرغ .

ومينورقـه اللـذين تنـازل عنها للإنكليز ، وبـأملاكـه الاستعمارية . وبـالرغم من احتجاجاته ، اضطر إلى التخلي لشارل السادس عن مملكة نـابولي ، وسـاردينيـا ، و (المواقـع الحصينـة) في تـوسكانـا ، والميـلانيـا والبـلاد ـ المنخفضـة ، والتخلي لفيكتور أميديه السافوا عن صقلية . ولم تحصل الأقـاليم ـ المتحـدة ، كترضيـة لهـا عن مجهودها الطويل في الحرب ، إلا على حق وضع حامياتها من جديـد في مواقع (الحاجز) ـ (بموجب المعـاهـدات الإنكليزيـة ـ الهولانـديـة في ٣٠ كانون الثـاني ١٧١٣ م ، والنمسـاويـة ـ الهولانـدية في ٥ كانون الثـاني ١٧١٥ م) . وأخـذ ملـك بروسيا (غلدر) الإسبانية ، المجاورة لـدوقيتـه ، دوقيـة كليڤ ، ولكنـه تخلى عن كل المزاعم التي أمسك بهـا من غليوم الثـالث على إمـارة أورانج ، مقـابل الاعتراف بسيادته على إمارة نوشاتيل (في إقليم الجورا) .

أما من جـانب فرنسـا ، فقـد تخلت لإنكلترا عن أراضي جون (هودسون) ، وأركاديا ، والأرض ـ الجديدة ، مع الاحتفاظ بحق الصيـد ، صيـد السمـك ؛ وفي الأنتيـل ، عن جـزيرة سـان ـ كريستـوف ، وتعهـدت بتـدمير مينـاء دنكرك . وقبلت أيضاً بأن تعيد ، إلى ممتلك البلاد ـ المنخفضة الجديـد ، مـدن : تورنيـه ، (مينن) ، و (إيبر) و (فورن) . وبـالمقـابل ، احتفظت نهـائيـاً بكل المكاسب الأخرى لحكم لـويس الرابـع عشر في إطـار معـاهـدات وستفـاليـا ، ونيميـغ ، وريسـويـك ، وحصلت من دوق السـاڤوا على تعـديـل خفيف للحـدود بكسب (بارشولونيت) .

والبنود التجـاريـة للمعـاهـدات تهم إنكلترا مباشرةً ، فقـد خولتهـا فـوائـد ممتازة . حصلت من فرنسا على عودة التعرفة الجمركية لعـام ١٦٦٤ م ، وحق التمتع بشروط (الأمة الصديقـة المفضلـة) ، وبموجب المـادة ٦ من معـاهـدة أوترخت ، التخلي عن فوائد تجارية قبل بها فيليب الخامس للتجار الفرنسيين .

وفي الـواقـع ، في آذار ١٧١٣ م ، خـول فيليب الخـامس إنكلترا نفس هـذه

الفوائد ، مضافاً إليهـا أيضـاً ، شروط ممتـازة لسفنهـا في (قـادس) ، والازيـانتو لثلاثين عاماً ، وأرضـاً على ريو دولا بلاتـا من أجل (حراسـة وإنعـاش) الزنوج قبل بيعهم ، وأخيراً الحق في إرسال مرة واحـدة في السنـة إلى أمريكا الإسبـانيـة ، سفينة من سعـة ٥٠٠ طونو . وتسمى هـذه السفينـة (سفينـة الإجـازة) للتجـارة بحرية .

وهذه البنود المختلفة لمعاهـدات أوترخت وراشتـات تـدل على أنـه إذا لم يكن انتصار حلف لاهاي الكبير كلياً ، لأن بوربونيا يحكم في مدريد ، فلا أقل من أنـه كان غير منازع ولا يقبل الجدل : إن انفصال تـاجي فرنسـا وإسبـانيـا اعترف بـه الجميع رسمياً ، وتجزأت الملكية الإسبانية ، وخسرت فرنسـا لويس الرابع عشر جميع الفوائد الأرضية والتجارية التي كانت تمسك بها أو التي كان بالإمكان أن تـأمل بهـا من الإرث الإسباني ، ورجعت إلى حدود ١٦٩٦ م . ويبـدو أن فيليب الخـامس لم يشأ قبول تجزئة ممتلكاته ، حتى ولا شـارل السـادس ، التخلي عن مزاعمـه في تـاج مدريد . وفي الحقيقة ، إن السلام لم يتوطد بعد في شرق القارة حيث غُلب شـارل الثاني عشر ملك السويد في (بولتاڤا) في ١٧٠٩ م ، ومـا يزال يقـاتل دومـاً ضـد جيرانـه الروس والبـولـونيين والـدانياركيين . ومـع ذلـك ، فـإن معـاهـدات ١٧١٣ ـ ١٧١٤ م تسجل تاريخاً هاماً في تاريخ أوربة في الحد الذي تقيم فيه توازناً جديداً للدول .

التوازن الأوربي الجديد

إذا كانت أوربـه ١٦٠٠ م تتصف بـوجـود دولتين كبريين : البيت الفرنسي والبيت النمسـاوي ؛ وأوربـه ١٦٦٠م و ١٦٨٤ م بـالتفـوق الفرنسي ، فـإن أوربـة ١٧١٤ م أوربة التوازن بين الدول . فما من واحدة منها ، بل وحتى إحـدى الـدول الثلاث الهـامـة : فرنسـا ، النمسـا ، إنكلترا ، تستطيع أن تـزعم فرض هيمنتهـا على القارة .

لقد توسعت فرنسا بمدن ليل ، وستراسبورغ ، وبوزانسون ، وأصبحت حدودها أقل عرضة للهجوم مما كانت قبل نصف قرن ، ونجحت في كسر تطويق آل هابسبورغ نهائياً بوضع بوربوني على عرش مدريد . وفوق ذلك ، ظل نفوذ لغتها ، وكتابها وفنانيها يؤمن لها على صعيد الفكر تفوقاً غير منازع . ولكنها نهكت بنزاع ٢٥ عاماً لا ينتهي ، واضطرت أن تتخلى عن أحلام السيطرة للملك الشمس ، وبصورة بسيطة أيضاً عن ضم اللورين والسافوا ، فيما كان حلفاؤها التقليديون في أوربة الشرقية مغلوبين وآعتراهم الضعف .

وحصلت الملكية النمساوية ، بفضل انتصاراتها على الأتراك وعلى الفرنسيين ـ الإسبان ، على توسيعات أرضية جوهرية ، في هونغاريا ، وإيطاليا ، والبلاد ـ المنخفضة ، جعلت منها أوسع دولة وأكثرها سكاناً في أوربه . ولكن هذه العظمة تكشفت عن ضعف أساسي : وهو فقدان الوحدة ؛ وفوق ذلك استمرت تجزئة ألمانيا إلى دول ذات سيادة في تجريد الامبراطور من كل سلطة حقيقية ، ووضع الاعتراف بفيليب الخامس من قبل البلاد الأوربيه نقطة نهائية لآمال آل هابسبورغ في تعمير تفوق البيت النمساوي .

وأصبحت إنكلترا في عام ١٧١٤ م دولة من الصعيد الأول ، وعظمتها قبل كل شيء بحرية وتجارية . وجاءت الفوائد ، التي جنتها في هذا المضمار من معاهدة ميثوون مع البرتغال ، ومن معاهدة أوترخت مع إسبانيا ، تؤيد وتعجل صعودها العظيم منذ سنوات ١٦٦٠ م . وتأكد بكل وضوح تفوق التجارة البريطانية تقريباً في كل مكان في العالم : في البالطيك ، في البحر المتوسط ، في المحيط الهندي ، على حساب الهولانديين . وفي المحيط الأطلسي وفي أمريكا ، على حساب الفرنسيين والبرتغاليين والإسبان . وحلت لندن ، بـ (البورصة) وبنك إنكلترا ، محل أمستردام كمركز اقتصادي عالمي . وقد اكتشف لويس الرابع عشر آجلاً القوة

البريطانية ، وفكر أن يلعب دوراً سيئاً ضدها بالتقرب من النمسا ، ولكن موته في ١٧١٥ م وضع نهاية لهذا المشروع .

وإلى جانب فرنسا والنمسا وإنكلترا ، كانت الدول الأوربية الأخرى دولاً ثانوية . ولكن إذا بدا أن ساعة الأفول قد دقت بالنسبة لبعض منها ، فإن دولاً أخرى ظهرت ، وبصفات مختلفة ، غنية بالإنجازات والوعود . لقد كان أفول الأقاليم ـ المتحدة نسبياً ، ولكن لا جدل فيه : فالزراعة ، والصناعة والتجارة الهولاندية ظلت مزدهرة جميعاً . وأمستردام من أنشط موانئ أوربة ، والهند النئرلاندية (أندونيسيا) أجمل مضمار استعماري وأكبر مستودع للتوابل . والعلماء والفنانون وأصحاب الجرائد الهولانديون معروفون ومقدرون حق قدرهم ويقرؤون في كل أوربة . ولكن الأقاليم ـ المتحدة لم تحصل على أي فائدة من تسوية النزاع الذي أنهكها وجرها فيه غليوم أورانج إلى الانقياد على العمياء لإنكلترا ، بينما كانت هذه تحصل على الحد الأعظم من الأرباح . وبعد أن مسها الضير بقساوة من نهوض فرنسا الاقتصادي في عصر كولبر ، تجاوزها أيضاً هذا المنافس الخطير بصورة قطعية . وشوهد أفول السويد أيضاً بعد حياة شارل الثاني عشر الخاطفة . وبولونيا بعد أن أوغلت في الفوضى ، وتركيا المضناة في الداخل والمهددة من الخارج . وأخيراً أفول إسبانيا المنهكة والمجزأة حيث رافق ضعف الدولة انحطاط اقتصادي عميق .

وبالمقابل بدت ثلاث دول في عز صعودها : ساڤوا فيكتور آميديه ، ملك صقلية ، وبخاصة بروسيا والروسيا . لقد كان اللقب الملكي الجديد لفريديريك بروسيا بمثابة رمز للمكان الممتاز الذي تحتله في ألمانيا دولة براندبورغ السابقة الموسعة والغنية والقوية . أما روسيا فقد بدأت تحت قبضة بطرس الأكبر الشديدة بالتوجه نحو أوربة والمشاركة بصورة وثيقة بحياة أوربة السياسية والاقتصادية .

إشعاع فرنسا الفكري والغني ، وسلطة الملكية النمساوية في أوربة الوسطى ، وتفوق إنكلترا على كل بحار الكرة ، وصعود بروسيا والروسيا ، وانحطاط الامبراطورية العثمانية ، تلكم كانت في بداية القرن الثامن عشر المركبات الأساسية لأوربه التي تبحث في التوازن عن سر السلام .

الفصل الرابع

إنكلترا والأقاليم ـ المتحدة
في النصف الثاني من القرن السابع عشر

إنكلترا من عودة الحكم الملكي في ١٦٦٠ م إلى ثورة ١٦٨٨ م

لقد أحدثت المسائل الدينية المرتبطة بقضية الأحلاف الخارجية مشاكل جديدة في إنكلترا . وإذا نجح شارل الثاني (١٦٦٠ ـ ١٦٨٥ م) في البقاء على العرش ، فإن أخاه جيمس الثاني (جاك الثاني) أثار بخرقه وسوء درايته ثورة ١٦٨٨ م .

بداية حكم شارل الثاني (١٦٦٠ ـ ١٦٨٥ م)

كان شارل الثاني ذكياً أنيساً ، وريبياً فاجراً ، وبرهن على مهارة فائقة للحفاظ على عرشه ومحاولة التوفيق بين نزعاته المطلقة المناصرة للكاثوليكية ، وبين عواطف الأكثرية العظمى من رعاياه . فقد ظهر رد الفعل عقب دور كرومويل وشدته الطهرانية أولاً على الصعيد المعنوي والأخلاقي ، وضرب البلاط ، وعلى رأسه الملك ، مثلاً لعدم الأخلاق وازدراء آداب المجاملة واللياقة . وانتشر السكر والعربدة وتذوق المشاهد الفجة في طبقات المجتمع كلها . حتى إن جون ميلتون (١٦٠٨ ـ ١٦٧٤ م) الذي نشر في ١٦٦٧ م قصيدته الصوفية العظيمة « الفردوس المفقود » ظهر للكثير كممثل متأخر لعصر مضى وانقضى .

وكان رد الفعل السياسي ، الذي قام به الملك والبرلمان المؤتمر ، معتدلاً . فقد

استثني قتل الملوك من العفو الذي قرره الملك ، ومثلت ٢٩ حالة من هذا النوع أمام القضاء ، وأعدم منها ١٠ ، ونبشت جثة كرومويل وعلقت على المشنقة . وألغيت القوانين التي صوت عليها ، في أيار ١٦٤٢ م ، باستثناء التي لا غنى عنها . وأعيدت الأموال التي صودرت من آل ستوارت ، والكنيسة الأنغليكانية ، وبعض الملكيين إلى أصحابها . وسرح أخيراً جيش كرومويل مقابل الدفع تقسيطاً والوعد بدفع لاحق . ولكن نواب البرلمان المؤتمر ، حيث كان المشيخيون كثراً إلى جانب الأنغليكان ، لم يستطيعوا الإتفاق على القضية الدينية وتفرقوا في كانون الأول ١٦٦٠ م .

وأجريت الانتخابات من جديد ، وأرسلت إلى قصر وستمنستر مجلس عموم في غالبيته من كبار الملاك الملكيين والأنغليكانيين . وهذا ما أطلق على البرلمان الجديد لقب فارس . وبإتفاق مع لورد (كلارندون) ، عضو المجلس الخاص ، الذي ترك له الملك شارل الأول كل مبادهة ، اتجه البرلمان الفارس نحو رد فعل ديني فظ . فقد فرض كتاب الصلاة ، ونقح في اتجاه معاد للطهرانية . وأعيد بناء الأسقفية . واحتفظ للإنغليكان بممارسة الوظائف العامة وبخاصة وظيفة الفارس . وفي ١٩ أيار ١٦٦٢ م ، أجبر قانون الوحدة جميع الكنسيين على قبول كتاب الصلاة الجديد ، فرفض ١٧٦٠ راعياً . وفي ٢٤ آب ١٦٦٢ م طردوا من كنائسهم وحرموا من مرتباتهم . وفي ١٦٦٤ م صدر قانون الخمسة أميال . وبموجبه فرض عليهم أن يعيشوا بعيداً عن أي مدينة أكثر من خمسة أميال ، أو عن كنيستهم القديمة . وفي ١٦٦٤ م ، صدر قانون ضد الديريين وضرب بغرامة أو بالنفي كل من يجتمعون للاحتفال بالعبادة خارج العمائر الأنغليكانية . وتناول هذا الإجراء جميع المنشقين المشيخيين والمستقلين ، وبين هؤلاء الأواخر فرقة الكويكرز[1] (الأصدقاء) التي أسسها ، في ١٦٤٧ م ، جورج فوكس (١٦٢٤ ـ ١٦٩٠ م) ،

(١) الكويكر Quakers طائفة الاصدقاء المسيحيين أسسها جورج فوكس « ١٦٤٨ م ـ ١٦٥٠ م » .

وتضم ألـوف المشـايعين لهـا في إنكلترا . وبهـذه المجمـوعـة التشريعيـة ، التي تسمى (قانون كلارندون) ، رجعت إنكلترا إلى الأنغليكانيـة اللامتسـامحة التي كانت في عهد الملكين السابقين من آل ستوارت .

وفي الوقت نفسه ، صوت البرلمان الفارس ، بـالرغم من احترامـه للامتيـازات الملكية على (قـانون الثلاث سنوات) ، في ٥ نيسـان ١٦٦٤ م . وبموجبـه لا يمكن للمملكة أن تحرم من برلمانها أكثر من ثلاثة أعوام . واتخذت بخاصـة عـدة إجراءات تنزع إلى تفضيل مصالح الطبقة الرأسمالية ، من كبار الملاكين العقاريين وأوسـاط رجال الأعمال والمصالح : فـالقوانين الأولى التي تسمح بحريـة لأعمـال (التسويـر) صوت عليهـا في ١٦٦٢ م ، وصـدر نصـان جـديـدان في ١٦٦٠ م و ١٦٦٣ م يتمان قانون الملاحة : وقانون ١٦٦٠ م يجـدد قـانون ١٦٥١ م ، و « قـانون الإنتـاج »[1] لعـام ١٦٦٣ م يفرض التخزين في ميناء إنكليزي على جميـع المنتجـات المصنـوعـة الآتية من بلـد أوربي ومخصصـة لإيكوسيـا (سكوتلانـدا) وإيرلانـدا أو مستعمرة إنكليزيـة ، وكـذلـك بعض المحـاصيـل الـزراعيـة الإيكـوسيـة والإيرلانـديـة والاستعمارية ، وبخاصة السكر ، المخصصة للتصدير نحو بلد أجنبي .

ولا يخلـو الإتفـاق بين الملـك والبرلمـان من الغمـوض فيما يتعلـق بـالسيـاسـة الخـارجيـة . وإذا كان بيع دنكرك لفرنسـا ، في تشرين الأول ١٦٦٢ م أسـاء بقوة للرأي العام ، فبالمقابل ، أرضته السياسة المعادية لإسبانيا . فقـد وقعت معـاهـدة إنكليزيـة ـ برتغـاليـة ، في ٢٣ حزيران ١٦٦٢ م ، وبموجبهـا تـزوج شـارل الثـاني كاترين دو براغـانس وأتت بمهرهـا وهو مـدينتـا طنجـة وبـومبـاي . وسـاعـدت الجيوش الإنكليزية والفرنسيـة البرتغـاليين على نصر (فيلا ـ فيسوزا) الحـاسم على الإسبان في ١٧ حزيران ١٦٦٥ م . كما أن الملك ، في آذار ، من هذه السنة نفسها ، تنازل تحت ضغط الرأي ، وأعلن الحرب على الأقاليم ـ المتحدة .

---

(١) قانون الإنتاج هو the STAPLE ACT .

مشاكل شارل الثاني : الأحلاف الخارجية والقضايا الدينية (١٦٦٥ ـ ١٦٧٨ م)

لقد أصيب الهولانديون مباشرة في مصالحهم التجارية بعد صدور قانون الإنتاج وضم طنجة وبومباي وأخذ المستعمرين الإنكليز أمستردام ـ الجديدة في آب ١٦٦٤ م . ولهذا انطلقوا في الحرب بعزم وتقرير . ولكنهم أخفقوا أولاً في بحر الشمال ، في ٣ حزيران ١٦٦٥ م ، في جون (ساوثولد) ، ثم أخذوا بثأرهم ، في تشرين الثاني ، عندما أتوا وحاصروا نهر الثيمز (التاميز) . وفي السنة التالية ، ضرب رويتر الأسطول الإنكليزي على إرتفاع رأس (نورث فورلاند) من ١١ إلى ١٤ حزيران ١٦٦٦ م في (معركة الأربعة أيام) ، ولكنه ضرب بدوره في ٤ آب في عرض (نورفولك) . وبعد بضعة أسابيع اجتاح الحريق لندن ، بعد أن حل بها في ١٦٦٥ م وباء الطاعون الفظيع ، ودمر هذا الحريق ، من ٢ إلى ٦ أيلول ١٦٦٦ م ، في الوسط ١٣٠٠٠ بيت ، و ٨٧ كنيسة .

وفي شهر تشرين الثاني تحرك الإيكوسيون والايرلنديون . لقد وجدوا في ١٦٦٠ م أن استقلالهم الذاتي ضاع منذ عشرة أعوام ، وأنهم تضرروا في مصالحهم الاقتصادية بقانون الإنتاج ، واستاؤوا لأسباب مختلفة من سياسة شارل الثاني الدينية : فالأيكوسيون المشيخيون يأخذون عليه إلغاء الميثاق وتوطيد الكنيسة الأنغليكانية الرسمية ، ويرى العديد من الايرلانديين الكاثوليك أن التسامح الواقع الذي يتمتعون به ، وأن التدابير المتخذة في ١٦٦٢ م لتخفيف آثار النهب الذي جرى في زمن كروموبل ، غير كافية .

ومع ذلك ، فإن الحرب الثانية الإنكليزية ـ الهولاندية ، التي أساءت إمارة الماء تحضيرها وتوجيهها ، كانت غير شعبية . وفي ٢٠ حزيران ١٦٦٧ م صعد أسطول رويتر نهر الثيمز ، وأحرق كثيراً من السفن الإنكليزية واستولى على حصن (شيرنس) . وفي ٢٢ منه كسر سلسلة عشرين سفينة تسد في (تشتم) مدخل

(الميدوي) حيث توجد رحاب الأسطول . وساد الذعر والغضب في لندن ضد الملك وكلارندون ، واعتبرا مسؤولين عن الكارثة .

ولكن الهولانديين كانوا قلقين من التقدم الفرنسي في البلاد المنخفضة ، فقبلوا توقيع الصلح في ٣١ تموز ، في بريدا[1] ، حيث بدأت المباحثات في أمر السلام منذ شهر أيار : وينص هذا الصلح على ما يلي : تتنازل إنكلترا مقابل أمستردام ـ الجديدة و(الديلاور) ، للأقاليم ـ المتحدة عن مؤسسة (سورينام)، ولكنها تتمسك بقوانين الملاحة مع تنازل واحد ، وهو إعفاء المحاصيل الرينانية التي تنقلها السفن النئرلاندية . وكان شارل الثاني مهتماً بإجابة الانتقادات التي وجهها إليه البرلمان الفارس بالرغم من ولائه ، وإرضائه الرأي العام الذي أقلقته الطموحات الفرنسية ، ولذلك تخلص من كلارندون ، في تشرين الأول ١٦٦٧ م ، ووقع مع هولاندا ثم مع السويد الحلف الثلاثي (كانون الثاني ـ نيسان ١٦٦٨ م) الذي دفع لويس الرابع عشر إلى توقيع صلح (اكس ـ لا ـ شابل) .

ولكن الملك ، انطلاقاً ، من ١٦٦٨ م ، وإن بدا حتى الآن فطناً متعقلاً ، اتجه نحو سياسة شخصية مطبوعة بالتحالف مع لويس الرابع عشر وبالتسامح حيال الكاثوليك . فقد اعتمد على جهاز ، مؤلف من خمسة معاونين ، من أعضاء المجلس الخاص ، وملقب باسم (كابال) حسب الأحرف الأولى من أسماء أعضائه . وأراد الحصول على موارد دون اللجوء إلى البرلمان ، فوقع مع لويس الرابع عشر معاهدة (دوفر) في الأول من حزيران ١٦٧٠ م : فمقابل دفع ٢٢٥٠٠٠ جنيه إسترليني في العام ، تعهد بأن يساعد فرنسا ضد هولاندا ، ووعد أيضاً بمواد سرية بأن يعمل على إرجاع الكاثوليكية في إنكلترا . وليبرهن للويس الرابع عشر عن إرادته الطيبة ، ألغى في إيرلاندا يمين التفوق ، فساعد بذلك الكاثوليك على

---

(١) (بريدا = BRÉDA) مدينة في البلاد ـ المنخفضة ، في إقليم برابان الشمالي .

الوصول إلى وظـائف القضـاء المحليـة . وفي إنكلترا صـدر إعلان ملكي ، في ١٥ آذار ١٦٧٢ م ، اتخـذ دون رأي البرلـمـان ، وفيـه يخـول حريـة العبـادة لا للكاثـوليــك فحسب ، بل أيضاً للبروتستانت المنشقين . وكان هذا التدبير حـاذقـاً لأنـه يحـاول تجريد الطهرانيين من عدائهم للبابـا . وأخيراً ، في ٢٨ آذار ١٦٧٢ م ، أعلن شـارل الثاني الحرب على الأقـاليم ـ المتحـدة ، وقبل أن تـدخل جيوش لويس الرابع عشر المعركة .

وفي الواقـع ، إن هـذه السيـاسـة الفرنسيـة والكاثـوليكيـة أغضبت الإنكليز . واستنكرت غالبيتهم الحلف الفرنسي ضد هولانـدا ، المنـافسـة الاقتصـاديـة بحق ، ولكنها دولة بروتستانتيـة ، بينما الفرنسيون بـابويون ، وفوق ذلـك ، منـافسون اقتصـــاديـــون أكثر خطراً من الهـــولانـــديين أنفسهم . ومن جهـــة أخرى ، إن الأنغليكانيين يعارضون بشدة التسامح الديني . والمنشقين ، من جهتهم ، يرفضون حرية العبـادة المخولـة في الوقت نفسه إلى الكاثوليـك . وقـامت في البلاد حركـة معارضة واسعة . وفرض البرلـمـان الفـارس نفســه على الملـك سحب إعلان الغفران لعـام ١٦٧٢ م ، وصـوت ، في آذار ١٦٧٣ م على مشروع قـانـون **الاختبـار** الـذي يفرض ، على كل مرشح لوظيفـة عـامـة أو لكرسي في البرلـمـان ، يمين عـدم الانتماء لعقائد الكنيسة الرومانية (الكاثوليكية) .

واستقـال العـديـد من الكاثوليـك من وظـائفهم . حتى إن أخ الملـك ، دوق يورك ، الـذي اعتنق الكاثوليكيـة منـذ ١٦٧٠ م ، وتـزوج بـأميرة كاثـوليكيـة ، مـاريـا دو مـودينـا ، اضطر إلى التخلي عن وظيفتـه كأميرال كبير وعن قيـادة الأسطول . ومن جهة أخرى ، كانت **الحرب الثالثة الإنكليزية** ـ الهولاندية صعبة على الأسطول الإنكليزي الذي ضربـه رويتر في جون سـاوثولـد (أو سولبي) ، في ٧ حزيران ١٦٧٢ م وفي (تكسـل) ، في ٢١ آب ١٦٧٣ م . وتنـازل شـارل الثـاني لضغط الرأي ، وتخلى عن الحلف الفرنسي ووقع صلحاً منفرداً مع هولانـدا ، في ١٩ شباط ١٦٧٤ م .

وأخذ الملك درساً من الحوادث ، وقرر عندئذ أن يستأنف سياسة كلارندون الأنغليكانية ، باعتماده على (الجنتري) والكنيسة الأنغليكانية ومداراة البرلمان الفارس . وكان توماس أوزبورن) ، كونت (دانبي) صانع هذه السياسة الجديدة : فقد حاول أن يسترجع التوازن المالي ، وامتدح تقارباً نشيطاً مع هولاندا ، ولكن كان عليه أن يتغلب على مقاومات الملك ، الذي كان مهتماً بمداراة لويس الرابع عشر الذي يخوله دوماً مساعدات مالية سرية . وفي ١٥ تشرين الثاني ، ١٦٧٧ م ، تزوجت ماريا ، ابنة دوق يورك من زواجه الأول ، والبروتستانتية كأختها آنا ، من غليوم الثالث أورانج الذي هو نفسه ابن أخت شارل الثاني : وفي ١٠ كانون الثاني ١٦٧٨ م ، وقع الحلف الإنكليزي ـ الهولاندي ؛ وبعد بضعة أشهر وقع لويس الرابع عشر صلح نيميغ .

ومع ذلك فإن سياسة دانبي البروتستانتية لم تكف لتهدئة قلق الرأي الإنكليزي . وفي آب ١٦٧٨ م ، روج دجال اسمه (تيتوس اوتز) نبأ وجود مؤامرة بابوية واسعة دبرها اليسوعيون وأمين دوقة يورك لقتل البروتستانت الإنكليز بمساعدة الجنود الفرنسيين . فتملكت إنكلترا فورة غضب حقيقية ضد البابوية ؛ وساد الإرهاب العاصمة . وطرح الألوف من الكاثوليك في غياهب السجن ، وحكم على يسوعيين بالموت ونفذ هذا الحكم . وحكم البرلمان بإبعاد الشيوخ الكاثوليك من مجلس اللوردات . ونحي باللائمة على دانبي الذي اتهم بالطغيان والاختلاس . وضاق شارل الثاني ذرعاً ، فحكم ، في ٢٤ كانون الثاني ١٦٧٩ م بحل البرلمان الفارس بعد أن ظل يعمل منذ أكثر من ثمانية عشر عاماً .

مشكلة الوراثة ونهاية حكم شارل الثاني (١٦٧٩ ـ ١٦٨٥ م)

جرت الانتخابات وسط اضطراب شديد . وكانت أكبر القضايا ، التي تشغل الرأي ، قضية وراثة شارل الثاني ، الذي لم يكن له ولد شرعي . إن بعض الإنكليز الذين يسميهم خصومهم (**الهويغ**) باسم الأيكوسيين المنشقين ، أرادوا

إبعـاد دوق يورك عن العرش ، بـاعتبـاره غير مرغوب فيـه بسبب كاثـوليكيتـه . لتنوب عنه إما ابنته مـاريـا ، وإمـا دوق (مونمـاوث) ، الابن الطبيعي لشـارل الثـاني . ومن جهـة أخرى ، كان الهويغ يـدافعون عن تفوق البرلمـان ، وينتقـون بخاصـة من بين المشيخيين والمنشقين . وأمـامهم كان (**التوريز**) ، بـاسم متمردين كاثـوليـك من ايرلانـدا . في غـالبيتهم العظمى جـداً أنغليكان ، وكانـوا أنصـاراً مصممين على الامتيـاز الملكي ويرفضون قبـول إبعـاد دوق يـورك ، ويرون بـأنـه يكفي الحصـول منـه على بعض الضمانـات على الصعيـد الـديني . وكان المجلس المنتخب ، في شهر شباط ، يضم أكثرية عظمى جداً من الهويغز الـذين صوتوا ، في ٢٢ أيـار ، على قـانون (الحصر) . وفـوق ذلـك أراد الهـويغـز أن يسجلـوا معارضتهم لكل أشكال التحكم الملكي ، فصوتوا ، في ٢٧ أيـار ، على مشروع قـانون (**هيبيس كوربس**) الذي يضمن الحرية الفردية ضد التحكم : أي أن كل شخص سجين يمكنـه أن يطـالب القـاضي بـأمر مكتوب في مثول المعتقـل مبـاشرة ليمكن التحقق من قـانونيـة حبسـه . أمـا الملـك ، الـذي قبل بـأن تحـل ، مكان مجلسـه الخاص ، لجنة من ثلاثين عضواً تضم عدة نواب من المعـارضـة الهويغيـة ، ولا سيما (شافتسبري) و (هاليفاكس) ، فقد أيد مشروع قانون ضمان الحرية الفرديـة ، وقبل حذف الرقابة ، ولكنه رفض مشروع الحصر ، وضغط على اللوردات الـذين أطرحوا قانون الحصر ، في تشرين الثاني ١٦٨٠ م ، بـ ٦٣ صوتـاً ضـد ٣٠ صوتـاً . وبعـد ذلـك بقليل ، حل شـارل الثـاني المجلسين . وكان مجلس العموم في البرلمـان الجـديـد ، الثـالث في أقل من عـامين ، يضم هويغـاً أقل بقليل من في السـابـق ، ولكنهم على الأقل صوتـوا للمرة الثـالثـة على الحصر ، في ٢٦ آذار ١٦٨١ م . وبعـد يومين حكم الملك بحل المجلسين .

كانت الحالة الداخلية آنذاك خطيرة . ولكن أكثرية الإنكليز لا يتمنون عودة الحرب الأهليـة ، وفقـد الهويغز حظوتهم بمحـاولتهم اللجـوء إلى القـوة ، وأخفقت أول مؤامرة دبرها شافتسبري ، واضطر إلى الفرار إلى هولاندا ، في عام ١٦٨٢ م .

وفي السنة التالية وجد أن بعض الزعماء الهويغز قد عرضوا سمعتهم للخطر باعتبارهم مشاركين في مؤامرة واسعة تقترح إثارة المدن الكبرى في إنكلترا وأيكوسيا معاً ، وقتل الملك ودوق يورك بالقرب من (ري ـ هاوس) ، واعتلاء مونماوث العرش . واكتشفت المؤامرة بعد قليل ، واتهم كثير من المتآمرين بتهمة الخيانة العظمى وأعدموا ، فيما لجأ مونماوث إلى هولاندا ، في ١٦٨٣ م . واتخذ شارل الثاني من الحالة عذراً للحفاظ على جيش دائم ، وتوطيد الرقابة ، وحذف ميثاق مدينة لندن و ٦٥ مدينة أخرى متورطة في المؤامرة . واستدعى أخاه الذي كان قد غادر إنكلترا في ١٦٧٩ م ، وقوي بالمساعدات الفرنسية الهامة . وامتنع عن دعوة البرلمان ، بتجاوز وخرق قانون الثلاثة أعوام ... وحكم سيداً مطلقاً تقريباً ، ومات في ٦ شباط ١٦٦٥ م ، بعد أن اعتنق الكاثوليكية على فراش موته .

حكم جيمس الثاني (١٦٨٥ ـ١٦٨٨ م)

لم يصوت اللوردات على مشروع الحصر، وخلف دوق يورك أخاه دون مشكلة وأصبح ملكاً تحت اسم جيمس الثاني . كان شجاعاً ، مخلصاً ووطنياً محباً لوطنه ، ولكنه كان أنانياً ومحدوداً ، وتسبب في سقوطه بخرقه وعدم حذاقته . ومع ذلك ، فقد بدأ الحكم بداية طيبة : لقد تظاهر الملك بالاعتدال ، وتوج حسب الطقس الأنغليكاني ، ودعا البرلمان الذي كان توريا على سبيل الحصر على أثر ضغوط عديدة أثناء الانتخابات ، وخوله كل الاعتمادات المطلوبة . وفي الواقع ، إن أكثرية الإنكليز الواسعة رضخت على أمل توقع حكم قصير ، لأن عمر الملك ٥٢ عاماً ، وبخلف بروتستانتي في شخص ابنته ماريا ، زوجة شتاتودر هولاندا ، وقد أخفق كونت (آرجيل) والدوق مونماوث في محاولتها : الأول إثارة أيكوسيا ، والثاني الكورنواي (أخفق مونماوث في سيدغيمور في ٦ تموز ١٦٨٥ م) . ومع ذلك فإن شدة القمع حركت الرأي : فلم يعدم آرجيل ومونماوث

والكثير من أنصارهما فحسب ، بل إن لجنة يرأسها القاضي (جيفريس) في محكمة (استئنافات دامية) أصدرت أحكاماً كثيرة بالموت ، والسجن ، والنفي إلى المستعمرات ، وأكثر من ذلك أن الإعلان في تشرين الأول عن إلغاء براءة نانت قد أهاج الإنكليز ، الذين يخشون وفاقاً (تفاهماً) سرياً بين لويس الرابع عشر وجيمس الثاني للقضاء على البروتستانتية من جانبي بحر المانش . ولكن الملك احتقر نصائح التعقل والفطنة التي أسداها إليه البابا ولويس الرابع عشر نفسه ، وارتكب أخطاء جديدة . فمن ذلك أنه طلب إلى البرلمان اعتمادات إضافية ، وجيشاً دائماً ، وإلغاء قانون (الاختبار) الذي يفرض على المرشحين للوظائف العامة ، أو البرلمان حلف يمين عدم التشيع لعقائد الكنيسة الرومانية ، كما رأينا ، وكذلك إلغاء قانون ضمان الحرية الفردية . وبالرغم من الولاء التوري ، فقد رفض نواب مجلس العموم . غير أن جيمس الثاني ، لم يهتم بذلك ، وجمع ما يقارب ٣٠٠٠٠ جندي في أبواب لندن . وعين موظفين بابويين ، وفي الوقت نفسه ، شجع الهداية إلى الكاثوليكية ؛ وذلك بأن سمح للرعاة المهتدين بالمحافظة على منافعهم الأنغليكانية . واستقبل بأعظم التشريفات قاصد البابا . حتى انه برك على ركبتيه أمامه . وسمح للكثير من النظم الدينية بالتوطد في لندن . وجدد عمل شارل الثاني ، وحاول أن يكسب المنشقين بتوقيعه ، في ٤ نيسان ١٦٨٧ م ، إعلان السماح الذي يعفي لعام واحد من يمين (الاختبار) المرشحين للوظائف العامة ، وعلق جميع الإجراءات الجزائية ضد المنشقين ، وسمح بالاحتفال العام للعبادات الكاثوليكية والمنشقة . وفي الواقع ، أخفقت المناورة ، فقد ضمت غالبية المشيخيين والمستقلين مصالحهم لبعض مع الأنغليكان ضد الملك والبابويين . وبعد عام جدد إعلان تسامح جديد الإعلان الأول ، وفرض قراءته في الكنائس الأنغليكانية ، في ٢٧ نيسان ١٦٨٨ م . فاحتج سبعة أساقفة ، من بينهم رئيس أساقفة كنتربري وطالبوا يالغاء الإعلانين فسجنهم الملك وحاكمهم . وفي ٣٠ حزيران ، برأتهم لجنة المحلفين وسط الفرح العام . وقبل بضعة أيام ، في ١٠ من الشهر ، وضعت الملكة

إلى العالم ولداً ، جيمس ـ ادوارد ، وعمده رأساً كاهن كاثوليكي ، وأصبحت حقوقه تفوق حقوق الأميرة ماريا .

أقلق هذا الحادث الإنكليز الذين وجدوا أنفسهم أمام منظور وراثة كاثوليكية ، وأقلق أيضاً غليوم أورانج الذي كان بحاجة إلى حلف إنكليزي ضد فرنسا . وفي ٢٠ حزيران ، تقدم سبعة لوردات إنكليز يمثلون الحزبين الهويغ والتوري ، والكنيسة الأنغليكانية ، والجيش والأسطول ، ووجهوا نداءً إلى الشتاتودر يطلبون منه المجيء لنجدة الدين البروتستانتي المهدد ، وخولوه المال الضروري . وكان غليوم يخشى هجوماً مفاجئاً من لويس الرابع عشر ضد هولاندا عبر البلاد ـ المنخفضة الاسبانية ، ولذلك قرر الانتظار قبل عمل كل شيء واتخذ أهبته . وقد جنب الهجوم الفرنسي على البالاتينا ، في تشرين الأول ، كل خطر مباشر ، وجمع غليوم ١٥٠٠٠ جندي و ٦٠٠ سفينة نقل ، ونزل في (توربي) ، في ٥ تشرين الثاني ، وعلى الراية هذه الكتابة : (نناصر الديانة البروتستانتية ، ونناصر الحرية البرلمانية) .

ودخل أكستر ، ثم زحف على (سالزبري) ، حيث احتشد الجيش الملكي دون عجل . ولكن هذا الجيش قاتل متراجعاً نحو لندن وانهزم في ٢٧ تشرين الثاني ، بعد أن انضم زعماؤه ، وبخاصة جون تشرشل ، دوق مارلبورو في المستقبل ، إلى غليوم .

ورأى جيمس الثاني أن الجميع تخلوا عنه ، وخاف على حياته ، وفر هارباً في ١١ كانون الأول ، ولكنه أوقف في (فيفرشم) وأخذ إلى لندن . وارتبك غليوم لحضور عمه (حميه) ، وشجع سراً محاولة فرار ثانية نجحت في هذه المرة ، في ٢٢ كانون الأول ، وفي ٢٥ منه ، نزل جيمس الثاني فرنسا . وبعد بضعة أيام استقبله لويس الرابع عشر بحفاوة بالغة ، ووضع تحت تصرفه قصر سان ـ جرمن ـ آن ـ ليه ، ليكون مقاماً له ، وفي ٢٨ منه دخل الأمير أورانج لندن .

حتى ١٦٨٢ م ، ظلت الأقاليم ـ المتحدة ، لكثير من الاعتبارات ، أول دولة اقتصادية في أوربة ، ولكن المنافسة الهائلة لفرنسا ، وبخاصة لانكلترا ، والثقل الثقيل دون انقطاع للمشاركة في الحرب ضد لويس الرابع عشر بين ١٦٧٢ و ١٧١٣ م ، أدت كلها إلى امحاء نسبي للقوة النئرلاندية .

جان ويت وأوج القوة النئرلاندية

إن وفاة غليوم الثاني المفاجئة ، في ٦ تشرين الثاني ١٦٥٠ م ، قبل ميلاد ابنه غليوم الثالث بثمانية أيام ، بثت الاضطراب في الحزب الأورانجي . غير أن دول هولاندا أفادت حالاً من هذا التغيير المفاجئ للوضع . وطلبت سبعة أقاليم انعقاد جمعية عمومية لمجالس هذه الأقاليم للإيقاع بالمجلس العام الذي اعتبرته أورانجياً كثيراً . وانعقدت الجمعية العمومية في لاهاي ، في ١٨ كانون الثاني ١٦٥١ م ، وقررت أن يعلن أن كل إقليم صاحب سيادة ، حتى في الأمور العسكرية والدينية ، وألا يعطى خلف لغليوم الثاني في وظائفه كنقيب عام وشتاتودر لخمسة أقاليم . وبقي ابن عمه غليوم ـ فريديريك شتاتودر الفريز وغرونينغ . واستطاعت هذه الجمعية العامة ، برد العلاقات التي توحد ما بين الأقاليم السبعة إلى الحد الأدنى ، أن تنصر النظريات الجمهورية ، وتؤمن هيمنة هولاندا الكثيرة السكان والغنية ، وليس عليها أن تخصص جزءاً من هذه الثروة لإمداد وإعاشة الأقاليم الفقيرة ، أو أن تشعر بعناء في فرض إرادتها على رفيقاتها الست . ولكن هذا التنظيم أضعف الجمهورية بصورة خطرة ؛ لأنه جعل كل القرارات المشتركة أكثر صعوبة في حالة خطر خطير . ومن جهة أخرى إن الأورانجيين لم يلقوا السلاح ، وينتظرون بجزع وصول الشاب غليوم الثالث إلى سن الرجال . ومع ذلك ، فإن هذا الدور الأول دون شتاتودر دام حتى ١٦٧٢ م ، واتفق مع أوج القوة النئرلاندية . وهذا يرجع جزئياً إلى شخصية جان دو ويت

(١٦٢٥ ـ ١٦٧٢ م) القوية ، الذي انتخب رئيساً للسلطة التنفيذية في هولاندا في ١٦٥٣ م ، وأعيد انتخابه فيما بعد ثلاث مرات لمدة خمسة أعوام ، وأخذ عملياً على عاتقه ، خلال ما يقارب العشرين عاماً ، إدارة الجمهورية .

وفي الداخل ، اهتم جان دو ويت بتثبيت نظام ١٦٥١ م ، بتنمية الحريات المدنية ، ومحاولة استحالة وصول غليوم الثالث إلى السلطة ، ففي ١٦٥٤ م ، بناء على طلب كرومويل ، تعهدت مجالس هولاندا بإبعاد بيت آل أورانج إلى الأبد عن (حاكمية) الإقليم بموجب قانون الحرمان أو (الإبعاد) أي الحصر . وفي ١٦٦٧ م ، صوتت على إلغاء الوظيفة نفسها بموجب البراءة الدائمة . وفي ١٦٧٠ م ، حرم قانون الانسجام تراكم وظائف النقيب العام والشتاتودر من حكم أحد الأقاليم الستة الأخرى ، فيما أصبح غليوم الثالث عضواً في مجلس الدولة ، وقد بلغ العشرين من عمره .

وفي الوقت نفسه ، دافع جان دو ويت عن مصالح الجمهورية ، وبخاصة الاقتصادية ، أمام التهديدات الخارجية . وكانت أدوات هذه السياسة دبلوماسية نشيطة ويقظة ، وأسطولاً حربياً يقوده بكفاءة رويتر و (كورنوليس) دو ويت ، أخو جان .

ونحو ١٦٥٠ م ، خرجت انكلترا من امحائها الذي فرضته عليها منازعاتها الأهلية ، وأصبحت بسرعة جداً منافساً عظيماً على جميع بحار الكرة . ولكن الحربين ، اللتين قامتا ضدها ليفرض عليها إلغاء قوانين الملاحة ، لم تأتيا بالنتائج المتوخاة منهما : في ١٦٥٢ ـ ١٦٥٤ م وفي ١٦٦٥ ـ ١٦٦٧ م .

أما فرنسا لويس الرابع عشر وكولبر الجشعة إلى الفتح في البلاد ـ المنخفضة الاسبانية ، والمهتمة بالاستقلال الاقتصادي ، فقد شكلت خطراً مهدداً . ولذا أبرم جان دو ويت معها حلفاً هجومياً ودفاعياً في ١٦٦٢ م ، ولكن النجاحات السريعة التي حققتها الجيوش الفرنسية في الفلاندر ، في ١٦٦٧ م ، دفعت جان دو

ويت إلى تشكيل الحلف الثلاثي مع انكلترا والسويد . وهذا الحلف ، الذي كان تحت غطاء الوساطة ، كان موجهاً بصورة مباشرة ضد فرنسا ، وأجبر لويس الرابع عشر على توقيع معاهدة اكس ـ لا ـ شابل . ولكن البلدين اندفعا في حرب تعرفات جمركية حقيقية ، وكان ذلك مقدمة لحرب دونما زيادة .

وعشية غزو ١٦٧٢ م ، ظلت الأقاليم ـ المتحدة ، بالرغم من تقدم انكلترا وفرنسا أول دولة تجارية وبحرية في أوربة . ففي المحيط الهندي ، كانت شركة الهند الشرقية ، التي جدد امتيازها في ١٦٤٧ م ، تتابع استغلال أندونيسيا ، وما فتئ النصيب الذي تمسك به تجارة التوابل في مجموع التجارة النئرلاندية ، في ازدياد ، وإذا هجرت البرازيل نهائياً في ١٦٥٤ م ، وكانت مؤسسات أمريكا الشمالية في ١٦٦٧ م ، كوراسو وسورينام (كسبت في ١٦٦٧ م) مراكز نشيطة لتجارة التهريب والمواد الممنوعة نحو المستعمرات الاسبانية والبرتغالية ، فمنذ ١٦٤٠ م تنازلت اسبانيا للتجار الهولانديين عن امتياز استرقاق الزنوج والذهاب بهم إلى المستعمرات . وفي أوربة نفسها ، ظل النئرلانديون سادة تجارة الترانزيت والتخزين ، لا في بحر الشمال والبالطيك فحسب ، بل وفي المتوسط أيضاً . وكان اعتماد بنك أمستردام أقوى منه في أي وقت مضى .

والرساميل المتراكمة على هذا النحو بفضل أرباح التجارة البحرية الكبرى ، وظفت إما في الزراعة الآخذة بالتحسين ، وإما في الصناعة التي شرعت تنمو خارجاً عن الإطار التقليدي للأصناف المهنية ، وباهتمامات تجارية أساساً .

وفي الوقت نفسه ظلت الحضارة النئرلاندية تشع على كل أوربة برساميها (مات رامبراندت في ١٦٦٩م) ، و(فرمير في ١٦٧٥ م) ، وبعلمائها (هويغانس) ، (سوامردام) ، و(ليوڤنهوك) وطباعيها ، و(أصحاب جرائدها) . إن حرية التعبير ، التي سادت في هولاندا بالرغم من بعض المزعجات ، ساعدت سبينوزا على نشر (كتابه اللاهوتي ـ السياسي) وكتابة كتابه (الأخلاق) ، وجذبت جميع المضطهدين .

أزمة ١٦٧٢ والأفول النسبي للأقاليم المتحدة

لقد فتح غزو الأقاليم ـ المتحدة ، في نيسان ١٦٧٢ م ، أخطر أزمة في تاريخ الجمهورية . فأمام الخطر المحتوم وتحت ضغط الرأي العام ، ترك جان دو ويت (المجلس العام) يسمي ، في ١٤ شباط ١٦٧٢ م ، غليوم الثاني (نقيباً) وأميرالاً (أمير الماء) مدة الحملة التي ستنفتح . وفي الواقع ، لقد صغر ويت قيمة الأمير أورانج الشاب وقدرة أنصاره . ومن جهة أخرى ، كان يوجه عنايته للأسطول بمساعدة أخيه كورنيليس ، فيما كان يهمل الجيش جزئياً بعاطفة معادية لآل أورانج . وكان هذا الجيش قليل العدد ، وسيء التجهيز ، وسيء الإعداد لدفع المجتاح .

وفي الحقيقة ، إن عبور الفرنسيين نهر الراين ، في ١٢ حزيران وأخذ أوترخت في ٢٠ منه ، أثارا رعشة قومية . إن فتح السدود غمر هولاندا جزئياً ولكنه أنقذ أمستردام . وفي ٢ تموز ، سمت مجالس زيلانده غليوم أورانج شتاتودر . وفي ٣ منه حذت مجالس هولاندا حذوها ، بعد أن صوتت على إلغاء **البراءة الدائمة** . وأخيراً ، في ٨ منه ، سمى المجلس العام غليوم نقيباً عاماً وأميراً عاماً مدى الحياة ، ولكن الأهواء الشعبية لم تهدأ . وفي ٢٠ آب ، اعتبر جان وكورنيليس دو ويت مسؤولين عن الكارثة ، وقتلا في لاهاي . ولم يعمل غليوم شيئاً لمنع هذا القتل المزدوج ، ورفض معاقبة المجرمين .

لقد كان ظفر الأورانجيين كاملاً ، وأخذ غليوم حق انتخاب أعضاء مجالس المدينة وجميع الضباط حتى رتبة كولونيل . وفي ١٦٧٥ م ، أعلن أن وظائفه ، كشتاتودر للأقاليم الخمسة ، ونقيب عام ، وراثية . واعتمد على رئيس السلطة التنفيذية العظيم (غاسبارد فاجل) الأورانجي الذي خلف جان دو ويت ، وقضى على المعارضة الجمهورية والفتن التي أثيرت في هارلم وفي أمستردام . وبخاصة ، نجح في بضع سنين في تقويم الوضع الخارجي ، وذلك بالعمل تارة على

الصعيـد العسكري وتـارة على الصعيـد الـدبلومـاسي . فقـد وقع مع انكلترا صلحـاً منفرداً في ١٦٧٤ م ، وكسب مسـانـدة الامبراطـور واسبـانيـا وكثير من الأمراء الألمان ، وحول على هـذا النحو الحرب إلى نزاع أوربي ، ووقع صلح نيميغ بشروط غير مأمولة وغير منتظرة ، لأنها حافظت على سلامـة البلـد وتماميتـه . وبعـد أن ظهرت طموحـات لويس الرابع عشر وإشـاراتـه لغليوم تهـديـداً للسلام في أوربـه وللديانة البروتستانتية ، أخذ يتعلق بإعداد تألب جديد ضده . وفي الحقيقة ، إن البورجوازيين الجمهوريين في هولانـدا ، من تجـار ورجـال أعمـال كانـوا يكرهـون المغامرات الجديدة ، ولكن إلغاء براءة نانت وإن أثار هياجاً شديـداً في الأقـاليم ـ المتحدة وتسبب في هجرة هـامـة فرنسيـة ، فقـد سهل عمل الشتـاتودر . وأكثر من ذلـك ، في تشرين الأول ١٦٨٨ م ، ان المجلس ـ العـام قلـق من سيـاسـة جيمس الثاني ، فقبل أن يساعد غليوم للمجيء إلى انكلترا .

كان جاه الشتاتودر عظيماً في ذلـك الحين ، وقـد أفـاد منـه لتنميـة سلطتـه ، بالرغم من المعارضة الجمهورية التي حاولت عبثاً أن تظهر أن النترلانديين لا يجرون أي مغنم على اعتبار أن الشتـاتودر أصبح ملـك انكلترا : فلم تتبـدل قوانين الملاحـة لصالحهم كما أمل بعضهم ، بل إن مصالح الأقـاليم ـ المتحـدة قـد ضحي بهـا بسرعـة جداً لصالح منافستهم الكبرى . وكلفت حرب رابطة أوغسبورغ الجمهوريـة غـاليـاً جداً وعادت عليها بالقليل . ومع ذلك فإن غليوم ، بمساعـدة أنطوان هـاينسيوس (١٦٤١ ـ ١٧٢٠ م) رئيس السلطة التنفيذيـة منـذ ١٦٨٩ م ، عرف كيف يفيـد من أخطاء لويس الرابع عشر في ١٧٠١ م ونجح في إقناع المجلس ـ العام لزعـامـة حلف لاهـاي الكبير . ولكن عنـدمـا مـات دون ولـد ، في ١٩ آذار ١٧٠٢ م ، رفضت مجالس هولاندا ومجالس الأقاليم الأربعة الأخرى ، التي كان شتاتودر لها ، أن تعين خلفاً له ابن عمه جان ـ غليوم أورانج . وبدأ الدور الثاني دون شتاتودر ودام حتى ١٧٤٧ م .

لعب رئيس السلطة التنفيذية الكبير هاينسيوس حتى وفاته في ١٧٢٠ م ، دوراً من الصعيد الأول . لقد كان معاوناً سابقاً لغليوم ومتماً لسياسته ، وتبعه الأورانجيون بسهولة ، أما الجمهوريون ، الراضون عن زوال وظيفة الشتاتودر ، والقلقون جداً ، بالرغم من حبهم للسلام ، من موقف لويس الرابع عشر ، فقد قبلوا الانضمام إلى رئيس السلطة التنفيذية . وفعلوا ذلك طواعيةً ، لاسيما وأن هذا الرئيس كان بكليته مهتماً بالحرب ، وترك بعض عائلات المتولين أو القضاة المحليين يحتكرون السلطة قليلاً قليلاً . ولكن هؤلاء البورجوازيين لم يكن لهم فضائل آبائهم . لقد كانوا أنانيين وطماعين ـ ولا يفكرون إلا بالغنى على حساب أبناء وطنهم .

وفوق ذلك ، إن حرب الوراثة الاسبانية انتهت بإنهاك الأقاليم ـ المتحدة ، لأن الجهود العسكرية والمالية ، التي اضطرت لقبولها والتي تضاف إلى مجهودات الحروب السابقة ، كانت لا تتناسب وإمكانات هذا الشعب الصغير الذي هو أقل من مليوني نسمة مهما يكن غنياً . وأخيراً ، ظهرت السياسة الخارجية للجمهورية ، طوال النزاع وأثناء مفاوضات أوترخت ، أنها كانت تابعة لانكلترا ، التي أجبرتها على التخلي عن كل فكرة لضم البلاد المنخفضة الاسبانية ، وعلى الاكتفاء بالاحتلال العسكري لبعض مواقع الحاجز .

إن الأقاليم المتحدة ، وقد وهنت داخلياً ، ونضبت مالياً ، لم تكن نحو ١٧١٣م ملحقة سياسياً بانكلترا فحسب ، ولكن التقدم الصارخ لمنافستها السعيدة قد تجاوزها كثيراً من وجهة النظر الاقتصادية .

والحق ، أنها حافَظَت على الهند النئرلاندية الغنية ، والموانئ النشيطة والسفن العديدة ، ولكنها كانت ضحايا المنافسة الإنكليزية ، وضحايا ضيق أراضيها ، والضعف العددي لسكانها ، وعدم كفاية نظمها السياسية . إن المعجزة النئرلاندية تكمن على وجه الدقة في هذا الواقع ، وهو أن هذه الظروف غير

الملائمة ، خلال ما يقارب قرناً من الزمن ، لم تمنع الجمهورية من القيام بدور الدولة العالمية العظمى .

انكلترا من ١٦٨٩ إلى ١٧١٤ م

إن إعلان حقوق البرلمان في ١٦٨٩ م ، و (قانون التأسيس) الذي يجنب آل ستوارت الكاثوليك عن العرش في ١٧٠١ م ، وقانون اتحاد انكلترا وايكوسيا في ١٧٠٧ م ، أمنت لبريطانيا العظمى ، في المملكة المتحدة الجديدة ، ظفر ملكية معتدلة بروتستانتية .

ثورة ١٦٨٩ م المجيدة

عندما قدم غليوم أورانج إلى لندن ، في ٢٨ كانون الأول ١٦٨٨ م ، ظهر بمظهر العاقل الفطن الحذر جداً ، وأبعد عن ذهنه فكرة الاستيلاء على التاج كما أوحى إليه بعض أعضاء محيطه ، وخوله اللوردات حكماً موقتاً للمملكة . وقرر انتخاب مجلس عموم جديد بغية تأسيس (برلمان مؤتمر) . وانعقد هذا البرلمان في وستمنستر ، في ٢٢ كانون الثاني ١٦٨٩ م ، ودرس الوضع الاستثنائي الذي أوجدته حوادث تشرين الثاني وكانون الأول ١٦٨٨ م . وإذا كان الهويغيون يؤلفون الأكثرية في مجلس العموم ، والتوريون الأكثرية في مجلس اللوردات فقد كانوا على اتفاق لمعرفة هرب جيمس الثاني ، واختلفوا على الحل الذي يجب أن يأتوا به : اقترح الأوائل إعلان سقوط الملك ، المجرم بالتسلط والطغيان ، والعمل على انتخاب ماريا وغليوم ؛ ولكن معظم التوريين تراجعوا أمام الشكل الذي يجعل عملهم عدوانياً على المنصب الملكي ، حسب رأيهم ، وزعموا أن ذهاب الملك يعادل تنازلاً ضمنياً ، وأن العرش يجب أن يرجع في الحق ودون أصول آخر إلى ماريا ، ابنة الملك السابق ، أمير أورانج الذي يجب عليه أن يكتفي بلقب الوصي . ولم تصطدم هذه الصيغة بمعارضة الهويغيين فحسب ، بل أيضاً بمعارضة غليوم الذي رفض أن يكون ببساطة (حاجب زوجته) وهدد بالعودة إلى هولاندا .

وفيما كان البرلمان المؤتمر يبحث عن حل لقضية الوراثة الملكية ، كان يحرر إعلاناً للحقوق يعدد فيه الأعمال اللاشرعية التي ارتكبها جيمس الثاني بتجاوزه على الحريات الإنكليزية التقليدية ، ويذكر بالحقوق العائدة لكل من الملك والبرلمان .

وتدخلت تسوية ، حل وسط ، بين الهويغيين والتوريين ، بإعلان العرش شاغراً . ونودي بغليوم وماريا معاً ملك وملكة انكلترا ، في ١٣ شباط (٢٢ شباط حسب التقويم الغريغوري) ، بعد أن قرئ عليهما مشروع الحقوق .

وإذا لم يكن نص إعلان الحقوق غير تذكرة للمبادئ القديمة ، فإن ثورة ١٦٨٩ م على الأقل كان لها أهمية عظيمة . وفي الواقع ، لقد ألحقت الثورة المناداة بغليوم وماريا ملكين باعتراف هذين بقانون الحقوق ، وأنابت ، بالرغم من الثوريين ، الملكية الدستورية المؤسسة على سيادة الأمة وفكرة العقد ، مناب الملكية الوراثية ذات الحق الإلهي . وفي الوقت نفسه أيدت هزيمة مزاعم آل ستوارت التحكمية ، وأسست على دعائم صلبة ممارسة الملكية المعدلة بحقوق البرلمان . وبعد بضعة أسابيع جاء قانون التسامح ، في ٢٤ أيار ، يتمم قانون الحقوق بتخويله البروتستانت المنشقين ، دون الكاثوليك ، حرية العبادة العامة ، وحق فتح مدارس ، والوصول إلى كل الوظائف شريطة القربان حسب الطقس الأنغليكاني . وهذا يعني (الاتفاق غير المباشر والظرفي) . وهكذا ، فإن المنازعات الدينية التي أوقعت الخلاف بين البروتستانت الإنكليز سحابة قرن ، وجدت حلها في الحرية الدينية ، وان المنازعات السياسية وجدت حلها أيضاً في توازن السلطات بين الملك والبرلمان . وفي السنة التالية صاغ (جون لوك) نظرية النظام الجديد في كتابه (محاولة في السلطة المدنية) وأسهم في إعطاء التجربة الإنكليزية دوياً عظيماً مالبث أن توسع وتضخم في القرن التالي .

امتداد الثورة من ١٦٨٩ إلى ١٧١٤ م

لقد شغل غليوم الثـالث ، حتى ١٦٩٧ م ، تقريبـاً تمـامـاً ، بسير الحرب ضـد فرنسـا . ففي ١٦٩٠ م ، ذهب إلى ايرلانـدا وضرب جيمس الثـاني الـذي نـزل في السنـة السـابقـة بمسانـدة الأسطـول الفرنسي . وانطـلاقـاً من ١٦٩٢ م ، كان في الغالب ، على القارة ، على رأس الجيوش العاملة في البلاد ـ المنخفضة .

وأفاد البرلمان من ذلك لتمديد حقوقه تدريجياً على حسـاب الامتيـاز الملكي . إن القـانون الثـاني الثلاثي السنوات (١٦٩٤ م) يحـدد لثـلاثـة أعـوام مـدة المجلس التشريعي وهذا يمنع الملك من تأجيل مدة مجلس مطيع إلى ما لا نهاية . والمجـالس تصوت على الموازنـة لمـدة عـام وتراقب بشكل شـديـد نفقـات الحكومـة . والملـك لا يتصرف بكامل الحرية إلا بمرتب سنوي محدود . والمجلس الخاص ، الـذي كان في السـابق النـاطـق بـاسم الحكم المطلـق الملكي ، بقي ، ولكن أفلتت منـه كل سلطـة حقيقيـة . فـالسيـاسـة يقررهـا مجلس الـوزراء ، أي اجتماع بعض الـوزراء حـول الملك ؛ وفي ١٦٩٧ م ، شكل الملك للمرة الأولى مجلس وزراء متجانسـاً منتخبـاً من بين الهويغيين الـذين يؤلفون الأكثريـة في البرلمـان (مجلس وزراء سـانـدرلانـد) وإذا كانت سلطة الملك مـازالت هـامـة أيضـاً ، وبخـاصـة بفضل التعيين في جميع الوظائف العامة ، فقد تحددت تدريجياً لا بنص ١٦٨٩ م ، وإنمـا بـالتطبيق الـذي أجري لـه في السنوات التـاليـة . وفـوق ذلـك ، في ١٦٩٥ م صـوت البرلمـان على حـذف الرقـابـة وخول كامـل الحريـة للصحف والرسـائـل الصغيرة والكتيبـات ، فساعد بذلك الرأي العـام على التعبير بشكل أفضل وعلى الإسهـام بشكل أفضل في الحياة السياسية .

وبعـد موت مـاريـا التي لم تخلف ولـداً ، في كانون الأول ١٦٩٤ م حكم غليوم وحده ، وكان عليـه أن يواجـه ، في ١٦٩٦ م ، مؤامرة أنصـار جيمس الثـاني ، ولا سيما أزمة اقتصادية خطيرة تسببت بامتداد الحرب ضد فرنسا . وهـذه الأزمـة التي

عرضت للخطر وجود بنك انكلترا الذي أحدث قبل عـامين ليسـاعـد على مجابهـة النفقـات العسكريـة ، قـد أمكن التغلب عليهـا ، ولا سيا بفضـل زيـادة رأسمال البنك ، في الوقت الذي وقعت فيه معـاهـدة الصلح في (ريسويـك) ، في ايلول ١٦٩٧ م ، وأنهت حرب رابطة أوغسبورغ .

وإن مـوت آخر ابن لآنّـا ستـوارت المتزوجـة من الأمير جـورج الـدانياركي والوارثة المعينة لماريا وغليوم ، وضع قضية وراثة عرش إنكلترا . وقـد قرر قـانون التأسيس ، في ١٠ شباط ١٧٠١ م أن يبعد كل مدع بـالعرش كاثوليكي ، أي جيمس الثـاني وابنـه جيمس ـ أدوراد ، واستـدرك بـأن يعـود التـاج إلى حفيـدة جيمس الأول ، صـوفيـا الهـانـوفريـة (من هـانـوڤر) البروتستـانتيـة وإلى ورثتهـا . وفي الوقت ذاته ثبت وتمم قانون الحقوق .

وفي السنة التالية ، في ١٩ آذار ١٧٠٢ م ، وقبل بضعة أسابيع على بـدء حرب الوراثـة الإسبـانيـة ، توفي غليوم الـذي أسهم أكثر من أي شخص آخر في تشكيـل حلف لاهاي الكبير ضد لويس الرابع عشر . ولكنه ظل طوال حياتـه هولانـديـاً وكالفنياً ، ولذلك كان أسف رعاياه البريطانيين عليه قليلاً .

أمـا الملكـة آنـا (١٧٠٢ ـ ١٧١٤ م) ، فعلى العكس ، كانت إنكليزيـة بعمق وأنغليكانيـة بـإخلاص ، وشعبيـة جـداً . وفي الـواقـع ، كانت دون قـدرة وكفـاءة كبيرة ، وتحت نفـوذ صـديقتهـا وبيت سرهـا (سـارة جيننغـز) ، زوجـة جـون تشرشل ، دوق (مـارلبورو) . وكان هـذا نقيبـاً ـ عـامـاً للجيـوش الإنكليزيـة ، ويمـارس ، بفضـل النزاع الأوربي ، واقـع السلطـة المسنـدة للملكـة . اعتمـد على الهـويغيين ، أنصـار الحرب ، ولكنـه أخـذ بعين الاعتبـار معـارضـة التـوريين ، الأنغليكان المتشددين ، الذين يطـالبون بإلغاء قانون التسـامح ، والمحبين للسلام ، ويقومون بحملة في جرائدهم ضد متابعة الحرب ، وأخذ بعين الاعتبار أيضـاً موقف الأيكوسيين الذي يطـالبون بحق انتخـاب خلف لآنّـا ، ويعلنون ، في ١٧٠٤ م ،

بتصويت من برلمان أدمبره ، طرح قانون التأسيس . ولكن النجاحات اللامعة التي أحرزها في أوربة الجيش والأسطول الإنكليزي ، في ١٧٠٤ و ١٧٠٥ م سهلت مهمة مارلبورو . لأن الهويغيين ، الذين حصلوا على الأكثرية في انتخابات ١٧٠٥ م ، أجبروا التوريين على التخلي عن مشروعهم في إلغاء قانون التسامح ، وافتتحوا المفاوضات مع برلمان أدمبره .

وأدرك الأيكوسيون أنهم سيكونون الضحايا الكبرى في القطيعة مع إنكلترا ، فقبلوا قانون الاتحاد ، في ٦ آذار ١٧٠٧ م وذلك بأن يعوض الاتحاد الشخصي للمملكتين بإتحاد سياسي ، تحت اسم **المملكة المتحدة لبريطانيا العظمى** . وفقد الأيكوسيون برلمانهم ولكنهم حصلوا على حق بإرسال ١٦ لورداً و ٤٥ نائباً في مجلسي برلمان لندن الذي أصبح منذ الآن عاماً ومشتركاً . وشكلت أيكوسيا مع إنكلترا سوقاً قومياً واحداً ، وأسهمت في كل فوائد قوانين الملاحة ومعاهدات التجارة ، مع المحافظة على كنيستها المشيخية وقوانينها ومحاكمها . وبالرغم من أن الجاكوبيين (الجيمسيين) ، أنصار جيمس الثالث المدعي بالعرش ، ظلوا عديدين في أيكوسيا ، فإن قضية الوراثة بدت محلولة في الوقت الذي تحققت فيه وحدة بريطانيا ـ العظمى .

ولكن الحرب الخارجية خلدت ، ومعارضة هذا الخلاف اللامنتهي والمكلف غالياً (الباهظ) أخذت تشتد شيئاً فشيئاً ، ولا سيا بعد أن عمل تشدد مارلبورو وهاينسيوس على إخفاق المفاوضات مع فرنسا (١٧٠٩ ، ١٧١٠ م) . وأمام الهويغيين الممثلين لمصالح أوساط الأعمال التي تدعم مالياً الحرب وتفيد منها غالباً بشكل فاضح ، يطالب التوريون بالسلام باسم الملاك العقاريين الذين قلت مواردهم ، والشعب الإنكليزي كله الذي مافتئت أعباؤه في ازدياد : (رسوم جديدة على السكر ، والتوابل ، والجعة) . وفي الوقت ذاته ، كان التوريون . الذين استثرت صحافتهم ضد الهويغيين ومارلبورو ، يساندون المتعصبين من

أعضاء الكنيسة الأنغليكانية ، مثل الراعي (ساشفيريل) الذي اكتسب شعبية عظيمة بمهاجمة الحكومة في ١٧٠٩ م . وفي نيسان ١٧١٠ م فسدت علاقات الملكة مع آل مارلبورو ، ثم ، في حزيران ، أقالت وزراءها الهويغيين ، وفي تشرين الأول حلت البرلمان . وكان مجلس العموم الجديد المنتخب في تشرين الثاني ١٧١٠ م في أكثريته تورياً ومحباً للسلام وأنغليكانياً . وجرت مباحثات سرية مع فرنسا ، ودفعت مقدمات السلام في تشرين الأول ١٧١١ م ، في الوقت الذي كان فيه الجمهور يصفق لرسالة (جوناسن سويفت) وهي بعنوان (سلوك الحلفاء) .

وأخيراً ، إن عزل مارلبورو ، في ١٧١٢ م ، جعل السلام ممكناً . لأن معاهدة أوترخت ، التي تفاوض بشأنها الوزير التوري (هنري سان ـ جون) ، (فيكونت بولينغبروك في المستقبل) ، وقعت في ٣١ آذار ١٧١٣ م (١١ نيسان ، حسب التقويم الغريغوري) ، بالرغم من معارضة الهويغيين الشديدة .

وفي الداخل ، سلك التوريون سياسة ملائمة للملاك العقاريين ، وذلك بتغيير الحق الانتخابي لصالحهم ؛ وملائمة أيضاً للكنيسة الأنغليكانية ، بمنع التكيف العرضي في ١٧١١ م ، وقانون الحيدة في ١٧١٤ م ، الذي يمنع المنشقين من فتح مدارس عامة أو خاصة . وكان بولينغبروك يقيم علاقات مع الجاكوبيين ، حتى إنه فكر ، ليؤمن سلطة التوريين بشكل أفضل ، أن يعمل على إلغاء قانون التأسيس ودعوة المدعي بالعرش ، بإتفاق مع الملكة ، التي تأثرت بعد قليل بالقدر الذي أصاب نصف ـ أخيها . ولكن آنّ ماتت في أول آب ١٧١٤ م . وفي اليوم نفسه نادى لوردات المجلس الخاص ، بأكثريتهم الهويغية ، والبرلمان ، بناخب هانوفر ، ابن صوفيا التي ماتت قبل بضعة أشهر ، ملك بريطانيا ـ العظمى تحت اسم جورج الأول .

الحضارة الإنكليزية

لقد اتفق حكم غليوم وآنّا مع النهوض الاقتصادي البريطاني الجديد . وفي

عهد شارل الثاني شجع تطبيق قوانين الملاحة ، والمكتسبات في المحيط الهندي وفي أمريكا الشمالية ، واستغلال جامايكا تقدم التجارة البحرية الكبرى . وبعد أن أخذ الإنكليز شيئاً فشيئاً مكان الهولانديين الذين تأثروا بشدة في الحرب انطلاقاً من ١٦٧٢ م ، احتكروا جزءاً من التجارة الأوربية ، ولاسيا في البحر المتوسط . إن استغلال المناجم والصناعة المعدنية والإنشاءات البحرية وصناعة النسيج ، مع بداية صناعة القطن ، واصلت تقدمها وساعدت تدريجياً على صادرات هامة . إن نيوكاستل ، ميناء الفحم العظيم ، وبريستول المختص بالتجارة الثلاثية ، وبخاصة لندن التي تجمع ثلاثة أرباع النشاط الصناعي والتجاري للمملكة ، كانت جميعاً في عز نموها . وفي الزراعة توالت حركة التسويرات والتطور نحو تربية الدواجن .

وهذا النشاط الاقتصادي لم يغن جمهور السكان ، ولكنه زاد أيضاً قوة **الطبقة الرأسمالية** ، من الأشراف الريفيين وأصحاب المصانع والتجار ، التي أمنت لنفسها في ١٦٨٨ ـ ١٦٨٩ م السيطرة على السلطة السياسية . وفي الحقيقة ، إن الحرب ضد فرنسا وضحت الاختلافات بين مصالح الملاكين العقاريين ومصالح رجال المال ورجال الأعمال ، ولكن لم تكن هنالك معارضة لم يمكن منعها ، كما لم يكن بينهم حاجز اجتماعي ، وكان البحث عن الربح عاماً لدى هؤلاء وأولئك سادة السلطة بواسطة البرلمان ، ويسهرون على احترام حرية المشروع ، ولكنهم يعلمون في الوقت نفسه كيف يوجدون الظروف المناسبة والملائمة لهذا النشاط الحر والتنمية العامة . لقد وضعوا تعرفات جمركية حامية ، ونظموا ، في ١٦٩٦ م ، **الهيئة التجارية** ، وهي وزارة تجارة حقيقية ، وحصلوا من الدول الأجنبية على فوائد تجارية : من البرتغال في ١٧٠٣ م ؛ وإسبانيا ، في ١٧١٣ م . وشجعوا ، في ١٦٩٤ م على إحداث **بنك إنكلترا** . وكان هدف هذا البنك ، في الأصل ، مساعدة حكومة غليوم الثالث على القيام بالنفقات الثقيلة التي جرتها الحرب ومعالجة نقص النقد الذي تشكو منه إنكلترا كباقي أوربة . وقد استخدمت الخزانة ودائع

المكتتبين (١٢٠٠٠٠٠ جنيه في الإنطلاق) مقابل فائدة ٨٪ ؛ وبالمقابل ، بقي البنك مشروعاً خاصاً (حاكم وشركة بنك إنكلترا) ويأخذ من الدولة امتياز إصدار أوراق نقدية يدفع مقابلها عندما تقدم ، ويحسم الأسناد ، ويشتري ويبيع السبائك ، ويقرض الأفراد . وهكذا ، كان البنك مؤسسة إيداع ، وإصدار ، واعتماد . وحل فيما بعد محل مؤسسة أمستردام كبنك عالمي كبير وأصبح الأداة الممتازة لتنمية الرأسمالية التجارية والصناعية والزراعية في بريطانيا ـ العظمى .

والحضارة الفكرية والفنية تعكس بصورة عريضة تفتح الطبقة الرأسمالية التي ينعشها الروح الطهراني المشرب بالفردية النفعية والعملية . وقد أسهمت (**الشركة الملكية**) المؤسسة في ١٦٦٢ م ، حسب هدفها ، في (تقدم العلوم) . ونشر نيوتن في ١٦٨٧ م : (ميثاق العلم التجريبي) . وكان (لوك) في آثاره المختلفة معبراً عن المثل الأعلى السياسي والأخلاقي للبورجوازية المنتصرة بعد ١٦٨٩م . وكذلك (ستيل) و (أديسون) مؤسسي (المتفرج) في ١٧١١ م . أما جوناسن سويفت (١٦٦٧ ـ ١٧٤٥ م) ودانيل دوفو (١٦٥٩ ـ ١٧٣١ م) ـ الأول مجادل توري واضح مر ؛ والثاني تاجر متكيف في السياسة ، وغير متكيف في الدين ـ فلم يكتبا آثارهما العظيمة إلا بعد ١٧١٤ م .

وفن (كريستوفر ورين) هو أيضاً نفعي بصورة أساسية . ثم إن تعمير وسط لندن ، بعد الحريق الكبير الذي شب في ١٦٦٦ م ، يسر للمهندس المعمار فرصة عرض موهبته : وإذا رفضت خطة المجموعة التي أقترحها ، فعلى الأقل عمر ٥١ كنيسة مدمرة ولاسيما كاتدرائية القديس ـ بولس (١٦٧٥ ـ ١٧١١ م) ، وانطلاقاً من ١٦٩٤ م شاد لغليوم الثالث قصر (هامبتون ـ كورت) الجديد . و جون فانبروغ (١٦٦٤ ـ ١٧٢٦ م) ، أفضل تلميذ لأستاذه (ورين) ، شاد للبورجوازية الهويغية دوراً وقصوراً واسعة ومريحة ومرفهة تجمع بين الحجر والآجر . وهذا هو طراز (الملكة آنّ) .

وفي بداية القرن الثامن عشر ، كان لإنكلترا ، بفضل قيمة علمائها ومفكريها وكتابها ، ولأصالة نظمها السياسية ، إشعاع كبير ، وبدأت تمارسه على النخبة المثقفة من أبناء القارة .

الفصل الخامس

الحضارة الأوربية
في النصف الثاني من القرن السابع عشر

الإتباعية والباروك

لقد شهدت فرنسا عام ١٦٦٠م انتصار المثل الأعلى الاتباعي (الكلاسيكي)(١) المكون من الضياء والحد والبعد والقياس والخضوع للقواعد في الآداب وفي الفنون معاً . ويرمز قصر ڤرساي إلى ظفر هذا الفن الإتباعي على شرف الملكية ، وإن كان لا يخلو من بعض بقايا جمال الفن الباروك . ومع ذلك ففي باقي أوربة الكاثوليكية ، ولاسيا في دول آل هابسبورغ ، تفتح الفن الباروك وأعطى بعضاً من روائعه .

المثل الأعلى الاتباعي

لقد تهيأ المثل الأعلى الاتباعي ببطء في النصف الأول من القرن ، وظفر في فرنسا انطلاقاً من ١٦٦٠ م . وهو يستجيب إلى الاهتمام بنظام ووحدة لويس الرابع عشر وأذواق بورجوازية متزايدة الغنى والثراء والنفوذ منذ هزيمة الطبقة الأرستقراطية في حرب الفروند (المقاليع) كما أريد لها هذا الاسم .

تعتمد الاتباعية ، ككل حضارة أوربة منذ القرن الخامس عشر(٢) ، على

---

(١) (الكلاسيكية ـ CLASSICISME) مذهب الفنانين الذين وجدوا ، انطلاقاً من القرن السادس عشر ، مصادر إلهامهم ونماذجهم في القديم الأغريقي ـ الروماني .

(٢) القرن الخامس عشر ـ بالإيطالية ـ هو ما يعبر عنه بـ : QUATTROCENTO أي : القرن الخامس عشر الإيطالي ، عصر النهضة الإيطالية .

عبادة القديم ، النموذج الذي لا يعادله نموذج آخر . وكما كتب (بوالو) الكاتب الفرنسي : « عندما يعجب بكتاب طوال عدد عظيم من القرون ، ولم يستخف بهم إلا من أناس غريبي الذوق ، نظراً لوجود أذواق فاسدة ، فحينئذ لا يكون تهور فحسب ، وإنما جنون إرادة بالشك في فضل هؤلاء الكتاب . وإذا كنت لا ترى جمال كتاباتهم ، فيجب ألا يستنتج بأنها غير جميلة ، بل إنك أعمى ولا ذوق لك . وإن معظم الناس ، مع الزمن ، لا يخدعون أبداً في مؤلفات العقل . ولا داعي الآن لطرح مسألة معرفة ما إذا كان هوميروس أو أفلاطون أو شيشيرون أو فرجيل رجالاً فائقين . هذا أمر لا جدل فيه . والقصد هو ما جوهر هذا الفائق الذي جعل الناس يعجبون بهم قروناً عديدة » .

توجد عبادة القديم هذه في الأدب في اقتباس (قاعدة الوحدات الثلاث) عن أرسطو ؛ أو في إيضاح بوالو المطول عن (الفن الشعري) لهوراس . وبصورة عامة في تقليد أنواع وأشكال كيفية الكتابة عند القدامى .

وفي البناء رجع ، فيما عدا الخواطر والأهواء التي أدخلها الباروك ، إلى الصيغ القديمة التي استعادتها النهضة : الجبهة المثلثة ، والأنظمة الموضوع بعضها فوق بعض ، والأعمدة والقبة ، والسقف .

وفي النحت والرسم ، كانت الرموز الميتولوجية على الموضة ودارجة أكثر من أي وقت مضى ، وكذلك رسم الأشخاص على الطريقة القديمة . فعندما نحت (كويز يفوكس) تمثال لويس الرابع عشر ، مثّله امبراطوراً رومانياً مدثراً برداء امبراطوري فوق الدرع .

وكان الاهتمام بالضوء ، والضبط ، صفة مميزة للمثل الأعلى الإتباعي . وللوصول إليه ، يجب الخضوع لإشراف العقل . وعلى العقل أن يتغلب على الخيال الذي هو خاصية وصفة مشهورة بأنها أدنى وخطرة ، لأن العقل أساس القواعد التي يحسن إتباعها لبلوغ « الجمال المثالي » . وإن الخضوع للعقل والقواعد التي

يمليها ، يعني إطراح كل ماهو استثنائي ، مفرط وعفوي وطائش ، والبحث ، بالعكس ، عن كل ماهو واضح وزاهد وقريب من الحقيقة وله قيمة عامة . وعلى الكاتب بخاصة أن يهتم بتصوير الإنسان بكل مافيه من عام . وفي مثل هذه المنظورات يخلط تقليد الطبيعة الجميل بالقبيح ، والكريه بالمستحب . ولذا يجب رصده بعناية . وقد كتب المنظر فيليبين[1] بهذه المناسبة عن (الرسام الكامل) : « إن الدراسة الأساسية للرسام يجب أن تكون في إظهار ومعرفة جوهر حقيقة وجمال وبساطة هذه الطبيعة نفسها التي تستمد كل جمالها وكل رشاقتها من عمق صفائها وبساطتها . وإذا كانت الطبيعة مصدر الجمال ، فإن الفن ، كما يقال عموماً ، يتجاوزها . لأن الطبيعة لا تخلو عادةً من المثالب ، لأنها تتحول ، في تشكيل بعض الموضوعات الخاصة ، ببعض الحوادث العارضة التي تعاكس إرادتها دوماً ، في إنجاز أثر كامل » .

ولكن المثل الأعلى الإتباعي يرمي أيضاً إلى العظيم والجليل دون الوقوع أبداً في المبالغة أو الإفراط . إن (الذوق العظيم) يضع تسلسلاً في الأنواع وفي الموضوعات : فالمأساة (التراجيديا) ذات الأشخاص التاريخية التي تفصح عن نفسها بشعر الكسندري تتفوق على الملهاة (الكوميديا) ولاسيا إذا كانت نثراً . والفصاحة المقدسة ، ولاسيا في التأبين ، نوع نبيل للغاية . وفي الرسم كانت رسوم الأشخاص واللوحات الميتولوجية والتاريخية ، من التاريخ القديم أو المعاصر ، تتقدم على المناظر والطبيعة الصامتة ، هذا النوع (الدنيء) الذي يجب تركه ، في رأي فيليبين ، للرسامين « الذين لا تؤهلهم مواهبهم للإتيان بالموضوعات الكبرى » .

وقد اشتد هذا البحث عن العظمة بتأثير لويس الرابع عشر الشخصي . فقد

---

(١) (فيليبين ـ FILIBIEN) مهندس معمار ومؤرخ فرنسي ومؤلف (أحاديث عن حياة وآثار الرسامين الممتازين من قدامى ومحدثين) .

أراد أن يخدم الآداب والفنون لتجيد عهده ، وبرهن في الغالب عن ذوق نير واثق . وشغّل مباشرة في باريس وفي فرساي أعظم المهندسين المعمارين ، والرسامين ، والنحاتين في عصره ، وشجع وكافأ الكتاب والفنانين الذين يهتمون قبل كل شيء بما يعجب الجمهور القليل العدد المؤلف من (الملك والبلاط والمدينة) . ودعم الأكاديميات التي أسهمت في نجاح المثل الأعلى الكلاسيكي وأعطت لكل حركة أدبية وفنية وحدة التوجيه الضرورية . وظلت الأكاديميا الفرنسية الوفية لأصولها تعمل على إعداد لغة واضحة وبسيطة وخالية من الغموض والكلمات والتعابير القديمة التي أخنى عليها الدهر ، وتسهر على الاحترام الواجب للقواعد والذوق الرفيع . وأصبحت أكاديميا الرسم والنحت ، التي تأسست في ١٦٤٨ م ، وأكاديميا العمارة المؤسسة في ١٦٧١ م على يد (لوبرن) وكولبر ، مدارس (الذوق العظيم) ، فيا كان إبداع الأكاديميا الفرنسية في روما يساعد الفنانين الفرنسيين على تعلم الدروس الكبرى للعصر القديم وعصر النهضة ودراستها دراسة ميدانية .

وأخيراً ، إن الكلاسيكية ، بصورة أوسع ، مثل أعلى للحياة . لأن الإنسان الشريف يحتوي ويقف سداً أمام أخلاق فروسية البطل الكورنيلي التي كانت في العصر السابق ، ويقترح مثلاً أعلى للحد والقاعدة والعقل وضبط النفس .

وهكذا كان المثل الأعلى للإنسان الشريف يتجاوز بصورة فريدة قانون اللياقة والمجاملة والآداب الاجتماعية البسيط وينتهي إلى أخلاق وضعية وعامة وكونية ، كلاسيكية تماماً .

الأدب الكلاسيكي

في السنوات ١٦٦٠ ـ ١٦٨٥ م ، أمّن جمع من الكتاب ، في فرنسا ، انتصاراً مدوياً ، ولكنه ضعيف سريع العطب ، للأدب الكلاسيكي الذي جعل بوالو

(١٦٣٦ ـ ١٧١١ م) من نفسه منظراً له . وفي الحقيقة ، إن (فنه الشعري) الذي صدر في ١٦٧٤ م لم يكن منه سوى تقنين المبادئ الكبرى لعلم جمال أعدّ وهيء منذ أكثر من نصف قرن .

المسرح

المسرح ظاهرة الحياة الاجتماعية ، وأحد الأنواع الأدبية التي تستهوي الجمهور أكثر من غيرها . لقد شاخ كورنيّ (١٦٠٦ ـ ١٦٨٤ م) الشاعر الدرامي الفرنسي ، وظل يكتب مآسي (تراجيديات) يصفق لها دوماً ، ولكنه اضطر بعد ذلك أن ينحني أمام مجد منافس له أكثر شباباً وسعادة وهو جان راسينْ (١٦٣٩ ـ ١٦٩٩ م) ، وكان تلميذاً سابقاً في مدارس بور ـ رويال الصغيرة ، وقطع صلته بأساتذته الجانسينيين ووقف نفسه للمسرح : فمن مسرحيته أندروماك (١٦٦٧ م) إلى فيدر (١٦٧٧ م) مثل له في قصر بورغونيا سبع مآسي تضم صفاء الشكل وعمق التحليل النفسي . وبعد المؤامرة التي أثارتها فيدر ، ترك المسرح وتصالح مع الجانسينيين ، وأصبح (مؤرخاً للملك) مع بوالو .

وكان موليير (١٦٢٢ ـ ١٦٧٣ م) ممثلاً كوميدياً جوالاً أولاً ، ثم استقر في باريس في «القصر ـ الملكي» (١٦٦١ م) . وكانت فرقته الأولى (فرقة مسيو) وأصبحت (فرقة الملك) في ١٦٦٥ م . وكان مؤلفاً كوميدياً مفضلاً لدى الملك الشاب لويس الرابع عشر الذي دافع عنه ضد أعدائه بسبب جرأة قطعة «دون جوان» (١٦٦٥ م) و «تارتوف» (١٦٦٤ ـ ١٦٦٩ م) وقد أثارت هذه القطعة المسرحية بخاصة (مؤامرة الأتقياء) الذين حركتهم آنّ النمساوية ورئيس أساقفة باريس (بيريفيكس) والرئيس الأول لبرلمان باريس ، (لاموانيون) . وفي كوميدياته العديدة التي أراد بها (إصلاح الرذائل) مسلياً ، كان يهاجم غرائب

وجنـون معـاصريـه . ولكنـه كان وراء ذلـك يرسم (البخيـل) و (الكاره للبشر) و (النساء العالمات) لكل العصور .

ولافونتين (١٦٢١ ـ ١٦٩٥م) الشاعر بحكاياته الرمزية المستوحاة من (فيـدر) ومن (إيـزوب) القصـاص الاغريقي القـديم ، كـوميـديـات صغيرة ، صنـع أثراً أخلاقياً بحكمة واعية ، وبلغ ، برسم وتصوير رجال عصره ، حقيقة عامة عالمية .

الفصاحة المقدسة

كان المثل للفصاحة المقـدسـة خير تمثيل ، بوسويـه (١٦٢٧ ـ ١٧٠٤م) . فمن ١٦٦٢ ـ ١٦٧٠م كان واعظاً رسمياً للبلاط ، ويخطب بخاصـة ، عـدا وعظـه الكثير جداً ، خطباً عامة تأبينية على شرف هنريت ـ ماريـا فرنسـا (١٦٠٩ ـ ١٦٦٩م) ، ابنة الملك هنري الرابع وماريا دوميدتشي وزوجة شارل الأول ملك إنكلترا ، وعلى شرف ابنتهـا هنريت إنكلترا زوجـة فيليب أورلئـان أخ لـويس الرابع عشر . ثم أصبح مربياً لولي العهد في ١٦٧٠م ، ثم أسقفاً في مـدينـة (مو) في ١٦٨١م . وكلف بأن يخطب خطـاب التـأبين للملكـة مـاريـا ـ تيريزا النمسـا زوجـة لويس الرابع عشر ، عندما توفيت في ١٦٨٣م ، وخطاب تأبين كونـده الكبير في ١٦٨٧م . كان بوسويه يهتم بإقناع مستمعيـه ، ولـذلـك فرض على نفسـه توسيع أفكار بسيطـة في خطب جيدة الإنشاء والتركيب تحركها غنائية قويـة مصـدرهـا الكتـاب المقـدس وآباء الكنيسة .

وحاول باسكال (١٦٢٣ ـ ١٦٦٢م) في (الأفكار) ، التي كتبها في آخر حيـاتـه ونشرها أصدقـاؤه الجـانسينيون في ١٦٧٠م ، أن يقنع الخلعـاء بحقيقـة المسيحيـة . وبدا في هذا التمجيد الذي لم يتم منطقياً شديداً . وبخاصة ، كاتباً رائعاً ، غنائيـاً ، وشغفاً متحمساً . وظهرت مدام دوسيفينيه (١٦٢٦ ـ ١٦٩٦م) في رسائلها ، ومدام دو لافـايت (١٦٤٣ ـ ١٦٩٣م) في روايـاتها وبخـاصـة ، (أميرة كليـف) ، كاتبتين

كلاسيكيتين عظيمتين توفقان بين محاسن الأسلوب والمعرفة العميقة للقلب البشري .

لقد كانت الكلاسيكية الأدبية ، حادثاً فرنسياً أساسياً ، ولكنه لامس البلاد الأوربية الأخرى بواسطة فرنسا . ففي النصف الثاني من القرن قرئ الكتاب الكلاسيكيون وترجموا وقلدوا في إيطاليا ، وفي ألمانيا ، وفي إنكلترا حيث كان درايدن (١٦٣١ ـ ١٧٠٠م) أفضل ممثل للذوق الكلاسيكي . واتبعت إسبانيا نفسها مدرسة فرنسا بعد أن اعتلى العرش فيليب الخامس ، وكتب فولتير بحق في كتابه : «عصر لويس الرابع عشر» :

«في البيان ، في الشعر ، في الأدب ، في كتب الأخلاق والتسلية واللهو ، كان الفرنسيون مشرعي أوربه» .

ڤرساي والفن الكلاسيكي

في ١٦٦٥م ، أراد لويس الرابع عشر وأمين الدولة في دار الملك ، كولبر ، إنهاء بناء قصر (اللوڤر) فاستدعيا برنيني من روما . واستقبل بأبهة ، ووضع عدة مشاريع ، ولكنه لقي بسرعة عداء الفنانين الفرنسيين ولاسيا كلود بيّرو (١٦١٣ ـ ١٦٨٨م) وعاد إلى إيطاليا في تشرين الأول ١٦٦٥م ، دون أن يتمكن من قبول مخططاته ، فقد بدت صعبة ومكلفة كثيراً .

وفي ١٦٦٧م . كلف فريق من المهندسين المعارين الفرنسيين ، ومنهم كلود بيرو ، بتشييد الواجهة ، التي جاءت ، بخطوطها الأفقية الكبرى ، وأعمدتها ، وجبهتها المثلثة ، وطابقها العلوي القائم على طنف ، تختصر المعطيات الكبرى للعمارة الكلاسيكية بكل زهدها . وإذا لعبت أسباب أخرى غير جمالية دوراً حاسماً في قرار لويس الرابع عشر وكولبر ، فإن إخفاق رحلة برنيني ، وبعد ذلك بزمن ، الاستقبال غير اللائق لتمثال الملك وهو على صهوة الجواد الذي أرسله

الفنان الكبير من روما ، كان لهما ، على الأقل ، أهمية عظمى ، وتسجلان أيضاً ، في ذلك التاريخ ، أن فرنسا «تجنبت إغراء الباروك» .

بيد أن الملك هجر باريس واللوفر الذي أوقفت أعماله بعد ذلك ، وبالرغم من العقبات من كل نوع ، أراد أن يجعل من الجناح المتواضع للصيد الذي شيد لأبيه في فرساي بين ١٦٢٤ م و ١٦٣٢ م ، مقاماً أهلاً له . وفي ١٦٦١ م انتزع من فوكيه وزير المالية الفنانيين الذين بنوا له قصر (فو ـ لو ـ فيكونت) ، مثل المهندس المعمار لوي لوفو (١٦١٢ ـ ١٦٧٠ م) والرسام والمزين شارل لوبرن (١٦١٩ ـ ١٦٩٠ م) ، والبستاني آندريه لونوتر (١٦١٣ ـ ١٧٠٠ م) وكلفهم بتحويل فرساي . فعدا عن تشكيل (البارك) الواسع المخصص للصيد ومساحته ٦٠٠٠ هكتار ، والحديقة التي رسمها لونوتر ، كانت التعديلات الأولى (١٦٦١ ـ ١٦٦٨ م) التي أدخلها لوفو تقضي بتجميل القصر من الخارج وتغيير التنظيم الداخلي ، وتشييد أبنية مخصصةً للخدمة بالآجر والحجر وبالأسلوب الذي بني به القصر في كل جهة من مقدمة الفناء التي هي أوسع من الفناء نفسه . وفي ١٦٦٨ م كان قصر ڤرساي مقاماً فخماً ، ومسرحاً للأعياد العظيمة مثل « لذائذ الجزيرة السحرية » . وفكر لويس الرابع عشر أن يجعل من القصر مقاماً نهائياً للبلاط والحكومة ، فأعطى أمره إلى لوڤو بتوسيع البناء بصورة عظيمة بإبقائه على حاله وتوقع عمائر إدارية . وعندئذ عمد لوفو يساعده تلميذه فرانسوا دوربيه (١٦٣٤ ـ ١٦٩٧ م) و « غلف » قصر لويس الثالث عشر من جهة الحدائق بجناحين واسعين على الترتيب الإيطالي ـ القديم ، ووصل بينهما بسقف على الطريقة الإيطالية . وعند وفاة لوفو في ١٦٧٠ م تم البناء تقريباً ، ولكن تنظيم الداخل ، وبخاصة جناح الملك ، لم يبدأ . ويكون هذا التنظيم من عمل لوبرن الذي وجه جيشاً من الرسامين ، والنحاتين ، وصانعي السجاد ، وصانعي المفروشات وحقق مجموعة اختلط فيها تنوع التفاصيل في وحدة عظيمة على مجد الملك ـ الشمس .

وفي ١٦٧٨ م ، ساعد انتهاء حرب هولندا الملك لويس الرابع عشر على دفع

الأعمال العمرانية دفعة جديدة . فكلف جول هارْدُوَنْ ـ مانسار (١٦٤٦ ـ ١٧٠٨ م) ، المهندس الشاب ، عمره ٣٢ عاماً ، الابن الصغير لأخ فرانسوا مانسار ، بأن يضيف إلى القصر الذي بناه لوفو جناحين واسعين ، في الجنوب ، وفي الشمال . بني الأول من ١٦٧٨ م إلى ١٦٨١ م ، والثاني من ١٦٨٤ م إلى ١٦٨٩ م وهذا التوسيع العظيم اقتضى بالضرورة أعمال حفر جسيمة لتوسيع الأكمة الضيقة التي يقوم عليها القصر البدائي . وفي الوقت نفسه ، شاد هاردون ـ مانسار وأوربيه ، على السقف الكبير الذي نظمه لوفو ، بين جناحي « الغلاف » ، قاعة كبيرة تقليدية في المساكن الأميرية ، زينت بالمرايا على الجدران وبرسوم لوبرن على السقف ، وأطلق عليها فيما بعد اسم (قاعة المرايا) . وعندما أصبح فرساي رسمياً في ١٦٨٢ م مقاماً للبلاط ، كانت هنالك ولزمن طويل رحبة واسعة يشتغل فيها ، في ١٦٨٥ م ، ٣٦٠٠٠ عامل و ٦٠٠٠ حصان . وفي ١٦٨٩ م بدأ هاردون ـ مانسار وابن أخيه روبير دوكوت (١٦٥٦ ـ ١٧٣٥ م) ببناء كنيسة القصر ، ولكن هذا البناء توقف بحرب رابطة أوغسبورغ ، ولم ينته مجموع البناء إلا في ١٧٠٢ م ، والتزيين إلا في ١٧١٠ م .

وكان فرساي نحو ١٧٠٠ الإطار الذي لا مثيل له والذي كان يتمناه لويس الرابع عشر .

وكتب مؤلف مغفل لقصة أعياد المرافع في ١٦٨٣ م ما يلي : « مضى علي عامان أو ثلاثة أعوام لم أكن في فرساي . فذهبت إليه لأرى الجناح الأكبر الذي أنشئ حديثاً للملك ، والأعياد العديدة والإضاءات التي تعمل ثلاث مرات في الأسبوع والتي سمعت عنها الكثير . فلا شيء يمكن أن يكون أجمل . وأعظم ، ولا أعجب في العالم . فالدهليز ، والصالة ، والغرف ، والقاعة والمكتب الذي في العمق ، طويلة لحد لا متناهٍ . تصوروا ضوء مئة ألف شمعة في هذا الملحق الكبير من الأجنحة . لقد ظننت أن كل شيء فيها كان ساطعاً لأن شمس تموز العظمى

أقل ضوءاً . والأثاثات الذهبية والفضية لها سناها الخاص كالذهب والرخام •
التزيينات فيه غنية وفخمة . وترى فيه بسط الجدران ، والتماثيل واللو-
والأواني الفضية والخزفية والأزاهير والجر والثريات والشمعدانات ، وبه
الأبواب ، والسجاد ، كلها مختلفة ونادرة » .

إن الجلالة ، والتناظر ، والقياس هي الصفات المميزة لمجموعة يهدف كل
فيها إلى مجد المليك الذي تفيد غرفته مركزاً للقصر كالشمس للكون . فا
والحدائق تنتظم حول محور كبير ينطلق من تمثال الملك في فناء القصر ، و
غرفته ويمتد بالبساط الأخضر والقناة الكبرى . والواجهة الواسعة للقصر من
الحدائق نظمت تنظيماً كلاسيكياً بطوابقها الثلاثة ، ونوافذها العليا المحـ
بالعضائد ، والسقوف بأجاجيرها المحددة بدرابزين . والرتابة ، التي يمكن أن
من كثرة الخطوط الأفقية ، جنبت بفضل أجزاء من العمارة بارزة عن الـوا
الأساسية بصورة خفيفة ، وبفضل شعارات الغلاب التي تزين الغماءات
تغطي سطح القصر . وتسهم الحدائق مباشرة بنجاح المجموع ، وجعل فرساي
ظاهرة للفن الكلاسيكي . وتلعب الأشجار وحدائق الأزهار والمياه والمنحو
دورها في تزيين هذه الحدائق . فالفستقيات والأحواض ونوافير الماء التي تغـ
مياه نهر السين بفضل ماكينة مارلي المنتهية في ١٦٨٢ م ، صممت كصلـ
الطبيعة والبناء ، وتمنح الحياة للحدائق ، بالإضافة إلى مجموعة التماثيل المستو
عن القديم .

وأكبر نحاتي القصر بيير بوجيه (١٦٢٢ ـ ١٦٩٤ م) ، وفرنسوا جيرار
(١٦٢٨ ـ ١٧١٥ م) ، وأنطوان كويز فوكس (١٦٤٠ ـ ١٧٢٠ م) أكثرو
آلهات العيون المائية والأنهار ، وآلهة البحر ، وبخاصة أبولون إله النور وحـ
الفنون والتأليه . وهكذا كانت قاعة المرايا و الصالات وأجنحة الملك والكنـ
والحدائق مسارح متتالية تمر فيها أيام المليك ويحتفل فيها بالأعياد الدنيـ
والدينية التي تؤلف أكبر شاغل للبلاط .

ولعبت الموسيقى في هذه الأعياد دوراً من الصعيد الأول . وفي الوقت الذي ظفرت فيه الأوبرا ، التي أبدعها مونتفردي ، في إيطاليا ، مع بيترو كافاللي (١٦٠٢ ـ ١٦٧٦ م) . وبعد ذلك بقليل اليساندرو سكارلاتي (١٦٦٠ ـ ١٧٢٥ م) ، كان جان باتيست لولي (١٦٣٢ ـ ١٦٨٧ م) الفلورانسي الأصل مجدداً للنوع الذي أدخل إلى فرنسا في عصر مازارن . فقد سمي وزير موسيقى الملك في ١٦٦١ م ومديراً للأكاديمية الملكية للموسيقى ، وأعطى في ١٦٧٣ م أول أوبرا فرنسية تستحق هذا الاسم ، (كادموس وهرميون) على كتيب (كينو) ، وألف في السنوات التالية عشر أوبرات . وفي الوقت نفسه ، كتب ، لأعياد فرساي ، باليهات عديدة للبلاط ، وألف موسيقى دينية ، وهي نوع اشتهر به بخاصة ، في إيطاليا كاريسيمي (١٦٠٥ ـ ١٦٧٤ م) . وفي ألمانيا هاينريك شوتز (١٥٨٥ ـ ١٦٧٢ م) . وكان تأثير لولي عظيماً على موسيقيي عصره ، وليس فقط على الفرنسيين : مثل مارك ـ أنطوان (شاربانتيه) ـ (١٦٦٨ ـ ١٧٠٤ م) ، وميشيل ـ ريشار دولالاند (١٦٥٧ ـ ١٧٢٦ م) ، وفرانسوا كوبرن (١٦٦٨ ـ ١٧٣٣ م) أو أندره كامبرا (١٦٦٠ ـ ١٧٤٤ م) ، وإنما أيضاً على الأجانب مثل الإنكليزي هنري بورسيل (١٦٥٨ ـ ١٦٩٥ م) ، والألماني ديتريش بوكستهود (١٦٣٧ ـ ١٧٠٧ م) أو على من هم أقل لقباً ، مثل الإيطاليين أركانجيلو كوريللي (١٦٥٣ ـ ١٧١٣ م) وجيوسيب توريللي (١٦٥٨ ـ ١٧٠٩ م) الذين وضحوا الكونشترو الأدائية أو (الكونشترو الكبرى) .

على أن نجاح فرساي والمقامات الملكية الأخرى ، تريانون ومارلي يجب ألا ينسي نجاح العمائر الباريسية الكبرى من نفس العصر ، التي تمجد كل على شاكلتها الجمال الكلاسيكي ، مثل : بابي القديس ـ دوني (١٦٧٠ م) ، والقديس ـ مارتن (١٦٧٤ م) اللذين بناهما فرنسوا بلوندل (١٦١٨ ـ ١٦٨٦ م) .

وكليـة الأربـع ـ أمم (وهي اليـوم معهـد فرنسـا) التي شيــدت بين ١٦٦٣ م و ١٦٨٤ م على تصاميم لوفو ، وقصر الأنفاليد الـذي كان مهنـدسوه ليبرال **بروانت** (١٦٣٩ ـ ١٧١٦ م) من ١٦٧١ م إلى ١٦٧٦ م ، ثم هـاردون ـ مـانسـار الـذي أنهى الكنيسة وبنى القبة انطلاقـاً من ١٦٧٧ م ؛ وميـدان لوي ـ لو ـ غران (وهو اليوم ميدان فاندوم) وميدان الانتصارات ، (الميادين الملكيـة) التي رسمهـا في ١٦٨٥ م هاردون ـ مانسار .

وكان تـأثير هـذا الفن الكـلاسيكي الفرسـائي والبـاريسي على الفن الأوربي محسـوسـاً منـذ آخر القرن السـابع عشر . ففي إنكلترا استـوحى (كريستـوفر ورين) ، المهندس الكبير لكنيسة القديس ـ بولس في لنـدن ، من فرسـاي بينـاء (هامبتون ـ كورت) . ولكن سادة أوربة لم يعنوا بحق ببناء مقـامـات لهم تقلـد مقام الملك ـ الشمس كثيراً أو قليلاً إلا في القرن التالي ، القرن الثامن عشر .

ومهما يكن ساطعاً ظفر الفن الكلاسيكي في فرنسا فقد صحبته بقية من بقايـا العنـاصر البـاروكيـة : مثل التنظيم الـداخلي للكثير من الكنـائس البـاريسيـة أو الإقليمية التي تزينهـا الرافـدات المنحوتـة والمنقوشـة والملونـة ؛ والموضـة الـدارجـة للأبنيـة المؤقتـة التي عملت بفخـامـة مثـل تـزيينـات المسرح ، وأقـواس الظفر ، ومـواكب الـدفن ، في إنجـازات إقليميـة ودون رابطـة مبـاشرة مـع (الفن الملكي العظيم) تدل على هذه البقايا . وفي فرساي نفسه ، يرى أن الأفاريز العـديـدة ، والقبـاب ، ومجموعـات الأسلحـة التـذكاريـة لـ جـان لوبـوتر (١٦١٧ ـ ١٦٨٢ م) وبسـط جـان بيرن (١٦٤٠ ـ ١٧١١ م) ، وبعض تنظيمـات البـارك ، مثل تمثـال بوجيـه ، بطـل الألعـاب الأولمبيـة في (ميلـون دو كروتـون ، بخـاصـة) ، وحتى موسيقى البلاط للوللي ودولالاند ، كان لها في الإطار الشـديـد والكلاسيكي الـذي أراده لوبرن ، حيوية الفن الباروك وقوة إبداعه .

الفن الباروك في أوربة المتوسطية والوسطى

نشأ الفن الباروك في روما . وظل يفرض نفسه في النصف الثاني من القرن تقريباً على كل شبه الجزيرة الإيطالية . إلا في بعض المراكز مثل فلورنسا التي ظلت وفية لدروس شدة وضبط الكواتروشنتو ولكنها لم تنتج أي أثر عظيم . ففي روما حوّل بيبردو كورتون واليسوعي آندريا بوزو (١٦٤٢ ـ ١٧٠٩ م) كنيسة (جيزو) رويداً رويداً بالتزيين ، وكانت هذه الكنيسة في أصل الروح الشديدة للإصلاح المعاكس ، وقد جعلا منها مجموعة من أكثر المجموعات أبهة وبذخاً وأكثرها تمثيلاً للباروك الروماني . وفي تورينو شاد الأب غواريني (١٦٢٤ ـ ١٦٨٣ م) المهندس المفعم بالجرأة كنيسة عجيبة ليؤوي بها (القديس ـ سوير) . وبعد ذلك بقليل ، اشتهر جوفارا (١٦٧٦ ـ ١٧٣٦ م) شهرة معادلة لشهرة برنيني قبل خمسين عاماً ببنائه انطلاقاً من ١٧١٦ م كنيسة (السوبرغا) وهي آبدة من الأوابد . وفي البندقية أنهى (لونغينا) كنيسة القديسة ـ ماريا ديلا سالوته ، ولكن البنادقة لم يعطوا إلا في القرن التالي للرسم الباروكي الإيطالي أشهر ممثليه اللامعين . وفي مملكة نابولي ، تستحق المدينة الصغيرة (ليكتشه) بحق الوصف (فلورنسا الباروكية) بكنائسها العديدة التي تتميز زينتها بكثرة وحيوية مدهشة . وفي صقلية ، اجتاحت الجنوب الشرقي هزة أرضية في ١٦٩٣ م ولكن أعيد إنشاؤه بمهندسين معمارين ومزينين محليين : وتمثل مدينة نوتو الصغيرة في جنوب سيراكوزة ووسط كاتانا مجموعات متجانسة يتجاوب فيها مخطط المدينة وبناء وتزيين الكنائس والقصور مع رؤية باروكية واحدة .

وفي شبه الجزيرة الإيبرية ، تجدد فن العمارة والتزيين وبلغ أوجه في آخر القرن السابع عشر ، وفي بداية القرن الثامن عشر ، في الفن الشوريغيري الذي هو نهاية الباروك . وكانت مدينة سالا منكا مركزه الأساسي : ففي الرافدات الكبرى ، في كنيسة القديس ـ استيبان ، أكثر خوسيه دو شورّيغيرا (١٦٦٥ ـ

١٧٢٣م) ، بكر ثلاثة إخوة مهندسين معمارين ومزينين ، إلى مالا نهاية زخارف التزيين ، ولم يترك أي مكان دون نحت ، وركم الملائكة الذهبية اللون والزخارف النباتية الملتفة . وهذه الصفة الوفيرة والغنية والضخمة توجد في الإنتاج الشوريغيري ، وبخاصة في (شفافية) كنيسة طليطلة . وفي هذه الكنيسة الصغيرة تحفظ البقايا المقدسة ويبدو فيها أن نوراً غير حقيقي يسقط على كوم من الملائكة .

وبين ١٦٥٠ م و ١٧٣٠ م تفتح الباروك بحق في أوربة الوسطى وبصورة خاصة في دول آل هابسبورغ : النمسا ، بوهيميا ، هونغاريا ، بلاد الحضارة الكاثوليكية والملكية والأميرية ، المنفتحة على التأثير الإيطالي بصورة واسعة . وهذه الحركة التي بدأت بعد عودة السلام ، في ١٦٤٨م ، تأكدت وتسارعت بالنصر على الأتراك تحت أسوار فينا في ١٦٨٣م ، ومن بعد باسترداد فتح هونغاريا . وهذان الحادثان ولّدا انطباعاً عاماً بالأمن وعاطفة ممتازة بالنصر . وقد شاد معماريون كبار ، مثل يوهان فيشر فون أرلاخ (١٦٥٦ - ١٧٢٣م) ولوكاس فون هيلدوبرانت (١٦٦٨ - ١٧٤٥م) في **فينّا** كنيسة القديس - شارل بورّوميه ، وقصر (البلفيدير) للأمير أوجين - وقصري شفارتزانبرغ وشونبرون . وفي **براغ** ، كنيسة القديس - نيقولا دوما لاشترانا ، وعلى الدانوب كنيسة (ميلك) . وأنعش النحاتون والمزينون التماثيل والرسوم والخشب المنحوت والرافدات في كل هذه العمائر التي لم تكن تقليداً لنماذج برنيني أو بورّوميني ، وإنما كانت منوعات أصيلة عن موضوعات باروكية .

وكذا الحال في **بولونيا** الكاثوليكية حيث تعطي التقاليد المحلية لونها الخاص للفن البولوني كما في القصر الذي شيد لـ (جان سوبيسكي) في فيلانوف بين ١٦٨٤ م و ١٦٩٦م .

لقد كانت السلطات والرأي العام يشجعان التقدم العلمي ويساندانه ، وقد ساعد ذلك على استمراره على يد نيوتن بخاصة . فقد كان ، بعد غاليليه وديكارت ، أعظم مؤسس للعلم الحديث التجريبي والرياضي .

الظروف الجديدة للعمل العلمي كان التقدم العلمي في النصف الثاني من القرن السابع عشر تابعاً مباشرة للثورة الفكرية التي شكلها أثر غاليليه وديكارت . حتى ان علماء السنوات ١٦٥٠ م ـ ١٧٢٠م ، عندما يتجاوزون أو يناقضون بعض نتائج كبار متقدميهم ، كانوا يفعلون ذلك بفضل الطريقة التي خلفها لهم أولئك المتقدمون . فنحو ١٦٨٠ م كتب الأوراتوري (برنارد لامي) في (أحاديث في العلوم) : « في الحاضر ، لا يعتقد بمعرفة شيء إلا عندما يمكن إيضاحه بصورة ميكانيكية . وكان ديكارت أول من فتح هذا الطريق . وعلينا أن نتعلق بطريقته . أقول بطريقته ، لأنه يجب ألا ينظر إلى معظم إيضاحاته كحقيقة ، وإنما كحالة حاضرة حقيقية . إن ما يقوله بارع ومحكم حسب الفرضيات التي وضعها . ولكن هذا لا يعني بأن ما يقدمه حقيقي . وعليه ، فالأولى ، مرة أخرى ، أن نتعلق بطريقة هذا الفيلسوف في الفيزياء ، من أن نتعلق بأفكاره الخاصة . لأننا نجد كثيراً منها باطلاً كلما حدثت اكتشافات جديدة » .

ومن جهة أخرى ، تحسنت الظروف المادية والمعنوية للعمل العلمي . ولاشك في أن العلماء كانوا كلهم تقريباً هواةً ويعملون عموماً على هامش الجامعات التي ظلت في الغالب ملجأً للمواقع الأرسطاطاليسية المختلفة . ولكن اختراع وتكامل أدوات القياس والملاحظة حبتهم الآن بآلات ، وبدونها ما كان من الممكن لمعظم الاكتشافات الكبرى أن تتحقق : المنظار الفلكي (١٦٠٩ ـ ١٦٣٠م) والتلسكوب (نيوتن ، ١٦٧١م) ، والجاهرة (ميكروسكوب) نحو ١٦٦٠م ،

ومقياس الضغط الجوي (١٦٤٠ ـ ١٦٨٠م) ، ومقياس الحرارة ، نحو ١٦٤٠م ، بانتظار فهرنهايت في ١٧١٤م ، والنواس ، نحو ١٦٥٠م ، والآلة الحاسبة (باسكال ١٦٤٤م) . وقد أمكن صنع هذه الأدوات بالتقدم التقني الهام في إيطاليا ، ثم في هولندا ، ولا سيا في صنع الزجاج .

لقد كان العلماء مجهزين بشكل أفضل مما في الماضي ، كما كانوا مساعدين ومدعومين أيضاً . فقد أصبح بإمكانهم أن يعتمدوا منذ الآن على مساندة السلطات ، لاسيا وأن جرأتهم على الصعيد الفكري كانت مصحوبة على العموم باحترام كبير للنظام القائم . ففي إيطاليا ، حيث كان تقليد حماة الفن والأكاديميات قديماً ، أسس دوق توسكانا الأكبر فرديناند الثاني ، في العام ١٦٥٧م ، (أكاديميا السيمنتو) التي كان لها ، في السنوات العشر من حياتها القصيرة ، نفوذ عظيم في جميع الأوساط العلمية للعصر . وفي إنكلترا ، وقع الملك شارل الثاني ، في ١٦٦٢م ، صك تأسيس (الجمعية الملكية) في لندن ، وستلعب هذه الجمعية دوراً محركاً في تقدم العلوم والتقنيات . فقد بادرت منذ ١٦٦٥ م بطبع دورية كبيرة خاصة بأعمال العلماء وهي (محاضر فلسفية) . وفي ١٦٧٥ م أنشئ مرصد (غرينويتش) بالقرب من العاصمة الإنكليزية . وفي فرنسا كان كولبر يهتم بكل ما يمكن أن يفيد مجد الملك . فشجع في ١٦٦٥ م صدور (صحيفة العلماء) وأسس في ١٦٦٦ م أكاديميا العلوم .

وفي ١٦٦٧م ، أمر كولبر بالبدء بإنشاء مرصد باريس . وأكثر من ذلك أقنع الملك بدفع رواتب لكبار العلماء الفرنسيين والأجانب ، وحاول أن يجتذب هؤلاء إلى فرنسا ، مثل العالم الهولاندي كريستيان هويجانس الذي أقام في باريس من ١٦٦٥ م إلى ١٦٨١ م والعالم النيسي (من نيس) جان ـ دومينيك كاسّيني الذي استقر نهائياً في ١٦٧٢ م مديراً للمرصد . وأخيراً ، أسس ملك بروسيا ، فريديريك الأول ، في ١٧٠١م ، أكاديمية برلين بإيحاء من العالم لايبنتز .

وهكذا ، نرى أن السلطات دعمت العلماء دعماً نـافـذاً ، وفي ذلـك عبرت عن عاطفة عامة . ففي كل بلاد أوربـة ، فتح العلم قليلاً قليلاً ، منـذ سنوات ١٦٤٠ ـ ١٦٦٠م ، قطاعاً عريضاً في الرأي العام ، كما يشهد بـذلـك النجـاح المـدوي الـذي حصل عليه ، في ١٦٨٦م ، الفرنسي (فونتونيل) في كتابه المبسـط (أحـاديث في تعدد العوالم) وأصبح الكلام في العلوم لغة الصالونات : في باريس ، عند المركيزة دو (سابليه) ؛ أو في آخر عهد لويس الرابع عشر في مـدينـة (سو) بـالقرب من باريس ، عند دوقة مين . ومن ثمّ عظم رواج أمـاكن الفيزيـاء والشؤون التي تثير الفضول وحب الإطلاع .

لقـد كانت السلطـات تعـاضـد العلمــاء . واهتمام الجمهـور يـدعمهم ، وكانـوا يتراسلون فيما بينهم ، من فوق الحدود ، منذ أن حلت ، في هـذه المراكز الكبرى : إيطاليا ، هولندا ، فرنسا ، إنكلترا ، اللغة الفرنسية والإنكليزية شيئـاً فشيئـاً محل اللاتينية في مبـادلات ومنشورات العـالم العلمي . وأخيراً ، في آخر القرن ، وهبت عبقرية نيوتن العلم تركيباً واسعاً دخل فيه كل التقدم العلمي اللاحق .

نيوتن

كان إسحـاق نيـوتن (١٦٤٢ ـ ١٧٢٧ م) تلميـذاً قـديمـاً في كمبردج ، وعـاد إليها ، في ١٦٦٧ م ، أستـاذاً للريـاضيـات في كليـة الثـالوث ، بعـد أن قضى ، في قريته التي ولـد فيهـا في لينكولنشـاير ، سنتين مثمرتين جـداً (١٦٦٥ ـ ١٦٦٦ م) قـام فيهما بـاكتشـافـاتـه الأسـاسيـة في الريـاضيــات وفي الفلــك وفي الميكانيـك والبصريـات . ولكنـه لم ينشر إلا في تموز ١٦٨٧ م : الفلسفـة الطبيعيـة والمبادئ الريـاضية ، وعرض فيها نظريته في الجذب العام .

إن أول فضل لنيوتن هو أنه صنع الآلة الضرورية لتقدم علمي جديـد ، وهو حسـاب الـلانهـايـات ، فقـد سبـق لكبلر ، وديكارت ، وبـاسكال أن أدخلـوا في الهندسة والرياضيات فكرة الكميات الصغيرة وبصورة لا متناهية والكبيرة بصورة

لا متناهية ، وفكرة الحركة (وهكذا تكون الدائرة مؤلفة من عدد لا نهاية له من المثلثات التي يكون رأس كل منها في المركز ، وقاعدته في محيط الدائرة) . وتجاوز نيوتن هذه المعطيات وصاغ في ١٦٦٥ ـ ١٦٦٦ م قواعد حساب المتغيرات الذي يعتبر كل زيادة لمتغيرة متولدة عن حركة دائمة دون انقطاع ومتجددة باستمرار . واستوحى ، لايبنتز ، من جهته ، من الطريقة اللامتناهية نفسها وانتهى نحو ١٦٧٤ ـ ١٦٧٧ م إلى نفس النتائج . وهكذا نشأ (**حساب التفاضل والتكامل**) .

وهكذا استطاع نيوتن أن يأتي بحل لمسألة حركة النجوم التي وضعها غاليليه ولم يحلها . وفي ١٦٦٥ ـ ١٦٦٦ م كانت عنده الفكرة الأولى للجذب . ثم أتت حسابات جديدة وأبحاث جديدة ، ولاسيا في انتشار الضوء ، تؤكد نتائجه الأولى ، وقرر أن يكتب وينشر مبادئه الرياضية (١٦٨٧ م) . ووضح فيها ، كفرضية رياضية ، قانون الجذب العام : وهو أن الأجسام تتجاذب طردياً مع كتلتها وعكسياً مع مربع مسافاتها . وبفضل هذا القانون ، وضح نيوتن الحركات الأهليلجية للكواكب ، وتفاصيل حركة القمر ، وأصل المد والجزر ، ومسألة الجسمين . وفي الوقت نفسه أوضح مبدأ العطالة الذي افترضه ، من قبل ، غاليليه بتجاربه : وهو أن كل جسم يبقى في حالة راحة أو حركة مستقيمة منتظمة ما لم يؤثر عليه عامل خارجي يضطره لتغيير حاله .

وهكذا ، فإن منظومة العالم الأرسطا طاليسي القائمة على مركزية الأرض ، وثنائية العالم الطبيعي (الأجسام الأرضية القابلة للفساد والمشكلة من أربعة عناصر ؛ والأجرام السماوية غير القابلة للفساد) ونظرية الحركات الطبيعية ، قد عارضها نيوتن بصورة نهائية ، على هامش مركزية الشمس التي افترضها كوبرنيك وبرهن عليها غاليليه ، بالوحدة الأساسية للعالم الطبيعي وبمبدأ العطالة .

أما المبادئ الرياضية فهي في الوقت نفسه درس كبير في الطريقة العلمية .

وقد برهن نيوتن فيها على الحذر الكبير حيال النظريـات التي لا يبررهـا اختبـار الوقائع ، وخول الملاحظة والتجربة أهمية لم يعترف بها ديكارت غالباً ؛ بـاعتبـاره كان مـأخوذاً بهواه العـاقل والريـاضي . وفضـل مسعىً علميـاً يتحلـل إلى مراحـل متتابعة : ملاحظة الحادث . التفسير بالعقل ، وضع صيغة بقانون رياضي ، وعلى وجـه الاحتمال التحقيق بـالتجربـة . ودفعـه خـوفـه من النظريـات والفرضيـات الخطرة إلى الصعود مبـاشرة إلى السبب الأول لإيضـاح الجـذب العـام . وفي ذلـك يقول :

« إن النظام ، الذي يسود الأشياء المادية ، يـدل بمـا يكفي على أنها خلقت بإرادة مفعمـة بـالعقل . وحَسُنَ للـذي خلق أن ينظم . ومنـذ ذلـك الحين ، من المخالف لكل فلسفـة صـالحـة للبحث عن أصل آخر للعـالم غير الأصل المشـار إليـه هنا ، والزعم بأنـه كان من الممكن أن يتخلص من الاضطراب بـالقوانين البسيطـة للطبيعـة ، ومـا أن يتشكل يستمر في الوجود طـوال قرون بموجب هـذه القـوانين نفسها » .

إن مجد نيوتن ، رئيس **الجمعية الملكية** انطلاقاً من ١٧٠٣ م ، وعضو البرلمـان من ١٦٨٨ م إلى ١٧٠٥ م ، سطع بسرعة جداً لدى أبناء وطنه . فقد أحاطوه عنـد وفاته ، في ١٧٢٧ م ، بشرف دفنه في كنيسة وستمنستر بلندن . ولكن هذه الحـالـة لم تكن في البدء ، في باقي العالَم العالِم . فقـد اصطـدمت النيوتونيـة ، في الواقع . على القارة بمقاومـات عـديـدة . فمن ذلـك أن الجـذب ـ أي التـأثير عن مسـافـة ـ بالنسبة إلى هويجانس ولايبنتز وآخرين . يـذكر بشكل محزن بـالصفـات الغيبيـة العزيزة على فيزيـاء أرسطو . ومن جهـة أخرى ، إن منظومـة نيـوتن تـذهب إلى ما يعـاكس الميكانيكيـة الـديكارتيـة التي تنكر وجود الفراغ وتوضح كل حـادث طبيعي بـ (زوابع) تنشـأ من تـأثير متبـادل بين عنصرين أسـاسيين ، المسـافـة والحركة . ومع ذلك ، فإن اكتشافـات آخر القرن وبـدايـة القرن التـالي هـاجمت

بشدة فيزياء ديكارت وأيدت التركيب العظيم لإسحاق من نيوتن ، وهو الإطار الواضح والرياضي للعلم الحديث كله حتى أينشتاين .

التقدم العلمي

في الرياضيات ، نجد أن كريستيان هو يجانس (١٦٢٩ ـ ١٦٩٥م) ، أحد كبار علماء القرن السابع عشر ، الرياضي ، والفلكي ، والفيزيائي معاً ، ألف أول كتاب كامل في حساب الاحتمالات ، عام ١٦٥٧م . وحساب اللانهايات ، الذي وضع أسسه معاً نيوتن ولايبنتز ، نما واتضح على يد جاك **برنوللي** (١٦٥٤ ـ ١٧٠٥م) وأخيه جان (١٦٦٧ ـ ١٧٤٨م) ، وينتميان إلى أسرة أنفرسية (من مدينة أنفرس) لجأت في بال (بازيل) ، وهما الأولان في سلالة كبار الرياضيين . فقد نشر جاك أول تكامل لمعادلة تفاضلية (١٦٩١م) وشق الطريق لحساب المتغيرات .

في الفلك ، درس هو يجانس حلقة **زحل** ، ودوران المريخ وسديم (**الجوزاء**) . ولاحظ الإنكليزي **أدموند (هولي)** (١٦٥٦ ـ ١٧٤٢م) في ١٦٨٢ م النيزك الذي ارتبط اسمه به ، وحسب مداره الاهليلجي وبشر بعودته في ١٧٥٨ م أو ١٧٥٩م . واكتشف جان ـ دومينيك كاسّيني (١٦٢٥ ـ ١٧١٢م) تابعين لزحل ونشر مذكرات عديدة عن الزهرة ، والمريخ ، والمشتري . وساعد قياس قوس خط الطول ، بين آميان وباريس ، العالم الفرنسي جان بيكار (١٦٢٠ ـ ١٦٨٢م) على تعيين قيمة صحيحة جداً لنصف قطر الأرض ، في ١٦٧٠م ، ولكن الأساسي هنا ، هو أثر نيوتن المؤسس الحقيقي لعلم الفلك الحديث .

وبين **الحوادث الفيزيائية** ، درس النور (الضوء) أكثر من غيره . وفي ١٦٧٥م ، كان العالم الدانياركي رومر (١٦٤٤ ـ ١٧١٠م) في باريس ، وعين سرعة النور بملاحظة كسوف توابع المشتري . ولكن طبيعة النور قسمت العلماء : يرى هو يجانس في كتابه : (كتاب النور) ١٦٩٠م ، أن النور حادث متموج ، كما يرى

ذلك الإنكليزي روبرت **هوك** (١٦٣٥ ـ ١٧٠٣م) ، بينما نيوتن يقول بأنه بثّ جزيئات ضوئية . وفي الميكانيك ، اكتشف هويجانس القوة المنبعثة عن المركز ، وتنبأ بمبدأ العطالة الذي عبر عنه نيوتن بعد ذلك بقليل .

وفي **الكيمياء** ، وضع الأيرلندي روبرت **بويل** (١٦٢٧ ـ ١٦٩١م) ، طليعة الكيمياء الحديثة ، في ١٦٦٢م ، قبل الفرنسي إيدم ماريوط (١٦٢٠ ـ ١٦٨٤م) ، قانون ضغط الغاز ، وفيه يقول إن حجم الكتلة الغازية ، في حرارة ثابتة . متناسب عكساً مع ضغطها . أما الفرنسي **دوني بابن** (١٦٤٧ ـ ١٧١٤م) ، الذي كان بعض الوقت معاوناً لبويل ، فقد وضح (مرجله) ، جَدّ الآلة البخارية ، ولكنه لم ينجح في إعطائه قيمة علمية . وفي (١٦٦١م) برهن بويل على عدم جدوى النظرية الأرسطاطاليسية في العناصر ، وأظهر لأول مرة المفهوم الحديث للعنصر الكيميائي ؛ وفي ١٦٧٢م ، برهن على أن الهواء ضروري للتنفس وللاحتراق . وقد درس هذا الحادث الأخير الألماني جورج ـ أرنست شتال (١٦٦٠ ـ ١٧٣٧م) الذي وسع في ١٦٩٧ م نظرية في (الفلوجستيك) أي السائل الذي تصوره قدامى الكيميائيين لإيضاح الاحتراق ، وهي : أن المعادن ، والفحم ، وكل الأجسام القابلة للاحتراق ، مثقلة بسائل لا يمكن الإمساك به وهو (الفلوجستيك) . والجسم يحترق لأن الفلوجستيك يتصاعد منه . وهكذا ، إذا سخن الأوكسيد مع الفحم انتقل إلى حالة المعدن لأن الفحم باحتراقه يتخلى عن فلوجستيكه الذي يستحوذ عليه الأوكسيد . وهذه النظرية التي تجعل من الأوكسيد جسماً بسيطاً مخالفة للواقع دون أن تبتعد عنه كثيراً مع ذلك ؛ وخطأ شتال يتأتى عن أنه اهتم بخاصة بتغيرات شكل الأجسام المحترقة ، لا بتغيرات الثقل ، ولو استخدم الميزان ، لتأكد بأن الأوكسيد ينقص من وزنه عوضاً عن أن يكسب وزناً ، وأن المعدن ، في التجربة المعاكسة ، يكسب عوضاً عن أن يخسر . إن الكيمياء الحديثة الكمية ـ وليست فقط الكيفية ـ لم تولد بعد . ولكن الذي

يبقى على الأقل هو أن تقدماً لا يمكن نكرانه قد تحقق في إيضاح الحوادث الكيميائية وهيأ على هذا النحو عمل لافوازيه في القرن التالي .

علوم الحياة

وتقدمت علوم الحياة أيضاً . بالرغم من الإفراط بروح المنهج المنظم . فقد كان الإنكليزي جون ري (١٦٢٧ ـ ١٧٠٥م) من أوائل من أعطوا تصنيفاً للحيوانات مؤسساً على تعريف واضح للنوع (١٦٨٦م) . وبعد قليل من الزمن ، اقترح الفرنسي جوزيف دو تورنوفور (١٦٥٦ ـ ١٧٠٨م) ، في ١٦٩٤ م تصنيفاً نباتياً قائماً أيضاً على الجنس والنوع . وفي علم الحيوان ، درس الهولاندي جان سوامردام (١٦٣٧ ـ ١٦٨٠م) تشريح وبيولوجيا الحشرات ، وحاول أن يوضح تحولاتها . وفي التشريح البشري ، ساعد إيضاح الجاهرة الإيطالي مارسيللو مالبيغي (١٦٢٨ ـ ١٦٩٤م) على دراسة الأنسجة الحية ، والهولاندي أنطوان فان لوفنهوك (١٦٣٢ ـ ١٧٢٣م) ، في سنة ١٦٧٧ م على اكتشاف الحوينات المنوية . وفي ١٦٨٨م ، الكريوات الدموية . وبدأت قضية التوالد تجعل العلماء يعارض بعضهم بعضاً ، بين قائلين بفعل البيضة ، وقائلين بفعل الحوينات المنوية . فبالنسبة للأوائل يتشكل الجنين مسبقاً في البيضة . وبالنسبة للآخرين يكون الجنين في الحوينات المنوية .

أما الطب ، فقد بقي بشكل واسع عاجزاً بالرغم من ظهور أدوية جديدة كالإثمد ، والكينا والأيبيكاكوانا (ألايبيكا) . وهذه جذور مقيئة من شجرة في البرازيل من الفصيلة الفوية . وكان في الغالب عبداً للنظريات والتقليد ، والتعليم الطبي في الغالب مصاباً بالتصلب ، ولاسيا في فرنسا ، باستثناء هولاندا . وظل أرسطو وهيبو قراط وجالينوس سلطات ترفض باسمها أوساط طبية عديدة كل الاكتشافات الحديثة .

ومع ذلك ، فإن بعض الأطباء ، مثل الإنكليزي توماس سايدنهام (١٦٢٤ ـ ١٦٨٩م) أو الهولاندي هرمان بورهاف (١٦٦٨ ـ ١٧٣٨م) ظهروا أطباء واعين . فقد كان بورهاف يتمتع بشهرة واسعة في كل أوربة . وقد قال : « إن غاية الطب هي العناية بالمريض ؛ وعلى النظرية أن تنحني أمام سرير المريض » .

وهذا المبدأ الغني بالمستقبل سيساعد في آخر القرن الثامن عشر على ولادة حقيقية لطب عيادي (أكلينكي) .

أزمة الوجدان الأوربي

إنطلاقاً من ١٦٨٠ م تقريباً ، وتحت تأثير الديكارتية ، توصلت بعض الأفكار إلى أن تطرح على بساط البحث ، باسم العقل ، مبدأ السلطة ، أساس النظام القائم كله . وهذه الأزمة في الوجدان الأوربي كانت مقدمة لحركة فلسفية في القرن الثامن عشر .

أصول الأزمة

على الرغم من أن ديكارت كان مؤمناً مخلصاً ومقتنعاً بأن فلسفته تتفق مع مسلمات الوحي وتعاليم الكنيسة ، فإن معارضة الأوساط الكنسية التقليدية للأفكار الديكارتية نشبت غداة وفاة الفيلسوف في ١٦٥٠م . فمن ذلك أن جامعات عديدة شهرت ، من أجل الإيمان ، بخطر الشك الأصولي والعقلانية الديكارتية . حتى إن اليسوعيين أنفسهم ، بتعلقهم بالقديس توماس وبأرسطو ، هاجموا بدورهم أولاً سراً ، ثم علناً أفكار تلميذهم السابق في لا فليش . وشجبته جامعة لوفن في ١٦٦٢م ، ثم السوربون في ١٦٦٩ ـ ١٦٧٢م ، ووضع اسمه على القائمة السوداء في ١٦٦٣م . ومنع لويس الرابع عشر تعليم الديكارتية في الجامعات الفرنسية مراراً ، انطلاقاً من ١٦٦٧م . واضطر الأوراتوريون وبعض الجمعيات الدينية التي تعلمها إلى الخضوع ، ولا يخلو الأمر من همس ودمدمة ، في ١٦٧٥ ـ

١٦٧٨ م . وفي الواقع ، لم يكن هذا الكفاح ، في ذلك التاريخ ، غير كفاح مؤخرة : فبالرغم من الشجب ، انتشرت الديكارتية أو : (الكارتيزية) في كل مكان ؛ ونشرت آثار الفيلسوف ، وقرئت وحتى علمت في كل أوربة وفي كل الأوساط ، في فرنسا ، كما في ألمانيا ، وفي إنكلترا كما في هولاندا . وفي إيطاليا كما في جونيف . وإن ما كان يصفق له تحت اسم الكارتيزية إنما هو الدرس الكبير في **العقلانية** ، وبدرجة أقل **الميكانيكية** المفهومة كثيراً أو قليلاً وتجاوزها العلم بعد ذلك . وميكانيكية ديكارت هذه هي نظرية ترد الحياة إلى مجموعة أعضاء تعمل كالآلة . وبعقلانية ديكارت هذه كان كل كبار مفكري النصف الثاني من القرن السابع عشر والقرن الذي يليه تلاميذ مباشرين كثيراً أو قليلاً لديكارت .

ومن جهة أخرى ، إن تقدم العلم كشف بفضل المنظار والجاهرة (المجالات اللا متناهية) والصغيرة بصورة لا متناهية ، وقصص العديد من الرحالة في البلاد البعيدة : فارس ، الهند ، الصين ، أمريكا ، التي تباهي وتفاخر بقيم حضارات تختلف تماماً عن حضارة أوربة المسيحية ، والبقية الباقية السرية في إنكلترا وفرنسا من تقاليد الخلعاء صنيعة الشك شجعت عند بعض الأفكار اطراحاً صريحاً كثيراً أو قليلاً لمبدأ السلطة واحترام التقليد ، وطرحت على بساط البحث ، وعلى ضوء العقل ، الأفكار الدينية أو السياسية ، والاجتماعية وحتى البديعية الجمالية .

نقد العقائد التقليدية

في رسالة كتبت في ٢١ أيار ١٦٨٧ م إلى مركيز اللّمانس ، تلميذ مالبرانش (١٦٣٨ ـ ١٧١٥ م) الأوراتوري وفيلسوف ما وراء الطبيعة الناجمة عن الكارتيزيانية ، شهّر بوسويه بهذه العبارات الخطر الذي يمكن أن تسببه الكارتيزيانية للكنيسة : « أرى كفاحاً عظيماً يعبأ ضد الكنيسة ، تحت اسم الفلسفة الكارتيزية ، وأرى في داخلها وفي مبادئها التي أسيء فهمها في رأيي ، نشأة

أكثر من هرطقة ، وأتوقع أن النتائج التي يمكن استخلاصها من ذلك ضد العقائد التي تمسك بها آباؤنا ، ستجعلها قبيحة وتضيع على الكنيسة كل الثمرة التي يمكن أن تأمل بها لتضع في فكر الفلاسفة ألوهية الروح وخلودها . ومن هذه المبادئ التي أسيء فهمها ، يجتاح الأفكار بصورة محسوسة محذور فظيع آخر ، وهو تحت حجة أنه يجب ألا يقبل إلا ما يفهم بوضوح ، وأن ما يؤدي إلى بعض الحدود هو حقيقي جداً ، وأن يعطي كل واحد لنفسه حرية قول : « أفهم هذا ولا أفهم ذاك » ، وعلى هذا الأساس وحده يقبل أو يطرح كل ما يراد . ويدخل تحت هذه الحجة حرية حكم تعرض بتهور كل ما يفكر به دون اعتبار للتقاليد » .

وكان الأوراتوري الفرنسي نيقولا مالبرانش (١٦٣٨ - ١٧١٥ م) تلميذاً مباشراً لديكارت . وفي كتابه « البحث عن الحقيقة » (١٦٧٤ م) ، وفي « تأملات مسيحية » (١٦٨٣ م) ، حاول أن يوفق بين الفيزياء الكارتيزية وما وراء الطبيعة الأوغسطينية . وإذا كان اهتمام ديكارت سيطرة الإنسان على الطبيعة ، فقد كان اهتمام مالبرانش دمج الطبيعة بالله . ولكن خصومه مثل آرنود وبوسويه ، يأخذون عليه جرأته في التفكير ، ويتهمون مفهومه لإله محايث ، موجود في كل مكان ، وخاضع للنظام العام بوحدة الوجود ، أي أن الله والكون شيء واحد .

وأرهب من ذلك بشكل آخر ظهرت رسالة سبينوزا . وينتمي باروخ سبينوزا (١٦٣٢ - ١٦٧٧ م) إلى أسرة يهودية غنية برتغالية لاجئة في أمستردام . وبعد دراسات لامعة في المدرسة اليهودية في المدينة ، اتخذ موقفاً اعتبر حراً كثيراً حيال الممارسات الدينية والتأثير الذي مارسه على عدد من أبناء دينه ، واستحق لذلك الطرد من الكنيسة في ١٦٥٦ م . وعندئذ أمّ الأوساط المسيحية ، وقرأ ديكارت ، وكسب رزقه بفضل أعمال البصريات ، وكرس أوقات فراغه للتأمل .

وفي ١٦٧٠ م ، نشر كتابه (الكتاب اللاهوتي ـ السياسي) . وقد كتبه للدفاع عن السلطة المهددة لصديقه وحاميه (جان ويت) وكانت لهذا الكتاب أهمية تجاوزت بصورة فريدة الظروف التي ولدته وأمنت له شهرة كبيرة في أوربة كلها . ولكن أثره العظيم كان (الأخلاق) الذي لم ينشر إلا غداة وفاته في ١٦٧٧ م . لقد كان سبينوزا عقلانياً ، وبرهن على أن الأديان الموحى بها والعقائد التقليدية وسائل بسيطة لاستبداد الملوك ، وعاجزة عن حل قضية الله والروح . ولكن العقل والتفكير الشخصي يساعدان على الوصول إلى معرفة الله وبالتالي إلى الخلاص . وهو يرى في العالم وفي الكائنات التي تؤلفه تعبيراً للجوهر الإلّهي . فاتهم بوحدة الوجود . ومن جهة أخرى ، تكمن أصالة سبينوزا بالأسلوب (الهندسي) الذي يستعمله للبرهنة على أفكاره : فهو يريد في الواقع أن يطبق على الفلسفة الطريقة الرياضية ، وهذا ما أعطى لعروضه ضبطاً لا يخطىء .

وابتداءً من سنوات ١٦٨٠ م أثار (العقلانيون) كما يسميهم بيير بايل الكفاح ضد (الدينيين) . وأتت الضربات القاسية المسددة للدين من هولاندا ، التي كانت ملجأً لجميع الأفكار الحرة ، ومنها انطلقت سراً الكتب والصحف نحو البلاد المجاورة . وكتب بوسويه في هذا الشأن ، في ١٦٩٣ م ما يلي :

« منذ زمن قليل جاءنا من هولاندا كتاب يسمى : (تاريخ نقدي لكبار مفسري العهد الجديد) لمؤلفه ريشار سيمون ، الكاهن ، وهو أحد الكتب التي لم تستطع أن تجد محبذاً لها في الكنيسة الكاثوليكية ، ولا بالتالي السماح لطبعها بيننا ، ولم تستطع أن تظهر إلا في بلد يسمح به بكل شيء ، وبين أعداء الإيمان . ومع ذلك ، وبالرغم من حكمة ويقظة القاضي ، فإن هذه الكتب نفذت قليلاً قليلاً ، وانتشرت وتبودلت . والمغري بقراءتها أنه يبحث عنها ، وأنها نادرة ، وأنها تثير الفضول : وبكلمة انها ممنوعة » .

وهذا الكتاب الذي لمح إليه بوسويه لم يكن الكتاب الأول للأوراتوري

الفرنسي ريشار سيمون (١٦٣٨ - ١٧١٢ م) . فكتابه (تاريخ نقدي للعهد القديم) الذي صدر في ١٦٧٨ م يضع تفسيراً للكتاب المقدس . وفي الوقت نفسه دشن بندكتيو (القديس - مور) ، ولاسيا دوم مابيّون (١٦٣٢ - ١٧٠٧ م) ، أعمالهم في الفقه والنقد وطهروا حياة القديسين من الأساطير والخرافات التي تثقلهم وأسسوا التاريخ الكنسي على أسس علمية صلبة . ولكن ريشار سيمون هاجم الكتاب المقدس ، الكتاب الموحى ، وديعة كلام الله ، ودرسه كفقيه باللغة ، كأي وثيقة تاريخية ، وبصورة مستقلة عن كل لاهوت وكل عقيدة . وهذا الكتاب والكتب التالية التي تشهر ببعض التحريفات لمختلف نصوص الكتاب المقدس وتشكك ببعض الأسفار المنسوبة إلى موسى ، أثارت ردود فعل عنيفة عند الكاثوليك والبروتستانت . فمن ذلك شجب بوسويه إذ يقول :

« فليعرض ما شاء علمه العابث ، وليقيم نقده ، فلن يعذر أبداً . ولن أقول بأنه جهل ، مع كل لغته الأغريقية ولغته العبرية ، عناصر اللاهوت ، وإنما أقول بأنه قلب أسس الإيمان ، وبوصفه كاهناً ، صنع شخص عدو الكنيسة » .

وطرد سيمون من الأوراتوار ، ووضعت كتبه على القائمة السوداء واعتزل في مصح في نورماندیا ، وظل مؤمناً بالكنيسة مع متابعة أثره في تفسير الكتاب المقدس .

وخطرة أيضاً تلك الهجومات التي دبرت ضد المعجزات . وكان النيزك ، الذي درسه (هالليه) في ١٦٨٢م ، مناسبة لـ (بيير بايل) (١٦٤٧ - ١٧٠٦م) البروتستانتي الفرنسي اللاجئ في هولندا ، أن ينشر في ١٦٨٣ م أفكاره ، بمناسبة النيزك ، وأتبعها بملحق في ١٦٩٤م . وسخر بالاعتقاد الذي تكون النيازك بموجبه فأل نوائب ومصائب ، ثم ارتفع بالنقاش ، وتوصل إلى نكران كل قيمة للقبول العام ، والتقليد ، والمعجزة ، والفوق طبيعي - ثم إن (تاريخ هواتف الغيب) الذي كتبه فونتونيل (١٦٥٧ - ١٧٥٧م) في ١٦٨٦م ، أدى تقريباً إلى نفس

النتائج . وفي ١٦٩٥ ـ ١٦٩٧م ، يرى أن بايل ، الذي يدير منذ ١٦٨٣ م صحيفة (قزيطة) ذات إشعاع أوربي واسمها (أخبار جمهورية الآداب) ، نشر مجلدي (قاموسه التاريخي والنقدي) ، وكان من أهم مؤلفات القرن السابع عشر . لقد كان فقيهاً شغفاً بالدقة والضبط ، وأراد تقويم أخطاء الواقع وما حذفته القواميس الأخرى ، وبخاصة قاموس موريري (١٦٧٤م) . وعليه فالكتاب لم يتصور في انطلاقه بأنه أثر كفاح ، ولكنه أصبح كذلك : لأن بايل ، في الواقع ، شهر بأخطاء وتزييفات التقليد (الرواية) ودافع عن العقل القادر وحده على بلوغ بعض المعرفة عن الله ، والأخلاق الطبيعية المنفصلة عن كل ما وراء الطبيعة ، والتسامح المبني على الاستحالة التي يأتي فيها اللاهوتيون بيقين مطلق . وربما بقي بايل ، من جهته ، مسيحياً حنيفاً ، ولكن كتابه ، الذي قرئ في كل أوربة أسهم ـ على الأقل ـ بزرع الشك ، وخراب العقائد ولغم الدين الموحى به .

أما المفكرون الأحرار الإنكليز مثل جون تولاند (١٦٧٠ ـ ١٧٢٢م) وأنطوني كولنز (١٦٧٦ ـ ١٧٢٩م) فقد شايعوا العقلانية والاعتقاد فقط بوجود الله وبالدين الطبيعي الذي ينفي العقائد والمعجزات والوحي .

ومن جهة جون لوك ـ (١٦٣٢ ـ ١٧٠٤م) ، إذا ظهر طوال حياته بروتستانتياً مؤمناً ومخلصاً ، فقد شجع مع ذلك ، هو أيضاً ، تقدم الاعتقاد بوجود الله **بالعقلانية وبالتجريبية** اللتين يشهد بهما كتابه : « محاولة فلسفية تهم العقل البشري » (١٦٩٠م) ، وأمام هذه الهجومات الخادعة أو غير المباشرة ، ولكنها متكاثرة ، ضد مبدأ السلطة ، حاول الوحي والعقائد الكاثوليكية والبروتستانتية أن تضع سداً منيعاً . وناضل فينيلون ، وآرنولد ، واليسوعيون وبوسويه الذي لا يكل بخاصة ، والقلم باليد . وحاول الرعاة الفرنسيون ، مثل (بيير جوريو) و (إيلي بنوا) دحض بايل . أما البروتستانتي الألماني غوتفريد ـ فيلهلم لايبنتز (١٦٤٦ ـ ١٧١٦م) أحد كبار علماء وكبار مفكري عصره ، والعقل

المحب للاطلاع العام بحق ، فقد درس مع بوسويه إمكانية اتحاد الكنائس الرومانية والمصلحة ، وعرض في « محاولات تيؤديسيه » (١٧١٠م) ، وفي كتابه « مونادولوجي » (١٧١٤م) فلسفة مثالية ومتفائلة تريد أن تكون تمجيداً للمسيحية ، وتحاول أن توفق بين وجود الشر وكرم الله ، وتطلبات العلم وتطلبات الوحي .

وفي الواقع ، نحو ١٧١٥م ، كان النضال بين (العقلانيين) و (الدينيين) محصوراً بعد : ولا يهم إلا بعض الأوساط الفكرية والكنسية ، ولا يتناول في شيء حياة الجماهير الدينية . ومع ذلك ، فقد كانت الحركة الفلسفية فيه في حالة نبتة ، وسيكون **قاموس** بايل ، بخاصة ، الترسانة التي يستقي منها كل زنادقة القرن الثامن عشر .

نقد الملكية المطلقة

إن أزمة الوجدان الأوربي لم تتحدد بواقع الدين ، بل وأدت أيضاً إلى إعادة طرح الأفكار السياسية وبخاصة الملكية المطلقة على بساط البحث .

لقد استخلص جون لوك دروس الثورة الإنكليزية (١٦٨٨ ـ ١٦٨٩م) التي أحلت في الواقع حق الأمة محل الحق الآلهي للملوك ، ووضع نظرية الحكم المدني المتجاوب مع ظروف الحياة السياسية الإنكليزية الجديدة ، التي تختلف عن الظروف التي كتب فيها مواطنه توماس هوبز (١٥٨٨ ـ ١٦٧٩م) كتابه ، ـ نظرية استبداد الدولة[1] ـ (١٦٥٥م) . وقد وسع المؤلف في هذا الكتاب مبادئه : حسية ، مادية ، نفعية ، استبداد . وفي « محاولة عن الأصل الحقيقي وامتداد ونهاية الحكم المدني » (١٦٩٠م) برهن على أن الناس في حال الطبيعة

---

(١) في الأصل : LEVIATHAN حوت أو غول في الميثولوجيا الفينيقية ، وتسمية الكتاب بهذا الاسم له دلالته .

أحرار ومتساوون فيا بينهم ويوجهون أنفسهم بالعقل ، ولكن الضرورة تجبرهم على أن يكونوا أنفسهم في مجتمع ، وهذا المجتمع ، الذي لا يمكن أن ينتج إلا عن عقد حر ، عليه أن يحترم حقوق الإنسان الطبيعية : في الحياة ، والحرية ، والملكية ، وفي ذلك كتب :

« حرية الإنسان في المجتمع هي ألا يكون خاضعاً إلا لسلطة تشريعية واحدة أقيمت بإتفاق عام في الدولة ، وألا يعترف بأي سلطة ، ولا بأي قانون خارجاً عن القوانين التي تسنها هذه السلطة . ومن الجلي ، إذن ، أن الملكية المطلقة ، التي يعتبرها البعض الحكم الوحيد في العالم ، لا تتلاءم ، في الواقع ، مع المجتمع المدني ، بل إنها لا تستطيع ، بالتالي ، أن تكون شكلاً للسلطة المدنية . ومذ يزول حكم القانون ، يبدأ الظلم ، إذا وجد طغيان على حساب الغير . ومن ثم فإن كل شخص في السلطة يسيء السلطة التي يخولها القانون ، ويستخدم القوة التي يتصرف بها ليفرض على الرعايا التزامات لا ينص عليها القانون ، لا يبقى حاكماً . وبما أنه يعمل دون سلطة . فيمكن مقاومته كما يقاوم كل إنسان يطغى بالقوة على حقوق آخر » .

وفوق ذلك ، يفضل فصل السلطتين التشريعية والتنفيذية ، وفصل الكنيسة والدولة ، وحرية الوجدان والعبادة .

وكان لأفكار لوك السياسية المستندة على المثال الإنكليزي ، صدى عظيم مدوٍ سريع .

وكان نقد الملكية المطلقة ، في ظرف آخر ، واقع بعض الأوساط الفرنسية . وإذا اكتفى لابروييير (١٦٤٥ ـ ١٦٩٦م) في مؤلفه « طبائع » (١٦٨٨م) بأن ينقد بحدة مجتمع زمانه الذي تسيطر عليه قوة المال ، وبصورة خجلى كثيراً ، بعض مظاهر الحكم المطلق (هل القطيع للراعي أو الراعي للقطيع) ؛ وإذا كان (بواغيلبر) وڤوبان لا يطالبان بإصلاحات سياسية . وإنما بإصلاح اجتماعي

عميق يقيم مساواة الجميع أمام الضريبة ، فإن بعض كبار الأمراء الملتفين في سنوات ١٦٩٠ ـ ١٧١٢ م حول دوق بورغونيا ، بوفيلليه ، شيفروز ، سان ـ سيمون ، فينيلون يشكون جزعين « حكم البورجوازية الدنيئة الطويل » (سان ـ سيمون) واستبداد الملك العجوز دون رقابة . ويحلمون بملكية تجد فيها الطبقة الأرستقراطية امتيازاتها القديمة : وذلك بأن تعدل سلطة الملك بمجالس عامة ومجالس إقليمية ، يكون فيها للنبلاء الأكثرية فيصوتون على الضرائب ويراقبون الأعمال والمصالح ؛ ومجالس مؤلفة من النبلاء تساعد الملك في ممارسة الحكم . وأن يلغى بيع الوظائف ، ويحذف النظار عملاء السلطة الملكية . وأن يكون الاقتصاد ، الذي تديره الدولة ، زراعياً بصورة أساسية . ونجد هذا البرنامج في حال نبتة أولى في (تيليماك) التي ألفها فينيلون ، في ١٦٩٩م . لتربية دوق دوبورغونيا ، ومعروضاً بصورة منظمة في (لوائح شولْنْ) التي هي خطة إصلاحات حررها ، في تشرين الثاني ١٧١١م ، شيفروز وفينيلون لتعرض على دوق بورغونيا ولي العهد الجديد . وهذا البرنامج الرجعي سيوحي ببعض الإنجازات المؤقتة للوصاية (تعدد المجالس الكنسية) ويغذي حتى آخر النظام القديم تيار معارضة أرستقراطية للملكية المطلقة .

نقد الفكر الإتباعي

إن إطراح التقليد ومبدأ السلطة ، وفي الوقت نفسه ، تطور الذوق أدت أيضاً ، في فرنسا ، إلى طرح بعض مظاهر الكلاسيكية الأدبية والفنية على بساط البحث من جديد .

أولاً : صراع القدامى والمحدثين . وهذا الصراع ، في هذا الاعتبار ، له معنى ومغزى . ففي ١٦٨٧م ، أكد (شارل برّو) في قصيدة تلاها في الأكاديميا بعنوان (عصر لويس العظيم) ، أن شعراء القرن السابع عشر أعلى من الشعراء القدامى . وفي السنة التالية ، شجب (فونتنيل) في (استطراده على القدامى والمحدثين)

سلطة الأوائل باسم العقل الكارتيزي بقوله :

« لقد اخترع القدامى كل شيء . وفي هذه النقطة ظفر أنصارهم . وعليه فقد كان عندهم من العقل أكثر مما عندنا . لا شيء من هذا البتة : وإنما كانوا قبلنا . وبودي أن يباهى بهم بأنهم أوائل من شربوا ماء أنهارنا ، وأن نشتم لأننا لا نشرب إلا سؤرهم . ولو وضعونا محلهم لاخترعنا . فلا شيء يؤخر كثيراً تقدم الأشياء ، ولا شيء يحد كثيراً العقول إلا الإعجاب المفرط بالقدامى . ونظراً للتفاني التام لسلطة أرسطو ، وعدم البحث عن الحقيقة إلا في كتاباته الغامضة دون البحث أبداً في الطبيعة ، لم تتقدم الفلسفة بأي شكل من الأشكال فحسب ، وإنما سقطت في هوة اضطراب وأفكار غير مفهومة . ومن هنا كان كل عناء العالم لإنقاذها » .

احتج بوالو مباشرة وذكر بالأغراض الكبرى للمثل الأعلى الكلاسيكي . وقال لافونتين وراسين كل ما يدينان به للقدامى . وفي ١٧١٣م ، عادت القضية فقفزت بمناسبة هوميروس ، وفي ١٧١٤م ، حاول فينيلون بمهارة وصفاء أن يوفق بين المعسكرين في (رسالته إلى الأكاديميا) . ومهما بدا النزاع مسكيناً وأسيء وضعه من عدة اعتبارات ، إلا أنه يبقى مهماً : لأنه يطبع نهاية التوازن الكلاسيكي ويبشر بالقرن الثامن عشر .

وعلى **الصعيد الفني** ، يرى أن الوصاية الوثيقة ، التي مارسها في فرنسا لويس الرابع عشر وكولبر ، ولوبرن ، والأكاديميات ، قد تراخت قليلاً بعد وفاة لوبرن في ١٦٩٠م . ومنذ الآن يرى أن المدينة تصنع الذوق أكثر من البلاط : فقد نقصت الطلبات الرسمية لصالح طلبات كبار البورجوازيين ، والماليين المثرين وبعض النبلاء . وإلى جانب الفن الرسمي العظيم ، ظهر فن أبسط يريد أن يكون قبل كل شيء فن حرية ولذة ومسرة . وما سيسمى فيما بعد (الذوق الحديث) هو محسوس بخاصة في التزيين . وكانت قابلة (كنيسة) قصر فرساي أول بناء كبير ظهر فيه هذا العود الهجومي للرشاقة ، والهوى الفاتن ، بانتظار

الظاهرات الأولى للأسلوب الحجري المستوحى من الخطوط المستديرة لبعض الأحجار المثقوبة والمرجانية والمحار ، الذي تفتح وانتشر في فرنسا في عهد لويس الخامس عشر ، في القرن الثامن عشر .

وفي الرسم نجد أمام البوسّانيين ، تلاميذ بوسّانْ ، الرسام الكلاسيكي الكبير ، والمتعلقين بتفوق الرسم ، أن الروبانسيين يفاخرون بزعيم صف الرسم الباروك ويصرون على أهمية اللون . وإذا لم يكن المنافس الكبير للرسام لوبرن ، وهو بيير مينيار (١٦١٢ ـ ١٦٩٥م) الذي خلفه رساماً للملك في ١٦٩٠م ، غير مزين تافه ، فإن نيقولا دو لارجيليير (١٦٥٦ ـ ١٧٤٦م) وهياسنت ريغو (١٦٥٩ ـ ١٧٤٣م) ظهرا ملونين عظيمين . أما أنطوان (واتو) ـ (١٦٨٤ ـ ١٧٢١م) المعجب بروبانس والبنادقة ، فقد رسم (الأعياد العذبة) الأولى ، التي ينتمي فيها الشعر والكياسة الكئيبة إلى عالم مغاير تماماً لعالم أكاديمية لويس الرابع عشر ولوبرن . ومع ذلك ، ففي أوربة الوسطى والجنوبية ، بدأ تطور الباروك نحو وفرة وحيوية (الروكوكو) يختلط بتأثير العمارة الكلاسيكية الكبرى في باريس وفرساي . وأسلوب الروكوكو هو نوع من الأسلوب الحجري الثقيل الذي انتشر في القرن الثامن عشر في أوربة ، ولا سيا في ألمانيا .

وهكذا ، نحو ١٧١٥م ، في فرنسا ، كما في جزء من أوربة ، ارتسم هذا التركيب من الكلاسيكية المعمارية والباروك التزييني الذي يميز الفن الأوربي في النصف الأول من القرن الثامن عشر .

مسرد الأعلام

ب

ت

ج

ح

خ

د

ر

ز

س

ش

ص

ع

غ

ف

ق

ك

ل

ن

و

ي

مسرد الأماكن

ب

ت

ز

س

ش

ق

م

ن

هـ

و

ي

(ح)

(غ)

مسرد المعاهدات

(ص)

(م)

(هـ)

مسرد الكتب والمراجع

ARGAN (Giulio Carlo)

L'Europe des Capitales, 1600 - 1700, Paris, Albert Sikra (Arts, Idées, Histoire), 1964, 222 p.

BRAUDEL (Fernand)

Civilisation matérielle et capitalisme (XV - XVIII siècles, T.1. Paris, A. Colin « Destins du monde », 1967, 464 p.

CARSTEN (F.-L)

(Sous la direction de), The Ascendancy of France, 1648 - 1688, Cambridge, University Press (The New Cambridge modern history, Vol.V), 1961, 630 p. (VoL. IV et VI

CHAUNU (Pierre)

La civilisation de l'Europe classique, Paris, Arthau (Les grandes civilisations » dirigée par. R. Bloch), 1966, 705 p.

DAUMAS (Maurice)

(Sous la direction de), Histoire générale des techiques .T. II : Les premières étapes du machinisme Paris, P.U.F., 1965, 750 p.

GRANT, A.J

A history of Europe (1494 - 1610) (history of Europe v), methuen and co Ltd, London, 1964 .

GROUSSET (René) et LEONARD (Emile - G.)

(sous la direction de), Histoire universelle, T III : De la réforme à nos jours, Paris, N.R.F. (Encyclopédie de la pléiade), 1958, 2 306 p.

HAUSER (Henri)

La prépondérance espagnole, 1559 - 1660, Paris, P.O.F. (peuples et civilisations), histoire générale publiée sous la direction de Louis Halphen et Philippe Sagnac, T. IX), 3 ed. 1946, 655 p.

HUYGHE (René)

(sous la direçtion de), l'art et l'homme, T. III, Paris, Larousse, 1961, 511 .

LAVEDAN (Pierre)

Histoire de l'art. Tome II : Moyen age et temps modernes, Paris, PUF (Clio), 2ed., 1950- XI 583 p.

LEBRUN (François)

Le XVII Siècle, Armand Colin, Paris 1967 (collection U).

LIVET (Georges)

La guerre de trente ans , P.U.F (« Que Sais-je »), PARIS, 1972

MALAND (David)

Europe in seventeenth century , Macmillan , St martin's Press New York ress New York 1966

MOUSNIER (Roland)

Les XVI et XVII siècles , Paris , P.U.F. (Histoire générale des civilisations , pupliée sous la direction de M. Grousset , T. IV) , 4e éd. , 1965 , 686 P.

OGG (David)

Europe in the seventeenth century , Adam and Charles Black , London 1954

PRECLIN , Edmond et Tapié (Victor - L.)

Le XVII Siècle . Monarchies centralisées , 1610 - 1715 , P.U.F. (« Clio ») , 2e éd. , 1949 L II - 813 p.

REDDAWAY (W.F.)

A history of Europe (1610 - 1715) (« History of Europe VI »), Methuen and co LTD , London1967

REINHARD (Marcel) et ARMANGAU (André)

Histoire générale de la population mondiale , Paris , editions monchrestin , 1961 , V - 597 p.

SAGNAC (Philippe) et Saint - Léger (A. De)

Louis XIV , 1661 - 1715 , Paris , P.U.F. (Peuples et civilisations) ..., T. X , 3ed. 1949 , 701 p.

TAPIE (Victor - L.)

La guerre de trente ans , C.D.U. Paris 1966

TATON (René)

(Sous la direction de) , Histoire générale des sciences T.II : La science moderne de 1450 à 1800 , Paris , P.U.F. , 1958 , 800 p.

ZELLER (Gaston)

Les Temps modernes

I. De Christophe colombe a cromwell;

II de Louis XIV a 1789 , Paris , hachette (Histoire des relations internationales) publiée sous la direction de P. Renouvin, Tomes II et III , 1953 -1955 , 327 et 377 p.

الفهرس

المقدمة

أوربة والعالم في فاتحة القرن السابع عشر

أوربة

القسم الأول

السياسة الأوربية في النصف الأول من القرن السابع عشر

الفصل الأول

حرب الثلاثين عاماً

١٦١٨ ـ ١٦٤٨ م

الفصل الثاني

عالم أوربه الوسطى قبل حرب الثلاثين عاماً

الفصل الثالث

مملكة بوهيميا ورسالة الجلالة

الفصل الرابع

الخلافة الملكية في بوهيميا

عام ١٦١٧ م

الفصل الخامس

كونفدراسيون بوهيميا وحكم فريد يريك الخامس

الفصل السادس

ملك الشتاء والجبل الأبيض

الفصل السابع

نتائج معركة الجبل الأبيض

الفصل الثامن

أحداث الحرب بعد الجبل الأبيض

الفصل التاسع

فرنسا من ١٦١٠ إلى ١٦٦١ م

الفصل العاشر
إنكلترا والأقاليم ـ المتحدة

الفصل الحادي عشر
الحضارة الأوربية
في النصف الأول من القرن السابع عشر

القسم الثاني
دول أوربة القارية
الفصل الأول
دول أوربة القارية في القرن السابع عشر

الفصل الثاني
العالم خارج أوربه

القسم الثالث
أوربه في النصف الثاني من القرن السابع عشر

الفصل الأول
فرنسا لويس الرابع عشر
من ١٦٦١ إلى ١٦٨٥م

الفصل الثاني
لويس الرابع عشر وأوربه
من ١٦٦١ م إلى ١٦٨٨ م

الفصل الثالث

حكم لويس الرابع عشر

من ١٦٨٥ م إلى ١٧١٥ م

المشاكل الداخلية

الفصل الرابع

إنكلترا و الأقاليم ـ المتحدة

في النصف الثاني من القرن السابع عشر

الفصل الخامس
الحضارة الأوربية
في النصف الثاني من القرن السابع عشر

الأشهر في البلاد العربية

كانون الثاني	يناير
شباط	فبراير
آذار	مارس
نيسان	ابريل
أيار	مايو
حزيران	يونيه
تموز	يوليو
آب	أغسطوس
أيلول	سبتمبر
تشرين الأول	أكتوبر
تشرين الثاني	نوفمبر
كانون الأول	ديسمبر

كلمة شكر

الشكر العميق لكل من أسهم في إخراج هذا الكتاب

مسرد المسارد

تم طبع هذا الكتاب بتاريخ ١٩٨٦/٦/٣٠م
عدد النسخ (١٥٠٠)

الموسوعة التاريخية الحديثة

تاريخ العصر الوسيط

من أواخر العصر الروماني إلى القرن الثاني عشر

تاريخ العصر الوسيط

من القرن الثاني عشر إلى عصر النهضة

تاريخ عصر النهضة
تاريخ القرن السابع عشر
تاريخ القرن الثامن عشر
تاريخ النصف الأول من القرن التاسع عشر
تاريخ النصف الثاني من القرن التاسع عشر
تاريخ القرن العشرين

١٩٠٠ ـ ١٩٤٥

التاريخ الدبلوماسي

١٩٤٠ ـ ١٩٥٨

تاريخ عصرنا

منذ ١٩٤٥

قضايا عصرنا

منذ ١٩٤٥

تاريخ الحركات القومية (يقظة القوميات الأوربية)

أربعة أجزاء